أ.د. فاروق عمر فوزي

تجربتي في الكتابة التاريخيّة

" التعامل بشغف مع التاريخ "

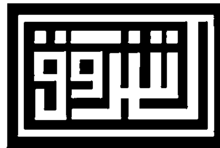


تجربتي في الكتابة التاريخية

"التعامل بشغف مع التاريخ"

الأستاذ الدكتور

فاروق عمر فوزي



2011

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2011/2/481)
■ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف
عن رأي دائرة المكتـــبـــة الوطنيـــة أو أي جـــهـــة حكومـــيـــة أخـــرى

ISBN 978 - 9957 - 00 - 481-1 (ردمك)

● تجربتي في الكتابة التاريخية : التعامل بشغف مع التاريخ - د . فاروق عمر فوزي .
● تأليف : الدكتور فاروق عمر فوزي .
● الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2011 .
● الاخراج الداخلي وتصميم الغلاف : دائرة الإنتاج / دار الشروق للنشر والتوزيع .



دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4618190 / 4618191 / 4624321 فاكس : 4610065
ص.ب : 926463 الرمز البريدي : 11118 عمان - الاردن
Email : shorokjo@nol.com.jo

دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الله - المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الله
هاتف 2975632 - 2991614 - 2975633 فاكس 02/2965319
Email : shorokpr@palnet.com

حين أحرقوا ذاكرتي

"خرجت من بيتها وهي ابنة العشر سنوات، سافرت وتركت كل معالم طفولتها من بيت ومدرسة وأصدقاء ودكان وألعاب، لم تكن عند خروجها لتصدق أن هذه هي المرة الأخيرة التي ترى فيها منزلها، فهو كأي مشوار مهما طال كانت في النهاية تعود لتنام في سريرها، ولكن هذه المرة طال الغياب وبدأت تكبر وتكبر ووقت العودة لم يأت بعد...

فتنقلت مع أسرتها في عدد من الدول العربية، ثم استقرت في الأردن الذي تنفست هواءه وشربت ماءه، حتى صار جزءاً من حياتها، ووجدت من أهله ما أنساها غربتها، فلم يفرقوها عن أنفسهم ولم تفرقهم عن أهلها، ولكن ظلت لديها بذاكرتها صورة تعتزّ بها لوطنها، تلجأ إليها كلما أحست بشوقها إليه أو سألتها صديقاتها عنه، صورة عناصرها نخلة عالية ونهر ذهبي وحضارة بلاد الرافدين...

وتصاعدت الأحداث واضطربت السياسات وتسابقت الفضائيات، لتنقل صورة ذلك النهر، الذي داعبت أناملها وجهه، وقد التهبت صفحته نيراناً وانفجارات، ولتنقل لها تلك النخلة التي طارحت قمم الجبال، وهي تحترق، وتلك المتاحف تنهب وتخرّب، صورة هزّت واقعها وحولت ذاكرتها أشلاء..

لقد حرموها حتى من الذكرى، فأصبحت تبحث عن صورة جديدة لوطنها، فعسى أن تحملها الطرق يوماً ما لتعود في النهاية وتنام في سريرها..."

حنان فاروق فوزي/ سنة رابعة - صيدلة

عمّان - المملكة الأردنية الهاشمية

مرآة الصيدلة - العدد الثاني (نيسان) 2004م

المحتويات

كلمة لابدّ منها

"ما أتى الله أحدًا علمًا إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحد"

حديث شريف

لابد من الإشارة أن الكتاب الذي بين أيدينا فيه ورقات من "السيرة الذاتية"، وورقات من "السيرة العلمية"، لا لشغفي بسيرتي الذاتية أو إعجابي بسيرتي العلمية فالسيرتين اعتياديتين ربما يمر بهما أي فرد وليس فيهما مظاهر للفخر والتباهي. بل لأنني وجدت آن ملامح من كلا السيرتين مهم لتفسير "تجربتي في الكتابة التاريخية". وبمعنى أكثر وضوحًا أن كلا السيرتين وسيلة لتوضيح تجربتي في الكتابة التاريخية التي هي لب الكتاب والغاية منه.

ومما لا شك فيه أن هذا النمط من الكتابة يعتمد على التجربة والمعايشة والمشاهدة. ولم يرتبط مفهوم "السيرة" بالدلالة على تدوين مظاهر النشاط لدى شخص آخر وفق منهج سردي تاريخي إلا قبل نهاية القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي وما بعده، حين بدأ الإخباريون والمؤرخون الأوائل يسجلون سيرة النبي صلى الله عليه وسلّم والخلفاء الراشدين، ثم بعض الخلفاء الأمويين والعباسيين ومن جاء بعدهم من حكام المسلمين وسلاطينهم. وهذا النوع من السيرة هي سيرة "فردية أو غيرية" والتي عرفها عز الدين إسماعيل بأنها الكتابة عن أحد الأشخاص البارزين لجلاء شخصيته، (راجع: الأدب وفنونه).

ولكن هناك نوع ثانٍ من السيرة وهو "السيرة الذاتية" التي تعد تجربة ذاتية لفرد تراكمت حتى نضجت وما لبث أن شكلت نوعًا من القلق في نفس صاحبها لا يجد مناصًا إلا أن يدوّنها. (راجع: إحسان عباس، فن السيرة)، وربما سماها البعض "بالمذكرات".

ولست هنا في معرض الإطالة حول السيرة وأنواعها، إلا أنني أقول بأن لدينا في ثقافتنا العربية- الإسلامية العديد من النماذج عن السير الذاتية والسير الفردية دونها جملة من مفكرينا ومؤرخينا وأدبائنا عبر القرون الإسلامية المتتابعة (راجع:

فاروق عمر فوزي، التدوين التاريخي عند المسلمين). فمن أمثلة السيرة الفردية (الغيرية) ما كتبه ابن إسحاق عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وما كتبه ابن عبد الحكم وابن الجوزي والأجري عن سيرة عمر بن عبد العزيز (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ). وما دوّنه المؤلف المجهول عن سيرة الخليفة العباسي المأمون، وثابت بن سنان عن الخليفة العباسي المعتضد، وعلي بن الحسين عن سيف الدولة الحمداني، والعتبي عن سيرة محمود الغزنوي (التاريخ اليميني) وما كتبه المقرّي التلمساني 1041هـ عن الوزير لسان الدين بن الخطيب وكذلك عن القاضي عياض. وما كتبه النسوي عن سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي، وعز الدين بن شداد عن سيرة الملك الظاهر بيبرس، وابن الجوزي عن المفاخر في أيام الملك الناصر والسخاوي في الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، وتأتي المناقب التي دونت عن الأئمة وفقهاء الأمة ضمن هذا السياق مثل مناقب جعفر الصادق ومالك بن أنس والشافعي وغيرهم.

وهناك نماذج عديدة من السير الذاتية (الشخصية) Autobiography مثل: كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ 584هـ، والمنقذ من الضلال للغزالي 505هـ، وطوق الحمامة لابن حزم 406هـ، ورسائل لسان الدين بن الخطيب، 776هـ، والتبيان لعبد الله بن بلقين (صاحب غرناطة)، وسيرة ابن سينا، ولهفة الكبد في نصيحة الولد لابن الجوزي، ونصيحة النفس لابن عربي، والبرق الشامي للعماد الكاتب الأصبهاني، ومذكرات المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي الإسماعيلي وغيرها.

ثم أن ما يكتبه المؤلف عن نفسه ضمن كتابه الذي ألّفه يُعد سيرة ذاتية (شخصية) مثلما ما فعل ياقوت الحموي في معجم البلدان، ولسان الدين بن الخطيب في الإحاطة بأخبار غرناطة، وعبد الرحمن بن خلدون في العبر، وابن حجر العسقلاني في كتابه رفع الأصر عن قضاء مصر.

وقد يجمع المؤلف سيرته الذاتية بالسيرة الفردية (الغيرية) التي دونها لشخص آخر، مثلما فعل بهاء الدين بن شداد في النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، والقاضي الفاضل في رسائله، والعماد الكاتب الأصبهاني في الفتح القسي في الفتح القدسي، وأبو بكر الصنهاجي في أخبار أمير الموحدين المهدي بن تومرت. وقد تدخل "السير العُمانية" في هذا الإطار لأنها تجمع بين السيرتين رغم اختصارها الواضح.

وقد استمرت السير بنوعيها في عصرنا الحاضر، ونلاحظ نماذج متميزة منها ما كتبه عباس العقّاد في كتابه الموسوم "أنا"، وما دونه طه حسين في "الأيام"، وأحمد أمين في "حياتي" وسلامة موسى في "تربية سلامة موسى". وجلال أمين في "ماذا علمتني الحياة" بل إن العديد من المفكرين والمؤرخين والساسة والقادة العسكريين يدونون مذكراتهم ويودعونها خلاصة خبراتهم وتجاربهم. ولا شك فإن مثل هذه المذكرات تحتاج في تدوينها إلى كثير من الشجاعة بحيث لا تتستر على بعض المواقف والعلاقات، كما وأنها تحتاج إلى ذاكرة قوية وموقفًا موضوعيًا من المؤلف. وتدخل ضمن السير والمذكرات رحلات الرحالة المسلمين المشارقة والمغاربة أمثال ابن جبير 614هـ وابن بطوطة 770هـ وناصري خسرو علوي 481هـ وعبد اللطيف البغدادي (ق7هـ)، في الإفادة والاعتبار.

ولابد من الإشارة كذلك أن المفروض في الكاتب والباحث المفكر أن يكون صريحًا جريئًا يقتحم على الناس بآرائه ولا يبالي من رضي ممن سخط منهم، الذين لا يروق لهم أن يرون كلامه مطبوعًا (راجع: إبراهيم المازني، حصاد الهشيم)، فهو والحالة هذه عالم حقيقي يضع أمام الناس نتائج علمه وثمار بحثه، فيفيد الأمة مع محافظته على كرامة العلِم (أمين الريحاني، مقالة الكتّاب). والعالم لا ينسى بعد هذا وقبله حديث الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الله أخذ على العالم ميثاقًا ألا يكتم علمه عن الناس.

وعود على بدء فلابد أن أتفق مع إحسان عباس بأن ما أقدمه في هذا الكتاب هو تجربة ذاتية تراكمت حتى نضجت أو كادت فشكلّت نوعًا من القلق في نفسي لم أجد مناصًا إلا أن أدونها. فما مصير كل هذا الذي سوّدت به الورق وشغلتُ المطابع؟ هل كما يقول إبراهيم المازني "سيفنى ويطوى بلا مراء"، مصداقًا لقوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً، وإنا لجاعلون ما عليها صعيدًا جرزًا(صدق الله العظيم). ومهما يكن من أمر فإن العلماء والمفكرين يقرأون الكتب ويؤلفونها وهي غذاء الروح التي أعزّها الله تعالى ورفعها فوق الجسد، وهل هناك أفضل من الكتب وخاصة تلك التي تتعلق بالدين والتاريخ والتراث.

المقدمة

مؤرخ ... وتاريخ

وكأن لم يرض فينا بريب الدهر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناةً ركّب المرء في القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وإن نتفانى

أبو الطيب المتنبي

"يخيّل إليّ أن على الشعوب أن تتمنى على الله بعد اليوم أن يرزقها رؤساء لا يحلمون بتحقيق الأمجاد بل يكون همهم أن يجنّبوها المصائب".

أندريه موروا

"لكل شيء آفة، وآفة العِلم نسيانه".

عثمان بن عفان (رضي الله عنه)

"الإبداع يولد من رحم المعاناة"

قول مأثور

أمّا المؤرخ فهو الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، وأما التاريخ فهو تاريخ الأمة الذي احترق بعد أن تكاتف الأقرباء والغرباء على حرقه. والذي احترف د. فاروق صناعة الكتابة بموضوعاته وتميّز فيها بحيث لفت أنظار المهتمين. والمناسبة التي يظهر فيها هذا الكتاب هي احتفال المؤلف بمرور أربعين سنة على احترافه ميدان الكتابة التاريخية، حيث مرَّ على تخرجه من قسم التاريخ، جامعة بغداد، حزيران 1959م، وتخرجه بدرجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة ليدن سنة 1967م أكثر من أربعة عقود.

إنّ نسبة ليست قليلة من حملة الدكتوراه في التاريخ لم ينشروا إلا بحوثاً قليلة. فإذا استثنينا رسائلهم للدكتوراه فإن ما يقومون به من بحوث يكفي للترقية العلمية فقط، التي تكون عادة هي الدافع للبحث العلمي. إنّ هؤلاء الجامعيين يعملون من أجل الحصول على درجة الدكتوراه لا لميلهم لأن يصبحوا باحثين في مجال اختصاصهم ولكن لأنهم يدركون أن من الأفضل اجتماعياً أن يحصلوا على مكان في السلك الجامعي لما لهذا المنصب من بريق أو شهرة رغم ما هو معلوم من عدم كفاية ما يعود على العاملين فيه من كسب مادي إذا ما قورن بالعاملين في المجالات الأخرى.

إن الكسب المادي ليس هدفاً مشتركاً لكل العاملين في المجتمع، وهو بالتأكيد ليس هدفاً للعاملين في الجامعة، فالأستاذ المحب لعمله يجد متعة في إلقاء المحاضرة وفي تبادل الآراء مع طلبته وفيما يشاهده من تطور ونمو تدريجي في تفكيره وتفكيرهم. يضاف إلى ذلك ما يجده الأستاذ عادة من حرية في تنظيم وقته وبرمجة حياته أكثر من غيره. وفوق هذا فإن الأستاذ إذا كان باحثاً متمرساً يجد متعة كبيرة فيما يتمخض عنه البحث العلمي من أفكار ونتائج قد يكون بعضها أصيلاً. إن هذه المتعة لا يشعر بها إلا الباحث المتميز الذي يُسعد بما يتوصل إليه من إضافات جديدة في ميدان اختصاصه، وهو بذلك يجد الحياة في عالم الفكر مثيرة ومتجددة بحيث لا يستطيع الانفصام عنها. وهنا يصدق عليه قول القائل: "إن العِلم لا يعطيك بعضه ما لم تعطه كلّك".

من ذلك ندرك بأن التدريس والبحث العلمي يشكلاّن المسؤولية الرئيسة للأستاذ الجامعي إزاء الكلية التي يعمل فيها، إلا أنّ الواقع يدل على أن نسبة ضئيلة من الجامعيين يمكنهم التوفيق بين هاتين المسؤوليتين: التدريس والبحث، حيث أن معظم الأساتذة الجامعيين مرهقين بالأعباء التدريسية وما يلحق بها من خدمات ومسؤوليات تجاه الطلبة والمجتمع الجامعي؛ بحيث لا يجدوا الوقت الكافي أو الجهد المتبقي للقيام بالبحث العلمي. هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً من أن بعضهم ليس لديه الرغبة أو الدافع أو الموهبة للبحث العلمي.

يتبوأ د. فاروق عمر فوزي مركزاً مرموقاً ضمن أولئك الذين يستطيعون أن يحققوا توازناً بين التدريس والبحث العلمي. والمسألة بحد ذاتها ليست سهلة وتحتاج إلى قدر من الإرادة والتصميم، كما وأنه ممن يعتقدون بأن البحث العلمي – وليس

الشهادة أو المرتبة - أقوى برهان على إنجازات الأستاذ الجامعي وأكثر المسوّغات قبولاً لاعتباره أستاذاً متميزاً في مجال اختصاصه الدقيق. هذا بالإضافة إلى ما للبحث العلمي من مردود على شخصية الباحث بنفسه حيث يزيد من احترامه لذاته وثقته لنفسه واحترام الآخرين له، كما وأنه يساعد على تنشيط العقل ونموه ويرفع الباحث - في الجامعات المرموقة - درجات في السلم الجامعي والامتيازات في المجتمعات التي تقدّر مثل هذه الأمور.

إنّ الأستاذ الجامعي الناجح هو الذي يتمتع بقدرة وفاعلية على تنظيم وقته وتوزيع طاقاته بحكمة بين التدريس وإلقاء المحاضرات العامة داخل الجامعة وخارجها (خدمة المجتمع) وبين البحث العلمي بحيث لا تطغى كفة على أخرى، وقد كتب أحد النقّاد في مقابلة أجراها مع الدكتور فاروق قائلاً:

"ثلاث صفات جمعت حياة الدكتور فاروق العلمية: الأولى في أنه محاضر من الطراز الأول، وقد استطاع إيصال معلوماته إلى تلاميذه في الجامعة فجلب احترامهم وكسب انتباههم. والثانية في أنه مؤلف ناجح، بمعنى أن ما يكتبه يجلب الانتباه لكونه يحوي أصالة وإضافة جديدة أو تفسير جديد للمعرفة، والثالثة: في أنه المؤرخ الذي أعاد تقويم الثورة العباسية وما تلاها من أحداث العصر العباسي الأول، ونفى بالبراهين الصفة اللاعروبية عن تلك الثورة الجبارة وعصرها، تلك الصفة التي شاعت في الاستشراق الأوروبي ورددها مؤرخونا العرب حتى منتصف القرن العشرين، وميزة أخرى في الدكتور فاروق: الضبط والدقة والنظام ولولاها لما استطاع في فترة قصيرة أن يُؤلف (30) كتاباً و(40) بحثاً، وكل كتبه تدور في حضارة العرب وتاريخهم وعلاقاتهم مع الشعوب الأخرى، وبعضها ينشر مرات، وبعضها يوزع خارج العراق، وأكثرها كتب بأسلوب الجمهور المثقف وغالبيته من جمهور الجامعات العربية..". [1]

وفي حديث للدكتور هشام جعيط: "عدّ الدكتور فاروق واحداً من ثلاثة مؤرخين "تعتبر كتابتهم هي تقريباً الوحيدة في كل النتاج العربي في ميدان العلوم الإنسانية المعترف بها عالمياً كبحوث جدّية مسيطر على مادتها.. فلا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أجلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب". [2]

كما ظهر اسم الدكتور فاروق في الجزء 14 من (القاموس الدولي للتراجم) [3] D.I.B. [4] للخدمات المتميزة التي قدّمها للمجتمع For Distinguished Service to the Community . إنّ ما حصل عليه الدكتور فاروق من تقدير واعتراف لم يكن إلا لكونه مؤرخاً دؤوباً متابعاً للنشاط العلمي في مجال اختصاصه وهو، كما تظهره آراء الناقدين وشهادات المؤسسات الثقافية يحتل مكانة مرموقة بين أقرانه الأكاديميين. وكتبه العديدة مرايا تعكس نشاطه المتواصل، وسجل يوثّق الجهود التي بذلها، وما من باحث منصف إطلع عليها إلاّ وثبّت تقديره لها، لما امتازت به من دقة وموضوعية في المنهجية والمعلوماتية سواء اتفق مع تفاسيرها أم لم يتفق، وذلك لأن فيها الكثير من الحرص والصدق في النيّة والدقة في التشخيص.

لقد أُنتقد الدكتور فاروق من قبل بعض زملائه الأكاديميين بأنه نقل التاريخ من "المعرفة الأكاديمية" التي تدرس في أروقة الجامعات إلى "ثقافة جماهيرية" يستفيد منها ويستوعبها المثقف العام وذلك من خلال مقالاته العديدة التي نشرها في عدد من الدوريات والصحف، وكذلك محاضراته في ندوات خارج الجامعة، ولعمري أن عدم اكتفاء الدكتور فاروق على التدريس والبحث العلمي الصرف داخل أروقة الجامعة، وخروجه بأفكاره إلى الرأي العام في المجتمع ميزة وليست عيباً.. فقد سبق إلى ذلك رواد الفكر العربي الحديث من الجيل السابق الذين لم يرتضوا وقف أفكارهم على فئة متخصصة بعينها فكان لهم دورهم في دفع عجلة الثقافة العربية المعاصرة إلى أمام، وليس الدكتور فاروق إلا واحداً ممن حاول ونجح في اقتفاء مسيرتهم.

وأخيراً لابد من الإشارة إلى أن سير الأشخاص جزء مهم من عملية التوثيق التاريخي لأنه ظاهرة سواء كانت فكرية أو اجتماعية أو سياسية أو غيرها، ومن هنا كانت سير المؤرخين وتراجمهم حلقة أساسية في عملية تأريخ الفكر العربي خصوصاً والحركة الثقافية عموماً.

لقد تناول المبحث الأول من هذا الكتاب نبذة مختصرة عن السيرة العلمية وملامح من السيرة الشخصية، أما المبحث الثاني فقد ناقش مسألة التدريب على المنهجية العلمية في كتابة التاريخ وأهميته في تكوين المؤرخ المفكر. أما المبحث الثالث فعالج نماذج لمساجلات تاريخية عمل د. فاروق على طرحها على الساحة الثقافية، لتجد لها ردود فعل متباينة، وردود الفعل هذه هي ما تناوله المبحث الرابع.

أما المبحث الخامس فقد تناول عدداً من الحوارات مع مراسلين مسئولين عن الصفحات الثقافية في مجلات وجرائد متنوعة داخل العراق وخارجه.. وتطرق المبحث السادس إلى رحلات قام بها د. فاروق سواء كانت إعارة للخدمات إلى جامعات أخرى أو تفرغ علمي أو تعاقد حتى استقربه المقام في الوقت الحاضر بسلطنة عُمان، وهذا ما عالجه الفصل السابع والأخير الموسوم "قصتي مع تاريخ عُمان".

ويضم الكتاب خاتمة ونبذة عن السيرة العلمية C.V ومراجع عن سيرة المؤلف، كما رأى المؤلف أن يختار مقدمات لبعض الكتب التي ألفها عبر سيرته العلمية لما تعبر عنه من أفكار وطروحات راودت المؤلف أثناء تأليفه للكتاب، وأخيراً وليس آخراً يضم الكتاب في ملاحقه عدداً من الوثائق الرسمية وقصاصات الجرائد الخاصة بسيرته العلمية.

الناشر

الهوامش:

(1) جريدة القادسية 1987/8/16م (ذاكرة جيل)... حوار، ص4، بغداد، العراق.

(2) مجلة الوطن العربي، عدد 398، 1984م، ص68-69، بيروت، لبنان.

الفصل الأول

نبذة عن السيرة العلمية وملامح من السيرة الشخصية

قال شاعر عراقي من العصر العباسي يتحسر على ما أصاب بغداد من كوارث:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين؟ ... ألم تكوني زماناً قرّة العين؟
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربهم زيناً مع الزين؟
أستودع الله قوماً ما ذكرتهمُ ... إلا تحدر ماء العين من عيني
كانوا ففرقّهم دهر وصدّعهم ... والدهر يصدع ما بين الفريقين

"Good Friends, good books and a sleepy conscience. This in the ideal Life"

Mark Twain

الفصل الأول

نبذة عن السيرة العلمية وملامح من السيرة الشخصية

ولد الدكتور فاروق في مدينة الموصل (أم الربيعين) في السادس من حزيران 1938م، ونشأ في أسرة يعمل أكثر أفرادها في السلك العسكري، فقد كان والده ضابطاً، وكذلك كان جدّه من أبيه وجدّه من أمه وأعمامه وخاله ضباطًا في الجيش العراقي الباسل.

نشأ الدكتور فاروق وترعرع في أسرة محافظة من الطبقة المتوسطة اجتماعياً.. ولا شك فإنّ العسكرية أثرت على تقاليد الأسرة وموقعها الاجتماعي في بيئة الموصل المحافظة، وبالتالي فقد أثرت عليه، فثقافته الأولى - خارج المدرسة - كانت تتعلق بكل ما له علاقة بالجيش وسيرة القادة العسكريين من العرب المسلمين ومذكرات العديد من القادة الأجانب الذين برزوا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية... متخذاً من كتب والده والتي تضم (المجلة العسكرية العراقية) والعديد من الكتب التي تصدرها وزارة الدفاع العراقية خير ملجأ لقضاء أوقات الفراغ... إنّ هذه الظروف جعلت الحياة العسكرية محببة لديه ولهذا كانت الكلية العسكرية العراقية أول كلية فكّر بطلب الالتحاق إليها بعد تخرجه من الثانوية لولا أن بعض أساتذته ألحوا عليه بالتقديم إلى البعثة الخارجية لكونه الأول في دفعته على الفرع الأدبي في الموصل.

ولعل مكتبة والده العسكرية وما فيها من كتب تاريخية وكذلك القصص والتجارب التي كان يرويها للأسرة عن حركات الجيش العراقي وتاريخه ودوره كانت ذات أثر في توجيه تطلعاته منذ وقت مبكر نحو التاريخ. وقد لاحظ ذلك أحد النقّاد حيث علّق على أسلوب الدكتور فاروق بقوله: "يكتب التاريخ بلغة عسكرية"!!. كما ويلاحظ القارئ لأبحاثه عن الجيش والنظم العسكرية أنها مكتوبة بحرص وشغف كبيرين مما يدل على استمرار تعلقه بالحياة العسكرية وتقاليدها ومثلها والتي كان يتوق الانخراط فيها. ولكن فاروق تعلّم من والده أكثر من ذلك فقد غرس فيه قِيَمًا من الحرص والجدية والإخلاص للمهنة وغيرها؛ حيث يمكن تلخيصها بالنزاهة.

وبلغ احترافه للعسكرية درجة أنه كان لا يرى تدخل الجيش في السياسة على عكس جدي وعمي اللذيْن شاركا في السياسة.

وكان لوالدته شأنًا كبيرًا في صقل شخصيته خاصة وأنه كان الابن البكر فهي أم متعلمة لها شخصية نافذة وقد حملت على عاتقها أعباء الأسرة ومستلزماتها اليومية خاصة وأن رب الأسرة كان ضابطاً مشغولاً بالأمور العسكرية الكثيرة والمتتابعة. وكان د. فاروق الابن الأكبر لعائلة تضم فتاتين وأربعة أولاد. وكان من حسن حظه التقائه عن كثب بجدّه مِن أمّه الذي كان من مخضرمي العهدين العثماني والوطني، ولذلك فهو يُعد سجلاً حافلاً لحقبة مهمة من تاريخ العراق الحديث، وله في هذا المجال آراء وتفسيرات عديدة خاصة، وأنه شارك بصورة مباشرة في أحداث سياسية مهمة واكتوى بنتائجها. يقول د. فاروق أنه اطلع ولأول مرة حين كان في مرحلتي الثانوية والكلية على كتب قومية وسياسية في مكتبة جدّه مثل: (تاريخ الأمة العربية) للأستاذ درويش المقدادي الذي طبع طبعة ثالثة في بغداد 1932م، وكتب الأستاذ ساطع الحصري وعبد الرحمن الكواكبي وجورج أنطونيوس (يقظة العرب)، وكتب أخرى من سلسلة مشاهير العرب، وسلسلة إقرأ وغيرها.

كانت ولادة د. فاروق في محلة باب لكش بالموصل، وحين بدأ يعي ما حوله أدرك أن لدى أسرة والده مجموعة من المساكن المتجاورة في تلك المحلة يقيم فيها الأقارب جنباً إلى جنب. ولكنّ والده ما لبث أن بدأ ينتقل من وحدة عسكرية إلى أخرى، وكان فاروق ينتقل معه من مدينة إلى أخرى بمعية أسرته. وكان أول عهد فاروق بالمدرسة والتعليم في بغداد حيث أدخل (مدرسة الأعظمية الثانية) للأطفال 1943م وهو في سن الخامسة من عمره. وبما أن والده لم يكن في بغداد بل في قيادة الفرقة الأولى في الديوانية، فقد اعتمد منذ الوهلة الأولى على نفسه في الذهاب والإياب؛ حيث كان يذهب مع أطفال المحلة إلى المدرسة يومياً ولديه من الذكريات عن هذه المرحلة الكثير يصدق عليها قول عمارة:

أعاينتَ في طول من الأرض والعرض ... كبغداد دارًا؟ إنها جنة الأرض
صفا العيش في بغدد واخضر عوده ... وعيش سواها غير صافٍ ولا غض
تطول بها الأعمار إن غذاءها ... مريٌّ وبعض الأرض امرأ من بعض

ولم يدم الأمر طويلاً على هذا الحال حيث نُقل والده مرة أخرى إلى الموصل بعد ترقيته إلى رتبة مقدم، وهنا التحق فاروق في الصف الثالث الابتدائي في (مدرسة الوطن الابتدائية للبنين) سنة 1946م، ويذكر عن هذه المرحلة مدى شعوره بالاطمئنان والراحة النفسية، فقد أحب المدرسة وأحبَّ التلاميذ من أهل الموصل، ولا شك فإن شعور الأسرة بالطمأنينة في بيئة الموصل حيث الأقارب، كان له أثره في ذلك الاستقرار، وفوق هذا فإن هذه المدينة هي مسقط رأسه وهي بطبيعتها مدينة جميلة خلابة تتمتع بمناخ لطيف يحفز النشاط ويبعث الحركة، ولا عجب فالموصل تجمع بين السهل والجبل وبين الماء والخضرة فقد قال عنها ياقوت في معجه:

"الموصل المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النضير كبراً وعظماً كثيرة الخلق واسعة الرقعة وهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان فهي باب العراق..." وقيل عنها: أن الغريب إذا أقام بالموصل سنة تبين في بدنه فضل وقوة، وما يعلم لذلك سبب إلا صحة هواء الموصل وعذوبة مائها، قال الشاعر:

وبصرة الأزد منّا والعراق لنا ... والموصلان ومنا الحل والحرم

ويستطرد صاحب السيرة متحدثاً عن ذكرياته في مراحل تعليمه الابتدائي والثانوي والجامعي فيقول:

لقد كانت مدرسة (الوطن الابتدائية) بالموصل المكان الذي شعرتُ فيه لأول مرة بولعي في العلوم الاجتماعية بصفة خاصة، وحبي لموضوعاتها، ولعل السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى معلم مادة التاريخ الذي درست عليه في الصفين الخامس والسادس الابتدائي وهو (الحاج عزيز) الذي أُكنُّ له كل محبة وتقدير، فقد كان مثال المعلم المخلص والحريص في أداء واجبه، ولعله أول شخص اكتشف رغبتي إلى دراسة التاريخ وحاول أن يشجعها ويصقلها سواء كان بالثناء أو بالهدايا البسيطة بمناسبة حصولي مثلاً على أعلى درجة في الصف في مادة التاريخ!!

وقد دفعني ذلك أكثر إلى حب مادة التاريخ والولع بدروسها.

وفي (متوسطة المثنى للبنين) بالموصل قضيتُ سنوات الدراسة الإعدادية (1950-1953م)، وقد نالني من تشجيع المدرسين، ما نالني في المدرسة الابتدائية،

وقد سعدتُ في هذه المرحلة بدراستي على مدرسين بارزين أذكر منهم: الأستاذ المرحوم شاذل طاقة مدرس مادة اللغة العربية الذي اهتم بي ورعاني ووجهني التوجيه الصحيح وكانت هديته لي كتابه المنهجي (تاريخ الأدب العربي)، وكذلك نشرة تضم مجموعة من قصائده وهي أول هدية أتلقاها في الكتب الثقافية... تبعتها هدية الأستاذ محمود على الداود مدرس مادة التاريخ، وكانت كتاب (فلسطين والتقرير الإنجليزي الأمريكي) للدكتور زكي صالح أستاذ التاريخ الحديث بجامعة بغداد.

وقد يسّر الله سبحانه وتعالى لتدريسي خلال هذه المرحلة، الدراسة المتوسطة (الإعدادية)، مجموعة من الأستاذة المتميزين ذكرت منهم اثنين: هما الأستاذ الداود والأستاذ شاذل طاقة وأشير إلى آخرين مثل الأستاذ ياسين عبد الكريم، والأستاذ وفيق الخشاب... لقد تخرج هؤلاء من الكلية ودرسّوا لسنوات قليلة في المدارس الثانوية ثم التحقوا بالبعثة العلمية لمواصلة تحصيلهم العلمي. ومن غريب الصدف أن ألتقي ببعضهم مرة أخرى وعلى مقاعد الدراسة في الكلية. فحينما عادوا بعد حصولهم على الدكتوراه كنت أنا قد التحقت بالجامعة فدرست على أيديهم ثانية في الكلية!!

أما الأستاذ شاذل طاقة فقد درستُ على يديه في المرحلة المتوسطة ثم درسني ثانية في المرحلة الثانوية موضوع اللغة العربية... وكان لرعايته وتشجيعه الأثر الكبير على استمراري في حقل الإنسانيات، وأذكر في الصف الرابع الثانوي أنني احتجتُ لكي أعفى من جميع الدروس درجتين فسألني أمام الصف، كم ينقصك؟ فأجبته. فقال: أنا أضيفها إلى درجة اللغة العربية لأنك تستحق الإعفاء من الامتحان!!

إن هذه الظروف المحفزة التي هيأتها بيئة الموصل المناخية والثقافية بالإضافة إلى وجود مدرسين حريصين على رعاية التلميذ والأخذ بيده من أجل تطوير موهبته هي التي ساعدتني كثيراً على تحسين أدائي، وأذكر أنني وزملائي بدأنا نكتب التقارير المدرسية منذ المرحلة المتوسطة، ونقرأ الكتب التي كنا نستعيرها من (المكتبة العامة) في الموصل. ولا أزال أذكر الموقع الجديد الذي بنى خصيصاً لها في أحسن ساحة من المدينة قرب حديقة الشهداء ودار الضباط حيث تنشرح النفس ويتوق العقل للمطالعة والكتابة. وأذكر أن أول تقرير كتبته ونال تقدير أستاذي هو عن

(مركز المرأة في المجتمع). ولا أزال أذكر أهم المصادر التي قرأتها في المكتبة حول هذا الموضوع، ومن أبرزها كتاب محمد جميل بيهم (المرأة في حضارة العرب) وكتاب (أعلام النساء) لعمر رضا كحالة.

تخرجتُ في (ثانوية) الموصل للبنين سنة 1954م/1955م، وكنتُ الأول على الفرع الأدبي في الموصل، ومع أن رغبتي كما أشرت كانت الالتحاق بالكلية العسكرية جرياً على تقاليد العائلة.. إلا أن حصولي على معدل عالي في الامتحان الوزاري (الثانوية العامة) أهلني للالتحاق بالبعثة العلمية خارج الوطن، وهذا ما ألح عليه عدد من أساتذتي على رأسهم الأستاذ شاذل طاقة. وهذا الأمر أدى إلى صراع في نفسي بين تحقيق مطالب أهلي الذين يرغبون ببقائي بينهم حيث لم يحن الوقت بعد للغربة خارج الوطن، وبين مطالب أساتذتي الذين شجعوني على اتخاذ قرار جريء للالتحاق بالبعثة وانتهت الأمور بالتحاقي بجامعة بغداد، وأن يتم تأجيل البعثة إلى الخارج بعد تخرجي من الجامعة.

دخلتُ دار المعلمين العالية (كلية التربية فيما بعد) قسم العلوم الاجتماعية- فرع التاريخ، وكانت هذه الكلية تختار الطلبة ذوي المعدلات العالية ويتم تعينهم مدرسين بعد تخرجهم مباشرة، وقضيتُ فيها أربع سنوات من عمري، ونتيجة التحاقي بدار المعلمين العالية (كلية التربية) ببغداد تغربت عن أهلي وعن مدينتي وذكرياتي، ولكني اختلطت مع زملاء في محافظات عديدة نتج عنه اكتساب زملاء عديدين وقيام علاقات مع بعضهم، ورغم أن الأيام قد باعدت بيني وبينهم إلا أنني لا أزال أحتفظ بصور تذكارية لبعضهم أتطلع إليها بين الحين والآخر حين أحسُّ بوحشة أو ضيق فتخفف عني أعباء الحاضر ومسؤولياته وهموم المستقبل وتطلعاته.

ثم أن الدراسة في الجامعة وما فيها من نضج فكري يطرح في المحاضرات التي يلقيها أساتذة متخصصون وما يطلبونه من تقارير وقراءات في كتب عديدة بعضها باللغة الإنجليزية وضرورة الإطلاع على الأبحاث في الدوريات ودوائر المعارف... كل ذلك كان له أثره في تكوين فكري واتساع أفقي.

واذكر أنني وبعد قبولي في فرع التاريخ وبالنظر للزيادة الحاصلة في عدد طلبة التاريخ حيث كان موضوع التاريخ من الموضوعات المرغوبة تقرر نقلي إلى قسم اللغة الإنجليزية لأن معدلي في الإنكليزية كان عالياً، فانتقلت إلى القسم الجديد على مضض ولكن وجداني وفكري ظل متصلاً بالتاريخ، فراجعت العمادة وأصريتُ على

عودتي لقسم التاريخ لأنني أول المقبولين فيه، وتجاه إصراري على طلبي المشروع وتدخل الأستاذ الدكتور صالح أحمد العلي، تقرر عودتي إلى قواعدي في قسم التاريخ !!

والواقع أن مما زاد في إصراري على العودة إلى قسم التاريخ أنني حضرتُ خلال هذه الفترة درساً في النحو في قسم اللغة العربية، وكان الطلبة يحاولون إعراب جملة فقال أحدهم: مبتدأ وقال الآخر: خبر، فكان جواب الأستاذ: يجوز الوجهان!! وهكذا تيقنت أن كل الحقائق نسبية ومن الأفضل لي أن أعود إلى موضوعي الذي أُحب ألا وهو التاريخ ولم يؤثر عليّ قول الرصافي:

وما كتبُ التاريخ في كل ما روت لقرّائها إلا حديث ملفّق

نظرنا لأمر الحاضرين فرابنا فكيف بأمر الغابرين نصدّق

وفي قسم التاريخ تتلمذت على يد مجموعة من أساتذة التاريخ المتميزين أذكر منهم: الدكتور زكي صالح (أستاذ التاريخ الحديث) والأستاذ الدكتور محمد الهاشمي (أستاذ التاريخ الإسلامي)، والدكتور فاضل حسين (أستاذ تاريخ الشرق الأدنى الحديث)، والأستاذ الدكتور محمد محمد صالح (أستاذ تاريخ أوروبا الحديث)، والدكتور عبد القادر أحمد اليوسف (أستاذ العصور الوسطى الأوروبية)، أما الدكتور محمود علي الداود والدكتور ياسين عبد الكريم فكانا من أساتذتي في المرحلة الثانوية والجامعية.

لقد كان بعض هؤلاء الأساتذة مثل عبد القادر اليوسف وزكي صالح في الأوائل الذين وجّهونا نحو قراءة الكتب والموسوعات باللغات الأجنبية (الإنكليزية) فقد كان ملزماً علينا الإطلاع على بعض المصادر باللغة الإنكليزية عند كتابة التقارير والتحضير لبعض الموضوعات، ورغم صعوبة ذلك في حينه إلا أنني أدركتُ أهميته حين سافرتُ لمتابعة الدراسة والتحصيل في الخارج، فقد كانت معرفتي باللغة وبمصادر التاريخ الأجنبية لا بأس بها وذلك بفضل توجيههم.

لقد كنتُ الأول على دفعتي في قسم التاريخ، كما كنت أحد الطلاب المسجلين على لوحة الشرف في الكلية في (قسم الشرف) حيث كان يتم اختيار الطلبة الذين يتجاوز معدلهم 85% لقسم الشرف في السنتين الثالثة والرابعة وكنّا أربعة طلاب من قسم التاريخ. وقدر لثلاثة منا أن يستمروا في دراستهم وأن يحصلوا على درجة الدكتوراه والأخران هما الدكتور عرفان عبد الحميد، والدكتور كمال مظهر.

وهناك عدد من الأسماء البارزة في حقول العلم والمعرفة، كانوا ضمن الدفعة التي تخرجتُ فيها 1958م-1959م أذكر منهم:

- حميد مخلف الهيتي الذي كان بمرتبة الشرف في قسم اللغة العربية، وغدا عميداً لآداب المستنصرية.
- محسن عبد الحميد أحمد من الأساتذة البارزين في قسم اللغة العربية بكلية التربية- جامعة بغداد.
- وفي حقل الدراسات التاريخية كانت دفعتنا متميزة؛ حيث واصل عدد من الزملاء تحصيلهم العلمي وحصلوا على درجة على الدكتوراه أذكر منهم: فاروق صالح، ومحمد حسين الزبيدي وزميلي في الدراسة منذ الطفولة وفي الجامعة وحتى الآن الدكتور أحمد الحسو.

واذكر أن الكلية أهدت للأوائل في كل قسم مبلغاً نقدياً قدره 12 ديناراً عراقياً، وكم تأسفتُ في حينه أن تكون الهدية نقدية لأنها ستصرف لا محالة ولا يبقى منها شيء، بينما لو كانت عينية تذكارية لبقيتْ تذكرني بمناسبة عزيزة على نفسي.

بعد تخرجي من (كلية التربية) قسم التاريخ تعينت في دار المعلمين الابتدائية في (بعقوبة) محافظة ديالى حيث كان - باعتبار الأول على دفعتي - بإمكاني أن أختار المكان الذي أرغب باستثناء بغداد. ولهذا فضّلت بعقوبة القريبة من بغداد حيث انتقل أهلي إلى بغداد من الموصل لأنّ أخواتي أنهين في وقتها المرحلة الثانوية ورغبن إلى إكمال تعليمهم في الجامعة ببغداد إذ لم يكن آنذاك جامعة في الموصل.

لقد كانت الظروف في أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات سنوات صعبة سياسياً ولهذا كنتُ أترقب البعثات المخصصة لدراسة التاريخ، وقد سنحت لي بعثة سنة 1961م وتقدمت لها وكنتُ واثقاً من الحصول عليها، ولكن اللجنة اختارت مرشحاً آخر مبررة ذلك بأنّ له خدمة أكثر حيث لم يكن لدي إلا سنة واحدة أو أكثر قليلاً خدمة في التعليم!!

وقد اعترضتُ على ذلك بمذكرة قدمتها إلى (مديرية الشؤون الفنية العامة) حيث كانت البعثات تابعة لها، وإن كنت أذكر شيئاً فإنني أذكر بالعرفان والشكر الجميل أسبغه والدي (رحمه الله) عليَّ حيث أخذ يسعى بالمذكرة ويتابع تطوراتها ويقدم لي "تقريراً أسبوعياً" عن ذلك حين أعود من (بعقوبة) في نهاية الأسبوع...

ولم يصاب والدي بالملل حتى منَّ الله تعالى على صبري وعلى تعبه بأن وضعت (احتياط أول). وحدث أنَّ طالب البعثة السابق عاد إلى الوطن بعد أقل من ستة أشهر على سفره بسبب مرضه، وهكذا رشّحت للبعثة باعتباري احتياطًا أولاً لها. لقد حصلت على البعثة بفضل جهود والدي ومتابعته، وكان والدي قد أبدى استعداده لبيع دار له في الموصل لكي يرسلني على حسابه الخاص بعد أن لاحظ تأثري في المرة الأولى لعدم حصولي على البعثة. جزاه الله عنّي خير الجزاء وأسكنه فسيح جناته فقد كان حريصاً جداً لتحقيق تطلعاتي وطموحاتي.

بعد أن قضيت حوالي سنتين في العمل مدرساً بالمدارس الثانوية سافرت إلى إنكلترا في أواخر أيلول من سنة 1961م؛ حيث قبلت في (مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية) بجامعة لندن لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، ورغم أنني كنتُ أفضل بعثة مخصصة لدراسة التاريخ الحديث الذي كنتُ مولع به أكثر من الفروع الأخرى.. ولكن مديرية البعثات لم تعلن في تلك السنة ولا في السنة التي سبقتها عن بعثات مخصصة لدراسة التاريخ الحديث.. وكان هناك زمالات دراسية إلى دول أوروبا الشرقية لم أغرب في حينه بالتقدم إليها لكثرة الشائعات حول ضعف مستوى الدراسة في تلك الدول.

وكانت السنة الأولى أثناء دراستي بجامعة لندن شاقة من جميع النواحي، ففي المجال العلمي كان عليّ أن أبدأ من جديد من حيث الطريقة والمنهج والمادة رغم حصولي على المركز الأول على دفعتي بجامعة بغداد، وكنت فخوراً بذلك. ومن الناحية الاجتماعية فرض عليَّ إقامة نوع من الانسجام مع متطلبات الحياة الجديدة وتقاليد المجتمع. وكان عليّ أن أتعلّم اللغة الإنجليزية وأتقنها بدرجة توائم متطلبات الدراسة العليا بالتاريخ. على أن خالتي نجاة التي سبقتني إلى بريطانيا لدراسة فيزياء النفط في جامعة كارديف لعبت دورًا في التخفيف من أثر الغربة لديَّ. رحمها الله.

ومع ذلك فإن رسوخ الإيمان والطموح أدى إلى تحطيم العقبات، فقد يسر الله تعالى الأمور وتمكنت من اجتياز امتحان الكفاءة (باللغة الإنجليزية) وامتحان (الكفاءة العلمية) qualifying exam حيث طولبت بأداء امتحان في عدد من المقررات التاريخية، مما اضطرني إلى الجلوس ثانية مع طلبة البكالوريوس الإنكليز في الجامعة وتلقي المحاضرات في تاريخ الخلافة والنظم الإسلامية

والتاريخ البيزنطي وتاريخ أوروبا الوسيط وغيرها عدا حلقات البحث الأسبوعية (Seminars) و Tutorials.

وبعد اجتيازي الامتحان سُجّلتُ كطالب ماجستير وبدأت أجمع المادة التاريخية في الموضوع الذي اخترته "الدعوة العباسية"، وبعد أن كتبتُ فصلين من الرسالة بمستوى جيد قرر مجلس القسم بعد إطلاعه على تقرير الأستاذ المشرف نقلي من مرحلة الماجستير إلى مرحلة الدكتوراه لأن الأطروحة التي كتبت فصولاً منها توفرت فيها من عناصر المستوى العلمي ما يرشحني لنيل درجة الدكتوراه.

لقد كانت الفائدة التي جنيتها من أساتذتي بجامعة لندن كبيرة، ولا يمكن أن تعوّض أو تقدر بثمن ولا شك، فقد ظهرت نتائجها في ما كتبته من كتب وبحوث، فربما أختلف معهم في التفسير، ولكني أخذت منهم المنهج العلمي والطريقة والأسلوب الذي يهدف إلى إبراز الأدلة والبراهين بطرق عقلية منطقية، وكيفية التعامل مع مصادر التاريخ ومناقشة رواياته وقبولها أو دحضها ...

كما وأن تدريبنا كطلبة على أصول وقواعد "البحث التاريخي" كان من الأهمية بمكان في الجامعة، ففي كل موضوع رئيسي كان هناك (حلقة بحث) Tutorials يحضّر فيها الطالب تقريراً صغيراً عن موضوع معين وبصورة دورية، وفي كل أسبوع هناك (سمنار) Seminar لطلبة الدراسات العليا بالقسم ويشمل إما محاضرة يلقيها أستاذ أو تقريراً يقدمه طالب عن المرحلة التي وصل إليها في بحثه والمصادر التي طالعها.

وإن كنت أنسى.. فلا يمكن أن أنسى (مستر باري) الأستاذ المتخصص بالتاريخ العثماني فقد كان يحاضر في دقائق التاريخ العثماني وتفاصيله، وبكل اقتدار دون أن يحمل ورقة واحدة معه ويكتب على السبورة كل أسماء الأعلام والأحداث ويسير في القاعة ذهاباً وإياباً دون أن يجلس أثناء المحاضرة.

وكان المستر باري يصحح تقارير الطلبة بدقة وتصحيحه كان لا يشمل المعلومات التاريخية فحسب بل اللغة والأسلوب... وكثيراً ما كنتُ أُلاحظ الطالبات الإنجليزيات يبكين خوفاً من شدته وتصلبه في الامتحان أو التقرير.. لقد كان المستر باري أستاذاً تعلمتُ منه الكثير فيما يتصل بتقاليد الأستاذ الجامعي المتميز.

لقد كنتُ مدركاً والحمد لله أن هذه الفترة هي فرصة ذهبية لا تعوض يجب أن أستغلها خير استغلال من أجل بناء أساس علمي متين استند إليه في مستقبل حياتي المهنية التي كنت أتطلع إلى أن أكون متميزاً بها، ولذلك لم أدخر جهداً من أجل الاستفادة قراءة واقتناءً للكتب والبحوث. وأستطيع أن أقول بأن مكتبتي تضم غالبية الكتب التي صدرت في إنكلترا بين 1961-1867م في مجال اختصاصي في التاريخ الإسلامي وخاصة التاريخ العباسي ومنها دائرة المعارف الإسلامية التي كانت في مرحلة التحديث ودائرة المعارف البريطانية، ولكن الاغتراب والهجرة خارج الوطن (العراق) باعد بيني وبين مكتبتي.

وكان عليّ كذلك أن أتعلم لغة أجنبية أخرى عدا الإنكليزية حيث اقترح الأستاذ المشرف أن أتعلم اللغة الفرنسية لكثرة البحوث عن الفترة العباسية فيها. سافرتُ إلى باريس ودخلتُ إحدى المدارس هناك في صيف عام 1963م واستمرت دراستي هناك أكثر من أربعة أشهر حصلت بعدها على شهادة أولية في اللغة الفرنسية Reading Ability تمكنني من القراءة بمساعدة القاموس، كما كانت زيارتي لباريس فرصة للتعرف على معالمها، وأستطيع أن أقول بأنني أعرف باريس أكثر من لندن لأنني تجولت في شوارعها وتعرفتُ عليها عن كثب. وفي باريس ابتعت العديد من الكتب الفرنسية عن التاريخ والحضارة الإسلامية، كما أن زيارتي لباريس فرصة ثمينة لارتياد (المكتبة الوطنية) B.N وقراءة بعض المخطوطات العربية الموجودة فيها في مجال اختصاصي وهي غير موجودة في لندن. وقد التقيت هناك بالمستشرق (فيدا) الذي صنّف المخطوطات العربية في المكتبة وله بحوث في التاريخ الإسلامي، وتعرفت كذلك على بعض المشترقين الفرنسيين مثال (شارل بلات) و(سودويل)، حيث اشتهر الأول بكتاباته عن الجاحظ واشتهرت الثانية بكتاباتها عن الوزارة العباسية. أما (رودنسون) فمعروف بكتاباته الاقتصادية عن الإسلام؛ وقد شاهدت وأنا أتجول في مكتبات باريس القديمة والمكتبات الخشبية على طول نهر السين كتباً عن الحضارة والأدب العربي لمستشرقين فرنسيين رواد أمثال بلاشيير وما سنيون ولوبون وغيرهم مما أثار في نفسي أحاسيس غريبة وأنا أتصفح هذه الكتب التي أبلى الدهر بعض أوراقها التي مالت إلى الاصفرار!! وهذه الاكشاك الخشبية شبيهة بما هو موجود في شارع رسل ستريت قرب المتحف البريطاني في لندن، وكذلك سور الأزبكية بالقاهرة.

ومن الصدف الطيبة في باريس لقائي بأحد زملائي التونسيين من دفعتي 1959م في قسم التاريخ بجامعة بغداد. وكان لقاءاً حاراً حيث جلسنا سوية نتناول

الغداء في مطعم مدرسة الأليانس فرانسيز، وتذكرنا الماضي الذي لم يكن بعيداً جداً.

وكان مما قاله لي أنه بعد عودته إلى تونس وانخراطه في سلك التعليم الثانوي، أنه كان يتذكر أحداث الخمسينيات ويتابع أحداث الستينيات في العراق، والغريب أنه كان يفكر في موقفي المحايد البعيد عن الانخراط في التيارات المتطاحنة آنذاك، مبديًا إعجابه بهذا الموقف الذي وصفه "بالمتعقل" والذي لم يكن يفهمه في حينه"!!

والواقع أن ما أثاره الزميل التونسي كان يثير في نفسي تساؤلات عديدة بعد ابتعادي عن العراق للدراسة في إنجلترا، فكيف قاومت الدخول في العمل الحزبي الذي اشتد بعد حركة 14 تموز 1958م؟؟ وكيف لم تؤثر عليَّ كل الأوضاع السياسية المضطربة؟ ونجحتُ في الارتفاع عن مستوى الأحداث والنظر إليها من بعيد، رغم فكري القومي المشوب بالإسلام. وما هو الوازع الذي كان يردعني عن مثل هذه الأمور وغيرها بعد أن تغيرت الظروف واضطربت المفاهيم والمثل، خاصة وأنني كنت بعيداً عن والدي الذي هو المثل الأعلى والوازع الأول لكل شاب في مثل عمري بالجامعة. أليس من حقي أن أقول بأنها الرعاية الإلهية التي يشير إليها زكريا في القرآن الكريم "ولم أكن بدعائك ربي شقيًا". ثم بعد ذلك موقف والدي العسكري المحترف البعيد عن السياسة والذي أشرت إليه سابقاً.

لقد تعلمت من أساتذتي أن الإخلاص في العمل والصبر اللذين يعتبران من الشروط الرئيسية للنجاح... ولذلك وجّهت جهودي كلها في سبيل ذلك. وقد كان بإمكاني أن أقتصد في شراء الكتب لأشتري سيارة مثلاً ولكني فضلت شراء الكتب واستنساخ الأبحاث أولاً وقبل كل شيء لأنها كما أشرت الفرصة الفريدة التي أتيحت لي للدراسة في الخارج.

ويبدو أن الأستاذ المشرف وجد أنّ لديّ موهبة في دراسة التاريخ ويظهر ذلك واضحاً في تقاريره السنوية التي كان يرفعها إلى الملحقية الثقافية (السفارة العراقية) في لندن. وقد حدث أن اعتمد مشروع إعادة كتابة (دائرة المعارف الإسلامية) بطبعة مزيدة ومنقحة باللغة الإنجليزية. وقد طلب مني أن أكتب مقالة عن (إبراهيم بن محمد العباسي) مفجِّر الثورة العباسية ومقالة أخرى عن (ابن النطاح) المؤرخ العباسي.

كما كتبت مقالة في (دائرة المعارف البريطانية) باللغة الإنجليزية عن البرامكة أتبعتها بمقالة أخرى في (دائرة المعارف الإسلامية) عن هارون الرشيد.

لقد وجدتُ أن اشتراكي وأنا لا أزال طالباً في كتابة مقالات في دائرة المعارف الإسلامية فرصة أخرى فريدة لابدّ أن أنتهزها واثبت فيها قدرتي وكفاءتي، فقد شعرت بسعادة عندما وصلتني رسالة من لجنة التحرير والنشر باعتماد المقالات، ولابد أن أشيد بفضل أستاذي المشرف في هذا المجال.

لقد أنفقت وقتاً وجهداً كبيرين أثناء إعدادها وكتابتها. على حساب وقت أطروحة الدكتوراه ولكن ما دام الجهد لا يذهب سداً فليس هناك ضير.

تخرجتُ من جامعة لندن في يوم عيد ميلادي (التاسع والعشرين) 1967/6/6م حيث ناقشت أطروحتي الموسومة (الخلافة العباسية 132هـ-170هـ) لجنة تضم البروفسور برنارد ولويس والبروفسور مونتكمري وات والبروفسورة جان هيسي، والتي وصفها تقرير الأستاذ المشرف بأنها "عمل ممتاز"، والواقع أنها قلبت مفاهيم "الاستشراق القديم" عن العصر العباسي الأول وخاصة فيما يتعلق بطبيعة الدعوة العباسية وأبعادها.

إنَّ أطروحتي للدكتوراه في جامعة لندن كشفت عن تقويم جديد للدعوة العباسية يختلف تماماً عن التقويم السابق، فالتقويم القديم الذي جاء به الاستشراق في القرن التاسع عشر يؤكد أن الثورة العباسية قامت على أكتاف الموالي الفرس وأن الموالي تبوؤوا مكان الصدارة في العصر العباسي الأول. بينما الواقع يثبت أن الثورة العباسية كانت عربية قام بها بالدرجة الأولى "عرب خراسان" أي القبائل العربية التي استوطنت خراسان، وأن الخلافة العباسية في عصرها الأول تبنت الثقافة والفكر والتقاليد والقيم العربية.

وليس معنى هذا أننا نستبدل تفسيراً عنصرياً بتفسير عنصري آخر، بل نقول أن العرب كانوا القوة الضاربة الرئيسية في الثورة العباسية وأن (مجلس النقباء) الاثنى عشر كان في غالبيته من العرب كما شارك الموالي في الثورة إلا أن وزنهم لا يمكن أن يقارن بوزن العرب، ولقد كان في المعسكر الأموي موالي من الفرس من أنصار الخلافة الأموية، ومعنى ذلك أن الفرس كانوا في الجانبين العباسي والأموي ولكن دورهم كان ثانوياً لا يقارن بدور العرب.

لقد برهنتُ على هذه "النظرية" بأدلة تاريخية من روايات عديدة استقيتها من مصادر بعضها كان في حينه مخطوطاً مثل (أخبار العباس وولده) للمؤلف المجهول

ومثل (تاريخ الموصل) للأزدي وتاريخ خليفة بن خيّاط (وأنساب الأشراف) للبلاذري وغيرها، وبعضها من المصادر المحققة حيث تضم روايات لم يستغلّها أو لم ينتبه إلى معناها المؤرخون والمستشرقون في وقتها.

لقد وقع المستشرقون عن قصد أو دون قصد في أخطاء وملابسات عديدة وحين ترجمت كتبهم إلى العربية غدت أراؤهم حقائق تاريخية لا يرقى إليها الشك في الأربعينات والخمسينات وحتى منتصف الستينيات، ولكن استقراء الأحداث وظهور مخطوطات تاريخية جديدة وإعادة تقويم الروايات في المصادر المحققة بإعادة قراءتها، كل ذلك ساعد على تكوين نظرة جديدة في العديد من مظاهر تاريخنا، وما أشرتُ إليه عن الثورة العباسية يُعد نموذج ليس إلاّ.

بعد اعتماد أطروحتي في جامعة لندن، قررت اللجنة نشرها على حساب جامعة لندن ولكن عدم استطاعتي البقاء في لندن بعد الحصول على الشهادة حال دون ذلك.

ولعلي أذكر هنا موقف الملحق الثقافي في السفارة العراقية بلندن حين زرته مستبشراً لحصولي على شهادة الدكتوراه ومفتخراً بقرار جامعة لندن بنشر أطروحتي على حسابها الخاص، حيث طلبت الجامعة مني البقاء في لندن لشهرين للإشراف على الطبع وتصحيح البروفات. ففوجئت بموقفه السلبي حيث قال لي أنك طالب بعثة وقد انتهت منذ اليوم بعثتك وانقطع راتبك وعليك الاستعداد للعودة، بدلاً من أن يعتزّ بهذا القرار وبهذا الإنجاز ويكتب إلى بغداد بتمديد إجازتي شهرين فقط لأن مردودها كبير لا يحققه كل طالب وهو نشر الأطروحة على حساب جامعة لندن!! على أن الأطروحة نشرت فيما بعد في بغداد 1969م.

وقد كتب عن الأطروحة كل من البروفسور شارل يلات والبروفسور ووات في الدوريات التاريخية الأوروبية، وفي الوطن العربي كتبتُ بعض المقالات موضحة وجهة النظر الجديدة هذه.. كما تضمنت بعض الكتب المنهجية وجهة النظر تلك فيما ذلك.

ولا أزال أذكر أني بعد عودتي مباشرة من إنكلترا كتبتُ مقالة مطوّلة إلى إحدى المجلات العلمية وأُرسلت المقالة إلى خبير، فأرسل إليَّ الخبير وناقشني حول هذه "النظرية" ونصحني بالتروّي قبل نشر هذه المقالة، فسحبتُ المقالة منه قائلاً: إنَّ

هذا التقويم الجديد للدعوة العباسية نوقش وقبل في جامعة لندن من قبل لجنة من المؤرخين المختصين!!

وهكذا لم يتيسر لهذه الفكرة أن ترى النور في السنة الأولى من ظهورها حتى أُعيرت خدماتي إلى جامعة الرياض 1968م فنشرت هناك مقالتين حول (الثورة العباسية) في مجلة كلية الآداب، ثم نشرت في بيروت 1970 كتابي الأول بعد الأطروحة الموسوم (طبيعة الدعوة العباسية) فكان مفاجئة للمؤرخين والمثقفين حيث وصلتني رسائل عديدة حوله؛ بعضها إعجاب وإطراء وبعضها تساؤل ونقاش وكلها تتضمن تقدير للجهد العلمي المبذول بحرص وإخلاص.

لقد كان إعداد أطروحة الدكتوراه خبرة كبيرة وتجربة عميقة في التدريب على البحث العلمي ومناهجه في جامعة لندن بإنكلترا، ولكنه كان وبنفس الوقت بداية الطريق لعمل طويل وشاق وممتع في آحيان كثيرة.

إن من أهداف الدراسات العليا في أية جامعة وأي اختصاص هو تدريب الباحثين ليكونوا علماء المستقبل في مجال اختصاصهم. ولذا نتوقع من عضو هيئة التدريس في الدراسات العليا والمشرف على الأطروحة إتاحة الفرص لطلبتهم على التدريب الكافي الذي يجعل منهم باحثين جادين.

والمتفق عليه في الدراسات العليا أن الطريقة التي يتدرب عليها طالب البحث هي الطريقة العلمية سواء في العلوم الصرفة والتطبيقية أو في العلوم الإنسانية، وقد وصفت الطريقة العلمية ببساطة: "إنها عبارة عن تعريف المشكلة وصياغة حلها الفرضي، وجمع الأدلة والشواهد التي تدعم الحل الفرضي الذي يوضع موضع الاختبار، أو الأدلة التي تدحضه وذلك عن طريق الملاحظة والتجريب أو الوثائق والأصول.

فإذا كانت الأدلة الداحضة للفرضية أقوى من تلك التي تدعمه فلابدّ من التفكير في فرض آخر تتم البرهنة على صحته أو خطئه على أساس الأدلة المجتمعة. فإذا ثبتت صحة الفرض عندئذ يصبح اكتشافاً علمياً له أهمية قد تكون كبيرة أو صغيرة".[1]

وقد يحلو للبعض القول بأنّ الباحث في العلوم التطبيقية يجد صعوبة أكبر من الباحث في العلوم الإنسانية. ولكن الواقع يؤكد العكس فإذا كانت الطريقة العلمية

قد حققت نتائج مهمة في ميدان الفيزياء وعلوم الحياة مثلاً فإن نفس هذه الطريقة العلمية تبدو أكثر تعقيداً عند تطبيقها على دراسة السلوك الإنساني في ميدان التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والفلسفة. فعالم المواد غير الحية أو الحياة العضوية دون الإنسان أبسط من عالم الإنسان، وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن الباحث في العلوم الاجتماعية لابدّ وأن تتوافر لديه قدرة على الحدس والتحليل فوق قدرته على مجرد استخدام الطريقة العلمية.

إن الباحث في العلوم الإنسانية - ومنها التاريخ - يهتم بالقيم والمثل والعبر المستخلصة مثل اهتمامه بالحقائق التاريخية. فالطريقة العلمية قد تفيد الباحث في التوصل إلى الحقائق المجردة، ولكنها لا تستطيع أن تسعفه في إثبات صدق هذه الحقائق والمعاني والقيم التي ورائها إذ لابد له من استخدام طرق أخرى إلى جانب الطريقة العلمية.

ولعل من أهم خصائص البحث التاريخي في الدراسات العليا اكتشاف وثائق أو مخطوطات جديدة حول موضوع البحث، أو مادة جديدة لم تستغل مسبقاً من المصادر الأولية المنشورة. وهنا نجد تفاوتاً بين طالب وآخر تبعاً لجهود الطالب والفرص المتاحة له لجمع المادة من أماكن متعددة. وربما كانت الوثائق والمذكرات والرسائل والمخطوطات والوصايا من أهم مصادر البحث الأولية، ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى اهتمام الإنسان منذ القدم وتقديره الكبير للكلمة المكتوبة. ولا شك فإن شدة إحساس بعض الشخصيات الموهوبة أو التي تتمتع بقدرة معينة ميزتها عن غيرها، كان على الدوام دافعاً لجمع أوراقهم ومذكراتهم والاحتفاظ بها، فقد ذكر أحد النقّاد الذين زاروا منزل الكاتب آرنست همنجواي بعد وفاته سنة 1961م أنه كان يحتفظ إلى جوار مكتبه بخزانة حديدية صغيرة يضع فيها خطاباته ووثائقه ومخطوطاته. وقد حصلت جامعة ألينوى الأمريكية على قدر كبير من الوثائق المكتوبة التي تتصل بحياة هـ. جـ. ويلز والتي كان يحتفظ بها.

وفي الجامعات المرموقة تختلف النظرة إلى الأطروحات. فرسائل الدكتوراه لابدّ أن تكون "أصيلة" بمعنى أن تشمل إضافة جديدة للمعرفة وتختلف نسبة هذه الإضافة فبعضها يكون ضئيلاً وبعضها كبيراً وجذرياً بحيث يغير المفاهيم الخاصة بموضوع البحث. أما رسائل الماجستير فالعادة أن ينظر إليها على كونها دليلاً على قدرة الطالب على تناول مواد البحث ومناهجه وتطبيقاتها في دراسة موضوع علمي

معين ومحدود، ولا يشترط فيها الأصالة. من هنا فإنني لا أرى سبباً وجيهاً لنشر رسائل الماجستير ما دامت موجودة في متناول اليد في مكتبة الكلية والجامعة. واقترح نشر جزء ذي مغزى من الرسالة أما في مجلة الكلية أو منفصلاً، وبذلك يطلّع الباحثون على الموضوع ويستفيدون منه، أما رسائل الدكتوراه فلابدّ من نشرها خاصة تلك التي تتضمن إضافة أصيلة.

الهوامش:

(1) F. Millet, Professor, New York, 1961, p77 (الترجمة)، القاهرة، 1995م.

الفصل الثاني

التدريب على المنهجية في كتابة التاريخ

"التاريخ علم بمعنى أن له منهج للبحث العلمي، ولهذه المنهجية ضوابط، أما إذا كانت طريقة التعبير أو أسلوب الكتابة نوع من الأدب فهذا ما يزيد التاريخ قيمة وشفافية لدى القارئ".

المؤرخ عبد العزيز الدوري

التدريب على المنهجية في كتابة التاريخ

من العوامل التي ساعدت د. فاروق على تحديد منهج واضح له في كتابة التاريخ العربي الإسلامي إكمال دراسته الجامعية في الوطن وحصوله على "البكالوريوس" في التاريخ من جامعة بغداد، بمعنى أنه حين سافر إلى إنجلترا ليكمل دراسته العليا في التاريخ كان مشبّعًا بروح التراث العربي الإسلامي ومحصّنًا بثقافة كافية عن تاريخ الأجداد لدرجة تحميه من التأثر أو الانزلاق في تيارات (المدارس) التاريخية في أوروبا و(تفاسيرها) للتاريخ.

يقول الدكتور فاروق "أنه فوجئ وهو يقرأ لأول مرة كتبًا" ومقالات أجنبية في دوريات علمية ورود الكثير من التحريف والتشويه للحقائق، ولكنه وبصورة تدريجية بدأ يدرك أن وراء ذلك كله أسبابًا وتراكمات تاريخية بعيدة وتصورات فلسفية كوّنها الأوروبيون عبر حقبة طويلة من الزمن، وإن المؤرخ الأوروبي أو ما يسمى "بالمستشرق" عاش وتلقى ثقافته في أحضان هذه البيئة المثقلة، بالأفكار "غير الموضوعية" عن العرب والإسلام ولهذا فإنه مهما كانت درجة "موضوعيته" لابدّ أن ينحرف به التفكير فيصدر أحكامًا جائرة عن قصد أو دون قصد. ولكل ظاهرة - بطبيعة الحال - استثناء.

لقد سادت أوروبا ابتداءًا من القرن 19 الميلادي منهجية (المدرسة التاريخية الوضعية) التي لا تؤمن إلا بالوجود المادي المحسوس الذي يمكن أن يخضع للبحث العلمي عن طريق الاستقرار التجريبي، وقد حاول بعض المستشرقين أن يطبقوا هذا المنطق الوضعي على أحداث التاريخ العربي الإسلامي فوقعوا في الخطأ، ذلك لأن التاريخ وغيره من العلوم الاجتماعية تتعلق بمثل الإنسان وقيمه، وأحاسيسه وتراثه الذي يحركّه ويدفعه للقيام بأجلّ الأعمال. فليست "الطريقة العلمية" وحدها كافية للخوض في "البحث التاريخي" لأن دراسة السلوك الإنساني أكثر تعقيدًا من دراسة الظواهر المتعلقة بالعلوم الصرفة أو التطبيقية وهذا ما أشرنا إليه سابقًا.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نلاحظ ثبوت خطأ مذاهب أو مدارس تاريخية أخرى مثل "المادية التاريخية" التي قامت على افتراض أن صراع الطبقات وتطور وسائل الإنتاج هما الدافعان عند الإنسان والمحركان الوحيدان لحركة التاريخ. إن أمثال هذه الفرضية وغيرها ممن تتشبث بالعامل الواحد للتاريخ لا يمكن الاستناد إليها للتنبؤ عن تجارب الإنسان أو تاريخه.

وإذا ما تركنا المدارس التاريخية الأوروبية وهي كثيرة ولها أسانيدها في دعم تفاسيرها التاريخية نلاحظ أنه ليس من السهل على المؤرخ الأوروبي و(المستشرق) الذي تربى في بيئة فكرية وثقافية مثقلة بالتراكمات التاريخية التي تنظر إلى الشرق العربي الإسلامي نظرة عداء وتحاول تشويه تراثه منكرة دور العرب التاريخي وإسهاماتهم في مجال الحضارة الإنسانية... لم يكن من السهل على المؤرخ المستشرق أن يتجاوز كل تلك العقبات وبالتالي فلابد أن يكون تفسيره أو مبتسرًا غير متجرد وغير موضوعي، وهنا أيضًا لكل قاعدة شواذ، والحالات الشاذة لبعض المستشرقين هي نتاج ظروف معينة خاصة بها.

إن إطلاعي على مختلف الآراء والتفاسير في موضوعات التاريخي العربي الإسلامي، أربكني وأزعجني أول الأمر لأنه مسّ قناعاتي ومبادئي التي تعلمتها في البيت، والمجتمع والكلية، ولكنه كان على المدى البعيد ذو فائدة لي لأنه كوّن لدي شك منهجي إزاء ما يبدو أنه حقيقة أو تفسير لظاهرات تاريخية، فلم أعد أفترض صدق كل ما أراه أو أطلع عليه من المطبوعات، خاصة إذا ظهر في شكل أنيق أو ضمن موسوعة تاريخية منسقة مكونة من أجزاء عديدة، وهذه في اعتقادي بداية "الحكمة" عند طالب البحث وفحواها: إثارة الشك في المادة المطبوعة وتحديد مدى الوثوق بها باعتبارها "حقيقة" وذلك بالرجوع إلى أوثق المصادر والوثائق الأولية ذات العلاقة بتلك الحقبة وإعادة مراجعتها.. وهكذا تصبح عملية التحقق من البراهين والشواهد عملية ذهنية تتطلب قدرًا كبيرًا من الجهد والدقة والحكمة والتروي. وهذه من أهم متطلبات الباحث العلمي في ميدان العلوم الاجتماعية وخاصة التاريخ.

لقد أخذ الدكتور فاروق من أساتذته في الغرب الأوروبي "طريقة البحث العلمي" ومتطلباتها وما تسبغه على طالب البحث من صفات إيجابية ووظّفها في بحوثه التي تناولت موضوعات شتى في التاريخ العربي الإسلامي، فخرج بتفاسير وتحليلات

جديدة رد فيها على تفاسير المستشرقين. ولعل من مزايا الطريقة العلمية في أوروبا أنّ الأستاذ المشرف على الأطروحة يوجّه وينير الطريق إلى طلابه تجاه المنهج والأصول والمصادر وأسلوب البحث ثم يترك الطالب ليتوصل إلى التفاسير أو الكشوف أو التحليلات الجديدة ولا يتدخل في رفضها أو تعديلها، ما دامت تستند على مصادر أولية ووثائق معتمدة، وما دام الطالب مستعدًا للدفاع عما توصل إليه من كشوف وتفاسير أمام لجنة المناقشة.

إنَّ هذا الموقف يذكّرني بموقف المعتزلة الأوائل الذين تبنّوا موقفًا عقليًا وأخذوا من اليونان أساليب المنطق والجدل الإغريقي ودافعوا بروح جديدة وأسلوب جديد وفكر جديد عن الإسلام وعقيدته تجاه الأعداء وانتصروا عليهم، وبهذا كانوا أكثر فهمًا لعصرهم من غيرهم، الذين سفهوا آراء المعتزلة.

ويبدو أن منهج الدكتور فاروق في كتابة التاريخ يستند على نظرة ذاتية كليّة شمولية تعتمد المصادر الموثوقة، فهي والحالة هذه ليست أسيرة عامل واحد من العوامل التي تحرك التاريخ ولا أسيرة نزعة ما ولا متأثرة بتيار ما بل تعتمد الموضوعية في التفسير والمنهجية العلمية في التحليل قدر الإمكان. ولكن حين تسأل القُراء الذين يتابعون بحوث الدكتور فاروق في المجلات والجرائد سواء كان هؤلاء من الأكاديميين والمتخصصين أو من المثقفين والمهتمين فإنهم يجيبون بأنه تبنى "التفسير القومي للتاريخ" وهو أقرب ما يكون تفسيرًا عربيًا إسلاميًا، وفي هذا لا يأتي تفسيره جدليًا مجردًا بل موضوعيًا إلى أبعد الحدود لأنه يدعمه بروايات ووثائق وأسانيد متعددة يجهد نفسه طويلاً في العثور عليها من مضانّها الأولية.

لقد عد الناقد والمؤرخ التونسي الدكتور هشام جعيط، فاروق عمر واحدًا من ثلاثة من بين رؤوس هذا الجيل الجديد معتبرًا كتاباتهم "هي تقريبًا الوحيدة في كل النتاج العربي في ميدان العلوم الإنساني المعترف بها عالميًا، كبحوث جدية مسيطرة على مادتها. فإذا أمكن التشكيك في أن فلانًا ليس اقتصاديًا حقيقيًا والآخر ليس فيلسوفًا حقيقيًا فلا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أجلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب". (1)

وفي رسالة بعث بها أستاذه المشرف البروفيسور لويس إلى الملحقية الثقافية العراقية بلندن قال: (2)

"... لقد كانت أطروحته ممتازة حقًا، كان السيد فاروق عمر خلال مدة دراسته طالبًا مرضيًا عنه تمامًا، إنه موهوب ودؤوب على عمله، وكانت أطروحته، التي اعتمدت على دراسة مضنية لمجموعة واسعة جدًا من المصادر، إنجازًا كبيرًا".

..."I may add that it was a really excellent thesis. Mr. Farouk Omar has throughout his Course been a most satisfactory student. He is both gifted and hard - working and his thesis, based on a really exhaustive study of a very wide range of sources, is a considerable a achievement".

ولعل منهجية الدكتور فاروق تظهر واضحة من خلال كتاباته، وهو نفسه يشير في لقاء بأن المثقف وخاصة المؤرخ يختلف في شخصيته التي تنعكس بالتالي على كتاباته. فالمؤرخ المبدع لابدّ أن يتحلى بشخصية متفردة... وأن هذه الشخصية تفرض نفسها على بحوثه وكتبه بحيث يستطيع القارئ المتتبع أو المتخصص القول بأن هذه المقالة أو هذا البحث يعود إلى الباحث الفلاني قبل أن يطلّع على اسمه. ويمكن القول بأن (السبعينات والثمانينات) من القرن الماضي خصبة في مشواره الفكري والثقافي. فقد شهدا باكورة إنتاجه في التاريخ من كتب وبحوث ومقالات.

إنّ أول ما يواجهه المتحري عن إسهامات د. فاروق التاريخية هو خصب نتاجه وغزارته في ميدان تخصصه الدقيق وهو تاريخ العصر العباسي. فقد كتب في ذلك الكتب العديدة في التاريخ السياسي والحضاري، وأردفها ببحوث في موضوعات عباسية رأى أنها تستحق الوقوف عندها والتمعن بتفاصيلها أو جلب انتباه المتخصصين والمولعين بالتاريخ إليها. من هنا جاء تقويم ناقد له بقوله: "إنه مؤلف ناجح، بمعنى أن ما يكتبه يجلب الانتباه لكونه يحوي على أصالة وإضافة جديدة أو تفسير جديد للمعرفة". (3)

وقال عنه ناقد آخر: "والدكتور فاروق من المفكرين العرب العراقيين المعدودين الذين أسهموا بقدر عال في النشاط الفكري والأدبي والثقافي، وأوجد ثروة غنية من العطاء العلمي والفلسفي لكثير من مشكلاتنا الموروثة في تاريخ أمتنا وللعديد من قضايانا التي لعبت فيها الأهواء والحركات الاستشراقية فشوهت ودست وخلطت وحجبت ما جعل تاريخنا على غير حقيقته". (4)

لقد كان كتاب (طبيعة الدعوة العباسية) سنة 1970م باكورة نتاجه في التاريخ العباسي وفيه تبرز أصالة فكره وشمولية منهجه. ويعتمد هذا الكتاب على أطروحة الدكتوراه التي حصل عليها من جامعة لندن 1967م، والتي أعاد فيها "تقويم" الثورة العباسية بصورة خاصة وما تلاها من أحداث العصر العباسي الأول بصورة عامة. ونفى بالروايات التاريخية الموثوقة الصفة اللاعروبية عن تلك الثورة تلك الصفة التي روّج لها الاستشراق وردده العديد من المؤرخين المحدثين، كما أكد أن العصر العباسي الأول هو امتداد للعصر الأموي في أساليبه السياسية ومفاهيمه الحضارية، كما يظهر ذلك واضحًا في كتابه ذي الأجزاء الثلاثة (العباسيون الأوائل).

ثم انطلق بعد ذلك موزعًا جهده بين عدّة "مشاريع تاريخية" فهو في الوقت الذي شرع في إعادة تقويم العديد من الحركات أمثال: حركة الزنج والقرامطة والبابكية والحشيشية مسلطًا أضواء جديدة عليها داعمًا تخريجاته بروايات تاريخية موثقة لا تعتمد الخيال والرومانسية التي اتصف بها الكتّاب الذين تناولوها في الثلاثينات وحتى الخمسينيات من القرن العشرين نراه يخوض في ميدان الكتابة عن العصور العباسية التي تلت العصر الأول، وقد نشر له في هذا المجال كتابان: أولهما (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية) وثانيهما (الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة).

ومما تجدر الإشارة إليه أن إعادة تقويم حركات الزنج والقرامطة والبابكية وما تلاها ظهرت في بدايتها على شكل بحوث في مجلة (آفاق عربية) البغدادية وكان لها صدى بعيدًا ساهم إلى حد بعيد في التعريف بالدكتور فاروق وذيوع صيته كباحث مرموق في الأوساط الثقافية والفكرية في داخل العراق وخارجه منذ أواسط السبعينيات [5] خاصة وأن المجلة كانت واسعة الانتشار.

لقد جمع د. فاروق أغلب البحوث التي كتبها في (آفاق عربية) وبحوثًا أخرى وأصدرها في كتاب سماه (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين) وفيه انتقد الباحثين الذين يعتقدون "بالأطر المسبقة" والذين "يقلّدون"، فلا زال بعض مؤرخينا يعتمد على تفاسير عفى عليها الدهر ويتبعون عين الأخطاء التي وقع بها من سبقهم. ودعى د. فاروق إلى قراءة جديدة للنصوص التاريخية دون الإتكال على قراءات الآخرين لهذه النصوص. فمنذ أن كتب (نولدكة) عن حركة الزنج واعتبرها

"ثورة العبيد" المظلومين... ومنذ أن كتب (إبراهيموف) عن البابكية واعتبرها "انتفاضة" الأذربيجانيين ضد "التسلط العربي"... ومنذ أن روجّ مستشرقون ومستغربون آخرون لحركات الشعوبية باعتبارها "حركة تدعو إلى المساواة والعدالة الاجتماعية" والزندقة باعتبارها "دعوة إلى التحرر الفكري" والقرامطة باعتبارها "دعوة إلى الاشتراكية". نقول منذ أن كتب أولئك حذا بعض المؤرخين حذوهم فأصبحت تلك "الفرضيات" حقائق بسبب كثرة تكرارها وإشاعتها في الكتب والبحوث وليس بسبب استنادها إلى روايات التاريخ الموضوعية. ويدحض د. فاروق في صفحات كتابه التي قاربت الأربعمائة صفحة في طبعته الأخيرة تلك الافتراءات ويؤكد أن تلك الحركات كانت حركات هدمية معادية لقيم المجتمع ومثله العربية الإسلامية، وأنها حاولت استبدال نظمه ومؤسساته بأخرى لا صلة لها بالإرث الحضاري العربي الإسلامي، ولا يكتفي د. فاروق بذلك بل يبشر الجيل الصاعد بأن الأمة ستبقى بخير: "فتاريخنا حين بدأ يكتبه أبناؤه المتحررون من أسار الفكر الدخيل، المستندون على نظرة ذاتية في فهم التراث وتفسيره.. إنَّ هذا التاريخ يظهر بوجه جديد يختلف عن الصورة التي جاء بها الاستشراق ونقلها مؤرخون عرب حتى منتصف القرن العشرين دون تمحيص". (6)

والمعروف أن كتاب (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين) طبع طبعتان شرعيتان في بيروت وبغداد، وعدة طبعات غير شرعية في بيروت. ونفس القول يصدق على (طبيعة الدعوة العباسية). أما كتاب (الخلافة العباسية) The Abbasid Caliphate فقد نشر ثلاث مرات الأولى بالإنكليزية، والثانية والثالثة بالعربية في بيروت وبغداد، وفي مجال التاريخ السياسي العباسي وغيره تبدو غزارة نتاج د. فاروق. وكتب في تاريخ العصر الأموي وفي تاريخ صدر الإسلام وفي تاريخ فلسطين وتاريخ الخليج العربي السياسي... ويبدو من ذلك كله ولعه في التاريخ السياسي، وقد دفعه هذا الولع إلى الإبداع في تحليلاته في هذا المجال لدرجة تجذب القارئ لبحوثه وكتبه فلا يكاد يبدأ بقراءتها حتى تشدّه لإتمامها. وقد عبّرت عن ذلك إحدى طالباته في الدراسات العليا حين قالت: "إنه في جملة كتبه يفلسف الحادثة ويحللها تحليلاً دقيقًا يضع فيه النقاط على الحروف بجرأة وصلابة رأي". (7)

على أن د. فاروق لم يكتب فقط في التاريخ السياسي بل كتب كذلك في تاريخ الحضارة. فقد ألف كتابًا في (النظم الإسلامية)، وشارك في تأليف كتاب آخر

منهجي بنفس العنوان، كما شارك في عدة كتب حضارية مثل (حضارة العراق) و"العراق في ركب الحضارة" و"الجيش والسلاح". وله كتاب عن (الوزارة العباسية)[8]. وهو في كل هذه الكتب وسواها من البحوث المنشورة يرى أن إسهامات العرب في الحضارة والنظم كانت إسهامات بارزة، ولكن الشعوبيين ومن بعدهم نفر من المستشرقين حاولوا لفترة من الزمن التشكيك في دور العرب الحضاري. يقول د. فاروق في أحد بحوثه: [9] "في مجال التراث العربي الإسلامي ركّز الشعوبيون على بدعتين لا تزال آثارهما شائعة في كتب التراث والحضارة والنظم. الأولى: أن العرب والمسلمين لم يلعبوا سوى دور "نقلة" للحضارة وحفظة للتراث القديم الغربي (اليوناني- الروماني) أو الشرقي. وهذا يعني أنهم لم يكونوا بمستوى التفاعل والتأثير بالتراث القديم ناهيك عن تطويره والخروج بإبداعات جديدة وأصيلة.

أما ثانيهما: فقد ظهرت حين فشل الشعوبيون في إثبات فرضيتهم الأولى: عمدوا إلى القول بأنّ غالبية علماء الحضارة والفكر في المجتمع الإسلامي ليسوا عربًا. وهذه الفرضية لا تقل في ميزان النقد عن فرضيتهم الأولى من حيث تهافتها علميًا ومنطقيًا، ذلك لأنها فرضية عنصرية لا تختلف عن مثيلاتها من حيث التضليل والتزوير. وقد ردّ على هذه الفرضية العديد من الأساتذة منهم المرحوم الدكتور ناجي معروف والمرحوم الدكتور ياسين خليل إلاّ أنني ذهبتُ أبعد منهما في الرد على هذه الأباطيل كما هو واضح في بحثي (الدس الشعوبي وتاريخ العصر العباسي)، وكذلك في كتابي عن (الوزارة العباسية) وكتابي (النظم الإسلامية)".

أما في مجال الإدارة فقد أثبت د. فاروق عروبة مؤسسة الوزارة لغة ونظامًا مشيرًا إلى جذورها التاريخية في مجتمعنا العربي، وحين يتطرق د. فاروق إلى مفهوم "الأصالة" في المؤسسات الإدارية العربية الإسلامية يقول: "إن النظم والمؤسسات عامة، ومنها النظم الإدارية، تكشف عن أصالة الأمة وفكرها المبدع لأنها توضح لنا الحلول التي وضعتها الأمة لتدبير شؤونها ولمجابهة أزماتها وحاجاتها. إنّ شخصية الأمة تظهر من خلال النظم والمؤسسات التي تسير عليها وتتكشف حيويتها ومقدرتها على البقاء والتطور.

وأصالة هذه النظم لا تأتي من العدم وإنما هي نتيجة تفاعل بين فكر الأمة وتجارب وخبرات سبقتها إليها أجيال عاشت قبلها وأمم محيطة بها أو قريبة منها. وأن الأمة الحية المبدعة هي التي تضيف إلى الخبرات السابقة لها خبرات جديدة

مبتكرة... وهذا هو تعريف "الأصالة" في المفهوم الحضاري: القدرة على التفاعل والتمثل، ثم القدرة على الإبداع والابتكار. ومن هنا جاء تقسيم الحضارات إلى حضارة جامدة متقوقعة وحضارة حيّة فاعلة أصيلة.

وقد تعرّضت النظم الإدارية العربية الإسلامية إلى موجة من التشويه من دوائر معرفية معروفة حاولت ربط كل إنجاز حضاري عربي في عصر الازدهار والنهوض بأصول أجنبية أو التقليل من أهميته والتأكيد على عدم قدرة العالم في المجتمع العربي الإسلامي على تجاوز ما وصل إليه من الحضارات القديمة فهو مقلّد مقتبس ليس إلاّ. والواقع أن "النهضة" التي حصلت في العصر العباسي في النظم والمؤسسات والمعرفة والعلوم لم تكن مجرد نقل من نظم أجنبية بل إضافة وابتكار وتطور نوعي لما هو معروف قبل العصر الإسلامي. إنّ النهضة الأصيلة التي شهدها العصر العباسي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده لا يمكن أن تتحقق بسبب معارف وردت إلينا من اليونان والهنود وغيرهم لأن ذلك وحده لا يحقق نهضة إذ لابد من عوامل الإبداع الذاتي في الأمة.. بمعنى لابدّ من وجود أمة متحفزة مؤهلة للفهم قادرة على التفاعل ثم الابتكار.

وقد أتيحت له وللعديد من زملائه فرصة طيبة من خلال كتاب (حضارة العراق) وكتاب (العراق في موكب الحضارة) وكتاب (الجيش والسلاح) للتصدي للفرضيات المشككة بإنجازات العرب والمسلمين الحضارية والرد عليها.[10]

يرى الدكتور فاروق أنّ هناك أمور أخرى لابدّ من إبرازها لكشف الإبداع في الإدارة العربية وهي المبادئ والقيم الإدارية التي سار عليها العرب المسلمون. ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

- اختيار الولاة بدقة والحرص على توفر شروط البصيرة والخبرة والكفاءة فيهم.
- أخذ الأعراف الاجتماعية والحضرية في تعيين الوالي.
- توزيع الوظائف على من يصلح لها.
- التفتيش على العمال والولاة.
- التحقيق في الشكاوى الواردة على الولاة وعرضها على مجلس (النظر في المظالم).

- إشراك الناس والأخذ برأيهم في تعيين الولاة. وهكذا فإن الدكتور فاروق يرى بأنّ تناول النظم الإدارية وتاريخها يتطلب إبراز أمرين رئيسين هما: القيم والمبادئ الإدارية التي طبّقها العرب المسلمون، وثانيهما الرد على الآراء التشكيكية حول النظم الإسلامية.

أما تعلق د. فاروق بالتاريخ العسكري فيظهر جليًا في الفصول العديدة التي شارك فيها بكتاب (الجيش والسلاح) فقد كتب عن عناصر الجيش العربي الإسلامي وشعاراته وصيحات الحرب والألوية والرايات. يقول د. فاروق:[11] "في اعتقادي أن الباحث الذي يؤرخ للجيش العربي الإسلامي لابدّ أن يتعامل مع مبدأين رئيسيين في التنظيم العسكري الذي سارت عليه الدولة:

الأول: "مبدأ الأمة المقاتلة".

الثاني: مبدأ الجيش "المحترف" أو ما يسمى بالجيش النظامي.

وقد سارت الأمة على أساس المبدأ الأول ردحًا من الزمن شمل فترة صدر الإسلام حتى نهايات دولة الأمويين تقريبًا. فكانت الدولة تحشد كافة الطاقات البشرية والمادية والمعنوية في الحروب الشاملة التي خاضتها. فالجهاد كان فرض عين أو ما يسمى في الوقت الحاضر "النفير العام" وهو يشمل كل القادرين على حمل السلاح من المسلمين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ولا يتخلف منهم إلا المعوّق أو المريض أو الشيخ العاجز.

إنّ آيات كثيرة في (سورة التوبة) وغيرها تقرر مبدأ الأمة المقاتلة وهو مبدأ أكثر تنظيمًا ودقة وتعقيدًا ويتطلب قابليات وكفايات قيادية وإدارية أكثر من مبدأ الجيش المحترف. ففي آية من سورة التوبة يقول تعالى: "انفروا خفافًا وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون". ويفسر الزمخشري هذه الآية بقوله: انفروا ركباناً أو مشاةً أو شبابًا وشيوخًا أو مهازيل وسمانًا أو صحاحًا ومراضًا".

يرى د. فاروق أن إنكارنا أو إهمالنا لمبدأ "الأمة المقاتلة" الذي سار عليه الجيش العربي الإسلامي ردحًا من الزمن يعني تنكرنا لميزة مهمة من ميزات الجيش ويعني اتفاقنا دون قصد مع الآراء التي تحاول التشكيك بالقدرة العسكرية العربية وأصالة التنظيم العسكري عند العرب. ويطرح د. فاروق اختلافه المنهجي مع بعض الباحثين حول تفسيرهم لمبدأ الأمة المقاتلة بالشكل التالي:

"توهم بعض الباحثين في أن مبدأ الأمة المقاتلة يدل على عدم القدرة على التنظيم فراحوا يؤكدون أن الجيش الإسلامي كان منذ البداية جيشًا نظاميًا (بالمعنى الحرفي للنظام لا بالمعنى الاصطلاحي)!! والأغرب من هذا أنهم وصموا فكرة الأمة المقاتلة بأنها من بنات أفكار المستشرقين لتشويه تاريخ الجيش العربي الإسلامي والتشكيك في قدرة العرب على التنظيم!!. فإذا كان الأمر كذلك فمن أين جاءت هذه الفتوحات العظيمة والانتصارات الكبيرة لو لم يعتمد القادة العرب على مبدأ الأمة المقاتلة فكرًا وتطبيقًا".

ولكن في أواخر العصر الأموي ولأسباب عديدة بدأ هذا المبدأ بالضعف فحاولت الدولة إيجاد بدائل له. وحين جاءت دولة العباسيين كانت جادة ومنذ البداية على إيجاد نظام عسكري بديل، فاتخذت جملة إجراءات كانت تحاول فيها تشكيل نواة لجيش محترف دائم. ومن الطبيعي أن تمر عملية إحلال مبدأ الجيش المحترف محل مبدأ الأمة المقاتلة بمراحل تدريجية، ولهذا نلاحظ تطبيق المبدأين خلال مطالع العصر العباسي. ولكن الظروف بعد العصر العباسي الأول تبدلت حين انتقلت السلطة إلى متسلطين أجانب فغدا الجيش مكونًا من "المرتزقة" يقوده أمراء أتراك أو بويهيون أو سلاجقة ولم يعد للخليفة العباسي جيش يستند عليه!

إضافة إلى ذلك فإن د. فاروق يشير إلى حقيقة مهمة، وهي أن الكتابة عن الجيش فرصة يجب أن ينتهزها الباحث للرد على الافتراءات التي يدّعيها المؤلفون العسكريون الأوروبيون من أنّ أسس التنظيمات العسكرية والتعبوية هي من ابتكار العقل الأوروبي، ويضرب مثلاً على ذلك في أنّ المتعارف عليه في أوروبا بأن فكرة (الحرب الإجماعية) ابتكرها المشير الألماني لودندروف حين أصدر كتابه الموسوم (الأمة في الحرب) سنة 1945م، بينما تؤكد كتب التاريخ أن هذا المبدأ هو من ابتكار العرب منذ سنة 625م حيث طبقوه بالفعل.

ويرى المؤرخون الأوربيون أن خالدًا بن الوليد أخذ نظام "الكراديس" من البيزنطيين وطبقه في اليرموك بينما نلاحظ -استنادًا إلى إشارة عمرو بن العاص- أن نظام الكراديس طبّق في معركة أحد. وأنه كان معروفًا في حروب العرب قبل الإسلام.

وبعد ذلك كله يرى د. فاروق أن تاريخ الجيش العربي الإسلامي لم يتيسر له أن يكتب بعد.. صحيح أنّ هناك بحوثًا أو دراسات لا بأس بها إلا أنها لم تبلغ المستوى

المطلوب لا من حيث المادة ولا المنهج والتحليل. ولعل أحد الأسباب وراء ذلك قلة المادة التاريخية في المصادر المنشورة وعدم الاهتمام بتحقيق مصادر التراث العسكري العربي لحد الآن.

أشرنا فيما سبق بأن د. فاروق قد ركز على الحركات الدينية - السياسية في المجتمع الإسلامي، وظهرت بحوثه متتابعة في مجلة (آفاق عربية) ثم جمعها وأضاف إليها في كتابه (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين)، إلا أنه خصّ الحركة الشعوبية بالكثير من الاهتمام، وحاول في العديد من البحوث الجديدة أن يكشف خبث نواياها وحقدها على العروبة والإسلام معًا فكتب سلسلة بحوث مطولة جمعها في كتابه الموسوم (مباحث في الحركة الشعوبية) الذي طبع طبعتان، وقد نشر آحد النقّاد نقدًا مطولاً عن الكتاب نقتبس منه ما يلي:[12]

"الشعوبية حركة فكرية اجتماعية، قامت بها جماعات غير عربية بهدف ضرب الكيان العربي من خلال ثقافته وإرثه الحضاري، وذلك بالتقليل من شأن اللغة العربية ومهاجمة التراث العربي الإسلامي والتشكيك بدور العرب التاريخي والاستهزاء بالقيم والمثل العربية مقابل الاعتزاز بالإرث الحضاري الأعجمي والتمجيد بالقيم والسجايا غير العربية وإحياء الثقافات الأعجمية.

ولما كانت العروبة والإسلام صنوين مترابطين خلال القرن الأول الهجري وحتى القرن الثالث الهجري، لذلك لم تهمل الشعوبية الإسلام بل هاجمته في الصميم.. محاولة بث روح التشكيك في قيمه الجديدة ونشر روح الاستخفاف والاستهتار عموماً تحت ستار الظرف المجون والفكر الحر.

لقد كان سلاح الشعوبية فكريًا وثقافيًا، وهو سلاح أشد من القوة المسلحة في هدم كيان الأمة والتشكيك في ذاتها سياسيًا وحضاريًا. وقد مرت الشعوبية بمرحلتين:

المرحلة الأولى: كانت فيها الشعوبية نزعة غير منظمة، ومتسترة باسم (أهل التسوية) وقد شملت هذه الفترة العصرين الأموي والعباسي الأول حتى بدايات القرن الثالث الهجري، وكان لابد لهذه الحركة وهي في بداياتها غير المنظمة أن تتستر باسم الدين - خاصة أن التفوق كان لا يزال للعرب بسبب الدور التاريخي النشط الذي يقومون به.

أما المرحلة الثانية: فتبدأ حين أخذت الحركة الشعوبية تكشف عن أهدافها كحركة منظمة ذات خطط مدروسة ونوايا متبلورة. إذ أن استمرار اعتماد العباسين على العرب، برغم توسيع قاعدة اعتمادهم لتشمل غير العرب واستمرار اتجاههم نحو الثقافة والإرث العربيين أدى إلى رد فعل عنيف وجهد منظم لمسخ التراث العربي واستبداله بتراث أعجمي. وهذا ما نسميه في هذه المرحلة (بالشعوبية).

وفي هذه المرحلة تبدو الشعوبية على طبيعتها العنصرية، ويختفي مصطلح (أهل التسوية). وقد لاحظ الجاحظ ذلك. فقال أن الشعوبية تتحلى وتتستر باسم (أهل التسوية).

ويمكن القول أن النجاح الذي حققته العربية لغة السياسة والإدارة والمالية والثقافة بالإضافة إلى الدين قد جعل المثقفين الأعاجم يقومون بمحاولات جدية للحفاظ على لغتهم من الضياع، اتبعت وسائل عديدة منها:

1- ترجمة التراث الفارسي الأدبي إلى العربية.
2- التأكيد على التاريخ والثقافة الفارسيين وإظهارهما بمظهر المتفوق على التاريخ والإرث العربي.
3- كتابة وتلفيق مؤلفات جديدة تظهر أهمية العجم وتمجد دورهم الحضاري.

لقد كانت هذه الخطوات بداية للصراع الفكري والاجتماعي بين العروبة والشعوبية ما لبث أن تطور ليصبح صراعًا عنيفًا لتقرير مصير الثقافة العربية الإسلامية بكل ما أفرزته من قيم ومثل واتجاهات. وبمعنى آخر فإن الصراع كان حول جوهر الثقافة. هل تكون ثقافة غير عربية تبتلع الثقافة العربية الإسلامية أم تكون ثقافة عربية إسلامية، يكون فيها للإرث الأعجمي منزلة صغيرة؟

أما المظاهر التي ركزت الشعوبية الهجوم عليها فهي:

1- التراث الأدبي العربي.
2- التاريخ العربي.
3- النسب العربي.
4- العقيدة الإسلامية".

ولعل المطّلع على تجربة د. فاروق في الكتابة التاريخية يكتشف أن له مساهمة في أغلب حقول هذا التاريخ العربي فيكاد يصدق عليه المثل الإنكليزي القائل: "له أصبع في كل كعكة".

He has got a finger in every pie...

وقد بدأ اهتمامه البحثي بتاريخ فلسطين مع بداية السبعينات حين أصبح عضوًا في الهيئة الاستشارية لمركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد. وكتب عدة بحوث ومقالات في هذا الميدان، وقد توّج هذا النشاط بكتاب (تاريخ فلسطين في العصور الإسلامية)، ثم وسع هذا الكتاب بالاشتراك مع د. محسن محمد حسين فغدا كتابًا منهجيًا لطلبة كليات الآداب واللغات بجامعتي بغداد وصلاح الدين في العراق.

إن منهجية د. فاروق في كتابه هذا تظهر واضحة من مقدمته حين يقول: "إن هدف هذا الكتاب هو تتبع تاريخ (الشخصية الفلسطينية) المميزة عبر الفترة الزمنية موضوعة البحث وارتباط هذه الشخصية بالشخصية الحضارية الأم للمنطقة العربية الإسلامية، لذلك انحصر الاهتمام على إبراز موقع فلسطين في كل عصر من العصور الإسلامية ودور شعب فلسطين في الأحداث وتميزهم عن غيرهم، فقد كان من المهم إثبات زيف الدعاية الصهيونية حول فقدان الشخصية الفلسطينية عبر التاريخ".

ويقول في مكان آخر من المقدمة:

"ولسوف نلاحظ من خلال فصول هذا الكتاب أنّ التاريخ يؤكد حق الفلسطيني في وطنه الذي شوّهت الدراسات الأوروبية تاريخه، تلك الدراسات التي تسود كثيرًا منها روح الحقد وعقدة الذنب تجاه اضطهاد اليهود الأوربيين. ولذلك اندفع عدد من الكتاب الغربيين للعمل على إنكار المقوّمات الثقافية والحضارية في ماضي هذه الأمة.. وهذه ظاهرة فكرية تحتاج في تفسيرها إلى تفهم الأسس النفسية لأقدم العلاقات بين الشرق والغرب ذلك لأن ما يفكر به بعض الغربيين نحو الشرق العربي الإسلامي متأت من انفعالات وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة وعميقة الجذور حيث حروب الفرنج (الصليبين) وقبلها. من هنا جاء تعليق أحد المستشرقين حين قال: "لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين".

لقد كان هذا الكتاب رائدًا في مجاله من حيث الفترة الزمنية موضوعة البحث فقد علّق أحد الأساتذة الأكاديميين عليه: "وجدتُ في الكتاب إخلاصًا للحقيقة التاريخية واستقصاءًا للمادة.. ما يجعله أهلاً للاعتماد".[13]

ونقطة أخرى ساخنة في التاريخ العربي الإسلامي تصدى لها مؤرخنا وعالج العديد من مظاهرها وأحداثها التاريخية وهي منطقة الخليج العربي، فقد نبّه إلى الأطماع الأجنبية في هذه المنطقة منذ أوائل السبعينات حين كتب مقالة في جريدة (الصحافة) العراقية تحت عنوان: "ليحذر العرب خطة المراحل جزر الخليج من الاستعمار البريطاني إلى الاحتلال الفارسي" سنة 1971.

ومن بحوثه حول منطقة الخليج ما يتصل منها بالوعي العربي الإسلامي وبواكيره وانتشار العرب على الساحل الشرقي للخليج وقد توّج ذلك كله بكتاب في (تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية) أشار فيه: "أن الدراسات التاريخية الموضوعية عن الخليج العربي ما تزال قليلة وحتى هذا القليل منها يفتقر إلى التفسير الذاتي والتحليل المنهجي الموضوعي إلى جانب ما يعانيه من عقد وهواجس ونزعات سياسية واجتماعية وسوى ذلك.

فلابدّ من نظرة إلى الخليج العربي باعتباره وحدة متكاملة بشريًا وحضاريًا.. ولابد من إبراز دور العراق في تلك الفترة، فليس من قبيل المصادفة أن تناط مسؤولية الخليج العربي خلال تلك العصور التاريخية بالعراق... وهي مسؤولية ليس بالإمكان إهمالها إن على مستوى ما كان له في الماضي أو نطاق ما يتحقق على خريطة الحاضر الراهن".[14]

وهكذا يأتي هذا الكتاب على نمط كتاب تاريخ فلسطين آنف الذكر ليغطي فترة زمنية طويلة بالغة التعقيد تمتد منذ صدر الإسلام وحتى بدايات العصور الحديثة، وهي فترة لم تحظ باهتمام مؤرخينا المحدثين على الرغم من أهمية الدور الذي لعبه الخليج في تلك الحقبة التاريخية، وقد أخذ الكتاب طريقه في الانتشار ونفذت طبعته الأولى وطبع طبعة ثانية مزيدة، ونشرت مجلة مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة عرضًا نقديًا له جاء فيه: "... تتضح لنا الأهمية المتميزة لكتاب الدكتور فاروق عمر فوزي الذي عالج تاريخ الخليج العربي في العصور الوسطى معالجة قومية حين درس الأقاليم العربية الأربعة: العراق، عمان، البحرين، الأحواز"، وهو بذلك يقدم الصورة المتكاملة لموضوعه.

لقد أوفى المؤلف الكتاب حقه وجاء عنوانه مطابق لمحتواه.. كما أوفى الدراسة حقها بتتبع ودقة وما أحوجنا إلى مثل هذه المؤلفات العلمية الرصينة عن تاريخ الخليج العربي وتأكيد وحدته وعروبته للوقوف بوجه الأطماع الأجنبية...". (15)

وقد أشرنا سابقًا أنه ابتداءً من منتصف السبعينات دعته مجلة (آفاق عربية) الواسعة الانتشار لكتابة بحوث ومقالات شهرية تصدر تباعًا في المجلة، فكانت تلك الدعوة فرصة لإعادة تقويم العديد من المظاهر التاريخية. كما استخدم د. فاروق هذه المقالات لتأكيد دور التاريخ في عملية التوعية ذلك لأنه يعتقد بأنَّ: "التاريخ لا يُعرفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب بل أنه عملية توجيه وتوعية وتعبئة متكاملة للجيل الجديد... فنحن حين نؤكد على مواقف تاريخية معينة للأفراد أو الجماهير فهدفنا من ذلك تكوين أنماط سلوكية إيجابية لدى النابتة أو الشباب الذين يحتاجون لنماذج وأمثلة يحتذون بها.

إنَّ التاريخ إذا وظّف بصورة صحيحة يمكن أن يخلق الشخصية الإيجابية ذات الأثر الفعّال في مجرى الحياة القومية والوطنية...". (16)

وكان لمقالاته وبحوثه الشهرية في (آفاق عربية) صدى واسعًا نتج عنه ردود فعل مختلفة بين مؤيد ومعارض وقد حصل من خلالها الدكتور فاروق على لقب "الشهري في آفاق" !!. وكانت هذه البحوث في جملتها خلال السبعينات تتعلق بالحركات الدينية - السياسية كالبابكية والخرميّة وكذلك بحركات الزنج والقرامطة وحركات الغلاة والباطنية. ولم تكن بحوث د. فاروق هذه سردًا وصفيًا بل كشفًا تحليليًا لهذه الحركات، وضع فيها النقاط على الحروف دون لبس أو إبهام، وردّ فيها على آراء بعض المستشرقين في تمجيد هذه الحركات.

وكانت للدكتور فاروق مساهمات أخرى في الحركة الفكرية مؤكدًا أهمية التاريخ في بث الوعي لدى الأمة فقد كتب في المجالات والجرائد في مناسبات مختلفة، جاعلاً من التاريخ أداةً تُعد الفرد وتؤهله لحياة يدرك فيها واجباته ومسؤولياته فلا يتهرب منها وذلك من خلال إبراز الأمثلة والنماذج التاريخية التي يحتذى بها. وهذه كما يقول د. فاروق - "الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لا يمكن أن يؤديها غير التاريخ من العلوم الاجتماعية الأخرى. فالمؤرخ أي مؤرخ ينتمي إلى أمة وعليه أن يكون تخلصًا لأمته مواليًا لها مثل ولائه للحقيقة والإنسانية، وعلى المؤرخ تقع

مسؤولية تبصير مواطنيه بقضايا أمته المصيرية وأزماتها، وأن يقف إلى جانب أمته منذرًا ومبشرًا".

وفي مجال الكتابة باللغة الإنجليزية لم يكتف د. فاروق بأطروحته التي كتبها بطبيعة الحال باللغة الإنكليزية، بل استمر يكتب باللغة الإنكليزية لكي تصل آراؤه إلى قراء الإنكليزية. فكتب مقالات في دائرة المعارف الإسلامية، ودائرة المعارف البريطانية وفي مجلات أكاديمية مثل مجلة (أرابكا) التي تصدرها جامعة السوربون بباريس ومجلة (الثقافة الإسلامية) التي تصدر بالهند. (ومجلة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط)، وظهرت له مقالات في المجموعات التي تنشر بعد كل مؤتمر تاريخي شارك فيه. كما ظهر له كتاب باللغة الإنجليزية بعنوان (عباسيّات) ضم مجموعة مقالات وبحوث في التاريخ العباسي، وكتاب آخر بعنوان (نصوص تاريخية)، وشارك في كتابة فصل في كتاب اليونسكو الموسوم (التاريخ العلمي والثقافي للبشرية). وظهرت مقالات أخرى له في (مجلة العرب) بالرياض ومجلة (المكتبة) ببغداد ومجلة (مركز الدراسات الفلسطينية) بالإضافة إلى ظهور عدد منها في الصحف اليومية. ومن مساهماته البارزة البحث الذي قدّمه إلى مهرجان العالم الإسلامي بلندن سنة 1975م، عن (توريني والحق العربي في فلسطين).

كذلك كان له ضلع في الترجمة؛ حيث ترجم كتاب (العلاقات العربية الأمريكية في الخليج العربي) لمؤلفه إميل نخلة ونُشر بجامعة البصرة، كما ترجم بتصرف كتاب (مروان بن محمد) لدينت وكتاب (الوزارة العباسية)، القسم الأول، لسورديل، كما جمع كافة البحوث باللغات الأجنبية من إيطالية وألمانية وروسية وفرنسية والتي ترجمها له مترجمون مختصون إلى اللغة الإنجليزية ونشرها كمحرر editor في كتابين.

ولعلنا بعد هذا كله نستطيع القول بأنّ منهج د. فاروق في كتابة التاريخ اتخذ اتجاهين:

الأول: الاتجاه العلمي التخصصي ويظهر فيه د. فاروق مؤرخًا متمرسًا يتميز بالموضوعية والدقة العلمية والضبط ولا يحيد عن التقاليد الأكاديمية المتبعة في منهج البحث التاريخي.

الثاني: الثقافة التاريخية العامة الموجهة إلى جمهور المثقفين المهتمين بالمعرفة والثقافة التاريخية، وينبع هذا الاتجاه من الشعور بأهمية التاريخ في ثقافة المواطن

وضـرورة معـرفتـه لأسـاسـيـات تـاريخـه ورمـوز البطولة فيـه وإنجـازاته الحضـارية، وهـي ثقافة معرفية لابد منها لأي مجتمع من المجتمعات.

وفي المحـور الثـاني لا يلتـزم بحـذافيـر المنهج التـاريخي أو الطـريقـة العلميـة في عـرض المادة لأنهـا ربما تبـعث الملل لدى للمثـقف العـام. وقـد ظهـر للدكـتـور فـاروق مجموعة مقالات وبحوث وكتب لعلّ منها: ما ظهر له ضمن سلسلة (هيئة إعادة كتابة التاريخ) في العراق.

وحينمـا نسـأله عن مميـزات "المدرسـة" العـربيـة الحـديثـة لكتـابة التـاريخ... يقـول: "ليس هنـاك مدرسـة واضـحـة لكتـابة التـاريخ العـربي، ولكن هنـاك مـؤرخـون بـارزون مـختصـون في عصـر من العصـور التـاريخية، فـالمرحـوم د. جـواد علي كان رائدًا في الكتابة عن تاريخ العرب في قبل الإسلام، والدكتور صالح العلي رائدًا في كتاباته في التـاريخ الاجتمـاعي والاقتصـادي لصـدر الإسـلام، والدكتـور عبـد العزيـز الدوري رائدًا في كتاباته عن التاريخ الاقتصادي وتاريخ العصر العباسي وقس على ذلك في أقطار الوطن العـربي. ولهـؤلاء المؤرخين وغيـرهم أنصـار ومـريدين إلا إنه لم تظهـر بعـد مدرسة تاريخية عربية لهـا صفاتها يمكن أن ترتبط بمؤرخ ما تنفرد بها عن المدارس الأخرى.

إن كل ذلك يشـيـر إلى ظهـور بعض المؤرخين العـرب الذين عـالجـوا مـوضـوعـات تاريخيـة متنوعة فـأعادوا تركيبها وتقـويمها وتفسيرهـا تفسيرًا جديدًا، وأن بعض ما كتب في هذا الشـأن ضم معرفـة تاريخيـة دقيقة ومـوثقة تدل على جهد كبير وترتكز على منهجية تاريخيـة متميزة. كما وأن هذه الدراسـات قد تجاوزت بكثير ما كتب في السابق من دراسات استشراقية أو عربية.

إن الاتجاه الجديد في كتابة تاريخ العربي الإسلامي والذي يمثله مؤرخون بارزون قليلون يعـتـمد "النظرة الشـموليـة" في التفسيـر ويتـخـذ سـبيـل كتـابة التـاريخ بهـدف تصـحـيح مـفـاهيـمه مما علق بـه خـلال العـقـود المـاضيـة. وهـذا الاتجـاه ليس "تقليـديًا" "متشـددًا" ولا "عنصـريًا" استعـلائيًا بل يعتـمد على أكثـر من عامل واحـد في تفسيـر التاريخ، ويرى أن الواقعة التاريخية لا يضرها أن تفسر بهذا التفسير أو ذاك شرط اعتمـاد الطريقـة المنهجيـة في البحث التـاريخي التي تسـتند على وثائق ومـخطوطات ونصـوص صـحيـحة مسـتقاة من الأصـول. ولعلنا نضيـف بأن هؤلاء المؤرخين المفكرين ذوي النظرة الكلية الشـمولية والذين يروجـوا إلى ثقافـة المعـرفة يلاقـوا معـارضـة من

التقليديين والمتشددين والعنصريين والمنتمين إلى مدارس قديمة - جديدة ممن لا يريدون التجديد والتغيير في الدراسات التاريخية في الجامعات ومراكز البحوث وغيرها. ولعلي أستطيع القول بأنني قد كسرت قاعدة عدم التعرض لنقد الحركات الدينية - السياسية ولمن كتب عنها من الأوائل والمحدثين، وكنت مستعداً لدفع الثمن.

Ibroke the rule and paid the price...

الهوامش:

(1) مجلة الوطن العربي، أيلول، بيروت، 1984م، ص 68 - 69.

(2) رسالة إلى الملحقيّة الثقافية العراقية بلندن، مؤرخة في 1967/6/8م، المملكة المتحدة.

(3) جريدة القادسية 1987/8/16م، بغداد، العراق.

(4) جريدة العراق 1986/3/23م، بغداد، العراق.

(5) راجع كشّاف مجلة آفاق عربية الذي صدر في الثمانينات، دار آفاق عربية للنشر والتوزيع، بغداد، العراق.

(6) مقدمة الطبعة الثانية لكتاب (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين)، د. فاروق عمر، بغداد، 1985م، ص8.

(7) نعمت محمد جواد، أبو العباس عبدالله بن محمد، أطروحة ماجستير في التاريخ الإسلامي، آداب بغداد، 1989م.

(8) راجع فهرس الكتب المنشورة للدكتور فاروق عمر فوزي في ملاحق هذا الكتاب.

(9) راجع مقدمة د. فاروق في الجزء الخاص بأصالة الحضارة العربية الإسلامية من كتاب (العراق في موكب الحضارة)، 1988م، بغداد، العراق.

(10) راجع جريدة الثورة، حضارة مزدهرة في تاريخ مزدهر، في 1985/3/25م، بغداد، العراق.

(11) المرجع السابق نفسه.

(12) جريدة الجمهورية، 27 شباط، 1987م، بغداد، العراق.

(13) في رسالة شخصية بعث بها الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل في 1989/2/14م إلى المؤلف.

(14) راجع الطبعة الثانية للكتاب في بغداد، دار واسط، 1985م.

(15) راجع: مجلة مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1988م.

(16) دور التاريخ في التوعية القومية، الموسوعة التاريخية الميسرة، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988م.

الفصل الثالث

مساجلات في موضوعات تاريخية

"Books are the bees which carry the quickening pollen from one to anther mind"

James Russell Lowell

"يستنتج الدكتور فاروق عمر خلال أبحاثه بأن الثورة العباسية ضد الحكم الأموي كانت من البدء حركة عباسية خالصة، ظهرت بواجهات متعددة ورفعت شعارات مختلفة، حاولت كسب المتذمرين من الحكم الأموي واستغلت بدرجة كبيرة ظروف القبائل العربية في خراسان. ويؤكد عمر أن هذه القبائل العربية كانت القوة الفعّالة في الجيش الخراساني...

وأيًا كانت النتيجة فإن أبحاث الدكتور فاروق عمر وبعض زملائه المؤرخين قد ساعدت على رفع مستوى المنافسة العلمية في هذا الموضوع ارتفاعًا ملموسًا. وأعتقد أن هذا التقدم العلمي من أعظم المكاسب في مجال كتابة تاريخ العرب في هذا القرن. وربما عد نجاحًا في الجدل المستمر ضد التيارات العقائدية والمتشددة والجمود في كتابة التاريخ. ويُعد ذلك أيضًا نجاحًا لمقاومة التقليد الأعمى لآراء السابقين من المستشرقين والمؤرخين العرب، حيث يعتمد العِلم الصحيح في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة".

W . Ende, Arabische Nation..., Beinut, 1977, pp. 257 tt.

" I borke the rule and paid the price"

Farouk Omar Fawzi

الفصل الثالث

مساجلات في موضوعات تاريخية

المتتبع لمطارحات د. فاروق يخيّل إليه أنه يحاول أن يساهم في بلورة نزعة نقدّية في التاريخ لها منهجها، وأن يكسب لهذه النزعة المريدين من تلامذته في الدراسات العليا الذين غدا بعضهم ضمن الكادر التدريسي في الجامعات، ولعل الأستاذ الدكتور بشار معروف قد وصف هذا الجانب حين قال:

"ومن هؤلاء الخيرين النجباء فاروق عمر- أحد شيوخ التاريخ في آداب بغداد الذي كان له الباع في المطارحات التاريخية والحضارية والموازنات الفكرية في جانبيها، الإيجابي الخير الذي يتحرى الكرامة التي تعهد بها الخالق الكريم هذا المخلوق الإنسان في خلقه وبعثه... والآخر السلبي الذي ينكص به عن تلك الكرامة يخسره الدنيا والآخرة، فكان له جملة صالحة من الدراسات في هذا الشأن...".

بدأ الدكتور فاروق مشواره بمساجلة تاريخية صعبة حين عقد نيته وتحلى - كما يقول تقرير أستاذه عنه - بالصبر ليعيد قراءة "الدعوة العباسية" التي أساءت إليها الدراسات غير المنصفة فأعادها إلى "العروبة" ونقّاها من معظم ما علق بها من أوشاب وتشويه، وكاد يخلص بها "هاشمية" تفقه إرادة التغيير... فكانت تلك الدراسة مفتاحًا لحسن الاعتقاد والاندفاع الحر في إعادة تقويم الأشياء والوقائع.... "وتعريب" التاريخ بأمانة علمية وبمنهجية تاريخية واضحة. فزادت دراساته من إنتباهة أبناء الأمة إلى الخطورة المحدقة بالثقافة العربية وخاصة في بعدها التاريخي الحسّاس.

وبعد حصوله على الدكتوراه وعودته إلى الوطن بدأ بطرح فكرته الجديدة عن "الدعوة العباسية" من خلال محاضراته على طلبة الجامعة والندوات. ومن خلال المقالات في المجلات العلمية والجرائد والمجلات الثقافية، ولم يضع شروطًا خاصة في سبيل نشر أفكاره أو بحوثه، لأن المهم عنده نشر الكتاب وخروج المقالة إلى النور. ومن الطبيعي أن تكون ردود الفعل مختلفة بين مؤيد ومعارض، ومن الطبيعي أن تأخذ الفكرة الجديدة وقتًا طويلاً كي تجد طريقها إلى أوساط المثقفين. على أن د.

فاروق وجد مجالاً لطرحها وخاصة في محاضراته الجامعية والكتب المنهجية حيثما كان عضوًا في لجنة تأليف أو لجنة تنقيح!!.

وإذا كانت الفرصة الأولى للمساجلة قد تهيأت في أطروحة الدكتوراه، فإنّ الفرصة الثانية تهيأت حين دعته مجلة (آفاق عربية) الواسعة الانتشار لكتابة سلسلة مقالات متتابعة تنشر شهريًا حول موضوعات من التاريخ العربي الإسلامي. وقد استغل هذه الفرصة وكتب جملة مقالات في الفترة بين منتصف السبعينات وبداية الثمانينات من القرن العشرين، كان لها صدى واسعًا قطريًا وعربيًا حتى غدا اصطلاح "الشهري في آفاق" لقبًا من ألقابه. ويمكن أن نصف مجموعة بحوثه هذه بأنها إعادة قراءة ونقد لآراء استشراقية في تاريخ الحركات الدينية - السياسية ومظاهر تاريخية أخرى شاعت في أوروبا ورددها العديد من المؤرخين العرب، حتى غدت حقائق مسلم بها لا لصحتها تاريخيًا بل لكثرة ترددها في كتب ومقالات بعض المؤرخين. فقد أعاد الاعتبار - مثلاً - إلى العصر العباسي الأول موضحًا دور العرب فيه كقوة سياسية وعسكرية وإدارية، وقوة الثقافة العربية الإسلامية واحتوائها الثقافات الأخرى نافيًا عنه الصفة التي وصفته "بعصر النفوذ الفارسي". كما أوضح في بحث آخر مدى المبالغة التي صوّرت بها شخصية أبي مسلم الخراساني باعتباره "صانع الدولة" بينما كان هناك من الشخصيات العربية من لعب دورًا مساويًا أو أهم منه، وأن العمل في الدعوة العباسية كان جماعيًا لم يعتمد على فرد واحد بعينه.

وفي بحوث متتابعة وضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بحركات كان المثقف العربي عمومًا ينظر إليها نظرة "تقدير" باعتبارها حركات - كما زعم المستشرقون - دعت إلى المساواة والعدالة وحرية الفكر أمثال: الشعوبية والزندقة والزنج والقرامطة. وقد حرّكت هذه المقالات بعرضها الموضوعي ومنهجيتها العلمية الحوار الثقافي في السبعينات في الوسط الجامعي والأوساط الثقافية خارج الجامعة، فكان صاحبها يتسلم العديد من الرسائل والمكالمات الهاتفية حولها، بل أنه، وكما يقول، تعرّف على أصدقاء وزملاء بعضهم في عمر والده ممن كانوا يتصلون به هاتفيًا أو يزورونه مشجعين ومقترحين مواضيع جديدة للكتابة عنها!! فكانت هذه الالتفاتات والإيحاءات أعظم "مكافئة" تلقاها عن جهده في هذا الميدان وتحفل مجلة آفاق عربية بالعديد من هذه البحوث، رحم الله رئيس تحريرها الدكتور شفيق الكمالي.

كما عمل د. فاروق ومن خلال النشر في لبنان على جمع معظم هذه البحوث ونشرها في كتاب واحد سنة 1980، حيث لقي رواجًا لنظرته الجديدة وإعادة تقويمه لمظاهر تاريخية "متفق" على تفسيرها!! وقد نشر الكتاب بعد ذلك التاريخ عدة مرات في بيروت بصورة غير مشروعة ودون علم المؤلف. كما طبع سنة 1985م في بغداد طبعة مزيدة ومنقحة وهو الكتاب الموسوم (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين).

أما الفرصة الثالثة التي سنحت للدكتور فاروق ليبدي فيها وجهة نظره حول الكتابة التاريخية فهي مجموعة (الموسوعات التاريخية) التي أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية والتي شارك في تحرير فصولها نخبة من المؤرخين العراقيين، فكان رئيسًا لتحرير موسوعة (العراق في موكب الحضارة .. الأصالة والتأثر) وكتب فيها عن الأصالة في حضارة العراق في العصور العربية الإسلامية. أما في موسوعة (حضارة العراق) فكتب عن الوزارة ونظامها، وفي موسوعة (الجيش والسلاح في العراق) كتب فصولاً عديدة عن عناصر الجيش وعن الرايات والألوية وشارك في الكتابة عن التعبئة والأصناف والمعارك، وفي موسوعة (العراق في مجابهة التحديات) عن الحركات الهدمية في التاريخ الإسلامي. وكان هدف هذه الموسوعات شحذ وعي العراقيين بتاريخ وطنهم العريق وتراثه الأصيل.

وجاءت الفرصة الرابعة حين دعت (هيئة كتابة التاريخ) في العراق إلى إعادة تقويم المظاهر التاريخية، وقد شارك د. فاروق في كتابة عدة بحوث في هذا المشروع منها: عروبة الثورة العباسية. دور التاريخ في التوعية القومية، الفكر العربي في مجابهة الفكر الشعوبي. الخليفة المجاهد هارون الرشيد. الخليفة المحنّك الناصر لدين الله. المؤرخ خليفة بن خيّاط... إلخ.

ومن خلال مركز الدراسات الفلسطينية التابع لجامعة بغداد كانت الفرصة الخامسة للبحث في تاريخ فلسطين وكتابة البحوث التي نشرها في إعداد مجلتها منذ منتصف السبعينات، وقد كشف بعض مغالطات المستشرقين فيما يخص تاريخ فلسطين، وعلى سبيل المثال لا الحصر الامتيازات المزعومة التي منحها الرشيد لشارلمان وكذلك موقف السلطان عبد الحميد من مقترحات هرتزل، وآراء المؤرخ تويني حول فلسطين. ومن مساهمات الدكتور فاروق في نشاطات مركز الدراسات الفلسطينية إشرافه على تحرير كتاب المركز الموسوم (يهود الأقطار العربية) الذي

صدر سنة 1989م وقبل ذلك إشرافه على تحرير (تاريخ فلسطين الوسيط)، وهو من منشورات مركز الدراسات الفلسطينية. وكان محور الاستشراق من المحاور التي كتب فيها الدكتور فاروق، وقد بدأ نشاطه في هذا الباب حين دعته دار الشؤون الثقافية العامة العراقية للمشاركة في ندوة عن الاستشراق فكتب عن (الاستشراق وتاريخ العصر العباسي) ثم كتب عن (الكتابة التاريخية الفارسية وموقف الاستشراق) ثم (الاستشراق ومشكلة الموالي)، كما تعرّض للدراسات الاستشراقية في معرض بحثه عن (المدرسة التاريخية العراقية المعاصرة في الدراسات العباسية)، ونقد عددًا من كتب وبحوث المستشرقين. بل إن كتابه (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين) والذي أشرنا إليه سابقًا يُعد ردًا على رؤى استشراقية في موضوعات تاريخية عربية إسلامية.

من ذلك وغيره نلاحظ بأنّ الدكتور فاروق ساهم في بلورة نزعة في النقد التاريخي. وكان نقده يتسم في ردوده على نبرة حادة نابعة من غيرته على تاريخ الأمة، وهذه النبرة القوية هي في الواقع، نفسها التي اتسمت بها بعض كتابات المثقفين والمؤرخين العرب والمسلمين الرواد في ردودهم على النزعات التشكيكية.

ومهما يكن من أمر فإنّ المتتبع لجهود د. فاروق في النقد التاريخي وردود الفعل على ذلك وما واجهه من انتقادات ينتهي به الأمر إلى أن الوقت لم يحن بعد في الوسط الثقافي العربي لتقبل النقد باعتباره ظاهرة علمية هدفها دفع البحث العلمي نحو مستوى أفضل، ذلك لأنّ النقد أو الرأي الآخر والرأي المعاكس لا يزال ينظر إليه على أنه عملية هجومية وظاهرة استفزازية موجهة إلى شخص الكاتب وليس إلى عمله، ولهذا يكون رد الكاتب على الناقد يكون بمستوى شخصي واستفزازي خالٍ من العلمية والموضوعية. وفي بعض الأحيان تأخذ الحميّة زملاء الكاتب الذي تعرّض عمله للنقد فيتعاونون معه لإعداد ردّ يصل في قناعاتهم أعلى درجات الهجوم الشخصي. وهؤلاء كما يقول إبراهيم المازني من المنافسين له في ميدان تخصصه ولا يروق لهم أن يرون كلامه مطبوعًا ومنشورًا في بحوث ومقالات!!

على أن اليوم الذي سيعطى فيه للنقد التاريخي مكانته وأهميته في كتابة التاريخ سيأتي لا محالة، وحسبه أنه وضعت لبنة في أساس هذه الظاهرة مثلما فعله بعض زملائه في هذا الباب.

ولعل من المقالات النقدية التي اشتهرت في الأوساط الثقافية ما يلي:

- نقده لمقالة هادي العلوي عن حركة الزنج.
- نقده لمقالة عبد الجبار ناجي عن حركة الزنج.
- نقده لمقالة حسين العزيز عن الشعوبية.
- نقده لكتاب "البابكية انتفاضة الشعب الأذربيجاني ضد الخلافة العباسية" لحسين العزيز.
- نقده كتاب "الزندقة والشعوبية" لسميرة الليثي.
- نقده للنظرة حول دور الموالي ومركزهم في المجتمع الإسلامي.

وإليك نماذج من النقد التاريخي للدكتور فاروق في تقويمه الجديد للدعوة العباسية ونقده لتفاسير المستشرقين في محاضرة ألقاها في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض سنة 1968، وفي نقده للنظرة الاستشراقية عن دور العرب في العصر العباسي الأول، سنة 1980م، وفي بحثه الذي ألقاه في ندوة وحدة الدراسات العمانية في جامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية، عن المشادة بين المؤرخين حول المؤرخ العُماني العوتبي الصحاري سنة 2004م. ولعل د. فاروق يظهر في هذه الأبحاث المنتقاة صريحًا يقتحم على القرّاء بآرائه ولا يبالي من رضى ممن سخط منهم والذين لا يروق لهم أن يأتي بالجديد أو أن يروا كلامه مطبوعًا ومنشورًا في أمهات المجلات العلمية المحكمة بالعربية والإنكليزية.

النموذج الأول

تقويم جديد للدعوة العباسية[1]

لقد بحث الكثير من المؤرخين المحدثين شرقيين وغربيين في تاريخ الدعوة وما حدث في أعقابها، وجاء قسم منهم بتفاسير جديدة أو بأفكار مبتكرة أو بدراسة استقصائية. ولكن هؤلاء الباحثين الذين ظهروا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين كان يعوزهم الشيء الكثير، فقد اعتمدوا في الغالب على مصادر كانت متيسرة لديهم في ذلك الوقت وهي قليلة بالنسبة لما لدينا الآن

من كتب محققة تحقيقًا جيدًا، ومخطوطات سهلة المثال ومصنفة في مكتبات العالم الكبرى، وعلينا بعد ذلك أن نتذكر بأن بعض من بحث في التاريخ الإسلامي من الرعيل الأول من المستشرقين لم يكن في الواقع مدربًا كمؤرخ فقد كان ينقصه الشيء الكثير مما يحتاجه المؤرخ. فالمعروف أن عددًا من المستشرقين كان بدء ولعهم بتاريخنا من خلال دراساتهم للتوراة والإنجيل والدراسات اللاهوتية الأخرى، وهناك نوع آخر من المستشرقين تعرفوا على تاريخنا بطريق الصدفة حينما وجدوا أنفسهم في بلادنا أثناء أداء الخدمة العسكرية أو الخدمة الدبلوماسية أو البعثات التبشيرية. أما الجيل الجديد من المستشرقين فقد درسوا تاريخنا عن قصد ورغبة وبعد تدريب وإعداد جامعي على التحقيق العلمي، ولكن بعضهم دون شك وقع في أخطاء في تفسيراته التاريخية بسبب ضعف في لغته العربية أو الفارسية أو التركية أو بسبب قلة معرفته ببيئة البلاد الإسلامية التي يكتب عنها وبتقاليدها. ولذلك كانت بحوث هذه الفئة من المستشرقين يعوزها الكثير من الدقة لكي تتصف بالأصالة. إلا أنني وأنا أتكلم عن هذا النوع من المستشرقين عليّ أن أتذكر وأعتز بأولئك المستشرقين الثقاة الذين خدموا تاريخنا وثقافتنا خدمة علمية موضوعية كأحد أبنائها.

لقد قلت قولي هذا لأنني ألاحظ كتبًا ألفها مؤرخون محدثون في وطننا العربي واعتمدوا فيها على تفاسير بعض قدماء المستشرقين دون تمحيص أو إعادة تقويم ولذلك وقعوا في عين الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المستشرقون. ورغم أن هذه الآراء الاستشراقية باتت قديمة في الغرب، وظهرت بدلاً منها تفاسير جديدة عدلت فيها وغيرت إلا أننا لا نزال حتى يومنا هذا نتداول هذه الآراء القديمة ونستند عليها ولا تزال كتب تصدر ومقالات تنشر تجتر تلك الآراء التي آن لها أن تستبدل. والمثال الذي سنورده هنا في إثبات رأينا هو "موضوع الدعوة العباسية" ذاتها.

لقد فسّر المستشرق الألماني فان فلوتن في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي الدعوة العباسية على أنها ثورة الموالي من الفرس ضد الحكام العرب. أي أن الثورة العباسية كانت ثورة قومية إيرانية ضد العرب الأسياد. لقد تأثر المستشرق فان فلوتن بالأفكار العنصرية التي كانت سائدة في أوروبا وخاصة ألمانيا آنذاك، ولذلك نظر إلى الثورة بمنظار الصراع بين الفرس والعرب أو الآريين والساميين، واستطرد فان فلوتن مفسرًا فقال أن سبب الثورة العباسية لم يكن إلا نتيجة الأخطاء التي

ارتكبها العرب في عهد الدولة الأموية التي فشلت في أن تعامل الشعوب غير العربية والتي اعتنقت الإسلام معاملة مساوية للعرب المسلمين، وقد أدى هذا التمييز في المعاملة على إنبعاث القومية الإيرانية كسلاح ذاتي للشعب الإيراني المضطهد.

ولقد وافق المستشرق الألماني ولهاوزن على رأي سلفه فان فلوتن وأخذ بأكثر تفسيراته وكأنها حقيقة مسلّم بها، على آن ولهاوزن انتبه إلى آثر وفاعلية القبائل العربية من أهل خراسان حيث خصص فصلاً طويلاً من كتابه منقبًا عن أصول القبائل والأحلاف التي كانت بينها.

على أننا نلاحظ بأن الخطأ الذي وقع به كلا المستشرقين هو أنهما نظرا بمنظار ضيق إلى طبيعة الدعوة العباسية. ففلوتن لم يحاول تفهم وضع خراسان قبل وقوع الثورة ومثله كمثل المؤرخ الذي يؤمن بقواعد ونظريات أو فكرة معينة ثم يحاول جمع مادته ورواياته التاريخية ليثبت صحة تلك النظرية التي يؤمن بها مسبقًا. والخطأ في البداية يقود بطبيعة الحال إلى الخطأ في النهاية. أما ولهاوزن فالحق أنه أدرك أهمية القبائل العربية المستقرة في خراسان، ولكنه رأى في النزاعات القبلية والعصبية بين هذه القبائل الأساس المحرّك لفعاليات شيوخها. بل أنه أكثر من ذلك تتبع جذورها قبل الإسلام متخذاً من أحلافها في الجاهلية دليلاً لتفسير أحلافها في الإسلام. كما وأن ولهاون لم يعر للظروف الجديدة التي نتجت عن هجرة القبائل إلى أقاليم جديدة مثل العراق وفارس وخراسان أية أهمية. ونحن نقول بأن الأحلاف الجديدة بين القبائل العربية في خراسان ربما تأثرت بالماضي حين كان العرب في جزيرتهم ولكنها دون شك تطورت وتبدلت بتبدل الظروف في بيئتهم الجديدة في خراسان. إن عدم إدراك ولهاوزن للتطور الجديد في العلاقات القبلية في خرسان وتعقيداته هو الذي جعله يظهر بمظهر المؤيد لفرضية فان فلوتن أكثر من كونه معدلاً لها أو مقومًا لبعض جوانبها. هذا ولا ننكر أنه خطا خطوة صحيحة في طريق فهم الدعوة العباسية بتأكيده على دور القبائل العربية الخراسانية.

ولقد تبنى هذا التفسير كتّاب ومؤرخون عرب ومسلمون أمثال جرجي زيدان وأحمد أمين وفيليب حتى وحسن إبراهيم حسن وعبد العزيز الدوري وصديقي وغيرهم.

وقد يكون من المستحسن القول بأن هناك تفسيرًا آخر نادى به بعض المستشرقين الذين اعتقدوا بأن للترك الساكنين في بلاد ما وراء النهر (آسيا الوسطى) دورًا في الثورة العباسية خاصة وأن الترك سبق وأن ساعدوا ثوارا كالحارث بن سريج المرجئي ضد الأمويين. وقد ظهر هذا الرأي في دائرة المعارف التركية ونادى به المؤرخ أرمينوس فامبري في كتابه (تاريخ بخاري) وتشير الأستاذة ماليكوف سيار في كتابها عن (أبي مسلم في الفولكلور التركي) بأن القصص الشعبية والأساطير والأغاني التركية في العصور الوسطى تظهر أبا مسلم بطلاً قوميًا تركيًا. إلا أن التاريخ شيء والفولكلور شيء آخر وأن هذا الافتراض يفتقر إلى النصوص التاريخية الموثوقة التي تدعمه.

التفسير الحديث للدعوة العباسية:

لقد كان المستشرقان الإنكليزيان هاملتون جب وبرنارد لويس من أوائل المؤرخين الذين أدركوا دور العرب من أهل خراسان الفعّال في الدعوة وخاصة القبائل اليمانية منهم. وقد لاحظ جب بأن سكان المدن المحليين من الفرس لم يستغلوا فرصة الثورة العباسية لينتفضوا عن بكرة أبيهم ضد الدولة الأموية بل إن الروايات التاريخية تثبت عكس ذلك. إلا أن ما ذكره هذان المستشرقان في هذا المضمار لم يكن أكثر من لمحات بسيطة لا تزيد على أسطر قليلة فيها بعض التحفظ.

إن المستشرق دانيال دينت هو أول من أعلنها صراحة بأن آراء فان فلوتن وولهاوزن في الدعوة تدعو إلى الشك وإعادة التمحيص والاعتبار، حيث أظهر الوجه السياسي للثورة وبين دور المقاتلة العرب الخراسانية ورؤساء القبائل الأزدية والربعية وأثر الأحلاف الجديدة بين القبائل في إرجاح كفة الثوار العباسيين. ويرى دينت أن ضعف مركز مروان الثاني آخر خلفاء الأمويين في بلاد الشام كان العامل المباشر لسقوط الأمويين. ولذلك فإن نقطة الجدل في نظريته تدعي بأن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل بسبب ثورة في بلاد الشام. والذي يؤخذ على دينت كذلك هو اهتمامه بالواجهة "السياسية" للدعوة العباسية وإهماله الواجهة "الدينية" حيث لم يشر إليها إلا عرضًا.

وتتابعت البحوث في طبيعة الدعوة العباسية مؤكدة هذا التفسير الجديد، فكتب محمد الحي شعبان عن حالة خراسان منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية الأمويين وقد

أعطى شعبان في الواقع، صورة متكاملة لتطورات الحالة السياسية والاجتماعية لعرب خراسان من حيث استيطانهم وعلاقتهم بالفرس، ثم موقفهم من دمشق ومن بعضهم البعض. ويرى شعبان بأن هدف الثورة العباسية كان "دمج كل المسلمين العرب وغير العرب في الإمبراطورية في مجتمع إسلامي واحد لكل فرد من أبنائه حقوق متساوية" . أما العنصر الرئيسي في الثورة حسب رأي شعبان فكان العرب المستوطنين الذين اندمجوا مع السكان المحليين الإيرانيين والذين فقدوا امتيازاتهم كأعضاء في الكتلة العربية الحاكمة والذين استاءوا كذلك من وضعهم تحت سلطة الدهاقين الفرس المسؤولين عن جباية الضرائب. ولا ينكر شعبان مساعدة الموالي (المسلمين غير العرب) للثوار العرب ولكن هؤلاء الموالي لا يمكن أن يكونوا بأعداد كبيرة وذلك لعدم انتشار الإسلام في تلك الديار في تلك الفترة المبكرة بكثرة.

وقد أثبت صالح أحمد العلي بأن العرب سكنوا القرى المحيطة بمرو قبل تمصيرها وبهذا أعطى دليلاً آخر على أهمية دور عرب خراسان من سكان القرى الذين كسبتهم الدعوة.

إن إعادة تقويم الروايات التاريخية في مصادرنا المعروفة مثل الطبري واليعقوبي والدينوري والمسعودي والجاحظ والأصفهاني وكتاب العيون والحدائق والجهشياري وغيره، وبعد الإطلاع على نصوص تاريخية غاية في الأهمية بالنسبة لموضوع الدعوة العباسية في مخطوطات لم تنشر بعد أو أنها نشرت حديثًا ولم تستغل مادتها التاريخية بعد مثل: مخطوطة أخبار العباس وولده المحفوظة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد. وهي مجهولة المؤلف ومرتبة حسب نظام النسب وتعتمد على رواة موثوق بهم وعلى شهود عيان ودعاة عباسيين ولذلك فهي مهمة جدًا وتعتبر أشبه بوثيقة عن الدعوة العباسية.

ومخطوطة النبذة من كتاب التاريخ لمؤلف مجهول من القرن الحادي عشر، التي صورها المستشرق الروسي كرازنوفج من معهد المستشرقين في موسكو وترجمها وعلق عليها باللغة الروسية. والواقع أن مقارنة مخطوطة النبذة بمخطوطة أخبار العباس آنفة الذكر تظهر بأن مؤلف الأولى قد اختصر الثانية باقتباسه الروايات المهمة ودمجه عددًا من الروايات في رواية واحدة منسقة مع اختصار سلسلة الرواة.

ثم مخطوط أنساب الأشراف للبلاذري وهي في جوهرها مخطوطة تاريخية ضمن إطار النسب. وكذلك مخطوطة كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي (ت314/926)

وتقع في جزأين حيث يتكلم في الجزء الثاني عن أخبار الدعوة العباسية وتطوراتها. وفي المخطوط معلومات فريدة عن استقرار العرب المسلمين في خراسان غير موجودة في الطبري والبلاذري. أما بالنسبة للروايات التاريخية فالصورة التي تعطيها عن الدعوة غير متكاملة لأن الحوادث مختارة وغير متسلسلة. ولابن أعثم عذر في ذلك لأنه لم يكن قصده أن يؤلف كتابًا في التاريخ وإنما في الفتوح.

ثم تاريخ خليفة بن خياط الذي حقق في بغداد وكذلك في دمشق، ويعد من أقدم كتب الحوليات في التاريخ الإسلامي حيث يتناول أحداث التاريخ من السنة الأولى للهجرة إلى سنة 232هـ أي خلافة الواثق بالله العباسي. والنصوص التي فيه تساعدنا على توضيح غموض مصادرنا المألوفة وإضافة معلومات جديدة عن الدعوة العباسية، حيث يظهر بأن المصالح الجديدة التي ظهرت بعد استقرار القبائل في خراسان أدت إلى وجود تكتلات جديدة بين العرب أنفسهم لا تعتمد بالدرجة الأولى على العصبية بل على المصالح الجديدة التي حتمتها بيئة خراسان الجديدة وظروف العرب فيها.

ثم مخطوط تاريخ الموصل لأبي زكريا محمد بن يزيد الأزدي (ت334هـ/1945م) الموجودة في مكتبة شستر بيتي في دبلن بايرلندا، وقد قام علي حبيبة بتحقيقها ونشرها سنة 1967م. ولم يبق من المخطوطة غير جزئها الثاني الذي يبدأ من سنة 101هـ/719م - سنة 224هـ/839م. ولعل من المزايا الكثيرة التي تتمتع بها المخطوطة بقدر ما يتعلق الأمر بموضوع بحثنا، هو إظهارها مدى المبالغة في الفكرة القائلة بأن الثورة العباسية كانت ثورة الفرس على العرب. فالأزدي يظهر مدى اعتماد الدعوة على العرب ويفند الزعم القائل بأن إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم بقتل كل من يتكلم العربية ذلك الزعم الذي اتخذه فان فلوتن ومن اتبعه من المؤرخين ذريعة لإثبات الصبغة الفارسية للدعوة العباسية.

وهناك مخطوطات أخرى كثيرة تساعد على إيضاح هذا الجانب أو ذاك من الدعوة العباسية ومنها: مخطوط المقفى الكبير للمقريزي ومخطوط منتخب التذكرة للمؤلف نفسه ومخطوط كتاب الفتن لنعيم بن حماد المروزي الخزاعي (ت228هـ/842م) ولكن ضيق المجال وخوف الإطالة يجعلنا نتردد في التفصيل عن هذه المخطوطات.

إن النصوص الموجودة في هذه المخطوطات هي التي ساعدتنا على إعادة تقويم الدعوة العباسية وتوضيح واجهاتها وإظهار الدور الذي لعبته كل شخصية من شخصياتها البارزة.

ونحن نعتقد بأن الدعوة التي نظمها الدعاة العباسيون كانت موجهة بصورة رئيسية إلى عرب خراسان المقاتلة منهم والمستقرين على السواء. فقد كان هناك دعاة في قرى مرو حيث استقرت القبائل العربية وفي كل مدينة فيها حامية أو رابطة عربية. لقد أدرك الدعاة بأن العرب وحدهم مصدر السلطة والقوة الضاربة الوحيدة في خراسان. ومن أجل الانتصار على الأمويين كان يتحتم على الدعاة كسب العرب إلى الدعوة. ولم يفضل الدعاة في بداية الدعوة قبيلة عربية على أخرى بالرغم من أنهم حصلوا على تعضيد اليمانية أكثر من المضرية إلا أنهم كانوا دائمًا يرحبون بالمضريين الذين يرغبون الانضمام للدعوة. وقد انضم بعض الموالي والفرس إلى الدعوة إلا أن دورهم لا يمكن مقارنته بدور القبائل العربية من أهل خراسان.

إن ظروف خراسان من حيث قبائلها وعلاقتهم ببعضهم وبالسكان المحليين والخلافة الأموية في دمشق لعبت دورًا في إيجاد الجو المناسب للثورة دون شك، ولكن علينا ألا نؤكد على ناحية معينة ونترك النواحي الأخرى. فالعرب الذين استوطنوا قرى مرو كانت لهم أسباب للتذمر ترجع إلى حرمانهم من الامتيازات التي يتمتع بها المقاتلة من العرب، كما وأنهم شاركوا الموالي والفرس في استيائهم من سطوة الدهاقين ونفوذهم. على أننا نلاحظ من جهة أخرى أن المقاتلة العرب كان لهم أسباب للتذمر أيضًا تتلخص في:

(1) سياسة التجمير وهي إبقاء المقاتلة في الثغور وعلى خطوط النار شتاء في الوقت الذي يرغب المقاتلة بقضاء الشتاء مع عوائلهم.

(2) كان الوالي الأموي يسلبهم حصتهم من الفيء والغنيمة أحيانًا أو يأخذ أكثر من حقه منها.

(3) سئمت القبائل من النزاع المستمر بين الشيوخ المتنفذين والرؤساء الطموحين للوصول إلى السلطة حيث أوجد هذا بين قبائل خراسان نوعًا من القلق لدى اليمني والربعي والمضري الذين وجدوا في الدعوة العباسية أملاً جديدًا لحياة أكثر استقرارًا ويسرًا.

كما وأن الوضع المرتبك في بلاد الشام قلب الدولة الإسلامية في ذلك العهد، حيث ازدادت ثورات المدن السورية ضد حكم مروان الثاني واشتدت مؤامرات الأمراء الأمويين ضد سلطته التي اعتبروها غير شرعية كل ذلك فت في عضد الدولة وفسح المجال للدعوات السرية بالعمل الفعّال من أجل إسقاطها. فقد نشطت المنظمة السرية الهاشمية بقيادة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية الذي أوصى بالإمامة من بعده إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وبهذا تحولت المنظمة إلى عباسية صرفة وضاعفت من فعالياتها في خراسان حيث أعلنت الثورة سنة 129هـ سنة 747م.

ورغم إدراكنا بأن الدعوة العباسية كانت لها واجهات عديدة حيث أنها حاولت جذب عناصر مختلفة تحت شعارات براقة متباينة - وهذا في الحقيقة سر نجاحها - فإن الذي يهمنا في هذا البحث هو الواجهة السياسية للدعوة وذلك رغبة منا في إبراز دور العرب من أهل خراسان في هذه الحركة، ذلك الدور الذي كان ولا يزال مغمورًا لم ينصفه التاريخ ولم يقدره حق قدره إلا القليل من المؤرخين.

الواجهة السياسية للدعوة العباسية:

إن النصوص التاريخية في المخطوطات التي خرجت إلى النور تشير إلى أننا يجب أن نبحث عن أسباب للثورة العباسية في ظواهر أخرى غير ظواهر "الصراع" بين الفرس والعرب أو "التمييز" الاجتماعي والاقتصادي الذي مارسته السلطة الأموية تجاه الموالي. فلقد أهمل المؤرخون المحدثون سياسة الأمويين الإدارية والمالية في خراسان وردود الفعل لدى أهل خراسان من عرب وعجم تجاه هذه السياسة. إن معرفة حالة خراسان قبيل الثورة سيقودنا إلى معرفة أسباب التذمر وبالتالي أسباب الثورة.

تتفق أغلب الروايات التاريخية على أن خراسان فتحت أيام الخليفة عثمان بن عفان وعلى يد القائد عبد الله بن عامر بين سنة 649/29 - 35/655. ولقد عقد مرزبان مرو معاهدة مع المسلمين ترك للدهاقين بموجبها تقدير الضرائب وجبايتها واشترطت المعاهدة كذلك على الإيرانيين أن يفسحوا المجال لاستيطان العرب في قراهم ولهذا الإجراء أهمية كبيرة لأنه كان الأساس الذي بنيت عليه علاقات العرب المسلمين بالسكان المحليين.

ولم تكن السنوات التي تلت الفتح الإسلامي لخراسان سنوات سهلة ولا هي فترة استقرار في تاريخ خراسان خاصة وأن الأوضاع السياسية في قلب الدولة الإسلامية كانت على غير ما يرام. على أن انتهاء الحرب الأهلية وتولي معاوية سنة 41هـ/661م الخلافة ساعد السلطة المركزية بأن توجه انتباهها إلى خراسان. وقد قرر الأمويون إنشاء قواعد ثابتة للمقاتلة العرب في خراسان. فبدأت عملية استيطان العرب في القرى المحيطة بمرو منذ سنة 45هـ/665م. وتتابعت عملية الاستيطان بتتابع الهجرات القبلية من الكوفة والبصرة. وبمرور الزمن أخذت بعض القبائل العربية تفضل الاستقرار والاشتغال بمهن مدنية كالتجارة والزراعة بدلاً من الجيش. إن هذا الاتجاه نحو الاستقرار أوجد عوامل جديدة في الموقف السياسي والعسكري واضطر الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (سنة 105/724- سنة 125/743) إلى آن يأمر آمير خراسان بأن يحذف آسماء المقاتلة العرب الذين يرفضون الاشتراك في الحملات العسكرية في بلاد ما وراء النهر (أواسط آسيا) ويحرمهم من العطاء. ومقابل ذلك أرسل الخليفة هشام مقاتلة جددًا ممن يرغبون في القتال. وهكذا فإن الخليفة هشامًا يعترف ضمنًا بأن عملية الاستيطان والاندماج بين العرب والمسلمين والسكان المحليين الإيرانيين قد بدأت فعلاً، وبدأ العرب يألفون الحياة المدنية والاشتغال بالمهن ولا يمكن للسلطة الأموية معارضة الاتجاه الجديد بالقوة. وهذا يدل بطبيعة الحال على أن العرب المسلمين قد انقسموا إلى كتلتين (أ) المقاتلة (ب) المستقرين. كما وأن إرسال دفعات جديدة من العرب إلى خراسان أدى إلى حدوث شقاق وتصادم بين القادمين الجدد والعرب القدماء (الفاتحين).

أما عملية الاستيطان فلقد اتخذت أشكالاً مختلفة، ولكن ما لدينا من معلومات قليلة مبعثرة بين طيات كتب التاريخ والتراجم والكتب الجغرافية الإسلامية لا يعطينا فكرة متكاملة عنها. والظاهر أن العرب من أهل خراسان استقروا في مرو والقرى المحيطة بها مثل سينان وميهرجان وفنين واللين وغيرها كثير. وكانت قرية بونيه تابعة لقبيلة طي وقرية باسان لبني نصر وقرى سفيندج واللين وفنين لقبيلة خزاعة وهناك قرى أخرى لكندة وبني العنبر. استوطن العرب القرى المحيطة ببلخ، كما استوطن قسم منهم مدنًا أخرى في بلاد ما وراء النهر بصورة مؤقتة أو دائمة. وعدا هذا وذاك فقد كان للعرب (مسالح) وهي مراكز عسكرية وقتية تتبدل مواضعها بتبدل خطة القواد العسكرية ولذلك فقد كان استقرار الجند فيها وقتيًا.

ولقد انبث الدعاة العباسيون في مواطن استقرار العرب في خراسان حيث نقل إليها الإمام محمد بن علي العباسي الدعوة وأمر دعاته بأن تكون الدعوة (للرضا من آل محمد صلى الله عليه وسلم وأن يثقوا باليمانية ويتألفوا ربيعة ويتوقوا من مضر ويقبلوا منهم الثقاة). وليس من السهل التعرّف على الدوافع التي دفعت الإمام محمد بن علي اختيار خراسان ولكن يمكن القول بأنها كانت موطن المقاتلة العرب الذين عركتهم الحرب الطويلة مع تركستان وفي السند والذين عبروا مرارًا عن تذمرهم من سياسة الأمويين المالية والعسكرية. ومن المعلوم أن خلفاء بني أمية منذ زمن عبد الملك بن مروان (685م-705م) أدركوا القلق وعدم الاستقرار السائد هناك. وتعبر مخطوطة أخبار العباس عن أهمية الخراسانية فتقول: "خراسان جمجمة العرب وفرسانها" وقد نظم الدعاة الأوائل الدعوة تنظيمًا سريًا محكمًا فكان هناك النقباء يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي شيخ النقباء والقائم بأمر خراسان. وأما النقباء فهم اثنا عشر نقيبًا:

من خزاعة: سليمان بن كثير الخزاعي، مالك بن الهيثم الخزاعي، زياد بن صالح الخزاعي، طليحة بن رزيق الخزاعي.

من تميم: موسى بن كعب التميمي، عيسى بن كعب التميمي، لاهز بن قريظة التميمي، القاسم بن مجاشع التميمي.

من طي: قحطبة بن شبيب الطائي.

من شيبان: خالد بن إبراهيم الذهلي الشيباني.

من حنيفة: مولى بن حنيفة شبل بن طهمان.

ونلاحظ أن الأكثرية الساحقة منهم كانوا عربًا. وكان هناك (نظراء النقباء) و70 داعية كما كان هناك عدد من الدعاة المسؤولين عن تنظيم الدعوة خارج منطقة مرو.

وهناك لابد من الانتباه إلى أن بعض الشخصيات العربية تلقبت أو نسبت إلى المدن الفارسية التي عاشت فيها مثل جديع بن علي الأزدي (الكرماني) والفضل بن سليمان التميمي (الطوسي) وخازم بن خزيمة التميمي (المروزي) كما لقب عمرو بن حفص المهلبي الأزدي والهيثم بن معاوية العتكي بلقب (هزار مرد) ولقد ظن بعض المؤرخين والمستشرقين خطأ أن هؤلاء وغيرهم كانوا من الموالي.

وأكثر من ذلك فقد فسر بعض المستشرقين وتبعهم مؤرخون مسلمون في ذلك أن اصطلاح (أهل خراسان) يعني السكان المحليين من الإيرانيين، ولكن المؤرخين الرواد من المسلمين كالطبري والبلاذري أطلقوا عادة اصطلاح (أهل البصرة) و(أهل الكوفة) و(أهل الشام) لتدل على القبائل العربية التي سكنت هذه المدن بعد تمصيرها، وكذلك بالنسبة لأهل خراسان.

ثم إن مؤرخين آخرين فهموا من اصطلاح (سكان القرى) التي وردت في بعض روايات الدينوري والطبري أنهم سكان البلاد المحليين من الفرس الذين يتعاطون الزراعة ويمتهنون بعض الحرف، إلا أننا لاحظنا بأن العرب أنفسهم سكنوا القرى مع عوائلهم. ولذلك فإن رواية الطبري التي تقول (فوافاه.. أهل ستين قرية) لا تعني الموالي، كما يظن المستشرق ولهاوزن، بل العرب. على الرغم من أن قسمًا من أتباع الدعوة كانوا دون شك من الموالي.

وكان أتباع الدعوة يدفعون الخمس للإمام ليعينه هذا المال على القيام بواجبه في "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وكان النقباء عادة ينتهزون فرصة الحج ليلتقوا بالإمام ويسلموه المال والهدايا فقد حملوا إليه مرة 10 آلاف دينار و200 ألف درهم كما بعثوا مرة أخرى 100 ألف درهم وأشياء عينية من مسك ومتاع كثير قيمتها 30.000 درهم. وبعث أبو مسلم قحطبة الطائي ومعه المال الذي يُقدر بـ 360 ألف درهم صيرها كلها متاعًا.

كما استغل الدعاة العباسيون فكرة التنبؤات والملاحم الشعبية المنتشرة بين الناس فأشاعوا أحاديث تقول بأن الخلافة كانت في أحفاد العباس عم الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنها ستبقى في أيديهم إلى يوم القيامة، وادعوا بأن هناك علامات مخبرات عن ظهور ابن الحارثية صاحب الرايات السود التي ستظهر في الشرق وأنها منتصرة لا محالة. ولما توفي محمد بن علي العباسي سنة 125هـ/742م تسلّم إبنه إبراهيم الإمام القيادة وبدأ وجه جديد فعّال للدعوة. وحين ساءت الحالة في خراسان وانقسم العرب فيها إلى كتلتين رئيسيتين يقود إحداهما نصر بن سيار والي خراسان، ويقود الثانية جديع بن علي الأزدي الكرماني أدرك الدعاة العباسيون بأن ظروف الثورة قد اختمرت وأن الوقت قد حان لإعلانها فطلب سليمان الخراساني من الإمام أن يرسل من يمثله في خراسان أثناء إعلان الثورة. وقد عرض إبراهيم الإمام على سليمان الخزاعي أن يمثله في خراسان فاعتذر والظاهر أنه كان يرغب

بأن تقوم شخصية هاشمية أو عباسية بتمثيل الإمام في خراسان وبعد أن فشل إبراهيم الإمام في إقناع عدد من الرجال قرر اختيار مولاه أبا مسلم الخراساني لينوب عنه.

إن شخصية أبي مسلم ودوره في الحركة العباسية قد أصبحت أسطورة نسجت حولها الروايات المختلفة. وقد بالغت بعض روايات الطبري والدينوري وحمزة الأصفهاني بدور أبي مسلم وأظهرته بمظهر المحرّك للسياسة العباسية. وأكثر من هذا فقد اتخذته العناصر المتذمرة الإيرانية رمزًا لثورتها معتبرة إياه منقذًا منتظرًا مدعية أنه سيعود إلى هذه الأرض - وخاصة بعد قتله من قبل المنصور سنة 137هـ/754م ليحقق لها آمالها بأن "يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جورًا". والواقع أن النصوص التاريخية في مخطوطة أخبار العباس وتاريخ الموصل وتاريخ الطبري تشير بوضوح إلى أن المسؤولية كانت مشتركة بين النقباء الاثني عشر ويساعدهم في ذلك الدعاة. وأن سليمان الخزاعي نقيب النقباء كان وراء كل عمل قام به أبو مسلم. كما وأن سليمان الخزاعي كان المتكلم باسم الدعوة والمفاوض باسمها مع شيوخ القبائل ووالي خراسان نصر بن سيار. وكان سليمان الخزاعي هو الذي يؤم الناس في الصلاة.

وحين أرسل إبراهيم الإمام أبا مسلم إلى خراسان أوصاه بوصية اختلف في نصها المؤرخون. وهي كما جاءت في رواية ابن قتيبة والطبري كالآتي:

"يا عبد الرحمن إنك رجل من أهل البيت احفظ وصيتي: انظر إلى هذا الحي من اليمن فألزمهم وأسكن بين أظهرهم فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم. وأتهم ربيعة في أمرهم. وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار. واقتل من شككت فيه. وإن استعطت ألا تبقي بخراسان من يتكلم العربية فافعل وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ولا تخالف هذا الشيخ (سليمان الخزاعي) ولا تعصه وإن أشكل عليك أمر فاكتف به مني".

إن هذه الوصية غير متفق عليها من قبل المؤرخين لذلك لا يمكن قبولها دون تمحيص ونقد. فمن جهة النقد الخارجي لنص الوصية فيظهر بأنه مذكور في الطبري دون سلسلة رواة أو إسناد ولذلك فالرواية ضعيفة. أما رواية ابن قتيبة فيضعفها كون المؤرخ غامضًا وغير متكامل في رواياته عن العباسيين ولا ذكر للنص في مصادر مهمة أخرى مثل أنساب الأشراف وأخبار العباس. وليس هناك أهمية

لذكرها في كتب تاريخية متأخرة مثل ابن الأثير وابن كثير وابن خلدون لأن هؤلاء بطبيعة الحال نقلوها ممن ذكرها قبلهم ولبعد الزمن بينهم وبين عهد الثورة.

ومما يؤكد الشك في الوصية أن رواية الدينوري وكتاب العيون والحدائق في أخبار الحقائق لا تذكر النص الذي يأمر فيه إبراهيم أبا مسلم بقتل العرب دون تمييز. ولكن الوارد أن الأمر كان بقتل العرب الذين يرفضون الدخول في الدعوة أو المشكوك في ولائهم "واقتل من شككت في أمره". أو كما يقول العوفي بقتل كل المدعين بالإمامة من غير العباسيين. وتؤيد هذا التفسير نصوص أوردها صاحب كتاب أخبار العباس على لسان أبي مسلم حيث يقول: "أمرني الإمام أن أنزل في أهل اليمن وأتالف ربيعة ولا أدع نصيبي من صالحي مضر.. واحذر أكثرهم من أتباع بني أمية وأجمع إلى العجم".

أما من جهة النقد الداخلي لنص الوصية فيمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

1) نص الرواية مجزأ في الطبري إلى جزأين يذكر بينهما حوادث لا علاقة لها بالوصية ثم تعود الرواية فتتكلم عن الوصية ثانية مما يشعر القارئ بأن بعض النصوص حشرت في الرواية حشرًا.
2) تأتي الوصية تحت عنوان "سبب قتل مروان بن محمد لإبراهيم الإمام" مما يدل على أنها أو بعضها وضعت من قبل رواة أمويين لتبرير قتل مروان لإبراهيم.
3) التناقض غير المقبول واضح في نص الوصية، فكيف يصح أن يأمر إبراهيم الإمام بقتل العرب كل العرب وهو يدرك أهميتهم ويوصي أبا مسلم بالثقة بالقبائل اليمنية والربعية.
4) وأخيرًا فإن سياسة أبي مسلم وسليمان الخزاعي في خراسان لا تنطبق مع الوصية المزعومة فإن الدعاة العباسيين قاموا بدعاية واسعة للثورة بين صفوف القبائل اليمنية والربعية حتى أن أبا مسلم قبل الكثير من المضريين أيضًا في صفوف الدعوة.

وعلى هذا فإننا نعتقد بأن هذه الوصية أو عبارات منها على أقل تقدير قد وضعت من جانب أعداء العباسيين من الإخباريين كدعاية لتشويه أهداف الدعوة.

وحين عقد مجلس النقباء اجتماعًا تقرر إعلان الثورة في مرو لأنها على حد قول أحدهم "بها خلق كثير من أخواننا وبها السلطان قد وهن أمره.. ومتى يقوى بها

أمرنا يقوى في غيرها" وقال آخر "إذا اجتث الأصل فلا بقاء للفرع". وأرسل الدعاة ليخبروا الشيعة العباسية بالالتقاء في مرو في يوم عيد الفطر من سنة 129هـ.

وقد ساعد الوضع المتدهور في خراسان بسبب التصادم بين أنصار نصر بن سيار والي خراسان من جهة وأنصار جديع الكرماني شيخ قبائل الأزد اليمنية أبا مسلم على تركيز جهوده خلال سنة 128هـ - سنة 129هـ وخاصة في القرى التي يسكنها العرب وأن هؤلاء العرب فقد أدركوا عدم جدوى هذا النزاع غير المثمر. يقول صاحب كتاب العيون والحدائق: "ولما رأى الناس.. أن شيعة بني مروان قد وقع بينهم الخلاف وبعضهم يقتل بعضًا وأن جديعًا الكرماني قد قتل الحارث بن سريج وتسلّم مرو ثم إن نصرًا قتل جديعًا وأن عليًا وعثمان ابني جديع مالا إلى ابي مسلم وصادقاه وحلفا له دخل أكثر الناس في طاعته".

وتؤكد ذلك رواية فريدة في مخطوط أخبار العباس حيث تقول: "فطالت الفتنة بين نصر بن سيار وعلي بن الكرماني ومن كان بها من العرب حتى أضجر ذلك كثيرًا من أصحابها وجعلت نفوسهم تتطلع إلى غير ما هم فيه وإلى أمر يجمعهم فتحركت الدعوة يدعو اليماني من الشيعة اليماني والربعي الربعي والمضري المضري حتى كثر من استجاب لهم وكفوا بذلك عن القتال والعصبية".

تدل هذه النصوص بصورة واضحة بأن العرب من أهل خراسان كانوا عصب الجند الهاشمية. كما وأن تمركزهم في قرى خزاعة اليمنية جعل نصرًا يتردد في مهاجمتهم قبل استفحال أمرهم لأنه كان حذرًا من "تسويد" اليمنية بأجمعها أي دخولها في صفوف الدعوة العباسية.

وليس يهمنا في هذا البحث أن نذكر حوادث الثورة وتطوراتها بالتفصيل فلقد تطورت الأحداث بين أخذ ورد واستطاعت الدعوة كسب ابن الكرماني شيخ قبائل الأزد اليمنية وأتباعه الذين كان بينهم من ربيعة ومضر كذلك إلى صفوف الثورة. وكان هذا الكسب مهمًا جدًا لأنه كان يعني انضمام عدد كبير من العرب إلى الدعوة وبهذه القوة الضاربة كانت نهاية نصر واندحار شيعة الأمويين في خراسان.

ولابد لنا أن نذكر بأن الشيعة العباسية تعرّضوا لدعاية قوية وبليغة ومؤثرة من قبل نصر بن سيار والي الأمويين فقد حاول الوالي الأموي أن يشوّه من سمعة الشيعة العباسية واصفًا إياهم بالكفار الذين يعبدون الرؤوس والسنانير، والرعاع

وسقاط العرب والموالي والسفهاء والمجوس. كما وأنه تعرّض لهم في الشعر قائلاً فيهم:

ليسوا إلى عرب منا فنعرفهم ولا صميم الموالي إن هم نسبوا

ولم يقف الدعاة العباسيون مكتوفي الأيدي تجاه هذه الدعاية التي أقلقتهم لأنهم خشوا أن يتأثر بها الأتقياء والعامة من الناس ولذلك قاموا بدعاية مضادة حيث نودي إلى الاجتماع وبايع المجتمعون سليمان الخزاعي شيخ النقباء العباسية "على كتاب الله وسنة رسوله... وإظهار العدل وإنكار الجور ورفع الظلم عن الضعفاء وأخذ الحق من الأقوياء". كما وأجاب أحد الدعاة العباسيين نصرًا بن سيار شعرًا بشعر فقال:

لسنا نحابي على الرحمن من أحد فيما نطالب من مولى ومن عرب

على أن هذه النعوت التي أطلقها كل من المعسكرين على الآخر كانت لأسباب دعائية. فالأمويون أنفسهم حينما التقى الجمعان في المعركة نادوا الشيعة العباسية قائلين: "يا معشر المسلمين" ودعوهم إلى نبذ التفرقة والانضمام إلى الجماعة على اعتبار أن الخلافة الأموية هي التي تمثل الجماعة شرعًا.

وتفصل روايات البلاذري وأخبار العباس والأزدي والطبري في شرح الحوادث التي صاحبت تقدم قوات أهل خراسان إلى المدن الأخرى بعد احتلالها مرو. فتذكر مثلاً أن خازمًا التميمي احتل مرو الروذ باسم العباسيين بمساعدة قبيلة تميم.

ولقد جاءت أوامر إبراهيم الإمام بتعيين قحطبة بن شبيب الطائي قائدًا لأهل خراسان الذين توجهوا الآن إلى العراق وبلاد الشام عبر فارس. ويقدرهم صاحب كتاب الإمامة والسياسة بـ 30 ألفًا من اليمنية والربعية وفرسان خراسان. وفي نيسابور خاض الجيش الخراساني معركة مع أتباع نصر من العرب والفرس من سكان نيسابور. على أن المعركة المهمة وقعت في جرجان حيث وقف أهل جرجان الفرس مع الأمويين وقاتلوا معهم جنبًا إلى جنب ضد الجيش الخراساني. على أن الجيش الخراساني استطاع احتلال جرجان وقتل الكثير من الإيرانيين الذين قاوموا الخرسانيين. إن معركة جرجان دليل آخر على أن الدعوة العباسية لم تكن ثورة الفرس على الأمويين ذلك لأن الفرس من أهل جرجان وقفوا إلى جانب الأمويين واستطاعوا مقاومة الخراسانية بل أخرجوا جيش قحطبة الطائي بعد احتلاله

المدينة للمرة الأولى فكان على قحطبة أن يعيد الكرة لكي يحتل المدينة ثانية. ولعلنا نستطيع القول بأن الكثير من المدن الإيرانية لم تثرها الدعوة العباسية بالدرجة التي يصورها لنا فان فلوتن ومن تبعه من المؤرخين المحدثين.

ولقد ساعدت القبائل العربية في العراق الجيش الخراساني حيث آهدته إلى أقصر الطرق وأسلمها للوصول إلى الكوفة. وكان من السهولة على شيوخ هذه القبائل أن يغيروا ولاءهم من الأمويين إلى العباسيين وعلى حد قول أحدهم فإن دولة بني أمية مدبرة ودولة المسودة مقبلة يأملون منها الخير الكثير والبركة.

وقد أغلقت قبائل الموصل أبواب المدينة في وجه الخليفة مروان الأموي الذي اضطر إلى الانسحاب إلى بلاد الشام. وفتحت الموصل أبوابها للجيش الخراساني مستقبلة إياه بالتهليل.

وفي حصار واسط أغرى أبو جعفر (المنصور) القبائل اليمنية المعتصمة في داخل المدينة مع يزيد بن عمر بن هبيرة والي الأمويين على العراق قائلاً لهم "السلطان سلطانكم والدولة دولتكم". وقد ثمّن الخليفة أبو جعفر المنصور فيما بعد موقف القبائل اليمنية معاضدتها للثورة العباسية قائلاً: "فيحق لنا أن نعرّف لهم حق نصرهم لنا وقيامهم بدعوتنا ونهوضهم بدولتنا".

وفي حصار دمشق يستنجد عبد الله بن علي العباسي قائد الجيش الخراساني باليمنية من أهل الشام قائلاً: "إنكم وإخوانكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا..". وعلى هذا فعلينا ألا نستغرب بافتخار العرب بأهم سند الدعوة ونقباؤها وأنصارها. ولا عجب كذلك من رفع الدعوة شعار "يا محمد يا منصور". فمحمد هو محمد بن علي العباسي منظم الدعوة والمنصور هو "منصور اليمن" أي المنقذ اليمني الذي تذكره الملاحم والنبوءات وتتوقعه القبائل القحطانية اليمنية.

الخاتمة

ولعل فيما ذكرناه من نصوص قد أوضح بجلاء أن الوقت قد حان لإعادة النظر في التفسير القديم للدعوة العباسية الذي يدعي بأن الدعوة قامت على أكتاف الفرس واستبداله بتفسير جديد يبين بوضوح بأن العنصر المحرّك للدعوة كان العرب الخراسانية الذين كوّنوا أغلبية الشيعة العباسية يساعده في ذلك الموالي والفرس. على أننا لاحظنا بأن الفرس لم يكونوا إلى جانب طرف واحد فقط من

الطرفين المتنازعين العباسي والأموي بل نجدهم يحاربون في صفوف المعسكرين ولكن دورهم لم يكن كبيرًا بحيث يمكن مقارنته بدور العرب. وعلى هذا فالثورة العباسية لم تكن عنصرية كما فهمها بعض المؤرخين بل على العكس فإن فهمها للإسلام كان أكثر شمولاً وأوسع نطاقًا مما تصوره بعض المؤرخين.

النموذج الثاني

العرب في العصر العباسي الأول(2)

قال الجاحظ في معرض مقارنته بين الخلافتين الأموية والعباسية: "دولة بني العباس أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان أموية عربية...".

وقد أساء بعض المؤرخين المحدثين تفسير رأي الجاحظ هذا، فأكدوا بأن انتصار العباسيين يعني من الناحية السياسية انتصار الفرس على العرب وسيطرتهم على مرافق الدولة... بل راح بعضهم يسمي العصر العباسي الأول (عصر النفوذ الفارسي).

وفي اعتقادنا أن هذه التخريجات خاطئة ومبالغ فيها. إن ما عناه الجاحظ، وهو المؤرخ الذكي والعالم الاجتماعي المدرك، هو تغلغل المظاهر الحضارية الأعجمية (من فارسية ويونانية وغيرها) في نظم وثقافة المجتمع في الدولة العباسية الجديدة بصورة أكثر شمولاً وسرعة مما كانت عليه زمن الأمويين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن انتقال السلطة إلى العباسيين أدى إلى ازدياد أهمية الأقاليم الشرقية سياسيًا واقتصاديًا، ثم إن اصطلاح "أعاجم" يعني غير العرب عمومًا ولا يعني الفرس الذين يطلق عليهم "عجم".

وإذا ما علمنا بعد ذلك بأن اصطلاح "أهل خراسان" إنما كان يعني أولاً وقبل كل شيء سكان خراسان من القبائل العربية المقاتلة والمستقرة، مثلما كان يعني اصطلاح "أهل الشام" أو اصطلاح "أهل البصرة" و"أهل الكوفة" العرب من سكان هذه المدن والأقاليم، بالإضافة إلى مواليهم من السكان غير العرب الذين دخلوا الإسلام... أدركنا بعد ذلك كله بأن ما قصده الجاحظ من استعماله تعبير "أعجمية خراسانية" إنما يعني مفهومًا حضاريًا إنسانيًا يتسع لكل الشرائح والعناصر التي كانت تكوّن

المجتمع الإسلامي في العصر العباسي، وليس مفهومًا عنصريًا أو إقليميًا ضيّقًا، كالذي خرج به بعض المستشرقين ومن تبعهم من مؤرخينا المعاصرين!!

إن طبيعة الدعوة العباسية وتعقيداتها السياسية والاجتماعية، لا يمكن أن ترتضي لنفسها هذا التفسير "العنصري" أو ذاك التفسير "الإقليمي". لقد كان عرب خراسان من يمانية وربعية وبعض المضرية العصب الرئيسي للثورة. كما أن شعاراتها جذبت إليها العديد من الموالي الفرس، رغم أن دورهم لا يمكن أن يقارن بدور عرب خراسان.

فسلطان العرب لم ينته بزوال الدولة الأموية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، لأن العرب أنفسهم كانوا القوة الفعّالة في عملية التغيير الثوري. وظلّ العرب خلال العصر العباسي الأول يتقلّدون مناصب العمال والولاة وقادة الجيش وأمراء الجهاد والحج. ومنهم "صحابة" الخليفة وخاصته ومستشاروه ومنهم القضاة. وكان الخلفاء العباسيون عربًا من بني هاشم من قريش. وبقيت القبائل العربية ذات أثر بارز في السياسة والجيش والمجتمع. وظلت اللغة العربية لغة الإدارة والسياسة والثقافة والفكر. كما أن تمحيص الروايات التاريخية المتناثرة في كتب الأدب والشعر، تكشف لنا عن مدى ميل الخلفاء للعروبة وتشجيعهم للروح العربية والتقاليد العربية في مجالسهم.

وإذا تمعّنا في ظروف إنشاء بغداد وتطوّرها وفي التكتلات السياسية المرتبطة بالبلاط العباسي، تتضح لنا أهمية العرب في ذلك المزيج السكاني الاجتماعي الذي كان يرتبط برباط واحد يشدُّ بعضه ببعض، ألا وهو رباط الولاء للدولة الجديدة وما تمثله من قيم عربية - إسلامية وللخليفة العباسي، لا الولاء لنزعات قبلية أو عنصرية ضيّقة أو إقليمية ساذجة.

وسنحاول الآن أن نمعن النظر في الكتل المؤيدة للعباسيين أو العناصر التي اعتمد عليها العباسيون في صدر دولته:

1- بنو هاشم:

لم يكن هذا الاصطلاح في العصر العباسي يشمل كل الهاشميين، بل أخذ يُطلق على العباسيين وحدهم دون غيرهم من بني هاشم.

وقد شغف أبناء البيت العباسي بالسياسة وكان يجمعهم هدف واحد وهو الحفاظ على السلطة في أيديهم. ورغم تواجد بعض العباسيين من ذوي الطموح

الواسع، ورغم وجود تنافس يظهر أحيانًا، ويخفت أحيانًا بين بعض الشخصيات العباسية البارزة. فإن الخليفة استطاع أن يحفظ وحدة البيت العباسي، كما أن العباسيين كانوا يتحدّون دومًا أمام الأزمات السياسية التي تهدد الخلافة.

والواقع فإن الخليفة العباسي خلال القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي اعتمد بصورة رئيسية على شخصيات عباسية في الإدارة والسياسة والجيش. وقد امتدح الكاتب ابن المقفع في (رسالته في الصحابة) قابلية العباسيين واستقامتهم، وأكد الجاحظ بأن رجال البيت العباسي كانوا في الصدارة من حيث المسؤولية الإدارية والعسكرية فقال: "... ولا لقي تلك الحروب في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم، ولا قام بأكثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي وصالح بن علي وعبد الصمد بن علي".

وكان عبد الله بن علي قد حقق الانتصار العباسي في معركة الزاب. ولعب صالح وعبد الصمد أدورًا مهمة في إقرار الحكم العباسي في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام ومصر. أما عيسى بن موسى العباسي فقد قضى على حركات العلويين في الحجاز والبصرة. وقد يكون من النافع أن نطيل بذكر الأمثلة. على أننا نكتفي بالقول بأن الأقاليم المهمة وضعت تحت إدارة ولاة عباسيين أو أنصار موثوق بهم، وكان الخليفة يستشيرهم في المسائل المهمة، وهم أول من أوصى بهم المنصور ابنه وولي عهده المهدي: "وأوصيك بأهل بيتك أن تظهر كرامتهم وتقدمهم، و تكثر الإحسان إليهم وتعظم أمرهم... وتوليهم المنابر، فإن عزّك عزّهم".

وقد خصص المهدي لكل منهم عطاءً، ووزّع عليهم القطائع على جانبي نهر الصراة.

2- الصحابة:

ويُقصد بهم صحابة الخليفة العباسي وخاصته ومستشاروه المقرّبون إليه. ويلاحظ المؤرخ اليعقوبي أن الصحابة كانوا بصورة رئيسية من قبائل عربية مثل قريش واليمن وربيعة، واختير بعضهم من (الأنصار) أهل المدينة المنورة، ويصفهم ابن المقفع بقوله: "ويذكر أمير المؤمنين بصحابته وأعوانه منهم ألسنة رعيته وأعوان رأيه والخاصة من عامته".

أما أهم الأعمال التي يقومون بها فهي كما صوّرها أحدهم: مرافقة واستقبال الوفود، وقيادة الحملات، وإبداء الرأي و المشورة.

ويقع نظر الباحث على أسماء صحابة الخلفاء العباسيين في كتب التاريخ والأدب، وليس هنا مجال سرد أسمائهم، إلا أننا نقول أن هذه الأسماء نؤكد ما ذهب إليه اليعقوبي من أن غالبيتهم من العرب من كندة، وهذيل، وفهرة، ومعافر، وكلب، ومخزوم، وعقيل، وحنيفة، وغيرها كثير. وفي عهد المنصور أصبح دور الصحابة أكثر وضوحًا وفاعلية. ويذكر معن بن زائدة الشيباني، وهو أحد صحابة المنصور، أن عددهم كان 700 صحابي، وكانوا يدخلون البلاط، ويأخذون أماكنهم بنظام أسبقية وقِدَم حسب منزلتهم.

يتضح من هذا، بأن كتلة الصحابة في البلاط والإدارة العباسية كانت كتلة عربية صبغت البلاط بصبغة عربية، فكانت هناك مجالس للمفاخرات، وأحاديث حول أيام العرب وأخبارها، ومجالس الحماسة. وكانت العربية لغة البلاط والإدارة والثقافة، ولذلك كانت وسيلة مهمة لمن يتطلع إلى العُلا في المناصب الرسمية. وكان الخلفاء يعيّنون مؤدبين لأولادهم يعلمونهم الأدب واللغة والتاريخ، وكان بعضهم من صحابة الخليفة.

وعدا عن هذا وذاك، فقد ظهر الصحابة إلى جانب الخليفة في الأزمات السياسية، مشيرين عليه بهذا الرأي أو ذاك؛ فكان دورهم السياسي دورًا بارزًا، إضافة إلى أدوارهم الأخرى. وكان تأثير الصحابة كبيرًا في عهد المهدي والرشيد بحيث فاق تأثير بقية الكتل في البلاط، وقد منحوا ككتلة قُطيعة على نهر الصراة.

3- العرب:

لقد بانت أهمية العرب من أهل خُراسان منذ أيام الدعوة العباسية ثم الثورة، وزادت أهميتهم أثناء الحروب التي خاضها الجيش العباسي ضد الجند الشامي في العراق، وكان سقوط الكوفة وواسط والموصل والبصرة ودمشق نتيجة مساعدة القبائل العربية التي انضمت إلى جانب العباسيين.

وتورد الروايات التاريخية العديد من الأمثلة الاستدلالية على ثقل وزن العرب كمركز من مراكز القوى السياسية في القرن الثاني الهجري. ففي حصار واسط من قبل العباسيين أغراهم أبو جعفر المنصور بالتخلي عن يزيد بن هبيرة وإلى واسط قائلاً للقبائل اليمانية: "السلطان سلطانكم والدولة دولتكم" .

بمعنى أن الحكم العباسي الجديد هو حكم العرب اليمانية والدولة دولتهم!! وفي حصار دمشق استغاث عبد الله بن علي العباسي بالقبائل اليمانية لتتخلى عن الأمويين قائلاً: "إنكم وإخوتكم من ربيعة كنتم بخراسان شيعتنا وأنصارنا، وأنتم دفعتم إلينا مدينة دمشق، وقتلتم الوليد بن معاوية، وأنتم منا وبكم قوام أمرنا...".

إن الأحداث الفاصلة التي وقعت في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي تشهد على الأهمية الكبرى والدور الفاصل الذي قام به العرب. فالطبري يشير مثلاً بأن الجيش العباسي كان يتكون من فرق من مضر واليمن والخراسانية وربيعة. وهذه الفرق عربية، ولذلك كان قادة الجيش من العرب. وفيما عدا المراكز العسكرية احتل العرب المناصب الإدارية والسياسية الحساسة والعالية. وتحفل المصادر بأسماء الولاة العرب الذين أثبتوا إخلاصًا وكفاية عالية في الإدارة مثل آل قحطبة الطائي وآل المهلّب وبني شيبان وغيرهم.

وفي بغداد مدينة المنصورة المدورة، شجّع الخلفاء العرب على الاستقرار في أرباض (ضواحي) العاصمة. فهناك إشارات إلى مناطق استيطان اليمانية، وهناك (درب خزاعة) ودرب الأعراب وبني رزيق والأشاعثة، عدا الأراضي التي مُنحت لشخصيات عربية من الأنصار والصحابة والقادة.

لقد أدرك العباسيون مدى التأثير البالغ الذي يمارسه الشيوخ والزعماء العرب على قبائلهم ومواليهم فعاملوهم معاملة طيّبة فلم يعاقب الخليفة أبو العباس أحد زعماء العرب إسحاق بن مسلم العقيلي قائلاً: "أترى قيسًا ترضى أن يضرب سيّدها حدًا، لو دعوته بالبيّنة لجاء مئة من قيس يشهدون أن القول قوله".

ولم يعاقب العباسيون سلم بن قتيبة الباهلي رغم تحديه للسلطة المركزية وقد سامحه والي البصرة العباسي قائلاً: "ما كان سلم ليقول شيئًا إلا شهد له ألف نزاري".

وقد صاح المنصور لما سمع بأن والي الكوفة قتل عربيًا بتهمة الزندقة: "أيقتل رجل من العرب بغير علمي؟!".

ولم يسمح المنصور لعربي أن يكون خادمًا عند الحرم باعتبار أن ذلك يحط من قدره كعربي، وفي رواية للطبري أن المنصور رغب في البدء استخدام رجال من بني العباس في نقل الأخبار إلا أنه عدل عن ذلك خوفًا من أن يضع من منزلتهم بين الناس واستخدم (مواليه).

وعفا المنصور عن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز رغم اشتراكه في حركة محمد النفس الزكية قائلاً: "إذا قتلت مثل هذا من قريش فمن أستبقي؟".

ولعلّ الخليفة المنصور كان من أكثر خلفاء الفترة إحاطةً لنفسه بالعديد من رجالات العرب من ذوي الرأي والمشورة والنصح.

ولعلّ من المهم أن نلاحظ بأن المنصور ترك في الهاشمية خازم بن خزيمة التميمي نائبًا عنه، ومسؤولاً عن الجيش والميرة، حين حجّ سنة 144هـ/762م.

أما الخليفة المهدي فقد اختار 500 من الأنصار (أهل المدينة) وجلبهم إلى بغداد "ليكونوا حراسًا له وأنصارًا". وأعطاهم أرضًا في بغداد تسمى (قطيعة الأنصار).

4- أهل خراسان:

أشرنا سابقًا إلى أن اصطلاح أهل خراسان كان يعني في واقعه التاريخي العرب من أهل خراسان من مقاتلة ومستقرين أولاً، ثم الموالي من سكان خراسان الذين دخلوا الإسلام وامتزجوا بالعرب الفاتحين وباتوا حلفاء لهم.

وكان أهل خراسان ككتلة عسكرية وسياسية من أهم الكتل في المجتمع العباسي بعد تأسيس الدولة. وقد حافظ العباسيون على وحدة الفرقة الخراسانية منذ الأيام الأولى للثورة، فسجلوهم في سجلات خاصة بهم حسب قراهم ومدنهم لا حسب قبائلهم. وهذا يؤكد حرص العباسيين على تماسك ووحدة أهل خراسان العرب، وعدم السماح للعصبيات القبلية بتفكيك وحدتهم.

ومما يدل على صلة التقارب بين أهل خراسان وأهل العراق الذين هاجروا أثناء الفتوحات إلى خراسان والأقاليم الشرقية واستوطنوا فيها قول ابن المقفع: "ويذكر أمير المؤمنين بأهل هذين المصرين (البصرة والكوفة) فإنهم بعد أهل خراسان أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعته مع اختلاطهم بأهل خراسان وأنهم منهم عامتهم".

لقد دافع الخراسانية في فترات الأزمات السياسية الحادة عن الخلافة العباسية بولاء وقدرة عالية. واعتاد العباسيون إرسال قوات خراسانية لمدة طويلة أو قصيرة إلى المناطق المضطربة. كما استغل الخلفاء اسم أهل خراسان ووقوفهم بإخلاص وراء النظام العباسي في سبيل تنفيذ خططهم ومآربهم، وخاصة فيما يتعلق بولاية العهد.

وفي رأينا أن تعيين المنصور لخازم التميمي الخراساني نائبًا عنه في الهاشمية على (العسكر والميرة) له دلالته الكبيرة من حيث ثقة الخليفة بأهل خراسان. وقد استغاث المنصور بهم أثناء ثورة الحجاز الخطرة قائلاً: "يا أهل خراسان أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا".

وأوصى المنصور ولي عهده المهدي بهم خيرًا: "وأوصيك بأهل خراسان خيرًا فإنهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم في دولتك، ودماءهم دونك، ومن لا تخرج محبتك من قلوبهم؛ أن تحسن إليهم وتتجاوز عن مسيئهم وتكافئهم على ما كان منهم، وتخلف من مات منهم في أهله وولده".

وحين حضرت المنصور الوفاة، دعا بني هاشم وأهل خراسان أن يتحدوا وراء المهدي، ويكونوا عضده في تسيير الأمور، فقال: "وأسأل الله أن لا يفتتكم بعدي، ولا يبددكم شيعًا، ولا يذيق بعضكم بأس بعض، يا بني هاشم ويا أهل خراسان. ثم أخذ في وصيتهم بالمهدي... وحضهم على القيام بدولته والوفاء بعهده".

على أن قلة استعمال اصطلاح (أهل خراسان) في الروايات التاريخية بعد انتصار الثورة وتأسيس الدولة، قد يدعو إلى استنتاج خاطئ فيما يتعلق بدورهم ككتلة سياسية في البلاط العباسي والإدارة.

ففرضية ضعف قوتهم أو تلاشيها في العصر العباسي الأول، ليس له ما يؤيده تاريخيًا، ذلك لأننا يجب أن نلاحظ بأن اصطلاح (أهل خراسان) لم يكن الاصطلاح الوحيد الذي عُرفت به هذه الكتلة السياسية، فقد كان يُطلق عليهم اسم (أنصار الدولة) وأهل الدعوة، والشيعة العباسية، ورؤساء الشيعة. كما أنهم سجّلوا -كما ذكرنا سابقًا- باسم مدنهم وقراهم مثل المراوزة أو أهل مرو، وأهل بلخ وإلى آخره...

وعلى ذلك فإن الكثير من أبرز رجالات أهل خراسان لم يكونوا يُعرفون باسم الخراسانية أو بألقابهم، بل باسم قراهم أو مناطقهم، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتفرقة منها: قحطبة الطائي الجرجاني، والفضل التميمي (الطوسي)، وجديع الأزدي (الكرماني)، وعبد الملك العتكي (الجرجاني)، وخازم التميمي المروزي، وهكذا...

ومن هذا المنطلق وعلى هذا الأساس التاريخي، يمكن القول بأنه ليس من المعقول أن ننعت المروزية أتباع خازم التميمي، ولا الجرجانية أتباع عبد الملك العتكي، ولا

الكرمانية أتباع جديع الأزدي، بأنهم من الموالي الفرس، بل إنهم خليط من القبائل العربية ويشكلون الأكثرية ومن الموالي المرتبطين بهم.

وقد حصل أهل خراسان على ارباض وأراض داخل بغداد وفي ضواحيها، وإن سكن بعضهم داخل أسوار المدينة المدورة، يدل على أنهم كتلة ذات امتيازات خاصة ومكانة خطرة. ويظهر أن زعماء الخراسانية استقروا في هذه الأرباض مع أهل بيتهم وأتباعهم من القبائل العربية ومواليهم من سكان القرى والمدن الفارسية التي كانت مستقرًا لهؤلاء الزعماء قبل نزوحهم إلى العراق. فسكان قطيعة عبد الملك بن يزيد العتكي مثلاً، لابد أنهم ضموا أهل بيته وقبيلته والموالي من جرجان. وكذا الحالة بالنسبة للآخرين، وبمعنى آخر فإن سكان بغداد الجدد كانوا يشكلون خليطًا عنصريًا نسبته الغالبة عربية وثقافته ولغته عربية.

5- الموالي:

كان اصطلاح (موالي) مثل العديد من الاصطلاحات في هذه الفترة اصطلاحًا مرنًا وغير محدّد، يتسع للعديد من المعاني، فلم يكن هذا الاصطلاح يقتصر على معناه التقليدي المعروف وهو (المسلمين من غير العرب). فقد كان هناك عدد من الموالي من قبائل عربية أسروا في الحرب أو استرقوا لسبب من الأسباب أو التجأوا بسبب ضعفهم إلى قبيلة قوية، فأصبحوا موالي لها. كما كانت بين الموالي نسبة كبيرة من العبيد المحررين من مختلف العناصر والأجناس.

وليس من اختصاص هذا البحث أن يتعقب تطور معنى (مولى) في المجتمع الإسلامي، ولكننا نقول أن الولاء في العصر العباسي الأول كان علاقة اجتماعية شرعية يتمتع فيه المولى بعلاقة معيّنة من حيث الحقوق والواجبات بالنسبة لسيده أو مولاه. وعلى ذلك فإن كتلة الموالي في البلاط والإدارة العباسية، تمتعوا بمنزلة خاصة في علاقتهم بالخليفة العباسي الذي خدموه ضمن اختصاصات معيّنة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن ما قصدناه من اصطلاح الموالي ككتلة سياسية اجتماعية في الإدارة لا يشير إلى كتلة عنصرية مكونة في الأغلب من الفرس - كما يحلو لبعض المؤرخين أن يفهموه - ولكن كتلة مزيجة من أجناس عديدة، يربطها رباط مشترك هو الولاء للخليفة والنظام العباسي، وهو رباط كان أقوى من أي ارتباط آخر كالارتباط العنصري الذي يتعلق بجنسهم العربي أو الفارسي أو التركي، أو الارتباط الإقليمي الذي يتعلق بالمنطقة التي جاءوا منها ونزحوا إلى العراق. وهذا

النوع من الولاء ظهر في العصر العباسي والذي يطلق عليه تاريخيًا (ولاء الاصطناع) ومعنى هذا أن الخليفة يختار أفرادًا أو جماعات بغض النظر عن أصلهم أو إقليمهم، ويخلع عليهم الرتب والامتيازات، ويعهد إليهم بالأعمال المهمة بعد أن يثبتوا جدارتهم وولاءهم ويكونون موضع ثقته.

ويشير الجاحظ بوضوح إلى الرابطة المصيرية بين الخليفة مواليه الذين يصبحون مستندين كليًا عليه، مطيعين لأوامره طاعة عمياء، فيقول: "وكان المنصور ومحمد بن علي وعلي بن عبد الله، يخصون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس. لا يبهرجون الأسود لسواده، ولا الدميم لدمامته... ويوصون بحفظهم أكابر أولادهم، ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاة على جنائزهم".

والواقع أن المنصور أول من اعتمد على مواليه وغلمانه وأوكل إليهم مهمات "خطيرة ومسؤوليات كبيرة. وسار خلفاء بني العباس على نهجه. ويؤكد ابن خلدون الرابطة الوثيقة بين الخليفة ومواليه فيقول بأن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم (أسيادهم) لا بأنسابهم.

ومما لا شك فيه أن كتلة الموالي في البلاط والإدارة العباسية، اعتبرت نفسها كتلة متميزة بحد ذاتها، ومختلفة عن كتلة العرب وغير العرب. فقد وصف الجاحظ منزلة الموالي بالمقارنة مع العرب والعجم، وأظهر دعواهم بأنهم أفضل من العرب والعجم. إن هذه النظرة إلى الموالي تؤيدها إشارة الجاحظ بأن كتابه (العرب والموالي) يختلف عن كتابه (العرب والعجم) ويدافع الجاحظ عن نفسه حين اتهم بالتكرار فيقول: بأن الفروق بين العرب وغير العرب هي ليست كالفروق بين العرب والموالي.. وهذا يشير إلى نقطتين جوهريتين: الأولى الروابط الوثيقة بين أفراد كتلة الموالي وتميزها عن الكتل الأخرى. والثانية الثقة والولاء التام لهذه الكتلة تجاه الخليفة بحيث طغى هذا الولاء على أيّ ولاء عنصري أو إقليمي أو قبلي!!

وهنا تبرز ظاهرة مهمة تفرض نفسها وتدلّ على إنسانية العرب المتمثلة بالنزعة المرنة المتسامحة للسلطة العباسية والفهم الشامل للإسلام الذي يمثل عقيدة المجتمع. فالجاحظ وهو ابن ذلك المجتمع يرفض رفضًا باتًا فكرة العنصر كمعيار لتصنيف المجتمع ويعتبر البيئة والثقافة والفكر معايير رئيسية لتقويم الشخص. ومن هذا المنطق كان الموالي عربًا أو أقرب ما يكونوا إلى العرب ثقافيًا ولغويًا وبيئيًا. ألم يكن الجاحظ وابن قتيبة من الموالي وهما أكبر المدافعين عن العروبة ضدّ المشككين الهدامين!!؟

لقد بدأ الموالي بالنموّ من حيث الأهمية والنفوذ منذ عهد المنصور، وأن نظرة إلى مراكزهم في البلاط والإدارة توضح لنا كيف تطور تأثيرهم بصورة تدريجية. ويجهزنا اليعقوبي بقائمة أسماء الموالي الذين اختصهم المنصور ووثق بهم، وقد أوصى المنصور ولي عهده المهدي بمواليه. ومما يدل على استمرار الرابطة القوية والولاء حتى شمل الجيل الثاني من الموالي، رواية الطبري في حاتم بن هرثمة بن أعين مولى الرشيد: "فإنه ممن لا يعرف إلا بالطاعة ولا يدين إلا بها بمعاقد من الله مما قدم له من حال أبيه المحمود عند الخلفاء".

ويبدو أن تأثير موالي الخليفة المهدي قد فاق تأثير التكتلات الأخرى وتعدّى الحدود، ولذلك أشار عبد الصمد بن علي العباسي على الخليفة بأن يحد من نفوذهم، ولكن المهدي أجاب: "إن الموالي يستحقون ذلك، ليس أحد يجتمع لي فيه أن أجلس للعامة فأدعو به فأرفعه حتى تحكّ ركبته ركبتي، ثم يقوم من ذلك المجلس فاستكفيه سياسة دابتي فيكيفها لا يرفع نفسه عن ذلك... ولو أردت هذا من غيرهم لقال ابن وليك وابن من سبق إلى دعوتك لا أدفعه عن ذلك".

يوضح جواب المهدي - آنف الذكر - أن رابطة الولاء جعلت من موالي الخليفة يضطلعون بأيّ عمل يطلبه منهم مهما كان ذلك العمل لا يتناسب ومنزلتهم، أو قد يعد تحقيرًا لهم، بينما يعترض الآخرون من أفراد الكتل الأخرى في البلاط على القيام بمثل هذه الواجبات معتذرين بأصلهم ومنزلتهم وسابقتهم في الدعوة!!.

يظهر من ذلك كله بأن كتلة الوالي التي تشير إليها رواياتنا التاريخية هم (موالي الخليفة) الذين ينتمون إلى أجناس مختلفة من عرب وغير عرب. أي أن هذه الكتلة لا تعني المسلمين من غير العرب أو الفرس، وهي ليست كتلة عنصرية (إثنيه) بل إنها كتلة سياسية اجتماعية.

ولابد من الإشارة في هذا المجال إلى أن بعض المؤرخين الذين اعتبروا، خطأ، كتلة الموالي كتلة فارسية، ادعوا بأن اختيار العباسيين لوزرائهم من الفرس كان خطة مدروسة ومخططًا لها كدليل على أن العهد العباسي شركة بين العرب والفرس!!. ونستطيع أن نؤكد بأن ليس في مصادرنا التاريخية ما يشير إلى أن مناصب الدولة في عصرها الأول كانت توزع محاصصة حسب اعتبارات آو مقاييس عنصرية. ثم (إن كتلة الموالي) لم تعتبر نفسها فارسية، ولم ينظر إليها أحد بأنها فارسية. وإذا كان الوزراء العباسيون الأوائل من الموالي فإنهم من موالي الخليفة الذين ترعرعوا

في البلاط العباسي وفي المجتمع العربي الإسلامي بكلّ ما فيه من قيم وأفكار عربية، وكانوا موضع ثقة الخليفة بعد أن أثبتوا كفاية عالية وولاءً كبيرًا للسلطة العباسية زال معه أي ولاء آخر، ومع ذلك كله، فقد كان بوسع الخليفة دون أية صعوبة أن يقصيهم من مناصبهم إذا بدرت منهم بوادر تجعله يشكّ فيهم، أو لاعتبارات أخرى يعتقد أنها ضرورية.

6- الأعـراب:

لقد كان من عادة قادة الجيش العباسي من أصحاب النفوذ القبلي في العصر العباسي الأول أمثال معن بن زائدة الشيباني، وحميد بن قحطبة الطائي، وخازم بن خزيمة التميمي، وعقبة بن سلم الهنائي، ويزيد بن مزيد الشيباني وغيرهم كثير، أن يصطحبوا معهم جزءًا من قبائلهم حين ينتدبون لقتال عدو أجنبي أو متمرد على السلطة. وبذلك يستطيع هذا القائد أن يعتمد على تفانيهم في فترات القتال الحرجة.

وقد شجعت السلطة العباسية هذه الظاهرة، وكانت القبائل العربية وجماعات الأعراب البدوية غير المسجلة في ديوان الجيش تشترك مع الجيش النظامي في الحملات وتعتبر سندًا له.

الخاتمة

يتضح من هذا الاستعراض لمراكز القوى التي لعبت دورًا في السياسة العباسية في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أن العرب والعناصر المستعربة لعبت الدور الأول... فقد كان النفوذ للعرب والسلطة عربية، ويؤكد المؤرخ ابن خلدون هذه الحقيقة حين يرى العصر العباسي الأول عصرًا تحمّل فيه العرب المسؤولية على عاتقهم حتى بدأت العصبية العربية بالضعف بسبب جلب المعتصم لأعداد كبيرة من الترك واعتماده عليهم.

لقد واجهت العروبة تحديًا جديًا حين قرر المأمون نقل مركز الدولة إلى مرو في خراسان، وتبلورت في العراق حركة معارضة قوية ضد سياسة المأمون الإقليمية هذه، وتشكلت جماعات مسلحة من (أهل بغداد) ومن الأبناء (وهم أبناء أهل خراسان) لإجبار الخليفة على العدول عن قراره حتى تمّ لهم ذلك.

ولم يقف العرب مكتوفي الأيدي حيال سياسة المعتصم بالإكثار من استخدام الترك، بل قاوموها حربًا وفكرًا؛ فقد طعن أحد صحابة الخليفة بولاء الترك وإخلاصهم قائلاً: "استعمل أمير المؤمنين فروعًا لم تنجب إذ لا أصول لها".

وهاجم (أهل بغداد) الجند الترك في الشوارع والمحلات العامة، مما دفع المعتصم للبحث عن موضع جديد يبني فيه معسكرًا ينتقل إليه، فاختار سامراء سنة 220هـ/835م.

النموذج الثالث

مشادّة حول المؤرخ العوتبي الصحاري (3)

نظرة استعراضية نقدية

تمهيد:

أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم العوتبي الصحاري فقيه وأديب ومؤرخ ونسابة عُماني، ينسب إلى عوتب وهي ضاحية من ضواحي صحار، أما انتماؤه القبلي فمن الواضح أنه من القبائل اليمانية باتفاق المتقدمين والمتأخرين. ولكن الباحثين اختلفوا في القبيلة التي ينتمي إليها، فأشار بعضهم إلى انتسابه إلى طاحية بن سود بن الحجر بن عمران، وأشار آخرون إلى انتمائه إلى العتيك القبيلة الأزدية، وهم بنو العتيك بن الأسد بن عمران، على أن كلاً من طاحية والعتيك انتشرتا في سهل الباطنة وكانتا متداخلتين مع بعضهما كما أشار العوتبي نفسه في كتابه الأنساب.

ولعلنا نشير بدءًا إلى أن أحد العوامل في ظهور المشادة بين الباحثين المحدثين حول شخصية العوتبي والزمن الذي عاش فيه وحقيقة نسبة بعض مؤلفاته إليه وخاصة كتاب الأنساب، هو ما لاحظ بعضهم مثل إبراهيم بكير بحّاز، وحسن محمد عبد الله النابودة، من وجود صفة تغلب على معظم مصادر تاريخ عمان المحلية وهي أن المؤلف ينقل عمن سبقه من دون أن يذكر مصدره في أغلب الأحيان. يقول إبراهيم بحاز في معالجته لإشكاليات النسخ والعنوان والمؤلف في مخطوطات كشف

الغمة للأزكوي: ... "ويبدو أن المنهج المتبع عند العُمانيين في تأليف مصنفاتهم، أو عند بعضهم على الأقل، هو النقل والاقتباس دون الإشارة إلى المصدر المعتمد وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ". ويشير الباحث نفسه في موضع آخر إلى اقتباس سرحان بن سعيد الأزكوي للفصول المتعلقة بالفرق الإسلامية مباشرة من (كتاب الكشف والبيان) للقلهاتي، دون أن يذكر مصدره يقول: "وهي عادة العُمانيين على ما يبدو عند الاقتباس خاصة عندما يتعلق الأمر بالتاريخ والأخبار". وفي السياق نفسه يشير حسن النابودة إلى اعتماد الأزكوي على مصادر دون تسميتها فيقول: "ويلاحظ من رواياته (الأزكوي) التي يتميز بعضها بالدقة والوضوح، أن الأزكوي اعتمد على مصادر محلية سابقة لا يذكرها منها كتاب الأنساب المنسوب للعوتبي الذي يعد من أهم مصادر التاريخ العُماني وأقدمها، وقد استشهد به كثيرًا في حديثه عن الشخصيات البارزة في التاريخ العُماني دون أن يشير إلى ذكر اسمه أو كتابه وهذه من جملة المآخذ على الأزكوي". ويتفق محمد قرقش مع الباحثين السابقين حين يقول: "استغنى العوتبي عن الإسناد في صلب كتابه بصورة كبيرة خاصة في القسم الثاني من أنسابه ولم ينص صراحة على سنده وعلى مصادر خبره إلا في روايات قليلة يرجع معظمها إلى فترة ما قبل الإسلام". ولكن قرقش يبرر ذلك حين يسوق اعتراف العوتبي في مقدمة كتاب الأنساب حين قال: "وكان غرضي من جميع ما اقتصصت الإيجاز والاختصار ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب". والواقع أن عدم الاهتمام بالسند والمصدر أو اختصاره في التدوين التاريخي كانت من سمة العصر الذي عاش فيه العوتبي وهو القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده، مع استمرار المدرسة "السندية" القديمة عند فئة من المؤرخين.

ويضيف عبد الرحمن السالمي ظاهرة أخرى ساهمت في ارتباك معلوماتنا أو غموضها فيما يتعلق بالمؤلف أو الكتاب العُماني وهي "مشكلة الخلط بين أسماء الأعلام"، ويعزوها إلى ثلاثة أسباب: أولها قلة اهتمام العُمانيين بتدوين تراجم العلماء ومشاهير الرجال مما أدى إلى قلة المعرفة بهم. وثانيها تأخر حركة التدوين التاريخي في عُمان بالمقارنة مع الأقاليم العربية والإسلامية الأخرى. وثالثها تشابه الأسماء والكنى والألقاب للعديد من العلماء والمشاهير في عُمان، فحين يشير المؤلف إلى الكندي مثلاً فهل يقصد صاحب بيان الشرع أو صاحب المصنف، وكذا الحال حين الإشارة إلى أبي سعيد فهل المقصود الكدمي أو القلهاتي... وهكذا.

أما الظاهرة الأخيرة فتعود إلى الباحثين المحدثين أنفسهم، فإذا كانت مصادرنا وخاصة كتب التراجم والطبقات لا تسعفنا في التعرّف على العوتبي ومساهماته المتميزة، فلابد للباحثين المتخصصين من الرجوع إلى مؤلفاته المتداولة منشورة ومخطوطة ودراستها دراسة شمولية معمقة بأجزائها المتعددة وربط بعضها ببعض علها تلقى ضوءًا على سيرته الشخصية ومنهجه في التأليف ومؤلفاته. وهذا ما انتبه إليه بعض الباحثين الأكاديميين وهم يدرسون بعمق هذا الكتاب أو ذاك من مؤلفات العوتبي، حيث أشار محمود الريامي في خاتمة دراسته عن كتاب الإبانة إلى "ضرورة دراسة تراث العوتبي مجتمعًا وذلك لأن الفقه واللغة والأنساب يكمل بعضها البعض الآخر، ويلقي في الوقت نفسه أضواءًا كاشفة جديدة على سيرة العوتبي ومنهجه وميوله، ويصحح العديد من الإشكالات التي وقع بها بعض الباحثين. وفي السياق نفسه يؤكد حسن النابودة من خلال دراسته لكتاب الأنساب أن "دراسة موسعة وشاملة وعميقة لكتاب الأنساب ستؤدي إلى معرفة تفاصيل أكثر عن المؤلف الأصلي والفترة التي عاصرها والمشاكل التي تعرض لها". وحين يتكلّم الباحث نفسه عن الكتب الأخرى لمؤلف الأنساب، والتي أشار إليها في (الأنساب) ولا زالت مفقودة يقول "ولا شك أن العثور على أي من هذه الكتب تكون له فائدة كبيرة لمعرفة تفاصيل عن مؤلف كتاب الأنساب. بعد هذه الملاحظات الموجزة سنتناول المشادة بين الباحثين المعاصرين من عرب ومستشرقين حول العوتبي محاولين توضيح أهم نقاط الخلاف.

شخصية العوتبي وعصره ومؤلفاته:

رغم أهمية العوتبي الصحاري كمؤلف موسوعي متعدد المواهب والاختصاصات، حيث ألّف في مجال الفقه واللغة والأدب والنسب والتاريخ وغيرها من المجالات الفكرية، فعدا مؤلفاته المعروفة والمتداولة مثل كتاب الضياء في الفقه في 24 جزءًا وكتاب الأبانة في اللغة وكتاب الأنساب، أشار العوتبي إلى مجموعة أخرى من كتبه منها: كتاب يبين الحكمة في الحكم والأمثال (وهو كتاب الإبانة نفسه) وكتاب الإمامة وكتاب محكم الخطابة في الخطب والرسائل وكتاب ممتع البلاغة في الوفود والوفادات، وكتاب أنس الغرائب في النوادر والأخبار والفكاهات والأسماء. إلا أن هذه الكتب لم يُعثر عليها لحد الآن، على أن العوتبي يشير إلى بعض موضوعاتها ويسردها في كتبه الأخرى المتداولة والمنشورة الآن. ورغم أن العوتبي من أسرة مشهورة في الباطنة وصحار وحواليها، وأن أفرادًا من أسرته شاركوا في الأحداث

السياسية خاصة في عهد الإمامة الإباضية الثانية في أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وأكثر من هذا رغم أن العوتبي كان رائدًا لحركة تجديدية ضمن مدرسته الفقهية التي درس على شيوخها وهي (مدرسة الرستاق) المعروفة، وأنه كان رائدًا لحركة علمية في المجالات التي تعمق فيها مثل الفقه واللغة والتاريخ في إطار النسب حيث غدا شيخًا لمدرسة في عوتب تخرّج على يديه عدد من طلبة العِلم وأنتج عددًا من المؤلفات.

نقول رغم ذلك كله... نلحظ التناقض والغموض يلف شخصيته وعصره وشيوخه، ليس بين الباحثين في عصرنا الحاضر، ولكن بين المؤرخين العُمانيين الأوائل. فعلى سبيل المثال نلاحظ الأزكوي في كتابه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة)، وهو من أهم مؤرخي عُمان الذين عاشوا حتى أوائل القرن 12هـ/18م ينقل من كتاب الأنساب في محاور عديدة دون أن يذكر عنوان الكتاب واسم مؤلفه. أما ابن رزيق مؤرخ عمان في القرن الثالث عشر الهجري/19م فهو الآخر يأخذ من أنساب العوتبي في كتابه (الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين) دون أن يشير إلى اسمه. ولكنه يعود فيذكر العوتبي في كتابه الآخر المرسوم (الصحيفة القحطانية) وينسب إليه كتاب الأنساب. وتتضح الصورة أكثر مع نور الدين السالمي وكتابه (تحفة الأعيان في سيرة أهل عُمان) حيث ينسب كتاب الأنساب للعوتبي، ولكن نور الدين السالمي فرق في كتابه الآخر (اللمعة المرضية) بين العوتبي صاحب الضياء والعوتبي مصنّف الأنساب.

إنّ هذا التفريق بين العوتبي (صاحب الضياء) والعوتبي (صاحب الأنساب) أو القول بأن مؤلف الأنساب هو شخص آخر غير العوتبي، أدخل الباحثين المحدثين في مشادّة. وقد عالج هذه الإشكالية عدد من الباحثين، ولا يمكننا في هذا البحث حصرهم جميعًا واستعراض تخريجاتهم في هذا المجال. ولابد أن نقول بأن أغلبية الباحثين من عُمانيين وعرب وأجانب تعاملوا مع العوتبي باعتباره مؤلف كتابي الأنساب والضياء لأن العديد من المصادر العُمانية تتفق على ذلك.

إلا أن أول من شكّك في شخصية العوتبي كان المستشرق باثيرست 1966م ولكنّه لم يقدّم البديل، ثم تبعه المستشرق ولكنسون 1971م ثم الباحث العُماني عبد الرحمن السالمي سنة 2000م، ثم الأستاذ الأكاديمي حسن محمد عبدالله النابودة سنة 2005م على التتابع. أما الباحث الأكاديمي محمود الريامي 2002م فلم يتفق معهم وتبنى وجهة نظر مغايرة.

كان ولكنسون مترددًا في فرضيته حول العوتبي، ففي بداية الأمر أشار إلى وجود شخصيتين باسم العوتبي: الأول أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم وهو مصنف كتاب الأنساب والثانية أبو إبراهيم سلمة بن مسلم بن عيسى بن سلمة (مصنف كتاب الضياء). وبكلمة أخرى فإن أبا إبراهيم صاحب كتاب الضياء هو جد أبي المنذر صاحب كتاب الأنساب. ولكن ولكنسون تراجع عن فرضيته هذه في بحث له سنة 1986م وأشار إلى أن هناك شخص واحد باسم العوتبي ولكنه كانت له كنيتان (أبو المنذر) وهي الأكثر شيوعًا وتداولاً ثم (أبو إبراهيم). ثم عاد ولكنسون مرة أخرى وفصل بين الشخصيتين. وهكذا كان ولكنسون مرتبكًا لم يستقر على قناعة ثابتة.

وأسهب الباحث العُماني عبد الرحمن السالمي في مقالته عن (تعددية العوتبي وترجمته) في مناقشة فرضية ولكنسون رغم تراجع الأخير عنها ثم عودته إلى طرحها مما أضعفها دون شك. وكان عبد الرحمن السالمي متحفظًا في بداية الأمر تجاه الفرضية، وأوضح أن الحاجة ماسة لدراسة أشمل عن العوتبي تأخذ بنظر الاعتبار العلماء المعاصرين له وشيوخه. إلا أن عبد الرحمن السالمي عاد ورجع إلى فرضية ولكنسون. كما قبل رأيه في أن العوتبي اقتبس من ابن حزم الأندلسي (464هـ/1070م) في كتابه (جمهرة أنساب العرب). و هذا يجعل العوتبي من الذين عاشوا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وهذا تخريج يصعب قبوله. ومن هذا فإن عبد الرحمن السالمي في رأيه النهائي يعطي حكمًا عامًا حول زمن وفاته ويقول أن العوتبي عاش وتوفي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي دون تحديد وجزم.

أما محمود بن سليمان الريامي فمع أن أطروحته تخص الصياغة المعجمية في (كتاب الإبانة) للعوتبي، فقد خصص الفصلين الأوليين لعصر العوتبي وحياته ومؤلفاته. وبقدر تعلّق الأمر باسمه ونشأته استعرض الريامي بعض البحوث والدراسات السابقة مشيرًا إلى أن هذه الدراسات لم تنظر للعوتبي نظرة شمولية بجميع جوانب حياته وثقافته المختلفة. ولم تحاول توظيف حياة العوتبي توظيفًا يخدم حقول المعرفة التي ألف فيها، ولم تستفد من مؤلفات العوتبي التي وصلت إلينا، ولم تحط إحاطة تامة بمنهج العوتبي العام في التأليف، ذلك المنهج الذي وجدت أصداؤه في أغلب مؤلفاته. ويرفض الريامي فرضية ولكنسون ومن اتفق

معه، ويرى أن الفصل بين شخصية مؤلف الضياء وجعل كنيته أبا إبراهيم وشخصية مؤلف الأنساب وجعل كنيته أبا المنذر، فصل خاطئًا يعود لعدم قراءة كتب العوتبي مجتمعة قراءة واعية بحيث يسند بعضها بعضًا. ويستند الريامي إلى دليل واضح هو وجود الإحالات من كتاب إلى آخر، حيث يحيل العوتبي نفسه من كتاب إلى آخر من كتبه، هذا بالإضافة إلى أن المصادر القديمة أمثال الكندي والشقصي وابن مدّاد، تكني العوتبي بكنيتين الأولى أبو المنذر والثانية أبو إبراهيم، ثم جاء بعدهم نور الدين السالمي الذي كان أكثر وضوحًا في بيان أن للعوتبي كنيتين حيث يقول: "وكتاب الضياء للشيخ أبي إبراهيم سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي" ثم يقول في الكتاب نفسه "وكتاب الإمامة تأليف أبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم صاحب الضياء وله أيضًا كتاب الأنساب" وبهذا يكون الريامي قد فنّد فرضية ولكنسون بوجود شخصيتين باسم العوتبي، ويرى أن اسم العوتبي الكامل هو (أبو المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم بن مسلم بن عيسى بن سلمة الطاحي العوتبي الصحاري).

وحين يعالج الريامي تاريخ ميلاده ووفاته، فهو يدرك الاختلاف الكبير والمربك حول الموضوع، ولكنه يرى أن كثيرًا من العلماء الذين نقل عنهم العوتبي عاشوا بعد النصف الأول من القرن الرابع الهجري مثل ابن بركة 361هـ وأبو الحسن البسيوي (ت القرن 5هـ) وابن سعيد الكدمي (ت361هـ) وآخرهم الجرجاني (ت392هـ). أما الأندلسي الذي أشار إليه العوتبي في الأنساب، فهو ليس ابن حزم الظاهري الأندلسي (ت456هـ) كما اعتقد بعض الباحثين، وإنما هو عبد الملك بن حبيب الأندلسي (ت238هـ) حيث ذكره العوتبي باسمه أو أحيانًا "قال الأندلسي". ولابد أن نحذر كذلك من زيادات النسّاخ في كتب العوتبي وهي ليست قليلة وتحتاج إلى التمعن والدقة. ويصل الريامي إلى قناعاته في موضوع الولادة والوفاة حيث يقول: "والراجح أن العوتبي ولد في الربع الثالث من القرن الرابع الهجري أي بين سنة 350هـ - 375هـ وتوفي في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري بين 430هـ إلى 440هـ". ويسند الريامي رأيه بعدة أدلة منها: أولاً: أن آخر العلماء الذين ذكروا في كتاب الإبانة هو ابن خالويه (ت372هـ) وآخر العلماء الذين ذكروا في كتاب الضياء هو الشريف الجرجاني (ت395هـ)، وإذا علمنا التلازم في تأليف الكتابين من حيث الزمن، أدركنا أنهما ألفا في أواخر القرن الرابع الهجري وبدايات القرن الخامس الهجري، حيث لم يذكر العوتبي أو ينقل عن علماء وجدوا بعد هذه الحقبة. وثانيًا أن

تلميذ العوتبي أبو سليمان هداد بن سعيد كان قاضيًا على صحار للإمام راشد بن سعيد اليحمدي الذي توفي سنة 445هـ ومعنى ذلك أن الشيخ هداد تلقى العِلم من العوتبي قبل هذا التاريخ، وأن العوتبي كان يقعد للتدريس في أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجري. وثالثًا أن عددًا من الكتب المؤلفة في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري تنقل كلام العوتبي وكلام تلميذه هداد.

أما حسن محمد النابودة فينهج منهجًا آخر يختلف عن بقية الباحثين، فمع أن المخطوطات الخمس الموثوقة والتي بين أيدينا تذكر أن العوتبي هو مؤلف كتاب الأنساب. فإن النابودة يرى "أن مؤلف الكتاب ليس من أسرة العوتبي لكنه من سكان عُمان"، ويضيف أنه لابد من دراسة كتاب الأنساب وما ورد فيه من روايات مختلفة دراسة نقدية تحليلية، وأنه من خلال ما جاء في كتاب الأنساب تولدت لديه "قناعة بأن مؤلفه ليس فقيهًا كما أنه ليس أديبًا وليست له ميول دينية لكي يضع مؤلفات في اللغة والدين بحجم موسوعي "الإبانة" و"الضياء". ويسرد النابودة عددًا من الأسباب التي ولّدت عنده هذه القناعة نجملها فيما يلي:

(1) أن المعلومات عن كتاب الأنساب ومؤلفه شحيحة فليست لدينا أخبار عن سيرته أو مذهبه مما يعني أننا أمام مؤلف مجهول.

(2) الاختلاف الكبير في المنهج والأسلوب بين كتاب الضياء وكتاب الأنساب وخاصة من ناحية الميول المذهبيّة.

(3) الأزكوي وابن رزيق ينقلان حرفيًا من كتاب الأنساب ولا يشيران إلى الكتاب ولا إلى مؤلفه. فإذا كان الأزكوي وهو أشهر مؤرخ عُماني لا يعطينا جوابًا عن كتاب الأنساب، فعلى من نستند؟

(4) المؤلف له ميول عُمانية واضحة ولكنه لا يثني على المذهب الأباضي، وهو أمر نجده واضحًا في كتاب الضياء للعوتبي، ومن هنا يستبعد النابودة أن يكون مؤلف كتاب الأنساب من علماء المذهب الإباضي. إلا أن النابودة يبقى مترددًا حول شخصية المؤلف ونسبة كتاب الأنساب إليه، وهذا واضح في قوله حين يتكلم عن الكتب الأخرى الذي ذكرها مؤلف الأنساب على أنها من تأليفه "ولا شك فإن العثور على أي من الكتب المذكورة سوف تكون له فائدة كبيرة لمعرفة تفاصيل أكثر عن مؤلف كتاب الأنساب وحياته...".

ميوله ونزعاته الفكرية:

اهتم عدد من الباحثين بمذهب العوتبي وميوله السياسية والفكرية، وقد أخذ جميعهم بنظر الاعتبار بيئته الساحلية في صحار وما جاورها باعتبارها ميناءً تجاريًا ومجتمعًا متنوع الثقافات والأجناس مما أثر على توجه أهلها المعتدل والمتسم بالمرونة والحيادية في المعترك الديني - السياسي آنذاك. كما أشاروا إلى أثر الصراع السياسي المحتدم بين الإمامة الإباضية والقوى الخارجية الطامعة في عُمان، إضافة إلى النزاع السياسي - العقدي بين النزوانية والرستاقية.

يقول عبد الرحمن السالمي إن نشأة العوتبي كانت في فترة إعادة إحياء الإمامة الإباضية، وهي فترة شهدت صراعات متعددة منذ غزو محمد بن نور سنة 280هـ/893م وما رافقها وتبعها من سلسلة متتالية من الغزاة من بويهيين وقرامطة وتركمان (سلاجقة) سنة 456هـ/1063م، وكرد فعل حاولت عمان التوسع الإقليمي ومد نفوذها السياسي ضد نشاطات الفاطميين في حضرموت الذين ساندوا الصليحي، وكذلك في التدخل العُماني في الإحساء وهجر ضد القبائل المعادية وخاصة نهد وعقيل، ونشاطات أقل في غربي الهند والساحل الأفريقي الشرقي. ثم يشير عبد الرحمن السالمي إلى ظاهرة أخرى شهدت هذه الفترة وهي انتعاش الحركة العلمية وخاصة حركة التأليف في موضوعات العقيدة، وكذلك ظهور المصنفات الموسوعية في الفقه مثل بيان الشرع في 72 مجلدًا، والمصنف في 42 مجلدًا والكفاية في 51 مجلدًا، والضياء في أكثر من 40 جزءًا على حد قول البرادي. في هذا الجو الفكري - السياسي برز العوتبي كأحد علماء الإباضية مستندًا على مكانة عائلته في منطقة الساحل مكونًا موقفًا متميزًا يتصف بكونه فوق النزاعات القبلية وفوق الصراعات المذهبية السياسية بين الرستاقية والنزوانية، رغم أنه تتلمذ على شيوخ المدرسة الرستاقية، ويختتم عبد الرحمن السالمي كلامه بالقول بأن العوتبي لعب دور العالم ذي النزعة الإصلاحية الجديدة مما جعله أكثر قبولاً لدى الناس وتجاوزت شهرته عمان إلى خارجها. ويستطرد عبد الرحمن السالمي قائلاً "لقدتبنى العوتبي موقفًا أكثر تطورًا ليكوّن مدرسة متميزة منعزلاً عن الصراعات السياسية الدينية القائمة بين القبائل والأئمة والعلماء...". لذا فإننا لا نجد للعوتبي ذكرًا في تلك الصراعات. وحين بلغ الصراع الداخلي حدته بين الرستاقية والنزوانية كان يحاول إيجاد صيغة لتفهم وشرح الجوانب العقائدية بآراء

حديثة". وهذا واضح في فتاواه في كتاب الضياء وفي سيرته ضمن كتاب السير والجوابات (مجموعة مؤلفين، ط2، ص39).

كما أن موقفه الموضوعي يغلب على صفحات كتابه في الأنساب. ويؤيد الريامي وجهة النظر التي تقول بآن العوتبي يمثل جيلاً جديدًا من المدرسة الرستاقية، ويورد مثلاً على ذلك في قضية عزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي، حيث أن شيخه ابن بركة يقول بوجوب البراءة من الذين عزلوا الإمام الصلت، أما العوتبي فرأى أن البراءة تجب على من شهد معه الحدث وعلم حرمته. أما من خفي عليه الأمر فليس عليه أن يبرأ. وبكلمة أخرى فإن ابن بركة شيخ الرستاقية وشيخ العوتبي كان يلزم العوام السؤال عن حكم الخارجين على الإمامة والبراءة منهم، ولم يلزم العوتبي ذلك. وهذا اتجاه جديد فيه الكثير من المرونة في مسائل الولاية والبراءة. ويؤيد ذلك ما أشار إليه العوتبي في الضياء: "فكل فعل احتمل حسن الظن بفاعل أو جواز لمتأوله حمل ذلك على حسن الظن فيه ويحتمل التأويل ما احتمل إذ البراءة من المسلمين من كبائر الذنوب فلا يجوز إيقاعها إلا بعد الوجوب".

وناقش الريامي ميول العوتبي ونزعاته الفكرية مؤكدًا أن عوامل مختلفة صاغت اتجاهاته الفكرية منها: "دينه وعروبته، والمذهب الإباضي الذي ينتمي إليه والمدرسة الرستاقية التي درس على شيوخها، ومنها الاضطرابات السائدة في عُمان في القرنين الرابع والخامس الهجريين، كل هذه العوامل أثرت في فكره، فخرج باتجاه يمكن تلمس معالمه من خلال مؤلفاته". ولعل ذلك يبدو واضحًا في بداية كتابه الضياء حين يقول: "فهذا كتاب دعاني إلى تأليفه وحداني إلى تصنيفه ما وجدت من دروس آثار المسلمين وطموس آثار الدين وذهاب المذهب ومتحمليه، فرأيت الإمساك عن أحيائه مع القدرة عليه ووجود السبيل إليه ذنبًا...". ومما يدل على سعة صدره هو ذكره لآراء الفرق الإسلامية المختلفة والمخالفة لآراء الإباضية ومنها الشيعة ومناقشتها من غير تعريض بها موضحًا السبب "إذ العِلم بذلك خير من الجهل به". كما أكد العوتبي موقفه المعتدل في كتابه الآخر (الأنساب) حين قال: "وأعوذ به من الحمية والعصبية والأخلاق الجاهلية".

وحين يتكلّم حسن محمد النابودة عن ميول مؤلف كتاب الأنساب فهو يؤكد على أن البيئة التي عاش فيها المؤلف بيئة تجارية ملاحية مزدهرة مما جعل أهلها معتدلين بعيدين عن الصراعات المذهبية التي تغذيها العصبيات القبلية. ولهذا اتبع

المؤلف مبدأ الحياد في تعامله مع الأحداث السياسية وأظهر امتعاظه في العصبية. ومن هنا فإن النابودة يرى أن العوتبي صاحب الضياء ليس مؤلف كتاب الأنساب مستندًا أن ميول العوتبي الإباضية ودفاعه عنها وإبرازه علمائها تختلف تمامًا عن ميول صاحب كتاب الأنساب المعتدلة مما يدل أنه ليس من علماء الإباضية. كما يشير النابودة إلى موقف العوتبي صاحب الضياء من وجوب البراءة من المتآمرين على عزل الإمام الصلت بن مالك، بينما يسرد مؤلف كتاب الأنساب أحداث القضية نفسها دون تأييد لطرف أو لآخر. ولكن قراءة متمعنة للأحداث ربما تعدل من هذا الرأي، ذلك لأن موقف العوتبي في الضياء حول البراءة من الذين عزلوا الصلت بن مالك يعد موقفًا تصحيحيًا ومعتدلاً إذا ما قورن بموقف المدرسة الرستاقية، فالعوتبي كما أشرنا سابقًا يشترط في البراءة المعرّفة والعِلم بالقضية فمن شهر منه حدثهما وعلم به وجب عليه أن يبرأ منهما (أي من موسى بن موسى وراشد بن النظر). ثمّ إن كتاب الضياء هو كتاب في الفقه ولابد أن تظهر فيه ميول العوتبي الإباضية، وهو ما لا شك فيه لأنه أباضي المذهب، أما كتاب الأنساب فهو كتاب تاريخ في إطار النسب يسرد الأخبار والأحداث بطريقة غير مفصلة، ومن هنا لا تظهر ميول المؤلف. فهل تظهر ميول الطبري المعادية للحنابلة في تاريخه، بينما تظهر هذه الميول بطريقة أو أخرى في تفسيره. وهل تظهر ميول اليعقوبي العلوية المعتدلة بحيث تؤثر على منهجه في كتاب التاريخ. وتؤكد نصوص في كلا الكتابين الضياء والأنساب منهجية واحدة كما أشرنا، تتخذ بصفة عامة الاعتدال أساسًا لها. كما أننا لابد أن نتذكر الزيادات التي أضافها النسّاخون عبر القرون المتتابعة على كتب العوتبي بحيث يجد القارئ فيها الكثير من التصحيف والتحريف والتكملة.

نظرة تقويمية:

مهما اختلف الباحثون المحدثون حول سيرة العوتبي وشخصيته ونسبة بعض مؤلفاته إليه، فإنهم اتفقوا على أن ما طرحوه من آراء واستنتاجات لا تُعد نهائية، بل أن بعضهم مثل المستشرق ولكنسون تراجع عن بعض آرائه ثم عاد إليه.

إن هذا الخلط والالتباس الذي لفَّ العوتبي وكتبه ليس جديدًا في التدوين التاريخي العُماني، فقد حدث الشيء نفسه مع الأزكوي صاحب (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) حين شكك المستشرق الإنكليزي ولكنسون نفسه بأن الكتاب ليس من تأليف الأزكوي بل لمؤلف مجهول لا نعرف اسمه، وأكثر من ذلك يعتقد ولكنسون بأن

اسم الكتاب هو (كشف الغمة في اختلاف الأمة). ويعزو هذه المزاعم إلى مؤرخي عُمان، ولكننا لم نجد ذلك عند المؤرخين العُمانيين البارزين الذين نعرفهم!!. وقد تبع ولكنسون في هذا الرأي عدد من الباحثين المحدثين. إلا أن حسن محمد النابودة حسم الأمر حين أكد بالأدلة أن كتاب كشف الغمة مصنف متكامل ألفه الأزكوي، وأن كل مخطوطاته تحمل اسم الأزكوي، كما وأشار مؤرخو عُمان إلى اسم الأزكوي مرادفًا لكشف الغمة الذي توحي كافة أجزائه أنه كتب بروح واحدة ونفس واحدة لمؤلف واحد.

فحالة العوتبي والمشادة حوله ليست استثنائية أو غريبة خاصة، وكما أشرنا سابقًا، أن الباحثين لم يجدوا إلا النزر اليسير عن ترجمته. ومن هنا فإن الطريقة الوحيدة للكشف عن العوتبي هي في محاولة استقراء مجموعة كتبه ورسائله، فهي وحدها التي تنبأنا عن شخصيته وميوله الدينية - السياسية، ومن خلال قراءة كتبه سنكشف كذلك منهجه والموضوعات التي يحاول أن يبرزها. وبكلمة أخرى هل أن هذه المؤلفات بأجزائها العديدة عبّرت عن هدف واحدة ونزعة سياسية فكرية واحدة لمؤلف واحد؟؟. وهل أنها عكست بطريقة أو بأخرى مظاهر من بيئته ونشأته وموقفه من الصراع السياسي للزمن الذي عاش فيه؟ على أن هذا المشروع المقترح يتطلب جهدًا ووقتًا ومجموعة باحثين وربما تبناه مجموعة من طلبة الدراسات العليا أو أحد مراكز البحوث. وسنقتصر هنا على إيراد نماذج لهذا المنهج.

ولعل أول ما تعكسه مؤلفات العوتبي الموسوعية هو البيئة التي نشأ فيها، والثقافة التي تلقاها. وقد أشرنا سابقًا أن العوتبي ولد ونشأ وعاش في عوتب بصحار من ساحل الباطنة بعمان. وصحار مركز من مراكز الثقافة والفكر في تلك الآونة، بالإضافة إلى كونها ميناء بحري. فهي والحالة هذه كالبصرة في كونها مركز حضري يجتذب مختلف الأقوام ويتلقى أنواع الثقافات. فهناك من يعمل في التجارة والملاحة وهناك من يشتغل بالعِلم والمعرفة، كما وأنها مركز جذب سياسي ومحل أطماع خارجية عديدة لأسباب سياسية واقتصادية. وقد ذكر الجغرافي المقدسي (ت380هـ) عن صحار أنها قصبة عُمان عامرة وآهلة بالسكان ذات أسواق عجيبة وآبار عذبة، ويضيف المقدسي الذي كان يكتب في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أن الفرس (البويهيين) قد غلبوا عليها، لدرجة أن المقدسي يضيف بأن الفارسية كانت لغة دارجة في صحار. ولا شك فإن ظروف صحار أثرت على

العوتبي في طور النشأة ثم الرجولة. فالموانئ بطبيعتها يتسم أهلها بالوداعة والحياد، لأنهم يدركون أن ازدهار مدينتهم التجارية لا يتحقق إلا بالاستقرار والأمن، كما وأن العوتبي وهو يعيش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي عصر النهضة الذي سماه آدم متز بعصر الرينيسانس في الإسلام، اطلع على مختلف العلوم في مدينته الخليجية غير البعيدة عن البصرة وبغداد وغيرها من مراكز الفكر العربي الإسلامي في تلك الفترة من خلال المؤلفات التي أشار إليها في مجموعة كتبه والتي كانت تصله من هذه المراكز بطريقة أو بأخرى. كل ذلك جعل العوتبي مفتتحًا مرنًا واسع الأفق بطبيعته.

وإذا كان العوتبي قد رحل إلى نزوى ودرس على علماء المدرسة الرستاقية في حينه وعلى رأسهم ابن بركة وتعلّم منه الكثير فيما يتصل بالمذهب الإباضي، إلا أن نزعته المتفتحة المرنة جعلته موضوعيًا وحياديًا في طلبه للعِلم، وفيما بعد في تأليفه. ولذلك نلاحظه يأخذ عن أبي سعيد الكدمي زعيم المدرسة النزوانية في حينه ويذكره باحترام ووقار. ومعنى ذلك فقد كان العوتبي فوق الصراع الرستاقي - النزواني.

وإذا ما عرّجنا على الحياة السياسية في صحار خاصة وعُمان عامة، نلاحظ أن عُمان قد شهدت صراعات سياسية متتابعة، وواجهت فتنة داخلية أعقبتها تدخلات خارجية. أما الفتنة الأهلية الداخلية فكان سببها عزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي سنة 273هـ/885م ومبايعة الفقيه موسى بن موسى إمام جديد هو راشد بن النظر. وقد قادت هذه الحادثة إلى حروب مدمرة انتهت بزوال الإمامة الإباضية الثانية سنة 280هـ/893م. وقد وقف العلماء المعاصرون للحادثة بين مؤيد ومعارض، وقاد هذا الخلاف إلى انقسام سياسي بين أهل عُمان، مما أتاح المجال للقوى القبلية أن تظهر على المسرح السياسي وبتشجيع من بعض رجالات الدعوة أنفسهم. وكان لابد أن تنشب معارك بين اليمانية المؤيدة لشاذان بين الصلت بن مالك والنزارية المؤيدة لراشد بن النظر الذي ألحق هزيمة كبيرة باليمانية في معركة (الروضة). وقد عبر ابن دريد العُماني بقصائده عن هذه الروح القبلية التي قسّمت عُمان وأضعفت إلى حد كبير المبادئ الإباضية، وقد تتابعت المعارك بني الطرفين كان من أشهرها موقعة (القاع) سنة 278هـ/ 891م حيث دارت الدائرة هذه المرة على النزارية.

بعد هذه الهزيمة طلب شيوخ النزارية من والي البحرين العباسي المساعدة العسكرية ضد الحميرية (اليمانية)، وبعد الاتصال بالخليفة العباسي في بغداد والحصول على الموافقة، جهزت حملة عباسية يساندها قبائل نزارية من أقاليم عديدة مثل بلاد الشام، وقد انتصر محمد بن نور (بور) القائد العباسي ودخل نزوى سنة 280هـ واتخذ إجراءات شديدة منها مصادرة كتب الإباضية وإحراقها وتخريب الأراضي الزراعية والقنوات ونقل المقر الإداري من نزوى إلى بهلا. لقد كانت النتيجة المباشرة لموقعة القاع زوال الإمامة الإباضية الثانية ككيان سياسي في عُمان. إلا أن النفوذ العباسي لم يشمل عُمان بكاملها بل انحصر في المنطقة الساحلية وخاصة صحار موطن العوتبي وشمالي عُمان ونزوى وبهلا. وظلت القبائل في الداخل تدين بالإباضية.

وحين دخل القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي نجد المعلومات التاريخية عن عُمان قليلة جدًا. ذلك لأن هدف المؤرخين العُمانيين هو كتابة تاريخ عُمان في ظل الإباضية، فهم لا يعيرون أهمية كبيرة لتاريخها حين تسيطر قوى سياسية غير إباضية عليها. فالمعلومات نادرة بين سنتي 280هـ-320هـ ثم سيطرة العباسيين والقرامطة على عُمان. ثم تزداد الأخبار سنة 320هـ/932م بسبب الانتعاش الذي مرت به الحركة الإباضية. وتعاقبت على حكم عُمان قوى محلية موالية للعباسيين جنبًا إلى جنب مع القوى الموالية للإمامة.

ومن سوء الصدف في التاريخ العُماني أن تبرز الأطماع التوسعية القرمطية في هذه الفترة التي شهدت ضعف الخلافة العباسية وضعف الإمامة الإباضية. الأمر الذي بعث الأمل في نفوس القرامطة للحصول على موطئ قدم لهم في عُمان والتحكم في تجارة الخليج المزدهرة والتي تدر أرباحًا جيدة. وقد حاول القرامطة مرات عديدة الهجوم على عُمان ابتداءً من سنة 289هـ/902م ثم 305هـ/917م ثم نجحوا في سنة 317هـ-318هـ/929م مستغلين سحب القوات العباسية من قبل الخليفة المتقدر بالله العباسي لحاجته إليها في مناطق أخرى. وقد امتد نفوذ القرامطة لأول مرة إلى داخل عُمان حيث سيطروا على أدم القريبة من نزوى معقل الإمامة الإباضية. ولكنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو السواحل الشرقية حيث كان يوسف بن وجيه يتمتع بالنفوذ بعد انتهاء نفوذ بني سامة.

لقد استمر الصراع على النفوذ في عُمان بين الإمامة الإباضية وبني وجيه (ممثلي العباسيين) والقرامطة. وقد نجح العُمانيون في وقف التقدم القرمطي وحسره تدريجيًا عن مناطق عديدة من عُمان. إلا أن قوة سياسية عسكرية جديدة ظهرت على المسرح السياسي في منطقة الخليج وهي قوة البويهيين الذين سيطروا على بغداد سنة 334هـ/940م وسرعان ما ظهرت أطماعهم في تجارة الخليج. وكانت أولى المحاولات البويهية لاحتلال عُمان سنة 341هـ/952م ثم تبعتها المحاولة الثانية سنة 352هـ/963م بقيادة الحسن بن محمد المهلبي حيث أمل الأمير معز الدولة البويهي من الحسن المهلبي أن يكسب أهل عُمان إلى جانب الحملة البويهية باعتبار أن آل المهلب لهم ارتباطات قوية بأهل عُمان، ولكن القائد المهلبي ظل يماطل بحجة عدم جاهزية الجيش مما أزعج معز الدولة وأمره بالعودة إلى بغداد. ثم جاءت الحملة الثالثة مع انقراض حكم بني وجيه سنة 354هـ/965م تبعها بحملة رابعة مباشرة أجبرت نافع الأسود حاكم عُمان على إعلان ولائه للبويهيين.

انتهز القرامطة عدم الاستقرار في عُمان، وعدم استكانة أهل عمان للنفوذ البويهي فقرروا التعجيل بحملة جديدة سنة 353هـ-354هـ/965 -964م تتكون من أعداد كبيرة من الزنج في جيش القرامطة بقيادة أبي علي بن أبي منصور. ولقيت الحملة مقاومة شديدة، ولكنها تمكنت في نهاية المطاف من السيطرة على أجزاء من عُمان، واتفقوا مع أهل عُمان على حكم ثنائي يتكون من أمير ينتخبه أهل عُمان وممثل للقرامطة يشرف على الجيش وتحصيل الضرائب. ولم يقف البويهيون مكتوفي الأيدي تجاه احتلال القرامطة لعُمان فأرسلوا قوة عسكرية من العراق ساندتها قوة أخرى أرسلها عضد الدولة البويهي من إقليم فارس.

وقد انتصر البويهيون سنة 355هـ/965م على المقاومة العُمانية - القرمطية وأصبحت عُمان تابعة لعضد الدولة البويهي الذي يحكم من شيراز. واستمر البويهيون يحكمون عُمان حتى انقسام البيت البويهي وتنازعه على النفوذ سنة 374هـ، وقد عيّن بهاء الدولة البويهي أبا محمد بن مكرم واليًا على عُمان سنة 390هـ/199م. إلا أن استمرار الضعف في البيت البويهي أدى إلى استقلال أسرة بني مكرم بالسلطة في عُمان. كما انتهز العُمانيون الفرصة فبايعوا الإمام راشد بن سعيد بن عبد الله اليحمدي إمامًا جديدًا على عُمان سنة 425هـ/1033م الذي استطاع تدريجيًا تقليص النفوذ البويهي ثم إخراجهم من عُمان، كما نجح في

استعادة عدد من المناطق العُمانية التي كانت تحت نفوذ بني مكرم. ولكن البويهيين في عهد أبي كاليجار سطوا على عُمان مرة أخرى فوصل عسكرهم من فارس إلى عُمان واحتل صحار سنة 433هـ/1044م. ولكن الحرب بقيت سجالاً حيث هاجمهم الإمام راشد بن سعيد سنة 442هـ/1050م وخلفه الإمام الخليل بن شاذان. وسيشهد عهد الإمام الخليل مهاجمة الأتراك السلاجقة عُمان. ومهما يكن من أمر فإن مصادرنا التاريخية لا تذكر إلا النزر اليسير من الحوادث فيما يتعلق بالنفوذ السلجوقي في عُمان، بل إن عهد الإمام الخليل بن شاذان شهد استقرارًا نسبيًا وعدم وجودتدخل خارجي في شؤون عُمان الداخلية، مما جعل الإمام يتفرغ للأمور الداخلية وحاول رأب الصدع فيما يتعلق بالخلافات المذهبية واستمرت إمامته حتى سنة 474هـ/1081م. على أن ذلك خارج نطاق العصر الذي عاش فيه العوتبي الذي ربما توفي في أرجح الآراء حوالي 440هـ/1048م أو قبل ذلك بقليل.

لقد قدّمنا فيما سبق سردًا موجزًا عن نشأة العوتبي وتكوينه الثقافي وعصره، ولاحظنا أن هناك عدة مظاهر وقعت في المجتمع العُماني كان لها أثرها في اتجاهات العوتبي المذهبية ومواقفه السياسية وخطته في التأليف الموسوعي. فالصراع على الساحة العُمانية كان متعدد الأنماط: لعل أولها: الصراع السياسي الذي شهدناه بين أهل عُمان والقوى الخارجية والذي تمثل في فترة العوتبي بالدولة العباسية وأعوانها في عُمان ثم القرامطة ثم البويهيين والذي كان هدفه أرباح التجارة والمكوس.

وثانيها: المشادة التي برزت بين المذاهب والفرق الإسلامية ومنها الفرقة الإباضية، خاصة وأن عُمان وموانئها لم تكن بمنأى عن تأثير الأفكار القادمة من الخارج من شيعية إمامية وشيعية إسماعيلية (قرمطية) وسنية. أما ثالثها: فهو انقسام الإباضية أنفسهم إلى رستاقية ونزوانية واستمرار هذا النزاع الفكري لعقود طويلة من الزمان والذي جرّ معه انقسامًا قبليًا سياسيًا.

وسنحاول من خلال مؤلفات العوتبي المنشورة أن نعطي صورة أوضح لتكوينه الفكري ومنهجه في التأليف ومدى الأثر الذي تركته العوامل السياسية والفكرية والعقائدية آنفة الذكر عليه كمؤلف أو الآراء والمواقف التي حاول إيصالها إلى تلاميذه وإلى المجتمع ككل.

ولنبدأ بالكتاب الذي يهمنا وهو كتاب (الأنساب) وهو كتاب تاريخي في إطار النسب وهذا النوع من التدوين التاريخي يعد نمط من أنماط الكتابة في التاريخ عند المسلمين، وقد أشرت إليه في جملة بحوثي في هذا المجال. وكانت بدايات هذا النمط من الكتابة التاريخية في مرحلة النشوء في المدرسة العراقية بالكوفة والبصرة لأسباب عديدة لا مجال لذكرها هنا. ولعل من أبرزها إظهار دور العرب في الفتوحات والإدارة والمجتمع عمومًا لدوافع التنافس القبلي بين العرب أنفسهم عامة، وبينهم وبين الشعوبية خاصة. ولعل ~أشهر من كتب في المرحلة الأولى محمد بن السائب الكلبي ت 146هـ/762م ثم ابنه هشام الذي يحوي مصنفه بالإضافة إلى النسب معلومات عن الرجال في مختلف الأنشطة، وتناول كذلك موضوعات تاريخية تمامًا مثلما فعل العوتبي في أنسابه. ولهذا فإن ما أشار إليه بعض الباحثين إلى أن منهج العوتبي في أنسابه جديد ومبتكر ليس صحيحًا، بل أنه يدل على الصلة المتبادلة والاتصال بين عُمان والعراق وإطلاع العوتبي على نتاجات غيره من المؤلفين المسلمين في هذا النمط وخاصة أحمد بن يحيى البلاذري (ت279هـ) وكتابة أنساب الأشراف في اثني عشر مجلدًا ركز عشرة منها على قريش وثلثه على الأمويين والباقي على قبائل العرب الأخرى. وهذا يعني كذلك بأن تركيز العوتبي فيما سماه شجرة النسب على الأزد التي هاجرت إلى عُمان وأطراف الخليج هو نهج سبقه إليه البلاذري، وأنه اطلع على مثل هذه النماذج. وكما وأن نقد بعض الباحثين المحدثين بأن معلومات الكتاب التاريخية مختصرة أو مقتضية حيث يشير الريامي بأن العوتبي اتبع منهج الاقتصاد في هذا الكتاب، وأشار النابودة إلى أنه لا يعطي تفاصيل للأحداث السياسية، ليس في محله لأنه ببساطة يسير على المنهج المتبع في كتابه التاريخ في إطار النسب، ولم يخل العوتبي به بل سار عليه مقتفيًا آثار أسلافه من المؤرخين في هذا النمط.

وفي معرض تعليقهم على محتوى الكتاب أشار بعض الباحثين أنه مقطع إلى أجزاء غير مترابطة ربما ربطها النسّاخ بعد ذلك، نقول أن العوتبي كان لديه نهج في تأليف كتبه وربط موضوعاتها بعضها ببعض، وقد اقتضاه هذا المنهج أن يؤلف سلسلة متتابعة منتظمة كان كتاب الأنساب الكتاب الأوسط في السلسلة. ويوضح العوتبي هذا التكامل بين مؤلفاته حين يقول بأن هدفه من تأليفه هو: "وحملني أن ألفت هذا الكتاب لأني رأيت كتب الأنساب أكثر معونة وفائدة لطالب الأدب والعِلم والفقه". فكتابه في الأنساب يعزز ويكمل كتابه الأبانة في اللغة وكتابه الضياء في الفقه وغيرها من مؤلفاته.

كما نستشّف في كتاب الأنساب زمن تأليفه ومحتواه حين يقول العوتبي: "ثم نظمت بعد تصنيف فنون أجناس علم الأنساب أسماء ملوك الدنيا من لدن آدم عليه السلام إلى سنة ثلاثمائة وخمس وأربعين من تاريخ هجرة النبي (ﷺ) وآله وتاريخ أعمارهم... وأسماء المبتدعين للأشياء، وأضفت إلى ذلك أسماء الذين عرفوا بكناهم وغاب عن أكثر الناس أسماؤهم...".

وأشار في موضع آخر من الأنساب "وقد نظمت نسب كل شريف ومذكور وبليغ وخطيب وشاعر من القبائل". وسار على منهج البلاذري، فيما يتعلق بأنساب القبائل العربية، فبدأ بنسب عدنان لأنه نسب الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم تكلّم عن نسب القحطانية، رغم أن العوتبي فصّل كثيرًا من القبائل القحطانية بالمقارنة مع العدنانية. ومثلما كانت كتب الأنساب الإسلامية المتقدمة والتي يمثلها البلاذري خير تمثيل تعد وسيلة من وسائل الرد على الشعوبية المستفحلة في ذلك الزمن، فإن العوتبي من خلال كتابه في الأنساب وكذلك كتبه في اللغة والأدب كان يدافع عن العرب ودورهم التاريخي الذي أنكرته الشعوبية واستهزأت به. فالعوتبي وهو يعيش في ظل البويهيين ويخشى من مخططاتهم لا يخفي تفضيله للعرب وحرصه على الحفاظ على مآثرهم، ويحث طلاّبه وجيله على معرفة أنسابهم، وكان العوتبي ملفتًا للنظر حين أسند كلامه برأي الكاتب المخضرم في أواخر عصر الأمويين وأوائل عصر العباسيين عبد الله بن المقفع حين مدح العرب بقوله: "قرائح صحيحة وغرائز قوية وعقول ثابتة، يحمون الذمار، ويحفظون الجار، ويطلبون الثار ويؤثرون النار على العار، والفقر مع العز على الغنى والذل، يأبون الضيم، ويطعمون الضيف، ويحفظون أنسابهم ومآثر آبائهم، ما يرضى أحدهم أقل مما يسخطه، ويحلمون في موضع الحلم، ويجهلون في موضع الجهل، ولست بواجد هذا في أحد من الأمم غيرهم فعليكم بمعرفة أنساب العرب ومآثرهم".

وفي كتاب الأنساب كذلك تظهر موضوعية العوتبي وحياديته تجاه الأحداث التاريخية واتساع أفقه ومرونته والتي أشاد بها النابودة الذي عزاها إلى بيئة صحار المتجهة نحو البحر و التجارة والاختلاط مع العالم الخارجي حيث "انعكس ذلك على شخصية مؤلف كتاب الأنساب الذي بدا واضحًا أنه لم يكن من المتعصبين للآراء والأهواء، ولم يبد أية ميول مذهبية متشددة، وأكد ذلك صراحة في قوله: وأعوذ به من الحمية والعصبية. وكان قرقش قد أشار إلى الاتجاه نفسه عند العوتبي حين

قال: "أبدى العوتبي تسامحًا في عرضه لأخبار رجاله، فلم تظهر في أخباره جوانب عصبية مذهبية وإقليمية، بل ارتبط بالنظرة الإسلامية الشاملة على الرغم من اهتمامه بسير رجال من أهل عُمان، حتى أنه التزم بذلك مع الشخصيات التي عاثت في عُمان فسادًا مثل الخيار بن سبرة المجاشعي ومحمد بن بور وترك إصدار الأحكام للقارئ...".

إلا أن ذلك لم يمنع العوتبي من التعبير عن مشاعره العُمانية الصادقة، وتأكيده على قبائل عُمان وشخصيات عُمانية أمثال الفراهيدي وابن دريد، وكذلك الشخصيات المهلبية ودورها ليس في تاريخ عُمان فقط بل في تاريخ الإسلام، فهو حين يمتدح المهلب بن أبي صفرة يبرز صفاته الحميدة بقوله: "ولم يكن في وقت المهلب في جميع العراق وقبائل العرب رجل منهم بقي في الحزم والعزم والعِلم والصدق والأمانة والوفاء...". وأبان العوتبي دور أزد عُمان في عمليات الفتح الإسلامية البرية والبحرية في صدر الإسلام، إلا أن العوتبي لم يكن دائمًا بالصورة التي صور بها، فقد عدّ العوتبي خلفاء الأمويين والعباسيين "ملوكًا" ولم يسبق أسمائهم بألقاب تدل على "الخلافة". بل إن قرقش نفسه لاحظ أن العوتبي لم يربط الخلفاء وكبار العلماء بالترضي والترحم، إلا في حالة الخلفاء الراشدين وبعض أئمة عُمان والشيخين ابن بركة والبسيوي. ولم يخف العوتبي مشاعره لما حل بآل المهلب بعد معركة العقر سنة 102هـ/720م ومقتل يزيد بن المهلب ومعظم أهله وتشتت البقية الباقية في المشرق الإسلامي وحمل بعضهم أسرى إلى يزيد بن عبد الملك الذي لعنه وكرّر اللعنة على يزيد بن معاوية ومعاوية بن أبي سفيان. ولم يستثني الحجاج بن يوسف الثقفي من لعناته. وعدا ذلك فقد كان العوتبي يبرز دائمًا فضائل إنجازات الرجال ولا يتعقب سقطاتهم، ويستخدم عبارات مهذبة حين شكّه في صدق الراوية أو الأخباري، وحرص على نقل الروايات المتعارضة حول الحادثة الواحدة من أجل اكتمال صورتها عند القارئ. فكان تعامله مع الخبر يعتمد بصورة عامة، على الأمانة والابتعاد عن النظرة الضيّقة.

إن اهتمام العوتبي في (كتابه الأنساب) بتاريخ عُمان ورجالاتها يعبر أولاً وقبل كل شيء عن موقف ملتزم تجاه وطنه عُمان وهو يتعرض لغزو قوى قرمطية وبويهية وغيرها. فلابد له وهو المثقف أن يؤكد على تاريخ عُمان وهويتها العربية-الإسلامية، وهو يلاحظ يد الخراب والدمار تعصف بها والحروب تحاول تمزيقها،

وهذا هو الهدف الرئيسي في نظرنا لهذا النمط في التدوين التاريخي، وكان العوتبي مدركًا له بعمق. ويتسق مع هذا الهدف ويتماشى معه ما كتبه العوتبي عن الإباضية مذهب أهل عُمان الذي تعرّض هو الآخر إلى الخطر الإسماعيلي القرمطي والشيعي البويهي وما لاقته الإمامة الإباضية من ضربات قاسية منهما. ولذلك فهو يتأسف في سيرته على ضعف المذهب الإباضي في عُمان ويرى أن الأمر يقتضي انتشاله وإنقاذه فيقول: "غير أن متحمليه (المذهب الإباضي) من القوم مهجورون، ومنتحليه اليوم مقهورون، فكونوا له معتقدين وعليه معتمدين". كما ويوضح أن ظروف عُمان الصعبة تمنعه من التصريح كتابة بأفكاره السياسية فيقول "ثم إن لمذهبنا هذا قولاً لا يمكن إظهاره إلا مشافهة...". ولهذا فقد أشار البعض أن له كتابًا في (الإمامة) يعبر عن وجهة النظر الإباضية حولها، لكي تكون واضحة لإتباع الإباضية من معاصريه ومن يخلفهم. ولكن هذه الرسالة مفقودة. كما كان له رسالة في الرد على الشيعة ومذهبهم وهي ذات طبيعة فقهية تشتمل على حوالي عشر صفحات من كتاب الضياء.

ولا شك أن العوتبي المؤرخ والفقيه يدرك الخلاف الواسع بين وجهة النظر الإباضية ووجهة النظر الشيعية (الإمامية) في مسائل عدة أبرزها ربما مسألة الخلافة والإمامة. ولا شك أن العوتبي قد اطلع على خطبة أبي حمزة المختار بن عوف الإباضي (الأصفهاني، الأغاني 138/23) والتي قال فيها فيما يتعلق بالشيعة: "... ينتظرون الدول في رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدّعون علم الغيب لمخلوقين لا يعلم أحدهم ما في داخل بيته... ينقمون المعاصي على أهلها ويعملون إذا ظهروا (أي إذا تقلّدوا السلطة) بها ولا يعرفون المخرج منها..".

ويظهر من هذه الخطبة عمق الخلاف بين الطرفين، فموقف الإباضية واضح. فبينما كان موقف الشيعة شديد التعقيد، أكد الإباضية على الشورى والانتخاب وبشرية الإمام لا قدسيته وجواز الثورة على الإمام الجائر في الوقت الذي أكد الشيعة على الوصاية وعدم تحكيم البشر في الإمامة المهدية والطاعة العمياء للإمام. وما إلى ذلك. وبجملة واحدة فإن الإمامة عند الإباضية مخالفة للإمامة عند الشيعة. ومهما يكن من أمر فإن منطلق العوتبي، وهو المؤرخ المفكر المعتدل، كان غير منطلق آبو حمزة السياسي الثائر. ومن هنا كان العوتبي يهدف إلى التفاهم ومعالجة الخلاف بين الفرق الإسلامية. فمثلما حاول رأب الصدع بين

الرستاقية والنزوانية حين تبنى موقفًا تصحيحيًا أكثر اعتدلاً من موقف مدرسته الرستاقية حول البراءة والذي أشرنا إليه سابقًا، حاول العوتبي كذلك الحوار مع الفرق الإسلامية الأخرى وخاصة الشيعة من القرامطة والبويهيين على اختلاف مذاهبهم، وقد أظهر موقفه صراحة حين أشار بأنه سينقل آراء جميع الفرق الإسلامية لأن "العِلم بذلك خير من الجهل به".

إن علوم الأنساب والتدوين التاريخي في إطار النسب لا تكفي للحفاظ على الهوية العربية وعلى الإسلام الصحيح، ولابد من إسنادها بركن آخر مهم وهو اللغة والأدب، ومن هنا كان تأليف العوتبي لكتاب (الإبانة في اللغة العربية) لبنة أخرى في مشروعه الموسوعي الهادف والمرسوم بدقة مكملاً لكتابيه الأنساب والضياء. فالعوتبي يدرك تمام الإدراك بأن الحفاظ على المثل والقيم في ظل الصراع السياسي والقوة الغازية لا يمكن أن يتم جهارًا فاستنبط بثاقب بصيرته طريقة غير مباشرة بث من خلالها آراءه وهي طريقة التأليف والتدريس في المسائل التي تحفظ الهوية وهي: الأنساب والتاريخ واللغة والأدب وأخيرًا وليس آخرًا الفقه، وهي العناصر التي تعزز شخصية الأمة وثقافتها.

فنحن إذن حين نتكلم عن (كتاب الإبانة) في اللغة والأدب نتكلّم عن السند الثاني الذي استخدمه العوتبي للحفاظ على الهوية في وطنه عُمان في ظل ظروف صعبة وعصيبة. لقد أوضح العوتبي في الجزء الأول من الإبانة أهمية الأدب فقال: "... وبه يقرب الفهم ويجب أن يبتدئ به الإنسان ليقيم به اللسان". وقد انتبه محمود الريامي إلى هذه الأهمية وعزا اهتمام العوتبي باللغة العربية وآدابها إلى عوامل ثلاثة: أولها الدافع الديني فالاهتمام بالعربية من مقتضيات الشرع، وثانيها الاحتلال البويهي لأجزاء من عُمان في القرن الرابع الهجري والنصف الأول من القرن الخامس الهجري والتي شملت صحار وهو دافع مهم للاهتمام بالعربية، وثالثها أن العوتبي عاش في عصر "النهضة الإسلامية" (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده)، ولم يكن العوتبي بمعزل عن هذه النهضة. كما وأن شيوخ المدرسة الرستاقية التي ينتمي إليها العوتبي ربطوا القضايا اللغوية بالفقه ووظفوها في مسائل الشريعة، تشهد بذلك مؤلفاتهم الغزيرة، ومن هنا نشاهد العوتبي يبسط القضايا اللغوية في إطار الفقه، والمتتبع لمؤلفاته يلحظ أنه يحيل من كتاب الإبانة إلى كتاب الضياء ومن الضياء إلى الإبانة.

إن هذا الربط كان متعارفًا عليه بين المفكرين المسلمين في القرون الإسلامية المتتابعة، فابن تيمية يقول في هذا الصدد "إن الله لما أنزل الكتاب والحكم باللسان العربي، وجعل رسوله مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسان العربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، لم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين". ويؤكد الشاطبي المعنى نفسه حين يقول "إن الشريعة عربية، وإذا كانت عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم، لأنهما سيّان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز". وفي هذا المجال يقول ابن خلدون: "علم اللسان العربي أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة. إذ مآخذ الشريعة من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب". لم تكن هذه المعاني والمفاهيم بعيدة عن العوتبي وعن مدرسته وهو يعيش في بيئة عربية- إسلامية، ولذلك قال في الضياء "من لم يكن للأدب عارفًا كان للعلوم مصحفًا وللكلام محرّفًا".

أما النموذج الثالث الذي نحاول أن نستشف منه شخصية العوتبي وميوله فهو دون شك كتاب (الضياء) وهو كتاب في الفقه، وقد عُرف العوتبي به أكثر من أي كتاب آخر ألّفه، ويقع في 24 جزءًا. وأشار العوتبي إلى الهدف من وراء تأليفه فقال: "والغرض الموضوع له هو الفقه الذي هو أصل العلوم وأولها وأفضلها وأجلها وإمامها وأكملها ومنه تستنبط كل معرفة وعنه تضبط كل صفة". وفي كتاب الضياء يتضح منهج العوتبي في التكامل بين الفقه والأدب والتاريخ والأنساب، الذي انتهجه في كتابيه آنفي الذكر، فقد عزز المسائل الفقهية باللغة والأدب والتاريخ وما فيها من شعر ونقد وأمثال وحكم وفي هذا يقول العوتبي نفسه: "ولم أخله من حكمة عجيبة أو كلمة غريبة ومثلساير وبيت نادر وسنن وأخبار ومواعظ وأشعار، وإذ كانت العلوم تتشابك اتباعًا والمعاني تتشابك اتساعًا". ولا ينسى العوتبي وهو يتكلم أن يلمح بصورة غير مباشرة من خلال الضياء بانهيار الأوضاع السياسية وأثرها على ذهاب العلم وطالبيه في بلده فيقول: "وأن الصحيح قد كان وأن الباطل ما هو الآن". ذلك لأنه يعي دوره الثقافي في مجتمعه ويريد أن يبث روحًا جديدة بين تلاميذه وأهل زمانه نحو الأفضل من خلال العلوم التي اختار الكتابة فيها عن قصد. والكتابة وسيلة سلمية ولكنها أكثر تأثيرًا على المجتمع من الثورة المسلحة.

والعوتبي يظهر في كتابه الضياء مثلما ظهر في كتابه الأنساب متزنًا موضوعيًا في معظم آرائه في الفرق والمذاهب الإسلامية، وحتى بالنسبة لمذهبه الآباضي ومدرسته الرستاقية بدا العوتبي كما أشرنا سابقًا في عدد من تخريجاته الفقهية في الضياء وإحدى رسائله ملتزمًا بمنهج شفاف مقبول إذا ما قورن ببعض مشايخ المدرسة الرستاقية. وقد أشار إلى ذلك صراحة بقوله: "وقد ذكرت شيئًا من أقاويل قومنا الموافقة لنا والمخالفة لأقاويلنا في مواقعها من الكتاب إذا العِلم بذلك خير من الجهل به". وقد طبّق هذا المنهج في سرده للآراء المتعارضة والمتناقضة مع آرائه سواء في الأنساب والتاريخ واللغة وآدابها والفقه.

وهنا يجب ألا ننسى بأن العوتبي عاش في عصر الاستقطابات المذهبية الحادة "التي ابتلى بها التفكير الإسلامي ولهذا كثر الا نتحال والتحريف والتشويه وإلزام المخالف بما لا يلزم". ومقارنة بين ما كتبه الأشعري (ت324هـ) حول كتّاب الفرق الإسلامية حين قال: "... ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ويصنفون في النحل والديانات بين مقتصد فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، وبين متعمّد للكذب فيما يذكره في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه... وليس هذا سبيل الربانيين ولا سبيل الفطناء المميزين". وكذلك قول فخر الدين الرازي (606هـ) عن عبد القادر البغدادي (429هـ). وكتابه الفرق بين الفرق: "وهذا الأستاذ شديد التعصب على المخالفين، فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه". إن المقارنة لا شك توضح تميّز العوتبي في موضوعيته على غيره في هذا المجال.

الخاتمة

يهدف هذا البحث الإشارة إلى أن "المشادة" بين الباحثين المحدثين حول سيرة العوتبي وميوله ومؤلفاته غدت "حوارًا" بيزنطيًا بسبب ندرة المعلومات عنه في مصادرنا التاريخية العُمانية وغير العُمانية. وأن أحد الوسائل المقترحة لإعادة اكتشاف العوتبي وتقويمه تقويمًا أكثر صحة مما قيل ويقال حتى وقتنا الحاضر هي بالعودة إلى قراءة متأنية عميقة لمؤلفاته المتعددة المنشورة منها والمخطوطة ومحاولة العثور على الحلقة المفقودة، فهي وحدها الكفيلة بفهمه فهمًا أكثر موضوعية وتقديم قراءة جديدة له.

لقد أشار بعض الباحثين بطريقة أو أخرى إلى هذه الوسيلة وأكدوا أن العوتبي المؤلف الموسوعي لم يدرس دراسة مستفيضة من خلال مؤلفاته، كما أن مؤلفاته هذه

لم تدرس بشكل مترابط بعضها مع البعض الآخر، في الوقت الذي يربط المؤلف نفسه بين كتبه ويحيل بعضها إلى البعض الآخر، ويشير إلى الأسباب التي دعته إلى الاهتمام بهذه العلوم بالذات دون غيرها.

ثم إن منهجية العوتبي والمصادر التي أخذ منها مادته تزودنا بفكرة جيدة عن التواصل الثقافي والفكري بين عُمان في زمنه وباقي ديار الإسلام وخاصة العراق حيث النهضة الفكرية في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وما بعده، هذا إضافة إلى أن مؤلفاته تلقى أضواءً على الحالة السياسية - الدينية في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وبجملة واحدة فإن اهتمام العوتبي بالعلوم التي اهتم بها يكشف إدراكه لمسؤوليته في الدفاع عن العروبة والإسلام في بلده عُمان تجاه الخطر الذي كان يحدق بهما.

الهوامش

(1) محاضرة ألقيت في قاعة المحاضرات بجامعة الرياض، 1968م.

(2) فاروق عمر، العناصر والكتل التي أيدت العباسيين الأوائل، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، 1968م.

(3) بحث ألقي في ندوة وحدة الدراسات العُمانية، جامعة آل البيت، الأردن، سنة 2004م.

الفصل الرابع

ردود فعل ... إيجابية وسلبية

"لقد كنت مدركًا بأنني قد كسرت القاعدة المتعارف عليها وهي عدم التعرض لنقد الحركات الدينية السياسية في العصر الإسلامي الوسيط ولمن كتب عنها من أوائل ومحدثين، وكنت مستعدًا لدفع الثمن..".

فاروق عمر فوزي

"حياة دون تحديات لا يجب أن نحياها".

سقراط

العراق يدفع ثمن تاريخه:

العراق كان دائمًا مع أمته ومع الشعب الفلسطيني، وضد المشروع الاستعماري التوسعي الإسرائيلي، كان ذلك دائمًا، لا فضل فيه في اتخاذ هذا الموقف لليساريين أو للقوميين، ولم تكن هذه مواقف القوميين أو الرجعيين، ولم تكن مقتصرة على العهد الجمهوري أو في العهد الملكي، بل كانت سياسات الشعب العراقي والجيش العراقي والنظام العراقي، سواء في عام 1948م أو قبلها، أو في عام 1967م أو بعدها، وهكذا وقف عام 1973م وفي دعم وإسناد المبادرة المصرية السورية في حرب أكتوبر تشرين أول 1973م، وهكذا كانت مواقفه في دعم وإسناد الأردن وسورية والسودان وموريتانيا وكل المحتاجين العرب بلا منة ولا تحميل جميل.

تلك كانت صفة أصيلة للشعب العراقي، أكراده مع عربه كانوا مع الشعب الفلسطيني، مسلميه ومسيحييه، سنته مع شيعته، وهكذا كان يغيظ أعداء العرب وأعداء الشعب الفلسطيني وأعداء التقدم والسلام، أعداء الوحدة والقومية والانتصار، وهذا ما يفسر حجم الحقد الأسود على العراق وعلى العراقيين، وحجم الحقد على التماسك العراقي وعلى مكونات الشعب العراقي من عرب وكرد وسنة وشيعة ومسلمين ومسيحيين.

تضحيات الجيش العراقي مزروعة شواهده في جنين 1948م والمفرق 1967م والجولان 1973م، مما يدل على أن العراق الملكي والجمهوري، كان دائمًا في خندق العداء لإسرائيل، وفي خندق الانحياز لفلسطين الشعب والثورة والقضية، مثلما كان في خندق الدعم للأردن ولسورية من أجل صمودهما في وجه التوسعية الاستعمارية الإسرائيلية بلا تردد.

العراق اليوم يدفع ثمن سياسته بالأمس، يريدون تفكيكه، تدميره، وجعله عرضة للانقسام والتخريب حتى لا يبقى جيشًا ونظامًا ووطنًا لكل العراقيين، ولكل مكوناتهم، للمسقوف كما هو لشعر السياب، وللجواهري كما هو لدجلة والفرات، وللتمن كما هو للتمر والقيمر، إنها المزاج، الممزوج بالفرح والسياسة والقسوة.

حمادة فراعنة/ عمّان/ المملكة الأردنية الهاشمية

الفصل الرابع

ردود فعل إيجابية وسلبية

المعروف عن الدكتور فاروق أنه أستاذ جامعي ومؤلف في حقل الدراسات التاريخية، والمتعارف عليه أيضًا بأن المركز المالي لأستاذ الجامعة لا يتناسب مع النظرة التي يتطلع بها الناس إليه، ومع ذلك فهناك أمور تعوّض الأستاذ عن المال لعل أهمها: أن درجة "الأستاذية" وهي آخر مراحل السلم الجامعي تحاط في الجامعة وخارجها بهالة من الاحترام لا يمكن المساس بها إلا في حالات نادرة تتصل بعدم الكفاءة المهنية أو توقف البحث العلمي الرصين أو ما يمس الاعتبارات الخلقية القويمة. كما وأن لمهنة التدريس الجامعي مزايا اجتماعية وعقلية فهي طريق خصب خلاّق، حافل بما يشبع العقل والروح، وتتيح المهنة في الوقت نفسه للعاملين "المتميزين" فيها فرصًا لا بأس بها لتنمية طاقاتهم مما يعود عليهم بفوائد جيدة.

وفيما عدا نظرة التقدير المرتبطة بالتفوق التي ينظر من خلالها المجتمع إلى الأستاذ الجامعي أو الكاتب المتميز الذي يكرّس جهوده للمسائل الفكرية والثقافية، فإنّ أحسن تقدير أو وسام يتلقاه الباحث هو كلمة استحسان أو عبارة تقدير لما كتبه من كتب أو نشره من بحوث، ويقول الدكتور فاروق أنه كان ولا يزال يشعر بسعادة تغمره حين يتلقى مكالمة تلفونية أو رسالة من شخص يبدي تقديره بما كتبه. وأنّ ما تلقاه في هذا المجال كثير، وخاصة في عقد السبعينات والثمانينات والتسعينات حين كانت بحوثه تنشر في مجلات مرموقة هنا وهناك.

ومن الطبيعي ألا تكون ردود الفعل كلها إيجابية بل أن بعضها كان سلبيًا إلى حد محاولة الإيقاع بالدكتور فاروق ونشر الإشاعات حوله. ويبدو أنّ هدف مثل هذه الدعاية تجاه الباحث كان محاولة لإيقافه عن الكتابة والنشر وخاصة في المجالات الحساسة التي يختار الكتابة عنها، وذلك من خلال تحطيمه نفسيًا وتشويه سمعته في الميدان الجامعي الحساس. إلا أن هذه الجهود فشلت لسبب واحد هو صلابة الدكتور فاروق، وإيمانه بالأفكار التي ينادي بها، كل ذلك جعله يقبل التحدي ببرودة أعصاب عجيبة ليست من طبيعته أو مزاجه أدهشت أصدقائه قبل أعدائه!!

وقد أشاد مجموعة من المفكرين والمثقفين العرب ببحوثه وكتبه نذكر منهم على سبيل المثال: الأستاذ الدكتور محمد زنيبر من المغرب والدكتور هشام جعيط من تونس والدكتور عبد العزيز فودة من مصر والدكتور وليد عرفات من فلسطين والأستاذ جهاد فاضل من لبنان والدكتور نبيه عاقل من سوريا والدكتورة حياة الحجي من الكويت والدكتور حسن النابودة من الإمارات العربية المتحدة، أشرنا إلى آراء بعضهم في مباحث سابقة أو لاحقة.

ويعتّز مؤرخنا بآراء مجموعة من المستشرقين من أوروبا ومن الولايات المتحدة وكندا الذين راسلوه مبدين وجهات نظر موضوعية في بحوثه وكتبه منهم المستشرق الفرنسي شارل يلات والمستشرقيين الإنكليز: لويس ووات وبزورث ووين، والمستشرقين الأمريكيين مايكل موروني، لاسنر، وجون وليامز وغيرهم. وقد حدثه زميله الدكتور فلاح شاكر أسود الأستاذ بقسم الجغرافية والذي كان معارًا للتدريس بالمغرب أن أحد المستشرقين الأوربيين لم يذكر اسمه تحدث مطولاً في محاضرته عن الآراء الجديدة التي طرحها د. فاروق في إعادة تقويم التاريخ الإسلامي، واصفًا إياها بالأصالة في التفسير والموضوعية العلمية في المنهج.

ولعل أكثر ما يعتز ويفتخر به د. فاروق ما يسمعه شفاهًا أو يقرؤه في الرسائل التي تصله من الذين يعرفهم أو لا يعرفهم، وقد كانت بحوثه وكتبه خير وسيلة له للتعرف على شخصيات عديدة من جيل أكبر من جيله. ومما كان يعجبه في أن العديدين ممن تعرفوا عليه بعد قراءتهم لبحوثه كانوا يعتقدون أنه في عمر أكبر من عمره فقد رسموا له صورة رجل في الستينات من عمره بينما كان هو لا يزال في أوائل الأربعينات. ومن حسن الحظ أنَّ د. فاروق لا يزال يحتفظ ببعض هذه الرسائل نقتطف منها ما يلائم المقام، حيث لكل مقام مقال.

فقد كتب له د. **نوري حمودي القيسي** عميد كلية الآداب، وأستاذ الأدب العربي بجامعة بغداد في ختام مذكرة شكر وتقدير: [1] "أدعو الله أن يوفقكم ويبقيكم ذخرًا للعِلم وموئلاً للفكر وصوتًا من أصوات الحقيقة مع فائق تقديري واعتزازي".

وكتب د. **عيسى سلمان**، أستاذ الآثار الإسلامية بجامعة بغداد، مذكرة تتضمن ما يلي: [2] "نشهد بأنّ د. فاروق عمر فوزي من الأساتذة المتميزين في ميدان اختصاصه وأنه من الخمسة الأوائل في مجال التاريخ الإسلامي بالجامعة..".

وكتب د. **يوسف عز الدين**، عضو المجمع العلمي العراقي في رسالة له: (3) "أخي الحبيب العالم الثبت فاروق عمر.. سعدتُ اليوم بوصول كتابك الممتاز تاريخ الخليج العربي، والحق أنه جهد كبير من جهودك الرائعة التي ملأت بها المكتبة التاريخية...".

وفي رسالة من الدكتور **عماد الدين خليل**، أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة الموصل، يقول فيها عن الدكتور فاروق: "..كان عطاؤه الخصب الأصيل علامة مميزة في حقول الفكر التاريخي المعاصر...".

ويقول الأستاذ نفسه عن بعض كتب الدكتور فاروق: "إن مؤلفاتكم القيّمة التي احتلت في مكتبتي الشخصية ركنًا عزيزًا والتي طالما رجعت إليها تأليفًا وتدريسًا فوجدت فيها خير معين ونعم دليل ولا زلت أذكر أنني اعتمدتُ في تدريس مادة التاريخ العباسي على كتابكم القيّم عن الموضوع، كما اعتمدتّ هذه السنة في تدريس تاريخ فلسطين على كتابكم المشترك مع الأخ الدكتور محسن محمد حسين... فوجدتُ في الكتاب إخلاصًا للحقيقة التاريخية واستقصاء للمادة ما يجعله أهلاً للاعتماد". (4)

وكتبت **جريدة الإعلام بكلية الآداب** بمناسبة تكريم د. فاروق من قبل (مجلس الجامعة) بعد حصوله على مرتبة الأستاذية تقول: (5) "... وتتميز بحوث الدكتور فاروق بتأكيدها على ضرورة ربط دراسة التاريخ بخصوصيتنا القومية حيث يرى بأنّ المبدأ الأساسي في المرحلة الحاضرة هو ربط المناهج الجديدة بخصوصيتنا كأمة عربية لها سماتها وخصائصها ورفض المنهج التقليدي أو المنهج الاستشراقي الذي يرتبط بنظرة مسبقة تؤكد إما على الصراع العنصري أو صراع الطبقات.

وعندما سألنا الدكتور فاروق عن نظرته البديلة في كتابة التاريخ قال: نحن نحاول أن نتبنى في كتاباتنا التاريخية تفسيرًا أشمل وأفضل ينبع من ضمير الأمة ويخدم مصلحتها. ولابد مع مرور الزمن ومحاولاتنا العديدة من أن نتوصل إلى رؤية جديدة توضح لنا السبيل الذي نسلكه وتبلور فكرتنا عن التاريخ".

وفي رسالة من **الأستاذ عبد الرزاق الجزّار** يقول فيها: (6) "ولا أكتمكم إعجابي الشديد بها (كتب الدكتور فاروق) لما فيها من أخبار وأسانيد واعتمادكم في تأليفها على مراجع ومصادر لا يرقى إليها الشك ممزوجًا بالانبهار الذي انتابني لسعة أفقكم ومحاكماتكم الفكرية للمسائل والقضايا التي أوردتموها.

كان المتعارف عليه بين صفوة من المثقفين في العراق والأقطار العربية الأخرى في النصف الأول من هذا القرن أن العراق يفتقد العديد من المؤرخين المنصفين الذين يملكون ناصية التحليل والاستنتاج... غير أننا لسنا في الربع الأخير من هذا القرن أن المؤرخين الذين يتصفون بالحياد والنزاهة وصدق التحليل في العراق قد كثروا، ويأتي في مقدمتهم الدكتور فاروق عمر فوزي الذي وفّقه الله تعالى إلى إخراج عشرات الكتب التاريخية المهمة بلغة عربية سليمة...".

وكتب له الأستاذ المحامي العراقي حازم المفتي رسالة مطولة نقتطف منها ما يلي:

أخي الدكتور فاروق عمر فوزي المحترم. حفظك الله ورعاك.

أحييك تحية عربية صادقة، وأزجي إليك ودًا خالصًا. منبعثًا من قلب آمن بالعروبة عقيدة وانتماء. وحركة ونضالا، وبعد لا أدري من أي نقطة ابدأ بها بمفاتحتك والثناء على جهودك... قرأت أكثر كتبك وتابعت مقالاتك في المجالات والجرائد، وأعجبت كثيرًا بغزارة إنتاجك وجودته. وبلاغة أسلوبك ومتانة وأصالة ثقافتك، ونفاذ بصرك وبصيرتك، وكنت بنظري أوعى من جمع بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية، وأكثر اطلاعًا على ما دونه المستشرقون والمؤرخون العرب القدامى والمحدثون في آراء ونظرات واتجاهات ونزعات.

لقد وضعت يدك على بواطن التاريخ العربي وظواهره، وعرفت أسراره وبواعث تدوينه، وكشفت عن مختلف جوانب التراث وكنوزه.

إن منهجك العلمي وطريقتك الموضوعية في البحث والاستقرار والاستنباط والحوار والتدوين مثالاً يحتذى به، وأسلوب يوافق روح العصر ومفاهيمه ويرضي أذواق النقاد والقراء وعقولهم... وأما روحك العربية الصافية وحسك المرهف وحيادك التام ونشاطك الجم فقد أعطى للتاريخ العربي الإسلامي ما يستحق من بهاء ورواء وأصالة وإشراق، فأنت بنظري مؤرخ نابه، حاذق، صبور، دؤوب، ولا أعدو الحقيقة إن قلت لك إنك خدمت الأمة العربية حيث أخفق الكثيرون في مجالات خدمتها، وأرغمت أعداء العرب على تمجيد الأمة العربية من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

كنت موفقًا كل التوفيق عندما كتبت عن الثورة العباسية، وأسبابها الحقيقية، وهي رسالة دكتوراه كما أعلم، وقد حالفك السداد عندما أنصفت هذه الدعوة

ورسمت أبعادها التاريخية. وكشفت عن طبيعة أمورها وصفات وملامح زعمائها وكبار نقبائها. ورفضت تلك النظرية التي زعمت بأن الدعوة فارسية المولد والشعور والهدف، وأثبت بأن العرب هم الذين نظموها وأرسوا قواعدها، وتحملوا أعبائها وقادوها من نصر إلى نصر حتى استقرت في حكم "بني العباس" وهم أسرة عربية هاشمية، لا غبار على عروبتها ونسبها، ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ صدق الله العظيم.

وفي هذه المناسبة فإني أهنئك على لفتة بارعة من لفتاتك، فإنك كشفت عن خطأ موروث شائع تناقله المؤرخون بلا مناقشة ولا تمحيص، أن إبراهيم الإمام أوصى نقيب دعوته أبا مسلم الخراساني أن يقتل كل من يشك في إخلاصه للدعوة، وقال له في وصيته أيضًا "إن شئت ألا تدع على ظهرها عربيًا فافعل"... هذه الخرافة التي لا يصدقها عقل ساذج كيف جاز للمؤرخين الفطاحل أن يعتبروها حقيقة ثابتة لا أدري!!، ولكن الهوى يعمي ويفسد العقول والضمائر... هل يصدق العقل أن زعيمًا هاشميًا عربيًا يقود ثورة عظيمة أكثر قادتها من العرب أن يأمر "نقيبه" بقتل العرب وهم ركائز الدعوة وأعلامها الخفاقة، وسيوفها اللامعة؟؟ إن الفكر الثاقب ينفي هذه السذاجة التاريخية نفيًا قاطعًا، وقد أصبت كل الإصابة في تعليلك واستنتاجك برأت ذمة الرجل الكبير في هذه التهمة الباطلة وأعدت إليه اعتباره الوضاء، بين قومه وعشيرته".

وفي صدد مقالاتك المنشورة في مجلة "آفاق عربية" عن الشعوبية وتاريخها ومصادر فكرها، وتحليل فلسفتها وأهدافها، فقد رفعت القناع عن وجهها الكالح، وصورت مدى خطرها على "كيان الأمة العربية. وتراثها ولغتها وأمجادها الشامخة وحضارتها الزاهرة وعقيدتها السمحاء".. أعمق تصوير وأصدقه وكنت فارس المعركة لا يشق لك غبار، ولا تسقط في يدك راية. فقد تناولت بالنقد والتجريح وقوة الحجة والإقناع وسلامة المنطق، ذلك "النهج" المسموم الذي وضع قواعده أعداء الأمة العربية بذكاء ومهارة وجرأة، عندما شرعوا في "هدم سلطتها، وتمزيق أشلائها، وإنكار حضارتها وعدالة دستورها" ومن ثم تشويه محاسنها تشويهًا كاملاً في كل الأمور والنواحي والأطراف والشؤون".

وكتب الدكتور حسين القهواتي تقديمًا لكتاب (دراسات في تاريخ عُمان) لفاروق عمر فوزي: "يسرنا أن نقدم للقرّاء الكرام هذه المجموعة من الدراسات المتميزة

المتخصصة في تاريخ عُمان ومؤرخيها، خلال العصور الإسلامية المختلفة، والتي أنجزها الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، أستاذ التاريخ الإسلامي، في جامعة آل البيت، عبر جانب من مسيرته العلمية الثرّة، وهي نخبة، من حصيلة نتاجه الغزير، المنشور في أمهات المجلات العربية والأجنبية المرموقة، خلال الأعوام 1975 - 1999م.

والأستاذ الدكتور فوزي، غني عن التعريف فهو عَلَم شامخ في موضوع تخصصه ومعروف بموضوعيته ودقته، وقدير في منهجه وأسلوبه عرضه ورائد في اختيار موضوعاته وجريء في مناقشاته واستنتاجاته، ولا أريد أن أسترسل في بيان فيض خصاله، لأن القارئ المهتم سوف يكتشف هذه الصفات وغيرها من خلال تمتعه بقراءة دراسات هذا الكتاب، التي استعان المؤلف لإنجازها بالعديد من المخطوطات الفريدة فضلاً عن خيرة المصادر الأصيلة والمراجع الحديثة.

فالكتاب على هذا النحو يُعد إضافة هامة وجادة للدراسات التاريخية عامة والدراسات العُمانية خاصة، كما أنه باكورة إصدارات، وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت، تلك الوحدة التي تبنى تأسيسها وما يزال يعمل جاهدًا من أجل إنجاح مهمتها ويرعى بفائق عنايته إصداراتها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت.

آمل أن يستمتع ويستفيد من هذا الكتاب المهم المؤرخون والمثقفون على حد سواء.

والله من وراء القصد"

المفرق- المملكة الأردنية الهاشمية- 2000م

وكتب الدكتور **محمد حمادي المشهداني** من بغداد سنة 2000م:

أستاذي العزيز الدكتور فاروق عمر فوزي المحترم

تحية اعتزاز ووفاء:

"أستاذي العزيز الغالي، لم أصدق عندما قرأت رسالتكم المرسلة لي، واستذكرت مع خطكم المعهود ذكريات دراسة البكالوريوس عندما كنت طالبًا ترعاني، وتهدي لي كتبك جميعها وعلى بعضها عبارة (الأخ محمد جاسم المشهداني مع تقديري واعتزازي بمناسبة نيله أعلى درجة في الحضارة) ذكريات من الفضل الكبير منكم

علينا، ذكريات لينابيع العِلم العروبي الصادق، الذي أثر على منهجي وكتاباتي في الردّ على الشعوبية والطائفية، فكيف يمكن أن أجازيك يا أعز أستاذ عرفته في حياتي، وكيف يمكن أن أوفيك حقك، ولكن لا أملك في هذه الدنيا إلا الدعاء الصادق بأن يوفقكم الله ويحميك ويعافيك مع العائلة العزيزة وخاصة الست ليلى التي كانت تلقانا بوجه البراءة والتسامح والخير عندما كنت أزورك في دارك حي الأطباء، كلكم أطياب وكلكم أهل للخير والوفاء فدعائي من الله تعالى أن يجمعنا وقد فرج الله عنا ما نحن فيه، لأننا لا نزال وسنظل بحاجة إلى علمك، وعقلك القومي النير".

وكتب له **الدكتور جاسم الوهابي** أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة قطر في حينه: "أفخر وأعتز أن أقول أني وجميع من عرفك وقرأ أبحاثك يكن لك كل الاحترام والتقدير".[7]

وعلّق **الدكتور رضوان السيد** في تقرير له سنة 1998م عن كتاب (الاستشراق والتاريخ الإسلامي) للدكتور فاروق أنه لم يقرأ منذ عشرين سنة كتابًا عن الاستشراق بهذا المستوى القيّم.[8]

وكتب له الدكتور **عثمان سيد أحمد إسماعيل** أستاذ التاريخ الإسلامي في السودان ثم في قطر: "ولا شك في استفادة طلابك وزملائك من علمك الغزير وخلقك الطيّب".[9]

وأشار الباحث **سعيد أرجموند** بأن: "دراسة فاروق عمر المتمعنة (عن الدعوة العباسية) أظهرت بأن القوة الدافعة نحو دمج العناصر المؤيدة للدعوة العباسية كانت ضمن استراتيجية الدعاة منذ البداية، فقد استغلت الدعوة التحالف بين اليمانية والربعية ضد القيسية المؤيدين لمروان الثاني، كما كانوا مستعدين لقبول المتذمرين من مضر وحتى سقاط العرب (ذوي النزلة الاجتماعية المتدنية).

والمعروف أن فرضية "التمييز العنصري" بين العرب والموالي ظلت مسيطرة على كتابات المستشرقين ومن تأثر بهم من المؤرخين العرب الذين مالوا إلى الفكرة القائلة بأن سياسة الأمويين تجاه الموالي المتسمة بالشدة كانت السبب في سقوط دولتهم. وقد أشار أحد الباحثين من المستشرقين الجدد بأن الفضل في تكوين فرضية جديدة حول الدعوة العباسية يعود إلى أبحاث قام بها بعض المؤرخين العرب في

الستينيات من القرن العشرين، ويستطرد المستشرق نفسه قائلاً: "وفي رأي الدكتور فاروق عمر - كما أعرب عنه في كتبه ومقالاته - أنه يجب ألا نركز عند تحليل ظروف الثورة العباسية وأسبابها على ناحية معينة فقط ونترك النواحي الأخرى بل يجب التعرّض لثورة العباسيين على الدولة الأموية من جميع جوانبها: الاقتصادية والسياسية والدينية وما إلى ذلك، وقد نجح الدكتور عمر في محاولته تطبيق ذلك المنهج في دراساته عن الثورة العباسية". [10]

وينتهي مستشرق آخر إلى القول: "وأيًا كانت النتيجة فإن أبحاث الدكتور فاروق عمر وبعض زملائه المؤرخين ممن درسوا الدعوة العباسية في السنوات الأخيرة قد ساعدت على رفع مستوى المناقشة العلمية في هذا الموضوع ارتفاعًا ملموسًا. وأعتقد أن هذا التقدم العلمي من أعظم المكاسب في مجال كتابة التاريخ للعرب في هذا القرن وربما عد نجاحًا في الجدال المستمر ضد خطر التيارات العقائدية - الحزمية - والجمود في كتابة التاريخ، وذلك يعتبر أيضًا نجاحًا لمقاومة التقليد الأعمى لآراء السابقين من المستشرقين والمؤرخين العرب حيث يعتمد العِلم الصحيح في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة". [11]

وفي معرض تقويمه للفكر التاريخي العربي المعاصر يقول هشام جعيط المفكر التونسي وأستاذ التاريخ الإسلامي في الجامعة التونسية بتونس العاصمة: ".. إننا نجد مؤرخين جيدين لكن عددهم قليل وتأثيرهم على جمهور المثقفين أقل، ونذكر من بين رؤوس هذا الجيل الجديد عبد العزيز الدوري وصالح أحمد العلي ثم تلاهما فاروق عمر. إن كتابات هؤلاء المؤرخين هي تقريبًا الوحيدة في ظل الإنتاج العربي في ميدان العلوم الإنسانية المعترف بها عالميًا كبحوث جدية مسيطر على مادتها، فإذا أمكن التشكيك في أن فلانًا ليس اقتصاديًا حقيقيًا والآخر ليس فيلسوفًا حقيقيًا وغيره ليس بعالم اجتماعي أصيل فلا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أجلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب. ومع هذا فهم قلة ويجدون صعوبات في تكوين مدرسة تاريخية...". [12]

وفي رسالة من الدكتور **فريد دونر** من معهد الدراسات الشرقية بجامعة شيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية إلى رئيس جامعة آل البيت الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت يقول:

"I Would Like to bring to your attention the availability of a very fine historian who is in need of permanent university position. He is

Professor Farouk Omar Fawzi, a world - renowned expert in Islamic history, particularly in the history of the Abbasid caliphate. I am sure that you must know of him. He is currently teaching in Libya, but his position there appears not to be permanent. He can be reached directly by writing him at the Department of History, College of Arts, Misurata, Libya.

I do not know whether you are in a position to make faculty appointments yet, or whether you have any faculty openings in history, but I would think that Prof. Farouk Omar Fawzi would be a real "prize" to add to your new faculty, someone who would instantly bring wide recognition and high standards to your faculty. He might even be able to help you to recruit high-quality younger scholars to fill out the history programs .. certainly he is someone who knows what a first-rate historian is".(13)

وكتبت عنه مجلة **Middle East** التي تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية في اكتوبر 1995م ما نصه:

" Professor Omar has been a lifelong student of Abbasid history, and has attained world wide recognition for many fine publications in all aspects of this field, in both Arabic and Englih".(14)

وكتب له أ. د. **محمد ضيف الله بطاينة**: (15) ".. وقد وقع الطلاب في معرض للكتب في إربد على كتاب من كتبكم القيمة وعنوانه: "التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين" ويحوي على موضوعات طيبه ونافعة، ويلتقي كثيرًا مع الموضوعات التي طرحتموها للمشاركة في برامج قسم التاريخ ونشاطاته العلمية، ولقد تركت مبادرة المشاركة آثار طيّبة في نفوس أخوانكم من أعضاء القسم فجزاكم الله كل خير وستكون هذه المبادرة الأخوية موضع الاهتمام والتقدير.

وآمل أن تقبلوا عملاً بسيطًا يمثل محاولة لفهم وصول بني أمية إلى منصب الخلافة، ويكون ذكرى في سجل العلاقات بيننا، ولا شك أن حضوركم إلى جامعة اليرموك أثار الاهتمام بالقضايا التي أثرتموها، ويلمس القارئ لكتاباتكم توجهًا

واضحًا في إيجاد نهج استقلالي للمدرسة العربية في تفسير التاريخ، وهو بالرغم من التحديات الكبيرة بأنواعها المختلفة، مطلب إنساني نبيل يحتاج إلى العديد من اللقاءات".

وكتب الخبير المختص الذي قيّم كتاب الدكتور فاروق والموسوم (العباسيون الأوائل) الجزء الأول ما نصه:

السيد عميد الدراسات العليا والبحث العلمي المحترم

تنفيذًا لما جاء في كتابكم المرقم 1318 والمؤرخ في 1970/9/28م

قمتُ بمطالعة الكتاب الموسوم.. العباسيون الأوائل... وفيما يلي خلاصة ملاحظاتي حوله.

"الحق أن الدراسة قيمة وفيها شيء كثير من الجدة في التفكير وطريقة العرض. وقد حاول المؤلف ووفق إلى حد كبير في أن يخرج من أسار التفكير التقليدي حول طبيعة الدعوة العباسية والعوامل المؤثرة فيها. وهو وإن غالى في هذا الاتجاه، إلا أن وجهات نظره يمكن أن تكون موضوع نقاش جدي بين المؤرخين.

وقد أحسن المؤلف باستعراض آراء المؤرخين المحدثين من عرب وأجانب بصدد طبيعة الدعوة العباسية وواجهاتها السياسية والاجتماعية والدينية... وأجهد المؤلف نفسه في إثبات وإظهار دور العرب المقيمين في خراسان في إشعال الثورة العباسية ضد الأمويين ودحض الآراء التي تؤكد أن الثورة قامت على أكتاف الفرس...".

لقد ألقى المؤلف ضوءًا ساطعًا في الفصل الثالث (القسم الثاني) على حركات المعارضة العلوية وبخاصة ثورة محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم. والحق أن تحليل المجتمع في البصرة حيث ثار إبراهيم وإعطاء العامل الاجتماعي - الاقتصادي دورًا بارزًا في الثورة مسألة طريفة ومهمة... كما وأن بحث هذا الموضوع كان جيدًا من ناحية العرض التفصيلي والجاد لأبعاد هذه الحركات.

ولابد أن أقيم النظرة الجديدة التي نظر بها المؤلف إلى حركات المعارضة الإيرانية (القسم الرابع من الفصل الثالث)، خاصة وقد رد على المؤرخين الذين تصدوا لبحث هذا الموضوع، وهو مجهود طيّب، ولابد أن أقدر له بصورة أخص مناقشته العلمية الموضوعية لنظرية جوبنيو العنصرية غير العلمية ليصل إلى

النتيجة الحاسمة التي أرادها وهي أن "الثورة العباسية قامت على أساس تحالف متين بين كل العناصر الساخطة على الحكم الأموي من عربية وإيرانية".

ختامًا: "فالمؤلف قيّم ويستحق التعضيد ولا شك أنه سيضيف شيئًا جديدًا للمكتبة التاريخية العربية".

وفيما عدا هذا وذاك، كان يصل الدكتور فاروق عمر رسائل عديدة من الطلبة العرب وخاصة من دول المغرب العربي والخليج العربي حيث وجدت كتبه سوقًا لها من خلال دور النشر اللبنانية التي أعادت نشر بعض كتبه مثل (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين)، و(طبيعة الدعوة العباسية)، و(الخليج العربي)، ويتمنى بعض الطلبة المراسلين الدراسة بقسم التاريخ في كلية الآداب ببغداد لأنهم يعتقدون أنَّ دراسة التاريخ وتدريسه في جامعة بغداد قد قطعا شوطًا بعيدًا.

فقد كتب له الطالب **الجزائري عسوس محمد** من جامعة الجزائر العاصمة: "ليس بوسعي إلا أن أشكرك الشكر الجزيل على رسالتك التي زادت من إكباري لك، لمحبتك لكل من يريد طلب العِلم في هذه الحياة. إن رسالتك دليل قاطع على احترامك الشديد وحبك القوي لكل إنسان أراد وطمع لتقديم خدمة إنسانية لكل البشرية على السواء.

وأني وبدون مبالغة أتمنى أن أكتب بتلك الطريقة التحليلية المقنعة في ميدان الدراسات التاريخية، وكما وعدتني بأن ترسل لي بعض كتبك فيسرني أن أقول لك سيدي الأستاذ أنني في انتظارها، إذا لم يكن هناك إزعاج لك".[16]

وكتب له الطالب العراقي من كلية الشريعة بجامعة بغداد في مقدمة بحثه: "إلى الفكر النيّر الذي قدح أفكارنا... إلى الشمائل الحميدة التي ضوعت بالطيب نفوسنا إلى أستاذي الدكتور فاروق عمر فوزي وفاء بجميل واعترافًا بعرفان".

وما دمنا بصدد الكلام عن الطلبة وعلاقتهم بأساتذتهم في الجامعة فقد أجرت مجلة (ألف باء) العراقية استبيانًا بعنوان: هل يقرأ طلبة الجامعة كتب أساتذتهم؟ فكانت كتب الدكتور فاروق الأولى ضمن الكتب الأكثر قراءة من قبل طلبة قسم التاريخ بصفة خاصة، وضمن الكتب الخمسة الأوائل المقروءة من قبل طلبة الاختصاصات الأخرى غير التاريخ.[17]

ولعل آخر ما سمعه د. فاروق من ردود فعل الطلبة العمانيين كان سنة 2009م حيث قال له أحدهم: لقد درستني مقررًا واحدًا في السنة الماضية وأتمنى لو درست معك سبعة مقررات". وأشارت طالبة في قسم التاريخ إليه قائلة: "إنني في كل فصل أبحث في الجدول الدراسي ولا أجد اسمك. أتمنى لو أدرس معك مقررًا في التاريخ"، فأجابها يؤسفني أن كل المقررات التي أقوم بتدريسها هي في الدراسات العليا، وآمل أن أدرّس مقررًا واحدًا في الدراسات الجامعية الأولى (البكالوريوس).

ولكن ليست هذه كل الصورة أن ما ذكرناه هو الوجه المشرق الذي يبعث في النفس مظاهر البهجة حين يذكر. أما الوجه الآخر ففيه صورة معاناة التي مر بها وهو يقف في وجه العديد من محاولات السخط التعويق لما نشره من كتب أو أبحاث. وقد اتخذت بعض هذه المحاولات شكلاً عدائيًا كان هدفه محاولة تشويه سجله الأكاديمي. ولعلنا نشير هنا إلى نموذج من هذه المحاولات: حين فشل بعضهم في الرد على مقالات الدكتور فاروق أو إيقاف نشاطه العلمي اختاروا أن يلعبوا لعبتهم خارج العراق وتهيأت لهم الظروف المواتية مع المسؤول عن الصفحة الثقافية في جريدة (القبس) الكويتية[18] فشنوا سنة 1984م حملتهم للتشهير بأمانته العلمية، وهو الذي ما ترك فرصة تمر إلا وكشف فيها زيفهم وحقدهم.

ومرت اللعبة المحبوكة على البعض ولكنها والحمد لله لم تمر على البعض الآخر وهذا البعض الآخر هو الذي دعم موقف الدكتور فاروق في الجامعة وخارجها. أما الدكتور فاروق فكان هادئًا بعد استيعابه الصدمة الأولى، إلا أنه سرعان ما قبل التحدي، ويبدو أنه ومن خلال تجاربه السابقة كان يدرك أن هناك من يتابع أبحاثه ويتحين الفرص للإيقاع به ولهذا فقد أخذ الحيطة وكان فيما كتبه من رد إلى جريدة القبس يستند على قاعدة صلبة يمكن أن تحصر بالنقاط التالية:

إنّ ما زعمه المخبر من أن د. فاروق نسب رسالة طالبه إليه ونشرها في كتاب على أنها من تأليفه كذب وافتراء مفضوح، لأن الرسالة تتعلق بفترة قصيرة من تاريخ عُمان وحركة واحدة هي الإباضية بينما يغطي كتاب الدكتور فاروق ستة قرون ونصف من تاريخ الخليج العربي ويشمل العراق والبحرين والأحواز وعمان. ثم إن الدكتور فاروق أشار بصورة واضحة في مقدمة الكتاب أنه اعتمد على الأطروحة نصًا فيما يتعلق بالأباضية في عُمان وتطورها خلال المدة القصيرة التي تناولتها، بالإضافة إلى ذلك أشار الدكتور فاروق في هوامش الكتاب وحيثما اعتمد على

الأطروحة خمسًا وستين مرة إليها. وأن تعليمات جامعة بغداد تجيز للأستاذ المشرف على الأطروحة أن يعتمدها للترقية والتعضيد باعتبارها جزءًا من مجهوده العلمي، ولم يكن الدكتور فاروق طالب ترقية علمية لكي يضع هذه الأطروحة ضمن كتبه، فقد حصل على الأستاذية منذ سنة 1978م، وأخيرًا فإن الكتاب منهجي وتجيز أصول تأليف أمثال هذه الكتب المنهجية الاقتباس دون التقيد المتشدد بالإشارة إلى المصدر بل الاكتفاء بذكر المصدر مع قائمة المصادر في آخر الكتاب، هذا مع العِلم أن الدكتور فاروق – وكما أشرنا – ذكر الأطروحة في المقدمة والهوامش عشرات المرات وكذلك في قائمة المراجع الحديثة.

لقد خرج د. فاروق من هذه الأزمة كما خرج من أخريات قبلها وبعدها راسخ الإيمان بأن الله تعالى ناصر الحق وخاذل الفاسقين؛ حيث يقول الله تعالى: "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون".

وقد بقيت آثار هذه الذكرى في نفس د. فاروق ولهذا نراه يهدي كتابه الجديد عن (الوزارة العباسية) بكلمات تحمل معنىً عميقًا في نفسه: "إلى خليفة بن خياط البصري ومحمد بن جرير الطبري اللذّين عانيا الكثير من العنت بسبب علمهما وفضلهما وآثارا من التأييد والمعارضة ما هو جدير بالمؤرخين الأفذاذ".

وقد وصلت الرسائل والمكالمات من الذين علموا بالافتراءات، ولعلي أذكر هنا نموذجًا واحدًا للطبيب الدكتور، وجيه على نجا رحمه الله يقول فيه: "أنا لا ألوم محرر هذه الصفحة بل أشكو إلى رئيس التحرير الذي عرف بفضله... كيف تشاركون شعوبيًا أخفى اسمه جبنًا في تشويه سمعة صاحب عشرات المقالات التي قاوم بها الشعوبية، ومجلة (آفاق عربية) شاهدة على ما بذل فيها..؟ كيف تشاركون في تشويه سمعة مؤلف أكثر من عشرين كتابًا في التاريخ وقد قذف قلبه نارًا عربية أحرقت الشعوبية ومن يلوذ بها؟

ومن المهازل أن يعيب هذا الأحمق الجاهل هذا العالم الرجل الذي لا يكتب شيئًا إلا ويذكر مصدره في الكتاب والصفحة.

يمينًا لو عرف أنصار العروبة اسم هذا المجرم الجبان لنالوا منه بالنعال ما يسكته فلا ينطق بباطله حتى يوارى في قبره، وأنا أذكّر الأستاذ الفاضل الدكتور

فاروق عمر بما رمى أحد الحاقدين قمة الأدب العربي طه حسين بأنّ كل ما كتبه سرقة في سرقة".

وفيما يلي نص الرسالة التي أرسلها الدكتور فاروق إلى رئيس تحرير جريدة القبس بتاريخ 1984/2/2م، ونشرت في الصفحة نفسها ردًا على افتراءات محرر الصفحة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومًا بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (سورة الحجرات، الآية 6).

السيد رئيس تحرير جريدة القبس:

السلام عليكم وبعد ... لقد جاءكم فاسق بنبأ وبدل أن تتبيّنوا ماهيّة هذا النبأ ومدى صحته فتحتم له أبواب جريدتكم وتبنى أحد محرريكم أقواله ونشرها باسم الجريدة في صفحة "الثقافة والفنون" الصفحة الثامنة - يوم الأحد 1984/1/22م في العدد 4199.

ولابد لي أن أبدأ كلامي بالتساؤل عن هذه الألفاظ الجارحة والعناوين المثيرة. أنحن في باحة سجن أم نحن على منبر صحيفة محترمة تصدر في بلد عزيز على كل عربي ومسلم؟!! وأين رقابتكم يا رئيس التحرير على ما يصدر على صفحات جريدتكم؟ أهو تأثر بالصحف الرخيصة التي تتاجر "بالفضائح" كي تروج بضاعتها؟ وأين هي "الفنون والثقافة" - وهذا هو عنوان الصفحة - من كلمات حاقدة تنفث سمًا ولا تعبر عن شيء أكثر من حقد كاتبها على مؤلف ناجح وأستاذ جامعي مشهور حاضر في أكثر من جامعة عربية وأجنبية ونشرت مقالاته في المجلات العلمية المحكمة وغير المحكمة عربيًا وعالميًا؟

إن كلّ "إناء بالذي فيه ينضح" وما كلام كاتب الأخبارية من "استغلال الفرص" و"حب المال" والتعابير التي تتسم "بالميوعة" والإساءة إلى الآخرين إلا تعبيرًا عن نفسية مريضة حاقدة تتجلى فيها كل هذه الأمور وتجعل صاحبها يراها في الآخرين.

أما عن جهل الكاتب بالأمور العلمية والأكاديمية فحدّث ولا حرج - كما سأبين ذلك بعد قليل - ولكني أود أن أتحدى كاتب الهجوم هذا أن ينشر أقواله وادعاءاته

في مجلة علمية تصدر عن جامعة محترمة لأن جامعات كهذه لن تجد في هذه الأقوال أكثر من دجل رخيص ليس له مكان على صفحاتها، ويا للأسف جاء هذا المخبر المهاجم واستغل اسم جريدتكم وجهل أحد محرريها - المسؤول عن صفحة "ثقافة وفنون" - ليجعلكم وسيلة لنفث سمومه...

والعجيب الغريب بعد كل هذا أن صاحب الهجوم الذي يلجأ إلى التشهير بأسماء الآخرين جَبُن عن ذكر اسمه أو أسماء محرضيّه في نهاية أقواله!!

والآن اسمحوا لي أن أوضح النقاط التالية بشأن كتابي الموسوم "الخليج العربي في العصور الإسلامية"، والذي نشرته دار القلم بدبي، ومدى اقتباسه من الأطروحة الموسومة "الحركة الإباضية في المشرق العربي" وهي أطروحة ماجستير كُتبتْ تحت إشرافي في جامعة بغداد ونوقشت 1970م.

أولاً: أن موضوع كتابي نظرة تاريخية استعراضية لكل أقاليم الخليج العربية في العصور الوسطى الإسلامية وهي العراق والأحواز والبحرين وعمان، بينما الأطروحة تتعلق بتاريخ (الحركة الإباضية في عُمان) فقط، ومعنى ذلك أن مادة الكتاب وموضوعه أشمل بكثير من مادة الأطروحة التي تتعلق بحركة واحدة وفي إقليم واحد ومدة محدودة.

ثانيًا: إن الفترة الزمنية التي غطاها الكتاب تشمل من 1هـ - 656هـ أي ستة قرون ونصف القرن، هذا إضافة إلى المقدمة عن جغرافية الخليج والفصل الأول عن تاريخ الخليج والهجرات العربية إليه قبل الإسلام، بينما الأطروحة تتحصر بتتبع حركة معينة في إقليم واحد وفي فترة زمنية هي من سنة 134هـ - 280هـ أي حوالي 146 سنة (مائة وست وأربعون سنة فقط لا غيرها).

ومعنى ذلك أن هناك فرقًا كبيرًا بين استعراض تاريخ كل أقاليم الخليج يشمل 656 سنة أو أكثر، وبين دراسة تغطي 146 سنة (مائة وست وأربعون سنة) لإقليم عمان فقط!!!

وهنا لابد أن أتساءل هل أن العنوان الذي يتصدر صفحة الجريدة يتفق مع الحقيقة؟ وهل أن العبارات الجارحة والحاقدة في أقوال المخبر المهاجم مثل "هل يحق للأستاذ المشرف أن ينسب رسالة الطالب الذي أشرف عليها وينشرها على أنها من تأليفه" تعبّر عن واقع الأمر ؟

ثالثًا: أما فيما يتعلق بنشاط الحركة الإباضية في عُمان وهو موضوع الأطروحة ومدى اعتماد كتابي عليها فيما يتعلق بعمان فلابد من ذكر الملاحظات المهمة التالية:

(1) لقد أشرتُ في صدر الكتاب (التمهيد) ص10، وبصورة واضحة أنني اعتمدتُ على الأطروحة التي كتبت بإشرافي فيما يتعلق بنشاط الإباضية وتطور حركتهم نصًا. وقد قلت بالحرف الواحد: "على أنني أود أن أذكر أن هناك عددًا من الأطروحات التي صدرت عن جامعة بغداد وأخص منها بالذكر الأطروحة الموسومة الدعوة الإباضية في المشرق العربي التي كتبها مؤلفها السيد هاشم تحت إشرافي ونال بها درجة الماجستير بتقدير جيد جدًا. وقد اعتمدتُ عليها نصًا فيما يتعلق بنشأة الحركة الإباضية وتطورها في عُمان".

أليس هذا قول صريح وواضح؟ وهل في اللغة العربية جملة أكثر دلالة مما قلت؟ وهل هناك مكان أبرز من صدر الكتاب وصفحاته الأولى للإشارة إلى اعتمادي نصًا على أجزاء من أطروحة في موضوع معين يعد جزءًا من كتابي الذي أقوم بتأليفه.

والآن قارن يا رئيس التحرير بين ما قلته في كتابي وكيف اقتبسه هذا المخبر المهاجم المتباكي على العلمية والمنهجية. لقد قال على صفحات جريدتكم تعليقًا على النص السابق: (واكتفى (أي د. فاروق عمر) بإشارات غير مفهومة إلا أنه "أخذ من الرسالة نصًا فيما يتعلق بنشأة الحركة الإباضية وتطورها في عُمان" وأورد العبارة بشكل متميع في مقدمته (ص10) إذ يفهم القارئ من العبارة إلى أنه قد استعان بالرسالة ولم يأخذها كلها)!!!

لقد وضع هذا المخبر المهاجم عبارة "أخذ من الرسالة نصًا... إلخ" بين قوسين على أساس أنه اقتبسها من كتابي، بينما الواضح أنني قلتُ غير ذلك تمامًا فقد قلت: "وقد اعتمدتُ عليها نصًا... إلخ"، والفرق واضح بين العبارتين لكل عارف بأبسط قواعد اللغة العربية ولكن حقده ودجله أعماه عن كل ذلك.

أكرر.. لقد وضع المخبر العبارة بين قوسين ليدلل على علميته وأمانته بينما أنا لم أستعمل عبارة "أخذ ممن الرسالة نصًا.." بل استعملت عبارة "اعتمدتُ عليها نصًا..."، والفرق واضح في المعنى وضوح الشمس، لقد تلاعب هذا المخبر بنص كلماتي وحرَّفها!!

(2) ويبدو أن المخبر المهاجم على جهل مطبق بالأمور العلمية والأكاديمية.. فهو يجهل معنى الإشراف الجامعي على رسالة أو أطروحة، ويجعل الجهد الذي يبذله الأستاذ المشرف والذي تعترف به القوانين الجامعية إلى درجة إعطاء الأستاذ المشرف المباشر الحق في تقديم الأطروحة للترقية إلى مرتبة أعلى ونشر جزء منها وتقديمه للتعضيد والمكافأة، فالأطروحة من وجهة نظر هذه القوانين الجامعية جهد مشترك للطالب والأستاذ وكل طالب يدرك ذلك ويعترف به في مقدمة أطروحته.

إذن ألا يحق لي أن أعتمد على أجزاء من أطروحة أنجزت تحت إشرافي وأجازتها الجامعة سنة 1977م، هذا مع العِلم أنني أشرت إلى ذلك بوضوح لا يقبل الشك أو التشكيك، إنها بديهة لا تقبل النقاش إلا من قبل الجهلة والمغرضين ومن يعاونهم ويحرضهم.

(3) بالإضافة إلى إشارتي في صدر كتابي إلى أنني "اعتمدت عليها (أي الأطروحة) نصًا فيما يتعلق بالإباضية".

فلم أكتفي بذلك بل أشرت في كل صفحة واعتمدت فيها على ما جاء في الأطروحة إلى صفحات الأطروحة التي اقتبستُ منها وبصورة واضحة:

أولاً: ص81 هامش رقم (1)

قلت: "راجع الحركة الإباضية في المشرق العربي، ص42 - 46.

مثلاً ص165.

هاشم، المصدر السابق، ص169، فقد اعتمدنا على ما أورده في هذا الباب.

مثلاً ص211.

هاشم، ص231 - 244.

مثلاً، ص223.

هاشم ص247-253

وهذه الإشارات وغيرها كثير تعبّر عن نفسها بنفسها فلماذا يا ترى تجاهلها المُخبر المهاجم ولم يشر إليها لا من بعيد ولا من قريب؟ إنه الحقد والتدليس والتشكيك. ولقد قال الله تعالى في الرد عليه وعلى أمثاله ﴿قل موتوا بغيضكم ...﴾ صدق الله العظيم.

ولم أكتفِ بهذا ولا بذاك بل أشرتُ إلى الأطروحة في أجزاء الكتاب ذات العلاقة بالإباضية التي اعتمدت عليها وخلال صفحات الكتاب حوالي 65 مرة (خمس وستون مرة)، الحقيقة التي لم يستطع المهاجم المخبر أن يقولها أو يكشفها بسبب حقده.

ولم أكتف بهذه الأمور الثلاثة بل أشرتُ إلى الأطروحة في قائمة المراجع الحديثة في آخر الكتاب وإذا كان كتابي هذا ما هو إلا رسالة تعود لشخص آخر طُبعت على حد قول المخبر المهاجم - وكأنها كتاب من تأليفي، فكيف أشير إليها في صدر الكتاب وفي ثناياه وفي مؤخرته، أليس من الأجدر أن أتغافل عنها تمامًا كما يحدث في مثل هذه الأحوال؟!!

إن ما ورد في الفقرة (3) يدل على أنني أشرتُ بما فيه الكفاية إلى الأطروحة في المحاور التي تتعلق بالإباضية في عُمان، ولا أجدني مضطرًا إلى كل هذه الإشارات والهوامش العديدة والمزدحمة بها حواشي الكتاب لأنني قد أوضحتُ سلفًا في صدر كتابي إلى اعتمادي نصًا على أجزاء من الأطروحة بخصوص الإباضية في عُمان، ولكن دافع المنهجية العلمية هو الذي دفعني إلى ذلك. وهكذا وبدلاً من الإساءة إلى الأطروحة فإنّ كتابي هذا قد كفل للأطروحة مكانة علمية لائقة بها وأثار ولا شك شوق الباحثين للرجوع إليها، كما يبدو أنه أثار غيض الحاقدين كذلك من أمثال صاحبنا ورغبتهم في التشكيك والتدليس والافتراء.

(4) في الأطروحة فصول وأجزاء من فصول لا علاقة لها بكتابي، ولا بالمواضيع التي طرحت. فالفصل الأول والفصل الثالث والفصل السادس والفصل السابع، وأجزاء من فصول أخرى في الأطروحة لم أعتمد عليها في كتابي.

فإذا كانت الحالة كذلك فكيف يستعمل المخبر الحاقد عبارات مثل (ينسب رسالة الطالب إليه) أو (أتى على رسالة تلميذه) و(سطا عليها)، أو (أخذ الرسالة كلها). أليس في هذا يا رئيس التحرير تشهير وتشويه سمعة شخصية من شخص ادعى العلمية واستغل الجريدة. وبعد كل هذه النقاط هل هناك ما يبرر العنوان الكبير الذي تصدّر صفحة "فنون وثقافة" يا سيادة رئيس التحرير؟؟

رابعًا: ومن التساؤلات التي يثيرها هذا المُخبر الحاقد والتي تدل على غيضه وبغضه لكل مؤلفاتي وكتبي ذات النهج الموضوعي والتفسير القومي، والتي

تصدّت لكل الحاقدين على تاريخنا وتراثنا العربي - الإسلامي، هو تساؤله بأن أجزاءًا أخرى من كتابي ربما نُقلت من مؤلفات سابقة لي. وهذا إضافة إلى كونه دليلاً آخر على جهله الفاضح بالأمور العلمية المتعلقة بالتأليف والترجمة والنشر فإنه ينتهي بأنني أسرق جهد نفسي!! بل يريد أن يحرمني من الانتفاع حتى من كتب ومؤلفات كتبتها بنفسي!! إن نفسيّة حاقدة كهذه لا يمكن للكلمات أن تصفها بل أن جوابي لا يعدو تكرار الآية القرآنية الكريمة "قل موتوا بغيضكم".

خامسًا: وإذا كان ردي على تساؤله السابق بأن الإنسان لا يسرق جهد نفسه، فماذا يكون ردي يا ترى على تساؤله الآخر.. وهو من أين نقلت كتبي الأخرى؟ وأنا أتحداه لكي يجد جوابًا لسؤاله يشفي به غليله، ولعله يخرج علينا بأقوال متهافتة كهذه التي نشرها في جريدة القبس. أما عن كتابات الدكتور عبد الحي شعبان - وهو زميل فاضل أعتز بصداقته - فإن كتابي الخلافة العباسية (بالإنكليزية) صدر سنة 1969م في بغداد، كما صدر كتابي (طبيعة الدعوة العباسية) في بيروت سنة 1970م، والعباسيون الأوائل، ج1، بيروت، 1971م، وهنا لابد أن أنبّه إلى أن المخبر الحاقد لم يذكر السنوات التي صدرت فيها كتبي لكي يُموّه على القارئ أنها حديثة ونُقلت من مصادر أقدم منها، على أنني أود أن أزيد من حقده فأقول له بأن الدكتور شعبان يناقش كتبي ويرجع إليها في كتابه (الثورة العباسية) سنة 1970م وغيره وليس العكس. ذلك أن بعض كتبي صدرت قبل كتاب الدكتور شعبان آنف الذكر. وبين تفسيري وتفسير الدكتور شعبان اختلاف لو عدنا إلى التفاصيل. وليمت المخبر بغيضه فليس بيني وبين الدكتور شعبان ناقل ومنقول. وكنا نلتقي سنويًا في الثمانينات من القرن الماضي في إكستر بإنكلترا.

سادسًا: أما من ناحية الربح المادي من وراء الكتاب فالباحث يبرأ نفسه أن يتحدث عن الأرباح المالية للكتب، فهو ليس في مجال تجارة فيها بيع وشراء إنما هدفه ترويج ثقافة المعرفة بالدرجة الأولى "خيركم من تعلّم العِلم وعلّمه" كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه ولا شك أمور يجهلها المخبر. وما دام قد أشار إلى "المكافأة المالية" فدعني أريحه بالقول: ليست هناك مكافأة مالية من أية جهة جامعية أو غيرها، وأحيله كذلك للعقد المبرم بيني

وبين دار القلم في دبي، والمعروف بصورة عامة أنني أصرف على كتبي من جيبي الخاص إذا لم تتوفر لها دارًا للنشر لأن هدفي أسمى مما يظن صاحبنا المخبر.

سابعًا: إن الله سبحانه وتعالى والحق يأبى إلا أن ينكشف صاحبنا المخبر وقديمًا قيل ما أسرّ أحدكم الغش والخيانة إلا ظهرت في فلتات لسانه، وفلتات اللسان عديدة في أقوال صاحبنا، ولكنه انكشف على حقيقته في آخر فقرة من أقواله فهو يغمز ويلمز، وكأنه يستهزأ أو يتهكم لأنني أهديتُ كتابي إلى ضمير الأمة العربية.. إلى شعراء الخليج العربي الذين أنشدوا لوحدة الخليج العربي وللوحدة الكبرى... وهذا هو بيت القصيد فقد استشاط صاحبنا غيضًا للتفسير القومي الذي تميز به كتابي عبر فصوله وأثار حقده النهج العربي الإسلامي المنبعث في نظرة ذاتية تاريخية خليجية في تحليل الأحداث فعبَّر عن حقده الأعمى مستغلاً صحيفة القبس. ولديّ خبرًا جديدًا أود أن أزفّه إليه وإلى من تستروا وراءه وهو أن كتابًا جديدًا سيصدر لي وسيكون إهداءه كالتالي: "إلى كل الذين أوضحوا المعنى الإنساني للعروبة السمحاء وتصدّوا للمشككين الدخلاء ووفوا في الكشف عن غنى موارد التراث العربي الإسلامي".

ثامنًا: إن السؤال المهم هو لرئيس التحرير كيف يسمح بالتشهير بكتابي (الخليج العربي) بل أكثر من ذلك يسمح بالتشهير بكتبي الأخرى؟ وبسمعتي العلمية؟ إن جريدة محترمة لابدّ أن تحترز وتأخذ الحيطة والحذر وتبتعد عن أمثال هؤلاء المخبرين الفاسقين.

وبعد هذا كله... لقد كنت عند توقعاتي بأن هناك من يتصيد في الماء العكر من الذين تغيضهم مقالاتي وكتبي، ولهذا كنت حذرًا وأشرت بما فيه الكفاية إلى مصادري وخاصة الأطروحة موضوعة البحث.

إنني أرى بأن الإخبارية فيها تدليس وتحريف وتشكيك كبير يعبر عن حقد قديم ودفين، كما وأن الإخبارية لا تتفق مع حقيقة ما حدث فعلاً. ولا تتفق أو تتناسب مع ما نشر في الصفحة ثمانية من جريدة القبس من عناوين مثيرة وعبارات جارحة ونصوص محرفة. إن مقارنة عابرة بين الكتاب والأطروحة وتتبع النقاط التي ذكرتها في هذا الرد كفيل بدحض كل الافتراضات التي ذكرها المخبر

والتي قال فيها جملاً مثل: "ينسب رسالة الطالب إليه" أو "ينشرها على أنها من تأليفه" ... إلخ من عبارات يندى لها الجبين. وكل هذا التزييف يدل على نفسية مريضة حاقدة جبُنت حتى عن ذكر اسمها وعنوانها كاملاً، فلو كان المخبر صادقًا وواثقًا بنفسه لأعلن اسمه وأسماء من عملوا بجبن خلف الكواليس، صراحة وعلى رؤوس الأشهاد، والمتتبع في مثل هذه الحالات أن الخبر لا ينشر إلا بعد التأكد التام من الحقيقة، وأن يذيَّل باسم المخبر، فأنا لا أعتقد بأن ما قيل هو من بنات أفكار جريدة القبس أو رئيس تحريرها رغم أن الجريدة تتحمل المسؤولية كاملة.

وفي الختام أرى لزامًا عليَّ والحالة هذه أن أقول بأن كتابي (الخليج العربي...) نظر لأول مرة إلى تاريخ الخليج نظرة ذات منهج شمولي وموضوعي وفسرها تفسيرًا قوميًا، فدرس أقطار الخليج العربية كوحدة واحدة في تأثيرها وتأثرها بالتيارات السياسية والفكرية والدينية في العصر الإسلامي الوسيط.

﴿وأما الزبد فيذهب جُفاءًا وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ صدق الله العظيم)

والسلام عليكم. [19]

الهوامش:

(1) الكتاب برقم 14482 تاريخ 1986/11/25م (شكر وتقدير)- كذلك شكر وتقدير رئيس جامعة بغداد بالكتاب رقم 20790 في 1986/10/12م.

(2) الكتاب المرقم 514 بتاريخ 1984/4/21م (تأييد).

(3) رسالة شخصية بتاريخ 1989/6/28م، بغداد.

(4) رسالة شخصية بتاريخ 1989/2/14م.

(5) جريدة الإعلام، كلية الآداب، بغداد، عدد 8 سنة 1979م.

(6) رسالة شخصية بتاريخ 1989/3/4م، بغداد، العراق.

(7) رسالة شخصية من لندن بتاريخ 1994/3/22م.

(8) تقرير إلى عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة آل البيت، 1998م.

(9) رسالة شخصية من مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، في شهر آذار، سنة 1994م.

1) Argument, Abdullah b.al-Muqafffa, J.S.J.S, uol. 27, 1994.)

(2) Ende, op.cit. مرجع سابق

(12) هشام جعيط، مرجع سابق.

1) Fred Donner, a Leter to Muhmmed Aolnen al-Bakhit, in May 9, 1994 chicago,) U.S.A.

(2) Al- Usur al - wusta, 7.2. October, 1995, P. 31 (scholar Profile).

(15) رسالة شخصية في 30 آيار سنة 1995م.

(16) رسالة شخصية من الجزائر في 1989/90/14م.

(17) مجلة ألف، بغداد، العراق، 1988م، ص22.

(18) جريدة القبس الكويتية، الكويت، عدد 4199، 22/1/1984م.

(19) راجع الملاحق حيث تجد التمهيد ومحتويات كتاب تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية، ص7-10.

الفصل الخامس

حوار عن التجربة

"... وبما أن موضوعة الدكتور فاروق هي التاريخ، وهي موضوعة يقرؤها العام والخاص، فإن اسمه شاع ليس في أوساط النخبة المختصة بل أنّ العديد من المثقفين من غير المختصين والذين لهم ولع في قراءة التاريخ يعرفون كتاباته جيدًا بل يتتبعونها...".

حوار مع مجلة ألف باء البغدادية، 1034

20 تموز/ يوليو 1988م

"Books are the treasured wealth of the world, and the fit inheritance of generations and nations".

Henry David Thoreau

الفصل الخامس

حوار عن التجربة

برز اسم د. فاروق في السبعينات حين بدأت كتبه وبحوثه تنشر تباعًا، وحين ذاع صيته دعته العديد من الموسوعات للمساهمة في كتابة المقالات بها، كما ظهرت سيرته في العديد من قواميس التراجم حيث حصل من بضعها على شهادات تقديرية.

وعلى صعيد العراق والوطن العربي أجرت العديد من المجلات والجرائد حوارًا معه شمل سيرته ونتاجه.(1)

وسنستند في حوارنا هذا على ما ورد من معلومات في الحوارات السابقة ونزيد عليها أسئلة جديدة ربما تكشف عن مظاهر أخرى من شخصيته ومنهجه في الكتابة التاريخية.

وفيما يلي نص الحوار الذي أجرته معه مجلة (ألف باء) البغدادية:

منذ أوائل السبعينات بدأت كتب وأبحاث الدكتور فاروق عمر فوزي بالانتشار داخل العراق وفي الوطن العربي، ولاسيما أن دور النشر اللبنانية بادرت إلى نشر باكورة كتبه في (الثورة العباسية) وواجهاتها السياسية والدينية. وبما أن موضوعة الدكتور فاروق هي التاريخ وهي موضوعة يقرؤها العام والخاص. فإن اسمه شاع ليس في أوساط النخبة المختصة في أوساط التاريخ وفي الجامعة، بل إن العديد من المثقفين من غير المختصين والذين لهم ولع في قراءة التاريخ يعرفون كتابات الدكتور فاروق جيدًا بل يتتبعونها .. ولعل مبعث ذلك سببان:

الأول: إن الدكتور فاروق ممن يعتقدون بأن "الثقافة التاريخية العامة" يجب أن توجه أصلاً إلى جماهير الأمة، ينبع هذا الاتجاه عنده من شعور بأهمية التاريخ في ثقافة المواطن وضرورة معرفته أساسيات تاريخه التي تعد سلاحه وخزينه أمام المحن والشدائد التي يواجهها.

الثاني: إن الأسلوب الذي يكتب به الدكتور فاروق هو أسلوب سهل وسلس، حيث يطرح أفكاره التاريخية بطريقة جذابة معبرة بصورة مباشرة تستهوي القارئ العام غير المختص. وتصل إليه دون لف أو دوران. وهذا ما ساعد على إشاعة كتبه على صعيد المثقف العام أيضًا.

أما أهمية الدكتور فاروق عمر على صعيد الكتابات التاريخية، فإن العديد من أبحاثه تشير إلى أنه مؤرخ جاد وشجاع.. كوّن خلال تجربته في كتابة التاريخ العربي الإسلامي عبر أكثر من عشرين سنة قناعات فكرية تعتمد أساساً على محاولة تكوين نظرة ذاتية عربية أو ... تفسير تاريخي عربي مستقل لا يستند على النظرة التقليدية الجامدة للتاريخ ولا يكون عيالاً على ما جاءنا من التاريخ عن طريق ما تصدره المؤسسة الاستشراقية من أفكار وآراء باتت قديمة ومرفوضة حتى في أوساط المثقفين والمختصين في أوروبا.

أخطاء مؤرخينا:

وهو معني الآن بفرز الاتجاهات الخاطئة في كتب المؤرخين العرب الذين وقعوا تحت تأثيرات المدرسة الأوربية في التاريخ، فإن سألته عن خارطة الكتابة التاريخية في المرحلة الراهنة، أعطاك انطباعًا في اتجاهات هذه الخارطة، قائلاً:

- إن الكتابات التاريخية العربية لا تعدو أن تكون في واحد من الاتجاهات التالية:

1- إما تقليدية مملة وهي تلخيص بأسلوب حديث دون اجتهاد أو تفسير أو تحليل لما كتبه المؤرخون الرواد مثل الطبري وابن الأثير.

2- أو اقتباس حرفي من كتابات المستشرقين بكل ما في بعضها من تشويه أو تحريف عن قصد أو دون قصد.

3- أو الاتجاه الجديد في كتابة التاريخ بنظرة ذاتية عربية شمولية موضوعية وبمنهجية علمية تعتمد فلسفة للتاريخ ترتبط فيها الوقائع والأحداث التاريخية الجزئية بتاريخ الأمة ككل وتحاول أن تفسر دورها وأثرها في مسيرة هذا التاريخ وتكوينه عبر القرون والأجيال وهذا الاتجاه الجديد نادرًا ما نجده في كتاباتنا الحديثة.

البحث عن مدرسة تاريخية:

أما إذا جادلته عن وجود مدرسة تاريخية في العراق، فتراه يقف حائرًا في إجابته، أنه يعترف بوجود مؤرخين، لكنه ينتقد أكثرهم، معللاً انتقاده بأدلته ومنطق تجربته يقول: نعم هناك مؤرخون يمتازون ويتميزون في العراق لا يقلون في مستواهم وعلميتهم عن مواصفات أحسن المؤرخين في العالم، على أن هؤلاء المؤرخين لم ينجحوا بعد في تأسيس أو بلورة مدرسة تاريخية لها معالمها المتميزة والواضحة، وفي رأي بعض النقّاد في الوطن العربي مثل الأستاذ هشام جعيط أن هناك معالم وبوادر لمدرسة تاريخية عربية بدأت تظهر في العراق وهي مدرسة تبشر بالخير.

ولابد أن أضيف إلى كلام الأستاذ جعيط فأقول بأننا نلاحظ مؤرخين مقتدرين وأكفاء في مجالات معينة في حقول التاريخ فقد كان المرحوم الدكتور جواد علي متميزاً في مجال التاريخ العربي قبل الإسلام، وكان المرحوم الأستاذ طه باقر متميزاً في مجال التاريخ القديم، وهناك رائد الكتابة التاريخية عن صدر الإسلام الدكتور صالح العلي، ورائد التاريخ العباسي والنظم وفلسفة التاريخ العربي الدكتور عبد العزيز الدوري وهكذا.

كما وأنني أود أن أؤكد بأننا يجب ألا نتكلم عن "مدرسة عراقية" في كتابة التاريخ بل "عن مدرسة عربية" في العراق في كتابة التاريخ ذلك أن الكتابة التاريخية في العراق هي جزء لا يتجزأ عن الكتابة التاريخية في الوطن العربي تؤثر فيها وتتأثر بها.

وفيما عدا ما أشرت إليه من المؤرخين البارزين فلابد أن ألاحظ نقطة بارزة في الكتابات التاريخية واتجاهاتها عمومًا وهي أنها لا تزال إتكالية ومجترة وأن القسم الأعظم منها يعتمد على دراسات أقدم منها بعضها استشراقية جاءتنا من الخارج وهي بالتالي لا تساهم في فكر أصيل مبدع يساعد على بناء شخصيتنا الذاتية وثقافتنا التي نريد لها أن تكون مستقلة. والأغرب من ذلك أن بعض التفاسير باتت قديمة وقد غيرت وبدلت ولكن بعض كتبنا وبحوثنا لا تزال تعتمد على القديم الذي أصبح مرفوضًا، ولعل سبب ذلك يعود إلى عدم متابعة بعض مؤرخينا لما يصدر وينشر في الوطن العربي وخارجه. ولا شك فإن قلة حضور الندوات التاريخية أو التفرغ العلمي من أجل البحث يلعب دورًا في ذلك.

صفات المؤرخ:

ربما كانت هناك صفات خاصة في مخيلة الدكتور فاروق تؤهل لهذا المؤرخ العراقي بأن يكون مؤرخًا، إنه هنا يرسم صورة للمؤرخ الذي نبحث عنه يقول: إن صفات المؤرخ تنبثق من تحسسنا بأهمية موضوع التاريخ فإذا أدركنا أن التاريخ هو عملية توجيه وتوعية وتعبئة متكاملة للشعب كله، عند ذلك نستطيع أن نقول بأننا نبحث عن المؤرخ الذي يدرك بأن ما يكتبه من كتب وما ينشره من بحوث في المجلات أو مقالات في الجرائد هدفها إعداد المواطن للعيش في حاضر متطور نحو مستقبل أفضل.. وهذا الواجب هو في اعتقادي: الوظيفة الوطنية والقومية للتاريخ وهي وظيفة لا يؤديها غير التاريخ من بين العلوم الإنسانية. فنحن نبحث عن المؤرخ الذي يكون مخلصًا لشعبه مواليًا لأمته العربية مثل ولائه للحقيقة والإنسانية. ونحن نريد من المؤرخ أن يعي مسؤوليته في تبصير مواطنيه بقضاياهم المصيرية والأزمات المرتقبة وأن يقف إلى جانب أبناء شعبه منذرًا ومبشرًا ومشجعًا، وبهذا يكون المؤرخ عنصرًا فعالاً في خلق الشخصية الإيجابية ذات الأثر الفعّال في مجرى الحياة وتقدّم المجتمع.

تفسيرات التاريخ ليست قطعية:

كيف تؤرخ حادثة مهمة.. هل تتأثر بالأوضاع السائدة ..؟

نعم وهنا أذكر كلمة لأحد فلاسفة التاريخ حين قال "التاريخ كله تاريخ معاصر" وقصد بذلك أن المؤرخ حين يؤرخ لحادثة أو واقعة معينة حدثت قبل عصره لابد أن يتأثر بالأفكار والآراء والنظريات السائدة في عصره.. فيفسر تلك الحادثة بموجب مسلمات وفرضيات رائجة في العصر الذي يعيش فيه المؤرخ!! وقد يكون هذا التأثر عن قصد أو دون قصد منه. فالمؤرخ إنسان وهذا الإنسان تؤثر عليه العديد من العوامل والمؤثرات. ولهذا فنحن نقول بأن تفسيرات التاريخ ليست قطعية بل نسبية واجتهادية، ولا يضير الواقعة التاريخية أن تفسر بهذا التفسير أو ذاك فربما كشفت لنا التفاسير المختلفة جوانب مختلفة من الواقعة التاريخية فأغنت معلوماتنا وزادت من فائدتنا، ولكن هناك شرطًا أساسيًا هو أن تعتمد هذه التفاسير المنهجية الموضوعية فتستند إلى وقائع ثابتة مستقاة من روايات تاريخية موثوقة ووثائق معتمدة ولا تعتمد النظرة المسبقة التي تخضع الأحداث إلى تفسير محدود لتخرج

بنتائج مقصودة ربما تصل إلى مستوى التزوير للواقعة أو الحادثة التاريخية!! وهناك أمثلة عديدة في التاريخ لهذا النوع من التزوير.

قيل عن ثورة 14 تموز ما قيل وما كتب من كتب. وكان الدكتور فاروق عمر يتابع هذا السيل من الكتابات عن الثورة. وهنا سألته أن يعطي آراءه فيما نشر عن هذه الثورة، قال:

لم يكتب تاريخ ثورة 14 تموز 1958م بعد.. ولن يكتب الآن وإلى فترة ليست قريبة وإنما لا يزال المؤرخون المعنيون في فترة تجميع المادة الوثائقية عن هذه الثورة.. وكل ما كتب وما نشر عنها لا يتعدى مذكرات أو ما شابهها كتبها أفراد شاركوا في الثورة أو كانوا قريبين من العناصر التي شاركت فيها. من هنا فإن السلبيات فيما نشر أكثر من الإيجابيات وأن التناقض بين الآراء كثير ومتعدد الأطراف ويصل أحيانًا إلى حد الاختلاف الحاد حول الحادثة الواحدة. ولذلك قلت بأن تاريخ الثورة وفلسفتها ووقائعها الثابتة لم يكتب بعد وسيظل كذلك إلى فترة أخرى ومن هنا تأتي حكمة دور الوثائق الرسمية في العالم بعدم كشف وثائق حادثة تاريخية معينة إلا بعد مرور ثلاثين سنة وأحيانًا لا تكشف إلا بعد فترة أطول من نصف قرن ولشخصيات معينة!!

يتبع ذلك أنا لا نستطيع في الوقت الحاضر أن نعطي حكمًا تاريخيًا جازمًا حول شخصيات مهمة قبل ثورة 14 تموز لنفس السبب. ولذلك نرى أن اختيار بعض هذه الشخصيات من قبل أقسام التاريخ لدراستها في أطاريح الدكتوراه أو الماجستير كان مجازفة علمية لأن المادة التاريخية في الداخل والخارج ليست متيسرة بعد بصورة متكاملة.

وعلى هذا فإنّ على المؤرخ المعاصر ألا يكتب إلا عن الأحداث والوقائع التاريخية التي تكون قد استكملت وثائقها ومادتها التاريخية.

تاريخ قومي وتاريخ وطني:

هناك من المؤرخين من يفصل بين التاريخ القومي والتاريخ الوطني، كيف يناقش الدكتور فاروق هذا الفصل ...

يقول: بالنسبة لنا كعرب نعيش في وطن عربي كبير ليس هناك فرق بين تاريخنا القومي وتاريخنا الوطني فهذه فكرة حاول المستعمرون غرسها في أذهان الناشئة في مجتمعاتنا فالعراقي سومري وآكدي وآشوري والسوري حيثي واللبناني فينيقي والمصري فرعوني والجزائري بربري وهذا خطر يهدد شخصيتنا العربية الإسلامية ولابد من التصدي له.

إننا نهتم بتراث الوطن العربي وحضارته قبل الإسلام باعتبارها تمثل حضارة رائدة وأصيلة، وتدل على عبقرية الإنسان في الوطن العربي منذ أقدم الأزمنة التاريخية. إلا أن ذلك كله يجب ألا يطغى بشكل من الأشكال على حضارتنا العربية الإسلامية الأصيلة والتي لا تزال جذورها متصلة بثقافتنا وتقاليدنا وفكرنا الواعي واللاواعي.

من هنا كان لزامًا على المؤرخ أن يفهم بأن المواطن في حاجة إلى إدراك أنه لا يعيش في وطن محدود منعزل بل في وطن عربي كبير متحد المصالح والأهداف وأن لا حياة له ولوطنه إلا بهذه الوحدة والتضامن، وعلى المؤرخ أن يبرز حقيقة العلاقات والمصالح السياسية والاقتصادية والحضارية المتشابكة منذ أقدم العصور وحتى الآن.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن المواطن العربي في أجزاء عديدة من الوطن العربي لا يزال يعيش فكرة التخلف وأن لا قدرة له على اللحاق بركب الحضارة العالمية. ومن هنا وجب على المؤرخ تعريف المواطن العربي أنه من صنّاع الحضارة وإبراز الأسماء الضخمة في ميادين الحضارة كافة. ولابد كذلك من توضيح عوامل الهزيمة وعوامل النصر في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية كافة وبذلك نحرر فكر المواطن وتنجاب عنه الغشاوة والتضليل التي تعرض لها خلال عهود القهر والظلام.

وعلى المؤرخ العربي وهو يكتب في تاريخ العرب أن يضع مشكلات الحاضر وموقف الحاضر نصب عينيه ونقطة البدء في بحوثه فنحن لا ندرس مثلاً حروب الفرنجة الأوربيين من أجل هذه الحروب، ولكن ندرسها لتوضيح القضية الفلسطينية الماثلة أمامنا، وما دراسة الحروب الصليبية إلا لتوضيح الموقف وتبيان رسالتنا وسياستنا وما يجب عمله في الوقت الحاضر.

دور البطل في التاريخ:

في أكثر من نظرية في علم التاريخ يذهب المؤرخون إلى أن التاريخ، بشكل عام، هو تاريخ أفراد، فما هي وجهة نظر الدكتور فاروق عمر في ذلك، يقول:

لا يستطيع المؤرخون الموضوعيون مهما كانت اتجاهاتهم وفلسفتهم أن يكتبوا التاريخ دون الإقرار بأن بعض الأفراد "الأبطال" لعبوا في بعض اللحظات الحرجة في تاريخ الأمة دورًا حاسمًا في إعادة توجيه الموجة التاريخية أو الحدث التاريخي. فالبطل الذي يتمتع بقيادة ملهمة سر نجاح الأمة وانتصارها لأنه يلمس الوتر الحساس الذي يستطيع بواسطته أن يحرك الأمة - كل الأمة - معه فيثير فيها روح الصمود ويذكي فيها شعلة الاستعداد المشبع بأمجاد التاريخ.

إن المؤرخين لابد أن يبرزوا دور الأبطال في عملية التاريخ لا من أجل إنصاف هؤلاء الأبطال فحسب بل من أجل الأحياء ومن أجل الجيل الجديد الذي يحتاج إلى نماذج ورموز يحتذي بها. إن وقائع التاريخ تؤكد بأن الأبطال ليسوا مجرد رموز واضحة ومشهورة للأمة والوطن إنما هم كذلك مراكز للمسؤولية واتخاذ القرار والعمل على تطبيقه. والجماهير عبر التاريخ تتطلع في خضم الأزمات إلى من ينقذها ولذلك فإن أزمة حادة تزيد الاهتمام بالبطل.. وكلما زادت الأزمة حدة اشتد التوق إلى البطل.

وكانت العرب تنظر إلى البطل على أنه قائد يدرك المسؤولية الكبيرة الملقاة على عاتقه، ولذلك كانوا يتحرون فيه سجايا وصفات فاعلة ومؤثرة منها الشرف والشجاعة والعدالة والإخلاص والحلم والمقدرة وإنكار الذات والاقتدار والحنكة والتجربة.

ولكن ونحن نتكلم عن البطل ودوره في تحريك العملية التاريخية لا ننسى دور الشعوب في التاريخ، ولذلك يتكلّم المؤرخون عن مزايا معينة يتصف بها هذا الشعب أو ذاك وتتباين من شعب إلى شعب آخر. ليس هناك شدة مثل الحرب حيث تتصارع إرادتان بكل ما لديهما من صفات معنوية وقدرات مادية لتبيان المعدن الحقيقي للشعب، ولهذا يؤكد الإستراتيجيون بأن النصر في الحرب يتوقف على المزايا المعنوية والمصادر البشرية أكثر من القدرات المادية، فلا الأسلحة ولا التقنية ولا العدد يقوم مقام النقص في الشجاعة والعزيمة والدأب وروح الصمود.

أي تاريخ، أو كتب تاريخية يفضلها القارئ العراقي ... ؟

وهنا ينقل لنا الدكتور فاروق بعضًا من تجربته في هذا الموضوع، قائلاً:

أعتقد أن العراقي قارئ ذواق وينتقي بدقة ما يرغب في قراءته، ولهذا نلاحظ أن كتب التاريخ على العموم تأتي في مقدمة ما يقتنيه القارئ في العراق، كما وأن المجلات الشهرية تنفد بسرعة إذا كان فيها موضوع أو أكثر يتعلق بالتاريخ أو الحضارة. ولعل أكثر ما يشد العراقي في هذه الفترة - فترة الحرب والحصار - هو تاريخ العراق عبر عصوره القديمة والعربية الإسلامية والحديثة لأن العراقي يجد في التاريخ ملاذًا ومسندًا يشد من عزيمته ويشحذ معنوياته ويشحن صبره ويزيد قوة على قوته.. والواقع أن هذا أمر طبيعي فالأمم كافة تلجأ إلى تاريخها أثناء الأزمات والحروب لتستمد منه القوة والعزيمة.. ويلاحظ الآن كثرة كتب التاريخ في المكتبات العراقية ولاسيما ما يتعلق منها بتاريخ العراق وحضارته وبصفة أكثر تحديدًا تاريخ العراق الحديث.

التاريخ مدرسة للمواطنة ..

إذا قدر وأن أعطوا لك الأمر يرسم منهج لدراسة التاريخ في الجامعات، فماذا تضع من بنود في هذا المنهج .. ؟

أولاً وقبل كل شيء أن أي منهج لدراسة التاريخ يجب أن يراعى فيه النقاط الأربع التالية:

(1) مبدأ الوضوح.

(2) مبدأ الجاذبية والصلاح لطلبة المرحلة.

(3) ارتباطه بغيره من المناهج.

(4) أثره العام في الفرد (الطالب) ثم في المجتمع عمومًا.

إن وضوح مناهج التاريخ وصلاحها ومدى موافقتها مع مرحلة الطالب الدراسية أمور مهمة إذ ليس هناك نتيجة عملية للسياسة التعليمية الجامعية ما لم نضع لها مناهج مناسبة تحقق الأهداف المرجوة وتوجه الطلبة للمعرفة والمهارة وتكوين القيم والأحاسيس لديهم.

إن دراسة التاريخ يجب أن تؤدي إلى خلق الشخصية الإيجابية ذات الأثر في مجرى الحياة القومية، ولذلك فإن دراسته يجب أن تكون موجهة لا تقف عند الأحداث بل تتعداها إلى توضيح المغزى التاريخي لكل حادثة.

فالتاريخ مدرسة للمواطنة بمعنى أنه أضواء تسلط على مظاهر الحياة فتنيرها أمام المواطن الذي نحاول أن نصنعه في الجامعات.

والكلام عن مناهج التاريخ الجامعية كلام طويل، ولكنني أقول إذا كان المنهج وسيلة لغاية أكبر من مجرد تحصيل المعلومات وهي اكتساب الخبرة والتزود بالقيم والاتجاهات السليمة فإن ذلك يدعونا إلى الاهتمام بأساسيات المادة أكثر من التفاصيل وألا نحشو المنهج إلا بالمادة الضرورية واللازمة والمناسبة للوقت من ناحية الكم والنوع. وهنا لابد أن أشير إلى أن "الكتاب المنهجي" المقرر لكل موضوع من المواضيع يجب أن يحوي على أقل ما يمكن إعطاؤه للطلبة في تلك المادة وتلك السنة أو الفصل وترك الحرية للأستاذ المحاضر لتزويد الطلبة بتفاصيل المفردات المقررة لما يقتضيه الوقت ومساعدة الظروف، وللإطلاع على مراجع أخرى، كما وأن الكتاب المنهجي المقرر يجب أن يؤلف من خيرة الأساتذة المعروفين بعلميتهم وخبرتهم وسمعتهم في مجال التدريس والتأليف.

وإذا أردت أن أضرب أمثلة على ما يجب أن تحويه مفردات المناهج أقول أننا لابد لنا في تاريخ الوطن العربي مثلاً أن نؤكد بأن المواطن في العراق مثلاً لا يستطيع أن ينعزل عن الوطن العربي فلا حياة له إلا بالوحدة وبعلاقات التضامن المصيرية. وفي التاريخ الأوروبي لابد من إبراز وجهة النظر العربية في هذا التاريخ، بحيث تظهر خفايا السياسات والأهداف الاستعمارية فيكون التاريخ الأوروبي أداة لفهم العديد من أحداث الوطن العربي ذاته!!

وفي تاريخ الحضارة لابد من إبراز دور الأمة الحضاري والأسماء الإسلامية في هذا المضمار، وفي تاريخ العرب السياسي في عصور الخلافة لابد من إبراز الأمجاد العربية الإسلامية فلنا أمجاد في الحرب، ولنا أمجاد في الإدارة والسياسة، ولنا أمجاد في العلوم المختلفة.

وقد يكون الأوربيون معذورين بعدم الاهتمام بتاريخ العصور الوسطى فليس لهم تاريخ وسيط وأن من مصلحتهم طمسه، أما تاريخنا الوسيط ففيه الكثير من المفاخر والأمجاد والعبر!!

جيل الطبري ومواطن الخطأ:

ودخلنا التاريخ من أوسع باب، هو الطبري وجيله، فماذا أنتج هذا الجيل من قيم ومبادئ لتاريخنا، يقول الدكتور فاروق عمر:

إن الطبري وأقرانه من رواد الكتابة التاريخية العربية كانوا علامات متميزة في تاريخ هذه الأمة، وقد عبروا من خلال كتبهم عن أفكار وتفاسير لم يسبقهم إليها أحد من المؤرخين في العالم. وعلى سبيل المثال لا الحصر فكرة عالمية التاريخ ووحدته عبروا عنها بتوالي الرسالات السماوية وتتابع الأنبياء، كما عبروا من جهة أخرى عن اهتمامهم بوحدة الأمة العربية الإسلامية وأهمية تجاربها وخبراتها ودورها في التاريخ البشري عمومًا، وكانوا بذلك يردون على دعاوى وأباطيل الحاقدين على هذه الأمة والمهمشين من دورها.

وقد اتبع غالبية المؤرخين الرواد من جيل الطبري وقبله بقليل (نظام الحوليات) أي ترتيب الأحداث حسب السنين خاصة فيما يتعلق بأحداث التاريخ العربي الإسلامي. وهذه الطريقة "الحولية" هي من ابتكار مؤرخينا العرب المسلمين وقد أخذها الأوربيون من العرب مع بدايات العصور الحديثة.

كما اهتم هذا الجيل من المؤرخين بنقد الخبر وتمحيصه خاصة ما يتعلق منه بسند الرواية التاريخية (سلسلة الرواة) وهي بالضبط طريقة علماء الحديث بكل ما فيها من دقّة وأمانة علمية وموضوعية. ولابد أن نشير إلى حرص جيل الطبري من المؤرخين ودأبهم في معرفة الحقيقة قدر الإمكان وإعطاء وجهات نظر عديدة حول الحادثة الواحدة مستقاة من مصادر متنوعة، ولذلك نلاحظ أن الموارد التي استقى منها الطبري وجيله مادتهم التاريخية كثيرة ومصادرها متشعبة منها مكتوبة مثل مؤلفات وشعر ووثائق وسجلات الدواوين ومنها مباشرة مثل شهود عيان أو إخباريين ورواة.

لكن ما هي نقاط الضعف التي ظهرت في كتابات الطبري وجيله.. وما هي أسبابها، يقول الدكتور فاروق عمر:

مما يؤخذ على جيل الطبري من المؤرخين أنهم لم يعطوا اهتمامًا كافيًا إلى متن الرواية أي نصها مثل اهتمامهم بسندها وسلسلة روايتها. ولهذا نجد الغث والسمين في هذه الروايات والمعقول وغير المعقول والدس الحاقد والصورة المشرقة، ويعترف

الطبري بهذه الحقيقة، ويشير إليها في مقدمة كتابه ويطلب من القارئ أن يتفحص الأخبار الواردة في كتابه ولا يقلبها على علاتها.

وهناك نقطة ضعف أخرى في كتابات الطبري وجيله هو تقديم معلومات مهمة أحيانًا دون إسناد أي دون نسبتها إلى مصدر ما. ولعلها مأخوذة من مصادر شفاهية لم يشأ الطبري أو غيره أن يذكرها لسبب ما سياسي أو غيره!! ولعلها كانت جزء مما شاهده هو أو حفظته ذاكرته. ومهما يكن من أمر فإن هذه المعلومات تبقى موضع نقاش وشك حتى يثبت الباحث صحتها.

وملاحظة أخرى لابد من ذكرها وهي أن الرواد من المؤرخين نادرًا ما يذكرون وجهات نظرهم الخاصة، بل أنهم يقفون في معظم الأحيان موقفًا حياديًا من الأحداث ويتركون للقارئ حرية الحكم أو تكوين وجهة نظر خاصة به من خلال مجموعة الروايات التاريخية التي يقرأها. على أنه من جهة ثانية نلاحظ أن لهؤلاء الرواد من المؤرخين طرائق وأساليب أخرى للتعبير عن موقفهم أو وجهة نظرهم من الحادثة. فالطبري وخليفة بن خياط مثلاً يعبران عن وجهة نظر نقدية حين سردا أكثر من ثلاثين رواية مختلفة عن حادثة واحدة، فالمقابلة والمقارنة بين الروايات، وكذلك استعمال بعض الاصطلاحات الدالة تجعل القارئ يدرك بأن الطبري أو غيره يفضل هذه الرواية على غيرها أو يرجح هذا التفسير على التفاسير الأخرى. فهو حين يستعمل مثلاً كلمة (زعم) أو (وأما فلان فقد ذكر) أو (وحدّث) فإنه يظهر عدم اطمئنانه لهذه الرواية وهكذا.

ومن نقاط الضعف لدى بعض المؤرخين الرواد أمثال اليعقوبي وابن أعثم الكوفي وابن الأثير وفي مواضع في الطبري استعمالهم (الإسناد الجمعي) أي ذكر المصادر وسلسلة الرواة في بداية الموضوع وبهذا لا يمكن التأكد من رواة الأحداث والجزئيات في الموضوع الواحد.

وقد أخذ على الطبري وجيله من المؤرخين الرواد أنهم اهتموا بالنواحي السياسية والعسكرية أكثر من اهتمامهم بحياة المجتمع واتجاهاته وفعالياته وبالتيارات الثقافية والحضارية فيه، كما أنهم اهتموا بالأقاليم المركزية من دولة الخلافة دون الأقاليم البعيدة أو تلك التي تقع في الأطراف، كما اهتموا بالخلفاء والحكام دون الجماهير فهم يقسمون تاريخهم على أساس عهود الخلفاء الذين

اعتبروهم المركز الذي تتبلور حوله الأحداث، مقابل ذلك ليس هناك اهتمام بالرأي العام العربي الإسلامي ودور الجماهير في أحداث التاريخ.

ولعل فيما أورده المؤرخون من جيل الطبري باهتمامهم بالأحداث السياسية والعسكرية هدف قصد به الرد على الذين شككوا بأهمية دور العرب في التاريخ، فكان المؤرخون الرواد يسردون بالتفصيل ذلك الدور القيادي الذي أثبت وحدة الأمة وتماسكها عبر فترات صعبة وحرجة. كما وأن هؤلاء المؤرخين أبانوا في مناسبات كثيرة دور الرأي العام والجماهير في صنع الأحداث والتأثير فيها. ومن هنا نلاحظ بأن بعض تلك الملاحظات حول الطبري وجيله مبالغ فيها. ثم إنّ التاريخ الحضاري للأمة محفوظ في مصادر أخرى مثل الطبقات والتراجم.

المغزى من إعادة كتابة التاريخ:

هل هناك ضرورة أن نعيد كتابة تاريخنا بين فترة وأخرى. هل لك إضافة في هذا الموضوع؟

إعادة كتابة التاريخ مسألة حتمية، فالتاريخ كتب ويكتب وتعاد كتابته لأن الظروف والمفاهيم والمستجدات تتغير وتتبدل من عصر إلى آخر وتبعًا لها ينظر إلى التاريخ من خلال تلك الظروف والمفاهيم الجديدة.

فالتاريخ إذن مرتبط بالشعب وأن ما يكتبه المؤرخون في فترة من الفترات يفترض فيه أن يساعد الأمة على تبين الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه والموقف الذي يجب أن تتخذه. كما وأن ما يكتبه المؤرخون يساعد على شحذ الأمة بالهمة وبالعزيمة أثناء الأزمات والمحن.

هذه هي الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لا يؤديها غير التاريخ ومن هنا وجب إعادة كتابة التاريخ بين فترة وأخرى وحسب الظروف التي تمر بها الأمة والمفاهيم التي تسود فيها في تلك الفترة، فيكون التاريخ بذلك خير معين وأقوى عامل في تحقيق الوحدة والتماسك وشد العزائم وبناء الصمود ضد التحديات.

إن الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ من خلال إبراز أحداث ووقائع ومثل تناسب مفاهيم العصر ومتطلبات الظروف المستجدة يجب ألا تزيف التاريخ ولا تبالغ فيه، ولا تحمل النصوص أكثر مما تتحمله، بل يجب أن تكون موضوعية ومنهجية وعلمية مما يكسبها ثقة المواطن والمثقف العام قبل النخبة المختصة.

ما هي تجربتك في كتابة التاريخ:

إن تجربتي في الكتابة التاريخية مرت بمنعطفين مهمين: الأول أثناء إعداد أطروحتي للدكتوراه في جامعة لندن بإنكلترا. حول موضوع (طبيعة الدعوة العباسية) وكان الموضوع يستدعي أن أقرأ الكثير من مصادر أولية ومراجع حديثة. وقد تيسر لي - والحمد لله - أن أطلع على مخطوطات جديدة لم تكن معروفة لدى المؤرخين قبل ذلك التاريخ سنة 1967م. وقد تمكنت أن أثبت عروبة الثورة العباسية وأدحض عنها السمة الفارسية. إن قبول رسالة دحضت رأيًا متعارفًا عليه ومقبولاً في أوساط المستشرقين كان نجاحًا مهمًا ومنعطفًا في مسيرتي في التاريخ.

أما المنعطف الثاني فقد حدث حين دعيت إلى المشاركة في الكتابة في الموسوعات التاريخية ودوائر المعارف الإسلامية مثل الانسكلوبيديا الإسلامية والانسكلوبيديا البريطانية. وقد وجدت وأنا أكتب وأبحث في تاريخنا مقدار الخلط والتحريف والتشويه الذي تعرّض له تاريخنا وحضارتها، وبدأت منذ ذلك الحين أدون ملاحظاتي على قصاصات من الورق حول كل ظاهرة وكل حركة دينية - سياسية حتى تجمع لدي الآلاف من هذه القصاصات. وبعد تنسيقها إذا بها تخرج على شكل أفكار منظمة أخرجتها فيما بعد على شكل مقالات وكتب فيها إعادة تقويم وردود على الأفكار الشعوبية والآراء الاستشراقية لعل أهمها: كتابي الذي طبع عدة مرات في بيروت وبغداد والموسوم "التاريخ الإسلامي فكر القرن العشرين".. وباختصار فهو نموذج لإعادة كتابة التاريخ العربي الإسلامي بنظرة ذاتية شمولية تعتمد المصادر الموثوقة وبتفسير عربي غير متأثر بنزعات محلية محدودة الأفق أو ضيقة، ولا أسير النظريات الاستشراقية أو التيارات ذات النظرة المسبقة بل يعتمد الموضوعية في التفسير والمنهجية العلمية في البحث والتحليل، وهذه هي الخطوط العريضة لمنهجي في كتابة التاريخ.

نزعتان في أعماقي!

لكن يا دكتور فاروق لماذا اخترت التاريخ موضوعًا للتخصص، ولماذا اخترت المؤرخ مهنة في الحياة.. ؟

إنني أشعر بأن التاريخ فرع مهم وخطير من المعرفة الإنسانية سواء في تدريسه بصورة علمية وعميقة في الجامعات المتخصصة أو في تقديمه للمثقفين غير

المختصين ولجماهير الناس. لأن التاريخ هو عملية توجيه وتوعية متكاملة ولأنه عملية تعبئة وسند حقيقي لأية أمة من أمم الأرض، والأمة التي ليس لها تاريخ يغوص في الجذور ليست أمة حية ولا تصمد أمام الأزمات التي تواجهها.

إن كتاباتي في التاريخ تحاول أن ترضي نزعتين متأصلتين في أعماقي. الأولى الكتابة كمؤرخ مختص محترف على نطاق الجامعة، والثانية الكتابة للناس من أجل نشر الثقافة التاريخية بين غير المختصين. ولهذا تراني أألف كتبًا تخصصية أكاديمية للجامعة وبنفس الوقت أكتب في المجلات والجرائد في موضوعات تاريخية عديدة وعن أحداث الساعة وما يتصل بجذورها التاريخية.. وهذا ما جعل البعض يقول بأنني جعلت من المؤرخ صحفيًا، وكان المؤرخ لابد له أن يجلس في برج عال بعيدًا عن الناس. ومع ذلك فإن هذه الأقاويل لم تزعزع يقيني بأن وظيفة المؤرخ في العصر الصعب الذي نعيشه لابد أن تكون ذات محورين: الكتابة الأكاديمية المتخصصة والكتابة لنشر الثقافة (ثقافة المعرفة) التاريخية والوعي التاريخي بين الناس. ولكي أدلل على قناعتي هذه فقد اقترحت على هيئة كتابة التاريخ في العراق إصدار سلاسل هدفها الثقافة العامة ونشر الوعي بالتراث والحضارة.

وهذه نماذج من الحوار الذي دار بينه وبين محرر جريدة القادسية (بغداد):

عالم المستشرقين:

أجاب الدكتور فاروق عن خمسة أسئلة في حقيقة المستشرقين وأخطائهم في كتابة تاريخنا، وأهدافهم في تشويه هذا التاريخ، قال:

إن المستشرقين هم مؤرخون أوربيون طبقوا مناهج البحث والفرضيات والأساليب التاريخية التي ظهرت في أوروبا على تاريخ الشرق. ومع إدراكنا لوجود نخبة جيدة من المستشرقين المنصفين، إلا أن هدف "مؤسسة الاستشراق" هو طمس المعالم الرئيسية لتاريخ العرب والمسلمين وتجريدهم من كل قدرة على الإبداع متوسلين بشتى الأسلحة العرقية والدينية واللغوية.. التي تقتضيها "النظرة الاستعلائية"، ولذلك فهم يزعمون على سبيل المثال لا الحصر أن الحكم العربي من الصين إلى جنوبي فرنسا ما هو إلا خطأ عابر في مجرى التاريخ.. فتأمل!!

وإلى جانب النظرة الاستعلائية لعدد من المستشرقين هناك "الموقف الانتقائي" الذي يختار من الروايات والنصوص ما يخدم غرضه ويعزز نظرته المسبقة، فإذا ما

انتقلنا إلى ميدان الفكر والحضارة العربية الإسلامية سنلاحظ أن المستشرقين ركزوا على فرضيتين ما تزال آثارهما تتكرر فيما أصدروه من كتابات وبحوث حضارية:

الأولى: أن العرب لم يلعبوا إلا دور النقلة للتراث الحضاري القديم (اليوناني مثلاً) حتى تسنى لهذا التراث أن يعود إلى أوروبا في عصر النهضة. فحين درس المستشرقون التراث الثقافي العربي الإسلامي لم يركزوا إلا على ما اعتقدوا أنه مظاهر وآثار يونانية في هذا التراث ولذلك جاءت صورة الفكر العربي في دراساتهم مشوهة وغير كاملة، ذلك لأن تراثنا العربي الإسلامي متعدد الجوانب زاخر بالمعاني. والمهم من كل ذلك أنه نابع من البيئة العربية الإسلامية أولاً وقبل كل شيء.

الثانية: يدّعي المستشرقون أن من برز وتميز من العلماء في المجتمع العربي الإسلامي هم من غير العرب.. وهذا غير صحيح وقد دحضه العديد من المؤرخين الأوربيين قبل المؤرخين العرب والمسلمين، وواضح أن هدف هذا النمط من المستشرقين - كما هو هدف الشعوبيين - هو الحط من العرب وإنكار دورهم الحضاري وإبداعاتهم الأصيلة في تاريخ الحضارة الإنسانية. فالحضارة الأصيلة تأخذ وتعطي والعرب والمسلمون أخذوا من التراث القديم وهضموه ثم أبدعوا نتاجًا جديدًا.

لقد نشر المستشرقون العديد من المصادر والمظان العربية وذلك بتحقيقها عن المخطوطات الأصيلة المحفوظة في المكتبات الأوربية، ولكن تحقيق بعضهم لم يكن دقيقًا وفيه من المغالطات والتشويه للنصوص القديمة والتعليق مما يخرج النص عن معناه، ذلك لأنهم أدخلوا مذاهبهم الفلسفية والسياسية ومصالح بلدانهم في ذلك كله. على أنني وأنا أزعم ذلك لابد لي أن أقول أن هناك من بين المستشرقين من يخرج عن هذه الموجة العارمة لمؤسسة الاستشراق.

كتابة التاريخ بين الفرد والجماعة:

أيهما أفضل في كتابة التاريخ: الفرد أم اللجنة، ولمن يميل الدكتور فاروق عمر... وأسباب ذلك ؟

لا أعتقد أن هناك كتابة جماعية للتاريخ.. ذلك لأن الإنسان المثقف وخاصة المؤرخ يختلف في شخصيته وبالتالي كتاباته عن أي شخص آخر تمامًا كما يختلف إبهام شخص ما عن إبهام شخص آخر.

والمؤرخ وخاصة المؤرخ المبدع لابد أن يكون بطبيعته متحليًا بشخصية فردية Individualist وأن هذه الشخصية المتفردة تفرض نفسها على كل كتابات المؤرخ. ومن هنا لا يظهر الإبداع في الكتابة عن طريق اللجان بل عن طريق الفرد.

لقد اشتركت في عدة لجان لتأليف كتب منهجية للجامعة، أو ثقافية تاريخية لوزارة الثقافة، ومن تجربتي الخاصة أنه حتى في اللجان المشتركة يكون الميل إلى تقسيم الكتاب إلى فصول ويأخذ كل كاتب فصلاً يكتبه لوحده مستقلاً عن اللجنة!! فأين العمل الجماعي من ذلك حيث لا يبقى لرئيس التحرير إلا التنسيق بين الفصول، وإخراج الكتاب بشكل مقبول.

وبهذا فإن كتب اللجان هي بالاسم فقط، أما بالحقيقة فهي كتب مؤلفة من فصول مستقلة في مؤلفها ومادتها.

وهناك ظاهرة سلبية في اللجان هي أن المؤلف محدد فيما يكتبه من حيث الكم والكيف فقد تقترح اللجنة بعد إنجاز مسودة الكتاب حذف هذه العبارة أو تلك الفقرة أو عدم مناقشة هذه الفكرة وحينذاك قد يرضخ المؤلف إلى الأغلبية رغم أنه لا يعتقد بصحة رأيها!!

وما هي اقتراحاتك في تطوير المناهج ؟

إذا كان لي أن أقترح اقتراحًا واحدًا في هذا المجال أقول لابد لأقسام التاريخ أن تزيد من اهتمامها بمادة "منهج البحث التاريخي" وتجعل من هذه المادة دراسة نظرية وعملية في نفس الوقت يتلقى خلالها الطلبة محاضرات في طرق البحث ومنهجه وأساليب كتابة التاريخ. بمعنى ما هي أنواع الأساليب لعرض التاريخ كتابة وتدريسًا؟ لابد أن يتلقى الطلبة دروسًا في تحليل النصوص التاريخية من مختلف المصادر القديمة والأصلية لتمكين الطلبة من تفهم النصوص وأساليب كتابتها والمنهج الذي سار عليه الأقدمون في الكتابة التاريخية، فالطبري على سبيل المثال حين يروي أخباره يسندها في الغالب بسلسلة من الرواة. وأن هذه الأخبار لا يمكن الانتفاع بها إلا بالرجوع إلى تراجم رواتها لمعرفة مدى الثقة بهم. وأن كتب مصطلح الحديث تبين صفات الراوي الثقة وأن العِلم بذلك من لوازم الاشتغال بالتاريخ الإسلامي، وللحقيقة والتاريخ ليس هناك أمة من الأمم عنيت بتمحيص الأخبار ومصادرها مثل أمتنا فهناك تراجم لنصف مليون رجل أسهموا في تقديم الأخبار التاريخية التي لا

يمكن توثيقها إلا بعد فحص الرجال الذين تناقلوها؛ أليس في هذه الحقيقة ما يغرس روح الاعتزاز لدى طلبتنا بأن تاريخهم ينفرد بهذه الدقة والموضوعية، كما وأن ذلك يعوّد الطلبة على عدم التسليم بالأخبار إلا بعد التحقق منها وأن ليس كل ما يروى يُعد صحيحًا.

وهل ثمة مظاهر تعرقل تطور دراسة التاريخ ؟

لابد لي هناك أن أشير إلى ظاهرة ملفتة للنظر وهي زيادة اهتمام الجامعات بالعلوم الطبيعية وكأنها العامل الوحيد لقياس تقدّم المجتمع وتطوره نحو الأفضل. ولكن القوة المادية المبنية على العلوم والتكنولوجيا لا يمكن لوحدها أن تبني المجتمع الذي يبقى محتاجًا إلى القيم الإنسانية والمثل الخلقية التي نستمدها من العلوم الإنسانية.

ولذلك فإنني أرى بأن هذه "الفورة" في الاهتمام بالفروع العلمية أكثر من الإنسانيات ستنتهي وسيعود الاهتمام بالعلوم الإنسانية في مضمار البحث العلمي لحاجة المجتمع أكثر من أي وقت مضى إلى القيم والمثل الأخلاقية والمعنوية التي ترشده وتوجهه التوجيه الصحيح. وأكثر من هذا فإنني أدعو إلى إلغاء الانفصام القائم بين العلوم الطبيعية والتطبيقية من جهة والعلوم الإنسانية من جهة أخرى. فقد بات من المطلوب أن يتخرج في الجامعة أو مراكز البحوث علماء لا تكون مهمتهم مجرّد صناعة التكنولوجيا ولكن في الأساس إيجاد العقول التي تدرك كنه الشكل الحضاري المطلوب أن نعيش فيه.

إن بحوث العلوم الطبيعية التي تنتج أدوات التدمير كما تنتج الدواء للمرضى يجب أن تخضع لتوجيه المناهج الفكرية للعلوم الإنسانية أو لعقليات متشبعة بشمولية العلوم الإنسانية. وهذا لا يتأتى إلا بإزالة الفواصل بين العلوم الطبيعية والإنسانية. وقد قيل "إن الحقيقة لا تظهر من خلال نوافذ التخصص الضيقة التي تطل دائمًا صوب اتجاه واحد. وإنما تدرك من خلال البحث في الكل المتكامل والمترامي بلا فواصل".

ولو أعطيناه مجالاً واسعًا لقال كلامًا أكثر في الجامعة ولأغضب فيه متزمتين ومتشائمين، وهو شأن الدكتور فاروق عمر فوزي في كل مذاهبه في الحديث عن التاريخ وأساليب تدريسه وكتاباته، وشأنه من تجربته أو موهبته التي صقلتها معاناة

الدرس والاجتهاد والتأمل. وميزته في هذا، أنه لا يعطي عقله مرة واحدة، ولا يعطي أحكامه إلا جرعة جرعة، وهو سر جديده بل سر اجتهاده في تقديم التاريخ.

وما هي رؤيتك في تنوع تفاسير التاريخ ؟

إن رؤيتي فيه أو بالأحرى المفهوم الذي تبلور في ذهني حوله ينطلق من الفكرة القائلة: إنني من حيث المبدأ لا أعترض على تنوع التفسيرات - وهي كثيرة - وأجد أن الوقائع التاريخية لا يضيرها أن تفسر تفسيرات مختلفة. فقد أظهرت هذه التفسيرات العديد من الحقائق بعد أن سلّطت الضوء عليها فأغنت معلوماتنا وزادت فائدتنا.

إلا أنني أجد أن هذه التفسيرات ينبغي أن تتوفر على شرط أساس هو أن تعتمد الطريقة المنهجية في البحث التاريخي فتستند إلى وقائع ثابتة، ولا تعتمد "النظرة المسبقة" التي تخضع الأحداث لتفسير محدود وضيق الأفق لتخرج بنتائج مقصودة ربما تصل إلى مستوى التزوير للظاهرة التاريخية. وهذا ما حدث للتاريخ العربي قديمًا وحديثًا.

ولكن دعوتي في اتباع الطريقة المنهجية وقواعد البحث العلمي في التاريخ.. لا أريد لها أن تكون جافة لأن ذلك سيفقد البحوث والكتب التاريخية شعبيتها ويؤثر على انتشارها في أوساط المثقفين من غير المختصين. وهنا أؤكد على الأسلوب وطريقة العرض.

هل تعتقد بجدوى النشر في المجلات والصحف ؟ ولماذا ؟

نعم أعتقد ذلك لأن الأكاديمي يجب ألا يحصر نفسه في إطار الجامعة ومجلاتها العلمية بل يخرج بأفكاره إلى المجتمع الأوسع، فالجامعة وجدت لخدمة المجتمع، ثم إنني أعتقد بأن التاريخ يكوّن جزءًا رئيسيًا من ثقافة المجتمع الواعي سياسيًا والمنفتح حضاريًا، وأنّ من مهام المؤرخ المساهمة في ثقافة المجتمع.

ولا زلتُ أذكر أن أول مجلة نشرت فيها وأنا في السنة الأولى من تخرّجي هي (مجلة المكتبة) العراقية التي كانت تصدرها مكتبة المثنى وصدر المقال عن (أهمية كتاب خليفة بن خياط)، سنة 1968م، كما نشرت لي (مجلة الأقلام) بغداد في السنة نفسها مقالاً عن (موقف المعتزلة السياسي من العباسيين)، أما أول مجلة عربية تنشر لي فكانت (مجلة العرب) التي تصدر بالرياض حيث نشرت لي مقالاً سنة

1968م عن الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية، وشهدت السبعينات سلسلة مقالاتي المتتابعة في مجلة (آفاق عربية) وكلها مجلات تخاطب المثقف العام. وهذا ما دعى البعض من المنافسين في المهنة والحاسدين إلى القول أنني جعلت من المؤرخ صحفيًا ومن التاريخ ثقافة شعبية صحفية.

كيف تنظر إلى المكافئات على أعمالك ؟

في البداية لم أكن أهتم بالمكافئة قدر اهتمامي بنشر المقالة أو ظهور الكتاب. وقد نشرت أوائل كتبي لأنني صرفت عليها من جيبي الخاص، فلابد للمؤلف أن يضحي ويتعب ويصرف من أجل أن يعرّف بنفسه ثم بعد أن يثبت قدرته يبدأ الناشرون بالاتصال به، ومع ذلك فإن المؤلف يبقى الخاسر ماديًا الرابح دومًا معنويًا. فدور النشر غدت مؤسسات تجارية وانضم الناشر إلى تاجر مع وجود حالات استثنائية.

هل حصلت على أوسمة من خلال نشر كتبك ؟

إنني أعتبر نشر كتاب أو بحث وسامًا بحد ذاته فلذلك فإن لديّ أوسمة بعدد الكتب التي ظهرت لي وبعدد المقالات التي نُشرت لي.

ومع ذلك فلقد حصل كتابي (طبيعة الدعوة العباسية) على جائزة في معرض ليبزك الدولي للكتاب سنة 1975م، وبسبب كثرة مؤلفاتي ظهر اسمي في مجموعة من كتب السير والتراجم العالمية مثل:

A) Dictionary of International Biography.)

(B) Men of Achievement.

(C) International Who is who of Intellectuals

(D) Who is who in the Arab world

وحصلتُ على وسام (المؤرخ العربي) سنة 1985م الذي يمنح في الأصل للمؤرخين ممن وصلوا إلى مرتبة الأستاذية ولهم بحوث تتصف بالأصالة.

وحصلتُ على جائزة أحسن كتاب من وزارة الثقافة والإعلام العراقية، سنة 1987م، وحصلتُ على زمالة Fellowship (الجمعية الآسيوية البريطانية) في المملكة المتحدة سنة 1978م.

إنَّ أهم كتبي التي أعتز بها .. هي على التوالي: أطروحتي للدكتوراه من جامعة لندن سنة 1967م، طبيعة الدعوة العباسية سنة 1970م، مصادر التاريخ العماني سنة 1979م، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين سنة 1980م، ولا شك أنني أعتز بالعديد من مقالاتي التي لا مجال لذكرها، ولكن مما يزيد اعتزازي بمقالاتي التي نشرت في دوائر المعارف الإسلامية والبريطانية وترجمت من الإنكليزية إلى الفرنسية والألمانية. إن هيئة التحرير اختارتني للكتابة وأنا لا أزال طالبًا في جامعة لندن قبل حصولي على شهادة الدكتوراه !!

ما هي أهم تجربة لك من خلال حراكك داخل المجتمع ؟

هناك تجارب عديدة ولكني أو أن أشير إلى تجربة خرجت بها وهي أن هناك أفرادًا لا يتحركون ولا يسمحون لغيرهم أن يتحرك... فهم لا يساهمون في أية نشاطات علمية أو غيرها ضمن مجالاتهم ولكنهم يتصيدون في الماء العكر فيشهّرون ويشككون ويطعنون بنشاطات الآخرين، هذا هو ديدنهم.. لا يكتبون وينتقدون من يكتب، ولا يتفرغون علميًا ويعيقون من يرغب بالتفرغ العلمي ليحتك بالجامعات الأخرى أو يثري معلوماته، ولا يشاركون في المؤتمرات العلمية ويحولون دون مشاركة غيرهم. أنا أدعوهم أن يتحركوا وأن يشاركوا غيرهم في العمل، لأنَّ ما يفعلونه ليس له رصيد لا في الدنيا ولا في الآخرة، وأن موقفهم فيه إعاقة لتقدم المجتمع والجامعة.

بمن تأثرت من الكتّاب أو المؤرخين ؟

في بداية الشباب وفي مرحلة الثانوية والسنة الأولى في الكلية اطلعت في مكتبة جدي في بغداد قرأتُ كتابات درويش المقدادي وساطع الحصري وجورج أنطونيوس وما تيسر من مقالات الكواكبي ومحمد عبده وغيرهم، بالإضافة إلى المجلة العسكرية التي كانت في مكتبة والدي في الموصل.

وفي فترة الكلية حين بدأت الاختصاص الدقيق في التاريخ تأثرت بعدد من المؤرخين منهم من درسني ومنهم من لم يدرسني إلا أنني قرأت كتبهم ومقالاتهم وتوسمت بهم صفات المؤرخ الجاد ذي المنهج الواضح والتفسير العميق والنظرة الشمولية في التاريخ، ولعل عبد العزيز الدوري الأول بينهم، ولا زلتُ أذكر أحدهم الذي كان يتمتع بشخصية نافذة ومعرفة عميقة وإطلاع واسع في مجال اختصاصه

بتاريخ العراق الحديث، وإدراك لحركة التاريخ وأحداثه ومقدرة على تحليلها واستقراء الحقيقة منها دون تحيز أو تحامل. وكان يمتنع عن إعطاء رأي مبتسر أو اعتباطي، وأذكر موقفه من بعض الطلبة المتعصبين لآرائهم، تلك المواقف التي تذكرني بالقول: (العِلم قوة ولكن الخلق أقوى من العِلم)، والواقع أنني تعرفت على هذا الأستاذ لأول مرة من خلال كتبه قبل أن أعرفه شخصيًا في الجامعة فقد صادف أن حصلت على أعلى درجة في مادة التربية الوطنية في الصف الثاني الإعدادي فأهداني مدرس المادة محمود علي الداود كتابًا عن فلسطين لذلك الأستاذ الذي هو زكي صالح، وأنا لا أزال في تلك السن المبكرة. وقد حاول الأستاذ نفسه أن يرشحني معيدًا في قسم التاريخ بعد حصولي على البكالوريوس ولكنه أخفق!!

ما هو موقفك من إهداء وتبادل الكتب؟

إنني لست متزمتًا في موضوع الحفاظ على الكتب والمخطوطات وأرى أن النوادر من الكتب والمخطوطات لابدّ من وضعها في مكتبة عامة لينتفع منها المجموع، ويبدو أنّ هذا الموقف له جذور تعود إلى صباي إذ كنت أتردد على مكتبة الموصل العامة فأرى فيها خزانات خاصة لشخصيات معينة من آل الجليلي أو العمري أو باشعالم والمفتي أو الجلبي وغيرهم أهدت نوادر كتبها ومخطوطاتها للمكتبة من أجل النفع العام. من هنا كان إهدائي لعدد من المخطوطات والرسائل غير المنشورة التي جلبتها معي بعد عودتي من لندن إلى مكتبات كلية الآداب والدراسات العليا والمركزية. كما وأنني لا أحتفظ إلا بنسخة واحدة من الكتاب الذي أنشره وأهدي البقية الباقية للزملاء والطلبة.

إن الهدية تجلب الهدية ولهذا تضم مكتبتي عددًا من الكتب المهداة من مؤلفين أعرفهم أولا أعرفهم فنحن نعرف بعضنا من خلال كتبنا، وقد وصلت إليّ كتب من اليابان وتونس والويلايات المتحدة وجيكوسلوفاكيا من مؤلفين لا أعرفهم شخصيًا. كما إنني أخص الطالب الذي يحصل على أعلى درجة في مقرر التاريخ بهدية كتاب نشرته تشجيعًا وتذكرة، وهذا تقليد علمني إياه أساتذتي في الموصل.

وبطبيعة الحال فأنا أعتز بالكتب المهداة من أساتذتي وزملائي ولا يسعني إلا أن أذكر هنا بالعرفان كلمة للمرحوم الدكتور ناجي معروف حين أهدى لي كتابه الموسوم (عروبة العلماء المنسوبين إلى أرومة أعجمية) حيث قال: "أنا وأنت نسير على خط

واحد فأنت أثبتت عروبة الشخصيات السياسية والعسكرية في الدعوة العباسية التي نسبت إلى بلاد فارس زورًا، وأنا أثبت عروبة العلماء المنسوبين إلى أرومة أعجمية باطلاً ونرجو الله تعالى أن يبارك في الجهود التي تعمل على إحقاق الحقيقة ودحض المفتريات".

وبالمناسبة أود أن أشير بأنني اقترحتُ على المكتبة العامة المركزية بالموصل وعلى مكتبة اتحاد المؤرخين العرب ببغداد [2] قبول مجاميع من كتبي الخاصة على سبيل الإهداء مقابل عمل خزانة خاصة بي داخل مكتباتهم وتعهدتُ بأن أزوّد تلك الخزانة بالكتب باستمرار وخاصة للكتب والبحوث التي أنشرها أنا، ولكن ظروف العراق حالت دون الاستمرار في خروج الفكرة إلى حيز التنفيذ.

هل لك أن تتكلم عن مكتبتك الخاصة ؟[3]

تعود البدايات الأولى لتكوين مكتبي الخاصة إلى مجموعة الكتب التي كان والدي العقيد عمر فوزي رحمه الله يحتفظ بها. فقد كان يقتني مجموعة من الكتب العسكرية بعضها يتعلق بتاريخ الحرب أو الجغرافية العسكرية أو الحرب النفسية والإعلامية وحرب المدن والشوارع والحرب الذرية وبعضها يبحث في القيادة والزعامة ومنها تراجم لكبار القادة العسكريين أو مذكراتهم. إضافة إلى المجلات العسكرية الدورية وفي مقدمتها المجلة العسكرية العراقية التي كانت ذات مستوى علمي مرموق بين المجلات العسكرية في الوطن العربي.

إن هذا الزخم الكبير من الثقافة العسكرية التي تصل إلى العسكري العراقي إن دل على شيء فإنما يدل على مدى عناية وزارة الدفاع العراقية بثقافة المقاتل العراقي وقوة معنوياته حيث أثبتت التجارب أنها من العوامل الرئيسية في تحقيق النصر والصمود. وهكذا بدأ حبي للكتاب والمكتبة منطلقًا من مكتبة والدي العسكرية وما أزال أتذكر الأوقات المفيدة والسعيدة التي قضيتها بين هذه الكتب والمجلات والتي زادت من ثقافتي العسكرية إلى حد كان ينال إعجاب زملائي في المدرسة.

وفي مرحلة الدراسة الثانوية بدأت جهودي الذاتية بجمع كتب خاصة بي، ونظرة سريعة إليها تكشف عن ولعي بكتب التاريخ ولعل سبب ذلك يعود إلى إعجابي بمدرسي مادة التاريخ في الابتدائية والإعدادية والثانوية في الموصل وما أزال أذكر

طريقة تقديمهم لتاريخ الأمة والوطن وإخلاصهم واعتزازهم بالتاريخ مما جعلني منذ صغري أتعلق به وأختار الكتابة فيه مهنة لي طوال حياتي.

وبعد قبولي في الجامعة انتقلت من الموصل إلى بغداد حيث أقمت في دار جدي العميد المتقاعد قاسم مقصود الحاج زكي وفي مكتبه تعرّفت أول مرة على كتب درويش المقدادي وساطع الحصري وجورج انطونيوس وغيرهم من رواد الفكر القومي. ومن خلال هذه الكتب وغيرها وأحاديثي مع جدي توضحت لدي العديد من الأحداث مما دونه التاريخ أو مما أهمله ولم يدونه. وفي هذه المرحلة بالذات بدأ عدد الكتب في مكتبتي بالزيادة والتنوع ذلك أنني كنت أحاول أن أشتري قدر المستطاع نسخة من الكتب المقررة علينا في كل موضوع وبذلك تجمعت لدي خلال أربع سنوات جامعية مجموعة لا بأس من الكتب في اختصاصات متنوعة.

وفي انكلترا حيث سافرت في بعثة لدراسة التاريخ الإسلامي بدأت عملية منتظمة لتكوين مكتبة لي متخصصة في التاريخ. ورغم ولعي بالتاريخ الحديث فقد شاءت الصدف أن أحصل على بعثة في التاريخ الإسلامي الوسيط، وكنت أصرف ما تبقى من راتبي على شراء كتب تاريخية في الاختصاص فصارت لدي مجموعة كبيرة من الكتب بالعربية والانكليزية، كما اقتنيت الانسكلوبيديا الإسلامية، ولكنني لم أستطع أن أتخلص من ولعي بالتاريخ الحديث حيث كنت أشتري ما يعجبني من كتب في تاريخ العراق أو العرب، وحين عودتي إلى الوطن بعد انتهاء دراستي كانت مكتبتي التي جلبتها معي تضم كل هذه الكتب بالإضافة إلى مجموعة قليلة من المخطوطات العربية ذات العلاقة بموضوع اختصاصي الدقيق.

على أن أهم ما تحتويه مكتبتي، من وجهة نظري، هي تلك المقالات والبحوث التاريخية التي كنت أصورها من المجلات العلمية وأحتفظ بها للاستفادة منها مستقبلاً سواء في التدريس أم البحث، وقد تجمعت لدي مئات المقالات في مواضيع متنوعة وفترات مختلفة في التاريخ. وهذه الطريقة لها فائدتها العلمية التي أشرت إليها بالإضافة إلى أنها لا تشغل إلا حيزًا صغيرًا في المكتبة إذ قورنت بالكتب والمجلات. كما وأن مكتبتي ما تزال تضم المادة التاريخية التي جمعتها على بطاقات خلال عملية جمع المادة لأطروحة الدكتوراه. فالمعروف أن طالب البحث لا يستغل سوى نصف المادة التي جمعها في كتابة أطروحته فإذا ما اعتنى بالمادة المتبقية وصنفها وعرف كيف يستفيد منها فإنها معين لا ينضب لعدد آخر من البحوث

والمقالات التي يمكن أن ينشرها خلال مشواره العلمي. وهذه نصيحة أوجهها لطلبة الدراسات العليا وطالما ذكرتها لطلابي في قسم التاريخ في كافة الجامعات التي عملت فيها.

أما إذا سألتني عن مكتبتي في الدار التي استقر فيها فأقول بأن الطريف في الأمر بأن الدار كلها تبدو وكأنها مكتبة ذلك لأن الكتب لم تجمع في غرفة واحدة، بل وزعت في عدة غرف، ففي غرفة الجلوس والاستراحة هناك مكتبة تضم كتب الثقافة العامة من قصة وأدب وشعر وقانون عام وطب عام وفن وموسيقى وغيرها مما تحتاجه العائلة بصورة عامة. وفي غرفة الاستقبال هناك مكتبة تضم كتب الرواد من المؤرخين وكتب التراث والموسوعات إضافة إلى مجموعة من كتب الأدب الانكليزي وهو موضوع اختصاص زوجتي ليلى وجيه علي التي تحمل الماجستير في الأدب الانكليزي. وهناك مكتبة ثالثة في غرفة الأطفال تضم ما يخصهم من كتب الأطفال والقصص والتراث التاريخي والديني، والأخلاقي المبسط، وأخيرًا وليس آخرًا هناك غرفة مكتبتي الخاصة التي أقرأ وأكتب فيها وتضم كتب الاختصاص في التاريخ والعلوم المساعدة وتشمل الكتب الأكثر عددًا ونوعًا بين مكتبات الدار. ويبدو لي أن هذه الطريقة في توزيع الكتب في غرف عديدة أكثر نفعًا ويسرًا لنا رغم أنها بعثرت الكتب وقللت من هيبتها!! تلك الهيبة التي لابد أن تظهر بها لو أنها جمعت في مكان واحد من الدار.

ومكتبتي دون شك تنمو وتزداد باستمرار سواء عن طريق الاقتناء أو تبادل الهدايا مع الزملاء.

في الستينات والسبعينات اقتنيت كل كتاب مفيد يعجبني، أما الآن فبسبب ارتفاع أسعار الكتب وعدم توفر المكان الكافي فإنني أدقق في شراء الكتاب، فالكتاب ليس ديكورًا للزينة يوضع في مكتبة أنيقة وإنما مادة مفيدة يحتاج إليها الإنسان... من هنا أعتقد أن الكاتب لا يستغني إطلاقًا عن المكتبات العامة والجامعية التي تحوي عادة عشرات الألوف من المصادر، وأنا بالفعل أرجع دومًا إلى مكتبة الكلية والجامعة لمطالعة كتاب غير موجود في مكتبتي الخاصة.

أما فيما يتعلق بمنهجي في القراءة والكتابة في مكتبتي الخاصة.. فإن ذلك تتحكم فيه طبيعة مهنتي كأستاذ جامعي مسؤوليته الأولى التدريس وما يترتب عليه من تحضير وإعداد للمحاضرة، ومسؤوليته الثانية البحث العلمي في مجال

الاختصاص، إضافة إلى الإشراف على أطروحات طلبة الدراسات العليا وتوجيهها الوجهة الصحيحة.

لقد عملت مشرفاً عاماً لبيت الحكمة فما هي تصوراتك عن دورها الثقافي ؟ [4]

لقد اضطلعت مؤسسة (بيت الحكمة) البغدادية في العصر العباسي بمهمات علمية وثقافية كبيرة، فكانت خزانة غنية بالكتب في العلوم الصرفة أو التطبيقية التي كانت تسمى بالعلوم العقلية أو "علوم الأوائل" أو ما يختص منها بالعلوم اللسانية والاجتماعية وغيرها وهي ما يطلق عليها بالإنسانيات.

لعل الأهم من هذا أن هذه المؤسسة اضطلعت بعملية الترجمة من اللغات الأجنبية من يونانية وهندية وغيرها إلى اللغة العربية حيث أصبحت عملية الترجمة بإشراف هذه المؤسسة عملية منظمة مدعومة من قبل الدولة العباسية لا تقتصر على جهود شخصية ورغبات فردية بل تنتظم عبر جهود جماعية هادفة تبتغي خدمة المجتمع والعمل على تقدمه حضاريًا.

حسناً .. الآن .. ما هي الأسباب .. أو لنقل: ما أهمية تأسيس بيت الحكمة؟

"إن هذه المؤسسة تضطلع بالمسؤوليات العلمية والثقافية نفسها التي كانت تتحملها مؤسسة (بيت الحكمة) في عصر الازدهار الحضاري في الفترة العباسية، وتتشعب هذه المسؤوليات لتشمل، إضافة إلى النطاق الجامعي، النطاق الثقافي العام في القطر، ومن ثم فيما بعد الوطن العربي والعالم".

ويوضح الدكتور فاروق عمر بأن عمل المؤسسة يتشعب إلى ثلاثة محاور رئيسية: النشر والترجمة والتوزيع.. وبما أنها مؤسسة جامعية فهي تركز على الكتاب الجامعي المؤلف والمترجم والمحقق.. فتنشره لتعم فائدته على الطلبة الجامعيين أولاً ثم توزعه محليًا وعربيًا وعالميًا ليصل نتاج الأستاذ الجامعي العراقي إلى أقطار الوطن العربي والعالم أجمع.

ألا تعتقد بأن هناك ازدواجية بين عمل (بيت الحكمة) مع الدور الأخرى مثل دار (المأمون) و(دار الشؤون الثقافية) ...؟

لا أعتقد ذلك.. فإن عملنا وتحركنا ينصب ويركز بالدرجة الأولى على أستاذ الجامعة.. ويقينا فإن مؤسستنا تعتمد نتاجات الكوادر الجامعية وأن نجاحها مرهون

بتعاون الأساتذة معنا وبجهودهم العلمية المتميزة في دعمنا كمؤسسة علمية وثقافية. أما مؤسسات وزارة الثقافة والإعلام فتتعامل مع قطاعات ثقافية أخرى.. هذا رغم أن الأستاذ الجامعي يساهم بنصيب مهم في نتاجات الدور التي أشرت إليها، ومهما يكن من أمر فإن نشاطاتنا وتحركاتنا جميعًا ذات هدف واحد.. وتنصب في رافد واحد ألا وهو بناء المستقبل الثقافي والعلمي المزدهر في قطرنا.

نود أن تحدثنا عن إنجازات بيت الحكمة؟

لقد تأسست بيت الحكمة في حزيران العام الماضي 1986م.. ولهذا لم يمض على تأسيسها وقت طويل.. وقد تأسس لها خلال هذه الفترة مجلس إدارة برئاسة الدكتور طه النعيمي، رئيس جامعة بغداد، وعضوية عدد من الأساتذة والمتخصصين من الجامعة. كما وأن الدوائر المختصة في وزارة التعليم العالي والبحث العلمي بصدد إتمام الإجراءات القانونية والإدارية والمالية لإصدار نظام المؤسسة في القريب العاجل. ومع ذلك فقد اهتمت الدار، منذ البدء، بمتابعة إصدار الكتب المنهجية للمواد الدراسية لأقسام وكليات ومعاهد جامعة بغداد.. وكذلك إصدار الكتب المساعدة والكتب المترجمة إلى العربية، حيث تقوم مديرية مطبعة جامعة بغداد بجهد دؤوب ومكثف لتواكب نتاجات الأساتذة وتعمل على إنجاز نشرها في أسرع وقت ممكن.

ترى هل هناك أفكار لتطوير عمل المؤسسة ..؟

"نعم" فقد اتخذنا خطوات جدية لتطوير عمل المؤسسة.. ذلك أننا نحاول ألا تبقى مهمتنا نشر الكتاب الجامعي.. بل كذلك ترجمة الكتب الأكاديمية الأجنبية المتميزة، وترجمة مجلات علمية مهمة ذات فائدة كبيرة لأساتذة الجامعة وطلبتها.. وكذلك للمتخصصين من أفراد المجتمع ككل. وفي سبيل ذلك فاتحنا الكليات والمعاهد التابعة لجامعة بغداد لتأسيس وحدات للترجمة داخل الكليات والمعاهد مرتبطة من حيث نشاطاتها بيت الحكمة.. وقد تركنا لها حرية الاختيار بالنسبة للكتب والبحوث المنوي ترجمتها على أن تمر بنفس الإجراءات المتبعة في الكتب المنهجية والمساعدة. وقد تألفت وحدات عديدة في الكليات لترجمة كتب في العلوم الاجتماعية والعلوم البحتة والتطبيقية وغيرها من المجالات.. ونناقش الآن مع الكلية الطبية وكلية الهندسة، مثلاً، إمكانية اختيار مجلة اختصاصية مهمة وترجمتها إلى اللغة العربية بصورة دورية.. ولا شك فإن هذا العمل الذي سيقوم به الأساتذة

المترجمون كبير الفائدة للكلية ذاتها.. وسيخدم بصورة غير مباشرة عملية التعريب للعديد من المصطلحات الحديثة في مجالات العلوم والطب والهندسة بصورة خاصة.

وماذا عن التوزيع؟

أما الاتجاه الآخر الذي سنطرقه فهو التوزيع.. والواقع أن قراراً قد اتخذ بدمج (دار الكتب) التابعة للجامعة ببيت الحكمة. ونحن بصدد وضع خطة لتوزيع الكتاب الجامعي العراقي والمجلات الجامعية العلمية على المكتبات.. وبذلك تصل المعرفة الجامعية إلى المجتمع.. كما وأن (دار الكتب) بالتعاون مع (بيت الحكمة) ستعمل على توزيع الكتاب الجامعي العراقي ونشره في الخارج، خاصة وأن هذا الكتاب مرغوب في العديد من أقطار الوطن العربي.. وتصل إلى (دار الكتب) العديد من الطلبات حوله.

وسنعمل على ترجمة بعض الكتب الجامعية العراقية المهمة في الحقول العلمية والإنسانية لمؤلفين بارزين ومعروفين في الأوساط الثقافية الخارجية في الوطن العربي والعالم..

حيث نقوم بترجمتها إلى الانكليزية أو الفرنسية مثلاً.. وننشرها ثم نوزعها في الخارج عن طريق (دار الكتب).. ومعنى ذلك أن النية متجهة لتطوير عمل المؤسسة باتجاهين جديدين عدا اتجاه النشر.. وهما: الترجمة والتوزيع داخل القطر وخارجه..

كيف تتوجهون للقرّاء عامة .. ؟

لقد أشرت أن مهمتنا الرئيسية هي تطوير النشر والترجمة والتوزيع فيما يتعلق بمؤسسات الجامعة.. ومن ثم فإن خطتنا بالتأكيد ستتجه إلى القرّاء عامة.. وذلك عن طريق تسويق الكتاب الجامعي والمجلة العلمية الجامعية في المكتبات داخل القطر وخارجه. هذا من جهة.. ومن جهة أخرى وانطلاقًا من الإيمان بالرابطة الوثيقة بين الجامعة والمجتمع ستصدر (بيت الحكمة) سلسلة باسم (الجامعة والمجتمع) تتناول مواضيع وعناوين لكتب ذات علاقة مباشرة بالمجتمع.

ترى.. بعد هذا الإيضاح المهم: ما هي خطتكم في النشر ؟

إن خطتنا طموحة.. ولعلي أستطيع أن أنقل تصورًا موجزًا لخطة عمل مقترحة عرضتها على مجلس الإدارة لتكون برنامجًا نسير عليه للأعوام القادمة.. ويتضمن المحاور التالية.. فإلى جانب سلسلة الكتب المنهجية والكتب المساعدة وسلسلة الكتب المترجمة لدينا مشروع كتب باسم سلسلة الحكمة وقد تمت مفاتحة كليات جامعة بغداد لترشيح عدد من المؤلفين وما ألفوه من كتب متميزة سابقًا ونافذة حاليًا من الأسواق لإعادة طبعها.

وهناك مشروع آخر هو سلسلة (الجامعة والمجتمع) وهذه السلسلة تتناول مواضيع ذات علاقة بالمجتمع وتقوم بتأليفها مجموعة من الكتاب وهذه تتناول مثلاً المجتمع والتكنولوجيا الحديثة أو العرب وتحديات المستقبل، أو الوطن العربي والغزو الثقافي الأوروبي، وأعلام الفكر العربي ودورهم في الحضارة الإنسانية. كذلك لدينا مشروع آخر هو سلسلة (تحقيق التراث العربي الإسلامي) وهذه السلسلة تهتم بالمخطوطات غير المنشورة لحد الآن لإعادة نشرها إضافة إلى إعادة نشر المصادر التراثية النادرة والتي سبق نشرها من قبل وهي نافذة في الوقت الحالي.. وفي هذا المجال لدينا تنسيق مع مركز التراث العلمي العربي التابع لجامعة بغداد حيث يتم نشر المهم والنافع من هذه المخطوطات. وهناك سلسلة الكتب الفنية التي تتناول حقول الفن المعماري والفن التشكيلي العراقي عبر العصور القديمة والعصور العربية والإسلامية والعصر الحديث إلى جانب ذلك أن هذه المؤسسة تهتم بالوقت الحاضر بنشر كافة نشاطات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي من نشرات وملصقات خاصة بالمناسبات الوطنية والقومية التي تحتفل بها الوزارة وجامعة بغداد.

الهوامش:

(1) ألفا باء، العدد 1034، بغداد، تموز 1988م، ص50، بغداد. التضامن، عدد 168، بيروت، تموز 1986م، ص58.- الحوادث اللبنانية، عدد 1657، بيروت، آب 1988م.- الثورة في 1985/3/25م.- القادسية، بغداد 1987/8/16م.- العراق، بغداد 1986/3/23م.- المؤرخ العربي، بغداد، عدد 32، 1987م.

(2) كتاب اتحاد المؤرخين المرقم أ/620 تاريخ 1989/6/22م.- كذلك رسالة عن مدير المكتبة العامة بالموصل بتاريخ 1989/5/13م.

(3) راجع جريدة الثورة في 1988/10/1م.

(4) راجع ألف باء، العدد 971 في 6 آيار 1987م.- كذلك جريدة الثورة في 1986/10/18م.

الفصل السادس

رحلات "ابن بطوطة.. مكوكية أم ماراثونية

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها ... ولكن أحلام الرجال تضيق

الفصل السادس

رحـلات "ابـن بـطـوطــة"

تمنح جامعة بغداد - استنادًا إلى تعليمات جامعية - العضو التدريسي الأكاديمي "تفرغًا علميًا" لمدة سنة دراسية كل خمس سنوات يقضيها في الجامعة. كما تعير الجامعة عددًا من أساتذتها إلى جامعات عربية وأجنبية لمدد متفاوتة تعتمد على اتفاق بين الجامعتين على شروط "الإعارة".

والواقع أن نسبة ليست كبيرة من الأساتذة يستفيدون من "الإعارة"، ونسبة أقل يتمتعون "بالتفرغ العلمي" لما يترتب على هذا الأخير من التزامات منها أن يعود الأكاديمي وقد أنجز بحثًا في مجال تخصصه كان قد اتفق عليه مسبقًا مع الجامعة. وبعد عودته إلى الوطن يقدم "سمنارًا" يشرح فيه المحاور الرئيسية لبحثه ثم يقدم نسخة من البحث إلى عمادة البحث العلمي.

ولا شك فإن الأكاديميين ينشطون أكثر في مجال "الايفاد" للمؤتمرات والندوات العلمية حيث يشاركون بنسبة معقولة سنويًا بحيث لا يؤثر على سير العملية التدريسية في الكلية وعلى مصلحة الطلبة في تحصيل العِلم.

ومنذ انتمائي إلى قسم التاريخ كلية الآداب بجامعة بغداد في أيلول/ سبتمبر من عام 1967م حاولت أن أستفيد من هذه العروض التي تقدمها الجامعة جهد الإمكان وبقدر ما تسمح به الظروف.

وقد أشرتُ في مبحث سابق أن رئيس قسم التاريخ بجامعة لندن كان قد قدّم لي عرضًا فور انتهائي من المناقشة للبقاء في قسم التاريخ كعضو تدريسي، وكذلك طلبت لجنة المناقشة من جامعة لندن نشر أطروحتي على حساب الجامعة. إلا أن كلا العرضين لم يتما حيث فضّلت العودة إلى العراق لدوافع والتزامات عديدة. وقد حدث أن بدأت بالتدريس مباشرة في قسم التاريخ وحاضرت في التاريخ العباسي (اختصاصي) ومنهج البحث التاريخي لطلبة السنوات المتقدمة، وكان منهم من هو أكبر مني سنًا!!. وفي نهاية السنة الأكاديمية قدم وفد من جامعة الرياض من أجل

التعاقد مع أساتذة في مختلف الاختصاصات. وقد وقع الاختيار عليّ في التاريخ الإسلامي. وكانت فرصة للتعرّف على البلاد وأهلها ولأداء العمرة وزيارة مكة المكرمة والمدينة المنورة. وفي المدة التي قضيتها بين 1968 - 1970م كرّست جهودي على إعداد كتابي (طبيعة الدعوة العباسية)، والجزء الأول من كتابي (العباسيون الأوائل) في طبعته الأولى القديمة؛ حيث نشرتها على حسابي الخاص في بيروت. وفي الوقت نفسه كانت أطروحتي للدكتوراه تطبع في بغداد؛ حيث نشرت (بالإنكليزية) في سنة 1969م.

عدتُ من الرياض سنة 1970م إلى قسم التاريخ في بغداد، حيث تزوجت من ليلى وجيه علي نجا زميلتي في قسم اللغة الإنكليزية بكلية الآداب في تموز 1971م ورزقنا في سنة 1972م بابنتي الأولى هالة وهي الآن "بكالوريوس" في الصيدلة تخرجّت من جامعة البتراء الأردنية في عمّان. وفي هذه المدة التي قضيتها في بغداد بين 1970م - 1977م نشرت كتابين: الأول الجزء الثاني من (العباسيون الأوائل) في دمشق 1973م، والثاني (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية) الطبعة الأولى القديمة في بغداد سنة 1974م.

وفي هذه الفترة قام الملحق الثقافي الأردني بمحاولة لاستحصال موافقة جامعة بغداد على إعارتي إلى الجامعة الأردنية.

ولكن المحاولة لم تنجح لقرب العهد بإعارتي السابقة إلى جامعة الرياض.

كما وحصل في الفترة ذاتها وفي سنة 1975م حصرًا أن فوجئت بتعيني مع نخبة من أساتذة جامعة بغداد لا يتجاوز عددهم الخمسة سفراء في ديوان وزارة الخارجية العراقية. ولم يكن أغلبنا يعلم بهذا القرار الذي كان هدفه - كما أشيع - هو تطعيم السلك الخارجي بنخبة من الجامعيين للارتقاء بمستوى التمثيل الدبلوماسي، فقد كان بعض السفراء قد عيّن سفيرًا بسبب درجته الحزبية ولم يكن يحمل شهادة بكالوريوس جامعية في حينه.

أما بالنسبة لي فقد استغربت حين قرأت الخبر في الجريدة، فلم أستشار ولم أسع ولم أهدف يومًا لكي أكون سفيرًا في وزارة الخارجية، بل كوّنت نفسي وأعددتها على أساس أكاديمي بحت. إلا أن القرار كان نقلاً إلى الخارجية وكان عليَّ كزملائي الأخريين أن نلبي القرار. وحين ذهبت لتوديع عميد كلية الآداب المرحوم

الأستاذ الدكتور نوري القيسي، قلت له أرجو أن أبقى مشرفًا على طلابي في الدراسات العليا خاصة وأن بعضهم قطع مرحلة في إعداد الأطروحة وليس من مصلحته أن يكون تحت إشراف أستاذ آخر. فقال لي كيف وأنت منقول وليس معار إلى الخارجية. فأجبته أنني سأعود إلى الجامعة مكاني الطبيعي الذي أستطيع أن أعطي فيه، ذلك أنني أكاديمي قبل أي شيء آخر. فأرجو أن تمهلني بعض الوقت.

وبالفعل كنت أحتاج إلى أن يمضي بعض الوقت قبل أن أتمكن من تقديم مذكرة لوزير الخارجية أطلب فيها عودتي إلى الجامعة حيث مكاني الطبيعي. وبعد مرور ستة أشهر على دوامي في ديوان وزارة الخارجية قدمت طلبًا بالعودة للجامعة، وقد استجاب وزير الخارجية لطلبي والحمد لله. ولا زلتُ أتذكر أحد الأصدقاء الذي جاء متأخرًا ليهنئني على تعييني سفيرًا قائلاً وأين يجدون مثلك وجهًا مبتسمًا ومرونة في التعامل وهدوءًا لإشغال منصب دبلوماسي، ولم يكن هذا الصديق يعلم أن بداخلي مرجل يغلي من شدة قلقي من احتمال عدم الموافقة على عودتي إلى قواعدي في الجامعة سالمًا.

وفي العام 1977 - 1978م حصلت على تفرغ علمي Sabbatical إلى (معهد الدراسات العربية والإسلامية) بجامعة لانكاستر بانكلترا وكان الموضوع المقترح (مصادر تاريخ عمان المحلية). وفي جامعة لانكاستر التقيت بالأستاذ الدكتور وليد عرفات الذي كان أستاذًا بقسم اللغة العربية بجامعة لندن في الستينات حين كنتُ طالبًا أحضّر للدكتوراه هناك. وقد رحّب بي أجمل ترحيب وطلب مني التدريس في المعهد ووافقت على ذلك. وكنت دائم الترحال بين مكتبات بريطانيا المهمة بحثًا عن مخطوطات ومصادر عُمانية. فقد سافرت عدة مرات إلى مكتبة المتحف البريطاني ومدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بلندن وإلى مكتبات أكسفورد وكامبرج ومانجستر. وكان الجهد موفقًا والحصيلة مثمرة حيث أعددت كتاب (مقدمة في مصادر التاريخ المحلي لعمان) ونشره اتحاد المؤرخين العرب ببغداد سنة 1979م. وفي لانكاستر أنعم الله تعالى بابنتي الثانية ندى سنة 1978م التي تخرجت من قسم العمارة في كلية الهندسة بالجامعة الأردنية وعملت بعد تخرجها في مؤسسات هندسية في عمّان، ثم تزوجت من الفاضل نور صباح الخطيب وتعيش الآن في مانجستر بانكلترا مع زوجها وابنتها البكر نسرينه حفظهم الله. وخلال تواجدي في انكلترا حصلت على عضوية الجمعية الآسيوية الملكية سنة 1978م.

بعد أن قضيت سنتين في قسم التاريخ ببغداد استلمت خلالها رئاسة قسم التاريخ سنة 1978م أعيرت خدماتي سنة 1980م إلى قسم التاريخ بجامعة الإمارات العربية المتحدة في العين (أبو ظبي). وحين أعددت نفسي والعائلة للسفر بدأت حرب الخليج الأولى وأغلقت الأجواء على الطيران المدني، وفي مطار بغداد أكملنا إجراءات السفر ودخلنا في باحة الترانزيت، ولكن جاءت التعليمات بإيقاف الطيران وأعيدت حقائبنا إلينا. ولكنني كنت عازمًا على السفر فاستأجرت سيارة أجرة من ساحة حافظ القاضي ببغداد، ودفعت للسائق أضعاف الثمن وسافرنا برًا إلى الأردن. وكانت السفرة ميسورة برعاية من الله تعالى؛ حيث وصلنا عمّان ومكثنا يومًا أو يومين سافرنا بعدها بالطائرة إلى (أبو ظبي). وكان وصولي متأخرًا نوعًا ما بسبب أحداث الحرب، وحين وصلتُ وجدتُ "البديل المصري"!! حاضرًا وقد وصل قبلي باعتبار أنه غدا من الصعوبة مجيئي. ووقف عميد الكلية وكان عراقيًا مكتوف اليدين تجاه الحالة، وبسبب موقف العميد المتردد قررت مقابلة الأمين العام للجامعة، وكان إماراتيًا وفوجئت أنه من تلاميذي في كلية الآداب ببغداد، فرحّب بي أجمل ترحيب وطلب من المسئولين تسجيلي مباشرة وفورًا مع بقاء "البديل المصري" كذلك!!. وكانت سنوات مثمرة التقيت خلالها بنخبة من الطلبة الإماراتيين والعمانيين الذين غدوا الآن مسئولين في الدولتين، كما أكمل بعضهم الدراسة وغدوا "دكاترة" في الجامعة. وفي جو الإمارات كان الوضع ملائمًا للبحث وقد أعددت عدة كتب منها: العباسيون الأوائل الجزء الثالث، الطبعة القديمة الذي نشرته على حسابي في عمّان الأردن سنة 1983م. النظم الإسلامية، دبي، سنة 1983م، الخليج العربي في العصور الإسلامية، دبي- بيروت، 1983م. وفي العين وهبنا الله تعالى ابنتي الثالثة حنان سنة 1982م، وقد تخرجت من كلية الصيدلة بجامعة العلوم والتكنولوجيا في إربد بالمملكة الأردنية الهاشمية وعملت في عدة مؤسسات دوائية في عمّان.

وفي العين بجامعة الإمارات العربية المتحدة زار قسم التاريخ الأستاذ الدكتور محمد عبد الحي شعبان سنة 1982م ودعاني للالتحاق بمركز دراسات الخليج العربي وقسم التاريخ بجامعة أكستر بإنكلترا كأستاذ متعاقد ولمن عشر سنوات، ومرة أخرى اعتذرت حيث كانت ارتباطاتي بالعراق وأهله أقوى من هذا العرض السخي والعرض الذي سبقه من جامعة لندن. ولم أكن أعلم ما سيحل بالعراقيين من حصار وكوارث... ويحضرني الآن قول جان جاك روسو في كتابه (العقد

الاجتماعي): "على الحاكم ألا يحمّل شعبه أكثر مما يستطيع ذلك الشعب أن يقدّمه"!! بل تذكرت أكثر القول البليغ لأندريه مورو: "يخيّل إليَّ أن على الشعوب أن تتمنى على الله بعد اليوم أن يرزقها رؤساء لا يحلمون بتحقيق الأمجاد الشخصية، بل يكون همهم أن يجنبوها المصائب". وإلا لما دوّنت ابنتي حنان التي ولدت في العين في خضم حرب الخليج الأولى في خواطرها وهي تتكلم عن نفسها!! بعد تدمير العراق واستقرارها في المهجر: "لقد حرموها حتى من الذكرى، فأصبحت تبحث عن صورة جديدة لوطنها، فعسى أن تحملها الطرق يومًا ما لتعود في النهاية وتنام في سريرها..." لقد كان التعاقد مع جامعة الإمارات خمس سنوات، ولكن جامعة بغداد استدعتنا فجأة سنة 1983م بعد ثلاث سنوات فقط مبررة ذلك بالحاجة إلى خدماتنا، فكان نكثًا للعقد المبرم بين الجامعتين لم تستطع جامعة الإمارات تجاهه إلا إنهاء عقودنا استجابة لطلب جامعة بغداد. وكان عددنا أكثر من 17 أستاذاً جامعيًا !!

ومثلما كان عقد السبعينات من القرن العشرين، كذلك كان عقد الثمانينات بالنسبة لي سنوات نشاط في التدريس والبحث العلمي، فقد شاركت وبدعوة من أ.د. شعبان مدير مركز دراسات الخليج العربي ورئيس قسم التاريخ بجامعة أكستر، وكذلك بدعوة من الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط في سلسلة من المؤتمرات في أكستر من 1985، 1986م، 1987م، 1988م، وحضرتُ في دار الأستاذ الدكتور شعبان حفلة تكريم سمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي بمناسبة حصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة أكستر فكانت ذكرى ممتعة.

وفي الثمانينات كذلك وفي سنة 1989م بالذات دعيت من قبل مؤسسة Japan Foundation للمشاركة في مؤتمر في التاريخ الإسلامي باسم (المدينية في الإسلام) Urbanization in Islam وقدمت بحثًا في (الأصناف في المدينة الإسلامية). وقد قوبلت بالتقدير من قبل المؤرخين المختصين بجامعة طوكيو. كما تمخض اللقاء عن قبول طالب ياباني للدراسة في بغداد للحصول على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي تحت إشرافي. لقد كانت زيارة طوكيو فرصة فريدة للتعرف على الشعب الياباني والمؤسسات الأكاديمية اليابانية، وقد أبهرني النظام رغم الحركة الدائبة والازدحام والسرعة. وفي بغداد سنة 1989م رزقنا الله تعالى بحارث الذي يدرس حاليًا في قسم العمارة بكلية الهندسة بالجامعة الأردنية. وفي

الثمانينات أيضًا انتهت حرب الخليج الأولى سنة 1988م لتبدأ بعد مدة قصيرة حرب الخليج الثانية، وبدأ الحصار يؤثر على أهل العراق الذين فقدوا الكثير من شبابهم خلال الحربين فكان الجو مشحونًا بالقلق والإعياء والترقب. وقد وجدت فرصة للابتعاد عن تلك الأجواء حين حصلت على موافقة من جامعتي مانجستر واكستر البريطانيتين لقضاء تفرغ علمي سنة 1993م، وبد موافقة الكلية والجامعة والوزارة على تفرغي لدراسة عهد (ناصر بن مرشد اليعربي العُماني) بدأت الإعداد للسفر.

لقد كانت العلاقات مع المملكة المتحدة مقطوعة، وكان الطيران المدني في الأجواء العراقية ممنوعًا، وقد اضطرتني هذه الحالة وللمرة الثانية منذ سنة 1980م إلى السفر والعائلة برًا إلى المملكة الأردنية الهاشمية من أجل الحصول على التأشيرة من السفارة البريطانية في عمّان. وكنت قد هيأت كل الوثائق المطلوبة على أمل الحصول على التأشيرة، ولكن القنصل البريطاني كان فضًا غليظ القلب لم يعر اهتمامًا إلى الوثائق والدعوات الرسمية من الجامعات البريطانية ورفض منحي وعائلتي التأشيرة بعد انتظار دام أكثر من شهر.

كان أمامي طريقين لا ثالث لهما: إما العودة إلى جامعتي في العراق أو أن أدبر أمر الحصول على عقد عمل مع إحدى الجامعات. وكنت، والحمد لله، قد فكّرت بالبديل الثاني وتمكن صديق طفولتي وشبابي وزميلي العزيز أ.د. أحمد عبد الله الحسو من الحصول على عقد لي للتدريس بكلية الآداب بجامعة التحدي في مصراته في ليبيا، وقد وصلت والعائلة إلى مصراته متأخرًا لأن ليبيا كانت هي الأخرى محاصرة جوًا وكان علي الحصول على تأشيرة للذهاب بالطائرة إلى تونس ثم الذهاب من هناك برًا إلى ليبيا.

ولم يكن الأمر سهلاً للحصول على تأشيرة إلى تونس رغم أنها ترانزيت وأنني أستاذ جامعي لولا مساعدة قدمها أحد الخيرين الأردنيين والذي كان صديقًا لأحد الدبلوماسيين في السفارة التونسية. لقد كان للطريق البري من تونس إلى مصراته طويلاً وصعبًا ناهيك عن التأخير على الحدود وتعقد الإجراءات.

بعد الاستقرار في مصراته وجدتُ فرصة من الوقت للرد على المعاملة غير اللائقة للقنصل في السفارة البريطانية في الأردن، وقد كتبت زوجتي المتخصصة في الأدب الإنكليزي رسالة بليغة باسمي إلى وزير خارجية بريطانيا آنذاك لا أزال

أحتفظ بنسخة منها عبرت فيها بصدق عن تصرفات الموظف الدبلوماسي البريطاني. ولم ننتظر طويلاً حتى وصل الرد باسم وزير الخارجية نفسه يعتذر عما بدر من الموظف ويطلب مني أن أقدم طلبًا جديدًا إلى السفارة البريطانية في تونس حيث كانت العلاقات الدبلوماسية الليبية البريطانية مقطوعة. على أني لم أتابع الموضوع حيث كان تركيزي في ذلك الوقت موجهًا إلى محاولة التعاقد مع جامعة آل البيت بالأردن.

إن بقائي في كلية الآداب بمصراته كان قصيرًا لم يدم أكثر من سنة أكاديمية 1994/1993م وجدت من الشعب الليبي الطيب كل ترحاب واحتضان. فقد حدث وأن تأسست جامعة آل البيت في المفرق بالمملكة الأردنية الهاشمية، وقدمت طلبًا للعمل فيها وجاء الجواب بالموافقة ومع انتهاء السنة الدراسية سافرت والعائلة برًا إلى تونس وكانت رحلة الإياب مع العائلة صعبة وطويلة، ومن تونس سافرنا بالطائرة إلى الأردن على حسابي الخاص ولم أنتظر الطائرة المستأجرة من ليبيا. والتحقت بجامعة آل البيت بالمفرق أيلول/ سبتمبر 1994م في أول تأسيسها حيث كان رئيسها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت، وقد قمتُ وأعضاء الهيئة التدريسية القلائل بتأسيس قسم التاريخ ووضع الخطط الدراسية والمقررات وتوصيفها، وكانت هذه البرامج تناقش بصورة مسهبة من قبل مجلس الجامعة، حيث كان رؤساء الأقسام أعضاء في مجلس الجامعة. كما بدأنا بعد فترة وجيزة بوضع خطط ومقررات لدراسة الماجستير في التاريخ. وكانت السنوات التأسيسية الأولى ليست سهلة إلا أن الصعوبات ذللت بفضل همة رئيس الجامعة وحزمه ورعاية جلالة الملك الحسين بن طلال رحمه الله للجامعة حيث أرادها أن تكون جامعة تضم كل المذاهب وتتوافق فيها كافة الفئات الإسلامية وتقوم على قواعد المرونة والشفافية والتوفيقية. ومن هنا كانت الجامعة تضم أعدادًا من الطلبة العرب وخاصة العُمانيين والمسلمين مثل الماليزيين والأندونوسيين وغيرهم.

لقد استقريتُ والعائلة في مدينة المفرق والتحق أفراد العائلة بمدارسهم إلا أن وصول البنات إلى مرحلة الكلية اضطرني بعد سنتين للانتقال إلى العاصمة عمّان. وكان باص الجامعة ينقلنا ذهابًا وإيابًا من عمان إلى المفرق. ولكني بعد سنوات استأجرت في المفرق "ستوديو" للاستراحة فيه ليلة أو ليلتين خلال الأسبوع.

بقيت في جامعة آل البيت عشر سنوات شغلت خلالها منصب رئيس قسم لمدة أربع سنوات، وكذلك منصب مدير وحدة الدراسات العمانية التي تأسست في الجامعة سنة 1998م بالتعاون والدعم المالي من سلطنة عُمان. وفي جامعة آل البيت تعرَّفت لأول مرة بالطلبة العُمانيين الذين كانوا يدرسون البكالوريوس (تاريخ وفقه) وكذلك طلبة الماجستير بالدراسات الفقهية حيث كنت مشرفًا مشاركًا على العديد من الأطروحات الفقهية والعقيدية. وقد أذهلتني حادثة استثنائية قام بها أحد الطلاب الذين حصلوا على "الدكتوراه" حيث قدّم مذكرة إلى وزارة التعليم العالي الأردنية سنة 2003م أو قبلها يقترح فيها الاستغناء عن الأساتذة العراقيين واستبدالهم بحملة الدكتوراه الجدد في البلد. فكان جواب الوزارة أن لا مجال للمقارنة بين أساتذة بدرجة (بروفسور) ولهم بحوث وكتب وخبرة تزيد على الثلاثين سنة في مجال اختصاصهم وبين شخص حصل على الدكتوراه قبل أشهر!! وقد أردت من خلال الإشارة إلى هذه الظاهرة الاستثنائية أن أقول بأن الخلق فوق العِلم وأن هناك وسائل أخرى للوصول إلى ما يريده الشخص بدل هذه الوسيلة. وربما كانت هناك حالات استثنائية مثلها أو أكثر مرارة من هذه الحالة في العراق والبلاد العربية والأجنبية.

ولم تكن سنوات التسعينيات أقل فاعلية من عقدي الثمانينيات والسبعينيات. فقد كان أ.د. محمد عدنان البخيت محبًا للبحث العلمي وخاصة في موضوع التاريخ الذي كان متخصصًا فيه، وقد وجدت فيه ملاذاً لتحقيق العديد من مشاريعي البحثية التي كانت تنشر على هيئة كتب باسم جامعة آل البيت أو باسم (وحدة الدراسات العُمانية) التابعة للجامعة. لقد كان من نصيب قسم التاريخ مقررين ضمن متطلبات الجامعة. وقد ألفت كتاب (المدخل إلى تاريخ آل البيت) 1999م متطلب جامعة، وشاركت وترأست تحرير الكتاب الثاني (المدخل إلى التاريخ الإسلامي) متطلب جامعة، سنة 2001م، كما نشرت لي وحدة الدراسات العمانية كتابين عن عمان هما: الإمامة الإباضية في عمان سنة 1997م، ودراسات في تاريخ عمان سنة 2000م. ونشرت لي جامعة آل البيت أيضًا كتابًا باللغة الإنكليزية هو (دراسات مترجمة في تاريخ الفرق الإسلامية في العصر الوسيط)، سنة 2001م. كما كان نشاطي في مجال أطروحات الدراسات العليا فعّالاً حيث أشرفت على عدد من الأطروحات في جامعة آل البيت وشاركت في مناقشة عددًا أكبر في الجامعات الأردنية الأخرى.

إنّ هذا النتاج الثر لم يكن ليظهر لولا رعاية وتشجيع رئيس الجامعة أ.د. محمد عدنان البخيت الذي شغلته مهمة تأسيس جامعة آل البيت وأبعدته عن البحث العلمي الذي يحبه، فرأى في تشجيع الآخرين على البحث وسيلة للتعويض، ولعمري فهي صفة نادرة قلّما نجدها عند الأكاديميين الذين ينظرون إلى زملائهم منافسين فيعيقون نتاجهم ما أمكن حسدًا من عند أنفسهم، أما البخيت، ومن خلال تجربة شخصية معه، فكان يبتهج حين أقدّم له أحد نتاجاتي للنشر.

وفيما عدا هذا وذاك نشرت من خلال دور النشر بالمملكة الأردنية الهاشمية عددًا آخر من الكتب بين سنتي 1994 - 2004م يجدها القارئ في قائمة الكتب المنشورة. لقد كان استقراري والعائلة في المملكة الأردنية الهاشمية سواء في المفرق أولاً ثم في عمّان من أحسن فترات حياتنا طمأنينة وأمانًا، فلم نشعر بأننا غرباء، وقد أحسنت ابنتي حنان في إيجازها للوضع في ذكرياتها حين قالت وهي تتكلم عن نفسها: "واستقرت في الأردن الذي تنفست هواءه وشربت ماءه حتى صار جزءًا من حياتها ووجدت في أهله ما أنساها غربتها فلم يفرقوها عن أنفسهم ولم تفرّقهم عن أهلها...".

وفي عمان وللمرة الثانية يتصل بي أستاذي المشرف عارضًا علي العمل في الويلايات المتحدة الأمريكية، حيث كان قد انتقل من بريطانيا، إلى قسم دراسات الشرق الأوسط، جامعة برنستون)، لكني أبديت عدم الرغبة وسط استغرابه واقترحت العمل في بريطانيا إن أمكن، إلا أنه أشار أنه منذ ترك جامعة لندن أصبح بعيدًا عن الجو الأكاديمي هناك..

وفي صيف 2004م كنت قد انتهيت في التو من توقيع عقد جديد مع جامعة آل البيت في عهد رئيسها الجديد الأستاذ الدكتور سلمان البدور، اتصل بي هاتفيًا عميد كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس في سلطنة عُمان. الدكتور عصام بن علي الرواس ودعاني للالتحاق بكلية الآداب في السلطنة. فشكرته على الثقة وأخبرته أنني وقعت عقدًا مع جامعة آل البيت ولابد أن أحترم العقد. ولكن فاجأني مرة ثانية قائلاً بأنه اتصل برئيس جامعة آل البيت وأعلمه بقرار كلية الآداب والعلوم الاجتماعية الاستفادة من خدماتي، وأن رئيس الجامعة قد ترك الخيار لي.

وإزاء هذين الموقفين النبيلين لم يكن بوسعي إلا الموافقة مهما كلفني الأمر من غربة عن عائلاتي التي كان بعض أفرادها لا يزالون في مراحل مختلفة من الدراسة الثانوية والجامعية في الأردن. فقد قررت إبقاءهم في الأردن لتعودهم على المقررات والبرامج الدراسية الأردنية.

انقطعت صلتي بجامعة آل البيت ولكن لم تنقطع مؤثراتها وخاصة ندوات وحدة الدراسات العُمانية، كما ولم تنقطع صلتي بعمّان والأردن حيث عائلتي ولا زلتُ أحمل بطاقة إقامة في المملكة الأردنية أجددها كل سنة. كما وأن الأستاذ الدكتور عدنان البخيت يستعين بي في مجال تقديم الخبرة العلمية في تقييم البحوث.

وفي جامعة السلطان قابوس ومكتبتها وكذلك ما تحويه (غرفة عمان) من مؤلفات وجدت فرصة جديدة في العمل البحثي والإشراف على طلبة الدراسات العليا وفي إعادة ترتيب أوراقي البحثية وخططي في التأليف فقد أصدرت كتاب (الموجز في تاريخ عُمان في العصر الإسلامي)، كما شاركت وأشرفت على تحديث كتاب متطلب جامعة بعنوان (تاريخ عُمان ودراسات في الحضارة الإسلامية) وهي فرصة مشابهة للفرصة التي تهيأت لي بجامعة آل البيت في رئاسة تحرير كتاب من متطلبات الجامعة.

ومن عُمان أعدت تنقيح ونشر عددًا من كتبي القديمة في دور نشر أردنية وجمعت ما استطعت جمعه من بحوثي المنتشرة في المجلات التاريخية وأعدت نشرها في كتب جديدة. ونشر لي مركز زايد للتراث والتاريخ عددًا من الكتب مثل: (مصادر التاريخ العُماني) و(التدوين التاريخي عند المسلمين) و(نقد الرواية التاريخية عند المسلمين) على التوالي.

ومنذ سنة 2007م استلمت رئاسة قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، وأعددت مع لجنة الدراسات العليا بالقسم (مشروعًا لدراسة الدكتوراه) في التاريخ الذي سيرى النور قريبًا بعد اجتيازه الإجراءات الأكاديمية. كما وأن التعاون بين قسم التاريخ (ومركز الدراسات العُمانية) بالجامعة غدا أكثر فاعلية حيث تزخر خطط المركز بالعديد من المشاريع المستقبلية في عهد مديرها الجديد محسن الكندي.

إنني أنظر إلى ما قمت به في تاريخ عمان بعين الرضا. فمنذ تواجدي بجامعة آل البيت نشرت لي وحدة الدراسات العُمانية بالجامعة عددًا من الكتب والبحوث أشرت إليها سابقًا. وبعد أن التحقت بجامعة السلطان قابوس نشرت كتابين في

تاريخ عُمان، بالإضافة إلى عدد من البحوث والمقالات، ومن ضمنها عدد من المداخل في (الموسوعة العُمانية).

ولابد من الإشارة إلى أن علاقتي بدور النشر الأردنية لم تنقطع بعد ذهابي إلى سلطنة عُمان رغم ما وجدته من فرق في التعامل بين دور النشر الأهلية ومراكز البحوث والدراسات حيث تعاملت خلال مشواري العلمي مع الطرفين، فنشرت في دور نشر في بغداد وبيروت ودمشق وعمَّان، كما كتبتُ لمراكز بحوث ومؤسسات علمية مثل مركز زايد للتراث والتاريخ (العين) ومنظمة التربية والثقافة والعلوم (اليونسكو)، باريس، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (تونس) ومركز دراسات الشرق الأوسط، عمّان، ومؤسسة الموسوعة العمانية (مسقط)، وقبل ذلك مع مؤسسة دائرة المعارف الإسلامية ومؤسسة دائرة المعارف البريطانية، ومؤسسة اليابان (طوكيو)، والمجموعة العالمية للتطوير (أبو ظبي) حيث ساهمت ببحث ضمن كتاب عن تاريخ إمارة أبو ظبي، ويمكنني القول من خلال التجربة أن المؤلف العربي مغبون لا يمنح ما يستحقه من مكافئة لقاء عمله المضني في التأليف. وإذا تركنا مراكز البحوث والمنظمات الرسمية فمكافئتها معقولة إلى حد ما، فإن دور النشر الأهلية تأخذ في العادة من المؤلف مبلغًا لنشر كتابه الذي يغدو ملكًا لها، فهو إضافة إلى جهده في التأليف يدفع مالاً من أجل نشر كتابه ويتنازل عن ملكية كتابه، وفي أحسن الأحوال فإن دور النشر لا تتقاضى مبالغ من المؤلفين المعروفين على الساحة الثقافية ولكنها توقع معهم عقدًا، يقضي بالتنازل عن ملكية الكتاب إلى دار النشر مع إعطائه عددًا من النسخ المحدودة وحفنة من النقود يخجل المؤلف من ذكرها..!! فهناك والحالة هذه بون شاسع بين المؤلف العربي والمؤلف في أقطار أجنبية أخرى. وهذا يذكر في يذكّرني بقول المؤرخ الكبير جواد علي في مقدمة كتابه ذي الأجزاء العديدة (تاريخ العرب قبل الإسلام)، "لولا الرغبة والحرص على الكتابة لما أقدمتُ على التأليف"!!

إن رحلاتي العلمية المكوكية أو الماراثونية انتهت بي في الوقت الحاضر 2010م في مسقط بسلطنة عُمان. ويبقى العِلم عند الله تعالى الذي يرعى المسيرة ويقدم العون عما تخبأه الأيام المقبلة. وهنا أذكر بالامتنان والعرفان بالجميل زوجتي

وشـريكة حيـاتي ليلى وجيه علـي نجا، أم هالة وندى وحنان وحـارث التي لازمـتني في رحلاتي في البلدان، وكانت العـون في مسيـرتي. وأدت واجبها وكيلة وكفيلة وشريكة في الحـفـاظ على البـيت والأسـرة خـيـر أداء، جـزاها الله تعـالى وذرّيتهـا عني خـيـر جزاء.

الفصل السابع

قصتي مع تاريخ عمان

".. وكلما تقدم بي البحث في نطاق أطروحتي عن الدعوة العباسية، كلما زاد شوقي إلى التعرّف أكثر على تلك الدعوة التوأم للدعوة العباسية ألا وهي الدعوة الإباضية...".

"لله عباد إذا أرادوا أراد"

الفصل السابع

قصتي مع تاريخ عُمان

تبدأ قصتي في التعرّف على تاريخ عمان والرغبة في دراسته إلى الستينيات من القرن العشرين، حينما حصلت على بعثة رسمية من العراق وطني لدراسة التاريخ الإسلامي في "مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية" بجامعة لندن University of London, S.O.A.S. . وبعد أن اجتزت السنة التمهيدية التي تعد سنة مقررات دراسية والحصول على الكفاءة باللغة الإنكليزية اتفقت مع الأستاذ المشرف على عنوان أطروحتي الذي كان لُب الموضوع فيها The core of the problem إعادة تقييم الدعوة العباسية".

بدأت جمع المادة التاريخية من مصادر التاريخ الإسلامي المعروفة، وكنتُ كلما أمعن الاطلاع على المصادر أدرك كثرة الأخبار وثرائها عن الدعوة العباسية، ولكن في الوقت نفسه وبين حين وآخر أقرأ في المصادر ذاتها أخبارًا هامشية قصيرة تكاد لا تفي بنهم الباحث المتعطش إلى الأخبار عن دعوة أخرى معاصرة للدعوة العباسية ومشابهة لها في دقة التنظيم والسرية ومعارضة للأمويين ولكنها مختلفة عنها في الأهداف، ألا وهي الدعوة الإباضية. ومنذ ذلك التاريخ وتحديدًا سنة 1962م بدأت أحاول جمع النتف والأخبار عن الدعوة الإباضية وتاريخ عُمان في القرون الإسلامية الأولى المرتبط بها، جنبًا إلى جنب مع جمعي المعلومات الغزيرة عن الدعوة العباسية.

وكلمّا تقدّم بي البحث في نطاق أطروحتي عن الدعوة العباسية، كلّما زاد شوقي إلى التعرّف أكثر عن تلك الدعوة التوأم للدعوة العباسية. ولم يشغلني البحث والكتابة في أطروحتي أن أجمع المعلومات عن تاريخ عُمان في العصر الإسلامي، بل وأصور البحوث التي أطلّع عليها صدفة عن عمان وأنا أتصفح المجلات التاريخية أو أدلة البحوث. وهكذا حين أنهيت أطروحة الدكتوراه عن الدعوة العباسية، كان قد تجمّع لديّ كم من المعلومات المتناثرة وأسماء مصادر وعناوين بحوث عن عمان والدعوة الإباضية فيها.

إن موضوع أطروحتي يلزمني أن أقدم تفسيرًا جديدًا أواجه التفاسير المتنوعة وخاصة تفاسير المستشرقين التي فسرت بها الدعوة العباسية وواجهاتها الدينية - السياسية. وهو ما كان يتطلبه الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة لندن. من أجل ذلك لم أجد الوقت الكافي في تلك الفترة للبحث أكثر في تاريخ عُمان. خاصة وكما هو معروف لدى الباحثين، أن الهاجس الرئيسي الذي يسيطر على الباحث هو إنهاء أطروحته بنجاح والحصول على الدرجة التي جاء إلى بلاد الغربة من أجلها والعودة إلى الوطن. عدت إلى وطني العراق سنة 1967م، وعُينت في قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة بغداد، وكانت الرغبة التي طغت على مشاعري هو نشر أطروحتي وبسرعة، فقد كنت متحمسًا لإيصال "تفسيري" عن الدعوة العباسية المدعم بأدلة من مصادر تاريخية جديدة، خاصة بعد فقدت فرصة نشر أطروحتي على حساب جامعة لندن بسبب إصرار الملحق الثقافي العراقي على عودتي بسرعة إلى الوطن. وهي فرصة فريدة لا تعوض ولا تتكرر. لقد مرت السنوات الأخيرة من الستينيات والسنوات الأولى من السبعينيات وكنت مشغولاً فيها بنشر الأطروحة بمساعدة من جامعة بغداد، وكذلك في التدريس في جامعة الرياض حيث أعيرت خدماتي.

وما أن عدت ثانية إلى بغداد في قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة بغداد، حتى عادت الرغبة تراودني إلى موضوعي الذي كان ولم يزل يشغل جزءًا من تفكيري، وهو موضوع تاريخ عُمان والدعوة الإباضية. ولكن التفكير الآن أصبح جديًا وغدا الموضوع الأول ضمن مشاريعي البحثية، حيث كثرت في ذهني التساؤلات... ترى لماذا هذا الكم الهائل من المعلومات عن الدعوة العباسية مقابل النزر اليسير من المعلومات عن الدعوة الإباضية؟؟ وأين أجد المصادر التي تتناول الدعوة الإباضية؟؟ ومن هم الباحثون المحدثون الذين عالجوا هذه الدعوة وما هي بحوثهم ومراجعهم؟؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي دفعتني إلى فكرة كتابة مقال في مجلة (المورد) البغدادية الذائعة الصيت والتي تصدرها وزارة الثقافة والإعلام بعنوان "ببليوغرافيا في تاريخ عُمان" سنة 1974م فكان هدفي من المقال أن أحصل على تجاوب من القرّاء الذين سيطلعون على المقال، ويكتبون لي أو إلى المجلة نفسها عن مصادر أو أفكار لم يتضمنها مقالي. وقد حصل ما توقعته فكان هناك ردود أثرت معلوماتي عن مصادر تاريخ عمان في الفترة الإسلامية الوسيطة. وقد شجعني ذلك أن أردف مقالي الأول بمقال آخر سنة 1975م في مجلة (المؤرخ العربي) التي يصدرها اتحاد

المؤرخين العرب في بغداد. وكان عنوان المقال "ملامح من تاريخ الإباضية كما تكشفه مخطوطة كشف الغمة للأزكوي". ثم بمقال ثالث سنة 1977م عن "عوامل انهيار الإمامة الإباضية الثانية في عُمان" في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد. بل أكثر من ذلك اندفعت في السنة نفسها لانتهاز الفرصة والمشاركة في الندوة العالمية لدراسة "مصادر تاريخ الجزيرة العربية" المعقودة في جامعة الرياض ببحث موسوم "مصادر التاريخ العماني المحلية".

هكذا كانت البدايات الأولى لولعي بتاريخ عُمان، بدايات خطت خطوات بطيئة ولكنها ثابتة، غدا تاريخ عُمان التخصص الموازي لتخصصي في التاريخ العباسي. على أن المفارقة والتي تداخلت مع البدايات التي تدهشني الآن وأنا أستعرض مسيرتي العلمية، هي إنني حين أصبحت مهيئًا للإشراف على أطاريح الماجستير في كلية الآداب بجامعة بغداد بعد أكثر من سبع سنوات على حصولي على الدكتوراه، كان أول موضوع طرأ على ذهني وقررت أن أشرف عليه يتصل بتاريخ عُمان، فقد اخترت طالبًا جادًا درّسته في مرحلة البكالوريوس بقسم التاريخ وعرضت عليه سنة 1975/1974م دراسة الدعوة الإباضية في المشرق العربي حتى سنة 280هـ أي حتى سقوط الإمامة الثانية. ولم يكن ذلك الطالب سوى مهدي طالب هاشم الذي لبى اقتراحي رغم صعوبة وقلة مصادره المنشورة آنذاك، بل وقلة المادة في المصادر التاريخية المعروفة ورحل في طلب العِلم إلى كل مكان يستطيع أن يصل إليه من شرقي الجزيرة العربية حتى جزيرة جربة في تونس مرورًا بمصر، وخرج سنة 1977م بأطروحة ماجستير ترتقي إلى مستوى الدكتوراه لا يزال الباحثون عن الإباضية، بعد كل الزمن الذي مرّ عليها يعودون إليها، بل غدت مرجعًا مهمًا لكل باحث في الموضوع. وأكثر من ذلك فلعلها على حد علمي وإطلاعي على أدلة الأطروحات التاريخية في الوطن العربي أول أطروحة علمية أكاديمية عن تاريخ الإباضية، ولولا استشهاد مهدي طالب هاشم بعد ذلك بسنوات قليلة لأبدع في مجال اختصاصه الدقيق عن تاريخ عمان والدعوة الإباضية، مثله في ذلك مثل عمرو خليفة النامي مؤلف (دراسات عن الإباضية) الذي لقي هو الآخر المصير نفسه بعد تخرّجه من انكلترا بسنوات قليلة بسبب ما يحمله من فكر ليس إلاّ.

في سنة 1977م قدّمت إلى كلية الآداب بجامعة بغداد طلبًا للتفرغ العلمي Sabbatical أقضيه في بريطانيا المكان الذي حصلت فيه على الدكتوراه، وكان

هدفي أن أواصل بحثي في مكتبات بريطانيا ليس في موضوع اختصاصي الأول (التاريخ العباسي) بل في موضوع تاريخ عُمان والإباضية اختصاصي الثاني. وقد وافقت جامعة بغداد على طلبي وعلى المشروع العلمي المقترح الذي قدمته وعنوانه (مصادر التاريخ المحلي لإقليم عُمان). وسافرت إلى انكلترا والتحقت بمركز الدراسات العربية الإسلامية التابع لجامعة لانكاستر وكان رئيسه حينذاك البروفسور وليد عرفات الذي رحّب بي أجمل ترحيب وطلب مني بالإضافة إلى عملي البحثي أن أدرّس في المركز مقررات في تاريخ العرب ولم أتردد في ذلك.

لم يكن لدي فكرة متكاملة عن مصادر تاريخ عمان والإباضية حينذاك، بل كنت قد جمعت مادة أولية عنها حين كنت طالبًا للدكتوراه كما كنت بطبيعة الحال مطلعًا على المصادر التي تمكن مهدي طالب هاشم أن يطلّع عليها لإعداد أطروحته. شرعت في رحلة البحث عن مصادر تاريخ عُمان في المكتبات البريطانية، مبتدئًا بمكتبة المتحف البريطاني (المكتبة البريطانية الآن) الزاخرة بالتحف والكنوز عن التراث العربي الإسلامي على شكل مخطوطات أو مطبوعات وخاصة فيما يسمى بالقاعة الشرقية Oriental Hall.

ثم زرت مكتبات جامعات بريطانية أخرى مثل أكسفورد وكمبردج ولندن وخاصة مكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية ثم مكتبة جامعة ماتشستر وجامعة اكستر. وقد أدهشني كثرة المخطوطات العمانية الموجودة في هذه المكتبات والتي شاهدتها بالعين، وغالبيتها بطبيعة الحال في مجال الفقه والعقيدة، ولكن البعض الآخر في مجال اللغة والأدب والتاريخ والنسب. ولعل من يتمعن ولديه الوقت الكافي يستطيع أن يعثر على العديد من المصادر العمانية التي تعد في الوقت الحاضر في عداد المصادر العمانية المفقودة. فنحن على سبيل المثال لا الحصر لا نعرف من كتب العوتبي الصحاري أول مؤخر عماني بالمعنى المتعارف عليه للمؤرخ، لا نعرف منها سوى الضياء والإبانة والأنساب، بينما يشير العوتبي أنه ألف عددًا من الكتب الأخرى وهذه الكتب لا تزال مفقودة. لقد نظمت ما استطعت الإطلاع عليه من المصادر العمانية على شكل فصول تتعلق بالسير والأنساب والتراجم والتاريخ الحولي المحلي وعلقت عليها حسب المنهج التاريخي الذي سرت عليه، وبعد عودتي إلى بغداد 1978م قدمت سمنارًا حول الموضوع في قسم التاريخ. ثم شرعت بإعداد الكتاب تمهيدًا لطبعه حيث طبع في طبعته الأولى على نفقة اتحاد المؤرخين العرب

في بغداد 1979م. ثم طبع الكتاب عدة طبعات أخرى كان آخرها في مركز زايد للتراث والتاريخ في دولة الإمارات العربية المتحدة سنة 2004م.

وفي سنة 1980م أعيرت خدماتي إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة في العين، فغدوت قريبًا من عُمان. ولم تكن جامعة السلطان قابوس قد تأسست بعد. وضمن تعديلات البرنامج للمقررات الدراسية بقسم التاريخ اقترحت موضوع "تاريخ الخليج العربي في القرون الإسلامية الأولى" وبالفعل باشرت بتدريسه حيث استفدت كثيرًا من الإطلاع على مصادر قديمة ومراجع حديثة وبحوث في تاريخ الخليج. وكعادتي التي تكررت عدة مرات فإني أخطط مع بداية تدريس مادة من المواد أن أحيلها في المستقبل إلى كتاب منهجي يسير وفق خطة المقرر الدراسي بغض النظر إن كان هذا الكتاب سيقرر ككتاب منهجي أم لا. وهذا ما حصل بالنسبة لمادة تاريخ الخليج العربي حيث شرعت بعد تدريسي له ثلاث سنوات بتأليف كتاب في الموضوع، فكان كتاب الخليج العربي الذي صدر لأول مرة في دبي سنة 1983م وشمل الأقاليم العربية الأربعة المحيطة بالخليج في القرون الإسلامية الوسيطة وهي: العراق، البحرين، عمان، الأحواز. وتناولت الفصول هذه الأقاليم ابتداءًا فترة قبيل الإسلام وصدر الإسلام وعصر الأمويين والعباسيين حتى سقوط الخلافة العباسية سنة 656هـ/سنة 1258م، وقمتُ بتدريسه في جامعة الإمارات. إلا أنه بعد عودتي إلى العراق وقبل نهاية السنة 1983م فوجئت بإحدى الجرائد الكويتية تنشر في صفحتها الأدبية تحقيقًا صحفيًا أشرف عليه صحفي عراقي هارب من العراق وجد له عملاً في هذه الجريدة، استغل ضميره الصحفي بعض الذين لا يعملون ولا يريدون لغيرهم أن يعمل، لانتقاد الكتاب والتجريح بالمؤلف، وقد استخدم الصحفي بعض "التدريسيين" العرب العاملين في الكويت سولت لهم أنفسهم الاشتراك في هذا التحقيق الصحفي، ولكن الصحفي العراقي لم ينجح في كسب أياً من المثقفين وأساتذة الجامعة الكويتيين أو غيرهم من دول الخليج للمساهمة في تحقيقه الصحفي هذا. لقد كان فحوى التحقيق أن مؤلف كتاب الخليج (وهو أنا) قد نشر أطروحة مهدي طالب هاشم عن الدعوة الإباضية تحت عنوان جديد باسمه. ودون أن يقارن المشاركون في التحقيق الصحفي بين (الأطروحة والكتاب) سودوا السطور والفقرات في مسرحية عن أخلاقيات وقواعد البحث العلمي وكيف يجب أن يكون، دون أن يتطرقوا إلى الأطروحة والكتاب. وواضح من فهرس مواضيع الكتاب أنه أوسع بكثير من موضوع الأطروحة التي ناقشت الدعوة الإباضية منذ سنة 90هـ-

سنة 280هـ في البصرة وعُمان، بينما تناول الكتاب تفاصيل الأقاليم الأربعة منذ فترة ما قبل الإسلام ثم ظهور الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية. وحينما تطرقتُ إلى الفترة التي عالجها مهدي طالب أشرتُ في الهوامش أكثر من ستين مرة إليه. وأكثر من هذا فقد ذكرت في (مقدمة الكتاب) أنني اعتمدت على مهدي طالب فيما يتعلق بفترة الدعوة الإباضية حتى 280هـ التي عالجها مهدي، خاصة وأن الأطروحة كانت تحت إشرافي، ومن حقي أن أعتمد عليها شرط أن أشير طبعًا إليها في الهامش. ومن الطبيعي أن تكون المادة التاريخية حول عُمان والإباضية منذ ظهور الإسلام وحتى سقوط العباسيين أكثر مقارنة بالأقاليم الخليجية الأخرى (البحرين والأحواز)، ذلك أن تاريخ عُمان هو الأكثر غنى وثراء نسبيًا من بقية أقاليم الخليج باستثناء العراق بطبيعة الحال. ولم تكذّب جامعة بغداد الخبر بل شكلت لجنة للتحقيق في مدى صحة الخبر الذي أوردته الجريدة وكان قرار اللجنة برفض التهمة جملة وتفصيلاً. ولابد أن أشير أيضًا بأنني كتبت ردًا على دعاوى "الأساتذة الجامعيين" الذين شاركوا في فبركة السيناريو، وأن رئيس تحرير الجريدة نشر الرد كاملاً. وهكذا أسقط في يد الصحفي العراقي ومن سانده من "الجامعيين" في الكويت والعراق. والأهم من ذلك أن مساعيهم لم تؤد إلى إيقافي عن البحث، وهذا هو الأمر الذي كانوا يهدفون إليه أولاً وقبل كل شيء. ذلك أن بعض الباحثين حين يجابهون بأزمة من هذا النوع يصدمون نفسيًا ويتركون العمل البحثي تجنبًا للمشاكل، وقد أظهرت الأزمة أنني لست واحدًا من هؤلاء فلم توقفني إساءتهم، وهذا ما عجب منه بعض أصدقائي في الجامعة قبل أعدائي. أن هؤلاء الأعداء ليسوا أعداءًا شخصيون لي، وإنما هم أعداء لكل من يعمل وينتج، لا لشيء إلا لأنهم لا يكتبون ولا يريدون لغيرهم أن يكتب ولا ينتجون ولا يريدون لغيرهم أن ينتج، لقد كانت تلك "المعاناة" جزءًا من قصتي مع تاريخ عُمان.

على أن الله تعالى في عون العبد ما دام العبد مخلصًا في عمله، وقد وضّح تصميمي على الاستمرار في العمل البحثي من خلال توالي البحوث التي شاركت فيها في ندوات الجمعية التاريخية البريطانية وندوات جامعة أكستر في عقد الثمانينات من القرن العشرين. حيث شاركت في بحوث عن تاريخ عمان والخليج العربي والفكر السياسي للإباضية ودور أهل عمان في نشر الإسلام، وكذلك في أسلمة الخليج والمراكز الحضرية فيه بدعوى من المرحوم الأستاذ الدكتور محمد عبد الحي شعبان الذي كان يصر على مشاركتي في الندوات السنوية في تلك الفترة

خاصة وأن لدينا رابط مشترك هو تناولنا الدعوة العباسية في رسالتينا للدكتوراه حيث درس شعبان في جامعة هارفرد بأمريكا وكانت دراستي في جامعة لندن بالمملكة المتحدة.

وخلال فترة الثمانينات وأوائل التسعينات كنت أحاول أن أجد طالبًا يتمتع بسجايا وقابليات مهدي طالب هاشم لأقترح عليه موضوعًا في تاريخ عُمان دون جدوى. فمن النادر أن يعثر الأستاذ المشرف على تلميذ نابه وجاد وفوق ذلك صبور يتحمل الصعاب والأسفار ليجد المادة التاريخية المرجوة وخاصة فميا يتعلق بتاريخ عُمان في القرون الإسلامية الأولى، فغالبية الطلاب هدفهم الحصول على شهادة الماجستير أو الدكتوراه في أقصر وقت وأقل جهد ممكن. وغالبية الطلاب يحققون أهدافهم في نيل الشهادة العليا، ولكن ليس كل الطلاب يصبحون باحثين مرموقين وأكاديميين متميزين. بل إن أغلب هؤلاء يعتبرون الشهادة العليا Prestige مدعاة للشهرة في المجتمع وسلمًا للوصول إلى المناصب خارج نطاق الجامعة ومراكز البحوث.

في سنة 1993م عزمت على طلب التفرغ العلمي الثاني في مسيرتي الجامعية في بغداد. وهو حق مشروع لعضو الهيئة التدريسية في الجامعة كل خمس سنوات. ومرة أخرى كان الموضوع الذي قدمته من أجل التفرغ العلمي عن تاريخ عمان وعنوانه "الإمام ناصر بن مرشد اليعربي ودوره في توحيد عُمان". لقد أعجبت بشخصية الإمام ناصر وأسلوبه في توحيد القبائل العُمانية وصد المعتدين الأجانب، ثم ما حققه من مكاسب اقتصادية لوطنه من خلال قراءتي لكتاب ابن قيصر حول مسيرة الإمام ناصر، وكذلك أطروحة باثيرست وهو طالب انكليزي معاصر لي في أيام الدراسة حيث كتب عن اليعاربة في جامعة أكسفورد. وأردت أن أتحرى الموضوع بالمقارنة بين مصادر التاريخ المحلى العمانية. لقد كنت دائمًا أرى في الإمام ناصر اليعربي نموذجًا للزعيم الذي يحاول أن يجنب شعبه الكوارث ويحقق لها استقلالاً وازدهارًا اقتصاديًا، لا أن يورطها في حروب مدمرة وسياسات عقيمة لا تبقي ولا تذر، ولا شك أن الله تعالى قد حبى عمان بعدد من هؤلاء القادة الذين حققوا لها السلم وبالتالي التقدّم.

ومرة أخرى وافقت جامعة بغداد على تفرغي العلمي، وقد سافرت قاصدًا لندن للقيام بالبحث في مكتبات بريطانيا الغنية بالمخطوطات العمانية وبالدراسات

والبحوث في تاريخ عُمان، خاصة بعد ظهور المستشرق البريطاني ولكنسون وبحوثه العديدة والمتميزة في تاريخ عُمان. ولكن العراق كان يمر بأزمة حيث الحصار الاقتصادي والمقاطعة السياسية. ولما كانت العلاقات الدبلوماسية مقطوعة مع بريطانيا فقد سافرت والعائلة برًا إلى المملكة الأردنية الهاشمية لكي أحصل على التأشيرة إلى لندن. وكانت المفاجئة غير المرتقبة في الأردن، بالرغم من تقديمي ثلاث دعوات من ثلاث جامعات بريطانية لقبولي كأستاذ زائر وإبرازي كافة الضمانات المطلوبة بعودتي إلى بلادي بعد سنة التفرغ العلمي، رفض القنصل البريطاني منحي وعائلتي تأشيرة دخول إلى المملكة المتحدة. وبعد انتظار دام أكثر من شهر كنت أمام خيارين إما العودة إلى بلادي أو السفر إلى بلد آخر للعمل فيه وقضاء سنة التفرغ العلمي. وبتوفيق من الله تعالى وحسن الطالع إنني كنت قد فكرت بعيدًا، وحصلت بفضل زميلي وصديق طفولتي في الموصل الأستاذ الدكتور أحمد عبد الله الحسو على موافقة للعمل في إحدى الجامعات الليبية. فقررت والعائلة السفر إلى ليبيا حيث عملت لمدة سنة دراسية هناك. وهكذا أحبط القنصل البريطاني مشروعي للبحث عن الإمام ناصر اليعربي الذي كنت أتطلع إلى إنجازه بشوق كبير.

خلال تواجدي في ليبيا قرأت إعلانًا عن تأسيس جامعة جديدة في المفرق بالمملكة الأردنية الهاشمية باسم جامعة آل البيت، وإنها شملت مختلف التخصصات. كان رئيس الجامعة الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي زاملته لفترة قصيرة في جامعة لندن، إلا أن اختصاصه في التاريخ الحديث بينما كان اختصاصي في التاريخ الإسلامي. وبعد انتظار لم يدم طويلاً على تقديمي طلب الالتحاق وصلني والحمد الله أمر التعيين في الجامعة. فشددت الرحيل والعائلة وكان العزم هذه المرة باتجاه مدينة المفرق شمالي شرقي الأردن والتي تقع على طريق القوافل بين العراق وبلاد الشام والحجاز، وبدأت العمل في سبتمبر 1994م رئيسًا ومؤسسًا لقسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المذكورة.

وفي جامعة آل البيت تعرّفت ولأول مرة على مجموعة من الطلبة العُمانيين، طالبات وطلاب وقمت بتدريسهم مختلف المقررات الدراسية، ووجدت فيهم الجدية كما اتسمت شخصيتهم بالهدوء وهذا أمر يتفق عليه جميع من اتصلوا بالطلاب العُمانيين في عُمان وخارجها. وكان من أهداف جامعة آل البيت أن تكون ملتقى

إسلاميًا جامعًا ووسطيًا. ولذلك كان الأساتذة يتلقون بمختلف الجنسيات من الطلبة منهم العمانيين والماليزيين وغيرهم من العرب والمسلمين، إلا أن الطلبة العمانيين بقوا مثالاً للطلبة المدركين لواجباتهم في مجتمع الجامعة وفي بلدة المفرق الصغيرة. وحين بدأت دراسة الماجستير في التاريخ والفقه وبعض الأقسام الأخرى في الجامعة، تطلعت علّني أجد طالبًا عُمانيًا يتخصص بالتاريخ كي أبدأ معه مشوارًا جديدًا في مسيرتي العلمية في التاريخ العُماني، إلا إنني لم أعثر على طالب عُماني يقدم للماجستير في التاريخ. ومع ذلك انفتح لي المجال حين قرر الأستاذ الدكتور البخيت أن يشركني مشرفًا مشاركًا على عدد من طلبة الدراسات الفقهية العليا وكذلك مناقشًا لأطروحاتهم. وكانت خطة البخيت تطعيم الدراسات الفقهية بأصول منهج البحث التاريخي وقواعده والعمل على كتابة فصل تاريخي لكل موضوع فقهي يقوم به الطالب في الماجستير. وقد تعرّفت من خلال هذا المنهج على نخبة من الطلبة العُمانيين الذين يدرسون الماجستير في قسم الدراسات الفقهية كان منهم ناصر السابعي الذي قدّم دراسة متميزة عن (الأحاديث الواردة في الخوارج) سنة 1998م، وصالح البوسعيدي الذي كانت دراسته عن (رواية الحديث عند الإباضية) وغيرهم كثير.

وإذا كنت لم أجد طلبة عُمانيين في الدراسات التاريخية العليا، فقد عقدت العزم على اختيار نخبة من الطلبة الأردنيين لدراسة موضوعات تاريخية عُمانية في الماجستير. وهذا ما تحقق فعلاً حيث أشرفت بعض الأطروحات عن (الإمام جابر بن زيد الأزدي) وعن (العلاقة بين الفقهاء والأئمة في عُمان سنة 132-280هـ). كما كنت أوجه في يستشيرني من الطلبة في الجامعات الأردنية الأخرى لدراسة موضوعات في تاريخ عُمان كونها موضوعات بكر لم تبحث كثيرًا. كما التقيتُ في أثناء زياراتي للاشتراك في المؤتمرات التاريخية في المملكة المتحدة في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات بأحد النجباء الجادين من طلابي الذين كنت قد درّستهم في البكالوريوس في جامعة الإمارات العربية المتحدة بالعين في أوائل الثمانينات وواصل الاتصال بي منذ ذلك الوقت ولم يقطعه لحد الآن، وهذا الطالب هو الآن الأستاذ الدكتور حسن عبد الله النابودة الذي ركّز اهتماماته البحثية على شرقي الجزيرة العربية وكان كتابي كما قال (مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العُماني) الشمعة التي أضاءت له الطريق في بحوثه العديدة عن تاريخ عُمان ومصادرها. وتوج هذه الدراسات العلمية التاريخية بتحقيقه كتاب الأزكوي (كشف

الغمة الجامع لأخبار الأمة) تحقيقًا علميًا موضوعيًا مع مقدمة مفيدة جدًا. كما حقّق كتابًا آخرًا في تاريخ عُمان هو (الصحيفة القحطانية) لابن رزيق ونشره. كل ذلك على حسابه الخاص دون دعم من أية جهة علمية. فهو يحتسب ذلك مثل العديد من المؤرخين لوجه الله تعالى ولوجه العِلم ومن هنا نشاهده يسير بخطوات جادة وثابتة في الطريق الصحيح الذي يوصله إلى التميز.

وعودًا إلى جامعة آل البيت ورئيسها محمد عدنان البخيت فقد أثمرت جهوده الدؤوبة في الاتفاق مع الجهات ذات العلاقة بسلطنة عُمان إلى تأسيس (وحدة الدراسات العُمانية) 1998م/1419هـ والعمل على جمع الوثائق والمصادر اللازمة من أجل إيجاد مركز بحثي متقدم خارج السلطنة يهتم بتاريخ عُمان وتراثها. وقد أنيطت بي مهمة إدارة الوحدة إضافة إلى رئاستي لقسم التاريخ، ثم تفرغت بعد ذلك للعمل في الوحدة. ولم يكن العمل يسيرًا بل كان البخيت يخصص من وقته وجهده للإطلاع على سير العمل في الوحدة ويحرص على تطورها، وغدت الوحدة ملتقى للطلبة العمانيين في الجامعة ينهلون من مصادرها ويقرأون آخر النشرات والصحف والمجلات العمانية. كل ذلك بالتعاون مع سفارة سلطنة عُمان في المملكة الأردنية الهاشمية وبرعاية من المسؤولين العمانيين ذوي العلاقة في السلطنة وعلى رأسهم سماحة المفتي العام أحمد بن حمد الخليلي الذي لم ينفك يزرو الجامعة والوحدة في الملتقيات والندوات المتتابعة. وبالإضافة للندوات التي عقدت في الوحدة، فقد نشرت الوحدة عددًا من بحوثي ومؤلفاتي في تاريخ عُمان. وشاركت في الملتقيات المتتابعة للوحدة في موضوعات عديدة فلم ينقطع اتصالي بها ولا بالجامعة التي أمضيت فيها عشر سنين. وفي جامعة آل البيت أتيحت لي الفرصة لزيارة عمان ضمن وفد لإلقاء محاضرات في شهر رمضان من عام 1422هـ/2001م.

وفي صيف 2004م كنت قد وقعت عقدًا جديدًا مع جامعة آل البيت في عهد رئيسها الجديد الأستاذ الدكتور سلمان البدور، ولكني فوجئت باتصال هاتفي من الدكتور عصام بن علي الرواس عميد كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس يدعوني للالتحاق بجامعة السلطان قابوس، فشكرته على حسن الظن والثقة وأعلمته إنني قد وقعت للتو عقدًا مع جامعة آل البيت، وأن الأصول تلزمني أن أحترم العقد، ولكنه فاجأني مرة أخرى قائلاً بأنه اتصل برئيس جامعة آل البيت وأعلمه بنيّة كلية الآداب والعلوم الاجتماعية الاستفادة من خدماتي، وأن رئيس الجامعة قد ترك الخيار لي.

وإزاء هذين الموقفين اللذين أعتز بهما: موقف الدكتور عصام الرواس وموقف الأستاذ الدكتور سلمان البدور لم يسعني إلا الموافقة مهما كلفني الأمر من غربة عن عائلتي التي كان بعض أفرادها لا يزالون في مراحل مختلفة من الدراسة في الثانوية والجامعة بالأردن، حيث لم أكن أرغب بالمغامرة في تغيير دراستهم لما قد يترتب على ذلك من أمور تؤثر على تحصيلهم. فقد اعتادوا على المقررات والبرامج الدراسية الأردنية.

والآن... بعد هذا المشوار من بداية السبعينيات من القرن العشرين حتى أوائل القرن الواحد والعشرين، وأنا أعود بالذاكرة إلى تلك القعود الماضية أدرك مدى عمق التدبير الإلهي الذي يدبّر شؤون البشر، وكيف أن قصتي مع تاريخ عُمان كانت محبوكة دون وعي مني لما تخبأه الأيام. فقد تعلقت بتاريخ عمان والدعوة الإباضية جنبًا إلى جنب مع تاريخ العراق والدعوة العباسية منذ بدايات شبابي وأنا أحضر للدكتوراه في جامعة لندن؛ ولم أكن أحلم بزيارة عمان أو أخطط للعمل فيها خاصة وأن جامعة السلطان قابوس لم تكن قد تأسست بعد.

وفي قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية بجامعة السلطان قابوس، وجدت فرصتي في العمل، فالمصادر متوفرة وغرفة عمان غنية بما يتعلق بتاريخ عمان والمكتبة فيها من المراجع والدوريات ما يغني الباحث المتطلع للبحث، وإدارة المكتبة وغرفة عمان مستعدة لتلبية طلبات الباحثين واستيراد ما يطلبونه من مخطوطات أو مصادر ومراجع جديدة غير موجودة. وكان قسم التاريخ قد بدأ العمل في الماجستير وفي الحال شمرت عن ساعد الجد وبدأت التدريس في السنة التمهيدية للماجستير بالإضافة في التدريس في البكالوريوس ثم الإشراف على رسائل الطلبة الذين أنهوا السنة التمهيدية من الماجستير. وفي غضون السنوات الأربعة الماضية تحققت لي ولأول مرة فرصة الإشراف على طلبة عُمانيين في ماجستير التاريخ الإسلامي ورغم تنوع موضوعات الرسائل ولكن الكفة الراجحة كانت لعناوين عن تاريخ عُمان.

وهذا شيء طبيعي فالطالب العُماني يميل لدراسة تاريخ بلاده قبل غيرها. والسلامي (ت 374هـ) يقول في كتابه (أخبار ولاة خراسان) أن "الواجب على صاحب المعرفة من أهل البلد أن يعلم جل أبنائها ويحفظ أيام أمرائها ولا شيء أزرى عليه من أن يجهل أخبار أرضه، ولعله يطلب أخبار غيرها، ويكون بذلك كمن ترك

الواجب وتبع النوافل". وكان حصيلة الإشراف لحد سنة 2008م سبع رسائل في تاريخ عمان عدا الرسائل الأخرى في موضوعات لا علاقة لها بتاريخ عُمان.

وكنت أهمس في إذن كل طالب وطالبة ألا يعتبروا ما حصلوا عليه من شهادات نهاية المطاف بل تأشيرة دخول في معترك البحث العلمي وسيجدوا الآفاق مفتوحة أمامهم. أما من يهدف من الشهادة الشهرة والمنصب فقد حكم على مشروعه البحثي بالفشل. ورغم أن الغربة لها سلبياتها، فإن إيجابياتها تكمن في حرية الشخص في استثمار وقته. وبالنسبة لي فقد وجدت الفرصة بالإضافة إلى ما أشرت إليه من الإشراف على الرسائل الجامعية، أن أعيد ترتيب أوراقي البحثية حيث نشرت كتابًا بعنوان (الموجز في تاريخ عمان في العصر الإسلامي)، كما شاركت وأشرفت على تحرير كتاب لمقرر (متطلب جامعة) يدرسه طلبة الكليات كافة وهو كتاب (تاريخ عمان ودراسات في الحضارة الإسلامية)، كما نشرت مقالة نقدية عن التحقيق الجديد لكتاب الأزكوي، وبحثًا آخر عن العوتبي، كما أعدت تنقيح ونشر عددًا من كتبي، وجمعت ما استطعت جمعه من بحوث ومقالاتي التي نشرتها في الدوريات المتنوعة وأعدتُ نشرها في كتب جديدة.

ومنذ 2007م حيث عُينت رئيس لقسم التاريخ بالكلية، أعددت بالتعاون مع لجنة الدراسات العليا بالقسم مشروعًا لدراسة الدكتوراه في التاريخ الذي سيرى النور بعد اجتيازه القنوات الأكاديمية المعتادة في أوائل 2009م، كما أن التعاون بين قسم التاريخ ومركز الدراسات العمانية بالجامعة غدا أكثر فاعلية ونشاطًا حيث تزخر خطط المركز بالعديد من المشاريع ومنها ما يتعلق بتاريخ عمان وتراثها.

وإذا كان ما قدمته في التاريخ العباسي قد نال التقدير حيث رشحت لجنة المناقشة أطروحتي لتنشر على نفقة جامعة لندن، ورشحتني لجنة "دائرة المعارف الإسلامية" الذائعة الصيت لكتابة مداخل عن التاريخ العباسي. فإن ما أنجزته عن تاريخ عمان لا يقل عن ذلك، فقد نشرت جامعة آل البيت ووحدة الدراسات العمانية فيها مؤلفاتي وبحوثي عن تاريخ عمان. ومنحتني في أكثر من مناسبة في مؤتمرات الجامعة أوسمة تقديرية. ورشحتني هيئة (الموسوعة العمانية) في سلطنة عمان لكتابة مداخل عن تاريخ عمان، لعل أبرزها مدخل (عمان والدولة العباسية). ومن المفارقة أن هذا المدخل يجمع بين الاختصاصين الذين اكتب فيهما التاريخ العباسي

والتاريخ العماني. ولا أنسى تكريم معالي الفاضل عبد العزيز بن محمد الرواس مستشار جلالة السلطان قابوس للشؤون الثقافية وكلماته التي ستبقى محفزًا لي في دراساتي التاريخية عامة والعمانية خاصة، وقد علّق في رسالة خاصة بعد أن قرأ (قصتي في تاريخ عمان): "أن قصتكم مع تاريخ عمان قد أظهرت لي صورتكم المثابرة في البحث..". [1]

هذه قصتي مع تاريخ عمان حاولت إيجازها والإشارة إلى علاماتها البارزة في مسيرتي التي اعترضتها عقبات، ولكنها كانت تحظى بالرعاية الإلهية في كل مراحلها وإلا لما تحقق ما تحقق. فالله والحقيقة من وراء القصد والحمد لله رب العالمين أولاً وأخيرًا.

مؤلفات الباحث في تاريخ عُمان:

الكتب:

1- مقدمة في دراسة مصادر التاريخ العُماني المحلية، ط1، بغداد، 1979م، (عدة طبعات).

2- تاريخ الخليج العربي في القرون الإسلامية الأولى، ط1، بيروت، 1983م (يحتوي على عدة محاور عن عُمان)، (عدت طبعات).

3- الإمامة الإباضية في عُمان، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، ط1، الأردن، 1979م.

4- دراسات في تاريخ عُمان، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، ط1، الأردن، 2000م.

5- موجز تاريخ عمان السياسي في العصر الإسلامي الوسيط، ط1، الأردن، 2008م.

6- تاريخ عمان ودراسات في الحضارة الإسلامية (تحرير ومشاركة)، ط1، مسقط، 2008م، ط2، سنة 2009م.

كتب مترجمة:

(1) العلاقات العربية - الأمريكية في الخليج، تأليف أميل نخلة، ترجمة فاروق عمر فوزي، نشر مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، 1977م.

الأبحاث والمقالات:

1- ببليوغرافيا في تاريخ عمان 1947م، مجلة المورد، وزارة الثقافة، بغداد، العراق.

2- ملامح من تاريخ الإباضية كما تكشفها مخطوطة كشف الغمة للأزكوي، 1975م، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العراق.

3- عوامل تدهور وسقوط الإمامة الإباضية الثانية في عُمان 1977م، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق.

3- عوامل تدهور وسقوط الإمامة الإباضية الثانية في عُمان 1977م مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العراق.

4- مصادر التاريخ العماني المحلية 1977م، الندوة العالمية لدراسات تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، (منشورة ضمن إصدارات الندوة).

5- ثلاث معارك حاسمة في تاريخ الخليج العربي، 1984م، مجلة آفاق عربية، بغداد، العراق.

6- نظرية الإمامة لدى الإباضية في عمان، 1985م، ضمن كتاب التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، بغداد، العراق.

7- الفكر السياسي للخوارج بين النظرية والتطبيق، 1998م، مجلة الندوة، عمّان، الأردن.

8- انتشار عرب الخليج في الأقاليم الشرقية للخليج العربي، 1999م، مجلة المنارة، عمّان، الأردن.

9- دور أهل عمان في نشر الإسلام، 2000م، ضمن كتاب دراسات في تاريخ عُمان- المفرق، الأردن.

10- الإمامة اليعربية من خلال المصادر التاريخية العُمانية، 2004م، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، الأردن.

11- صورة الفقهاء الإباضية في المصادر التاريخية، 2004م، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، الأردن.

12- كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة للأزكوي، 2006م، تحقيق حسن النابودة، نقد وتعليق، مجلة الدار، الرياض.

13- مشادة حول العوتبي الصحاري، 2008م، منشورات وحدة الدراسات العُمانية، جامعة آل البيت، الأردن.

14- قصتي مع تاريخ عُمان... (هذه المقالة).

أطروحات عن تاريخ عُمان أشرف عليها:

(1) الدعوة الإباضية في المشرق العربي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1977م.

(2) الإمام جابر بن زيد الأزدي الإباضي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة آل البيت، 1997م.

(3) العلاقة بين الفقهاء والأئمة الإباضية في عُمان 132-280هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة آل البيت، 2003م.

(4) نزوى في عهد الإمامة الإباضية الثانية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2006م.

(5) قضية الإمام الصلت بن مالك الخروصي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2006م.

(6) الإمامة الإباضية في اليمن والحجاز، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2007م.

(7) صورة عمان في مصادر الجغرافية والرحلات الإسلامية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2006م.

(8) الأحوال السياسية والثقافية في عُمان خلال القرنين 6و7هـ، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2008م.

(9) الصراع القرمطي - البويهي حول عُمان، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2008م.

(10) الفتح المبين في سيرة السادة البوسعيديين، دراسة وتحقيق، (مشرف مشارك)، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة السلطان قابوس، 2006م.

أطروحات في الفقه والحديث شارك في الإشراف عليها:

1- رواية الحديث عند الإباضية، قسم الفقه، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، 1998م.

2- الأحاديث الواردة في الخوارج، دراسة تخريج، قسم الفقه، جامعة آل البيت، الأردن، 1998م.

الهوامش:

(1) رسالة بتاريخ 2008/7/1م، مسقط.

كتب أحد النقّاد "لعلنا نستطيع أن نستخلص مما سبق اتفاقًا في الرأي بأنّ د. فاروق عمر واحد من أبرز المشتغلين في حقل الدراسات التاريخية من الجيل الذي أعقب "الرواد" في هذا الحقل... نظرًا لدراساته التي خص بها واحدًا من أكبر العصور وأكثرها أهمية... العصر العباسي.

وفيما عدا التاريخ العباسي يبدو أن اتجاهات الدكتور فاروق قد تنوعت بحسب اهتمامات الأمة وبحسب آلامها ومعاناتها، فكتب في تاريخ فلسطين مؤكدًا عروبتها فاضحًا نوايا الصهيونية، وكتب عن حقد الشعوبية القديمة- الجديدة وعدوانيتها تجاه العراق والأمة. وكتب في تاريخ الخليج العربي محذّرًا من نوايا الطامعين بعد نوايا المستعمرين. كل ذلك بعقل المؤرخ الذي يقلّب الروايات التاريخية على وجوهها ليستخلص منها ما يراه حقيقة، وبعقل المفكّر الذي يرى في هذه الروايات ما ينهض بأحكامه على عصر أو يحدد سمات شخصية أو يؤكد معالم حركة.

ولعل تميّز مؤرخنا في كتاباته سواء للمتخصصين الأكاديميين أو للمثقفين عمومًا يأتي من كونه مقتنعًا بصدق ما يريد قوله، فهو لا يستطيع إقناع قرّائه ما لم يقنع نفسه أولاً وقبل كل شيء".

أما الدكتور فاروق فيقول عن نفسه: "ربما كنتُ من الكُتّاب الذين يشعرون بالهدوء حين يكتبون، وأشعر بسعادة تغمرني حين أنهي عملاً ما أو بحثًا... وبالعكس حين أكون قلقلاً منزعجًا يعرف من حولي إنني متوقف عن البحث والكتابة لسبب من الأسباب". وفي هذا فهو من الكتّاب الذين يعدون جهد الكتابة وتعبها أهون عليه من المشاعر النفسية لحالة التوقف عن الكتابة والمتابعة والقراءة. وهناك صفة أخرى أشار إليها أحد النقّاد الذين تعرّفوا على كتابات الدكتور فاروق حين قال: "أما أهمية الدكتور فاروق عمر على صعيد الكتابات التاريخية. فإن العديد من أبحاثه تشير إلى أنه مؤرخ جاد وشجاع كوّن خلال تجربته في كتابة التاريخ العربي الإسلامي قناعات فكرية تعتمد أساسًا على محاولة تكوين نظرة ذاتية عربية...".

إنَّ جرأة الدكتور فاروق عمر في طرح أفكاره ومساجلاته التي ظهرت في المجلات العلمية والعامة زادت من شهرته، ولكنها في الوقت نفسه جلبت له المتاعب. على أنّ جديّته واقتناعه بالآراء التي يوردها كانت على الدوام تخفف عنه تلك

المتاعب. فآراؤه لا تستند على المزاجية وليس لها صلة بعلاقاته العامة بل تستند على روايات التاريخ ولا تهدف إلا البحث عن "الحقيقة" بقدر جهده واجتهاده في فهمها.

يرى فاروق عمر أن على المؤرخ العربي أن يضع مشكلات الحاضر وموقف الحاضر نصب عينيه على الدوام، ولهذا نراه وهو يكتب عن فلسطين في العصور الوسطى الإسلامية ينتقل ليقارن ما حدث وما قيل في تلك الفترة الوسيطة بدعاوى ومزاعم حديثة.

إن شجاعة الدكتور فاروق في عرض ما يؤمن به من أفكار وما يدعو إليه من آراء في التاريخ وضعته مرات عديدة في صراع خفي أو علني مع عدد من الأشخاص. فالدكتور فاروق من الباحثين الذين كرّسوا حياتهم لمهنتهم ولاستقصاء "الحقيقة التاريخية" وإبرازها، ويسعده في هذا الأمر أن العديد من طلبته في الدراسات الأولية والعليا يستخدمون منهجه في البحث قدوة لهم وأنهم لا يدخرون وسعًا في الاستفادة من تجاربه وخبراته في ميدان البحث التاريخي.

وثمة ظاهرة أخرى في سيرة الدكتور فاروق العلمية هي نجاحه في استقطاب بعض دور النشر التي ساهمت في نشر كتبه، ذلك أن نشر الكتاب في الوقت الحاضر يكلّف مبلغًا باهضًا، والأستاذ الذي ينجح في العثور على دار نشر تتعهد بنشر كتاب له يعدّ في الوقت الراهن محظوظًا. والواقع أن عددًا من أساتذة الجامعة يهمهم نشر كتبهم أكثر من اهتمامهم بالمردود المالي للكتاب نفسه فهم يقتنعون بالحد الأدنى من هذا المردود الذي ربما لا يحصلون عليه في نهاية المطاف. وفي رأي أحد النقّاد أن الأسلوب الذي يكتب به الدكتور فاروق سهّل وسلس حيث يطرح أفكاره بطريقة جذّابة معبّرة بصورة مباشرة تستهوي القارئ العام قبل الخاص، وربما كان هذا أحد الأسباب التي شجعت دور النشر على نشر كتبه. أما السبب الآخر فهو بالتأكيد حسن اختياره للموضوعات التي يكتب عنها.

ونختتم كلامنا عن الدكتور فاروق برأي عن كتاباته طرحه طالب في الدراسات العليا حين قال: "وأحسُّ بأنَّ واجب العرفان بالفضل يقتضيني أن أبدي خالص تقديري وامتناني لأستاذي الفاضل الدكتور فاروق عمر فوزي الذي أمدني بسيل من الملاحظات والتوجيهات العلمية القيّمة التي أغنت البحث وأخرجته بهذا الشكل والمضمون وأقدر فيه روح الرعاية العلمية لجميع طلبة الدراسات العليا..."

وفي مكان آخر قال الطالب نفسه: "... كما أفدتُ من كتابات الدكتور فاروق عمر فوزي سواء أكانت على شكل كتب أم مقالات، فقد أعانتني وأنارت لي الطريق في كثير من الجوانب التي تخص البحث، فكان لكتاب (الجذور التاريخية للوزارة العباسية) حضور دائم في صفحات الرسالة لما حفل به من استنتاجات مهمة، كذلك (طبيعة الثورة العباسية) و(العباسيون الأوائل) فضلاً عن المقالات المنشورة في مختلف المجلات، ولهذا ليس من المبالغة القول أن أي باحث في التاريخ العباسي لا يمكن أن يعطي صورة واضحة ومتكاملة لبحثه من غير الرجوع إلى ما كتبه الدكتور فاروق عمر في مختلف مجالات التاريخ العباسي فباعه طويل فيه".

ويقول د. فاروق "ورغم إنني أدرك ما قاله ديكارت الذي عاش في عصر النهضة الأوروبية حين حذّر المؤرخ أن يكتب عن قومه ونفسه، وانتقد كتب التاريخ، وشكّك في تصويرها الأحداث تصويرًا صادقًا، وأن الأحداث التي يعرض لها التاريخ لم تقع بالشكل التي صوّرت به لأن المؤرخ يعمد على حذف بعض الاعتبارات "السلبية" أو "غير المشرفة"، ولذلك فهي صورة غير صادقة تمامًا، أو ربما في بعض الأحيان من نسج الخيال. ولكني لا أتفق معه فإن المؤرخ قد تؤثر عليه عاطفته وميوله وخياله ولكنه أصبح لديه من الأساليب ومناهج البحث وأصوله في القرن الواحد والعشرين ما يكفل له النقد والتحليل والتفسير بحيث يقدم صورة أقرب ما تكون إلى الحقيقة. وكيف يتسنى للإنسان أن يتجرّد من العاطفة والإحساسات الوجدانية التي تعبّر بصدق عن نفسيّة المؤرخ الإنسان. فالمطلوب هو التوازن ضن ضوابط أصول البحث العلمي ومنهجه. وهذا ما حاولتُ أن أنهجه في هذا الكتاب".

خلاصة الكتاب

أ.د. فاروق عمر فوزي محاضر من الطراز الأول، وقد استطاع بلباقة إيصال معلوماته إلى تلاميذه في الجامعة، فجلب احترامهم وكسب انتباههم. ومؤلف ناجح، بمعنى أن ما يكتبه يجلب الانتباه لكونه يحوي على أصالة وإضافة جديدة أو تفسير جديد للمعرفة، والمؤرخ الذي أعاد تقويم الثورة العباسية وما تلاها من أحداث العصر العباسي الأول، ونفى بالبراهين الصفة اللاأعروبية عن تلك الثورة وعصرها، تلك الصفة التي شاعت في الاستشراق الأوربي ورددها مؤرخونا العرب حتى منتصف القرن العشرين، ويظهر ذلك جليًا في كتابه (طبيعة الدعوة العباسية).

وميزة أخرى في الدكتور فاروق: الضبط والدقة والنظام، ولولاها لما استطاع في فترة قصيرة أن يؤلف عشرات الكتب والبحوث، وكل كتبه تدور في حضارة العرب وتاريخهم وعلاقاتهم مع الشعوب الأخرى، وبعضها ينشر مرات، وأكثرها كتب بأسلوب الجمهور المثقف وغالبيته من جمهور الجامعات العربية.

ولد في الموصل 1938م في أسرة يعمل أبوه وجده في الجيش العراقي، وقد تعلّم منهما الكثير من قيم الضبط والربط، وانعكس ذلك في أبحاثه. أكمل دراسته الثانوية بالموصل ودخل قسم التاريخ بجامعة بغداد 1955م، وتخرّج بدرجة الشرف وكان الأول على (دفعته)، ثم حصل على الدكتوراه من جامعة لندن 1967م، وفي السنة نفسها عيّن مدرّسًا للتاريخ الإسلامي بكلية الآداب- جامعة بغداد. وتدرّج في مناصب علمية وإدارية عديدة. فمن مدير للدراسات الاجتماعية بوزارة التعليم العالي إلى رئيس لقسم التاريخ إلى المشرف العام لبيت الحكمة وهي مؤسسة للتأليف والترجمة والنشر الجامعي، وفي كل هذه المناصب لم يتخلّ عن موقعه كأستاذ في الجامعة.

وقد أعيرت خدماته للتدريس في جامعة عربية وأجنبية، وشارك في العديد من المؤتمرات التاريخية، دعي لكتابة مقالات في (دائرة المعارف الإسلامية) التي تصدر بثلاث لغات: إنكليزية وألمانية، وفرنسية، و(دائرة المعارف البريطانية) و(الموسوعة الفلسطينية)، كما ظهرت له ترجمات عن سيرته الذاتية في العديد من الببليوغرافيات في داخل الوطن العربي وخارجه.

لابد أن أشير بأن تجربتي في الكتابة التاريخية شهدتْ منعطفين مهمين الأول: أثناء إعدادي لأطروحتي للدكتوراه في جامعة لندن في موضوع "طبيعة الثورة العباسية"، وكان الموضوع معقّدًا وعليه آراء مختلفة بين المؤرخين سواء من حيث الواجهة الدينية أو السياسية لتلك الثورة، وكان عليّ أن أقرأ الكثير من مصادر أصيلة ومراجع حديثة وبحوث ومقالات بلغات متنوعة.

وقد تيسّر لي – والحمد لله – الإطلاع على مخطوطات جديدة لم تكن معروفة لدى المؤرخين من قبل. ولقد ساعدتني قراءة نصوص هذه المخطوطات على إعادة تقويم روايات الطبري وبقية مؤرخي الفترة العباسية بطريقة جديدة تختلف تمامًا عما ذهب إليه المستشرقون ومن تبعهم من المؤرخين العرب، واختصارًا للموضوع فقد استطعت أن أثبت عروبة الثورة العباسية وأرفض الرأي السائد السابق حولها.

إن قبول الرسالة ونجاحي في الحصول على دكتوراه في جامعة عريقة مثل جامعة لندن كانت خطوة مهمة ومنعطفًا حادًا في سعيي لإعادة النظر في حركات ومظاهر تاريخية أخرى كانت تخريجات المستشرقين حولها نظريات لا تقبل الشك.

أما المنعطف الثاني فكان حين دعيت من قبل لجان دوائر المعارف التاريخية العالمية لكتابة مقالات في التاريخ العربي – الإسلامي.. وقد وجدت وأنا أبحث في كتب التاريخ ومقالات المؤرخين مقدار الخلط والتحريف الذي تعرّض له تاريخنا العربي – الإسلامي.. ومنذ ذلك الحين بدأت أدوّن الملاحظات في قصاصات من الورق حول كل حركة أو ظاهرة حضارية أو نظام من النظم العربية الإسلامية حتى تجمّع لديّ من القصاصات...

ثمّ بدأتُ أنظّمها وأنسق محتوياتها فإذا بها تخرج على شكل كتب عديدة فيها إعادة تقويم وردود تستند إلى روايات موثوقة تعيد للتاريخ العربي الإسلامي دوره في حركة التاريخ العام، ولعل باكورة هذه الكتب هو كتابي الموسوم "التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين" وفيه دعوة صريحة إلى إعادة كتابة التاريخ العربي مستندة إلى نظرة ذاتية شمولية وتعتمد على المصادر الموثوقة، ليست متأثرة بتيار ما بل تعتمد الموضوعية في التفسير والمنهجية العلمية في التحليل... وهذه باختصار فرصتي التي أحاول أن أبلورها من خلال مقالاتي وكتبي في مجال اختصاصي.

مقدّمات

بعض الكتب التي ألفها

أ.د. فاروق عمر فوزي

"The oldest Books are still only just out to those who have not read them"

Samuel Butler

مقدمات بعض الكتب التي ألفها أ.د. فاروق عمر فوزي

- طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، 1970م.
- العباسيون الأوائل، الطبعة الجديدة، ج1، ج2، عمّان، 2003م.
- العباسيون الأوائل، الطبعة القديمة، ج3، عمّان، 1982م.
- الخلافة العباسية - عصر القوة والازدهار، ج1، الطبعة الأولى، عمّان، 2003م.
- الخلافة العباسية - عصر السقوط والتدهور، ج2، الطبعة الأولى، عمّان، 2003م.
- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، الطبعة الأولى، بغداد، 1970م.
- التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، الطبعة الأولى، بغداد، 1985م.
- بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الأولى، بغداد، 1977م.
- دراسات في التاريخ الإسلامي، الطبعة الأولى، عمّان، 2005م.
- قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي، ط1، عمّان، 2007م.
- المدخل إلى تاريخ آل البيت، ط1، عمان، 1999م.
- المدخل إلى التاريخ الإسلامي (انتشار الإسلام)، عمّان، 2001م.
- الجذور التاريخية للوزارة العباسية، ط1، بغداد، 1986م.
- الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، عمّان، 1998م.
- الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، ط1، جديدة، عمّان، 1999م.
- نشأة الحركات الدينية - السياسية في الإسلام، الطبعة الأولى، عمّان، 1999م.
- الجيش والسياسة، الطبعة الأولى، عمّان، 2005م.
- تاريخ النظم الإسلامية، طبعة أولى، دبي، 1981م، طبعة جديدة، (لم يُنشر بعد).

- التدوين التاريخي عند المسلمين، ط1، الإمارات العربية المتحدة، العين، 2004م.
- نقد الرواية التاريخية عند المسلمين، ط1، الإمارات العربية المتحدة، العين، 2007م.
- تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية، الطبعة الأولى، الإمارات العربية المتحدة، 1983م.
- الإمامة الإباضية في عُمان، ط1، منشورات وحدة الدراسات العمانية، جامعة آل البيت، الأردن، المفرق، 1997م.
- دراسات في تاريخ عُمان، ط1، منشورات جامعة آل البيت، الأردن، المفرق، 2000م.
- الموجز في تاريخ عمان السياسي، الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2008م.
- تاريخ عمان ودراقسات في الحضارة الإسلامية، الطبعة الأولى، منشورات جامعة السلطان قابوس، مسقط، سلطنة عُمان، 2008م، طبعة جديدة، 2009م.
- الأمويون في التاريخ، الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2009م.

* The Abbasid Caliphate 132/150-170/786, ph.D . thesis, University London, 1967, Ist. Pub., Baghdad, IRAQ, 1967.
* Studies in the History of sects in Medieval Islam, Prepared and edited by F.O. Fawzi, Amman, Jordan, 2001.
* Aspects From, Abbasid History, Per pared and edited by F.O. Fawzi Amman, 2003.

(1)

كتاب (طبيعة الدعوة العباسية) (1)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الملهم للصواب، الهادي للرشاد، والصلاة والسلام على نبيه محمد الفصيح اللسان...

وبعد؛ فإن التراث الإسلامي تراث أصيل وعميق في هذا الشرق والدعوة إلى إحيائه وتجديده لا يمكن أن ترتضي لنفسها إلا وجهة علمية موضوعية خالصة تقوم في أسسها على الشك قبل التصديق والتسليم، وعلى مناقشة الأسس والمبادئ قبل قبولها. وبهذا نستطيع تحقيق نهضة علمية تاريخية بعيدة عن السطحية الساذجة والعمومية المملة والعصبية الضيّقة والتخطيط الناجم عن زحام الآراء واصطراع المبادئ والأفكار.

ثمّ إن نظرتنا إلى التاريخ الإسلامي يجب أن تكون ضمن إطار كونه طورًا من التاريخ الإنساني العام. وهذا الطور له خطره وله شخصيته، فلقد كانت البعثة النبوية للرسول (صلى الله عليه وسلم) المفجّر الأول لطاقات العرب التي وضعت أسس تاريخ حافل للدولة الإسلامية التي قضت على الإمبراطورية الساسانية، واقتطعت أحسن ما في الإمبراطورية البيزنطية فازدهرت حضارة راقية في ربوع الشرق الإسلامي كان لها دورها الفعّال في تكوين الحضارة الإنسانية.

وهكذا صنع العرب والمسلمون تاريخهم، ثم تيّسر لهذا التاريخ أن يُكتب.

إن موضوع هذا البحث - الثورة العباسية وما حدث في أعقابها - لم يكن حدثًا طارئًا في التاريخ الإسلامي أدى إلى انتقال السلطة من عائلة إلى عائلة أخرى، بل كان ثورة جذرية أنتج تغييرات بعيدة المغزى في السلطة وفي المجتمع بأسره من الناحيتين السياسية والحضارية.

ولقد تطرقتُ إلى موضوع "الثورة العباسية" في فصل واحد من أطروحتي للدكتوراه، إلا أن ما كتبته عنها حينذاك كان يخص الواجهة السياسية منها فقط.

وقد تجمع عندي في حينه الكثير من الروايات التاريخية عن واجهات الثورة وشعاراتها المختلفة وحوادثها رأيتُ أن أعرضها في هذا الكتاب مع التأكيد على التفسير الحديث للثورة الذي يبرز دور العرب الخراسانية في الثورة والعصر العباسي الأول.

لقد قيل بأن "الحقيقة بنت البحث دائمًا".. ومن هذا المنطلق تنبعث الحاجة إلى النظر في حوادث التاريخ وإعادة تقييمها وتهذيبها من جديد. فإن ما كتب منذ سنين يحتاج إلى التعديل والتجديد بل إلى التغيير الجذري أحيانًا، وبذلك يكون بإمكان الباحث أن يستفيد مما استجد من معلومات قيّمة لم تكن معروفة سابقًا. وفي الفصل الأول يلاحظ القارئ دراسة للمصادر التي تعالج حوادث الثورة العباسية وموقف الإخباريين والمؤرخين ذوي الميول المختلفة من تطورات "الثورة" ومواقف شخصياتها من بعضهم البعض ومن الكتلة الأموية. وقد حاولنا أن نفصل في التعليق على طبيعة المصادر غير المعروفة لحد الآن ومنها ما هو مطبوع حديثًا ومنها لا يزال على شكل مخطوطات في مكتبات أستانبول والقاهرة، وبغداد، ولندن ودبلن، وأكسفورد.

وعلى ضوء ما ورد في المخطوطات من روايات تاريخية أعدنا تقييم الروايات الموجودة في الطبري واليعقوبي وغيره لنظهر مدى قيمة هذه المصادر الأصلية بالنسبة لما عثرنا عليه من مخطوطات جديدة.

كما وأننا استعرضنا ما كتبه المؤرخون المحدثون من كتب ومقالات عن الثورة العباسية مبدين وجهة نظرنا فيها. ولعل الباحث في تاريخ هذه المرحلة يدرك أنها نالت قسطًا كبيرًا من العناية سياسيًا وحضاريًا ذلك لأنها فترة "العصر الذهبي" في الإسلام فكان من الطبيعي أن يتجه إليها الباحثون في الشرق والغرب.

أما الفصل الثاني فيعالج التفاسير التي حلّل بها المؤرخون القدماء والمحدثون طبيعة الثورة العباسية. ويبدأ بشرح موقف المؤرخين الرواد المسلمين، ثم ينتقل إلى موقف مؤرخي القرن التاسع عشر وبداية العشرين من الثورة ويفضل التفسير العنصري "الفرس ضد العرب" ثم ينتقل إلى شرح مواقف المستشرقين (هاملتون جب) و(برنارد لويس) و(دانيال دينت) عن الثورة وتلميحاتهم بضرورة إعادة تقييم الثورة العباسية. وبعد أن يشرح الفصل وجهة نظر محمد عبد الحي شعبان وغيره

من المؤرخين العرب ينتقل إلى إثبات صحة التفسير الجديد القائل بأن القبائل العربية من "أهل خراسان" كانت القوة الفعّالة في الثورة.

ويتناول **الفصل الثالث** واجهات الثورة العباسية بالتفصيل، فيتعرض في الواجهة الدينية إلى الحركة الهاشمية بقيادة أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية العلوي الذي أوصى قبيل وفاته إلى محمد بن علي العباسي ليكون زعيمًا للهاشمية وبهذا أصبحت الحركة عباسية صرفة. ويستعرض الجذور التاريخية لادعاء العباسيين بالخلافة. ثمّ ينتقل إلى ذكر "إعلان" العباسيين بعد تسلمهم الحركة وخاصة زمن المهدي إلى أن ادعائهم بالخلافة يستند على كون العباس عم الرسول (ﷺ) ووريثه، وادعائهم بأن الرسول (ﷺ) أوصى له بذلك، وبذلك تبرأوا من أية صلة بأبي هاشم والمنظمة السرية الهاشمية. أما الواجهة السياسية فتبحث في استيطان القبائل العربية في خراسان وخاصة في مرو وقراها وإلى أسباب استياء هذه القبائل من سياسة الأمويين العسكرية والمالية. ثم علاقتهم بالوالي الأموي وبدمشق من جهة وعلاقتهم ببعضهم من جهة أخرى.

ويتطرق **الفصل الرابع** إلى تنظيم الدعوة فيبحث في فعاليات الدعاة في الحميمة - الكوفة - مرو. وتنظيمات الدعوة السرية من تأليف مجالس للنقباء ونظراء النقباء والدعاة ثم يتطرق إلى شعارات الدعوة ومدى تقبلها من الناس. ثم تفجيرها على يد إبراهيم الإمام، والصراع الذي إحتد بين القبائل والوالي الأموي، واستغلال المنظمة السرية العباسية لذلك. ولعلّ هذا الفصل يضع النقاط على الحروف فيما يتعلق بدور النقباء وخاصة سليمان الخزاعي شيخ النقباء وأبي مسلم "صاحب الدولة وأمير آل محمد" ويستخلص بأن الثورة لم تنجح بسبب وجود أبي مسلم في خراسان، بل إنها قامت ونجحت بنتيجة جهد جماعي لا فردي.

أما **الفصل الخامس** فيسرد الأحداث والتطورات السياسية التي عجلت بنهاية الأمويين، ولعل أهم ما يستخلص من هذا الفصل هو أن سقوط الأمويين لم يكن بسبب قلة في عددهم أو عدتهم. فلقد كان جيش مروان معادلاً لجيش العباسيين في معركة الزاب الكبير إذا لم يكن أكثر منهم، ولكن بسبب تضعضع معنوياتهم والشكوك التي ساورت قادتهم في "شرعية" حكم مروان الثاني. كما وأن شيوخ القبائل قد سئموا الدولة الأموية وكانوا يتطلعون إلى الخير العميم من العهد الجديد "الدولة الهاشمية".

ويبحث **الفصل السادس** في علاقة الحكم العباسي الجديد بالدعاة العباسيين ومدى انطباق القول المأثور "الثورة تأكل رجالها" على تطورات الأحداث في أعقاب الثورة العباسية. ويفصل في الانشقاق بين الدعاة في خراسان، والصراع بين الخليفة والدعاة على السلطة والنفوذ. ويبحث هذا الفصل كذلك في كيفية تخلص الثورة من الكتل والشخصيات التي تحالفت معها أثناء الثورة.

أما **الخاتمة** فتتناول "مغزى" الثورة العباسية، أي معنى الانتقال إلى العباسيين من الناحية السياسية والحضارية. وفي الخاتمة فذلكة تاريخية تحلل جذور الثورة العباسية وتؤكد على أصالتها مقارنة إياها بثورات أخرى. وتبرز التغييرات التي طرأت على المفاهيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، تلك التغييرات التي لولاها لما سمينا الحركة العباسية "ثورة".

وإذا كان التاريخ يكوّن مادة ضرورية من ثقافة تلك الكتلة من الشعب الناضجة سياسيًا، وإذا كان التاريخ يساعد بصورة مباشرة وغير مباشرة على توضيح الحاضر وإنه يساعد المواطن أن يعيش حياة مليئة ويشعر بمسؤوليته كاملة، فإن هذا التاريخ يجب أن يكتب بطريقة علمية موضوعية بعيدة عن المبالغة أو التحيز، وعلى المؤرخ ألا يؤمن بتفسيرات معينة ثم يجمع مادته ليثبت صحة التفسير الذي يعتقد بصحته بل عليه أن يجمع مادته ويمحصها بنقدها نقدًا داخليًا وخارجيًا وحينئذ سيتوصل تلقائيًا إلى الحقيقة التاريخية ويعرضها. ولقد وصفت الطريقة العلمية في الدراسات الإنسانية بأنها "عبارة عن تعريف المشكلة وصياغة حلها الفرضي وجمع الشواهد والأدلة التي تدعم الحل الفرضي الذي يوضع موضع الاختبار، أو التي تدحضه وذلك عن طريق الملاحظة والتجريب وإذا كانت الأدلة الداحضة للفرض أقوى من تلك التي تدعمه، فلابد من التفكير في فرض آخر تتم البرهنة على صحته أو خطئه بالتالي على أساس الأدلة المتجمعة، فإذا ثبتت صحة الفرض عندئذ يثبت ويصبح اكتشافًا علميًا له أهمية قد تكون كبيرة أو صغيرة" [2] على أننا يجب أن نضيف بأن دراسة التاريخ تعني دراسة السلوك الإنساني، ولذلك فإن الكتابة التاريخية أكثر تعقيدًا من الكتابة في المواضيع العلمية الأخرى التي تدرس الطبيعة أو الحيوان والنبات.

ولقد حاولت فيه هذا البحث جاهدًا أن أكون موضوعيًا فلم أتبن اتجاهًا معيّنا لتفسير التاريخ ولم أخطط لنفسي إطارًا محددًا يؤمن بنظرية معينة في تفسير

الثورة، كما وإنني لم أر الماضي بمنظار الحاضر ولم أدرس ذلك الماضي على ضوء مفاهيم الحاضر ومشاكله. وبعد فأرجو أن أكون قد ساهمت في إيضاح جوانب مهمة من الثورة العباسية ذلك الحدث الهام في تاريخ الدولة الإسلامية.

المحتويات

(2)

كتاب (العباسيون الأوائل)[3]

تـوطـئـة

يتميز عصرنا بسرعة التغير واستمرارية التبدل، فتهب شعوب لبناء حياة جديدة، وتثور شعوب أخرى على أوضاعها لتغير فيها وتبدل في مفاهيمها. وشعبنا العربي اليوم يسير في ركب الشعوب التي تتحسس أوضاعها وتتحفز إلى نشأة جديدة نسأل الله أن تكون سليمة.

ولكي تكون وثبتنا هذه تعتمد على أسس مستوفية لشروط النمو واضحة الغايات والمبادئ فإن الاستعانة بتاريخنا الحافل بالمثل والتجارب ضرورة لازمة. فالتاريخ خزانة كبيرة تحفل بأحداث الماضي البعيد والقريب التي تعيننا على جلو الحقائق وإدراكها ورسم خطة المستقبل. فقد قيل: "كلما أطلت بصرك إمعانًا في الماضي ازدادت بصيرتك خبرة بالمستقبل". فالماضي يؤثر في المستقبل بقدر ما يؤثر في الحاضر. وإن من طبيعة التاريخ أن يساهم في بناء التاريخ نفسه إذ ليس للماضي قيمة إلا في نظر من يهتم بالمستقبل.

على أن دور المؤرخ لن يكون كبيرًا إذا لم يفرق بين الحقيقة التاريخية والأسطورة، وإذا لم ينفتح على الواقع ويرفض كل "الأطر المسبقة" التي تحدد من حريته وتكبت فيه روح الموهبة والتفقه والجرأة على قول كل ما يعتقد أنّه صواب. إن المؤرخ الذي يسير على خطة الأطر المسبقة لا يفيد الحقيقة في شيء ذلك لأنه يؤمن بقواعد ونظريات معينة، ثم يحاول جمع مادته ليثبت صحة تلك النظرية التي يؤمن بها مسبقًا. والخطأ في البداية يقود بطبيعة الحال إلى الخطأ في النهاية. وقد رفضت المدرسة الحديثة في التاريخ الأطر المسبقة. وتقول هذه المدرسة أن مهمة التاريخ لا تنحصر في سرده للحوادث، ولا في تسلسله لها على نمط زمني. كذلك لن تكون مهمته كاملة مستوفية لأغراضه إلا إذا استطاع المؤرخ استيعاب الوقائع وتمثلها حتى تصبح جزءًا من خبرته بل من كيانه الفكري، لأن التاريخ في تدوينه للحوادث لا يقوم على جمع الحقائق وتوليفها ولكنه يقوم على نمط من التجارب العميقة التي يستلهمها المؤرخ والتي يعيش في خضمها على أنها صدى لتجربته.

ومن ذلك نذكر أن المؤرخ المفكر يجب أن يكون فيلسوفًا يرتفع بإدراكه إلى طلب الغاية واكتشافها من بين معاني الروايات التاريخية المتعددة.

وفي المعنى نفسه ومن المنطلق نفسه يقول مفكر عربي: "إن من أهم مقتضيات الحياة الصحيحة جلاء المفاهيم الأساسية التي تقوم عليها. فهذه المفاهيم هي التي تحدد الغايات التي تتجه إليه حياة الأفراد والمجتمعات، وتعين الوسائل التي تتخذها هذه الحياة.. فاستيضاح هذه المفاهيم ضروري لمن يرغب في فهم مجتمع من المجتمعات. كما وأنه ضروري لأبناء ذلك المجتمع والدور التاريخي الذي يقومون به، لأنه يكشف لهم عن غاياتهم ووسائلهم واتجاهاتهم، ويمكنهم من تدبرها ويعينهم على معرفة ما تتضمنه من صواب أو خطأ ومن خير أو شر. وبهذا كله يتدرجون في سبل السلوك الواعي، ويتجنبون المزالق والمخاطر ويستثمرون جهودهم أفضل استثمار.

إنه لمن المبالغة القول من غير تمحيص أن المؤرخين المسلمين حتى بدايات القرن العشرين قدموا لنا تفسيرًا للتاريخ في حين أنهم في الغالب لم يقدّموا في الواقع إلا وصفًا لإحداثه السالفة. على أن القرن العشرين وما بعده شهد في أكثر مجالات التفكير ومنها التفكير التاريخي تقدمًا ملحوظًا في معلوماتنا حيث اكتشفت مادة كبيرة في مخطوطات ووثائق جديدة وهذا بطبيعة الحال ساعدتنا على أن نتفهم الأحداث الماضية بطريقة أعمق.

على أننا لا نزال نعاني ممن يعتقد "بالأطر المسبقة" وممن "يقلد". أقول قولي هذا لأنني ألاحظ كتبًا ألفها مؤخرون محدثون واعتمدوا فيها على تفاسير بعض قدماء المستشرقين دون تمحيص أو إعادة تقييم، ولذلك وقعوا في عين الأخطاء التي وقع فيها هؤلاء المستشرقون. ورغم أن هذه الآراء الاستشراقية باتت قديمة في الغرب وظهرت بدلها تفاسير جديدة عدلت فيها وغيرت إلا أننا لا نزال حتى يومنا هذا نتداول تلك الآراء القديمة ونستدل عليها ولا تزال كتب تصدر ومقالات تنشر تجتر تلك الآراء التي آن لها أن تستبدل. وسنورد في طيات كتابنا بعض هذه الآراء التي تدخل ضمن هذه الدراسة. ولكن المؤلف حين ينتقد بعض هذه الدراسات القديمة، لا يتنكر لفضلها وأهميتها في تكوين أفكاره وتفسيراته. ذلك لأن كل بحث في التاريخ هو في حقيقته حصيلة مشاركة الباحثين السابقين في الموضوع نفسه وعلى الباحث أن يواظب في تفتحه على مختلف الدراسات عن الموضوع الذي يحاول

أن يكتب فيه وإلا فإن بحثه سيفقد ذلك البريق الذي يجعل منه بحثًا جديدًا أو أصيلاً.

وحين انتقد التقليد والتكرار والأطر المسبقة، فإنه لابد أن أقدم بديلاً. وبالكتاب الذي بين يدي القارئ محاولة "التجديد" التجديد في الأطر التي تحدد المشاكل السياسية، التجديد في الأفكار، والتجديد في التحليل والمعالجة.

إن الإطار الرئيسي الذي يرسم ملامح هذا الكتاب هو إطار "الظاهر التاريخية" التي تدور حولها مختلف الشخصيات التاريخية والتي تنتظم حولها مختلف المواقف وتثار منها مختلف المنطلقات. وعلى هذا فسوف لا يكون الخليفة بل الحدث التاريخي أو الظاهرة التاريخية العنوان العام أو المحور الرئيسي لكل فصل من فصول هذا الكتاب.

أما بخصوص الأفكار ومعالجتها فإننا سنحاول أن نبرز بوضوح الفرق الشاسع في ميدان السياسة بين المبدأ والتطبيق، بين الواقعية والمثالية، بين القوة والادعاء، بين الغدر والفتوة، بين الذين يعملون وبين الذين يتكلمون، بين التظاهر بالإسلام وبين الادعاء له، بين التنبؤات وبين الحقيقة، بين الشعارات وبين تطبيقها، بين القول والعمل... ولعل من أبرز ما يعن لنا هنا أن الخلفاء العباسيين الذين أكدوا على "الصبغة الدينية" لخلافتهم لم يتورعوا بل وجدوها من السياسة أن يستغلوا العصبية القبلية، ليحولوا دون تحالف ربيعة مع الأزد، لأن ذلك ربما شكل خطرًا على الدولة أثار لها مشاكل هي في غنى عنها. على أن الخلفاء العباسيين أنفسهم كبتوا النزعة القبلية في الجيش لأن القبلية تضعفه فكان أفراد الجيش الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة صفًا واحدًا مواليًا للخليفة العباسي ودولته.

سيكون **الفصل الخاص** بطبيعة الثورة العباسية هو الفصل الأول من هذا الكتاب وسيعالج المواجهتين السياسية والدينية لهذه الثورة.

أما **الفصل الثاني** فيعالج ما حدث بعد تأسيس الدولة العباسية من انشقاق بين الدعاء والخلفاء بسبب اختلاف الميول والاتجاهات، ووضوح السياسة الجديدة التي قرّر العباسيون السير عليها. فهو في حقيقته اختلاف بين الثوار الذي صنعوا الثورة وبين الدولة الجديدة.

أما **الفصل الثالث** فيبحث في حركات المعارضة العلوية والأموية والخارجية والإيرانية. ولعل أبرز ما في هذا الفصل هو أن العباسيين ومعارضيهم اتبعوا

مختلف الوسائل المشروعة وغير المشروعة، من أجل إثبات وجهة نظرهم والدعاية لها وإقناع الناس بصحتها. وقد وقع العامة والضعفاء من الناس تحت تأثير هذه الوسائل وجذبتهم فكرة "المنقذ" التي استعملتها أغلب الأطراف والفئات، ولم تقتصر على طرف واحد منها. وقد انقسم الناس المعارضون للعباسيين فقسم منهم وقفوا إلى جانب الزعماء الذين شهروا السلاح، بينما آثر القسم الآخر من الناس السلامة على القتال فوقفوا إلى جانب الذين يتكلمون بكلام معسول أو كلام مملول رافعين شعارات بلاغية خالية من البرنامج. وربما نستطيع أن نستخلص من هذا الفصل بأن القوة التي كانت الملجأ الأخير للسلطة العباسية أو للحركة المعارضة لها وكانت هي وحدها التي تستطيع حسم الخلاف. وأن الخليفة العباسي لا يستطيع أن يحتفظ بالسلطة، كما وأن منافسه لا يستطيع أن يستلم هذه السلطة دون أتباع وسلاح ومال، وبمعنى آخر فإن من كان يريد أن يغير الخلافة العباسية بمجرد الأفكار التي يبثها بين أتباعه دون تضحيات ومشاق أخطأ في تقديره ولم يعمل شيئًا من وجهة النظر السياسية البراغماتيكية.

ويعالج **الفصل الرابع** بناء بغداد والفئات التي سكنتها من أنصار العباسيين، وهذا الفصل في أصله بحث نشر بالإنكليزية في مجلة كلية الآداب/ جامعة بغداد، سنة 1967م، على أنني أضفت إليه الكثير بعد إعادة كتابته باللغة العربية.

ويتناول **الفصل الخامس** "البعد الديني" في سياسة الخلفاء العباسيين الأوائل ويبين مظاهرها. فبعد مناقشة سريعة للمصادر ينتقل المؤلف إلى المظاهر فيقسمها إلى أقسام منها: موقف العباسيين من (السنة والجماعة)، العباسيون ونظرية الخلافة، وهنا يتطرق المؤلف إلى الخلافة من حيث كونها مؤسسة دينية سياسية، ثم سلطة الخليفة العباسي الذي أصبح (خليفة الله في الأرض)، ثم ألقابه ودلالاتها، ثم شاراته ومغزاها ثم مغزى ولاية العهد في العصر العباسي الأول. وفي المنعطف الثالث يعالج الفصل موقف العباسيين من الفقهاء وأصحاب الحديث ثم موقفهم من أهل الحرمين في الحجاز ذلك الموقف الذي عزّز صبغتهم الدينية القوية وهذا هو المنعطف الرابع. أما المنعطف الخامس فيستعرض علاقة العباسيين بالقضاة والعلماء، ويوضح المنعطف السادس علاقة العباسيين بالفرق الدينية – السياسية من معتزلة ومرجئة. أما الفرق الأخرى فقد عالجها الفصل الثالث كما بيّنا أعلاه. ويبحث المنعطف السابع في حركة الزندقة باعتبارها حركة دينية ويمر على الحركة

الشعوبية باعتبارها حركة فكرية اجتماعية ذات أبعاد دينية سياسية. ويناقش المنعطف الثامن والأخير سياسة العباسيين تجاه أهل الذمة من يهود ونصارى وصابئه ومجوس.

أما **الفصل السادس** فيبحث في أمر طالما أوجد المشاكل وشق عصا الطاعة وفرق الجماعة وهو "مشكلة" ولاية العهد. ولا يختلف العباسيون عن غيرهم في هذا الشأن. على أننا نشاهد رغم انقسام البيت العباسي على نفسه حول هذه المشكلة إلا أنه كان يقف غالبًا صفًا واحدًا تجاه الأخطار التي تعرض مستقبله السياسي للانهيار، وقد أصبحت هذه المشكلة معول هدم وسببًا في الانهيار منذ عهد الرشيد لأن شكوكه الكثيرة في الأمراء العباسيين ومحاولة الحفاظ على السلطة في يد أبنائه جعلته يرتكب أخطاء كانت بداية النهاية لعصر القوة في تاريخ العباسيين.

ويستعرض **الفصل السابع** العلاقات العباسية - البيزنطية -، ولعل أهم ما نلاحظه خمول الجبهة البيزنطية بالمقارنة مع الزمن الماضي، وانتقال المسلمين من استراتيجية الهجوم إلى الدفاع، وعدم اهتمام العباسيين الاهتمام الكافي بالأسطول الحربي في البحر المتوسط. ويعود السر في ذلك إلى تركيز العباسيين على الأقاليم الشرقية المضطربة وانتقال مركز الثقل بانتقال العاصمة إلى المشرق الإسلامي، ورغم الجهود التي بذلها المهدي والرشيد والمعتصم في الجهاد ضد البيزنطيين، فإن الحرب كان سجالاً ولم تخرج بنتيجة مثمرة لأي من الطرفين.

وأما في **الخاتمة** فيحاول المؤلف أن يبرر سبب توقفه عند عهد هارون الرشيد وأبنائه واعتبار هذا العصر نهاية فترة وبداية فترة في تاريخ العباسيين الأوائل.

وعلى هذا فإن الكتاب الذي بين أيدينا (العباسيون الأوائل) يختلف عن كتابنا (الخلافة العباسية) الذاي صدر بجزأين في أمرين: الأول المدة الزمنية حيث عالج الكتاب الأول فترة العصر العباسي الأول بين 132-247هـ. والتي امتدت لمدة قرن من الزمان معالجة مستفيضة. أما كتاب (الخلافة العباسية) فقد عالج أكثر من خمسة قرون من التاريخ العباسي منذ تأسيس الدولة حتى سقوطها. أما الأمر الثاني الذي يختلف فيه الكتابان فهو المنهج، فقد سار كتاب (العباسيون الأوائل) على الموضوعات والمظاهر التاريخية كما أشرنا إلى ذلك من قبل، بينما اتبع كتاب (الخلافة العباسية) المنهج الحولي لعهود الخلفاء العباسيين.

ومن الله التوفيق ،،،

المحتويات

كتاب (العباسيون الأوائل) (العصر الذهبي)[4]

مقدمة

العصر الذهبي عصر الازدهار الحضاري وبدايات التدهور السياسي الإداري

حين بدأ عهد المهدي تنفّس الناس الصعداء بعد حزم المنصور وشدته، فقد أمن الخائف وأنصف المظلوم وبسط يده في العطاء، إلا أن المهدي لا يستوي مع المنصور في الكفاءة الإدارية والدهاء السياسي، وقد ظهرت نتائج ذلك في العصر الذي تلاه والذي أُصطلح على تسميته "بالعصر الذهبي".

إن العصر الذهبي بكل ما فيه من مظاهر الحضارة ودلالات الازدهار يُعدّ في نظرنا بداية منعطف جديد في تاريخ الخلافة العباسية تتمثل فيه المظاهر الأولى للتدهور الإداري والتفكك السياسي والتحلل الحضاري.

فمظاهر الحضارة في عصر الرشيد بادية للعيان في الروايات التاريخية التي تضمها كتب مؤرخينا الرواد، ولعلنا نقتبس هنا رواية اليعقوبي، حيث يقول:

"وكان الرشيد مع ذلك أول خليفة ضرب بالصوالجة والطباطب، ورمى بالنشاب في البرجاس، وقدم أهل الحذق بذلك. وأول خليفة لعب بالشطرنج والنرد، وقدم اللعاب وأجرى عليهم الأرزاق، وأول خليفة اتخذ القيان من بني هاشم فتشبه الناس جميعًا به وسلكوا سبيله".

وعن السيدة زبيدة زوجة الرشيد وابنة عمه، يقول اليعقوبي فيما يقول:

"وأما ما يتلين به الملوك وينعمون به، فهي (أي زبيدة) أول من عمل في الإسلام الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر، واتخذت رفيع العرش حتى بلغ ثوب وشي عمل لها خمسين ألف دينار. وأول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يركبون الدواب ويختلفون في حوائجها وبرسائلها وكتبها. وأول من عمل القباب من الفضة والأبنوس والصندل، ورأسها وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج والخز.. وأول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها".

ومهما كانت درجة المبالغة في هاتين الروايتين وأمثالهما، فالواقع أن هذه الصفات كانت من خصائص "العصر الذهبي" التي توغلت بين سائر فئات المجتمع. فكثرت مجالس الأنس والغناء، وزاد شراء الناس للجواري والمغنيات حتى بلغت قيمة الواحدة منهن آلاف الدراهم، فراجت تجارة الجواري وتثقيفهن، وبانت مظاهر الترف الاجتماعي والثراء الكبير في المأكل والملبس والمشرب، وفي المواكب الرسمية والشعبية، ألعاب الفروسية، وركوب الخيل والصيد، ولعب الصولجان، ومواكب النزهة في دجلة، وما إلى ذلك.

على أن عهد الرشيد بكل ما فيه من مظاهر الحضارة والترف الاجتماعي والازدهار الثقافي، كان منعطفًا جديدًا نحو التدهور سياسيًا وإداريًا. إن روايات (ألف ليلة وليلة) جعلت من شخصية هارون الرشيد شخصية أسطورية، وأخفت الكثير من حقائق شخصيته التاريخية، فقد عاش هارون في بلاط أبيه المهدي الذي بدت عليه مظاهر الترف والاسراف الحضاري، حياة نعيم بعيدًا عن المسؤولية وتحمل المشاق محاطًا بالخدم والجواري والصبيان، ثم عين وليًا للعهد بتحريض من أمه الخيزران ومربيه يحيى البرمكي، اللذَين لعبا دورًا مهمًا في تنصيبه خليفة المسلمين بعد وفاة الهادي بطريقة غامضة.

إن المنعطف الجديد يتصف بما يأتي:

من الناحية الإدارية فوّض الرشيد أمور البلاد منذ سنة 170هـ (786م) حتى سنة 187هـ (803م) للبرامكة، حيث يشير الطبري إلى قول الرشيد ليحيى البرمكي "... قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي فاحكم بما ترى..."، ورغم أن هذا القول يمكن أن يكون من صنع صنائع البرامكة موضوعًا على لسان الرشيد أو ربما صنع اليد الشعوبية فالواقع أن البرامكة كانت لهم اليد الطولى في السياسة والإدارة حوالي العقدين من الزمان.

ولم يكن الرشيد ناجحًا في معالجته لمشاكل الأقاليم أحيانًا، ولعل ذلك ظاهر في علاقاته بولاة الأقاليم حيث لم يكن موفقًا في تعيينه علي بن عيسى بن ماهان واليًا على خراسان الذي عاث بهذه الولاية، وأخذ أموال الناس، واستخف بالرجال، وهارون الرشيد يغض الطرف عنه لكثرة ما يقدمه له من "الأموال والهدايا والطرف من المتاع والمسك والجوهر وآنية الذهب والفضة والسلاح والدواب...". وحماد

البربري والي الرشيد على اليمن شديد الجور على أهلها الذين لم يهدأوا حتى عزل.

وقد اتخذ الرشيد جملة من التدابير الإدارية تعد بدعة في التاريخ الإداري للدولة الإسلامية. فلم تكن الكتب الصادرة من ديوان الخراج تصدر سابقًا إلا بتوقيع الخليفة، فخص الرشيد يحيى البرمكي بهذا الإجراء. وأشرك الرشيد جعفر البرمكي في النظر في المظالم. كما تنازل عن واجبه في مراقبة عيار العملة النقدية، وقلدها لجعفر البرمكي الذي ضرب اسمه على الدنانير والدراهم في بغداد والمحمدية. ويعلق المقريزي على إشراف جعفر البرمكي على دور الضرب قائلاً: "إذ هو شيء لم يتشرّف به أحد قبله". ولا شك فإن هذه الإجراءات تدل على تماهل الخليفة عن أداء واجبات من صميم مسؤولياته المباشرة.

ومن الناحية السياسية فإن "هيبة الخليفة نفسه لم يحافظ عليها دائمًا، فقد هاجمه أهل الكوفة سنة 180هـ/796م عندما قضى 40 يومًا في الحيرة".

وتفاقمت الاضطرابات في المشرق الإسلامي بحركة رافع بن الليث، ولم يستطع الرشيد أن يجد حلاً لها. بل أن تكتلات البلاط عقدت المشاكل أكثر، بحيث ضاعت المسؤولية بين الآراء المتضاربة والمصالح المتنازعة. أما في المغرب الإسلامي فقد نجح إدريس بن عبد الله الحسني من إقامة كيان مستقل في مراكش سنة 172هـ/سنة 788م فنشأ كيانان إسلاميان. وإزاء هذا الوضع المتأزم وبسبب القلاقل في أفريقيا (تونس وشرقي الجزائر) اضطر الرشيد أن يعترف بالأغالبة أمراء مستقلين مقابل دفع 40 ألف دينار لبيت المال. إن هذا الوضع إن دل على شيء فإنما يدل على اعتراف الرشيد بالتفكك السياسي والانحلال الإداري في الخلافة العباسية.

ولم يكن الخليفة الرشيد موفقًا حين قرر تقسيم أقاليم الخلافة بين أبنائه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن. إن تولية العهد لأكثر من واحد وتقسيم الخلافة أدى إلى الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون، تلك الحرب التي ضيعت الأموال والأرواح، وأفقدت الخلافة هيبتها، ونشرت الفوضى في البلاد. وربما كان الرشيد في ما قام به مدفوعًا برغبته في أن يحكم أبنائه من بعده، أي أن يستمر الحكم في نسله، وكذلك لتأكيد السلطة العباسية على كل الأقاليم، إلا أنه من الصعوبة القول بأن هذا الحل الذي ابتدعه الرشيد كان حلاً صحيحًا.

ولكن ومن ناحية أخرى فإن الرشيد بعث روحًا جديدة في الجهاد وخاصة الحرب الإسلامية - البيزنطية، ولكن الذي يؤخذ عليه عدم السير على خطة منظمة في عملياته الحربية وعدم متابعة الضغط على الروم واستغلاله مشاكلهم الداخلية لتأكيد تفوقه العسكري وتوسيع حدود الخلافة البرية والبحرية، بل أنه كان يجنح للسلم طالما يطلب الإمبراطور الصلح، ولهذا ورغم أن الجهاد كان من مآثر الرشيد والعصر الذهبي البارزة، فإن الحدود لم تتغير في صالح المسلمين!

ومع أن عهد المهدي شهد بدايات بروز "التكتلات" في البلاط، فقد زادت حدة هذه التكتلات في بلاط الرشيد، فقد كان للبرامكة أتباعهم ومواليهم، وكان للفضل بن الربيع ويزيد الشيباني أتباع وموال، وكان لعلي بن عيسى بن ماهان أنصاره وشيعته. وكان لابد أن يحدث صراع على النفوذ والسلطة لعبت فيه الخيزران وبدرجة أقل زبيدة دورًا كبيرًا، فقد استعان البرامكة بالخيزران التي كانت "هي الناظرة في الأمور وكان يحيى يعرض عليها ويصدر عن أمرها" . إن ذلك يظهر لنا أثر التكتلات في سياسة الرشيد وبوادر تأثير الحرم في سياسة الدولة العباسية. ويبدو أن خروج الرشيد من عاصمته بغداد بين حين وآخر، ومكوثه في الرقة، يدل على تضايقه من الجو المتأزم في بلاطه في بغداد، على أننا يجب ألا ننظر، كما فعل بعض المستشرقين إلى هذه التكتلات نظرة عنصرية، بل أن كل كتلة كانت تضم أفرادًا وشخصيات من عناصر مختلفة جمعتهم المصلحة المشتركة، وحركتهم عوامل متعددة.

ومن المستغرب أن يهمل الرشيد شؤون الاتصال والمواصلات مع سعة رقعة دولته، ففي رواية: "أن أمور البريد والأخبار" أهملت في عهده، وأن الخليفة حين توفي كانت هناك 4 آلاف خريطة لم تستعمل.

كل هذه الأسباب تجعلنا نعد الرشيد وعهده نهاية فترة وبداية منعطف جديد في التاريخ العباسي.

إن ما حدث في عهد الرشيد من أخطاء في حالات معينة أثارت عجب واستغراب المؤرخين الرواد أنفسهم، فابن الأثير يندهش من تدابيره فيما يتعلق بولاية العهد قائلاً: "وهذا من العجاب" ذلك لأن الرشيد لم يتعظ بما جرت ولاية العهد لأكثر من واحد من ويلات على الدولة. ويوافقه الطبري حيث يقول على لسان العامة: "وقال بعضهم بل قد ألقى بأسهم بينهم وعاقبة ما صنع في ذلك مخوفة" .

ونحن بعد ذلك كله لا ننكر تدابير الرشيد وإصلاحاته في مجالات عديدة التي سنذكرها في موقعها من هذا الكتاب، ولعلنا نذكر منها هنا اهتمامه بالجهاد حتى قيل بأنه يغزو بنفسه بين سنة وأخرى، وتنظيمه إدارة الثغور والعواصم على حدود الدولة وإسناده - قدر الاستطاعة - لعوامل الوحدة والتماسك في دولته المترامية الأطراف ومحاربته لكل الإجراءات التي تغذي الانفصال والتجزئة. رغم أنه أخطأ أحيانًا في اختيار السبل والبدائل لتحقيق غايته. ولكن "الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى". ولابد أن نشير كذلك في هذا المجال إلى دور هارون الرشيد في إعادة الحيوية والنشاط إلى الأسطول الإسلامي في حوض البحر المتوسط ذلك النشاط التي توقف منذ نهاية عهد الأمويين وبداية عصر العباسيين إلى وقته هذا فأقام صناعة السفن وحسن الثغور الساحلية وجعل السواحل الشامية والمصرية منطقة إدارية عسكرية واحدة يديرها أمير واحد هو أمير السواحل. وفكر الرشيد في إيصال بحر الروم ببحر القلزم عن طريق قناة، ولكنه عدل عن ذلك لأن هذا المشروع ييسر دخول أسطول الروم إلى البحر الأحمر (القلزم) ويهدد الأماكن المقدسة في الحجاز. ولذلك اعتبر الرشيد الخليفة العباسي الذي أدى فريضة الجهاد بحق وحقيقة. إلا أننا لا نتفق مع بعض المؤرخين روادًا ومحدثين حين يقارنون الرشيد بجده المنصور حيث تقول عنه إحدى "الروايات: بأنه كان يقتفي آثار المنصور". فالأول لا يمكن أن يصل في حزمه وكفاءته الإدارية وحكمته السياسية إلى درجة الخليفة المؤسس أبي جعفر المنصور!

المحتويات

الإسلامي وعلاقتها بالمشرق، العباسيون وخوارج أفريقية.

(3) المعارضة الأموية: استمرار الحركة الموالية للأمويين، الفتن القبلية، الحركات السفيانية، حركة عبدالله بن خالد السفياني، حركة سعيد بن خالد الأموي، حركة أبي حرب المبرقع.

فرق موالية للأمويين: النابتة، الكرامية، الحنابلة.

(4) المعارضة الإيرانية: حركة بابك الخرمي، تمرد الأفشين، حركة المازيار الطبرستاني.

الفصل الثالث: السياسة الدينية: هارون الرشيد وأهل الكلام، الخلفاء والمعتزلة (ردود الفعل تجاه المحنة). موقف السلطة العباسية من أهل الذمة.

الفصل الرابع: السياسة الخارجية:

مقدمة، العلاقات الحربية في عهد الرشيد، العلاقات الدبلوماسية في عهد الرشيد، الرشيد والشرق الأقصى، الرشيد والأندلس، الخلفاء المعتزلة والبيزنطيون، فتح عمورية، المتوكل والبيزنطيون، العباسيون وجزر البحر الأبيض المتوسط، العلاقات مع التركستان.

المصادر الأصلية والمراجع الحديثة.

كتاب (الخلافة العباسية - عصر القوة والازدهار) [5]

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد المرسلين.

وبعد فقد كانت معالجتي للتاريخ العباسي في ما نشرته حتى الآن، تسير وفق "الموضوعات" وليس التاريخ الحولي للأحداث، فكانت تناقش مثلاً موقف الخلفاء العباسيين من المعارضة العلوية أو الخارجية في وحدة شمولية ابتداء من مطالع العصر العباسي الأول وحتى نهايته. وهكذا بالنسبة للموضوعات الأخرى.

إلا أنني وجدت ومن خلال تدريس المادة أن الطلبة في الجامعة وكذلك المثقف المولع بالتاريخ يحبذون النهج الذي اعتادوا عليه في قراءة معظم كتب التاريخ وهو النهج الذي يتّبع التسلسل الحولي للأحداث ويسير تبعًا لعهود الخلفاء الواحد بعد الآخر.

ومن هنا فقد أعدت في هذا الكتاب ترتيب الأحداث في العصر العباسي الأول (عصر القوة والازدهار) على عهود الخلفاء وتتابعهم. باستثناء بعض الموضوعات التي لاحظت بأن تقطيعها بين عهود الخلفاء سيؤدي حتمًا إلى تشتت وحدة الموضوع وانعدام النظرة الشمولية إليه. ومن الموضوعات التي ظلت محتفظة بوحدتها واتساقها: موقف العباسيين من الزندقة، سياسة العباسيين الاعتزالية وردود الفعل تجاهها، السياسة الخارجية وغيرها من الموضوعات القليلة الأخرى، ومع ذلك فقد ذكرت في فهرس المحتويات وكذلك في ثنايا الكتاب أحداث العهد كاملة مشيرًا إلى الفصل الذي سيعالجها كموضوع واحد.

يضم هذا الكتاب الموسوم (الخلافة العباسية... عصر القوة والازدهار) مقدمة وأحد عشر فصلاً وخاتمة. يعالج الفصل الأول الدعوة العباسية من حيث طبيعتها وأبعادها وواجهاتها في نظرة جديدة تحاول إعادة تقويم الروايات التاريخية مستفيدة من روايات ضمتها مصادر نشرت قبل مدة ليست بالطويلة. وقد توصل التفسير الجديد للدعوة أن القوة الضاربة التي استند إليها العباسيون ودعاتهم هي

قوة العرب في خراسان يساعدهم في ذلك من انضم إليهم من الموالي الذين لا يقارنوا بالعرب من حيث القوة والتأثير.

أما الفصل الثاني فيتطرق إلى ظروف إعلان الخلافة والدولة في الكوفة بالعراق، وما اكتنف ذلك من ردود أفعال مباشرة وغير مباشرة مثل انحراف وزير آل محمد أبي سلمة الخلال عن خط الدعوة وتمرد الراوندية والوضع الصعب في خراسان البؤرة التي انطلقت منها شرارة الثورة.

كما يتكلم هذا الفصل عن إعلان البيعة للخليفة الأول أبي العباس والموقف الذي اتخذته السلطة العباسية المركزية من العديد من الفئات والأحزاب المناهضة مثل أنصار الأمويين وأتباع الخوارج وشيعة العلويين وسكان بلاد فارس من الذين ظلوا متمسكين بدياناتهم القديمة.

ويتطرق الفصل الثالث إلى الدولة العباسية في عصر القوة، وهنا يبرز دور الخليفة المؤسس أبي جعفر المنصور في وضع أسس الدولة الجديدة وبناء مدينة السلام (بغداد) عاصمة جديدة. وكذلك في قضائه على المنشقين والمتمردين من داخل الحكم أو من الأحزاب والحركات المعارضة مثل العلويين والخوارج والفرس. ورغم أن السياسة الخارجية قد نوقشت في فصل مستقل إلا أن هذا الفصل ذكر باختصار بعض ما يخص سياسة المنصور الخارجية.

أما الفصل الرابع فقد ركز على الدولة في مرحلة الاستقرار النسبي والرخاء ويضم هذا الفصل عهدي الخليفة المهدي وابنه الهادي. ويتعرض إلى حالة الاستقرار والأمن التي كانت نتيجة طبيعية لجهود الخليفة المؤسس المنصور وما تلا ذلك من زيادة النشاط الاقتصادي وزيادة الثروة والرخاء في المجتمع. كما يبحث في سياسة "الوفاق" التي حاول المهدي إتباعها مع بعض فئات المعارضة. ويستعرض سياسة المهدي تجاه الزندقة وشدته تجاهها. وكذلك الزخم الجديد الذي أعطاه لروح الجهاد وخاصة ضد أرض الروم والهند.

ويعد الفصل الخامس متممًا للفصل السابق من حيث سياسات الدولة الداخلية والخارجية باستثناء إن الخليفة الجديد موسى الهادي حاول على عكس أبيه، أن يخرج عن تأثير الخيزران (زوجة المهدي وأم الهادي والرشيد). ويحكم الدولة حكمًا قويًا مباشرًا بعيدًا عن أثر الحريم أو التكتلات السياسية في دار الخلافة العباسية،

فكان مقتله الغامض نتيجة عزمه على أن يباشر الأمور بنفسه أولاً ونتيجة مشكلة ولاية العهد ثانيًا.

ويناقش الفصل السادس "العصر الذهبي" في تاريخ الدولة العباسية وهو عهد هارون الرشيد وأبنائه من بعده. لقد شهد هذا العصر قمة ما وصلت إليه الحضارة والنظم في مطالع العصر العباسي كما شهد ازدهارًا اقتصاديًا كبيرًا. ولكنه وفي الوقت نفسه شهد بوادر التفكك السياسي وظهور الإمارات الإقليمية في أطراف الدولة العباسية.

لقد كانت الدولة العباسية أثبت ما تكون في علاقاتها بالدول الأجنبية سلمًا أو حربًا مع الروم أو الفرنجة أو أمراء آسيا الوسطى وغيرهم، ومن هنا نلحظ خطب الدول لودّها ومحاولتهم تبادل السفراء وإقامة علاقات طيّبة معها.

أما الفصل السابع الذي تعرّض لعهد محمد الأمين فقد اكتنفته الحرب الأهلية أو النزاع بين ابني الرشيد وهما الأمين والمأمون والتي دامت خمس سنوات بطولها وانتهت بانتصار المأمون على الخليفة الأمين ومقتل هذا الأخير، وبسبب وصول حزب المأمون إلى السلطة فقد جاءت صورة الأمين وصفاته الشخصية وسياساته خلال المدة القصيرة من حكمه قاتمة وسلبية وتحتاج إلى إعادة تقويم.

وتميز الفصل الثامن الذي ناقش عهد الخليفة المأمون بنظرة تفصيلية إلى المظاهر الرئيسية التي وقعت في عهده وخاصة سياسته الاعتزالية وموقفه من العلويين وبوادر الانفصال في المشرق الإسلامي. هذا بالإضافة إلى نزعته العلمية ومحاولته الجادة تشجيع العلوم العقلية من فلسفة وطب وعلوم صرفة وبنائه مرصدًا فلكيًا وصرفه بسخاء على "بيت الحكمة" من أجل ترجمة "علوم الأوائل" العقلية من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية.

أما الفصل التاسع فيتطرق إلى ظاهرة جديدة في مسيرة الدولة العباسية ألا وهي تزايد استخدام الترك في الجيش العباسي ثم في دار الخلافة وفي الإدارة. ولقد كان الترك متواجدين منذ زمن في المجتمع الإسلامي، ولكن الخليفة المعتصم زاد من عددهم بنسبة ملحوظة لدرجة أنهم اصطدموا بالمجتمع البغدادي مما اضطر الخليفة إلى بناء عاصمة جديدة له هي (سامراء) ونقل الدواوين والجند الأتراك إليها.

ولقد كان لوجود الترك في العاصمة العباسية الجديدة (سر من رأى) وفي الجيش والإدارة سلبياته وإيجابياته. على أن إدخال هذا الدم الجديد إلى عناصر الجيش العباسي زاد من قدرات هذا الجيش وفاعليته في الحرب الخارجية وفي القضاء على التمردات الداخلية، بعد أن استنزفت العناصر الأخرى كل ما لديها من طاقة في الحروب السابقة.

لقد أثبت المعتصم أنه "الرجل المناسب في المحل المناسب والوقت المناسب"، فقد وظف قدراته وقدرات الجند الترك في القضاء على الحركات الداخلية التي استعصت على سلفه مثل حركة بابك الخرمي والزط، وكذلك في تلقين البيزنطيين (الروم) درسًا قاسيًا في معركة "عمورية" في عمق الأناضول.

ولم يكن عهد الواثق بن المعتصم القصير سوى فترة من الهدوء النسبي وتبادل الأسرى مع الروم، واستمرار سياسة الاعتزال التي بدأها المأمون وطبقها المعتصم والواثق بتقليد أعمى دون فهم لطبيعتها وأبعادها. ومن هنا كان استخدام الشدة (المحنة) مع المخالفين لمذهب الاعتزال إلى درجة وصلت إلى حد القتل.

وقد عالج الفصل العاشر عهد الخليفة المتوكل الذي يعد انتقالاً بين عصرين عصر القوة والعصر الذي شهد بدايات الضعف. لقد كان المتوكل رغم صعوبة الظروف التي مرت عليه قبل وبعد تسلمه الخلافة متميزًا في سياساته التي وازنت بين القوى المتصارعة في الإدارة والجيش من جهة والأحزاب المناهضة للحكم العباسي من جهة أخرى. ويعود إليه الفضل في تجنب فتنة أهلية بين أنصار "أهل السنة والجماعة" وأنصار المعتزلة، حيث نجح في نقل السلطة من المعتزلة بهدوء وصرامة وبصورة سلمية دون السماح بعمليات الثأر والانتقام من رؤوس المعتزلة. وقد شهد عهده نشاطًا فكريًا ملحوظًا للعديد من القوى السياسية المعروفة آنذاك.

ويتضمن الفصل الحادي عشر والأخير نظرة شمولية إلى سياسة العباسيين الأوائل الخارجية مع الروم (البيزنطيين) ومع الفرنجة ومع الأندلس (أسبانيا) حيث تأسست خلافة أموية جديدة ومع آسيا الوسطى (تركستان) وجنوبي شرق آسيا. هذا مع العلِم أن العباسيين ومنذ بداية حكمهم أدركوا أن الدولة العربية الإسلامية قد بلغت أوج امتدادها جغرافيًا ومن واجبهم أن يحافظوا على حدود الدولة وصيانتها دون محاولة التوسع والامتداد. ويلاحظ أنه رغم استمرار عمليات

"الجهاد" في حملات الشواتي والصوافي ورغم محاولات اختراق آسيا الصغرى أو حصار القسطنطينية التي لم تؤد إلى نتيجة عملية تذكر، فإن حدود الدولة العباسية لم تتوسع أو تمتد. على أن جهود التوسع وانتشار الإسلام باتت من مهام "الإمارات" في الأطراف وبتأكيد ومباركة الخلفاء العباسيين أنفسهم.

وقد انتهى الكتاب بخاتمة أوجزت النتائج، وبفهرس للمصادر والمراجع وملحق.

ونسأل الله تعالى أن يتم نعمته علينا جميعًا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

المفرق - الأردن/1998م

المحتويات

المنصور والخوارج.
المنصور والحركات المناهضة في بلاد فارس.
سياسة المنصور الخارجية: أرمينيا والخزر- الفرنك، الأندلس، طبرستان، والديلم.
الفصل الرابع: الدولة في فترة الاستقرار النسبي والرخاء:
عهد الخليفة محمد المهدي 158هـ/775م بيعته.
الرفاه الاقتصادي.
سياسة "الوفاق" مع المعارضة وخاصة العلوية.
المهدي والخوارج.
حركة المقفع في خراسان.
حركة المحمرة الخرمية في جرجان وأصفهان.
المهدي يواجه الزندقة.
علاقة الزندقة بالشعوبية.
الفصل الخامس: عهد الخليفة موسى الهادي 169هـ/785م-170هـ/786م:
البيعة والاضطرابات في بغداد.
سياسة الهادي الداخلية.
موقفه تجاه العلويين. موقفه تجاه الزنادقة. الهادي وطبرستان.
موقفه من الخوارج في الجزيرة الفراتية، سياسته الخارجية الروم (البيزنطيين).
الفصل السادس: العصر الذهبي للدولة العباسية:
عهد الخليفة هارون الرشيد 170هـ/786م-193هـ/809م.
ازدياد نفوذ البرامكة وسقوطهم.
الحركات المناهضة من علوية وخارجية.
الحركات الأموية في عهد الرشيد وبعده.
ولاية العهد والرشيد.
الفصل السابع: عهد محمد الأمين 193هـ/809م-198هـ/813م:
الصراع بين الأمين والمأمون (الحرب الأهلية).
محمد الأمين خليفة.
الفصل الثامن: عهد عبدالله المأمون 198هـ/813م-218هـ/833م:
حركة نصر بن شبث العقيلي في الجزيرة الفراتية.
بوادر انفصال المشرق، حركة طاهر بن الحسين وتأسيس الإمارة الطاهرية بخراسان.
سياسة المأمون الاعتزالية.
سياسة المأمون تجاه العلويين.

حركة أبي السرايا.
حركة علوية بالحجاز واليمن. المأمون وعلي الرضا.
المأمون وولاية العهد.
الفصل التاسع: عهد المعتصم بالله 218هـ/833م-227هـ/842م:
المعتصم والأتراك.
بناء سامراء.
سياسته الداخلية.
الموقف من العلويين.
القضاء على حركة بابك الخرمي.
تمرد المازيار بطبرستان.
حركة الأفشين.
عهد الواثق بالله ابن المعتصم 227هـ/842م-232هـ/847م فترة من الهدوء النسبي، اضطرابات قبلية في الحجاز.
ولاية المعهد (عدم البيعة لأحد من بعده) سياسة الاعتزال والمحنة. تبادل الأسرى مع الروم (البيزنطيين).
الفصل العاشر: عهد المتوكل على الله 232هـ/847م-247هـ/861م:
بيعته: الجيش يتدخل في السياسة.
التكتلات السياسية والقادة العسكرية الترك.
الخليفة المتوكل ورؤساء الجيش.
الاضطرابات في الأقاليم.
ردود الفعل تجاه المعتزلة. الخليفة المتوكل والقضاء على نفوذ المعتزلة السياسي.
المتوكل والعلويين. فرق مواليه للأمويين في القرن الثالث الهجري/ الثامن الميلادي... النابتة، الكرامية.
المتوكل وأهل الذمة.
ولاية العهد.
اغتيال الخليفة المتوكل أول انقلاب عسكري في الدولة العباسية.
الفصل الحادي عشر: السياسة الخارجية:
الحرب مع الروم (البيزنطيين) المهدي والبيزنطيين.
الحرب في آسيا الوسطى.
حملة بحرية على السواحل الغربية للهند.
الحرب في أرمينيا وبلاد الخزر.
العلاقة بين الدولة العباسية ودولة الفرنجة الكارولنجيين في عهد المنصور.

محاولة استعادة الأندلس إلى السيطرة العباسية.
العلاقات الحربية في عهد الرشيد.
العلاقات الدبلوماسية في عهد الرشيد.
الخلفاء المعتزلة والبيزنطيون.
فتح عمورية.
المتوكل والبيزنطيون.
الرشيد وجزر البحر المتوسط.
العلاقات مع تركستان.
الرشيد والشرق الأقصى. الرشيد والأمويون في الأندلس.
الخاتمة.
الملاحق.
المصادر الأولية والمراجع الحديثة.

(5)

كتاب (الخلافة العباسية - عصر السقوط والانهيار)[6]

مقدمـة

يُعد هذا الكتاب وهو الجزء الثاني من كتاب "الخلافة العباسية" مكملاً من حيث الأحداث والموضوعات والحقبة التاريخية للجزء الأول من كتاب يحمل العنوان نفسه. وقد تعرّض هذا الجزء لثلاث حقب تاريخية عباسية هي على التوالي: فترة الفوضى العسكرية ثم النفوذ البويهي ثم السلجوقي، أعقبتها فترة انتعاش قصيرة عادت الدولة بعدها إلى التدهور فالسقوط على يد المغول.

لقد كان العصر العباسي الأول - الذي تناولناه في الجزء الأول من هذا الكتاب يمثل عصر "القوة والازدهار" ولذلك يعده العديد من المؤرخين الرمز الحقيقي للتاريخ العباسي، أما العصور العباسية الأخيرة - والتي تناولناها في هذا الجزء - فلم تظهر فيها - عمومًا - هيبة مؤسسة الخلافة ولا سلطة الدولة ونفوذها، وإنما كانت الكلمة العليا بيد الأمراء المتسلطين من قادة عسكريين ترك أو ملوك بويهيين أو سلاطين سلاجقة، هذا مع أن بعض الخلفاء حقّق نجاحًا ملموسًا، رغم كونه وقتيًا في استعادة نفوذ الخلافة والدولة.

يبدأ الكتاب بمقدمة تعالج الطرق التي دخل منها الترك وغيرهم من عناصر بلاد ما وراء النهر وآسيا الوسطى إلى "دار الإسلام" واندماجهم في المجتمع الإسلامي، ثم الظروف التي جعلت صعودهم سلم الإدارة والسياسة والجيش سهلاً ميسورًا حتى تبوءوا مناصب مهمة وغدوا من أصحاب القرار في الدولة العباسية.

ثم عالج الباب الثاني حقبة الفوضى العسكرية التي تحكم فيها زمرة من القادة العسكريين الترك أو من عناصر أخرى بأمور الدولة، وشهدت صراعات سياسية ثم أدت إلى فتنة أهلية بين سامراء وبغداد أو بين المستعين والمعتز، كما شهدت محاولات جدية للإصلاح من قبل بعض الخلفاء باءت بالفشل بسبب عدم امتلاك الخليفة للأدوات التي ينفذ بها الإصلاح ورغبة القادة العسكريين بقاء الوضع على ما هو عليه.

كما تطرق الباب الثاني نفسه إلى حركات مهمة وقعت على المسرح السياسي خلال حقبة الفوضى العسكرية ذاتها مثل حركة الزنج وحركة القرامطة وحركة الخوارج. وحاول المؤلف إعادة قراءة هذه الحركات بنظرة شمولية ورؤية جديدة كشفت مدى المبالغة التي حظيت بها هذه الحركات بحيث خرجت عن إطارها التاريخي والواقعي.

انتهى عصر الفوضى العسكرية ليعقبه عصر آخر زاد الطين بلة، ولم يتغير فيه شيء سوى أسماء "العصابات"، وهذا ما فصل فيه الباب الثالث بفصوله الأربعة والموسوم بفترة التسلط البويهي. لقد أمعن المغامرون الديلم البويهيون في محاولاتهم - عن قصد وأحيانًا دون قصد - إفساد الإسلام تحت شعار "التشيع العلوي" دون فهم لمغزاه وتجاوزوا على مؤسسة الخلافة وشخص الخليفة، وسلبوا أغلب صلاحياته، بل جعلوا العديد من مؤسسات الدولة المهمة مثل الوزارة والقضاء والحسبة والشرطة مؤسسات تمول خزينتهم بعد أن منحوها بالضمان للمتنافسين عليها. وظهور "الاقطاع العسكري" في هذا العصر ليتطور ويستحكم في القرون التالية وليصبح أداة للخراب الاقتصادي وللفساد الإداري والسياسي. بل إن بعض الأمراء البويهيين لم يتورعوا من مصادرة أراضي الوقف تحقيقًا لمصلحتهم.

ولكن لماذا أبقى البويهيون الخلافة العباسية؟ وهل أن هذا الموقف يدل على انتهازيتهم السياسية وطبعهم المجبول على المغامرة؟ ولقد حاول الفصل السابع عشر من هذا الباب الرد على هذا التساؤل.

كان من الطبيعي والحالة هذه أن تظهر ردود فعل قوية تجاه النفوذ البويهي سواء من مؤسسة الخلافة العباسية أو من الكيانات السياسية في العراق والأقاليم المجاورة أو من الحركات الشعبية مثل "العياريين" تلك الحركة التي كانت في جانب منها حركة شعبية تنكرت لمواقف السلطة البويهية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعبرت عن نفسها بنشاط ملحوظ تصاعد باستمرار مع تردي الأوضاع في الفترة البويهية.

إن تداعي البويهيين ثم سقوطهم كان نتيجة طبيعية لسياستهم التعسفية المنغلقة على نفسها في مجالات عديدة حتى اضطربت الأمور بالعراق "وصار كل جندي فيها رأسًا لنفسه وانقطعت موارد البلاد" على حد قول ابن العمراني في كتابه الأنباء في تاريخ الخلفاء.

وركز الباب الرابع على السلاجقة الذين حلوا محل البويهيين في بلاد فارس ثم العراق، ورغم استفادتهم من تجارب البويهيين وتجنبهم بعض أخطائهم، فهم لم يختلفوا عنهم في أمور عديدة، وكانت الأمور سيئة منذ البداية فقد شغب الناس وهاجوا لأن جند السلاجقة كانوا منفلتين غير منضبطين عند دخولهم بغداد، يقول ابن الجوزي في كتابه المنتظم "وثارت بين العوام والأتراك فتنة (في بغداد) أدت إلى قتل وأسر، فنهب الجانب الشرقي بأسرة وذهبت أموال الناس".

ومثلما تجاوز البويهيون على مؤسسة الخلافة كذلك فعل السلاجقة. كما حاولوا من خلال "الزواج السياسي" توسيع نفوذهم السياسي ومكانتهم الاجتماعية. وإذا كان البويهيون قد عملوا على تزويج بناتهم للخلفاء العباسيين كما فعل عز الدولة وعضد الدولة وبهاء الدولة. فإن السلاجقة تجاوزوا ذلك وتقدموا خطوة أكبر حين تجرأ طغرل بك بطلب الزواج من ابنة الخليفة القائم بأمر الله وقد وافق الخليفة بعد تردد مرغمًا.

كان هدف السلاجقة الحصول على أكبر قدر من الموارد العينية والنقدية من العراق والأقاليم الأخرى التي وقعت تحت سيطرتهم وبأية وسيلة كانت من أجل الحفاظ على جندهم وسلطتهم، وبقيت سلطتهم قوية ما دام سلاطينهم أكفاء، ولكن بموت السلطان ملكشاه سنة 485هـ ومصرع الوزير نظام الملك في العام نفسه، بدأ الصراع الخفي يظهر على السطح ويتسع تدريجيًا، وتعددت الانشقاقات في صفوف البيت السلجوقي وبرزت إمارات متنافسة في خراسان وكرمان والعراق وبلاد الشام وبلاد الروم.

ومن خلال الصراع بين الخلافة العباسية والسلاجقة برز العديد من الخلفاء الذين جاهدوا من أجل استرداد كرامة مؤسسة الخلافة واستعادة نفوذها. ومن بين هؤلاء المسترشد بالله وابنه الراشد بالله والمقتفي بالله. ولعل المسترشد كان أكثر الثلاثة تميزًا في معارضته للسلاجقة، فقد طلب من السلطان السلجوقي محمود العودة من حيث أتى وعدم دخول بغداد سنة 520هـ لأنه وجنده يضيّقون على الناس ويسلبون أموالهم، والناس "هلكى بشدة الغلاء وخراب البلاد وأنه لا يرى في دينه أن يزداد ما بهم وهو يشاهدهم". وقد أكبر المؤرخون فيه همته العالية وجرأته وكان يخرج بنفسه لدفع الشر حتى رزقه الله الشهادة، أما المقتفي فقد أفشل الحصار

السلجوقي سنة 541هـ على بغداد وتميز بكونه أول خليفة انفرد بحكم العراق دون أن يشاركه سلطان يكون معه منذ أيام البويهيين، وأول خليفة عباسي تمكّن من مؤسسة الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه في حين تحكم المماليك على الخلفاء منذ عهد المنتصر كما يقول المؤرخ ابن الأثير.

ويأتي عهد الناصر لدين الله تتويجًا لفترة "الصحوة العباسية" حيث استطاع هذا الخليفة الداهية الذي حكم سبعًا وأربعين سنة أن ينتشل البلاد والعباد من الأزمة ويرسي سفينة الدولة على شاطئ السلامة رغم أنها سلامة وقتية كانت أشبه بإفاقة الموت للكيان العباسي المتداعي وبهذا استحق لقب "أسد بني العباس". لقد جمع الناصر - من خلال نظام الفتوة الناصرية - حلفاءه في جبهة واحدة تحت زعامته، ونجح من خلال حنكته ودهائه أن يضرب أعداءه بعضهم بالبعض الآخر، وهذا ما جعل بعض المؤرخين مثل ابن الأثير يخطأ في وصف سياسته بالتناقض، وفيما عدا هذا وذاك، فلعل من أعماله المهمة هدم دار السلطنة السجلوقية في بغداد سنة 583هـ وإنهاء عهد سلاجقة العراق رسميًا سنة 590هـ.

أما الباب الخامس والأخير فقد استعرض آخر خلفاء بني العباس الذين تتابعوا على السلطة قبل سقوط الخلافة على يد المغول وهم: الظاهر بأمر الله والمستنصر بالله ثم المستعصم بالله... أما أولهم فقد حاول القيام بإصلاحات تحد من الفساد وتصلح حال الأمة، وعرف بالعدل حتى قورن بالعمرين، وكانت المدرسة المستنصرية من أعظم مآثر الثاني، كما حاول الإصلاح إلا أنه جاء متأخرًا جدًا، والثالث فكان مستضعف الرأي قليل الخبرة غير مطلع على حقائق الأمور فتنوعت "العصابات" وتعدد "قطاع الطرق" من المسؤولين ووقع الخليفة فريسة لأطماعهم وكان الوزير ابن العلقمي وقائد العسكر الدويدار على رأسهم، وحين استفحل الخطر المغولي "لم يحرك ذلك منه (الخليفة) عزمًا ولا نبّه فيه همة... ولم يكن يتصور حقيقة الحال في ذلك" كما يقول صاحب كتاب الفخري فقتل على يد هولاكو في صفر 656هـ وبهذا سقطت الخلافة العباسية في بغداد.

لقد أوردت مصادرنا التاريخية التي دونت أحداث الغزو المغولي للعالم الإسلامي العديد من الصور والوقائع لذلك العدوان الهمجي، ولعل أبلغ صورة تلك التي قدمها المؤرخ ابن الأثير حين يبرر تردده في تاريخ الكارثة ويقول: ... فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك".

وأخيرًا لابد أن أشير إلى أن هذا الكتاب يشمل مجمل كتاباتي عن الحقبة موضوعة البحث فقد عرضتها بعد تنسيقها والإضافة عليها عرضًا جديدًا ... وكل أملي أن يجد القارئ في الصفحات التالية رصدًا لكل تلك الأحداث ووضعها في مكانها من حركة التاريخ الإسلامي في محاولة للنظر إليها من خلال رؤية شمولية تحليلية عسى أن أكون قد وفقت فيها والله من وراء القصد وهو ولي التوفيق.

المؤلف

المفرق/ جامعة آل البيت

1419هـ - 1998م

المحتويات

الباب الثالث

الخلافة العباسية في حقبة التسلط البويهي

المقدمة: أصل البويهيين ونشأتهم.

الفصل السادس عشر: الخليفة المطيع لله.

البويهيون في بغداد- معز الدولة البويهي - معز الدولة والقرامطة- عمران بن شاهين في البطيحة- معز الدولة والجيش البويهي- وفاة معز الدولة البويهي- بختيار عز الدولة البويهي- بختيار عز الدولة والجهاد- بختيار عز الدولة والحمدانيون- بختيار البويهي وعمران بن شاهين- بختيار البويهي والجيش- العلاقة بين بختيار وعضد الدولة.

الفصل السابع عشر: الخليفة الطائع لله:

عضد الدولة البويهي - احتلال كرمان- عضد الدولة والسامانيون- احتلال عُمان- عضد الدولة والحمدانيون- عضد الدولة والقبائل العربية في العراق- عضد الدولة والمشرق- أمراء البويهيين بعد عضد الدولة- عهد الخليفة القادر بالله.

الفصل الثامن عشر: العلاقة بين الخلافة العباسية والبويهيين:

المستكفي بالله ومعز الدولة- المطيع لله ومعز الدولة- الطائع وبختيار- الطائع وعضد الدولة- القادر وبهاء الدولة- القائم وجلال الدولة- الخلافة والإمارات الإقليمية.

الفصل التاسع عشر: استمرار الحركات المناهضة للخلافة:

استمرار القرامطة - الحركات الشعبية

الفصل العشرون: أسباب سقوط البويهيين:

الباب الرابع

الخلافة العباسية في حقبة السيطرة السلجوقية

السلاجقة أصلهم ونشأتهم - السلاجقة ومحمود الغزنوي. طغرك بك أول سلاطين السلاجقة.

الفصل الحادي والعشرون: عهد الخليفة القائم بأمر الله:

السلاطين السلاجقة العظام- طغرك بك- ملكشاه- اتجاهات الإدارة العامة- الصراع بين الأمراء والسلاجقة الصغار على السلطة.

الفصل الثاني والعشرون: العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة:

العلاقة في الفترة الأولى - مقاومة الخلفاء العباسيين للنفوذ السلجوقي- المسترشد بالله- الراشد بالله- المقتفي لأمر الله- عودة التدهور إلى الخلافة.

الفصل الثالث والعشرون: الحركات (الدينية والسياسية) المناهضة للخلافة:

(6)

كتاب (الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية) [7]

مقدمة

سيظل التاريخ يكتب وتعاد كتابته وتفسيره في ضوء الواقع الاقتصادي أو الاجتماعي أو الفكري أو الديني أو أي واقع آخر يراه المؤرخ الباحث مهمًا أكثر من غيره في تحليل الظاهرة التاريخية. فقد اختلف المؤرخون في تفسير ظهور الإسلام مثلاً في بيئة الجزيرة العربية وأكدوا على العوامل الروحية أو على الصراع الطبقي والظروف الاقتصادية أو غير ذلك. [8] ثم ناقشوا تطور الأحداث في صدر الإسلام على أساس "الصراع بين اليمين واليسار"[9]. وحار المؤرخون كذلك في تفسير "الثورة" العباسية فمن قائل أنها قامت على أكتاف الفرس ومن قائل أنها ثورة قام بها أتراك خراسان وما وراء النهر، ولم تكن هذه الثورة في حقيقتها إلا ثورة القبائل العربية المستوطنة في خراسان اشترك فيها بعض الموالي الأعاجم. [10]

ورغم اعتراف المؤرخين بأهمية العوامل المادية، وخاصة الظواهر الاقتصادية في التطور التاريخي حيث يقول المؤرخ الروسي رستوفتزف: "وإني موقن أنه من غير إجراء بحث دقيق عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية يصبح مصير أية محاولة لكتاب تاريخ عام للإمبراطورية الرومانية مقضيًا عليها بالإخفاق". [11]

ثم يقول في مجال آخر [12] : "وإني لأبعد الناس عن المبالغة في تقدير الأهمية التاريخية للأوضاع الاقتصادية، ومع ذلك فلا يسعني إلا الظن بأن أي صورة للحياة الاجتماعية من غير أن يصاحبها صورة للأحوال الاقتصادية التي تكون أساسًا لها لابد أن تجيء ناقصة ومضللة كذلك".

على أن المؤرخ جون نيف يقرر نظرة معارضة.

إن الإلمام بالتاريخ العام لابد من أن يغير نظرة الإنسان إلى التاريخ الاقتصادي... وإنني أجد نفسي متسائلاً عما إذا كانت هناك علاقة بين الدين والأخلاق والفن -هذه الموضوعات التي ما برحت حيوية عند كثرة من البشر- وبين الموضوعات الخاصة بالبحث الاقتصادي، ولو أني نظرت إلى هذه الموضوعات من خلال مجرد الإحصاءات والأبواب التي جاء بها بعض الاقتصاديين باعتبارها تكاد تكون جماع

الحكمة لوجدتها موضوعات خالية من الحياة، ولم أجد موضوعات البحث الاقتصادي تتبض بالحياة إلا عندما عالجتها من خلال الرجال والنساء الذين شقوا طريقهم إلى السطح فظهروا في الوثائق التي قرأتها... ووصلت آخر الأمر إلى أن أصل الحضارة الصناعية الفريدة التي تحيط بنا جميعًا لا يمكن قصره بدقة على مؤرخي الاقتصاد وأن الطريقة الوحيدة التي قد يتيسر بها فهم هذا الأصل إنما تتم من خلال دراسة التاريخ كله مجتمعًا". (13)

ويقرر البروفسور نيف: "إذا اختبرنا مقدمات الثورة الفكرية المسؤولة عن العالم الصناعي الذي نعيش فيه اليوم، نجد قلة من الشواهد تؤيد وجهة النظر القائلة بأن العِلم الحديث نجم عن التقدم الصناعي في شمالي أوروبا، فخلال هذه الأزمنة التي شهدت التغير الحاسم في الأساليب العقلية كان العقل نفسه لا النظم الاقتصادية ولا التطور الاقتصادي هو الذي سمى النغمات الجديدة ونظّم غالبية صورها المختلفة التي كان كبار العلماء يرددونها، وبالأحرى فإن الحرية لا الضرورة هي القوة الرئيسية وراء الثورة العلمية". (14)

من الطبيعي أن تختلف المحاور ونقاط الارتكاز التي يدور حولها المؤرخون بتباين فلسفاتهم وبيئاتهم، ذلك لأن التاريخ أحد الوسائل الفعّالة للحفاظ على تماسك المجتمع وتطويره نحو الأفضل وهو نابع من المجتمع متأثر بفلسفته وأهدافه.

إن أي بناء لمجتمع نامي، كالمجتمع العربي، يحاول أن يبنى على الماضي ولكن بنظرة واسعة متفتحة حرة غير جامدة تلائم الظروف المتغيرة دومًا. والمجتمع المتطور هو المجتمع الذي يعتز بتراثه من جهة ثم يحاول أن يتطور حسب حاجاته وظروفه من جهة أخرى، والتاريخ يعد المواطن لا ليعيش في حاضر جامد وإنما في حاضر متطور نحو مستقبل يجب أن يكون خيرًا من الحاضر ولذلك قيل: "رب درس في التاريخ أنشأ أمة".

ولعل من مزايا التاريخ أنه يكوّن لدى دارسيه نزعات إنسانية مهمة: أولها نزعة الاحترام ففي مجال التفسير التاريخي تظهر وجهات نظر متعددة تستوجب المناقشة وهنا لا نستطيع أن نضمن احترام أنفسنا وآراءنا ما لم نضمن احترامنا لآراء الآخرين. أما النزعة الثانية، فهي نزعة التقدير فقد وقع الكثير من المؤرخين في أحكام خاطئة لتعصبهم أو تسرعهم أو عدم تقديرهم للظاهرة التاريخية أو القيم

الحضارية، وعلى المؤرخ إذا أراد فهمًا صحيحًا لسير التاريخ وتطور قيمه الحضارية أن يدرس ذلك التاريخ بروح تقديرية فلكل شعب ظروفه، ولكل حضارة خصائصها التي أدت إلى نشوئها ووصولها إلى المستوى الذي وصلت إليه. وليس من الإنصاف وحسن التقدير أن نقيس حضارة ما بمقاييس حضارة أخرى. أما النزعة الثالثة: فتهدف إلى التوجيه نحو خدمة الإنسانية وتتضمن القول المأثور "لقد خدمني الإنسان سابقًا فكيف أخدمه الآن"، فقد أصبح التاريخ سجلاً لقصة تطور الإنسان بآماله وآلامه ومخاوفه وطموحاته بأوسع ما تتسع له الحياة وتتنوع فيه.

وأكثر من هذا يغرس التاريخ لدى دارسيه والمتأثرين به "نزعة علمية" وهذه النزعة ليست مجرد طريقة تاريخية تحاول التوصل إلى الحقائق بصورة موضوعية، بل أنها تتضمن دراسة الظواهر التاريخية دون تعصب عرقي أو إقليمي أو طائفي وعدم الحكم عليها جزافًا بل أنها تتعدى ذلك فتتوقف عن إصدار الأحكام والتفاسير على مواضع تفتقر إلى الوثائق والأسانيد والشواهد التاريخية.

ويكوِّن التاريخ لدى دارسيه ومريديه "نظرة واسعة شمولية" لفهم الأحداث والمشاكل المعاصرة عن طريق ربطها بالماضي وعن طريق التشجيع في الاستقصاء والبحث في جذور هذه الأحداث. وإذا كان من الصعب الوصول إلى قواعد ثابتة محددة في التاريخ، فإننا نستطيع أن نتوصل إلى تعميمات وتفسيرات واضحة بشأن الحوادث التاريخية، فالتاريخ يجب ألا يدرس بشكل أعمى وإنما يجب أن يفسر وتربط فتراته بعضها ببعض بشكل حلقات متصلة يمكن أن ينظر إليها بصورة عامة ويتوصل منها إلى تفسيرات واضحة. وعندئذ يساعد التاريخ على تكوين حس زماني ومكاني يزيد من فهم الفرد وإدراكه لمشاكله الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كما وينمي تفهم الفرد لمشاكل وظروف دول العالم الأخرى، وبالتالي تفهم مواقفها السياسية والنظر بحكمة وتعقل إلى المشاكل الدولية عن طريق استيعاب ظروفها الموضوعية.

ولعل من تكرار الكلام القول بأن "البحث العلمي" يتطلب من الباحث أن يكون مسؤولاً عن علمية المصادر التي يرجع إليها، مسؤولاً عن نوعية النصوص التي يختارها، مسؤولاً عن تفسيراته لهذه النصوص وسكوته عن التعليق على البعض الآخر، وعدم تحميل النص فوق ما يحتمل، مسؤولاً في أن يقدم رأيًا ناضجًا متكاملاً للحوادث التي يبحثها.

ومن واجب المؤرخ أن يتجاوز حدود الواقع إلى "رؤيا مستقبلية" يكونها من خلال دراسته للتاريخ وفهم ذكي وموضوعي له وإلمام حقيقي بحركته أيضًا. وإذا كانت الأمة بما تعمل لا بما تعلم فإن الأمة لا يمكن أن تكون كذلك دون أن تدرك أهمية العمل... دون أن تستيقظ وتعي وضعها والظروف المحيطة بها.

إن الشعوب تستيقظ بالمفكرين ولذلك اعتمدت وتعتمد السلطة في كل زمان ومكان على بلاغة البلغاء من أدباء ومؤرخين ومفكرين، وسيظل المؤرخون يعملون ويكتبون بغية إدراك الأبعاد الحقيقية لظواهر التاريخ وقياس حجمها كاملاً غير منقوص، ذلك لأن الأفكار البلاغية والشعارات وحدها لا تكفي ولابد من ترجمتها إلى برامج من قبل الساسة وصنّاع القرار في كل مؤسسة.

(7)

كتاب (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين) [17]

تقديم الكتاب: دعوة إلى قراءة جديدة للنصوص التاريخية القديمة

شهد القرن العشرون تقدمًا ملحوظًا في الجهود الرامية لجمع الوثائق والمخطوطات وتنظيمها؛ فقد اكتشفت مادة مهمة من مخطوطات ووثائق تاريخية ساعدتنا على إعادة تقويم أحداث الماضي بطريقة تزيد من تفهّمنا لها وإفادتنا منها.

ومع ذلك كلّه فلا نزال نعاني ممن يعتقد "بالأطر المسبقة" وممن "يقلّد"، فلا زال العديد من مؤرخينا يعتمد كليًا على تفاسير استشراقية عفى عليها الدهر دون تمحيص، ولذلك يقعون في عين الأخطاء التي وقع فيها المستشرقون قبلهم. ورغم أنَّ هذه الآراء الاستشراقية باتت قديمة في أوروبا وظهرت تفاسير جديدة عدّلت فيها وغيّرت؛ إلاّ أننا لا نزال إلى يومنا هذا نتداول هذه الآراء ونستند عليها.

لقد فسّر بعض المستشرقين تاريخنا العربي - الإسلامي تفسيرًا عنصريًا يقوم على الشعوب داخل المجتمع الإسلامي الوسيط، وشاع هذا التفسير بين "المقلّدين" من مؤرخينا رغم أنه تفسير خاطئ. ولو كلّف هؤلاء الكتّاب أنفسهم عناء قراءة النصوص التاريخية بإمعان دون الاستناد إلى قراءات المستشرقين، لوجدوا أنّ التفسير العنصري لا يستند على أساس تاريخي أو نظرة موضوعية للأحداث.

إنّ هذه الدعوة إلى قراءة جديدة للنصوص التاريخية القديمة لا تقتصر على "المقلّدين" من كتّابنا بل إنها تشمل كذلك من يعتمد "النظرة المسبقة" في التفسير من الذين يعتمدون على مستشرقين آخرين، حاولوا تطبيق التفسير المادي للتاريخ، فتخبّطوا وخلطوا، وكان همهم أن يجعلوا من "أسلوب الإنتاج" و"صراع الطبقات" أساسًا لظهور الحركات والمنعطفات التاريخية في الشرق العربي الإسلامي.

إنّ الصورة التي يعطيها كلا التفسيرين الضيّقين صورة قاتمة بعيدة عن الواقع، لأنها تحاول أن تجمع الشواهد الشاذة لكي تؤيد فرضيتها هذه أو نظرتها تلك.

ولعلّ ما تهدف إليه هذه البحوث التي بين يدي القارئ الدعوة إلى قراءة جديدة وعميقة للنصوص والوثائق عن تاريخنا العربي الإسلامي، دون الاعتماد على قراءات غيرنا لهذه النصوص، وهذا بطبيعة الحال لا يعني عدم الإلمام بها ومعرفتها.

أما الأمر الآخر الذي تسعى إليه هذه البحوث فهو تأكيد الفكرة القائلة بأنّ تاريخنا حين بدأ يكتبه أبناؤه المتحررون من إسار الفكر الدخيل، المستندون على نظرة ذاتية في فهم التراث وتفسيره... إنّ هذا التاريخ ظهر بوجه جديد وبتفسير جديد يختلف عن الصورة التي جاء بها الاستشراق، ونقلها مؤرخون عرب حتى النصف الأول من هذا القرن العشرين دون تمحيص.

لقد اعتادت أوروبا بعد القرن السادس عشر الميلادي على مستوى حضاري، امتاز بتفوقه المادي والعلمي. وقد نسي مفكرو أوروبا وكُتّابها، أو تناسوا، المستوى الحضاري الواطئ الذي عاشته مجتمعاتهم في العصور الوسطى. بل إنهم لم يتحملوا حتى التفكير في حضارات لم تكن في يوم ما منافسة لهم فحسب، بل كانت أرقى منهم درجات عديدة. وإلى ذلك أشار المؤرخ بارتولد حين قال: "نجد الأسس المتبعة في طرق البحث التاريخي تواجه صعوبة في إزالة الخرافة التي تعتبر أوروبا في كل العصور تحتل تلك الأهمية العالمية سياسيًا وحضاريًا كالتي تتمتع بها الآن".

ومن هذا المنطلق نظر المستشرقون إلى التراث العلمي والفلسفي العربي الإسلامي على أنه مجرّد إحياء وبعث جديد للتراث الإغريقي القديم وهي نظرة خاطئة... وبالغ بعض المستشرقين في تأثير الحضارة الفارسية في النظم الإسلامية وفي الفكر العربي الإسلامي. وأبرز مستشرقون آخرون الصراع بين العرب والأعاجم، مؤكدين على ظاهرة "التمييز" الذي مارسته الدولة بين العرب والموالي في المجتمع الإسلامي، وهو ادعاء ليس له ما يبرره. بل إنّ بعضهم ذهب أبعد من ذلك؛ حين ادّعى بأنّ الإسلام نشأ عن "أسطورة" حبكت في عهد الخلافة لتركيز سلطة الطبقة الحاكمة!! فهو إذن يتناسب مع مصلحة "الأرستقراطية" مالكة الرقيق أو مصلحة الإقطاعيين.

ومنذ أن كتب نولدكه عن حركة الزنج واعتبرها "ثورة العبيد" المظلومين الذين يعانون من التمييز الاجتماعي والاقتصادي... ومنذ أن كتب إبراهيموف عن البابكية واعتبرها "انتفاضة" الأذربيجانيين ضد "التسلّط العربي"... ومنذ أن رَوَّج مستشرقون ومستعربون آخرون لحركات الزندقة والشعوبية والقرامطة، فاعتبروها

حركات "تحررية" ناضلت من أجل العدالة والمساواة "والاشتراكية"!!... نقول: منذ أن كتب أولئك، حذا المؤرخون من شرقيين وغربيين حذوهم، فأصبحت تلك الفرضيات التي لا تستند إلى روايات التاريخ وحقائقه نظريات مسلّم بها وليس هناك مجال للتشكيك بها، لا لأنها صحيحة بل لكثرة تردادها في الكتب والبحوث.

والمطلوب منّا تجاه هذه الآراء الغربية والتفسيرات المتحاملة، التصدي لها بمعالجة أكثر موضوعية لوقائع التاريخ العربي الإسلامي، وتقويم مظاهره المختلفة بتبنّي تفسير ينطلق من وجهة نظر شمولية موضوعية في فهم التاريخ وتفسيره. إننا لا نريد لمجتمعنا أن يتنازل عن إرثه الحضاري وقيمه المميزة وخصوصيته ويستبدلها بقيم غريبة عنه... والأمر متوقف علينا أولاً وآخرًا.

المؤلف

بغداد - 1985م

(8)

كتاب (بحوث في التاريخ العباسي)[16]

تـمـهـيـد

يحوي هذا الكتاب بين طياته مجموعة بحوث لتاريخ الخلافة العباسية في عصرها الأول كتبت خلال العقد الماضي أثناء قيامي بتدريس التاريخ العباسي بجامعة بغداد.

ولعل أهم ما توضحه هذه البحوث الفكرة التي تقول بأن تاريخنا العربي الإسلامي حين بدأ يكتبه أبناء العروبة وجيلها الجديد الصاعد الذي تحرر من سيطرة الأفكار الاستشراقية واعتمد على قدرته في البحث والتنقيب وقراءة المخطوطات وإعادة تقويم الروايات التاريخية، واستند على نظرة عربية في فهم التراث وتفسيره... إن هذا التاريخ ظهر بوجه جديد وبتفسير جديد يختلف عن الصورة التي جاء بها الاستشراق ونقلها مؤرخون عرب وغير عرب محدثون حتى بدايات النصف الثاني من القرن العشرين.

فلم تكن الانتفاضات والثورات في تاريخ الإسلام حركات قامت على أكتاف "الموالي" بل على العكس فإن اندفاع العرب بعد الفتح الإسلامي إلى أقاليم عديدة في هجرات حربية أعارها المؤرخون الاهتمام وهجرات سلمية متتابعة لم يعرها المؤرخون الاهتمام ترك آثارًا عميقة على الأقاليم الجديدة التي استقر فيها العرب فغيروا طابعها الأعجمي وخلطوه بطابع عربي جديد فيه الكثير من مظاهر العروبة وقيمها. وإذا كان تأثير "عرب خراسان" واضحًا للعيان فإن العرب في أقاليم أخرى من إيران مثل فارس وكرمان وسجستان وغيرها لعبوا دورًا مهمًا حتى القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي، وكان زعماء القبائل العربية يعدون من "ملوك" فارس فقد وفد جعفر بن أبي زهير وهو من قبيلة بني سامة على الخليفة العباسي الرشيد في وفد من ملوك فارس.

ومثلما يعاد النظر في تحليل الأحداث السياسية لابد أن يعاد النظر في تقديم الأفكار والنظم الإسلامية وأن لا يبالغ مثلاً في النظرة القائلة بأن نظم العباسيين

مقتبسة كلها أو معظمها من الفرس الساسانيين.. فلم تكن نظم الساسانيين - بهذه الدرجة من التقدم والتبلور ولم تستطع حضارة الساسانيين أن تصبغ بغداد بصبغة فارسية بل ظلت بغداد المنصور مدينة عربية- إسلامية في قيمها وتقاليدها ولغتها حيث استطاع رواد الفكر الإسلامي - من المحدثين والفقهاء والعلماء أن يجعلوا من المدينة الجديدة مدينة ذات سمة عربية واضحة المعالم.

ولا نريد أن نطيل الحديث في هذه المقدمة ولكننا نقول بأن هناك اعتبارات محلية وسياسية وإدارية وحضارية على الباحث أن يدركها حين يحاول البحث في مؤسسة من المؤسسات السياسية أو الإدارية أو الثقافية. فمؤسسة الوزارة العباسية مثلاً لم تكن نسخة من الوزارة الساسانية ولم يكن إيجادها بسبب سياسة مقصودة من قبل الخلفاء العباسيين لجعل الحكم مناصفة بينهم وبين الفرس انطلاقًا من الفكرة بأن الثورة العباسية قامت على أكتاف الفرس. وهكذا بالنسبة لباقي المؤسسات.

على أن ما ذكرناه لا يتناقض بل يتماشى وينسجم مع الفكرة القائلة بأن الحضارة بما فيها من نظم وأفكار ذات صفة عالمية مرنة وهي ليست حكرًا على شعب من الشعوب بل حصيلة تجارب الشعوب. ثم أن تطور أية حضارة وازدهارها وتكاملها رهين بمقدار عالميتها وانفتاحها وتفاعلها أخذًا وعطاءًا مع الحضارات الأخرى.

ولعل السر في ازدهار حضارة العرب الإسلامية في عصورها الوسيطة هو اتصافها بالعالمية والانفتاح والمرونة والتفاعل.

المؤلف

15/11/1976م

(9)

كتاب (دراسات في التاريخ الإسلامي)[17]

تــقــديــم

يضم الكتاب بين دفتيّه عددًا من الأبحاث ذات علاقة بالقرون الإسلامية الأولى وبصفة خاصة العصرين الأموي والعباسي الأول، وقد رأينا تقسيمها على قسمين: الأول في التاريخ السياسي والقسم الثاني: في النظم الإسلامية.

يتناول المبحث الأول من القسم الأول الخليفة الأموي مروان بن محمد الذي يُعد في حكم التاريخ من أقدر الخلفاء الأمويين وأكثرهم كفاءة سياسية وعسكرية إلا أنه لم يأت في الوقت المناسب ولا في الظرف المناسب بل جاء متأخرًا وحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه دون جدوى فكان سقوط الأمويين في عهده.

وعالج المبحث الثاني من القسم الأول "مراكز القوى" المؤثرة في السياسة العباسية في العصر العباسي الأول محاولاً بالأدلة التاريخية إبراز استمرار دور العرب التاريخي كقوة مؤثرة في البلاط والسياسة والإدارة العباسية، والرد على الأفكار القديمة/ الجديدة التي لا تزال تتردد في الكتب محاولة إنقاص دور العرب على حساب التكتلات الأخرى.

أما المبحث الثالث من القسم الأول فيرد على النظرة الاستشراقية التي أظهرت "الموالي" كفئة سلبتها الدولة العربية الإسلامية حقوقها وهمشتها في المجتمع مما أدى إلى قيام هذه الفئة بردود فعل ظهرت على شكل مظاهر اجتماعية وحركات دينية سياسية. لقد قامت العديد من الدراسات الحديثة بإعادة تقييم دور الموالي في المجتمع وفنَّدت النظرة الاستشراقية الخاطئة بالأدلة التاريخية وخاصة خلال الفترة الأموية. ويعدّ هذا المبحث أحد هذه الدراسات الرائدة التي هدفت إلى إعادة التقييم والتقويم.

وتطرّق المبحث الرابع من القسم الأول إلى النظر إلى المشرق الإسلامي نظرة شمولية تركز على الظواهر العامة والعوامل المحركة للأحداث بين القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي.

أما المبحث الخامس من القسم الثاني فيعالج موضوع الوزارة العباسية في مطالع العصر العباسي، وهي مؤسسة إسلامية جديدة لم تكن موجودة في الدولة الأموية. وقد حاولنا توضيح صلاحيات الوزير وحدودها بالنسبة إلى صلاحيات المؤسسات الأخرى وخاصة مؤسسة الخلافة.

وتطرقت المباحث السادس والسابع والثامن من القسم الثاني إلى نظم ومظاهر حضارية أخرى وهي على التوالي: الألقاب الجديدة للخلفاء العباسيين، ثم الألوان وأهميتها وأخيرًا العلاقات الدبلوماسية بين العباسيين والفرنك الكارولنجيين وما حصل حولها من اختلاف في الرأي بين المؤرخين المحدثين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المؤلف

المحتويات

(10)

كتاب (قراءات ومراجعات نقدية في التاريخ الإسلامي) [17]

مـقـدمـة

تتمثل مراجعة الكتاب وهي ما تسمى باللغة الإنكليزية Book Review، والتي تشمل عمليات متنوعة من قراءة وعرض ونقد وتعليق وتعقيب وتحليل وتفسير، تتمثل بمحورين رئيسيين:

الأول: العرض الظاهري للكتاب من الخارج ويحوي شكل الكتاب وعنوانه وعدد صفحاته ومحتويات فصوله وملاحقه وفهارسه ومكان طبعه وسنة نشره. كما يحوي نبذة عن السيرة العلمية لمؤلفه.

الثاني: يتعلق بمراجعة الكتاب من الداخل وما تحويه فصوله من آراء وأفكار وتفسيرات حيث يتناولها المراجع بالنقد والتحليل والتعليق والتعقيب.

ولعل أهم شروط الناقد أو مراجع الكتاب، أن يكون بعيدًا عن الهوى، موضوعيًا غير ملتزم برأي مسبق أو نزعة مذهبية أو إقليمية أو عرقية أو مصلحة شخصية يبغي من وراءها هدفًا بذاته، وأن يكون مقدّراً للرأي والرأي الآخر شرط استناده إلى روايات تاريخية مسندة أو وثائق رصينة معتبرة.

إن المؤرخ العربي والإسلامي مدعو إلى المساهمة في بلورة "تقاليد" نقدية في التاريخ تستند على منهجية في المطارحات التاريخية والموازنات الفكرية. وبقدر تعلق الأمر بي شخصيًا فقد بدأت تجربتي الأولى في النقد التاريخي في موضوع لم يكن سهلاً يتمثل في إعادة تقويم الدعوة العباسية في أطروحة الدكتوراه، بجامعة لندن، فكان نجاحي في تلك الدراسة بشهادة لجنة التحكيم مفتاحًا لحسن الاعتقاد دفعني في السنوات والعقود التالية إلى إعادة تقويم العديد من المظاهر في تاريخنا العربي - الإسلامي. ولكن الفرصة الثانية الكبيرة للنقد التاريخي بعد تجربة الدكتوراه، تهيأت حيث تلقيت دعوة كريمة من رئاسة تحرير مجلة (آفاق عربية) الواسعة الانتشار في أوساط النخبة المثقفة والتي تصدر في بغداد بالعراق، لكتابة سلسلة من البحوث والمقالات التاريخية تنشر شهريًا وبصورة دورية حول موضوعات اختارها في التاريخ العربي الإسلامي، وقد سنحت لي هذه الفرصة كتابة جملة من

البحوث من منتصف السبعينات حتى مطالع الثمانينات من القرن العشرين، فيها الكثير من المساجلة والنقد وإعادة التقييم والقراءة الجديدة للعديد من الآراء القديمة - الجديدة المطروحة في كتب التاريخ والمجلات التاريخية سواء منها الآراء العربية التقليدية أو الاستشراقية والتي شاعت في أوساط المؤرخين الأكاديميين وغير الأكاديميين العرب والمسلمين والأوروبيين على حد سواء.

لقد كانت تجربة ثرة في النقد التاريخي إلا أنها خلقت لي العديد من الأصدقاء والأعداء، ولعل ما واجهته في حينه من ردود فعل متشنجة أوصلتني إلى قناعة بأن الوقت لم يحن بعد في الوسط الثقافي العربي، وبالأخص الأكاديمي، لتقبل النقد باعتباره ظاهرة علمية هدفها رفع مستوى المناقشة العلمية وأنها إذا ما تمت تعد من المكاسب المهمة في مجال كتابة التاريخ العربي الإسلامي، لأن نجاحها يعد نجاحًا لمقاومة التقليد الأعمى لآراء السابقين من عرب ومستشرقين.

وبعد ذلك كله فإن العِلم الصحيح يعتمد في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة كما يقول فيرثر إندة. وإنني على يقين بأن اليوم الذي سيعطي فيه للنقد التاريخي مكانته المتميزة في مراجعة الكتابات التاريخية، العربية الإسلامية سيأتي لا محالة. وحسب الباحث أن يخطو خطوة في الاتجاه الصحيح. أما المعترضون فلعل قول الشاعر يكفي للإجابة عليهم:

لو كان قولك نصحًا كنت أقبله   لكن قولك موضوع على الحسد

بدأ النقد والمراجعة بين المؤرخين الأوروبيين منذ زمن بعيد، ذلك أنهم لم يكونوا على رأي واحد وتفسير واحد للظاهرة التاريخية بل تنوعت آراءهم وتضاربت وانتقد بعضهم بعضًا؛ حيث نلاحظ هاملتون جب حين يتكلّم عن أعمال المبشرين من المستشرقين يقول: "لقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق إلى أعماق الفكر الإسلامي بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة، ولكن رغم ذلك فإن التأثر بالأحكام القديمة عن الإسلام لا زال قويًا في دراساتهم".

ومثلما انتقد أرنولد زميله في الاختصاص ريتشاد سيمون بأنه كان إيجابيًا أكثر مما يجب في حديثه عن تاريخ الدعوة الإسلامية، كذلك انتقد عدد من المستشرقين مونتكمري وات في كتاباته عن سيرة الرسول (ﷺ). ورغم عدد من النقاط السلبية-

من وجهة نظر الباحثين المسلمين- في كتاب (حضارة العرب) للمستشرق لوبون، فإن عددًا من المستشرقين انتقده بسبب تفسيراته الإيجابية المتعاطفة مع المسلمين.

ولعل من أمثلة الخلاف الكبير في التفسير ذلك الذي حدث حول (أصول الإسماعيلية) بين برناردلويس وايفانوف. وقد انتقد أربري ومونتكمري وات مستشرقة من الجيل الجديد باتريشياكرون لكتاباتها في تاريخ الإسلام مشككة بالمصادر، محرفة تفسير النصوص منتهية بتخريجات لا تستند إلى أساس تاريخي. ولم يتورع سارجنت من القول بأن مصير كتبها إلى مزبلة التاريخ The Dustpin of History والاختلاف في وجهات النظر بين المؤرخين الأوروبيين حول طبيعة العلاقة بين هارون الرشيد وشارلمان أشهر من أن يعرّف بها.

إن خير مثال على نزعة النقد والنقد المقابل ما أشار إليه مدير (مركز الدراسات العربية المعاصرة) مايكل هدسن من جامعة جورجتاون في واشنطن من حملات النقد الحاد التي وصلت إلى التجريح المعادية للمركز، مؤكدًا بأن المركز سيواصل بحوثه للتعريف بالعرب بصورة أقرب إلى الواقع مما أنتجته وتنتجه الدراسات الاستشراقية غير الموضوعية.

إن النقد والمراجعة والقراءة الجديدة للكتب والأبحاث مطلوبة وضرورية لأسباب عديدة لعل منها: إن الحقيقة التاريخية ليست واحدة في كل جيل، بل ربما اختلف الجيل الواحد عليها، فلو كانت واحدة لتوقف البحث حولها، ومن هنا يأتي النقد والمراجعة أداة للتقويم وإبداء وجهات نظر مغايرة وآراء معاكسة. هذا من جهة ومن جهة ثانية فإن مسرح الكتابة التاريخية يزدحم بالكثيرين الذين قد لا تتوفر فيهم المؤهلات والقدرات ولا شروط البحث، بمعنى أنهم ليسوا مؤرخين محترفين بالمعنى المتعارف عليه، ولابد من مراجعة بحوثهم ونقدها من أجل القرّاء الذين يطالعون كتبهم وربما يتأثرون بها. أما ثالثًا وأخيرًا فإن بعض الكتابات الاستشراقية التي ظهرت ولا تزال تظهر على الساحة الثقافية وربما تترجم إلى اللغة العربية تتصف بالتعصب الممقوت والذاتية المفرطة. هؤلاء الكتّاب الأوربيون، وهم شريحة وليس كل الكتّاب، لا يكتبوا إلا بلغتهم الأجنبية ولم يوجهوا خطابهم إلا للأوربيين، ولابد من نقد كتاباتهم والرد عليها لكي لا يتأثر بها المواطن العربي أو المسلم فتزعزع هويته وتتذبذب شخصيته، والمواطن الأوروبي من أجل أن تقوم صورتنا وتاريخنا لدى شعوب أوروبا.

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا جملة مختارة من المراجعات النقدية والقراءات التاريخية هدفها تقويم الصورة وتعديلها، وينقسم بعد المقدمة إلى أقسام ثلاثة هي:

القسم الأول: ويتضمن مراجعات نقدية وقراءات تاريخية لكتب وبحوث متنوعة.

القسم الثاني:ويتضمن مجموعة مقالات قصيرة مثل الوسطية في الإسلام، أو الخلاف والاختلاف في الإسلام، أو القيم الإدارية في الإسلام، وهي كما هو واضح كتبت في حينه ردًا على مفاهيم خاطئة بدأت تسود في المجتمع. كما يتضمن بحوث طويلة نشرت في مجلات علمية محكمة باللغة العربية.

القسم الثالث والأخير: ويتضمن بحوث تاريخية نشرت في مجالات علمية محكمة باللغة الإنكليزية خلال الثلاثين سنة الماضية.

لقد دأبت منذ مدة ليست قصيرة على جمع "المختار" من بحوثي ونشرها على محورين، أما الأول: فهو نشر البحوث في كتب منفردة باللغتين العربية والإنكليزية مثل: Abbasiyat دراسات في تاريخ العصر العباسي الأول، بغداد، 1976م (بالإنكليزية)، وكتاب بحوث في التاريخ العباسي، بغداد، بيروت، 1977م، وكتاب (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين)، بيروت، 1980، الطبعة الأولى، ط2، بغداد، 1985م، وكتاب دراسات في تاريخ عُمان، عمّان، الأردن، 2000م، وكتاب أبحاث في التاريخ الإسلامي، عمّان، الأردن، 2006م. ويقع هذا الكتاب الذي بين أيدينا (في التاريخ الإسلامي- مراجعات نقدية ومقالات قصيرة وبحوث) باللغتين العربية والإنكليزية، ضمن المحور نفسه من الكتب.

أما المحور الثاني فيتضمن بحوث ودراسات ألحقت ضمن كتب كملاحق في آخرها باللغتين العربية والإنكليزية مثل: كتاب (الوزارة العباسية)، بغداد، 1986م، وكتاب (Aspects from Abbasid History)، عمّان، الأردن، 2003م.

ولابد أن أشير بأنني عدّلت في أسلوب عرض فقرات من بعض المقالات والبحوث، وربما حذفت بعض الجمل فيها، ذلك أنني دونتها في عهد الشباب وما فيه من فورة وتمسك بالرأي والدفاع عنه، فلما عدت إليها الآن في عهد النضج والشيخوخة رأيتُ أن بعض جملها أو فقراتها تقتضي شيئًا من المرونة والشفافية وإعطاء فسحة للرأي الآخر. على أن القناعات والتفاسير بقيت هي هي كما كانت.

وهذه الظاهرة ليست جديدة في عالم المؤلفين وكتبهم، فقد عبّر عنها مؤرخون فحول أمثال العماد الكاتب الأصفهاني (ت597هـ) وتبعه في ذلك أبو الفدا (ت732هـ). فقد قال الأول: "إني رأيتُ أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في

غده: لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر". وأشار أبو الفدا إلى المعنى نفسه حين قال: "وكلما أعرته (الكتاب) على الأيام بصري.. وأعدت فيه نظري تبنيت مصداق ما قرأته في بعض الكتب أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم أنه لا يكتب كتابًا فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غداها أن يزيد فيه أو ينقص منه. هذا في ليلة فكيف في سنين عديدة".

وأشار إلى الظاهرة نفسها كُتّاب محدثون حيث ذكر محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه عن السيرة النبوية الشريفة (حياة محمد) أن فكرة تأليف الكتاب كانت تراوده في المراحل الأولى من العمر، إلا أنه كان يؤجلها ثم يؤجلها إلى مرحلة متأخرة حيث تكثر التجربة وتزداد الخبرة بالقراءة والمناقشة. وبمعنى آخر فإنه "لو كتب كتابه قبل ثلاثين سنة لما كتبه بالمظهر الذي ظهر فيه الآن".

وأختم مقدمتي بما قاله الفيروزبادي (ت817هـ/1414م) في مقدمة كتابه القاموس المحيط: "والله تعالى أسأل أن يثيبني به جميل الذكر في الدنيا وجزيل الأجر في الآخرة، ضارعًا إلى من ينظر من عالم في عملي أن يستر عثاري وزللي ويسد بسداد فضله خللي ويصلح ما طغى به القلم وزاغ عنه البصر وقصر عنه الفهم وغفل عنه الخاطر، فالإنسان محل النسيان وإن أول ناس أول الناس وعلى الله تعالى التكلان".

ومن الله التوفيق ،،،

المؤلف

النّقد البنّاء والنَقد الهدّام

النّقد نقدان: بنّاء وهدّام، ومن تقاليد النّقد أن تتوفر شروط في الناقد البنّاء، وهي الموضوعية وعدم الالتزام برأي مسبق أو نزعة معيّنة أو مصلحة ذاتية، وأن يكون مقدّرًا للرأي الآخر والتفسير المعاكس. أما إذا لم تتوفر هذه الشروط فالناقد يكون ناقدًا هدّامًا.

ولعل الأهم من هذا وذاك موقف الباحث من النقد.. فهل سيفرح بالنقد الإيجابي ويتملكه الشعور بالغرور.. أم هل سيجعله النقد السلبي محبطًا فاقدًا للثقة بقابليته بحيث يترك البحث والتأليف وينزوي في عزلته.

إن سير الكتّاب والمؤلفين حافلة بأمثال هذه النماذج، ونشير هنا إلى ما صرّح به علي أمين ومصطفى أمين: "بالحجارة (ويعنيان بها الانتقادات التي وجهت إليهما) استطعنا بناء صرح مؤسسة أخبار اليوم". ولم يتميز الشاعر الكبير أحمد شوقي إلا من خلال صموده بوجه النّقد الهدّام اللاذع الذي وُجّه إليه.

المحتويات

المقال الثاني: دور المؤرخ في المجتمع العربي.
المقال الثالث: الوسطية في الإسلام.
المقال الرابع: معالم أدب "الاختلاف" عند المسلمين.
المقال الخامس: أخلاقيات السلم والحرب في الإسلام.
المقال السادس: حول مصطلح "أهل البيت".
المقال السابع: مغزى الانتقال من الأمويين إلى العباسيين... نظرة شمولية.
المقال الثامن: نقابة الإشراف في العصر العباسي.
المقال التاسع: الخلفاء والفقهاء.
المقال العاشر: تأملات في بدايات "الفقه السياسي" الإسلامي.. نظرة تاريخية.
المقال الحادي عشر: "الغلو" في القرون الإسلامية الأولى وموقف المجتمع والدولة منه.
المقال الثاني عشر: بعض المستشرقين آساؤوا فهم تاريخ العرب.
المقال الثالث عشر: تأملات في بعض التخريجات التاريخية.
المقال الرابع عشر: القيم الإدارية في الإسلام.
المقال الخامس عشر: القدس في "العلاقات الدولية" بين الشرق والغرب في العصر الوسيط.
المقال السادس عشر: عبدالله بن المقفع وتخليط المؤرخين حول زندقته!!
المقال السابع عشر: بشار بن برد... زنديق أم ماجن؟
المقال الثامن عشر: صالح بن عبد القدوس.. هل يكون الحكيم زنديقاً؟
المقال التاسع عشر: مؤامرات الحشيشية (الباطنية) لاغتيال صلاح الدين الأيوبي.
المقال العشرون: ظهور الإسلام وقدرته على الانتشار السريع: نظرة تاريخية شمولية.

القسم الثالث

بحوث تاريخية (باللغة الإنكليزية)

- ابن النّطاح، المؤرخ العباسي.
- إبراهيم الإمام: زعيم الدعوة العباسية ذو النزعة الواقعية.
- هارون الرشيد: الخليفة المتألق من العصر الذهبي..؟؟
- البرامكة: وزراء أم ملوك ...؟
- القوى المؤيدة للعباسيين في العصر العباسي الأول 132هـ-247هـ/750-861م.
- اللعبة السياسية ومسألة ولاية العهد في أوائل العصر العباسي.
- الحركات الفارسية في العصر العباسي الأول: وجهة نظر.

- بعض المشاكل التي واجهت الخليفة العباسي الثالث المهدي 158-169هـ/775-785م.
- عاصمة جديدة لعهد جديد: بناء بغداد وسكانها الأوائل.
- بعض مظاهر العلاقة بين الخلفاء العباسيين والفرع الحسيني من العلويين 132هـ/750م - 193هـ/809م.
- تقييم العلاقة بين المعتزلة والخلفاء العباسيين قبل المأمون.
- الوصية السياسية للخليفة العباسي المنصور.
- ملاحظات حول ألقاب الخلفاء العباسيين الأوائل ودلالاتها الدينية - السياسية.
- أهمية ألوان الأعلام والرايات في العصر العباسي الأول ودلالاتها.

(11)

كتاب (المدخل إلى تاريخ آل البيت) (18)

مقدمة

يشكل تاريخ "آل البيت" نقطة مركزية في التاريخ الإسلامي العام، فقد شكلت مظاهره مادة متجددة لمعرفة مكتوبة ازدحمت المكتبة العربية بعناوينها المتنوعة.

وقد حظي التاريخ الحديث للهاشميين من آل البيت بعناية الباحثين الأكاديميين وغير الأكاديميين، وتناولت الدراسات جهود الهاشميين في العمل من أجل الأمة داخل الوطن الكبير أو خارجه في المحافل الدولية. أما تاريخ آل البيت في القرون الإسلامية الأولى فلم ينل - باستثناء سيرة الرسول محمد (ﷺ) - القدر نفسه من العناية والاهتمام من الباحثين المحدثين.

ومن هذا المنطلق جاء التركيز على تاريخ آل البيت في مطالع الحقبة الإسلامية ضمن برنامج تشجيع الدراسات الأكاديمية ذات العلاقة بمواد متطلبات الجامعة، وهو توجه عام تبنته الجامعة وأنجزت من خلاله إصدار عدد من الدراسات في حقول متنوعة من المعرفة من أجل تمكين الطلبة من الاستفادة منها.

وقد احتوت فصول هذا الكتاب على مظاهر بارزة في مسيرة آل البيت تتعلق بنشاطهم السياسي والاجتماعي والفكري خلال حقبة مهمة من التاريخ الإسلامي، فبعد أن يوضح الباحث الجذور التاريخية لتطور مصطلح آل البيت، يستعرض دور آل البيت في حياة الرسول (ﷺ) وفترة صدر الإسلام، مركزاً على السابقين الأولين منهم. ثم يعالج موقف آل البيت السياسي ونشاطهم الفكري خلال العصرين الأموي والعباسي، مبرزاً الكيانات السياسية التي قامت باسم آل البيت في مشرق العالم الإسلامي وفي مغربه.

ويناقش الكتاب كذلك دور آل البيت في الحياة العامة للمجتمع في تنظيمات الأصناف والنقابات والطرق الصوفية، ونشاطهم في مجال القضاء وإمارة الحج والحسبة وما إلى ذلك، وكذلك نشاطهم في الحياة الفكرية من علماء ومحدثين

وفقهاء ومفسرين ومؤرخين وأدباء وشعراء حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.

وقد جاءت هذه الدراسة عن آل البيت دراسة جادة، رجع فيها الباحث إلى المظان الأولى من مصادر التاريخ الإسلامي، إلى جانب إطلاعه على أهم المراجع والبحوث الحديثة باللغة العربية واللغات الأجنبية لمختلف نشاطات آل البيت، وربط المظاهر والأحداث بجذورها التاريخية، وعبر عنها بلغة واضحة، ورؤية شمولية تصلح لأن تكون قاعدة بناء منهجي لباحثين آخرين.

وبعد، فإنه يسعدني أن أقدم هذه الدراسة لتكون طليعة لدراسات أخرى تحذو حذوها، معربًا عن صادق شكري وعميق تقديري لمعد هذه الدراسة الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، ولكل من ساهم في إخراجها إلى حيّز الوجود، طباعة ومتابعة وإخراجًا، والله دومًا من وراء القصد.

عمان في: 19 صفر 1419هـ	رئيس الجامعة
13 حزيران 1998م	(أ.د. محمد عدنان البخيت)

تمهيد

مما يسترعي الانتباه ويثير الاهتمام عدم وجود كتاب جامع شامل لتاريخ آل البيت منذ بدايات الإسلام وحتى بدايات العصر الحديث، رغم أهمية الدور السياسي/ الاجتماعي/ الفكري الذي قاموا به خلال تلك الحقبة التاريخية وكذلك بعدها.

وقد تنبّه القائمون على وضع الخطط الدراسية في جامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية إلى هذا الوضع فأقرّوا مادة دراسية بعنوان "تاريخ آل البيت وفقههم" كمتطلب جامعة يدرسها جميع الطلبة ومن مختلف الاختصاصات، وهم بذلك فتحوا الطريق مشكورين لدراسات علمية معمقة حول الموضوع نفسه. وقد حاولت من جانبي ومن خلال هذا الكتاب الموسوم "المدخل إلى تاريخ آهل البيت" أن ألقي الضوء على بعض المحاور من تاريخ آل البيت خلال الفترة المشار إليها، متتبعًا كل فرع من فروع آل البيت وتاريخه في الإقليم الذي نشط فيه معنيًا بشكل خاص بالجانب الاجتماعي- الفكري غير مهمل الجانب السياسي.

إن قلة الدراسات التاريخية الشمولية عن آل البيت لا يعني عدم وجود عدد من الدراسات المهمة التي تناولت شخصية من شخصيات آل البيت أو أسرة من أسرهم الحاكمة في فترة تاريخية معينة أو في إقليم أو منطقة محددة، أو تتبعت حركة سياسية أو دعوة دينية أو تنظيم اجتماعي أو فكري من التنظيمات التي ارتبطت باسم آل البيت حقيقة أم رمزًا.

ولابد أن أذكر بعد ذلك بأنني اعتنيت باختيار النص وتفسيره من خلال منهج يلتمس أسباب الظاهرة في المعطيات التاريخية وحدها، وهذا ما جعل من الكتاب مادة مختارة موجهة وهي حصيلة تفاعل مع المصادر والموارد لحقبة ليست قصيرة.

وأملي أن تكون هذه الدراسة حافزًا للباحثين لدراسات أخرى في الحقل نفسه. ولعل نتائج البحث ستجعلنا ندرك أن الموضوع يشكل جزءًا حيويًا من تاريخنا السياسي/ الفكري خاصة إذا قرأناه من خلال نظرة تاريخية شمولية.

أنتهز هذه المناسبة لأعبر عن الشكر إلى رئيس جامعة آل البيت الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت لريادته في تشجيع الدراسات العلمية ذات العلاقة بالمواد التي يدرسها طلبة الجامعة وتشجيعه الباحثين على العمل في هذا المجال وتعهده برعايتها ومتابعة نشرها.

كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذ كمال فريج لما أبداه من حرص واهتمام في المتابعة والشكر موصول إلى السيدة إيمان الراعي لطباعتها المتقنة والسيد عبد الكريم ثابت لتصميمه المتميز للغلاف والسيد خالد الخالدي لجهده في إخراج الكتاب.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير ،،،

المؤلف

مقدمة

مصطلح "أهل البيت"

﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ القرآن الكريم (سورة الأحزاب: الآية 33)

عن سلمة لما نزل قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا) أدار النبي (ﷺ) كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.
رواه أحمد بن حنبل في مسنده 231/1 و259/3

عن زيد بن أرقم أنه قال: "خطبنا رسول الله (ﷺ) بماء يدعى خما (غدير خم) بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنّما بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... ثم قال وأهل بيتي أذكرهم الله في أهل بيتي (ثلاثًا). فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته، قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم؟ قال هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل العباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم". رواه مسلم في صحيحه 4/1872 - حديث رقم 2408

اصطلاح أهل البيت قبل الإسلام:

تعود الجذور التاريخية لاصطلاح "أهل البيت" إلى حقبة ما قبل الإسلام، فقد كانت هناك أفخاذ من قبائل معينة تتمتع بصفة دينية مقدسة لأنها مسؤولة عن بيت الآلهة (معابد الأصنام أو الأوثان) وتنتقل هذه المسؤولية المقدسة بصورة وراثية في ذلك الفخذ من جيل إلى جيل Sanctity Hereditary of the priestly clan... وتظل هذه الأفخاذ تتمتع بمنزلة دينية رفيعة بين القبائل باعتبارها سدنة (البيت).

وبمرور الزمن ارتبطت مسؤولية المعبد الديني (البيت) بمفهوم آخر رفيع عند العرب ألا وهو (الشرف) بمعنى نبل المحتد والنسب وغالبًا ما يطلق على من كانت له الزعامة السياسية والعسكرية في القبيلة The Leading clan .

وبالإضافة إلى الروايات التاريخية التي تظهر ارتباط هذين المفهومين (البيت) و(الشرف) وتماسكهما في حقبة ما قبل الإسلام بحيث أن سدنة (البيت) كثيرًا ما أصبحوا شيوخ القبائل وقادتها السياسيين والعسكريين، وبمعنى أهل (الشرف) والعكس صحيحًا أحيانًا، فإن كتب النسب والأدب والمعاجم بصفة خاصة تشير إلى جملة من العبارات الدالة على ذلك مثل: "فيهم البيت والشرف"، "أهل الحرمة وولاة البيت".

"المسامعة بيت ربيعة في البصرة"، "مخنف بن سليم بيت الأزد بالكوفة"... وفي رواية تاريخية: أن المختار بن عبيد الثقفي في الكوفة حين تردد عن بيعة عبد الله بن الزبير بالحجاز قال له أحدهم: "مثلك يغيب عن مثل ما قد اجتمع عليه أهل الشرف وبيوتات العرب من قريش والأنصار لم يبق أهل بيت إلا وقد جاء زعيمهم فبايع هذا الرجل".

منذ منتصف القرن الخامس الميلادي (حوالي 440م) استطاع قصي الجد الأعلى للرسول (ﷺ) أن يؤسس لسلطة قريش السياسية في مكة بعد أن انتزعها من خزاعة، ونجح في جمع شمل القبائل تحت زعامته، فكان لكل قبيلة منازلها حول الكعبة، واشتهر في عهده اسم قريش بين القبائل. ويعزى إليه كذلك إعادة تنظيم الأمور الدينية فقد سن عادة تقديم الشعائر والقرابين لآلهة القبائل في الكعبة سنويًا فأصبح الحرم المكي ذا شهرة دينية بين القبائل، واتبع ذلك تنظيم عدد من الواجبات، فصار لقبه "المجمّع" لأنه جمع في يديه وظائف السقاية والرفادة والسدانة واللواء والندوة، أما أولى هذه الوظائف فتتعلق بتزويد الحجيج بالماء، والثانية تجهيز الطعام، والثالثة حراسة الكعبة/ والرابعة القيادة العسكرية، والأخيرة الزعامة السياسية، وهي في مجملها واجبات دينية - سياسية، ولذلك تقول الرواية التاريخية عن قصي: "وكان فيه البيت والشرف".

لقد بقيت وظائف السيادة هذه في مكة في أولاد قصي من بعده، ورغم حدوث خلاف بين بني عبد الدار وبني عبد مناف حول هذه الوظائف، حتى كادت الحرب أن تقع بينهم، إلا أنهم تداعوا إلى الوفاق والصلح واقتسموا الوظائف فأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة وآخذ بنو عبد الدار الحجابة واللواء والندوة، وتقول الرواية التاريخية عن عبد مناف "وفيه البيت والشرف".

لقد كان بين هاشم وعبد شمس أولاد عبد مناف منافسة، تطورت إلى نزاع بين هاشم وابن أخيه أمية بن عبد شمس، إلا أن "البيت" كان في هاشم حيث انتقلت إليه (الرفادة والسقاية) من أبيه عبد مناف، وتشير رواية تاريخية عن هاشم وفيه "العدد والشرف" فكان هذا الفخذ (هاشم) من عبد مناف يتحمل مسؤولية خدمة الحجيج ويعرف بالسخاء والكرم ويحتفظ بمكانة متميزة مؤسسيًا. رغم أن ازدهار التجارة في تلك الفترة وتوسعها رفع من شأن الفخذ الآخر (عبد شمس) ومن بعده ابنه أمية الذي كان كثير المال والأولاد وبالتالي النفوذ "فكانت هذه أول عداوة بين أمية وبني هاشم". ويبدو كذلك أن حرب بن أمية كان معترفًا به كزعيم لقريش في حروبها (الرئاسة والشرف) مع أنه لم يكن الزعيم الأوحد.

تولى وظائف السقاية والرفادة بعد هاشم أخوه المطلب، ثم تحولت بعده إلى ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم الذي تحمل المسؤولية الدينية والسياسية معًا واعترفت له مكة بالرئاسة ولعل فشل عملية الغزو الحبشي زادت من شأن قريش وبني عبد المطلب فقد قالت عنهم العرب: "أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم فازدادوا في تعظيم الحرم والمشعر الحرام والأشهر الحرم ووقروها".

وكانت قريش نفسها أهل الحرم و"أهل الله" وكان الطابع القدسي للحرم والمكانة الخاصة لقريش في مكة جعلها محاطة بمجموعة من المحارم الدينية، ولذلك فكان لقريش اسم آخر هو "أهل الحمس" بمعنى التشدد في الدين.

بعد وفاة عبد المطلب بن هاشم خلفه ابنه أبو طالب (عبد مناف) على الوظائف الدينية للحرم ولكنه لم يقدر عليها فتنازل عن السقاية لأخيه العباس في الوقت الذي كان نفوذ بني أمية وعلى رأسهم أبي سفيان (صخر) بن حرب بن أمية يزداد سياسيًا واقتصاديًا، وكان بين بني أمية بن عبد شمس وبني مخزوم مصالح تجارية مما جعلهم يتعاونون ضد بني هاشم وبالتالي، فيما بعد، ضد النبي الهاشمي محمد (ﷺ).

مع أن بني هاشم في هذه الفترة السابقة للإسلام والقريبة منه يمكن أن يعتبروا الممثلين الحقيقيين لقريش لأنهم ينحدرون من (عبد مناف/ قصي) بيوتات قريش الدينية والسياسية، بمعنى أن مكانتهم تستمد وجودها من الحرم المكي (البيت) والقيادة السياسية (الشرف)، فقد ظهر لهم منافس قوي وهم بنو أمية الذين

ينحدرون كذلك من عبد مناف/ قصي ويتمتعون بنفوذ سياسي وعسكري (اللواء). وفي نظر بني أمية فقد كانت مسألة وقت ليس إلا حتى يأتي اليوم الذي يتسلّم بنو أمية الزعامة الدينية (السقاية والرفادة في البيت) أيضًا. فيجتمع فيهم البيت والشرف.

لقد كانت المفاجئة لبني أمية، كما كانت لغيرهم مثل بني مخزوم، وكلاهما من أهل الثراء والعدد والرئاسة هو ظهور رسول الله محمد (ﷺ) وتبشيره بالوحي الإلهي والرسالة الإسلامية الجديدة، الذي كان بالنسبة لبني أمية وغيرهم تهديدًا مباشرًا لزعامتهم وسلطتهم السياسية ونفوذهم الاقتصادي- الاجتماعي وهذا ما عبر عنه الوليد بن المغيرة المخزومي (ابن أخي أبو جهل) بقوله: "أينزل هذا القرآن على محمد وأترك أنا عظيم مكة وعروة بن مسعود عظيم الطائف".

وما عبر عنه أبو جهل المخزومي نفسه حين أشار: "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك مثل هذه. والله لا نؤمن به ولا نصدقه".

وهكذا فإن معارضة أبي سفيان صخر بن حرب زعيم بني أمية تعود، إضافة للأسباب الأخرى، لأسباب سياسية واضحة ذلك لأن بني عبد المطلب بن هاشم سيستعيدون الزعامة السياسية من بني أمية بن عبد شمس ويكون لهم مرة أخرى البيت والشرف معًا.

إن هذا ما حدث فعلاً مع ظهور الدعوة الإسلامية فقد أصبح لبني هاشم الرئاسة الدينية/ السياسية في شخص الرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم وغدا (البيت) و(الشرف) في حوزتهم واعترف الناس بمكانتهم الرفيعة.

اصطلاح أهل البيت في الإسلام:

وفي الإسلام أطلق اصطلاح (البيت) على البيت الحرام أو البيت العتيق أو الكعبة المشرفة فقد ورد في القرآن: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم﴾.

فكان البيت الحرام بمكة أول مسجد أقيم لعبادته سبحانه وتعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين﴾.

وكان آل إبراهيم عليه السلام (أهل البيت) حسبما ورد في الآية القرآنية التي خاطبت امرأة إبراهيم: ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾.

أما بالنسبة للرسول محمد (ﷺ) فإن الآية القرآنية التي تشير إلى آل بيته ترد في سورة الأحزاب: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفًا وقرنّ في بيوتكنّ ولا تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى وأقمنّ الصلاة وآتينّ الزكاة وأطعنّ الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفًا خبيرًا﴾.

وقد فسرت هذه الآية عند البعض أنها تعني أزواج النبي (ﷺ) حصرًا، ولكن مفسرين آخرين قالوا إن المقصود بها أزواجه وذريته (ﷺ).

ولكن بعد وفاة الرسول (ﷺ) ظهر لآل البيت أنصار يعتقدون بأحقيتهم في خلافة الرسول (ﷺ) في حكم الأمة الإسلامية، وهنا بدأ خلاف واسع ينمو ويتسع حول مفهوم "أهل البيت" وحول أي فرع من فروع بني هاشم يُعدُّ الممثل الحقيقي لأهل البيت؟

وكان طبيعيًا أن ينعكس هذا الخلاف في الرأي و التفسير والتأويل على الرواة والمؤرخين واللغويين وأهل الحديث والفقه وغيرهم لأسباب عديدة منها سياسية أو دينية أو مذهبية أو مصلحية. ولسنا هنا بصدد الإشارة إلى مجموع هذه الآراء فمنها معقول ومقبول ومنها قريب إلى الصحة ومنها مبالغ فيه متأثر بالانقسامات التي تعرضت لها الأمة الإسلامية، حيث أرادت كل جماعة أو فرقة من خلال تفسيرها لاصطلاح آل البيت أن تجمع الأنصار والمؤيدين إلى فرعها من بني هاشم، وقد وصلت بعض هذه الأخبار والأحاديث وتفسيراتها حدًا مرفوضًا لوضوح أثر المبالغة أو المغالاة فيه خاصة فيما يتعلق ببعض الروايات حول الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) والروايات المقابلة والتي عدّت ردود فعل لها.

لقد حصر بعض المفسرين آل البيت في أزواج النبي (ﷺ) بنص الآية القرآنية آنفة الذكر ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ لأنهن في منزله الذي يسكن فيه.

ولكن مفسرين آخرين رأوا أن أهل بيت النبي (ﷺ) هم الذين حُرّمت عليهم الصدقة، وهنا اختلفوا أيضًا فيمن حرمت عليه الصدقة. هل هم بنو هاشم تحديدًا أم أكثر منهم ومن فوقهم وخاصة بني المطلب بن عبد مناف. ولعل إضافة بني المطلب تأتي لأسباب تاريخية عديدة منها: علاقة هاشم الطيّبة مع أخيه الأصغر المطلب... على عكس علاقته بأخيه عبد شمس. وقد أوصى هاشم قبيل وفاته بغزة إلى أخيه المطلب ولذلك تعهد المطلب ابن أخيه (شيبة بن هاشم) الذي سمي (عبد المطلب) نسبة إليه فبنو هاشم والمطلب يد واحدة وبنو عبد شمس وبنو نوفل يد. وفي رواية تاريخية أن النبي (ﷺ) عندما جاءه الوحي من الله تعالى أن "أصدع بما تؤمر وأنذر عشيرتك الأقربين" دعى رجال من عشيرته بني هاشم ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً وخطب فيهم خطبته المشهورة التي ابتدأها: "إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة". ويظهر دور بني المطلب في الوقوف مع بني هاشم لحماية الرسول (ﷺ)، وكذلك تعرّضهم للمقاطعة التي فرضتها بقية قريش على النبي وعشيرته. وما جاء في الحديث (صحيح البخاري 484/6) في رواية عن سعيد بن المسيّب عن جبير بن عدي قال: لما قسم رسول الله (ﷺ) سهم ذوي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان وهو من عبد شمس فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم، أرأيت بني المطلب، أعطيتهم ومنعتنا؟ فإنما نحن وهم منك بمنزلة. فقال الرسول (ﷺ): "أنهم لا يفارقونني في جاهلية ولا إسلام إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد" وشبك بين أصابعه. وبذلك خص الرسول (ﷺ) بني هاشم وبني المطلب ولم يدخل معهم بني نوفل وبني عبد شمس. لذلك أيضًا منع الرسول (ﷺ) بني المطلب أسوة بني هاشم عن أخذ الزكاة والصدقة لأنها تنبئ عن ذل الأخذ مما يمتنع إعطاؤه لآل البيت، فهم الفضل والشرف، بينما يشارك بنو هاشم وبنو المطلب الرسول (ﷺ) في الأخذ بنصيبهم من الغنائم لأنها تنبئ عن عز الأخذ فهو الأعلى والمنتصر. ﴿واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين

وابن السبيل﴾ (سورة الأنفال: آية 41 - سورة الحشر: آية 7)، وفي رواية عن أبي هريرة أن الحسن بن علي كان صغيرًا أخذ تمرة من مال الصدقة فجعلها في فمه فنهاه الرسول (ﷺ) قائلاً: أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة؟ (صحيح مسلم- كتاب الزكاة).

لقد أثار توزيع الطعم من غنائم خيبر تساؤلات حول حصر التوزيع بالبيتين آنفي الذكر وهما بني المطلب بن عبد مناف وبني عبد المطلب بن هاشم، إلا أن ابن هشام يشير في سيرته (406/3) أن الحاجة كانت واضحة فيهم ولذلك أعطاهم الرسول أكثر. كما وأن الرسول (ﷺ) أعطى بني عبد المطلب ونساء بني المطلب من الطعم نفسه كما أشار إلى ذلك ابن سعد في الجزء الثامن طبقاته. وكان أبو طالب في ذلك الوقت زعيم بني عبد المطلب فوقف مدافعًا عن الرسول (ﷺ) وحاميًا له، وفي رواية ذكرها ابن سعد تدل على مدى مساهمة بني المطلب مع بني هاشم واستعدادهم في الدفاع عن الرسول محمد (ﷺ)، وملخص الرواية أن أبا طالب لما سمع بعزم بعض زعماء قريش اغتيال الرسول (ﷺ) جمع فتيانًا من بني هاشم وبني المطلب وجعل في يد كل منهم حديدة صارمة وأمرهم بقتل زعماء قريش إن هم قتلوا محمدًا، ولم يكتف بذلك بل أوصل هذا الخبر إليهم في ناديهم ومعه الفتيان الهاشميون والمطلبيون. والمعروف تاريخيًا أن الأشخاص الذين دخلوا الإسلام في المرحلة المكية من بني المطلب هم: أبو عبيدة بن الحارث والطفيل بن الحارث والحصين بن الحارث ومسطح بن أثاثة. ولا شك فإن المتمعن في موقف بني هاشم وبني المطلب المتعاطف مع الرسول (ﷺ) وحمايتهم له رغم عدم إسلام غالبتيهم في تلك المرحلة المبكرة قد يرجعها إلى صلة الرحم والقربى وكذلك العصبية القبلية، بل إن تأخر أكثرية بني هاشم وبني المطلب عن الإسلام ربما كان عاملاً مساعدًا على انتشار الإسلام تحت حمايتهم ذلك لأن بقاءهم على ديانة آبائهم أدى إلى استمرار علاقتهم الطيّبة مع قريش وغيرهم من القبائل حيث لم تنقطع الصلة بينهم، وفي ظل هذه الموازنة تهيأت الظروف لاستمرار الدعوة الإسلامية. ويعبر ابن كثير في السيرة عن هذه الحالة فيقول: "(إن بقاء أبي طالب) على دين قومه من حكمة الله تعالى، ومما صنعه لرسوله من الحماية إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولا جترأوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه وربك يخلق ما يشاء ويختار".

أما مقاطعة قريش لنبي هاشم ما عدا أبا لهب فقد شملت كذلك بني المطلب حيث أجمع على حماية الرسول (ﷺ) وسلم كافرهم ومسلمهم، منهم من فعله حمية

ومنهم من فعله إيمانًا، وحينما دخل الرسول (ﷺ) وبني هاشم وبني المطلب في شعبهم أصبحوا في مأمن. وكان رد فعل قريش أن قاطعتهم فلا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم، فكانت المقاطعة لبني هاشم وبني المطلب اجتماعية-اقتصادية، وعلقت الصحيفة بالكعبة واستمرت ثلاث سنين وكان العباس بن عبد المطلب معهم رغم أنه كان على دين قومه، ودخل معهم عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وغيره من آل الحارث. وكان سيد المقاطعين أبو طالب بن عبد المطلب، وكانت المقاطعة شديدة اشتد فيها البلاء والجهد.

ومن المفسرين من يستند على "حديث الكساء" ليؤكد بأن أهل البيت هم الرسول (ﷺ) وعلي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم جميعًا. والحديث له روايات عديدة: عن أم سلمة زوجة الرسول (ﷺ) وملخصه أنه حين نزلت الآية ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ أخذ النبي (ﷺ) كساءً فغطى به عليًا وفاطمة والحسن والحسين ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا.

وهناك أحاديث أخرى بأسانيد مختلفة تؤكد المعنى نفسه منها: "حديث المباهلة" بعد نزول الآية ﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾، دعا الرسول (ﷺ) عليًا وفاطمة وحسنًا وحسينًا فقال: اللهم هؤلاء أهلي.

ولكن مفسرين آخرين استندوا في تعريفهم بآل البيت على رواية زيد بن الأرقم، وهي تعكس عندهم أقدم تفسير لمصطلح "أهل البيت": قال: "خطبنا رسول الله (ﷺ) بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به... ثم قال وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي (ثلاث مرات).

فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال ومن هم قال هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس...".

نلاحظ من هذا الحديث أن دائرة أهل البيت شملت آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس أي انحصرت في فرعي بني هاشم آل أبي طالب وآل العباس أولاد عبد المطلب الذي جمع - كما أشرنا آنفًا - البيت (المسؤولية الدينية) والشرف (المسؤولية السياسية) في زمانه. ومعلوم دور أبي طالب والعباس في تاريخ الدعوة الإسلامية في السنوات الأولى، فالأول حمى النبي (ﷺ) ودافع عنه من أذى قريش، والثاني كان عينًا له على قريش في مكة، كما وأن هذه البيوتات تشكل إشراف قريش وسدنة البيت الحرام في حقبة قبيل الإسلام. ومما يدعم الحديث رواية عن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: "إن النبي (ﷺ)، بايع الحسن والحسين وعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر ولم يبقلوا (ولم يبلغوا) ولم يبايع صغيرًا إلا منّا". وقد أضيف إلى بني هاشم آنفي الذكر آل الحارث بن عبد المطلب ولعل السبب في إضافتهم يعود كذلك إلى وقوفهم إلى جانب الرسول (ﷺ) وحمايتهم له ودخولهم الشعب مع بقية بني هاشم وبني المطلب، وكان ممن دخل من آل الحارث بن عبد المطلب: نوفل بن الحارث وأبو سفيان بن الحارث وابنه الحارث.

وقبل أن نختم كلامنا حول مصطلح آل البيت واختلاف المفسرين حول الأشخاص أو الفئات الذين يشملهم، نلاحظ أن الرسول (ﷺ) قد أدخل مجازًا سلمان الفارسي وهو من صحابته المقربين ضمن دائرة آل البيت قائلاً له: "يا سلمان أنت منا آل البيت" ويبدو أن هذا التقليد كان ساريًا بين بيوتات العرب قبل الإسلام وبعده حين يرغب زعيم بيت من قبيلة ما أن يقرّب أحد الأشخاص المخلصين له أو يرفع من مرتبته بين الناس، وهذا ما فعله أيضًا الإمام إبراهيم بن محمد العباسي مع أبي مسلم الخراساني حين أرسله إلى خراسان وأوصاه بوصية ابتدأها بالقول: "يا عبد الرحمن أنت منا أهل البيت، أحفظ وصيتي.."، وهو بهذا رفع منزلة أبي مسلم وجعله من أهل البيت العباسي بسبب ارتباطه بالدعوة العباسية وأملاً في إنجاح مهمته في خراسان.

ولعل الذي يتوضح لنا تاريخيًا أن الذين تشملهم دائرة أهل بيت الرسول (ﷺ) هم زوجاته (ﷺ) بمقتضى الآية القرآنية من سورة الأحزاب ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾، وكذلك علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وفاطمة الزهراء والحسن والحسين استنادًا إلى حديث الكساء، والأحاديث المتفقة معه في المعنى مثل حديث المباهلة وغيره. وأخيرًا وليس آخرًا فإن مصطلح أهل

البيت يضم آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس بمقتضى حديث زيد بن الأرقم آنف الذكر. وقد انعكس هذا المفهوم عمومًا من الناحية الواقعية على سياسة الدولة الإسلامية في العطاء، فقد رتب الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الناس على منازلهم ولم يساويهم في العطاء وبدأ بآل البيت الأقرب فالأقرب. وتتباين الروايات في المقدار الذي فرضه لآل البيت وتشير بعضها أنه فرض لعائشة 12 ألف درهم وأتبعها ببقية زوجات الرسول (ﷺ) حيث فرض لهم 10 آلاف درهم كما فرض لكل من علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب ولكل من شهد بدرًا من بني هاشم 5 آلاف درهم ثم أتبعهم ببقية المسلمين مرتبًا إياهم على منازلهم.

التطور التاريخي لاصطلاح "أهل البيت":

أشرنا سابقًا أنه بعد وفاة الرسول (ﷺ) حدث الصراع حول الخلافة بين بيوتات العرب وقد انعكس ذلك على اصطلاح أهل البيت، حيث فسّر تفسيرات متعددة وصل بعضها عند بعض المفسرين الحد الذي كانوا يرون أن هذا الاصطلاح يشمل أمة الرسول (ﷺ) وأتباعه أو الأتقياء من أمته. وهذه مبالغات أو تخريجات ليس لها أساس تاريخي ولعلها تدخل ضمن التفاسير المجازية أو الاجتهادية. ولكن الأهم من ذلك هو اختلاف بني هاشم أنفسهم في تفسير اصطلاح "أهل البيت" فالعلويون من أبناء فاطمة رضي الله عنها عدّوًا أنفسهم وحدهم أهل البيت وبذلك حرموا كل من العلويين غير الفاطميين والطالبيين والعباسيين من دائرة أهل البيت، وأكثر من ذلك فإن آل الحسين بن علي (رضي الله عنهم) أكدوا أنهم المقصودين بآل البيت دون آل الحسن (رضي الله عنهم) ولكن هذا التفسير الأخير لم يقبله زيد بن علي زين العابدين وأقر حق بني عمه من آل الحسن في أن يكونوا من آل البيت.

ومن جهتهم أكد العباسيون أنهم "أهل البيت" مستندين على مسؤوليتهم الدينية في الكعبة (سقاية الحجيج) قبل الإسلام وبعده وهو ما يسمى (حق الحرمة) أو (البيت). بالإضافة إلى أن العباس عم رسول الله (ﷺ) ووالده بعد أبيه وكان حيًا عند وفاة الرسول (ﷺ) وهذا ما سمي (حق القرابة). ومن هنا جاءت تسميتهم للعلويين (بالطالبيين)، وليس الهاشميين لإبعادهم عن دائرة أهل البيت، فرد العلويون مؤكدين منزلتهم الدينية وقرابتهم من الرسول (ﷺ) ليس عن طريق ابن عم الرسول (ﷺ) الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) فحسب بل عن طريق فاطمة

الزهراء بنت الرسول (ﷺ) ونلحظ آثار ذلك في كتب التاريخ والأدب والشعر والفقه والحديث.

وهكذا فإن كل فرع من فروع بني هاشم رأى أنه هو الممثل الحقيقي لأهل البيت، وأن الخلافة بالتالي هي من حقه وحده، وكان ادعاء أي فرع هاشمي غير شرعي وليس له ما يبرره في نظر الفروع الأخرى، وقد أظهر عدد من الهاشميين طموحًا سياسيًا وبدأ كل منهم وبصورة مستقلة عن الآخرين يدعو له ولفرعه من بني هاشم وهكذا فإن الطموح السياسي الهاشمي في الفترة الإسلامية أدى إلى غموض أو تحريف مفهوم "أهل البيت" في الإسلام كما رسمتها الروايات الحقيقية عن الرسول (ﷺ).

إن وجهة نظر العلويين من نسل فاطمة الزهراء رضي الله عنها يرويها الإمام أحمد والترمذي والطبراني عن أم سلمة وهي حديث أهل الكساء: "أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ أدار النبي (ﷺ) كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم فقال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا. وينسب الحديث أحيانًا إلى عبد الله بن العباس وأحيانًا أخرى إلى عائشة أم المؤمنين وذلك للتأكيد أن هؤلاء العباسيين وعائشة ليسوا من أهل البيت باعترافهم على أنفسهم، كما وأن الحديث السابق نفسه عن أم سلمة يستثني أم سلمة من أهل البيت وبمعنى آخر يستثني زوجات الرسول (ﷺ) من أهل البيت.

وقد لاحظنا اختلاف المفسرين واللغويين في تفسير اصطلاح أهل البيت، ونعود فنؤكد أن بعض المفسرين يقصرونه على زوجات النبي (ﷺ) ويوسعه اللغويون ليشمل أولاد النبي (ﷺ) ونساؤه والرجال من أقربائه المقربين. وفي تفسير آخر أولاده ونسائه وأزواج بناته وأحفاده وأقربائه. وفي تفسير آخر البيوتات الأربعة آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، بل وإن روايات أخرى تضم موالي النبي (ﷺ) وآخرين شملهم النبي بهذه التسمية مثل "سلمان منّا أهل البيت" بالإشارة إلى الصحابي سلمان الفارسي. بينما يعود (حديث الثقلين) عن الرسول (ﷺ) ليؤكد البيوتات الأربعة التي أشرنا إليها سابقًا، وذلك أن عترة الرجل هم أقرباؤه من ولده وولد ولده وبني عمه. ومثلما اختلف المفسرون واللغويون والمحدثون في تفسير مصطلح "أهل البيت" كذلك تباينت آراء الفقهاء، فمالك وأبي حنيفة وسعوا

الاصطلاح ليشمل كل بني هاشم وليس فقط البيوتات الأربعة آنفة الذكر. بينما أضاف الشافعي إلى بني هاشم (بني المطلب ابن عبد مناف)، حيث تشير رواية تاريخية أن النبي (ﷺ) عندما جاءه الوحي يقول له أن "اصدع بما تؤمر وانذر عشيرتك الأقربين" دعا رجال عشيرته بني هاشم "ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف".

الخاتمة:

ولعلنا نستطيع القول بأن مصطلح "أهل البيت" الذي كان في بدايته يعني سدنة بيت الأوثان والمسؤولين عن وظائف السيادة في مكة قبل الإسلام، غدا في الإسلام يرمز إلى أهل بيت رسول الله (ﷺ) وهو اصطلاح مساوٍ في معناه لاصطلاح آل محمد الذي شمل في أصح رواياته التاريخية وأقدمها آل علي وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس، كما شمل زوجات الرسول (ﷺ) وأولاده وبناته. ولم يكن آل البيت بعد وفاة الرسول (ﷺ) متفقين على زعامة واحدة وأن تشتتهم كان يعني بالتالي تشتت أنصارهم وتفرقهم في ولائهم إلى بيوتات هاشمية متعددة وهذا يفسر عدم نجاحهم في المعترك السياسي خلال القرن الأول الهجري.

لقد استفاد الفرع العباسي من أهل البيت من تجربة أبناء عمومتهم أهل البيت العلوي، وأدركوا أن "حق الحرمة" بمعنى الرئاسة الدينية "وحق القرابة" من رسول الله (ﷺ) النبي والزعيم السياسي للدولة الإسلامية الجديدة لا يجديان نفعًا ما لم يسندهما حق آخر لا مناص منه هو "حق القوة" الذي يسند الشرعية من وجهة نظرهم، وقد عمل العباسيون من أجل ذلك مدة تجاوزت الربع قرن وكان لهم في نهاية الأمر ما أرادوا. وليس غريبًا أن يرفع العباسيون شعارات مرنة غامضة مثل شعار "الرضا من آل البيت" لكسب أكبر عدد ممكن من المستضعفين ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ والمظلومين ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير﴾ ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة في القربى﴾، آخذين بنظر الاعتبار اختلاف بني هاشم أنفسهم على تفسير مفهوم "أهل البيت" وبالتالي انقسام أنصارهم في ولائهم لهذا الفرع أو ذاك من بني هاشم. وباعتلاء الفرع العباسي من آل البيت الخلافة عادت المرجعية الدينية والسياسية إلى بني هاشم من آل البيت، إلا أن هذه الحقيقة لم تنه بأي حال

من الأحوال الاختلاف في تفسير مفهوم "أهل البيت" سواء بين الهاشميين أنفسهم أو غيرهم.

الهوامش:

(1) راجع ندى نعمان السعدي، فهرس الأطاريح الجامعية، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، العراق، 1998م.

(2) الطبعة الأولى، 1970م، دار الإرشاد، بيروت، لبنان.

(3) فردميليت، أستاذ الجامعة، سلسلة ماذا يعملون؟ (3) ترجمة الدكتور جابر عبد المجيد جابر، القاهرة، 1965م، ص77-78.

(4) الجزء الأول، الطبعة الجديدة، 2003م، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية.

(5) الجزء الثالث من الطبعة القديمة، عمان، 1982م.

(6) الجزء الأول، الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2003م.

(7) الجزء الثاني، الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2003م.

(8) الطبعة الأولى، بغداد، 1970م.

(9) سيد قطب، العدالة الاجتماعية في الإسلام، القاهرة، الطبعة الخامسة، 1958م.

مونتكمري وات، محمد النبي ورجل الدولة، (بالإنكليزية)، أكسفورد، 1961م.

طه حسين، الفتنة الكبرى ... عثمان، القاهرة، 1951م.

(10) أحمد عباس صالح، الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام (مجموعة مقالات).

انظر كذلك فتحي عثمان، التاريخ الإسلامي، والمذهب المادي في التفسير، الكويت، 1969م.

(11) انظر الدكتور فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، بيروت، 1970م.

(12) M. Rostovtzeff, The social and economic history the Roman empire 1957, P.2. مترجم بالعربية

والمؤلف من فطاحل المؤرخين الروس شغل منصب أستاذ التاريخ القديم في جامعة ييل بالولايات المتحدة الأمريكية.

(13) المصدر السابق، ص5.

(14) J.U.Nef, Cultural Foundations of Industrial Civilization.

ترجمة دكتور محمود زايد، ص9-12.

(15) المرجع السابق، ص104 - 105.

(16) كتاب (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين)، ط2، مكتبة النهضة، بغداد، 1985م.

(17) منشورات مكتبة النهضة، بغداد، العراق، دار القلم، بيروت، لبنان، 1977م.

(18) الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2005م.

(19) الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2007م.

(20) منشورات جامعة آل البيت، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 1999م.

كتاب (المدخل إلى التاريخ الإسلامي - انتشار الإسلام) [1]

مقدمة

يشكل ظهور الإسلام في شبه جزيرة العرب، والحجاز بالذات، ثم امتداده إلى أقاليم الجوار، وبعد ذلك انتشاره في أصاع عديدة من العالم عبر دروب ومسالك متعددة وبزخم من دوافع مختلفة، يشكّل ذلك معلمًا بارزًا في تاريخ الإنسانية. اهتم العلماء المحققون والمفكرون البارزون برصد آثاره الحضارية في الماضي ولا زال الاهتمام متواصلاً في الحاضر، لأن الإسلام منذ ظهوره وحتى الآن ضلّ من أهم العوامل المميّزة للمجتمعات التي اعتنقته سياسيًا وفكريًا وحضاريًا.

من هنا جاء التركيز على ظاهرة (انتشار الإسلام) ودراستها دراسة علمية ضمن برنامج الدراسات الثقافية ذات العلاقة بمتطلبات الجامعة في جامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية، حيث أُقرت كمادة دراسية يدرسها جميع طلبة الجامعة من مختلف الاختصاصات الإنسانية والعلمية وتدور محاورها حول امتداد الإسلام منذ بداية الدعوة وحتى مطلع القرن العشرين. والكتاب دراسة تاريخية تحاول أن تجيب على تساؤلات عديدة، لعل من أبرزها كيف اعتنقت هذه الشعوب المختلفة والمتباعدة الإسلام، وماذا يعني الإسلام بالنسبة لها. وماذا أضاف الإسلام إلى هويتهم وطريقة حياتهم ونظم مجتمعاتهم وطموحاتهم وآمالهم، وقبل هذا وذاك ما هي الظروف التاريخية التي ساعدت على انتشار الإسلام في كل هذه الأقاليم وبين كل هذه الشعوب.

والواقع أن المكتبة العربية اليوم تفتقر إلى كتاب جامع ذي نظرة شمولية عن هذا الموضوع الحيوي الذي يحتاجه القارئ، لا في نطاق الجامعة فحسب بل وعلى مستوى الثقافة العامة أيضًا. ذلك أن ما كتب عن انتشار الإسلام وباللغة العربية قليل إذا ما قورن بالدراسات المتخصصة عن الإسلام باللغات الأجنبية. ولابد أن أستدرك وأقول أن عدم وجود كتاب شامل حول الموضوع وباللغة العربية لا يعني الافتقار إلى توفر عدد من الدراسات التي عالجت انتشار الإسلام في إقليم بعينه وخاصة في نطاق الوطن العربي وأقاليم الجوار.

يعد الكتاب الذي بين أيدينا كتابًا منهجيًا جامعيًا ومعنى ذلك أنّه يقدم أقل مادة ممكنة شرط أن تكون واضحة وشمولية، معتمدًا على مجموعة مختارة من المصادر الأساسية والمراجع الحديثة والبحوث باللغات العربية والأجنبية، ومقتبسًا نصوصًا قصيرة أو طويلة بأسلوب مؤلفيها أو متصرفًا بأسلوب جديد حيثما كان ذلك مناسبًا ومتفقًا مع المنهج والمحتوى الذي ارتآه المؤلف. وحينما يكون الكتاب المنهجي من متطلبات الجامعة فإن المؤلف لابدّ أن يراعي مستوى الطلبة وعدم اختصاص معظمهم في موضوع التاريخ فيقدم عرضًا لنصوص وروايات مختارة ويعتني بتفسيرها، كما يراعي أن يكون الأسلوب واضحًا وبسيطًا، ويضمن فهرسًا للمصادر والمراجع لمن أراد التفاصيل. إن الظاهرات التاريخية في هذا الكتاب تناولها الباحثون بالدراسة والتحليل، ولكن الطلبة والقرّاء بحاجة إلى خرائط تاريخية تعطي صورة واضحة لحالة كل إقليم ومدى انتشار الإسلام فيه. كما وأن إظهار الموقع الجغرافي يوضح المشاكل التي يواجهها كل قطر، ويساعد على إدراك نواحي القوة والضعف فيه من أجل تلك اعتنينا بتضمين الكتاب خرائط تاريخية عن الفترة موضوعة البحث.

يضم الكتاب مقدمة وثمانية فصول وخاتمة، ويبحث الفصل الأول في موطن انطلاق الإسلام من شبه الجزيرة العربية مبتدئًا بجغرافيتها التاريخية ودياناتها قبل الإسلام وعلاقتها بشعوب الجوار ثم ظهور الإسلام وردود الفعل تجاهه ثم دوره في تكوين الأمة الجديدة والدولة الجديدة.

ويتطرق الفصل الثاني إلى استعراض السبل التي أدت إلى انتشار الإسلام والعوامل التي ساعدت على تقبله في البيئات الجديدة، وينتهي هذا الفصل بالكلام عن طبيعة الإسلام كعقيدة دينية.

ويختص الفصل الثالث بانتشار الإسلام في أقاليم الجوار مركزًا على العراق وبلاد الشام ومصر، وهي بيئات عرفها وعاش فيها العرب قبل الإسلام وبعده، وكانت بطبيعة الحال أول الأقاليم التي احتك بها العرب المسلمون الأوائل.

ويناقش الفصل الرابع ظاهرة امتداد الإسلام إلى إيران وآسيا الوسطى ثم ينتقل إلى بلاد المغرب تمشيًا مع تاريخ المد الإسلامي في هذه الأقاليم (أفريقيّة، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى) وشبه جزيرة ايبريا (الأندلس)، وهي الأقاليم التي انتشرت فيها الدعوة الإسلامية بداية عبر الجهاد (الفتوح الإسلامية الأولى)، ثم من

خلال الهجرات السلمية المتتابعة والتجارة والدعوة والتعليم والطرق الصوفية. وقد تبنت هذه الأقاليم الإسلام عقيدة وثقافة وحضارة، والعربية لغة خاصة خلال القرون الإسلامية الأولى. وقد ارتؤى أن تكون الأندلس ضمن هذا المحور لأنها ضمت إلى دار الإسلام خلال هذه الفترة المبكرة وخضعت للعوامل التاريخية والظروف التي خضعت لها بلاد المغرب، ومن هنا لم تعالج الأندلس (شبه جزيرة إيبريا) ضمن إطار القارة الأوروبية.

ويتضمن الفصل الخامس وصول الإسلام إلى شبه القارة الهندية وجنوبي شرقي وشرقي آسيا بأقاليمها المتعددة بدءًا بفتوحات العرب المبكرة ومرورًا بفتوحات الغزنويين ثم سلطنة دلهي ودولة المغّل، والكيانات السياسية الأخرى وانتهاءً بجهود الدعاة والمتصوفة والعلماء والتجّار، موضحًا بعد ذلك موقف الإسلام من الديانات السابقة ونظمها وتقاليدها وتعامل السكان المحليين مع العقيدة الإسلامية الجديدة.

أما انتشار الإسلام في أفريقيا جنوبي الصحراء فيعالجه الفصل السادس حيث قسّمت إلى بحثين السودان الغربي ووسط أفريقيا، والسودان الشرقي والقرن الأفريقي. ومن الواضح أن الإسلام انتشر في الأعم الأغلب في هذه الأصقاع بالوسائل السلمية مستندًا على أساليب الدعوة والدعاة والطرق الصوفية والتجّار المسلمين. ثم يأتي بعد ذلك ودور الممالك ودويلات الطراز الإسلامي. وقد حاولت الفصول المتعلقة بأفريقيا جنوبي الصحراء الكبرى أن تغطي كلا الإقليميين غربي أفريقيا وشرقيها وأن توازن بينهما رغم أن الدراسات الحديثة عن غربي أفريقيا أكثر من شرقيها.

أما الفصل السابع فيعالج المد الإسلامي في الأناضول وسهوب روسيا وبلاد القوقاز (آسيا الصغرى) وشبه جزيرة البلقان موضحًا المحاولات العربية الإسلامية المبكرة للفتح في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، ثم المد الإسلامي على يد السلاجقة والإمارات التركية والعثمانيين، ثم ما قام به الدعاة في الربط والطرق الصوفية والتجارة.

ويختتم الفصل الثامن بالكلام عن الاتصال والتواصل بين المجتمعات الإسلامية والوسائل المتبعة في تحقيق هذا التواصل والمؤسسات المختلفة التي تعمل على تحقيقه.

أما الخاتمة فترى أن معطيات التاريخ من وقائع تضمنتها فصول هذا الكتاب تعد شواهد على أن الإسلام أينما انتشر واستقر كان دين الاعتدال والوسطية، سعى إلى التثاقف والتفاعل مع الأفكار السائدة في البيئات الجديدة ونجح في تأسيس صلات بينه وبين الحضارات الأخرى. والإسلام لا يمثل خطرًا على الغير ولا يحمل موقفًا عدائيًا للغير وقد آن الأوان على الطرف الآخر أن يبدّل نظرته المتحاملة وموقفه السلبي من الإسلام وأهله وأن يفهم الإسلام على حقيقته.

إن مسؤولية الباحثين عن هذا الكتاب المنهجي مسؤولية تضامنية مشتركة، ومع ذلك فقد أثرنا ذكر كل باحث وما قدمه من بحوث ضمن الكتاب فقد كتب الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي مقدمة الكتاب وخاتمته وخلاصته وكذلك الفصول الأول، الثاني، والمبحث الأول (العراق) من الفصل الثالث، والمبحث الأول (إيران)، والثاني (آسيا الوسطى) من الفصل الرابع، والمبحث الأول (الأناضول) والمبحث الثاني (سهوب روسيا) (القوقاز) والرابع (البلقان) من الفصل السابع، والفهارس العامة للمصادر والمراجع وكذلك الملاحق واختيار الخرائط، كما قام بالتأكد من اتصاف المادة المؤلفة بالمعايير المحددة للكتاب المنهجي. وكتب الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله القسم الأول من الفصل الثامن (وسائل الاتصال والتواصل) بينما كتب الدكتور حسين القهواتي القسم الثاني (المؤتمرات الإسلامية)، بينما كتب الأستاذ الدكتور عبد الواحد طه المبحثين الخاصين بالأندلس والمغرب. وكتب الدكتور سيد جمال الدين المبحث الخاص بشبه القارة الهندية، وكتب الدكتوران محمد الحافظ النقر ومحمود الشيخ المبحثين المتعلقين بانتشار الإسلام في أفريقيا جنوبي الصحراء، وكتب الدكتور عبد الروح يعقوب المبحث المتعلق بجنوبي شرقي آسيا، بينما كتب الدكتور عليان الجالوي المبحثين الخاصين ببلاد الشام ومصر.

والرجاء أن تكون هذه الدراسة حافزًا لدراسات أخرى حول الموضوع نفسه الذي يُعد جزءًا حيويًا من تاريخ الأمة العربية الإسلامية الحية التي قد تمتحن ولكنها لا تمحى وقد تبتلى ولكنها لا تبلى. فهي أمة لم ولن تفقد قدرتها على التجدد والتحقيق المستمر لذاتها.

أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن شكري وتقديري للأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت على رعايته لهذا التوجه في تأليف الكتب المنهجية. كما لا يفوتني أن أشكر كل من السيد أحمد العمري لتحمله طبع الجزء الأكبر من

مباحث هذا الكتاب بدقة وكفاءة متميزتين، وآشكر السيدة نجاح العموش والآنسة أمل الغانم لمساعدتها في طبع بعض مباحث الكتاب، والسيد خالد الخالدي لجهوده القيّمة في تنفيذ الكتاب وإخراجه، والشكر موصول إلى مدير إدارة النشر في المعهد العالي للفكر الإسلامي لسماحه باستخدام عدد من الخرائط من أطلس الحضارة الإسلامية للدكتور الفاروقي، الرياض، 1998م، وذلك بكتابه المؤرخ في 28 ديسمبر 2000م، ضمن كتاب "المدخل إلى التاريخ الإسلامي". وأخيرًا وليس آخرًا أتوجه بشكري لكل المشاركين في البحوث ذلك لأن مشاركتهم لا تعني فقط شعورهم بالمسؤولية تجاه طلبة الجامعة بل ترمز كذلك إلى موقف مساند للمحرر من أجل إنجاح مشروع الكتاب الذي لم يكن سهلاً بأي مقياس من المقاييس. فالكتابة عمل مبدع وهي كأي عمل إبداعي مضن ولكنه ملذ، تلك اللذة التي لا يحسّها إلا الباحثون العاملون دون القَعَدة.

والله من وراء القصد ،،،

أ.د. فاروق عمر فوزي

المنسق والمحرر

المفرق 2001م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بزغت شمس الإسلام في "واد غير ذي زرع" امتد خلال فترة زمنية قصيرة إلى بقاع شبه الجزيرة العربية كلها، ثم انتشر ليشمل أقاليم الجوار والعديد من بقاع العالم القاصية والدانية.

وقد شكلت ظاهرة انتشار الإسلام بهذه السرعة ظاهرة فريدة في التاريخ حار الباحثون في الشرق والغرب في تفسيرها، واختلفوا في ذلك فمنهم من أعطى ثقلاً إلى الظروف التاريخية المناسبة للمد الإسلامي، ومنهم من أكد على الظروف المناخية/ الجغرافية والعوامل الاقتصادية. وأبرز آخرون طبيعة العرب "مادة الإسلام

الأولى"، ولا زالت الأبحاث تترى وهي تقدّم معلومات جديدة ووجهات نظر جديرة بالتمعن والمناقشة.

على أن العامل الجدير بالملاحظة والذي يمكن أن يكون العامل الأكثر فاعلية في النجاح الذي حققه الإسلام يكمن في طبيعة الدين الإسلامي من حيث عقيدته التي اتصفت بالاعتدال والوسطية، ومن حيث سلوك دعاته الذين بشّروا به بوسائل سعت إلى التفاعل مع حضارات ونظم الشعوب وتقبّل ما لا يتعارض منها وتعاليم الإسلام حيث نتج عن ذلك في نهاية المطاف إطارًا لما يسمى "بالحضارة العربية الإسلامية".

ويشكل المجتمع الإسلامي اليوم أحد التجمعات الكبرى في المجتمع الإنساني، وتستوطن معظم الشعوب الإسلامية في الأقاليم الوسطى من الكرة الأرضية، (وجعلناكم أمة وسطًا لتكون شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا(، تمتد من سواحل المحيط الأطلسي الأفريقية غربًا إلى المحيط الهادي شرقًا ومن سهوب روسيا شمالاً إلى أرخبيل جنوبي شرقي آسيا، وتضم شعوبًا متباينة عرقيًا ولغويًا وحضاريًا تشمل العرب والفرس والترك والبربر والأفارقة والهنود والأفغان والصينيين وشعوب الملايو وأقليات مثل الألبان وغيرهم حيث يعد الإسلام بما فيه من عوامل الوحدة والاستمرارية الرابطة التي تربطهم جميعًا والأمل الذي يتطلعون إليه في سعيهم من أجل مستقبل أفضل. ولعل من بين التساؤلات الكثيرة التي عالجها هذا الكتاب: كيف اعتنقت هذه المجتمعات المختلفة طبيعة وعنصرًا وثقافة والمتباعدة مسافة الإسلام؟ وما هي الظروف التاريخية التي ساعدت على نشره؟ وكيف تعامل السكان المحليون مع الدين الجديد؟ وماذا أضاف إلى خصائصهم وطرق معيشتهم وتطلعاتهم إلى المستقبل؟

والكتاب دراسة تاريخية تنتظم في فصول يختص كل منها بإقليم جغرافي محدد ويضم كل فصل عددًا من المحاور ترصد المد الإسلامي من حيث الدوافع المحركة والعوامل المساعدة والظروف العامة التي أحاطت بالإسلام في تلك البيئات الجديدة والتفاعل المتبادل بين المسلمين وسكان البلاد المحليين، ثم ما نتج عن ذلك من نظم وسياسات. وقد شملت الدراسة انتشار الإسلام في أقاليم الوطن العربي وخارجه. بل إنها اهتمت بالمد الإسلامي في الأقاليم غير العربية بسبب قلة الدراسات الجادة باللغة العربية عن هذا الموضوع، ولأن الإسلام ليس دين العرب وحدهم رغم أنهم كانوا رواده الأوائل وقوته في مطلع الدعوة، وأن القرآن نزل بلسان عربي مبين. إلا

أن غالبية المسلمين في العصر الحديث ليست من العرب ولا تتكلم العربية ولا تستوطن الوطن العربي. كما وأن الأقطار الإسلامية الأكثر كثافة بالسكان هي أقطار غير عربية، وأكثر من ذلك فإن تزايد هجرة المسلمين إلى أقطار جديدة في العصر الحديث قد منحهم موقعًا ملحوظًا كأقلية إسلامية في مناطق مثل غربي أوروبا والأمريكتين وبنسبة أقل استراليا والصين. وهنا لابد أن نشير إلى أن من بين أهم المظاهر التي اهتم بها الكتاب هو (الطرق الصوفية) التي تعد من أكثر التنظيمات الدعوية الإسلامية انتشارًا وفاعلية في الأقطار غير العربية.

لقد كان حري بجامعة آل البيت أن تهتم بظاهرة "انتشار الإسلام" وأن تدرسها دراسة علمية ضمن برنامجها في الدراسات الثقافية فأقرتها مادة من مواد متطلبات الجامعة يدرسها جميع الطلبة دون استثناء من أجل تكوين فكرة لديهم عن طبيعة المد الإسلامي منذ بداياته ثم انتشاره حتى وصل إلى ما وصل إليه في أقطار الأرض.

ولقد جاءت هذه الدراسة مبادرة رائدة في موضوعها باللغة العربية، عاد فيها الباحثون إلى المراجع ذات العلاقة باللغات العربية والأجنبية، وتم التعبير عن الأحداث بلغة سليمة ورؤية واضحة ومنهج رصين.

وبعد فيسعدني أن أقدم هذه الدراسة لتكون طليعة لدراسات أخرى عن طبيعة انتشار الإسلام بحيث تختار أقاليم محددة لتدرس كنماذج بتفصيل أكبر في جانب محدد، ذلك أن دراسة الإسلام في الوقت الحاضر لم تعد تقتصر على المختصين في العقيدة أو الفقه أو التاريخ بل ظهر مختصون جدد في علوم الاجتماع والأنثروبولوجي وعلم النفس والدعوة والفكر والتمدن وغيرها يدرسون المجتمعات الإسلامية ضمن إطار اختصاصهم الدقيق.

وأخيرًا وليس آخرًا أُعرب عن شكري وتقديري لكل من شارك في البحث والتأليف وكذلك من ساعد في الطباعة والمتابعة والإخراج.

والله من وراء القصد ،،،

رئيس الجامعة - محمد عدنان البخيت

جامعة آل البيت

6 ربيع ثاني 1422هـ/27 حزيران 2001م

المحتويات

- النظم والمؤسسات البيزنطية السائدة في مصر عشية دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، التكوين السكاني.
- انتشار الإسلام بمصر وموقفه من النظم القائمة وتعامل السكان المحليين معه.

الفصل الرابع: امتداد الإسلام (1)

المبحث الأول: إيران، أ.د. فاروق عمر فوزي

المعتقدات السائدة في إيران عشية دخول الإسلام وموقفها من الإسلام: الزرداشتية، (الديانة الرسمية للدولة).

- المانوية: مبادئها وانتشارها.
- المزدكية: مبادئها وانتشارها.
- اليهودية والمسيحية والمعتقدات الأخرى في إيران:

- ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، فئات المجتمع.
- انتشار الإسلام في إيران وكيفية تعامل المسلمين مع المعطيات الحضارية الساسانية، وموقف السكان المحليين من الدين الجديد.

المبحث الثاني: آسيا الوسطى (بلاد ما بين النهر وتركستان)، أ.د. فاروق عمر فوزي

- المعتقدات الدينية السائدة في آسيا الوسطى عشية دخول الإسلام: الطوطمية، الشامانية، البوذية، اليهودية، المسيحية.
- النظم في آسيا الوسطى قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض، والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- الوصول المبكر للإسلام: الفتوحات الجهاد، الدعوة، التجارة، الطرق الصوفية، موقف الإسلام من الأنظمة السائدة وتعامل سكان البلاد المفتوحة مع الدين الجديد.

المبحث الثالث: بلاد المغرب (أفريقيّة- المغرب الأوسط- المغرب الأقصى)، أ.د. عبد الواحد ذنون طه.

- الديانات والمعتقدات السائدة عشية دخول الإسلام: (الوثنية، اليهودية، المسيحية).
- النظم البيزنطية في المغرب قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض، والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- انتشار الإسلام في بلاد المغرب (إفريقية، المغرب الأوسط، المغرب الأقصى،

وموقفه من السكان المحليين، وتعاملهم مع الدين الجديد).
المبحث الرابع: شبه جزيرة إيبيريا (الأندلس)، أ.د. عبد الواحد ذنون
- الديانات السائدة عند دخول الإسلام: اليهودية، المسيحية.
- النظم السائدة في إيبريا قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- انتشار الإسلام في ايبيريا (الأندلس) وتعامله مع سكان البلاد المفتوحة وموقفهم منه: الفتوحات الأموية، المدارس، والمساجد والزوايا والربط، العلماء والدعاة، التجّار.
الفصل الخامس: امتداد الإسلام (2)
المبحث الأول: شبه القارة الهندية، د. سيد جمال الدين
- المعتقدات الدينية السائدة في شبه القارة الهندية عشية دخول الإسلام: الهندوسية، البرهمية، الجينية، البوذية، البرهمية الجديدة.
- النظم السائدة في شبه القارة الهندية قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- وصول الإسلام إلى شبه القارة الهندية.
- الفتوحات الأولى، الغزنويون وانتشار الإسلام في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، سلطنة دلهي، دولة المُغل، انتشار الإسلام في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، الدعاة، العلماء، المتصوفة، التجار.
- موقف الإسلام من النظم السابقة، وتعامل السكان المحليين مع الإسلام.
المبحث الثاني: جنوبي شرقي آسيا، د. عبد الروح يعقوب
- المعتقدات الدينية السائدة والتأثيرات الهندوسية والبوذية في أندونيسيا وماليزيا وجوارهما عشية دخول الإسلام.
- النظم في جنوبي شرقي آسيا قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- وصول الإسلام من خلال: الهجرة، التجارة، الدعوة، الطرق الصوفية وغيرها.
- موقف السكان المحليين من الإسلام وكيفية تعامل الدين الجديد معهم.
الفصل السادس: امتداد الإسلام (3)
المبحث الأول: السودان الغربي ووسط أفريقيا، د. محمد الحافظ النقر
- المعتقدات الدينية السائدة عشية دخول الإسلام: الوثنية، الطوطمية، تقديس الأجداد.
- النظم السائدة قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض، الضرائب، الزراعة، التجارة،

النظم الإدارية والسياسية، النظام الاجتماعي.
- سبل انتشار الإسلام.
- الفتوح، التجار، الدعاة، الطرق الصوفية، دور الممالك الإسلامية، حركات الإصلاح ودورها في نشر الإسلام.
- موقف الإسلام من النظم السابقة، وتعامل السكان المحليين مع الإسلام.
المبحث الثاني: السودان الشرقي والقرن الأفريقي، أ.د. محمود عبد الرحمن الشيخ
- المعتقدات الدينية السائدة عشية دخول الإسلام: الوثنية، اليهودية، المسيحية.
- النظم السائدة قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- سبل وصول الإسلام.
- الفتوح المبكرة، الهجرات السلمية المتتابعة، العلماء والدعاة، الطرق الصوفية، قيام دويلات الطراز الإسلامي، الأسر الإسلامية الحاكمة ودورها في نشر الإسلام (ممالك الفونج ودارفور).
- موقف الإسلام من النظم السابقة وتعامل السكان مع الدين الجديد، حركات الإصلاح، ظهور سلطنة زنجبار العُمانية.
الفصل السابع: امتداد الإسلام (4)
المبحث الأول: الأناضول (آسيا الصغرى). أ.د. فاروق عمر فوزي
- الديانات السائدة عشية دخول الإسلام: اليهودية والمسيحية.
- النظم في الأناضول قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، للنظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي وفئات المجتمع.
- وصول الإسلام إلى الأناضول وموقفه من الأنظمة السابقة وتفاعل السكان المحليين معه: المحاولات العربية المبكرة للفتح، معركة ملازكرد وتوغل السلاجقة إلى الأناضول. سلاجقة الروم وانتشار الإسلام، الإمارات التركية الأخرى وانتشار الإسلام، العثمانيون الأوائل ونشر الإسلام في الأناضول، الطرق الصوفية والدراويش والأخية.
المبحث الثاني: سهوب روسيا، المجر، حوض نهر الولفا، أ.د. فاروق عمر فوزي
- المعتقدات الدينية السائدة عشية دخول الإسلام.
- النظم قبيل دخول الإسلام: نظام الأرض والضرائب، الزراعة والري، التجارة، النظام الإداري، النظام الاجتماعي.
- الاتصال المبكر مع المجريين، محاولات العرب المسلمين المبكرة لفتح القسطنطينية وسالونيك، دور التتار، دور العثمانيين، الطرق الصوفية.

- خصائص انتشار الإسلام في شرقي أووربا (عدا البلقان) وتعامل السكان المحليين مع الدين الجديد.

المبحث الثالث: بلاد القوقاز، أ.د. فاروق عمر فوزي

- المعتقدات الدينية السائدة عشية دخول الإسلام: الوثنية، اليهودية، المسيحية.

- النظم السائدة في القوقاز قبيل دخول الإسلام: ملكية الأرض والضرائب، الري والزراعة، التجارة، النظام الإداري/ العسكري، النظام الاجتماعي.

- الوصول المبكر للإسلام في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، وموقفه من النظم السائدة وتعامل السكان المحليين معه، دور الطرق الصوفية (الجهاد الدعوي، والجهاد القتالي).

المبحث الرابع: انتشار الإسلام في شبه جزيرة البلقان، أ.د. فاروق عمر فوزي

- المعتقدات الدينية السائدة قبيل دخول الإسلام.

- النظم في البلقان قبل الإسلام.

- وصول الإسلام وتعامل السكان المحليين معه دور العثمانيين. الطرق الصوفية.

الفصل الثامن: وسائل الاتصال والتواصل بين المسلمين في العصر الحديث.

المبحث الأول: وسائل التواصل والتماسك: اللغة العربية، التعليم ومؤسساتها ودورها في التواصل الثقافي والعلمي، الرحلة في طلب العِلم، الحج، التجارة، الوقف، الزكاة، أ.د. أبو القاسم سعد الله

× الوحدة والتنوع في المجتمعات الإسلامية:

القواسم الحضارية المشتركة عند الشعوب المسلمة، التنوع الحضاري في المجتمعات الإسلامية.

المبحث الثاني: المؤتمرات الإسلامية في العصر الحديث، المنظمات المتخصصة الحديثة، د. حسين القهواتي

الخاتمة.

المصادر والمراجع

الكشافات

- **أ.د. فاروق عمر فوزي:** محرر الكتاب ومنسقه. أستاذ التاريخ الإسلامي بقسم التاريخ في جامعة آل البيت. نال الدكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة لندن، ثم تعين في قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، ثم ترقى إلى مرتبة الأستاذية في جامعة بغداد، كلية الآداب 1979م، حاضر في جامعات عربية وأجنبية، كتب في مجالات التاريخ الإسلامي الوسيط المختلفة وله عدد من المؤلفات منها: الثورة العباسية، الخلافة العباسية، جزآن، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، تاريخ آل البيت في القرون الإسلامية الأولى، العباسيون الأوائل ثلاثة أجزاء، تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط، شارك في كتابة عدة بحوث في هذا الكتاب.

- **أ.د. أبو القاسم سعد الله:** أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة آل البيت، حصل على الدكتوراه في التاريخ الأوروبي والمعاصر من جامعة ميسونا، ونال درجة الأستاذية أثناء عمله بجامعة الجزائر 1971م، واشتغل أستاذًا مساعدًا ثم أستاذًا زائرًا بجامعات أمريكا منها جامعة ويسكنسن بأوكلير، وجامعة ميشيجان بآن آربر، وجامعة منيسوتا، وكذلك أستاذًا زائرًا في عدد من الجامعات العربية. له مؤلفات عديدة في التاريخ الثقافي والحركات الوطنية وتحقيق بعض المخطوطات وترجمة كتب من الإنجليزية إلى العربية، منها تاريخ الجزائر الثقافي 9 أجزاء، والحركة الوطنية الجزائية، 5 أجزاء، ومنشور الهداية وتاريخ العدواني (تحقيق)، والجزائر في العهد العثماني، حياة الأمير عبد القادر الجزائري (ترجمة)، شارك في كتابة المحور الأول من الفصل الثالث عن الاتصال والتواصل بين المسلمين.

- **أ.د. عبد الواحد ذون طه:** حصل على الدكتوراه من جامعة أكستر في بريطانيا، في تاريخ المغرب والأندلس، وتعين في قسم التاريخ بجامعة الموصل بالعراق، ثم ترقى إلى مرتبة الأستاذية في نفس الجامعة. له عدد من المؤلفات في حقل اختصاصه منها: الفتح والاستقرار العربي في المغرب والأندلس. شارك في كتابة البحثين الخاصين بانتشار الإسلام في المغرب والأندلس.

- **أ.د. سيد جمال الدين:** رئيس قسم التاريخ والثقافة، جامعة ملية إسلامية، في نيودلهي سابقًا، حصل على الماجستير والدكتوراه من الجامعة نفسها، من

كتبه: (الدولة في عهد تيمور: دراسة في بناء الإمبراطورية) بالإنكليزية. علم التاريخ (اللغة الأوردية)، الدين والسياسة في الهند في عهد الاستعمار البريطاني (باللغة الأوردية) الذي نال جائزة الدولة التقديرية. شارك في كتابة البحث المتعلق بانتشار الإسلام في الهند.

- **د. محمد الحافظ النقر**: ق. أ. رئيس قسم التاريخ بجامعة آل البيت، حصل على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الوسيط من جامعة جلاسكو (Glasgow) 1983م، له من المؤلفات: تاريخ الأديان في السودان بالإنجليزية، شارك في كتابة البحث الخاص بانتشار الإسلام في غربي أفريقيا.
- **د. محمود عبد الرحمن الشيخ**: حصل على الدكتوراه في تاريخ أفريقيا الحديث من جامعة كاليفورنيا/ لوس أنجلوس سنة 1986م، له عدد من البحوث المنشورة في مجالات تاريخ شرق أفريقيا في العصر الحديث ومنها: "الإسماعيلية في شرق أفريقيا" و"الشيعة في شرق أفريقيا"، و"الإرساليات المسيحية والمسلمون في شرق أفريقيا 1844-1914م"، شارك في كتابة البحثين الخاصين بانتشار الإسلام في شرقي أفريقيا والقرن الأفريقي.
- **د. حسين القهواتي**: أستاذ مشارك في تاريخ العرب الحديث بقسم التاريخ/ جامعة آل البيت، حصل على الدكتوراه في تاريخ الخليج العربي الحديث من جامعة بغداد سنة 1979م، وقام بالتدريس في جامعة البصرة وبغداد والمستنصرية، له عدد من البحوث المنشورة منها: دور البصرة التجاري في الخليج العربي 1869 - 1914م. بغداد، 1980م، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر (بالاشتراك) سنة 1980م، البصرة، تاريخ ولاية البصرة، تحقيق، 1981م، صراع الدولة والقبيلة في إيران وأفغانستان، مجموعة دراسات أنثربولوجية، مترجم بالاشتراك، البصرة، 1984م، شارك في كتابة المحور الثاني من الفصل الثالث الخاص بالمؤتمرات الإسلامية.
- **د. عبد الروح يعقوب**: حصل على الدكتوراه من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية، جامعة لندن، في تاريخ ماليزيا الحديث، 1981م، يحاضر حاليًا في قسم اللغة والتاريخ بالجامعة الوطنية الماليزية، بانجي، سلانجور، ماليزيا، شارك في كتابة البحث المتعلق بانتشار الإسلام في جنوبي شرقي آسيا.

- **د. عليان الجالودي**: حصل على الدكتوراه من الجامعة الأردنية، 1997م، في موضوع تطور مفهوم السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي، تعين في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم في جامعة آل البيت 1997م، له عدد من البحوث المنشورة منها: مفهوم دار الإسلام خلال القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي من خلال كتاب المقدسي أحسن التقاسيم، كتب المذكرات مصدرًا لتاريخ الأردن في أواخر العهد العثماني، أوراق صالح التل نموذجًا، كتاب سياسة نامة لنظام الملك الطوسي، شارك في كتابة البحث الخاص بانتشار الإسلام في بلاد الشام ومصر.

(13)

كتاب (الجذور التاريخية للوزارة العباسية)[1]

مقدمة

إن الجيل المعاصر من مؤرخينا بدأ في الآونة الأخيرة ينهج منهجًا متميزًا في كتابة التاريخ الإسلامي، منهجًا يعيد قراءة النصوص الأصيلة ويفسرها غير معتمد على تفاسير السابقين أيًا كانوا، وبهذا يقدّم التفسير الجديد صورة أخرى تتهافت عندها الصور القديمة سواء كانت تقليدية متشددة أم استشراقية متعصبة.

من هذا المنطلق أجد الباب واسعًا أمامي وأمام غيري للبحث وإعادة البحث في مظاهر التاريخ العباسي وأحداثه معيدًا تركيبها موضحًا قيمها ومضامينها كاشفًا الأخطاء في تفسيرها. وهنا أدرك بأن التاريخ العباسي بل التاريخ الإسلامي ككل يحتاج إلى مزيد من إعادة القراءة ثم إعادة التركيب. وهذا ما أدعو إليه مؤرخينا الشباب كل حسب اختصاصه.

والله أسأل التوفيق فهو حسبي ونعم الوكيل

المؤلف

كلمة لابد منها

يتناول كتابي هذا بحوثًا في إطار التاريخ العباسي كُتبت خلال العقد الماضي بعضها يتعلق بظواهر سياسية وبعضها يناقش مظاهر حضارية. على أن الذي يجمع بينها أنها مظاهر لعصر واحد هو العصر العباسي وأنها كُتبت بمنهج جديد لا يُسلّم بما كُتب عنها سابقًا.

يلومني بعض الزملاء على تعلقي بموضوع اختصاصي في التاريخ العباسي وكتابتي البحوث تلو البحوث عن الفترة العباسية دون غيرها.

وفي الوقت الذي بدأت أستجيب لهؤلاء الأفاضل حيث ظهرت لي بحوث أو كتب خارج إطار التاريخ العباسي فإنني والحق يقال ما أزال أشعر بالحاجة الملحة المنبعثة من أعماق النفس إلى الاستزادة في بحث مظاهر التاريخ العباسي، والتعمق في

ظواهره الحضارية وإعادة كتابة العديد من أحداث مسيرته الطويلة التي زادت على الخمسة قرون، ولعل لهذه الحاجة الملحّة ما يبررها... وأول هذه المبررات أن ما كتب في التاريخ الإسلامي إلى وقت قريب كان في غالبيته عيالاً على المنهج التقليدي أو على المنهج الاستشراقي وهو منهج ناقص ومتحيز في الكثير من كتاباته.

المقدمة

تعتمد هذه الدراسة على ما كتبته البروفسورة سورديل عن الوزراء العباسيين الأوائل في الجزء الأول من كتابتها، ويمكن اعتبارها مقدمة تحليلية لتاريخ الوزارات العباسية خلال العصر العباسي الأول. وهي دراسة في التاريخ وليست في النظم بمعنى أنها تهتم بالدرجة الأولى بشخصية الوزير العباسي ومدى نفوذه وسلطته في الإدارة والسياسة والحرب، وطبيعة علاقته بالخليفة، وظروف ارتقائه وأسباب عزله، أكثر من اهتمامها بتطور الوزارة كمنصب من المناصب الإدارية في الخلافة العباسية وكنظام جديد من النظم الإسلامية ظهر لأول مرة على عهد العباسيين.

وأكثر من ذلك فإن هذه الدراسة لا تهدف إلى تزويد القارئ بخصائص منصب الوزارة والشروط النظرية الواجبة في الوزير، ولا إلى تصنيف الوزارة إلى وزارة تفويض وتنفيذ تلك الأطر والمواصفات النظرية والمثالية التي وصفها الفقهاء المتأخرون وكتاب السياسة الشرعية والتي لم تكن تعني شيئًا في العصر الذي ندرسه ولم يتّبعها الخلفاء متعمدين في انتقائهم للوزراء حيث لا وجود لها... بل تهدف هذه الدراسة في إلقاء الضوء على الكيفية التي كان ينتقي بها الخليفة وزيره وكذلك طبيعة العلاقة بين الطرفين.

وأخيرًا لا آخرًا كيف أثرت ظروف وأحداث تلك الفترة في نمو سلطة "الوزير" وزيادة أو قلة تأثيره على الخليفة وبالتالي في رسم سياسة الدولة.

يرى المؤرخون المحدثون أن منصب الوزارة استحدث في العصر العباسي الأول. ولكن الباحث في تاريخ الوزارة في الدولة الإسلامية يواجه صعوبات جمة. منها ما يتعلق بأصل اصطلاح "وزير" ومنها ما يعود إلى بداية نشأة منصب "الوزير" وتطوره. ومنها ما يلاحظ من عدم تحديد "صلاحيات" الوزير مما أدى إلى نوع من التصادم بين سلطته وسلطة الخليفة.

فمن الأسئلة التي تبحث عن جواب... متى أصبحت الوزارة إحدى المؤسسات الرسمية في الدولة الإسلامية؟ وما هي نظمها؟ أليس من الدقة آن يتحدث مؤرخ الوزارة عن شخصيات وزارية تتمتع بصلاحيات معينة تفاوت درجاتها بحسب قابلية الوزير وحذقه السياسي، وبمعنى آخر هل هناك منصب إداري واضح المعالم يطلق عليه (الوزارة) أم أن الخليفة اختار شخصًا من "مواليه" أو "صحابته" ليحمل عنه بعض أعباء الحكم ومسؤولياته، أو ليعينه في المشورة والتدبير. إن الجواب على هذا السؤال يجب أن يعين نشوء منصب الوزارة في الإسلام.

والمعروف أن كلمة وزير ليست غريبة على لغتنا العربية ولكن منصب الوزارة كمؤسسات لها صلاحيات معينة وجدت في دول أخرى قبل أن تقرر أسسها في الدولة العباسية. فالوزارة الإسلامية لم تقرر قواعدها وتتوضح أسسها إلا نتيجة التجارب التي مرت بها حيث تبلورت في نهاية القرن الثالث الهجري وبداية الرابع الهجري. وعلى ذلك فإن الباحث في الوزارة يجب ألا يفترض منذ البداية وجود منصب يسمى (الوزارة) يشبه (الولاية). وهذه نقطة مهمة في الأسلوب المنهجي الذي يجب أن يتبعه الباحث.

وهناك عوامل وتأثيرات متداخلة ومعقدة اعترضت نشأة الوزارة منها ما يتصل بالعادات العربية ومنها ما يتعلق بتأثيرات الإسلام. وربما كان لادعاء العباسيين بأنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم الجماعة الإسلامية أثر في اختيارهم هذا الاصطلاح القرآني ليدل على مشاور الخليفة ومساعده الأيمن. يضاف إلى ذلك التقاليد الدينية التي تبنتها الخلافة العباسية كانت قد أثرت في ابتداع هذا المنصب.

وهناك اعتبارات إدارية وسياسية وثقافية على الباحث أن يدركها فينظر إلى منصب الوزارة من خلال هذه الاعتبارات. فقد كان هناك مثلاً نوع من عدم الميل إلى اتخاذ الوزير بصورة دائمية، وإنما كان الخليفة العباسي يتخذ كاتبًا مرة ووزيرًا مرة أخرى. فليس هناك إذن منصب إذا شغر من وزير قديم فيجب أن يملأ بوزير جديد. وإذا اعتبر الباحث أن الوزير ما هو إلا تطور للكاتب في العصر الأموي فعليه أن يتساءل لماذا وكيف استطاع (الكاتب) من بين كل أعوان الخليفة ومواليه وصحابته أن يبرز ويبسط نفوذه.

ثم ما هي الشروط التي يجب أن تتوفر في الوزير؟ وهل كانت له صلاحيات مرسومة؟ وفي أي عصر تميزت هذه الصلاحيات؟ وما هي علاقة الوزير بالخليفة؟ والظاهر أن الوزارة مرت بفترات من القوة والضعف أطلق عليها الفقهاء وكتّاب السياسة الشرعية النظريون مصطلحات منها وزارة تفويض ووزارة تنفيذ. ولكن المؤرخ الباحث يتساءل هل كان هذا الضعف أو تلك القوة نتيجة ضعف في نظام الوزارة أم في شخصية الوزير نفسه؟؟

وهنا تدخل اعتبارات جديدة ذات علاقة بالتنافس بين التكتلات المختلفة في البلاط والإدارة العباسية. فهناك سلطة الخليفة، وهناك النزاع بين موالي الخليفة وصحابته، وهناك نفوذ قادة الجيش (أصحاب السيف) ونزاعهم مع كتلة الكتّاب وأصحاب الدواوين المدنيين (أصحاب القلم). وهناك التيار الخفي الفعّال الذي كانت تمثله كتلة الكتّاب (البيروقراطية المدنية) الذين ظلوا متعلقين بإرثهم الفكري الفارسي وحاولوا التأثير في المفاهيم الإدارية الإسلامية.

هذه نماذج من الاعتبارات التي تعترض الباحث في تاريخ الوزارات العباسية وعليه أن يجد لها جوابًا مقنعًا يستطيع به أن يحدد المعالم الرئيسة لهذا المنصب وصلاحياته. لقد بحث في نظام الوزارة الإسلامي العديد من الفقهاء وكتّاب السياسة الشرعية منهم الماوردي في أدب الوزير والأحكام السلطانية. وهناك كتب تختص بتاريخ الوزارة منها كتب الجهشياري وهلال الصابي وغيرهم. إلا أن هذه الكتب عالجت موضوع الوزارة في فترة متأخرة حين كانت الوزارة قد حددت خصائصها وتبلورت طبيعتها، ثم هناك مؤلفات في تاريخ الوزارة الإسلامية لم تصلنا أو لم نعثر على مخطوطاتها ولم تُحقق بعد، وربما حين يتيسر لنا الإطلاع سنبدل من وجهات نظرنا أو فرضياتنا حول نظام الوزارة.

وتحوي كتب الأدب مثل رسائل الجاحظ وكتبه وكتب أدب الكاتب على معلومات جديدة وطريفة عن الوزارة والوزراء. كما أن في كتب التاريخ العام مثل الطبري وغيره معلومات قيّمة عن الوزارة وتاريخ الوزراء.

أما تحديد الفترة الزمنية لهذه الدراسة بنهاية عهد المأمون 218هـ/833م فلإعتقادنا بأن هذا العهد شهد منعطفًا في تاريخ الوزارة العباسية، وتحولاً في مركز الوزير وصلاحياته في الإدارة والسياسة. فالمعتصم الذي جاء بعد المأمون كان رجلاً عسكريًا بالدرجة الأولى اهتم بالجيش وتدريبه وإعداده أكثر من اهتمامه

بالمؤسسات الأخرى. ولهذا فهو لم يهتم باختياره وزرائه قدر اهتمامه بانتقاء قادة جنده وعسكره فهبط مركز الوزير خلال العصر العباسي الأول إلى الحد الذي يعترف فيه الخليفة المعتصم نفسه حين فوجئ بأنَّ وزيره أحمد بن عمَّار الخراساني يعجز عن الإجابة على سؤال له فيقول "خليفة أمي ووزير عامّي"!!

وإذا كانت بدايات تدهور مركز الوزير قد وقعت في عهد المعتصم فإن آثارها السلبية لم تظهر بوضوح إلا بعد ذلك حين أصبحت المؤسسات الإدارية والسياسية تحت سيطرة زمرة من القادة العسكريين الأتراك ولم يبق للخليفة أو وزيره الشيء الكثير بل إن منصب وزير الخليفة شغر في أواخر العصر العباسي الثاني ثم أُلغي في العصر البويهي وغدا للخليفة كاتب فقط واختص أمير الأمراء البويهي بالوزير!!

على أن دخول الوزارة العباسية هذا المنعطف الجديد لا يعني عدم ظهور شخصيات وزارية خلال العصر الثاني فقد ظهر وزراء قديرون أمثال محمد بن عبدالملك الزيات وعلي بن عيسى وغيرهم.

ولابد لنا بعد ذلك من أن نشير إلى أن النظرة المتعمقة في تأريخ الوزراء الأوائل تدحض الفكرة التي تفسر تأريخنا على أسس الطموحات الشخصية أو القبلية والصراعات الإقليمية مع إدراكنا وجود مثل هذه النزعات أو التي تظهر الخلفاء بمظهر الحكّام "الثيوقراطيين" المتفردين بالسلطة الذين لا يرون إلا مصالحهم. وإذا جاز لنا أن نستبق الأحداث ونخلص إلى نتائج البحث نقول بأن هذه الدراسة أثبتت أن الخليفة لم يكن حاكمًا مستبدًا متفردًا بالسلطة. بل إن المسؤولية كانت مشتركة. ذلك أن إدارة الدولة وتقرير سياستها كان قسمة بين الخليفة والصفوة أو النخبة التي تحيط به. وكان الوزير الأول بين أقرانه من أعضاء تلك الصفوة الإدارية والسياسية، هذا مع اعترافنا بوجود حالات استثنائية. ثم إن هذه الدراسة قد أظهرت دور النخبة المحيطة بالخليفة في انتقاء السياسة المعينة من بين خيارات متعددة والتحكم في التيارات السياسية المؤيدة والمعارضة واتخاذ موقف سياسي منها، ولها بعد ذلك دور في خلق التكتلات السياسية في البلاط والإدارة ولها بالتالي دورها في صنع القرار السياسي. ذلك أن هذه النخبة كانت تحيط بالخليفة وتناقش معه وتشير عليه حين تُستشار ومن هنا يأتي تأثيرها في نوعية وماهيّة القرار الذي يتخذه الخليفة.

وأخيرًا وليس آخرًا فقد أثبتت هذه الدراسة بأن النخبة الحاكمة وعلى رأسها الخليفة ووزيره في الفترة موضوعة البحث كانت في الأعم الأغلب تتكون من رجال

حكم وساسة يدركون مسؤولياتهم تجاه الأمة ويجتهدون بإخلاص من أجل تنفيذ خططهم الرامية لرفاهية المجتمع وازدهاره. من هذا المنطلق نستطيع أن نفهم موقف أبي العباس "السفاح" من أبي سلمة الخلال، وإجراءات المنصور تجاه المورياني أو الخراساني، وموقف الرشيد من البرامكة فهي لم تكن كما تفسرها النظرة التقليدية الضيّقة مجرّد عاطفة جامحة ولا هي مجرّدة نزوة آنية ليس لها ما يبررها إلاّ المصالح الشخصية ووشايات البلاط!! رغم أن لهذه الوشايات دورها الذي لا يُنكر.

وبعد... فقد حاولنا توضيح معالم تاريخ الوزراء الأوائل وحسبنا أننا أشرنا إلى أهمية دورهم وآثرنا نقاطًا عديدة حاول بعض المؤرخين طمسها ورجاءُنا أن تفتح هذه الدراسة الباب لدراسات أخرى عن فترات أخرى على نفس النمط والمنهج التاريخي.

(14)

كتاب (الاستشراق والتاريخ الإسلامي)[1]

مقدمة

من الطبيعي أن يكون التاريخ من أول المظاهر التي تركز عليها الحركات والتيارات المناهضة للأمة، فالتاريخ كان ولا زال يحتل أهمية خاصة من تكوين الشخصية العربية الإسلامية فهو، بما يحتوي على مظاهر الوحدة والتنوع، يؤكد على ترابط واستمرار الأمة عبر العصور بكل قيمها ومثلها وإنجازاتها في السياسة والحرب والحضارة والنظم، تلك المنجزات التي ظهرت طبيعتها الإنسانية من خلال انتفاع شعوب أخرى منها خارج "دار الإسلام".

لقد خضعت وقائع التاريخ الإسلامي ومظاهره الحضارية إلى معالجات استندت على تفاسير متنوعة في الماضي والحاضر، ولم تكن بعض هذه التفسيرات والمعالجات تستند على وقائع ثابتة أو روايات موثوقة، بل ربما وصل بعضها إلى مستوى التزوير عن قصد للظاهرة التأريخية، وقد بدأ هذا التزوير والتشكيك والتشويه من داخل المجتمع الإسلامي ومن قبل حركات عديدة ولدوافع مختلفة. وهكذا طغى المذهب السياسي أو العقيدي على المنهج وساهمت حركات الغلو والإسرائيليات والشعوبية والنزعات السياسية والاجتماعية المناهضة للدولة في تشويه الحقائق وتزوير الوقائع.

وفي العصر الحديث ظهرت أبحاث جديدة تتسم بنظرات جديدة في تفسير التاريخ الإسلامي وكلها يدّعي "الموضوعية" ويؤكد أن مذهبه في التفسير هو المذهب الصحيح... وكانت حركة الاستشراق جزءًا من هذا التيار القديم الجديد... ولكن المستشرقين لم يكونوا على نمط واحد كما لم يتبنوا تفسيرًا واحدًا في فهم تاريخ الإسلام. لقد ضم الاستشراق فئة من المبشرين الذين تبنّوا آراء الكنيسة الكاثوليكية وغيرها في تفسير الإسلام، وحاول بعضهم أن يفسره تفسيرًا عنصريًا وأكد آخرون على العوامل الاجتماعية - الاقتصادية، بل أن مستشرقين أخريين جرّبوا تطبيق المذهب المادي، فكان همّهم أن يجعلوا من أسلوب الإنتاج وصراع الطبقات في تلك الفترة أساس وحيدًا لظهور الحركات والمنعطفات التاريخية. ونظر مستشرقون

"موضوعيون" إلى وقائع تاريخية نظرة علمية آخذين بنظر الاعتبار كل العوامل المتشابكة والفاعلة من سياسية وروحية دينية ونفسية وقومية واقتصادية واجتماعية وظروف بيئية في تكوين الظاهرة التأريخية أو الحضارية. كما وأن بعض المستشرقين غيّر وبدّل أو عدّل من تفاسيره وأحكامه بتقادم الزمن وزيادة إطلاعه وكثرة قراءاته لأبحاث الآخريين واتساع نضجه وتفهمه بتقادم عمره.

ويبدو لنا أن المشكلة ليست في الاستشراق فحسب بل في الاستغراب أيضًا... ذلك لأن المستشرقيين لديهم أكثر من دافع يبرر موقفهم من تاريخ الإسلام. أما المستغربون وهم الباحثون العرب والمسلمون الذين قلدوا بعض المستشرقين في آرائهم وتفسيراتهم، وساروا على طرائقهم بل وأصروا عليها بعد أن تركها المستشرقون أنفسهم وباتت قديمة أو معدلة في الدوائر التأريخية الاستشراقية نفسها. إن المؤرخ يجد نفسه أمام حشد هائل من الأبحاث التي كتبت بأقلام "المستغربين" المقلدين لتفاسير الاستشراق وفي داخل العالم الإسلامي... وهكذا تبقى المشكلة من الداخل مثلما هي من الخارج.

فمنذ أن أخرج طه حسين كتبه العديدة وخاصة كتابه الموسوم - "الفتنة الكبرى" - أكد فيه على أثر العامل الاقتصادي في حركة التاريخ الإسلامي اعتبره البعض استهلالاً متأنيًا على استحياء للنظر إلى وقائع التاريخ الإسلامي من زاوية المادية التاريخية أو التفسير المادي للتاريخ. واعتبره البعض الآخر متأثرًا بالمستشرق برنارد لويس أو المستشرق كايتاني في إعطائه هذا الوزن للعامل الاقتصادي الاجتماعي. ثم قطع بندلي جوزي في كتابه (من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام) وعبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (محمد رسول الحرية) شوطًا أكبر في التفسير المادي لتاريخ الإسلام.

ثم كان الأستاذ أحمد عباس صالح أكثر جرأة في سلسلة مقالاته (عن الصراع بين اليمين واليسار في الإسلام) في الكشف عن تفسيره المادي للتاريخ.

وتتابعت البحوث والدراسات العربية التي تبنت تفاسير استشراقية، فقد تأثر البعض بنظرية كوبينو العنصرية العرقية وكتبوا البحوث عن الفرعونية والفنيقية والسومرية، ثم ظهرت الدعوة إلى استبدال الحروف العربية بالحروف الأفرنجية بل أن الدعوة تعدت ذلك إلى القول بأن اللغة العربية لا تصلح للكتابة والكلام في كل الأمور لأنها ذات طابع ديني!!. وتأثر علي عبد الرازق بتاريخ الصراع في أوروبا بين

الدين والدولة وبين الكنيسة والملوك فكتب كتابه الموسوم (الإسلام وأصول الحكم). وتبنى حسين قاسم العزيز في كتابه (البابكية) التفسير المادي للتاريخ محاولاً قسر الوقائع التاريخية بعنف وحماسة لتنسجم مع تفسيره هذا. وكان محمود إسماعيل أكثر روية وأقل حدّة من العزيز. وقد جعل عبد الجبار ناجي- متأثرًا بنولدكه والسامر وربما كاردلايل- من صاحب الزنج بطلاً تاريخيًا ومن حركته "ثورة موافقة لسير التاريخ".

وظهر في العقود الأخيرة من هذا القرن مجموعة من الباحثين العرب المختصين بالتاريخ وغير المختصين به وخاصة كتاب التراث والحداثة ممن تطرق إلى موضوع التاريخ الإسلامي من خلال الفلسفة أو الفكر السياسي أو الفرق الإسلامية أو غيرها. والملاحظ أن بعضهم جاء بمنهج جاهز حاول فرضه على موضوع بحثه وخرج بنتائج فرضها المنهج ولم تفرضها مادة الموضوع. فقد طبق حسين مروة المنهج الماركسي مستندًا على روى ثابتة فرضها هذا المنهج فبدأ بمسلمات ماركسية وانتهى بنتائج لا تقبل النقاش. وعلى سبيل المثال أكد مروة على "المجتمع الطبقي" في العصر الإسلامي الوسيط دون أن يستند إلى روايات تاريخية تؤيد وجود "طبقات". فهل كان العرب طبقة وهل شكّل أهل الذمة أو الموالي طبقة؟ وما هو الفرق بين الفئة والطبقة؟ أما محمد عمارة فقد مثّل التوجه الإسلامي المعتدل في مجموعة كتبه وبحوثه، وانتقد عمارة لتغيبه الجانب الاجتماعي/ الاقتصادي في منهجه في البحث التاريخي. ومن الذين حاولوا الكتابة بموضوعية في التاريخ الإسلامي محمد عابد الجابري وذلك ضمن سلسلة كتبه في نقد العقل العربي. ومن المعروف أن الجابري متهم أيضًا بتغيب الجانب الاقتصادي إلا أنه في كتابه الموسوم (العقل السياسي العربي. محدداته وتجلياته) نهج نهجًا جديدًا مؤكدًا على الجانب الاقتصادي. ويتضح كذلك في بداية عرضه للكتاب استعراضًا للعديد من مناهج الماركسيين في هذا المجال. ونلاحظ أن الجابري، كغيره من الباحثين المتميزين، قد تأثر بآراء المستشرقين الغربيين ووظف بعض مصطلحاتهم في ثنايا فصوله.

هذا قليل من كثير وغيض من فيض المؤلفات والأبحاث التي كتبها العرب والمسلمون الذين تبنى غالبيتهم تفاسير أحادية النظرة وتفتقر إلى الموضوعية. وقد استدرك بعضهم بعد لئي قصير أو مدة طويلة فعدّلوا من آرائهم، أو عادوا إلى التفسير الأكثر اعتدالاً وربما موضوعية فطه حسين مثلاً الذي أصدر كتابه (في

الشعر الجاهلي) وجاء فيه بآراء شكّك فيها بنصوص دينية وكذلك بروايات من الشعر الجاهلي متأثرًا بنظرية ديكارت في الشك وبطرق نقد النصوص التوراتية والإنجيلية، قد استدرك وتراجع في الثلاثينات حين أصدر كتابه (على هامش السيرة) ثم كتابه (مرآة الإسلام). ذلك أن ازدياد الخبرة والإطلاع الواسع جعلت طه حسين يدرك بأن بعض المواقف الاستشراقية من القرآن ومحاولتهم ربطه بالشعر تهدف من بين ما تهدف إلى نفي صحة الوحي وصولاً إلى هز ثقة المسلمين بدينهم، ومن هنا يلاحظ المطّلع على (مرآة الإسلام) تأكيد طه حسين على إثبات صحة الوحي وصدقه وإبراز الإعجاز القرآني.

وناقش الأستاذ فتحي عثمان بحوث الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي وأحمد عباس صالح ورد عليها. وكذلك فعل كل من محمد كرد علي وشكيب أرسلان وعباس محمود العقّاد في ردودهم على المستشرقين ومن قلدهم من المستغربين في العالم العربي الإسلامي. وكانت ردود كل من محمد ضياء الدين الريس ورشدي عليان قوية لفرضيات علي عبد الرازق آنفة الذكر. ومثلما تعرّض كتاب محمود إسماعيل المشار إليه سابقًا إلى ردود فعل عنيفة كذلك تعرّض كتاب البابكية للعزيز إلى نقد طويل تناول العديد من محاوره... ولعل البعض من هؤلاء الكتّاب قد بدّل وجهة نظره بعد عقد أو عقدين من تأليفه الكتاب أو البحث. وقد أحسن عباس محمود العقّاد الكلام حين قال في مقدمة كتابه الموسوم "عبقرية محمد" مبررًا سبب تأخره في إصدار الكتاب: "فإنني لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى فضول ذلك العمر الباكر...".

وقبل العقّاد وفي المعنى نفسه قال المؤرخون الرواد مثل العماد الأصبهاني (ت597هـ) وأبي الفداء (ت732هـ)، حيث يقول الأول: "إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد كذا لكان يستحسن ولو قدّم لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

أما المشادة التي وقعت بين المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين في القرن العشرين فيما يتعلق بتاريخ الأمويين وسياساتهم، فهي مثيرة ولعل أهم القضايا التي أثارت الاختلاف في وجهات النظر بين المؤرخين هي سياسة الأمويين تجاه العرب

ومشكلة الموالي والأسباب التي أدت إلى سقوط الأمويين. وربما ظهر التباين في المواقف في أوضح صورته 1905م أثر تبادل الرسائل بين جرجي زيدان صاحب كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" ورفيق العظم مؤلف كتاب "أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة" والتي ظهرت على صفحات مجلة الهلال بالقاهرة؛ حيث انتقد العظم الطريقة التي عالج بها زيدان الدولة الأموية ثم رد هذا الأخير على الانتقاد.

ويبدو أن مفكري النهضة العربية في أوائل القرن العشرين وهم يتوجسون خطر سياسة التتريك قد لاحظوا أن التعريض بالحكم الأموي العربي وإظهاره بمظهر سيء في تلك الظروف الحساسة خطر على الأمة العربية. ومن هنا يمكن تفسير مشاركة محمد رشيد رضا في الحملة على كتاب جرجي زيدان ونشره كتابًا شارك فيه باحثون عرب ومسلمون منهم العالم الهندي المسلم الشيخ شبلي النعماني" وقد استمر الاهتمام بتاريخ الأمويين والدفاع عن إنجازاتهم والتي طمست عمدًا من قبل العباسيين كما يرى الباحثون. فقد طبع أنيس زكريا النصولي اللبناني ومن خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت كتابًا عن الدولة الأموية نشر 1927م في بغداد، فأثار ضجة ثقافية تطورت إلى أزمة سياسية شارك فيها الأستاذ ساطع الحصري الذي كان في بغداد آنذاك والمؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني حيث يشيران إلى هذه الحادثة في كتبهما.

واستمرت الدعوة بين بعض الباحثين والمفكرين العرب إلى إعادة النظر في التاريخ الأموي وإنصافه. ويبدو ذلك جليًا من كتابات محب الدين الخطيب في مجلتي الفتح والزهراء القاهرتين ومحاضرات ومقالات محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، وكذلك في كتابه الموسوم "خطط الشام". وقد رد على هذه الدعوة عدد من العلماء أمثال السيد محسن الأمين العاملي وعبد الحسين شرف الدين ومحمد علي الحوماني. ولابد لنا أن نشير هنا إلى تأثير بعض المستشرقين أمثال البلجيكي لامنس Lammens الذي كان متعصبًا للأمويين على بعض المؤرخين العرب حيث لاقت كتاباته قبولاً لديهم. بينما لاقت كتابات مستشرقين آخرين تعصبوا ضد الأمويين وبالغوا في تصوير التمايز الاجتماعي والاقتصادي تجاه الموالي قبولاً حسنًا لدى مؤرخين عرب آخرين. ولعل مما عرضناه عن صورة العصر الأموي في الكتابات التاريخية الحديثة العربية والاستشراقية أن

كليهما يتقاسمان المسؤولية في ارتباك صورة ذلك العصر، ولا زالت قضية إعادة النظر والتقييم للعصر الأموي قائمة حتى يوما هذا فالمؤرخ المعاصر صلاح الدين المنجد يبدو في مقدمة كتابه (معجم بني أمية) متحفظًا على النتائج التي توصّل إليها الباحث الحديث عن الأمويين الذين، كما يقول، لم يدرسوه دراسة عميقة شاملة فيها إنصاف وتجرّد.

ولا لنا أن نشير بأن المستشرقين أنفسهم لم يكونوا على رأي واحد وتفسير واحد للظاهرة التاريخية بل تنوعت آراءهم وتضاربت تفسيراتهم وانتقد بعضهم البعض الآخر. فالبروفسور جب Gibb حين يتكلّم عن أعمال وكتابات المبشرين "من المستشرقين" يقول منتقدًا بشدة: "لقد قامت في صفوفهم في السنوات الأخيرة محاولة إيجابية تحاول النفاذ بصدق إلى أعماق الفكر الإسلامي بدل السطحية الفاضحة التي صبغت دراساتهم السابقة ولكن ورغم ذلك فإن التأثر بالأحكام القديمة عن الإسلام لا زال قويًا في دراساتهم ولا يمكن إغفالها.

ويتفق عدد من المستشرقين مع هذا الرأي الذي صدر عن جب، نذكر منهم على سبيل المثال البروفسور وات Watt والبروفسور لويس Lewis والأستاذ دانيال Daniel كما سنلاحظ ذلك فيما بعد.

ومثلما انتقد المستشرق إرنولد Arnold زميله في الاختصاص ريتشارد سيمون Simon بأنه كان إيجابيًا أكثر مما يجب في حديثه عن تاريخ العقيدة الإسلامية، كذلك انتقد عدد من المستشرقين كتابات البروفسور وات عن السيرة النبوية بأنها تجاوزت الحدود في إبرازها الصورة الإيجابية لحياة الرسول (ﷺ). ولم يلق كتاب (حضارة العرب) للمستشرق لوبون هوى لدى بعض المستشرقين بسبب نظرته الإيجابية عمومًا. إلا أن هؤلاء المستشرقين "المعتدلين" وقعوا بين المطرقة والسندان!! مطرقة المستشرقين التقليدين الذين يختلفون في النظرة معهم وسندان الباحثين العرب والمسلمين الذين وجدوا لديهم العديد من الهفوات والتفسيرات غير المقبولة من وجهة نظرهم التي تستلزم الرد عليها وقد فعلوا.

اختلف المستشرقون في تفسيراتهم حول العديد من أحداث التاريخ الإسلامي الوسيط ولعل من الأمثلة على ذلك الخلاف الحاد حول أصول الإسماعيلية ونسب أئمتهم، ففي الوقت الذي يعتقد إيفانوف بأن الأئمة الإسماعيلية فاطميون ولا وجود لنظام الإمام المستودع والإمام المستقر. يؤكد مستشرقون آخرون أنهم من نسب

الداعية ميمون القدّاح، بينما يطرح البروفسور برنارد لويس تفسيره القائل أن الأئمة المستودعين هم من القدّاحين أما المستقرين فهم من الفاطميين. وإذا أردنا أن نضرب مثلاً آخر نلاحظ الخلاف في التفسير التقليدي للدعوة العباسية الذي تبناه ولهاوزن Welhausen وفان فلوتن Van Volten وبروكلمان والذي يؤكد أن الدعوة العباسية قامت على أكتاف الموالي الفرس، والتفسير الجديد الذي أشار إليه جب ولويس ثم دينت والذي لمح إلى إعطاء العرب دورًا أكبر في الدعوة. وقد أخذ بعض الباحثين العرب أمثال عبد الحي شعبان وفاروق عمر فوزي هذه الإشارة المختصرة وأثبتوا صحتها في أطاريح وكتب مفصلة.

والمعروف أن الغالبية من المؤرخين العرب المحدثين من الجيل الأول يميلون إلى الفكرة القائلة بأن سياسة الأمويين تجاه الموالي المتسمة بالشدة والتمييز كانت السبب في سقوط دولتهم. رغم أن البعض منهم يرى أنها رد فعل للعصبية الأعجمية (الشعوبية)، وقد تأثر المؤرخون العرب في تكوين وجهة نظرهم هذه بوجهات نظر المستشرقين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أمثال فان فلوتن ورنان وفون كريمر Renan وولهاوزن وبروكلمان Brockleman وآخرين. ولقد بقيت هذه الفرضية مسيطرة على الكتابات التاريخية الأوربية والعربية الإسلامية مدة طويلة من الزمن حتى بدأ التساؤل والشك يراود أفكار الباحثين في أوروبا والعالم العربي كما أشرنا إلى ذلك. ويعود الفضل في تكوين فرضية جديدة حول الدعوة العباسية إلى أبحاث قام بها بعض المؤرخين العرب في الستينيات من القرن العشرين نذكر منهم الدكتور محمد عبد الحي شعبان والدكتور فاروق عمر فوزي. ويشير أحد الباحثين من "المستشرقين الجدد" قائلاً: "وفي رأي الدكتور فاروق عمر – كما أعرب عنه في كتبه ومقالاته – أنه يجب ألا نركّز عند تحليل ظروف الثورة العباسية وأسبابها على ناحية معينة فقط ونترك النواحي الأخرى بل يجب التعرّض لثورة العباسيين على الدولة الأموية من جميع جوانبها: الاقتصادية والسياسية والدينية وما إلى ذلك. وقد نجح الدكتور عمر في محاولاته تطبيق ذلك المنهج في دراساته عن الثورة العباسية...".

وينتهي الباحث نفسه إلى القول: "وأيًا كانت النتيجة فإن أبحاث الدكتور فاروق عمر وبعض زملائه المؤرخين ممن درسوا الدعوة العباسية في السنوات الأخيرة، قد

ساعدت على رفع مستوى المناقشة العلمية في هذا الموضوع ارتفاعًا ملموسًا، وأعتقد أنّ هذا التقدّم من أعظم المكاسب في مجال كتابة التاريخ للعرب في هذا القرن، وربما عدّ نجاحًا في الجدال المستمر ضد خطر التيارات العقائدية - الحزمية - والجمود في كتابة التاريخ، وذلك يعتبر نجاحًا أيضًا لمقاومة التقليد الأعمى لآراء السابقين من المستشرقين والمؤرخين العرب حيث يعتمد العِلم الصحيح في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة".

ثم جاء الدكتور محمد عابد الجابري بفكرة "الكتلة التاريخية" وهي الجبهة التي تضم عدة فئات مناهضة للحكم الأموي تقودها فكريًا "النخبة المثقفة" يقول الجابري: "ومن كل ما تقدّم نستبين الدور الهام الذي قام به أولئك الرجال الذين تصنفهم كتب الملل والنحل تحت أسماء القدرية والجهمية والمعتزلة في تطوير الفكر السياسي والديني في العصر الأموي. لقد قاوموا أيديولوجيا الجبر وأيديولوجيا التكفير ومثيولوجيا الإمامة والتيارات المانوية والفنوصية. فكانوا بذلك رجال تنوير حقيقيين. وإذا كان لكل ثورة كبرى "انتليجنسيا" خاصة بها أي مفكرون يحملون مشروعها ويبشرون به فإنه يمكن القول بدون تردد أن رجال حركة التنوير هذه هم الممهدون الحقيقيون للثورة العباسية. لقد عملوا على اختراق "القبيلة" باستقطاب الناس إلى فرق وأحزاب وراء أطروحات تناهض أطروحات الجبر والتفكير وتبشر بالشورى والمساواة فنشروا بذلك أيديولوجيا تنويرية عقلانية تؤكد حرية الاختيار والمسؤولية والجزاء.

وكما هو شأن الانتلجنسيا في تاريخ الثورات فلم تكن القيادة السياسية في الثورة العباسية في يد هؤلاء بل كانت لهم القيادة الفكرية. أو على الأقل كانت مساهمتهم فيها واسعة وعميقة".

ولعلنا نخلص إلى القول بعد ذلك كله إلى أن الاستشراق لم يكن واحدًا في طبيعته وأهدافه وأن المستشرقين أنفسهم اختلفوا في وجهات نظرهم، مثلما اختلف الباحثون والمؤرخون العرب والمسلمون حول أحداث التاريخ الإسلامي. وإذا كان بعض الباحثين العرب والمسلمين قد رفضوا الاستشراق كليًا على اعتبار أن تفسيراته ومنطلقاته لا تتغير ولا تتبدل، فإن هناك فئة أخرى من الباحثين عرب ومسلمين وحتى مستشرقين قومت الاستشراق من حيث سلبياته وإيجابياته ولم تحكم عليه بالرفض المطلق باعتباره ظاهرة عدائية تجاه التاريخ والحضارة الإسلامية اللذان

سيظلان حقلاً واسعًا للمزيد من الدراسات الاستشراقية، وعلى هذه الأخيرة تقع مسؤولية تصحيح الصورة عن تاريخنا في الغرب مثلما تصحح وتقوم في الشرق. إن العبء الأكبر دون شك، يقع على عاتق المؤرخين العرب والمسلمين وقد أشار المؤرخ هشام جعيط أن علماء عربًا ومسلمين يضطلعون اليوم بمهمة دراسة تاريخهم وحضارتهم ذاتها، بعضهم معروف وبعضهم الآخر ليس كذلك بحكم أن العالم العربي مؤدلج إلى أقصى حد.

إن هؤلاء المؤرخين يتمتعون بقدرة وفاعلية وعقل منظم يظهر واضحًا فيما ينشرونه من كتب وأبحاث أفقد المستشرق الأوربي ميزة احتكار المعرفة في تاريخ الإسلام وحضارته أو الوصاية عليها. بل إن العديد من هؤلاء المؤرخين العرب والمسلمين دعوا إلى المساهمة في دوائر المعارف والكتب الموسوعة الاستشراقية، وبدأ المستشرقون يشيرون إلى تفاسيرهم ووجهات نظرهم فيما يكتبون من مؤلفات. وفي معرض كلامه عن الموضوع نفسه عدّد هشام جعيط ثلاثة مؤرخين هم عبد العزيز الدوري وصالح أحمد العلي وفاروق عمر فوزي "تعتبر كتاباتهم هي تقريبًا الوحيدة في كل النتاج العربي في ميدان العلوم الإنسانية المعترف بها عالميًا كبحوث جدية مسيطر على مادتها... فلا يمكن التشكيك من جانب الغربيين في أن هؤلاء مؤرخون أصلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب". والواقع أننا نستطيع أن نضيف عددًا أكبر من المؤرخين العرب والمسلمين إلى الأمثلة السابقة يُعد هشام جعيط نفسه من بينهم وللأستاذ جعيط مؤلفات تتسم بالعمق المعرفي والمنهجية التاريخية الرصينة. وهو بما يمتلك من معرفة باللغات الأوربية على إطلاع واسع بالنتاج الاستشراقي وقد عالج موضوع الاستشراق في عدد من كتبه وخاصة كتابة الموسوم "أوروبا والإسلام" 1978م "والكوفة مولد المدينة العربية" 1986م، حيث أبان طابع الاستشراق التقليدي بمعنى تكريسه لمجموعة أفكار من جيل إلى آخر كما لو أن الأمر يتعلق بتقليد متواتر عبر العصور، مما يؤدي بالتالي إلى رؤى إجمالية مصحوبة بأحكام مهزوزة حول الإسلام كدين وتاريخ وحضارة، ويعطي هشام جعيط نموذجًا على ذلك في "مستشرقة" من الرعيل الجديد هي باتريسيا كرون ممثلة للمدرسة الاستشراقية الانكلو - ساكسونيه الجيدة وتخبطها في التشكيك بالمصادر والنصوص وبالتالي آراءها الاعتباطية التي لا تستند على آساس تاريخي مما عرّضها إلى هجوم لاذع من ممثلي الاستشراق "التقليدي" أنفسهم.

إن باتريسيا كرون ومن لف لفها من ممثلي الرعيل الجديد من "المستشرقين" - إذا جاز إطلاق هذا التعبير عليهم - ينتمون إلى ذلك الصنف من الباحثين في الإسلام وتاريخه الذين يفتقرون إلى عنصر أو أكثر من العناصر اللازمة للبحث العلمي فهم إما لا يعرفون اللغة العربية أو اللغات الشرقية معرفة جيدة أو ليسوا معدّين لدراسة التاريخ موضوعًا ومنهجًا، ومن هنا كانت بحوثهم ضعيفة غير مقنعة وتتسم بجهل شبه مطبق لكل خلفية تاريخية.

إلا أننا وفي المقابل نلاحظ أن من تصدّى لنقد الاستشراق من الباحثين العرب المعاصرين على رأسهم أدوارد سعيد غير مستندين على قاعدة معلوماتية رصينة في تاريخ العرب والإسلام. فالأستاذ أدوارد سعيد مختص بالأدب الإنكليزي والنقد الأدبي المقارن إلا أنه يجهل الأعمال التاريخية المنجزة في العالم العربي ومشاهير المؤرخين العرب المعاصرين. فهو يكتب وينتقد بما اكتسبه من قدرات في اختصاصه الدقيق في النقد دون أية إشارة إلى مجهود الباحثين العرب والمسلمين، ومن هنا يبقى مؤلفه على أهميته في حاجة ماسة إلى أسانيد المؤرخ المختص.

وأجد نفسي في نهاية مقدمتي هذه متفقًا مع فكرة الدكتور السامرائي الذي كتب في خاتمة كتابه يقول: "إنّ الاستشراق بتباين ضروب مظاهره ودراساته وأعلامه لم يكن لأجل العلم الصرف، إننا نخطئ أيضًا إذا قررنا هذه النتيجة حكمًا عامًا لأن هذه النتيجة تضم أولئك الذين أثروا الانزواء في صوامع العِلم لأجل العِلم والمعرفة. ومن هنا أرى أن الاستشراق بتياراته المختلفة يجب ألا يدرس كتيار عام أو ظاهرة عدائية، بل أرى أن يدرس المستشرقون على أساس الأفراد..." وهو رأي اتفق معه الدكتور فؤاد سيزكين أيضًا حيث يقول بأن الاستشراق ليس عدوًا للإسلام والعرب بل هناك نفر من المستشرقين قصدوا أن يسيئوا إلى العروبة والإسلام بدوافع من السياسة الاستعمارية.

وبعد... فليس هذا الكتاب دراسة شاملة للاستشراق كحركة كما يحلو للبعض تسميتها أو كمؤسسة كما يدعوها البعض الآخر. وهو ليس استعراض شامل لكل المحاور التي عالجها الاستشراق بل أن اهتمامات المؤلف تتحصر في التاريخ الإسلامي الوسيط... وحتى في مجال الاختصاص الدقيق هذا فإن الكتاب حاول أن يوضح المعالم والاتجاهات الرئيسية ومن يمثلها من المستشرقين مؤشرًا على ذلك ببعض الأمثلة والنماذج. أما التفاصيل فلا تسعها أجزاء عديدة ولابد للمختص أو القارئ المولع أن يراجعها في مضانها المتنوعة. كما ركّزت هذه الدراسة على نتاجات

المستشرقين "التقليديين" أكثر من نتاجات المستشرقين من "الرعيل الجديد" الذين لم يعودوا مهتمين بإطلاق تسمية المستشرقين على أنفسهم لأسباب عديدة.

وأخيرًا وليس آخرًا أتوجه بالشكر إلى جامعة آل البيت ممثلة برئيسها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت الذي كان وما زال حريصًا على البحث العلمي معتبرًا إياه من الركائز الأساسية للعمل في الجامعة، مؤكدًا على الباحثين ضرورة العمل على تكوين رؤية علمية شمولية كل في مجال اختصاصه، وذلك لا يتأتى إلا من خلال القيام بدراسات جزئية يكمّل بعضها البعض في كل ميدان من الميادين، كما يؤكد الأستاذ البخيت على ضرورة الإطلاع على الدراسات الاستشراقية والاستفادة من إيجابياتها والرد على سلبياتها ذلك الرد الذي لا يتأتى إلا من خلال بحوث رصينة في منهجيتها ثرّة في مادتها عميقة في تحليلاتها تتجاوز ما توصلت إليه البحوث الاستشراقية فللأستاذ البخيت التقدير على هذا الاهتمام.

والله من وراء القصد ونسأله الهداية والعون ،،،

المؤلف

المفرق 1998م

المحتويات

(15)

كتاب (الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط)[1]

فلسطين جزء من أرضنا والقدس جزء من عقيدتنا، ارتبطت الأولى (فلسطين) بتاريخنا عبر العصور، وارتبطت الثانية (القدس) بعقيدتنا لأنها محط الإسراء ومنطلق المعراج وأولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، كما ارتبط اسمها بالجهاد في سبيل الله عبر العهود الإسلامية المتتابعة.

إلا أن الصهيونية طردت شعب فلسطين العربي من وطنه، وبعد أن سلبت ما تبقى من هذا الشعب العريق على التراب الفلسطيني حقوقه، اتبعت هذه الحركة خطة ذات بعدين: أولهما الابتلاع التدريجي لما تبقى من الوطن الفلسطيني مستخدمة في سبيل ذلك مختلف الوسائل، وثانيهما إنكار الهوية المميزة والشخصية الواضحة لشعب فلسطين عبر عصور التاريخ، عن طريق محاولة طمس هذه الهوية ما أمكن لها ذلك، أو الادعاء بأن المظاهر التراثية الفلسطينية هي في حقيقتها مظاهر تراثية "إسرائيلية".

إلا أن هذه الادعاءات إن دلّت على شيء فهي تدل على عقم التراث الحضاري اليهودي الذي وصفه المؤرخ الإنكليزي توينبي بـ "المتحجر" والذي لم ير فيه المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون أية أهمية تذكر عبر التاريخ الفلسطيني الطويل. ومعنى ذلك إن الصهيونية التي لم تجد لها شيئًا تقدمه للعالم، سطت على تراث شعب فلسطين العريق وأدعته لنفسها، محاولة في الوقت نفسه، تصفية هذا الشعب جسديًا بدءًا من دير ياسين وقبيه والدوايمه وكفر قاسم مرورًا بمخيمات صبرا وشاتيلا ومذابح برج البراجنة ومخيمات جنوبي لبنان والأرض المحتلة حتى يومنا هذا.

لقد مرّ على الأرض الفلسطينية عبر التاريخ عديد من المحتلين، ولعلّ السبب في هذا يعود إلى الموقع الاستراتيجي الحسّاس لهذا الإقليم، على أن المحصلة المهمة من ذلك كله هو ازدياد تعلق الفلسطينيين بهويتهم وازدياد ارتباطهم بأرضهم كلّما زاد تعنت المحتل، وقد ظلت عراقة الشعب الفلسطيني وأصالة تراثه صفة راسخة عبر التاريخ. ولو أن تمزقًا سياسيًا وحضاريًا وجغرافيًا أصاب شعبًا غير عريق ولا جذور له في عمق التراث لأطيح به منذ زمن بعيد. أما في فلسطين فإن الواقع لم يتغير

مع كل الإجراءات الصهيونية وبقي الشعب متمسكًا بهويته وبتراثه وتاريخه وعقيدته محتلاً مكان القلب من أمته التي تقع في موقع الوسط من العالم ﴿وجعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾.

إنّ هدف هذا الكتاب هو تتبع تاريخ الشخصية الفلسطينية عبر الفترة الزمنية موضوعة البحث وارتباط هذه الشخصية بالشخصية الحضارية الأم للمنطقة العربية الإسلامية. لذلك انحصر الاهتمام على إبراز موقع فلسطين في كل عصر من العصور الإسلامية ودور شعب فلسطين في الأحداث، فقد كان المهم إثبات زيف الدعاية الصهيونية حول فقدان "الشخصية الفلسطينية" عبر التاريخ.

وتبحث فصول الكتاب تاريخ فلسطين قبل الإسلام ثم الفتح العربي الإسلامي لها في القرن الأول الهجري - السابع الميلادي وما تلاه من عصور الخلافة مرورًا بظهور صلاح الدين الأيوبي على الساحة الإسلامية في القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي وانتهاء بالعهد العثماني. وقد وجدنا إن هذه الفترة لم تبحث بشكل متكامل في كتاب واحد، أما البحوث المنشورة فقد تركزت حول القدس - وهو أمر طبيعي - نظرًا لأهمية المدينة ومكانتها الدينية والجهادية.

من أجل هذا، كان لابد من تأليف كتاب "وسيط" يتناول تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط بشكل موجز ولكنه شمولي.

ففي خضم الأحداث والتطورات المتلاحقة خلال النصف الثاني من القرن العشرين نسى الرأي العالم العالمي أو تناسى تاريخ فلسطين القديم والوسيط وما فيه من حقائق تاريخية تدحض مناورات الصهيونية التي ترمي إلى تشويه تاريخ فلسطين بإبعاده عن محتواه الموضوعي الذي يؤكد وجود العرب في فلسطين منذ أزمنة طويلة وأنهم بقوا هناك حتى بعد السيادة الطارئة لليهود التي لم تترك بعدها تراثًا حضاريًا يدل عليها. يقول المؤرخ البريطاني هـ.ج. ويلز: "لم تكن مملكة العبرانيين سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم".

ثم عادت فلسطين بعد حركة الفتوح الإسلامية خالصة للعرب المسلمين من سنة 638م إلى سنة 1948م حين صدر قرار التقسيم في هيئة الأمم المتحدة، باستثناء فترة فرنجية- صليبية طارئة.

ولسوف نلاحظ من خلال فصول هذا الكتاب، أنّ التاريخ يؤكد حق الفلسطيني في وطنه الذي شوّهت بعض الدراسات الأوروبية تاريخه، تلك الدراسات التي تسود كثيرًا منها روح التحامل وعقدة الذنب تجاه اضطهاد اليهود الأوربيين. ولذلك اندفع عدد من الكتّاب الغربيين بدافع العمل لإنكار المقومات الثقافية والحضارية في ماضي هذه الأمة العربية الإسلامية والاستخفاف بتراثها ودورها الحضاري. وهذه ظاهرة فكرية تحتاج في تفسيرها إلى تفهم الأسس النفسية للعلاقات بين الشرق والغرب. وذلك لأن ما يفكر به بعض الغربيين نحو الشرق العربي الإسلامي متأت من تأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوروبي. ولذلك نرى أن أحد المستشرقين يقول: "لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين". ويقول مؤرخ أوروبي آخر: "ظل التعصب المسيحي في (أوروبا] ضد المسلمين حيًا في عقول كثير ممن نبذوا المسيحية نفسها".

ولابد أن نشير هنا إلى ظاهرة واحدة على سبيل المثال لا الحصر تدل على روح التحامل في كتابات بعض المستشرقين الأوربيين، فلقد عمد بعض المستشرقين إلى إظهار الروايات التي تشير إلى سوء معاملة الدولة العربية الإسلامية لغير المسلمين، متناسين عهودًا طويلة عاشت فيها هذه الفئات كقطاع نشط ومزدهر من قطاعات المجتمع العربي الإسلامي. وفي محاولتنا تصحيح هذه الصورة المشوهة التي رسمها هؤلاء المؤرخون لا نريد أن نتطرف فتقع في الخطأ المضاد ونرسم صورة مثالية للمجتمع العربي الإسلامي، ولكننا نقول بأن المجتمع العربي الإسلامي لم يتبع عبر عهوده المختلفة سياسة مقصودة للتميز العنصري أو الديني التي اتبعتها وتتبعها كيانات مختلفة قديمًا وحديثًا. على أن بعض الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي عانت في فترات محدودة من القيود الاجتماعية والسياسية، إلا أن هذه الأزمات كانت حالات شاذة وقصيرة لا تستنبط منها تفاسير تاريخية ثابتة أو قواعد مقررة.

إن الإسلام رفض التمييز الديني أو العنصري. كما وأن تاريخ العرب المسلمين حافل بشواهد التسامح.. فرغم القيود "النظرية" التي تضمنتها مراسم بعض الخلفاء كان اليهود وغيرهم من الذميين يتمتعون من الناحية "العملية" بحقوقهم الدينية والاجتماعية والسياسية ويمتهنون الحرف المختلفة. فكان منهم الأطباء والصيارفة والجهابذة ورؤساء الدواوين وأصحاب الثراء والفلاسفة والكتّاب. ووصل

بعضهم إلى مناصب إدارية وسياسية عالية فارتقوا إلى الوزارة. ونظر ابن خلدون وهو مفكر وفيلسوف عربي مسلم نظرة مرنة ومتسامحة تجاه اليهود في القرن 8هـ/14م لم يعرفها المجتمع الأوروبي الوسيط والحديث الذي عانى اليهود من اضطهاده الشيء الكثير.

تعود فكرة هذا الكتاب إلى عقد الثمانينات من القرن العشرين حين بادرت مؤسسة الاتحاد للنشر في دولة الإمارات العربية المتحدة/ أبو ظبي، بعد مجازر صبرا وشاتيلا ومذابح برج البراجنة وعهدت إليّ مشكورة بتأليف كتاب هدفه تنوير المثقف العام بتاريخ فلسطين ويؤكد هويتها العربية وشخصيتها الإسلامية، فكان الكتاب الموسوم (تاريخ فلسطين السياسي عبر العصور الإسلامية) الذي نشرته المؤسسة نفسها في سنة 1983م. وبعد ذلك بثلاث سنين طلبت جامعة بغداد في العراق تأليف كتاب منهجي لطلبة قسم الدراسات الشرقية (فرغ اللغة العبرية) في تاريخ فلسطين، فكان كتاب (تاريخ فلسطين في العصور الإسلامية الوسطى)، الذي قمت بتأليفه بالاشتراك مع الدكتور محسن محمد حسين الذي حرر الفصل العاشر، فيما قمتُ بكتابة الفصول الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والحادي عشر. أما الفصلان الثامن والتاسع فقد اشتركنا - سوية في كتابتهما، وقد نشر في بغداد 1986م.

أما هذا الكتاب الذي بين أيدينا (الوسيط في تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي الوسيط) فيعدّ إعادة نظر، مع تعديلات وإضافات اقتضتها ظهور مراجع وبحوث جديدة، وفي المعلومات والآراء التي طرحت في كافة فصول الكتابين آنفي الذكر، كما أضفت أربعة ملاحق جديدة لأربعة بحوث من تأليفي ذات علاقة بتاريخ فلسطين كانت قد نشرت في سنوات سابقة. وعلى هذا فإني أعد نفسي مسؤولاً عن مضمون الكتاب جملة وتفصيلاً.

والله من وراء القصد وهو نعم المولى ونعم النصير ،،،

فاروق عمر فوزي

عمان 1998م

المحتويات

كتاب (نشأة الحركات الدينية - السياسية في الإسلام) [1]

تـمـهـيـد

الإسلام والموقف الوسطي المعتدل

كنا ولا نزال نسمع دعاوى ترددها المؤسسات الثقافية ووسائل الإعلام المكتوبة والمرئية والمسموعة في الغرب عن الخطر الإسلامي لما يمثله هذا الإسلام من تطرّف في العقيدة وإرهاب في العمل السياسي وثقافة مناقضة لثقافة الغرب في المجال الفكري. وغني عن القول أن هذه الصورة المشوهة ناتجة عن تراكمات في الوعي الأوروبي منذ حقبة طويلة من الزمن، ولكن استمرارها والعمل على إدامتها في ذاكرة الفرد الأوروبي ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين أمر يدعو إلى التساؤل والاستغراب.

إن الإسلام دين الوسطية والاعتدال والتسامح وقد دعى القرآن الكريم في العديد من آياته إلى المرونة والحكمة في التعامل بين المسلمين أنفسهم وبينهم وبين الآخرين كذلك، نقتطف منها ما يلي: قال الله تعالى:

- ﴿لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله غير الحق﴾ والغلو هو التطرّف والتشدّد).
- ﴿فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون﴾.
- ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.
- ﴿ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.
- ﴿ولا تقولوا لمن ألق إليكم السلام لستَ مؤمنًا تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾.
- ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم غير الحق﴾.

وفي السنّة النبوية الشريفة العديد من الأقوال والأفعال التي تحث على التسامح والاعتدال والرفق وتدعو المسلمين إليه. نشير إلى بعضها:

- عن ابن عباس قال رسول الله (ﷺ): ﴿إياكم والغلو في الدين فقد هلك الذين من قبلكم بالغلّو في الدين﴾.

- وقال رسول الله (ﷺ): (ما دخل الرفق شيئًا إلا زانه وما دخل العنف شيئًا إلا شانه).
- عن أبي هريرة أن النبي (ﷺ) قال: (إن الدين يسر ولن يشادّ الدين أحدًا إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة).

والمشادة هنا بمعنى المغالبة. ومعنى إلا غلبه أي رده إلى اليسر والاعتدال. فسددوا أي إلزموا وهو التوسط في الأعمال.

- وفي قول للرسول (ﷺ) في صحيح البخاري أيضًا: (أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحاء).
- وفي رواية عن أبي ظبيان قال سمعت أسامة بن زيد يقول: (بعثنا رسول الله (ﷺ) إلى الحُرقة، فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي (صلى الله عليه وسل)، فقال: يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت كان متعوذًا، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم).

وقد أدينت فئة من الخوارج لقتلتها عبد الله بن خباب بن الإرت بعد اختلافهم معه في قضية التحكيم. وتشير روايات تاريخية أن هذه الحادثة كانت أحد أسباب سير الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه رئيس الدولة آنذاك إليهم للاقتصاص منهم. بل إن روايات أخرى ترى أن الخوارج أنفسهم لم ترتض هذا الفعل ولم تسمح لهذه الفئة من الخوارج بالبقاء معهم. وسواء كانت حادثة القتل هذه صحيحة أو لا كما يرى بعض المؤرخين المحدثين فهي تدل على رفض التطرف والعنف والإرهاب السياسي من قبل المجتمع والدولة في فترة مبكرة من تاريخ الإسلام.

لقد ظهرت نزعة الغلو (التطرّف) تاريخيًا في المجتمع الإسلامي فيما يُعرف بالسبئية (نسبة إلى عبد الله بن سبأ) الذي تستر بالإسلام لينشر آراء غريبة عن الدين الصحيح. وسواء صح وجود شخصية باسم ابن سبأ أم لم يصح فإن الذي يهمنا تلك الآراء المتطرفة التي بدأت فئة من الناس تنشرها في المجتمع. كما وأن هذه الفئة المتطرفة شاركت في الفتنة ضد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأفسدت الاتفاق على الصلح قبل معركة الجمل بين علي وطلحة والزبير. ويقول الشيخ المفيد عن

الغلاة: "... وهم ضلال كفار حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالكفر والقتل والتحريق بالنار وقضت عليهم الأئمة (عليهم السلام) بالإكفار والخروج عن الإسلام".

وهذا الأمر لا ينطبق على نزعة الغلو التي تسترت وراء التشيع لعلي وآله فقط بل كذلك على بعض فرق الخوارج التي دانت بآراء متطرفة نسخت شريعة الإسلام ودعت إلى دين جديد مثل اليزيدية أتباع يزيد بن أبي أنيسة، والميمونية أتباع ميمون بن عمران. وقد عكس كتّاب الفرق الإسلامية موقف المجتمع منها حيث عدّوا هاتين الفرقتين من الفرق الخارجة عن الإسلام.

وظهرت في العصر الأموي زمر صغيرة اصطلح المؤرخون وكتّاب الفرق على تسميتها بفرق "الغلاة" مثل الكيسانية والبيانية والمغيرية والمنصورية والجناحية وغيرها وهي في مجموعها زمر هجينة طارئة ذات عقائد متطرفة لا تنتظمها قاعدة فكرية محددة تعود في جذورها التاريخية إلى عقائد وأفكار كانت شائعة في الديانات قبل الإسلام مثل الحلول والتناسخ والتجسيد واستمرار النبوة وإنكار الآخرة وإسقاط الفرائض وإحلال الحرمات. إلا أن هذه الزمر كانت محدودة في اتباعها وفي رقعة انتشارها ولم تؤثر عقائديًا على شريحة كبيرة من الناس.

لقد بنى فقهاء الأمة وعلماؤها مواقفهم من بعضهم البعض الآخر داخل المجتمع الإسلامي على النظرة المرنة المتسامحة، فليس هناك خلال القرون الإسلامية الأولى ما يشير إلى الخلاف بين أئمة المذاهب وفقهائها. وكان القضاة في الأمصار يحكمون أحيانًا بخلاف مذهبهم دون حرج أو تردد. فلا حجر على رأي له في النص مستند بل انفتاح على المذاهب من أجل تيسير أمور الناس وتسهيل قضاء معاملتهم وصولاً إلى الحكم المناسب ومن هنا جاء قول أبي حنيفة النعمان بعد نقاشه مع الإمام جعفر الصادق مشيرًا إلى الصادق: "أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس".

ورغم اختلاف الفقهاء والعلماء في آرائهم فلم يخرجوا عن آداب الاختلاف وتتمثل مرونتهم وتسامحهم في قول أبي حنيفة النعمان: "هذا الذي نحن فيه رأي لا نجبر أحدًا عليه.. فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به".

لقد ساعدت هذه المواقف وغيرها على بلورة منهج وسطي غايته الوصول إلى فقه يقصد أواسط الأمور وما اجتمع عليه كبار الفقهاء والأئمة. وكانوا في كل ذلك

بعيدين عن العنف والتشدد ولهذا ذاع صيتهم وانتشرت مذاهبهم دون تطرف عقائدي ولا إلزام لأحد على قبول هذا المذهب أو ذاك كراهية وقسرًا.

أما في مجال الفرق الإسلامية التي نمت وترعرعت داخل "دار الإسلام" وتبلورت في عصر الازدهار الحضاري إلى مذاهب، فيمكننا القول أن الفرق التي اتسمت بالغلو والتطرّف والتفريط في وسائلها سرعان ما اختفت عن المسرح السياسي والفكري على حد سواء، وانتهى حضورها تاريخيًا ولم يكتب البقاء والاستمرار والتأييد إلا للفرق والمذاهب المعتدلة والمتسامحة والجامعة.

ففرقة الشيعة التي تناولناها في الفصل الأول من أوائل الفرق التي ظهرت في المجتمع الإسلامي، وقد تطورت هذه الفرقة بمرور الزمن وانشطرت إلى فرق عديدة بعضها أصيلة في ولائها لعلي بن أبي طالب وآله وبعضها الآخر تستر تحت شعار الولاء لهم. والملاحظ تاريخيًا أن الفرقة التي جذبت غالبية أنصار الإمام علي وذويه من بعده هي الفرقة التي تسمى (بالشيعة الإمامية) والإثني عشر لكونها فرقة وسطية توفيقية جامعة حيادية في المعترك السياسي نجح أئمتها من الفرع الحسيني في تخليص عقيدتها مما حاول الغلاة والباطنية نسبته إليها.

إن عامة الناس تفضل السلم على العنف والفتنة وعلى حد قول أحدهم مبررًا كثرة أتباع الفرق الإمامية الاثني عشيرة: "إن الباقر والصادق دعوا الناس إلى الحياة ونحن دعوناهم إلى الموت".

أما الخوارج الذين تكلّمنا عنهم في الفصل الثاني فقد تفرعوا إلى فرق عديدة، بعضهم متشدد في عقيدته ومتطرف في أساليبه في العمل السياسي وقد فقدت مع الزمن أتباعهم وتأثيرها في المجتمع الإسلامي الذي رفضها ولم يبق منها سوى (الأباضية) التي كتب لها الانتشار في عمان وتونس والجزائر والساحل الشرقي لأفريقيا جنوبي الصحراء لاعتدالها في المبادئ وأساليب العمل السياسي حيث تطورت إلى مذهب فقهي معترف به في المجتمع الإسلامي. والمعروف أن الإباضية انشقت عن "الخوارج" منذ القرن الأول الهجري في العصر الأموي.

ودعت المعتزلة وقد عرضنا لهم في الفصل الرابع إلى حرية الرأي والإرادة والوسطية في العقيدة (المنزلة بين المنزلتين) فانتشرت آراؤها في أواخر العصر الأموي بداية من خلال القدرية التي عارضت جبرية الأمويين ثم شاركت ضمن النخبة المثقفة في تهيئة الأجواء لنجاح الدعوات المناهضة للأمويين ومها الدعوة

العباسية. وقربت الدولة العباسية الجديدة بعض رجالات المعتزلة وأعطت مجالاً لآرائها بالانتشار وتمكنت هذه الفرقة من الوصول إلى السلطة على عهد المأمون العباسي. ولكن المعتزلة ما أن تبوءوا كرسي الحكم حتى عمدوا إلى استخدام العنف والإرهاب في إكراه الناس على قبول مذهبهم. وقد رفض المجتمع الإسلامي هذه السياسية وسماها (المحنة) وقاومها عدد من فقهاء الأمة، حتى نجحوا على عهد الخليفة المتوكل في إسقاط المعتزلة من السلطة لتطرفها عقائديًا واستخدامها الإرهاب في العمل السياسي.

وبعد عدة عقود من فشل المعتزلة في تكوين مذهب وسطي معتدل جامع ظهر مذهب الأشعري السني (ت324هـ/944م) ذلك المذهب الوسطي الذي تجاوز التناقضات بين مناهج النقليين والعقليين والصوفية. وسار على منهاجه في توضيح العقيدة الوسطية الصحيحة مجموعة من أتباعه أمثال أبي بكر الباقلاني (ت403هـ/1013م) وإمام الحرمين الجويني (ت478هـ/1085م) وغيرهما من العلماء الذين آمنوا بالمنهج التوفيقي الجامع.

وتساقطت دعاوى الشعوبية العنصرية المتطرفة - التي تناولناها في الفصل السابع - والتي حاولت نشر الأدب الماجن والمبتذل، والتشكيك بدور العرب الحضاري وإحلال نظم قديمة محل النظم الإسلامية الجديدة. ورد مفكرو العصر على دعاواها ومزاعم حليفتها (الزندقة) التي لم تكن سوى الديانة المانوية بثوب جديد، فذكر الجاحظ إن كتاباتهم: "لا تفيد علمًا ولا حكمة وليس فيها مثلاً سائرًا ولا خبرًا ظريفًا ولا صفة أدب ولا حكمة غريبة ولا فلسفة ولا مسألة كلامية".

وغمر الجاحظ بما كتبه من سعة أفق وقوة عارضة ما كانت تصدره هذه النزعات والمدارس الفكرية من سقط المتاع في الأدب، وصمد هؤلاء عقد أو عقدين إلا أنهم اضطروا في النهاية إلى الاعتراف بانتصار النزعة الإسلامية التوفيقية السمحة. لقد عبّر علماء المسلمين ومفكريهم أصدق تعبير عن النظرة الإنسانية والموقف المرن للثقافة الإسلامية وذلك من خلال الأخذ والعطاء والهضم والتمثيل ما عند الثقافات التي دخلت شعوبها الإسلام.

بل أكثر من ذلك فقد تقدّم علماء المسلمين إلى منتصف الطريق لملاقاة ممثلي الثقافات الأعجمية ودعوا إلى موقف وسطي متسامح وادخلوا قسمًا من أدبيات الأعاجم ومثلهم المقبولة والتي لا تتعارض مع تعاليم الإسلام ضمن التراث العربي-

الإسلامي، كما نلاحظ ذلك في كتابات ابن قتيبة والجاحظ وأبي حيان التوحيدي. وأدخل الغزالي العديد من القصص الساسانية ذات المغزى الأخلاقي في كتابه (نصيحة الملوك). وهو موقف يدل على أن المجتمع الإسلامي ليس لديه "عقدة" تجاه الثقافة الأجنبية وإنه يدعو إلى التمازج والتفاعل ويرفض التطرف والتشدد والعنف. وقد دعى ابن قتيبة، وهو أعجمي، إلى الامتزاج بين العرب والعجم في المجتمع الإسلامي الواحد وحذّر أبناء جلدته من العجم من دعاوى الفرقة والاستعلاء فقال: "فلا يمنعني نسبي من العجم أن أدفعها عما تدعّيه لها جهلتها وأثني أعنتها عما تقدّم إليها سفلتها... وأرجو ألا يطلّع ذوو العقول وأهل النظر مني على إيثار هوى ولا تعمد لتمويه".

ولعل ذروة ما وصلت إليه الثقافة العربية- الإسلامية في نزعتها المرنة غير الاستعلائية هي ترويجها الفكرة القائلة بأن النسب لا يقوم على آساس الدم بل أساسه اللغة (اللسان) والثقافة والفكر وقد تبنى هذه الفكرة علماء الأمة من عرب وغير عرب في العصر العباسي ودعوا إليها، فالثقافة العربية الإسلامية هي القاعدة المشتركة لكل شعوب المجتمع الإسلامي.

ويأتي التأكيد هنا على اللغة العربية ليس من منطلق عنصري واستعلائي متطرف، بل لأن الشريعة نزلت بلسان عربي مبين وفسرت بالعربية فلا يفهمها حق الفهم إلا مَنْ فهم العربية حق الفهم. وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية لقد صار المؤمنون الجدد عربًا لا باعتبار العنصر بل لأن العربية أضحت عقلاً ودينًا وخلقًا، فهي عقل لأنها طريقة في التفكير وهوية ثقافية، وهي دين لأنها وسيلة لفهم الإسلام، وهي خلق لأنها تحتوي على مجموعة قيم ومبادئ. وقد شرح ابن تيمية ذلك بقوله: "إن الله لما أنزل الكتاب والحكمة باللسان العربي، وجعل رسوله مبلّغًا عنه الكتاب والحكمة بلسان عربي، وجعل السابقين إلى هذا الدين متكلمين به، ولم يكن سبيل ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان وصارت معرفته من الدين".

وفي المعنى نفسه يقول ابن خلدون: "علم اللسان العربي أركانه أربعة هي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة. إذ مأخذ الشريعة كلها من الكتاب والسنّة وهي بلغة العرب...".

لم يكن موقف الثقافة العربية - الإسلامية مرنًا ومتسامحًا وتوفيقيًا تجاه الثقافات الأعجمية داخل المجتمع الإسلامي فحسب بل إن علماء ومفكري المسلمين

كان لهم الموقف المرن والمتوازن نفسه تجاه مظاهر العلوم والثقافة الأجنبية خارج المجتمع الإسلامي والتي سميت (علوم الأوائل) أو العلوم العقلية. وإذا أخذنا بعض الأمثلة التي تؤكد الانفتاح العلمي وعدم التزمّت اللذيْن كان مصدرهما التسامح الإسلامي وقبول مبدأ الأخذ والعطاء والتبادل الفكري بين الشعوب فإننا نقتطف جزءًا من ما قاله ابن رشد الأندلسي عن علوم الأوائل (علوم اليونان العقلية): "ثم ننظر في الذي قالوه وما أثبتوه، فما كان موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم".

وهذا ما أشار إليه الكندي حيث قال: "... وينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى. وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق".

ويؤكد الغزالي الموقف نفسه فيقول: "الكلام المعقول في نفسه المؤيد بالبرهان ينبغي أن يقبل ولا يهجر بدعوى أنه صادر من المخالف....

وفي مناسبة أخرى يوضح الغزالي النزعة الإسلامية المرنة المؤيدة للاستمداد الفكري أيًا كان مصدره فيقول: "إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العِلم حتى يساوي أعلمهم من أهل ذلك العِلم. ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فليطّلع على ما لم يطّلع عليه صاحب العِلم، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعّيه من فساد حقًا".

إن هذا المنهج التوفيقي الجامع بين الأصيل الإسلامي والدخيل اليوناني والثقافة المرتبطة بالوحي والثقافة المرتبطة بالنظر العقلي. أصبح المنهج الذي يشكّل الرابطة المشتركة للأمة تلك الرابطة التي تجاوزت الاعتبارات الإقليمية والعنصرية وحفظت للأمة وحدتها الاعتبارية رغم التجزئة السياسية التي كانت تعاني منها.

أما الدولة الإسلامية فإن النزعة الوسطية المعتدلة واضحة في دستورها القرآن وفي أقوال وأفعال الرسول (ﷺ)، وفي مجابهة الإمام علي بن أبي طالب والخلفاء الأمويين لحركات الغلو. و بعد تأسيس الخلافة العباسية هاجم أبو العباس في أول خطبة له الغلو والتطرّف في العقيدة، وحين نضجت الدولة وتبلورت مؤسساتها في مطالع العصر العباسي دعا الخليفة أبو جعفر المنصور الإمام مالك بن أنس لكتابة تشريع موحد للمجتمع الإسلامي يسير عليه الفقهاء والقضاة قائلاً له: "واقصد إلى

أواسط الأمور وما اجتمع عليه الأئمة والصحابة لتحمل الناس إنشاء الله على علمك".

وواضح أن المنصور كان يقترح كتابًا جامعًا وتشريعًا موحدًا يستند على الوسطية التوفيقية. وكانت الدولة في موقفها فوق المذاهب والنزعات والفرق ولم تؤيد مذهبًا على آخر، وكانت علاقة الخليفة بالفقهاء من ممثلي المذاهب المختلفة ودية، كما شجعت ظهور مذهب يتبنى المنهج الوسطي الجامع. وحين استفحل خطر الباطنية شاركت الدولة في إنشاء مؤسسات تعليمية علمية ومدارس جامعة اختارت للتدريس فيها علماء آمنوا بالمنهج التوفيقي المرن الجامع الذي يضم العلوم العربية-الإسلامية والعلوم العقلية فكانوا ردءًا واقيًا للمجتمع ضد دعاوى التجزئة والتضليل في المجتمع الإسلامي، وبذلك يصدق عليهم قول الرسول ﷺ: (يحمل هذا العِلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين).

إن الإسلام لم يدْعُ إلى التطرّف في العقيدة أو الإرهاب في العمل السياسي أو التقوقع والتشدد في التعامل مع الثقافات الأخرى، بل كان مرنًا وتوفيقيًا في مواقفه يدعو إلى الأخذ والعطاء ويتقدّم إلى منتصف الطريق منتظرًا الفريق المقابل ليفعل الشيء نفسه.

ولم تكن حركات الغلاة - التي عالجنها في الفصل الثالث - بدءًا بالمغيرية وانتهاء بالحشيشية إلا حركات طارئة رفضها المجتمع الإسلامي فكانت كالزبد الذي يذهب جفاءً، أما المذاهب التوفيقية الوسطية المرنة التي استقت من الإسلام الصحيح وانتفعت بها فئات المجتمع فقد كُتب لها الديمومة والاستمرار. لقد أدرك المؤرخون الأوائل أن العناصر التي انضمت إلى حركات الغلو والباطنية لم تكن عناصر مسلمة أصلاً فهي إما خرمية (أي مزدكية جديدة) أو زندقة (أي مانوية جديدة) تسترّت بالإسلام للوصول إلى هدفها. "فرأوا كيده (الإسلام) على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام...".

إن الإسلام ليس عدوًا متربصًا لأحد، وعلى الجانب الآخر أيًا كان أن يتخلص من قناعاته القديمة وأن يبدأ علاقة جديدة مبنية على التفهم الصحيح للإسلام وأهله.

وختامًا... أرجو أن تكون هذه الدراسة قد أجابت على بعض الأسئلة وحلّت بعض الإشكالات حول المفاهيم المتداولة عن الفرق والحركات الإسلامية في القرون

الأولى، وآمل أن تكون حافزًا لدراسات أخرى، وأعتذر للناظر في هذا الكتاب من خلل يراه وأنتظر منه أن يسدد خَلَلَه ويصلح زلله فقلما يخلو إنسان من نسيان، وقديمًا قال يا قوت الحموي الرومي: "المتصفح لكتاب أبصر بمواضع الخلل فيه من مبتدئ تأليفه".

المحتويات

(17)

كتاب (الجيش والسياسة في العصر الأموي ومطلع العصر العباسي)[1]

مقدمة

في صدر الإسلام وردحًا من العصر الأموي كانت الأمة الإسلامية كلها مقاتلة حين يدعو داعي الجهاد أو يهدد الدولة خطر من الخارج أو فتنة داخلية.

وكان كل قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية، ومن هنا كان أول ديوان هو (ديوان الجند). والمعروف تاريخيًا أن المسلمين لم يؤذن لهم بالقتال إلى بعد الهجرة إلى المدينة المنورة حيث نزلت الآية (أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير). ثم تتابع نزول الآيات التي تحث المسلمين على قتال الأعداء. فالحق يجب أن تسنده قوة قادرة ومخلصة.

ولعل مشروعية القتال في الإسلام يمكن أن تلخص بنقطتين: أولها الدفاع عن الدعوة الإسلامية وتأمين نشرها، وثانيها الدفاع عن دار الإسلام ضد الاعتداء الخارجي أو الفتنة الداخلية. ولم يهدف الإسلام من تشريع الجهاد الاعتداء أو الحرب في معارك لا هدف لها، بل العمل دومًا على تحقيق أهداف الحرب بأقل ما يمكن من القتال (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم).

ويُعد فتح مكة درسًا لاستراتيجية الرسول محمد (ﷺ) فقد كانت كل الظروف مهيأة له لتحقيق نصر عسكري ساحق على قريش وحلفائها إلا أنه عزم على فتح مكة دون قتال لأنه كان يدرك وهو يحارب وجوب تهيئة الظروف المناسبة لقيام سلم حقيقي ومستقر بعد انتهاء الحرب، ولم يكن يرغب في استخدام أساليب القهر والتسلّط الغاشم سواء أثناء الحرب أو بعدها مما يؤدي أن يكون السلم مشوهًا وهشًا لاحتوائه على جراثيم حرب تالية. ومن هنا كان دخول القوات الإسلامية إلى مكة سلميًا، وأعطى الرسول (ﷺ) الأمان لقريش رغم ما فعلته بالمسلمين فقال لهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء". ويكون الرسول (ﷺ) قد ثبّت مبدءًا مهمًا من مبادئ الحرب وهو لا ويل للمغلوب لأن المنطق الحكيم يدعو إلى أن الحرب يجب أن تهيئ الظروف لسلم أفضل.

وفي عصر الراشدين ظلت الأمة العربية الإسلامية تسير على مبدأ "الأمة المقاتلة" وسجّل الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) المقاتلة في (الديوان) الذي احتفظ بسجل للمقاتلة المسلمين الذين يستحقون العطاء من الدولة. ومن نافلة القول بأن سجلات العطاء كانت تتغير من حين لآخر ويضاف إليها أو يسقط منها عدد من المقاتلة تبعًا لاعتبارات معينة. وبسبب تغير الظروف في العصر الأموي كانت الدولة تفرض لأناس في العطاء عند حاجتها إلى مقاتلة جدد لقمع فتنة أو القيام ضد العدو، أو لكسب ولاء بعض القبائل للدولة، وقد أعاد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان تنظيم العشائر وجعلها بصورة عامة وحدات مكونة من ألف مقاتل مع عيالاتهم. وكان لكل عشيرة عريف يُعد مسؤولاً أمام الوالي عن حفظ الأمن والنظام وتسجيل أسماء أفراد العشيرة ومواليها ومقدار أعطياتهم وضمان توزيعها في موعدها.

لقد أصبح واضحًا أن أساس النظام الإداري والمالي والعسكري في الأمصار يرتكز على العشيرة. فكانت العشيرة تشكّل وحدة عسكرية، وكان أفرادها يقاتلون معًا أثناء المعركة، ومما لا شك فيه أن العرب (مادة الإسلام) كانوا العنصر الأساسي والغالب في تكوين وحدات الجند في صدر الإسلام. ولما كان مبدأ "الأمة المقاتلة" هو السائد فإن انضمامهم إلى (الديوان) كان طبيعيًا وطوعيًا وعن رغبة في الجهاد، رغم أن الدولة، وخاصة في العصر الأموي، اضطرت أحيانًا اتخاذ إجراءات شديدة لإلزام المقاتلة المتثاقلين عن الخروج للقتال. وكانت الدولة الإسلامية تأمر قادة الفتوح بأن يستنفروا كل من يمروا به من القبائل من (أهل القوة والنجدة)، وعدم التهاون مع أية بادرة تدل على التقاعس في الانخراط في الحركات العسكرية خاصة مع الغالبية من العرب المسجلين في ديوان العطاء.

لقد كان لتباطئ أو تثاقل فئات من المقاتلة عن "البعوث" أسباب عديدة منها: الاستقرار في الأمصار الجديدة، والاختلاط مع فئات غير عربية والعمل معها في التجارة والحرف. وكذلك اعتزال الاضطرابات السياسية والثورات الداخلية ولزوم الحياد تجاهها.

ومع تأكيدنا بأن القوة الضاربة والرئيسية خلال القرن الأول الهجري وردحًا من القرن الثاني للهجرة/ السابع والثامن الميلاديين كانت تتكون من المقاتلة العرب، فقد كان هناك مقاتلة مسلمين (الموالي) من فرس وبربر وفراغنة وبخارية وسمرقندية

وغيرهم من الترك. وكان عدد الموالي في ازدياد خلال فترة صدر الإسلام والعصر الأموي. وإذا كان مبدأ (الأمة المقاتلة) قد أثبت فاعلية في القرن الأول وردحًا من القرن الثاني الهجريين، إلا أن عوامل عديدة - أشرنا إليها في الفصل الأول - أدت إلى ضعف روح الآصرة العسكرية خاصة تجاه الثورات والفتن الداخلية حيث تقرر موقف المقاتلة عوامل قبلية وإقليمية وسياسية ومصلحية أو غيرها. لقد نجح خلفاء وولاة بني أمية الأقوياء أن يربطوا مصلحة القبائل المقاتلة وخاصة في بلاد الشام بمصلحة الدولة، ولكن في الأقاليم البعيدة فإن نجاح الدولة كان يعتمد إلى حد كبير على خلق وضع يكون مفيدً لنسبة كبيرة من القبائل المقاتلة لكي يضمنوا مساعدتهم للدولة. وقد تعددت محاولات إصلاح النظام العسكري الأموي. إلا أن الضعف الأساسي كان يتمثل بعدم رغبة الدولة الأموية في تأسيس جيش "نظامي" دائم ومحترف مرتبط بالدولة وموال لها، وهكذا بقيت أهواء وأمزجة وميول شيوخ القبائل تتحكم بمصير الدولة.

إن الأزمة التي حدثت في خراسان في أواخر العصر الأموي كشفت عن نقاط الضعف هذه بوضوح، ورغم قابليات الخليفة الأموي مروان بن محمد لن يستطع إنقاذ الموقف فكان الضحية وبخسارته في (معركة الزاب) سقطت الدولة الأموية.

لقد كان الجيش العباسي أول جيش "نظامي" محترف في تاريخ الدولة العربية الإسلامية، وقد حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على الحفاظ على صبغة الجيش العربية، فكانت أهم فرقة فيه هي فرقة "أهل خراسان" وهؤلاء هم بالدرجة الأولى عرب خُراسان الذين نصروا الدولة العباسية ودحروا الأمويين وحققوا النصر عليهم في (معركة الزاب).

وقد بقيت القوة الضاربة في الفرقة الخراسانية قوة عربية، وكان اعتماد العباسيين عليهما في إخماد الحركات وقمع الاضطرابات. كما نظم العباسيون عدة فرق أخرى على أسس قبلية، متّبعين النظام الأموي السابق، فكانت لديهم اليمانية والربعية والمضرية وكذلك الموالي.

وبقيت التنظيمات العسكرية على هذا النمط حتى أدخل المعتصم "الجند الأتراك" بنسبة كبيرة فاقت ما سمح به الخلفاء الذين سبقوه، وبمرور الزمن استأثر هؤلاء بالسلطة وبرز منهم قادة تحكموا في أمور الدولة.

على أن الأساس الذي بني عليه الجيش العباسي بقي كما هو مهما تبدلت عناصر الجيش أو تنوعت كتله. وهذا الأساس هو "الارتزاق". فكان المرتزقة هم الجند النظاميون، وقصد بالمرتزقة المقاتلة المحترفين الذين اتخذوا الجندية مهنة، فكانت أسماؤهم تسجل في الديوان ويتسلمون العطاء بانتظام من الدولة.

ولا شك فإن غالبيتهم - في العصر العباسي الثاني - من الترك، ولكنهم كانوا يتميزون عن بعضهم البعض بأسماء ونعوت، إما نسبة إلى أقاليمهم مثل المغاربة والفراغنة والأشروسنية، أو نسبة إلى صفاتهم البشرية كالسودان والبيضان، أو مراكزهم ومراتبهم كالغلمان والشاكرية، أو نسبة إلى قادتهم من الضباط الأتراك كالساجية نسبة إلى أبي الساج، والمؤنسية وقائدها مؤنس الخادم، واليلبقية نسبة إلى يلبق، والهارونية نسبة إلى هارون بن غريب الخال، والنازوكية نسبة إلى نازوك.

ولعلّ فرق "الغلمان" أحسن حظًا من الجند الأتراك، لأن الغلمان كانوا يختصون بأمير أو خليفة وهم معيّته وملكه، وينفق عليهم من أمواله، وكانت لهم تسميات خاصة: الغلمان الأصاغر والغلمان الحجرية والرجالة المصافية والركابية وغيرهم. أما الجند الترك فالمفروض أنهم في خدمة الدولة، ورواتبهم من بيت المال رغم أن تسمياتهم ربما تنسب إلى أحد القادة كالساجية أو الهارونية مثلاً.

ولعلنا نعطي مثلاً لفرق ذات أثر في مجريات الأحوال السياسية، فالساجية نسبة إلى يوسف بن أبي الساج، الذي أظهر والده براعة في حروب المعتصم ضد بابك الخرمي. ويمثل يوسف تمثيلاً أمينًا أخلاقية القادة العسكريين في تلك الفترة، فقد كان طموحًا انتهازيًا تواقًا للسلطة محبًا للتمرد والعصيان، لا يستخدم فرقته إلا إذا اقتضت مصالحه الشخصية ذلك.

وقد أعلن يوسف وجنده من الساجية العصيان سنة 295هـ، ثم 303هـ. وفي كل مرة يرضى عنه الخليفة؛ حتى قلده سنة 314هـ نواحي المشرق، وأمره بالمسير إلى واسط ليستعد لحرب أبي طاهر القرمطي حيث قتل في هذه الحرب، وقد انتقلت الساجية بعد مقتل يوسف إلى القائد مؤنس المظفر وخادمه يلبق.

ويبدو أن دور الساجية كان كبيرًا خلال هذه الفترة، فقد اعتمد عليهم المقتدر في صراعه مع القائد مؤنس وقواد آخرين، ولعبوا دورًا مهمًا في خلع الخليفة القاهر وتولية الراضي، فقد حاصروا قصر الخليفة وخلعوه ثم جلبوا الراضي وبايعوه بالخلافة، وكان صاحب الشرطة يخاف شرهم ويتجنّب الاصطدام بهم.

وقد قبض الساجية على الوزير ابن مقلة ونهبوا داره وأضرموا فيها النيران، ولم ينته نفوذ الساجية إلا بعد أن تولى ابن رائق إمرة الأمراء، فقد جبس قوادهم ثم أمر بقتلهم في واسط، أما البقية الباقية ممن استطاع أن يهرب؛ فقد هرب إلى بلاد الشام أو إلى الحمدانيين في الموصل.

أما الغلمان الحجرية فسموا بهذا الاسم بسبب سكناهم في حجرات خاصة في قصر الخليفة المعتضد العباسي، وكان واجبهم خدمة الخليفة وحمايته والركوب معه أثناء المراسيم.

ومهما يكن من أمر فإن واجبات الحجرية تعدت واجبات الحرس الخاص. فقد أنيطت بهم واجبات عديدة وشاركوا في قمع حركات واضطرابات، فقد قمعوا الشغب الذي أحدثه العامة سنة 307هـ. حيث أحرقوا الجسور وفتحوا السجون وهاجموا دار صاحب الشرطة؛ فأرسل المقتدر الحجرية لإعادة الاستقرار. كما وأنهم ساعدوا الخليفة المقتدر أثناء فتنة ابن المعتز. ووقفوا إلى جانبه أثناء نزاعه مع مؤنس الخادم. وشاركوا في عزل القاهر عن الخلافة.

وقد تمرّد الحجرية سنة 322هـ، حين قتل أحد قادتهم، ولم يهدأوا إلا بعد أن اعتذر الخليفة الراضي لهم.

وكان لهم نفوذ في إدارة الدولة، حيث تولي اثنان من قوادهم الجانب الشرقي من بغداد، ولكن هذا النفوذ لم يدم طويلاً، فحين تسلّم ابن رائق إمرة الأمراء أرسل نائبه إلى بغداد سنة 324هـ، مزودًا إياه بتعليمات تقضي بعزل تتج الحجري وأخيه؛ والأمر بإسقاط الحجرية من الخدمة، ولكنهم لم يذعنوا بل تمردوا فهزمهم وأسر بعضهم وأحرق دورهم.

وقد استمر أمير الأمراء ابن رائق في مطاردتهم والضغط عليهم حتى قرروا الخروج إلى البصرة واللحاق بابن البريدي، وقد كتب ابن رائق لابن البريدي بعدم قبولهم. ولكن هذا الأخير تعذر بوجود صلة قربى بين أصحابه والحجرية، وأنه إن أبعدهم أغضب الجميع. ومما لا شك فيه فإن وجود الحجرية في معية ابن البريدي قد زاد من قوته وصموده أمام طلبات ابن رائق والخليفة، حيث بدأ يحتج بأنهم يمنعونه من إرسال المال للخزينة المركزية.

من هذا كله نلاحظ المدى المتدهور الذي وصلت إليه أمور الخلافة بسبب تدخل الجيش في السياسة وانشغاله بالأمور الإدارية والإقطاعات بعيدًا عن واجباته، ولقد كان سببًا من أسباب التدهور في سلطة الدولة وترك آثاره السلبية على المجتمع.

يضم الكتاب الذي بين أيدينا تمهيدًا وثلاثة فصول وخاتمة. أما التمهيد فيتطرق إلى المصادر التي تبحث في التاريخ العسكري العربي الإسلامي منذ بدء الإسلام حتى نهاية الفترة الإسلامية الوسيطة، ويوضح مدى اهتمام المسلمين بتوثيق تراثهم العسكري في كتب كرّست اهتمامها بالتاريخ والنظم والآلات الحربية، وكتب أخرى تاريخية وأدبية وفقهية ولغوية حوت معلومات مهمة عن العسكرية الإسلامية.

وعالج الفصل الأول الجيش والسياسة في العصر الأموي مبتدئًا بالموارد البشرية للجند الأموي، ثم دور الجند في وصول الأمويين إلى السلطة وبعد ذلك ما لعبوه من تأثير على سياسة الدولة العامة.

أما الفصل الثاني فيتناول الجيش والسياسة في العصر العباسي الأول حتى 247هـ/861م والتغيرات التي طرأت على عناصره وتنظيمه، ثم مدى تأثيره على سياسة الدولة العباسية في هذه الفترة التي اتسمت فيها مؤسسة الخلافة بالقوة والازدهار.

وتتبع الفصل الثالث أوضاع الجيش في العصر الذي برز فيه الجند الترك على المسرح العسكري/ السياسي في الدولة العباسية، ودورهم في الاستحواذ على النفوذ ومواطن القوة والوقوف ضد محاولات الخلفاء والوزراء لإصلاح الجيش ومنعه من التدخل في الأمور السياسية والإدارية وما جرّ هذا الوضع من تأثير سلبي على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

أما الخاتمة فبعد أن استعرضت المبادئ التي سارت عليها الدولة الإسلامية في تنظيم الجيش، تطرقت إلى محاولات السلطة بطريقة أو أخرى لاستخدام الجيش أداء في تغيير مجرى الأحداث وفي الصراع على الحكم، وما جرّ ذلك من محاولات لإعادة تنظيم الجيش تبعًا لمصلحة السلطة وأهدافها.

وهكذا فإن الجيش الذي كان عاملاً هامًا في دعم الدولة العربية الإسلامية وتحقيق أهدافها في الفتوح والاستقرار والأمان غدا عاملاً بارزًا في ضعف الدولة وتدهورها وبالتالي سقوطها سنة 656هـ/1258م.

كما ضم الكتاب عدداً من الملاحق عن الرايات والأولوية وشعارات الحرب، وكذلك عن الاستخبارات العسكرية في الدولة الإسلامية. وأخيراً وليس آخراً ضمت قائمة المصادر عدداً من المصادر الأصلية ذات العلاقة بموضوع البحث وكذلك مراجع وبحوث حديثة باللغة العربية واللغات الأجنبية.

المحتويات

كتاب (تاريخ النظم الإسلامية) [1]

مقدمة

إن دراسة تاريخ النظم الإسلامية، كما أشرنا في الطبعة الأولى من الكتاب سنة 1983م، يفترض أن تؤكد وحدة وترابط المجتمع الإسلامي عبر عصوره المتتابعة ومن خلال مؤسساته السياسية والإدارية والقضائية والمالية والعسكرية وغيرها، كما وأن دراسة النظم لابد لها أن تبرز "أصالتها" بمعنى قدرتها على النمو والتطور والتفاعل والأخذ بالعطاء ثم الإبداع، وأكثر من ذلك ارتباطها بالقيم والمثل العربية-الإسلامية، وتأكيد صفتها الإنسانية التي استفادت وأفادت شعوباً أخرى خارج نطاق المجتمع الإسلامي.

إن أصالة النظم لا تكمن فقط في أخذها وعطائها وتمازجها مع نظم أخرى سبقتها أو عاصرتها وفي إبداعها نظماً جديدة وتطورها إلى الأمام في مجالات مختلفة من الحياة ظهرت بشكل أفكار ومثل وقيم طرحها مفكرون وإداريون وساسة وعلماء عبر العصور الإسلامية، بل في تطبيق هذه الأفكار ووضعها موضع التنفيذ بحيث ساهمت في بناء المجتمع ودفعت به خطوات إلى الأمام. ومن أجل ذلك أشار توبيني في كتابه (دراسة في التاريخ) إلى الحضارة الإسلامية بأنها حضارة فاعلة حيّة قبلت التحدي واستجابت له استجابة إيجابية. ونعت ادم متز الحضارة الإسلامية في كتابه (النهضة في الإسلام) بأنها حضارة مثلت عصر ازدهار حقيقي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وسمى المستشرقون العصر العباسي الأول (العصر الذهبي) في تاريخ الخلافة الإسلامية.

ومن المعروف أن النظم مثلها مثل مظاهر الحضارة الأخرى يتعذر بحثها بطريقة تجزيئية كأن تدرس مثلاً الإدارة العباسية بمعزل عن الإدارة في الفترة الأموية، ذلك لأن النظام يعد سلسلة مترابطة تكمل بعضها بعضاً لابد من دراستها بشكل متكامل إذا أردنا فهمها واستيعابها وتفسيرها، مع الأخذ بنظر الاعتبار (حركة التاريخ) أو ما تسمى بالاستمرارية التاريخية التي تظهر أثر السابق في اللاحق. وعلى سبيل المثال لا الحصر بدأ تمركز السلطة بيد الخليفة منذ عهد عبد الملك بن مروان

الأموي وتبلور في عهود خلفاء في العصر العباسي الأول. وبدأ الاتجاه نحو النظم الساسانية منذ عهد هشام بن عبد الملك الأموي واتضح أكثر في العصر العباسي الأول، وبدأت بوادر تشكيلات الجيش "النظامي" المحترف منذ عهد مروان بن محمد الأموي وأعطاها العباسيون الأوائل زخماً أكبر وهكذا...

ولابد من الإشارة بأن هذا الكتاب عالج النظم المركزية في عاصمة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة ثم دمشق ثم بغداد وسامراء وتتبع تطورها التاريخي وما استجد فيها من مظاهر ومفاهيم، ولم يتطرق إلى نظم الأقاليم التي كانت في بعض مجالاتها نسخة مبسطة من النظم المركزية. كما لم يعالج نظم الإمارات في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه. يقول مونتكمري وات في كتابه (الفكر السياسي الإسلامي) أن المسلمين يعبرون عادة عن النظرية السياسية في شكل تاريخ، فالعرض التاريخي لمسألة الخلافة مثلاً يحمل في طياته موقفاً من النظرية السياسية لمؤسسة الخلافة، ولعل هذا القول ينطبق على النظم الإسلامية كافة وليس فقط على نظام الخلافة. فالباحث يجد في كتب التاريخ العامة معلومات متناثرة عن التطور التاريخي العملي لهذه النظم، أما ما كتبه الماوردي وغيره من كتّاب السياسة الشرعية والعلماء والفلاسفة فهو يهتم بالنظرية والشروط والتبرير أكثر من التطور العملي.

ونظراً لتشعب موضوع تاريخ النظم الإسلامية وتطوره عبر العصور المتعاقبة، فقد حاول المؤلف أن يراعي الشمولية التي تغطي الحقائق الأساسية التي يتوقع القارئ وجودها، كما وأن اختلاف وتعدد آراء وتفسيرات الباحثين المحدثين من عرب ومسلمين ومستشرقين يتطلب من كل مؤلف الحيطة العلمية والحذر والتقصي والدقة عند الاستعانة بالمصادر أو النظر في المراجع الحديثة التي ألفت حول الموضوع، فهناك من نظر إليها من خلال روايات المصادر التاريخية وهناك من نظر إليها من خلال مصادر الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية والفقه، وهناك من تناولها من خلال مصادر الفلسفة الإسلامية، وهناك من تأثر ببعض آراء المستشرقين الذين نسبوا بعض النظم إلى مؤسسات ساسانية وبيزنطية ويونانية ولم يراعوا الظروف الداخلية في تطورها.

وأخيراً فالكتاب منهجي اهتم باختيار المتن، وخاطب شريحة الأكاديميين والطلبة الجامعيين، وربما جذب موضوعة القرّاء العاديين المولعين بالتاريخ الإسلامي، ومن

هنا فقد راعى المؤلف أن تكون اللغة واضحة سهلة خالية من التعقيد. وقد ضم الكتاب ستة فصول غطت مجمل النظم والمؤسسات المركزية في العاصمة، وشملت السياسية والإدارية والقضائية والمالية والعسكرية، وجاءت الطبعة الجديدة الثانية مزيدة ومنقحة بعد مرور مدة من الزمن على الطبعة الأولى خاصة بعد أن ظهرت مصادر وأبحاث جديدة حول الموضوع.

تناول التمهيد مسألة تأثر النظم الإسلامية بتناوب السلطة الحاكمة في الدولة العربية الإسلامية، ومدى أثر الأسر الحاكمة على استمرارية النظم وتبدلها المفاجئ. وهل أن هذا التبدل أو التطور في النظم حدث بتأثير السلطة الجديدة، أم بتأثير حركة التاريخ المستمرة؟ أم بتأثير الاثنين معاً. وهو موضوع طالما شغل الباحثين المحدثين وهم يتحرون عن مغزى الانتقال من عصر إلى عصر في تاريخ الإسلام.

أما الفصل الأول فقد عالج موضوع الخلافة، وهو موضوع خلافي شائك قال عنه محمد عمارة في كتابه (نظرية الخلافة الإسلامية) أنه أصبح أولى نقاط الخلاف في الإسلام، فانقسم المسلمون حوله إلى فرق ومذاهب وتيارات واقتتلوا فيما بينهم. والإسلام لم يحدد نظاماً واحداً شاملاً لكل زمان ومكان، فالقرآن زودنا بمبادئ أساسية في الحكم، كما وأن الرسول (ﷺ) لم يحدد شكلاً من أشكال الحكم، بل زودنا بمثل وقيم أخذناها من سنته وأقواله، وقد اجتهد الخلفاء الراشدون في تطبيق هذه المبادئ القائمة على العدل والشورى والاختيار والإجماع، إلا أن الأمور اختلفت في الفترة الأموية ثم العباسية كما أوضحها هذا الفصل.

كما أعطى هذا الفصل نظرة شمولية مختصرة عن الفرق الإسلامية ونظرتها إلى مؤسسة الخلافة، ونظرة كتّاب السياسة الشرعية والفلاسفة إليها.

وعالج الفصل الثاني نظام الوزارة ابتداءاً من مصطلح الوزير مروراً بتأسيس منصب الوزير رسمياً في العصر العباسي الأول حتى نهاية الدولة العباسية، كما تطرق الفصل إلى نظرية الوزارة، والوزارة في رؤية كتّاب السياسة الشرعية والمفكرين.

وتطرق الفصل الثالث إلى نظام الإدارة وبدأ بمقدمة موجزة عن القيم الإدارية في التراث الإسلامي، ثم أسهب في تنظيمات عمر بن الخطاب واضع الأسس

الإدارية للدولة مروراً بالإدارة الأموية اللامركزية والإدارة العباسية المركزية حتى نهاية الدولة، كما تكلم عن التعريب الإداري في العهد الأموي وتطور الدواوين في العاصمة، وأنواع الإمارة على البلدان في العصر العباسي.

أما الفصل الرابع فقد تناول نظام القضاء وتوابعه في الدولة الإسلامية حتى نهاية الدولة العباسية، كما لم يهمل دور القضاة والعلماء، وهم ممثلي المجتمع، باعتبارهم رقباء على السلطة وسياستها، وسياسة الدولة تجاه المذاهب التي بدأت بالظهور في المجتمع خلال الفترة العباسية، واهتم هذا الفصل بتوابع النظام القضائي مثل مؤسسة النظر في المظالم ومؤسسة الحِسبة.

أما الفصل الخامس فاستعرض بنظرة شمولية ملخصة النظام المالي ابتداءاً من سياسة الرسول (ﷺ) المالية مروراً بتدابير عمر بن الخطاب الجذرية وإصلاحات عمر بن عبد العزيز المهمة حتى تعقد هذا النظام في العصر العباسي، وظهور أنظمة الضمان والإلجاء والأقطاع الإداري ثم الأقطاع العسكري، وأنواع الضرائب الشرعية وغير الشرعية، وأخيراً النظام النقدي.

وعالج الفصل السادس والأخير النظام العسكري مفرقاً بين نظام (الأمة المقاتلة) في صدر الإسلام، ونظام (الجيش النظامي المحترف) في العصر العباسي، ثم تناول عناصر الجيش وصنوفه وتعبئته أثناء المعركة، وأخيراً البحرية الإسلامية.

وينتهي الكتاب بفهرست عن المصادر الأولية والمراجع الحديثة والبحوث.

تمهيد

النظم الإسلامية بين حركة التاريخ وتعاقب الأسر الحاكمة

إن الانطباع الذي خرج به الباحثون والمستشرقون في التاريخ الإسلامي، إن المؤرخين المسلمين الأوائل قسّموا التاريخ الإسلامي إلى حقب أو عهود منفصلة بعضها عن البعض الآخر، فهناك الخلافة النبوية (وهي الخلافة الراشدة) التي عدت النموذج المثالي، ثم أعقبتها (دولة الملك الدنيوي الأموي) التي كانت في تناقض حاد مع الخلافة التي سبقتها والخلافة العباسية التي أعقبتها والتي عُدت (خلافة إسلامية).

والسؤال المطروح هل كان هناك تغيير جذري في الانتقال من عهد إلى عهد، أي من فترة الراشدين إلى الأمويين ثم إلى العباسيين؟ وما هي نسبة هذا التغيير، وهل كان التغيّر مفاجئاً أو تدريجياً ؟ ومن هو المسؤول عن هذا التغيير؟ هل الأسرة الحاكمة أم حركة التاريخ.

بدأ المستشرقون يتساءلون ويشككون في هذا التحقيب أو التقسيم "التقليدي" للعهود التاريخية الإسلامية، فقد حاول جويتين أن يقترح تحقيباً جديداً رافضاً التحقيب السابع مؤكداً أنه غير كاف وغير صحيح، فهو يقول: "هل يمكن قبول سنة 132هـ/750م منعطفاً حاداً، وهو من الصحيح أن نقبل تغير الأسر الحاكمة في التاريخ الإسلامي على أساس أنها تغيرات جذرية، وما نشير إليه من مميزات للخلافة العباسية مثل استحداث الوزارة والتغير الاجتماعي السريع يظهر الآن أنها تخريجات عامة لا تستند على دلائل أساسية. إن القرن الأول من العصر العباسي لم يشهد سقوط العرب بل كان قمة نفوذ العروبة، إنها فترة علو العرب مدعومين بالإسلام. لقد كان العرب هم الحكام، أما الوزراء والبيروقراطية المدنية وغيرهم فلم يكونوا أكثر موالي للدولة أو للخليفة الذي يمكنه أن يقصيهم، ثم إن هؤلاء الموالي من سكان البلاد المفتوحة تبنوا الثقافة العربية عوضاً عن ثقافتهم السابقة".

وكان فاروق عمر فوزي قد طرح في الوقت نفسه الفكرة نفسها في جملة من كتبه وبحوثه حيث أشار أن بوادر التغيرات ومظاهر التبدلات لم تظهر فجأة بمجرد تغير الأسرة الحاكمة بل أنها كانت عادة ما تبدأ بالظهور والتعبير عن نفسها على استحياء في العصر السابق وأن العصر التالي يستجيب لها ويعطيها زخماً أكبر وقوة دفع أكثر، وهذا ما حدث في "فترة الانتقال" من الراشدين إلى الأمويين وبصورة أقوى وأوضح من الأمويين إلى العباسيين. وبمعنى آخر فإن تلك التغيرات في المظاهر الجديدة في الدولة وفي المجتمع والاقتصاد والجيش كانت ستحدث لا محالة حتى لو استمرت الأسرة الحاكمة في الحكم، إلا آن نجاح الأسرة الجديدة في المجيء إلى السلطة أسرع في حدوث هذه التغيرات التي لعبت، دون شك، دوراً في سقوط الحكم السابق وسيطرة الحكم التالي. ومن هنا يمكن اعتبار العهد الأموي امتداداً للعهد الراشدي واعتبار العصر العباسي الأول امتداداً للأموي في العديد من مظاهره ومفاهيمه. ولعلنا نستطع القول أن العهد الجديد كان استجابة لهذه المتغيرات التي بدأت في العهد السابق ولذلك أعطاها زخماً وقوة دفع أكبر، بينما

كان العهد القديم في قواه السياسية وتقاليده الإدارية معوّقًا لهذه التغيرات أو بطيئاً في قبولها وتطبيقها.

وفي السياق نفسه علّق مايكل موروني: "إن الفصل بين العهود الإسلامية يؤدي بالباحث إلى التركيز على الحكام وسياستهم ومسؤوليتهم عن الأحداث، ولعل ذلك كان سببه المؤرخون الأوائل أنفسهم الذين قسمّوا التاريخ الإسلامي إلى: خلافة نبويه (الراشدون) والتي استمرت ثلاثين سنة بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم دولة الملك الأموية ثم الخلافة العباسية، وأن هذه النظرة تبناها المستشرقون ولا تزال تظهر في بحوثهم وكتبهم".

ويعارض موروني هذا التقسيم (التحقيب) ويقدم بدائل مستنداً على عوامل اجتماعية واقتصادية وثقافية، ويتساءل كيف أن تغيير الأسرة الحاكمة في منتصف القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري من أموية إلى عباسية يمكن أن يحدث تغيراً في اتجاهات النظام الإداري في الدولة على سبيل المثال لا الحصر.

أما محمد عابد الجابري فقد قبل مبدأ التقسيم، ولكنه اعتمد تقسيماً آخراً، فالتاريخ الإسلامي عنده ينقسم إلى مجتمع دولة الدعوة (عصر الرسول ﷺ والخلافة الراشدة) ويبرز فيه فريقان الأول الخلفاء والأمراء والعلماء، والثاني الجند والرعية، ثم مجتمع دولة السياسة (الفترة الأموية وردحاً من الفترة العباسية)، وفيها ينقسم المجتمع إلى الخلفاء والأمراء والجند من جهة، والعلماء والرعية من جهة ثانية، وأخيراً مجتمع الدولة السلطانية (العصور العباسية الأخيرة وفترة الدويلات الإسلامية التي انفصلت عن الخلافة العباسية) ويتكون المجتمع من الخليفة أو السلطان، ثم خاصة الخاصة ثم الخاصة وهم الوزراء وأصحاب الدواوين وقادة الجيش والفقهاء والبيروقراطية المدنية (الكتّاب)، ثم العامة.

لقد استعرض أميكام إيلاد في بحثه القيم الموسوم (عن مظاهر الانتقال من الأمويين إلى العباسيين)، وجهتي النظر المتعارضتين اللتين أشرنا إليهما، وتساءل أين يقع التفسير الصحيح؟ وبصفة خاصة هل حدث تغير جذري في الانتقال الأموي- العباسي حيث وُصف العصر العباسي الأول باستفحال النفوذ الفارسي، أم أن العصر العباسي الأول خاصة كان لا يزال عصر النفوذ العربي في مظاهره المختلفة، وأن التحول في السلطة من الأمويين إلى العباسيين لم يؤد إلى تغير مفاجئ، بل أن

التغيرات حدثت تدريجياً وبتأثير حركة التاريخ، ومن هنا فإن هذه التغيرات تأخذ وقتاً طويلاً، وهي عملية بطيئة ومستمرة لا علاقة لها بتغير الحكم من أسرة إلى أسرة. ويرى أميكام إيلاد أن كل المؤشرات توحي بأن "النظرة القديمة" في تفسير الأحداث لابد أن تتغير، وأن الدلائل على "النظرة الجديدة" متزايدة بحيث تحث على استزادة في البحث العلمي في هذا الاتجاه.

والواقع فإننا منذ سنوات سابقة كنا قد عالجنا بعض الأفكار التي تطرق إليها الآن أميكام إيلاد، وأشرنا إليها في بحثنا (العناصر المؤيدة للعباسيين باللغة الإنجليزية، وكذلك في التمهيد المفصل لبحثنا في كتاب منظمة اليونسكو العربية الموسوم (تاريخ الأمة العربية) ثم في مقدمة كتابها (الوزارة العباسية). وكانت الفكرة التي يراد إيصالها هي أنه بالرغم من التبدل في الأسر الحاكمة ظاهرة لا يمكن إهمالها في التاريخ الإسلامي، ولكن أي عصر إسلامي هو امتداد طبيعي للعصر الذي سبقه في مظاهره ومؤسساته وأفكاره، فالعصر العباسي الأول هو امتداد طبيعي للعصر الأموي، ولكن "الانتصار" العباسي أعطى زخماً وقوة دفع وحيوية لتلك التغيرات حتى بدت وكأنها مظاهر جديدة ابتدعها العباسيون الأوائل، بينما الواقع ليس كذلك لأنها بوادرها حدثت في العصر الأموي.

وفي المظاهر التي ناقشها أميكام إيلاد (9) في بحثه كان الجيش أهم مظهر من المظاهر التي يمكن أن تطرح في مناقشة انتقال السلطة من الأمويين إلى العباسيين، وتعاقب الحكم من عصر إلى عصر، فقد سارت الدولة العربية الإسلامية منذ عهد النبي ﷺ ثم الخلافة الراشدة وردحاً من الفترة الأموية على مبدأ (الأمة المقاتلة) فكان كل فرد قادر على حمل السلاح ومسجل في ديوان العطاء يهب للانخراط في الحملة العسكرية، أما في الفترة العباسية فقد تبنت الدولة مبدأ (الجيش النظامي المحترف) حيث لم يكن لدى الجند عمل آخر غير الجندية والعسكرية. ولكن هل حدث هذا الإجراء فجأة وبدون خطوات تدريجية. الواقع أن الاتجاه نحو بناء جيش نظامي محترف بدأت منذ الفترة الأموية المتأخرة وشملت عمليات دمج المقاتلة من قبائل مختلفة في معسكر واحد، ثم استحداث تشكيلات عسكرية سميت بأسماء قادتها أو راياتها، وشملت تطبيق خطط تعبوية جديدة مثل نظام الكراويس في عهد الخليفة الأموي مروان بن محمد، كل تلك الإجراءات حدثت في العهد الأموي لأن الدولة شعرت بالحاجة إلى التغيير، ولكن هذا التغيير في تنظيم الجيش أعطى

زخماً قوياً في العصر العباسي، ولكن العباسيين كانوا في البداية حذرين ففي الوقت الذي كانت تتخذ إجراءات لتطبيق النظام الجديد كان يحتفظ في الوقت نفسه بتشكيلات عسكرية قبلية على النظام القديم!!. وعدا ذلك فقد خدم قادة عسكريون من الفترة الأموية في الجيش العباسي الجديد، والمصادر لا تذكر سوى البارزين منهم ولا شك هناك قادة عسكريون من مراتب أخرى أصغر، منهم: معن بن زائدة الشيباني ويزيد بن مزيد الشيباني وسلم بن قتيبة الباهلي ومحمد بن خالد بن عبد الله القسري وعقبه بن مسلم الهنائي ومحمد بن عبّاد المهلبي الذي تسميه الروايات "وكان سيد أهل البصرة في زمانه" وقد عاش في زمن المأمون العباسي.[11]

هذا ولسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن الجيش العباسي وقبله الأموي كانت عناصره تستمد قوتها من العرب الذين يشكلون النسبة الكبيرة في فرق الجيش، ففي الجيش العباسي على سبيل المثال كان هناك فرقة العرب وفرقة أهل خراسان (عربية في نسبتها الغالبة) وفرقة الأبناء المستعربون، وفرقة الموالي الذين تشبّعوا بالثقافة العربية الإسلامية وكانوا في فكرهم وثقافتهم وولائهم مرتبطين بالخلافة العباسية وقيمها وليس بأصولهم السابقة.

هذا بالنسبة إلى الجيش أما بالنسبة إلى رجالات الدولة العباسية فنلاحظ أن العديد من رجالات الأسرة الأموية السابقة خدموا في الدولة الجديدة، وإذا استثنينا فترة (الثورة) أو كما يسمونها (الفورة) حين تختلط المفاهيم وتضيع المقاييس، نلاحظ العديد من رجالات الأمويين ضمن (صحابة أو خاصة) الخليفة العباسي، وظهر بعضهم كعلماء وقضاة ومحدثون، واستقر بعضهم في المدن العراقية مثل البصرة بكثافة ملحوظة يشير إليها الجاحظ في رسائله، وحينما نقرأ رواية زواج هارون الرشيد من امرأة أموية فإن ذلك يعني أن العباسيين عدّوا الأمويين أكفاءاً لهم اجتماعياً، وهذا المبدأ نفسه ينطبق على العلاقة مع العلويين، بل أن هذا المظهر دلالة واضحة على نفوذ التقاليد والقيم والمثل العربية في المجتمع العباسي الجديد.

وفي مجال الإدارة كان العباسيون واقعيين (براكماتيكيين) فقد عفوا عن الموظفين البارزين وثبتوهم في مراكزهم في مختلف مرافق الدولة، ومنهم إسحاق بن مسلم وأخوه بكار العقيلي اللذين أصبحا من المقربين إلى البلاط العباسي لأنهم من شيوخ قيس وأشرافها، ومحمد بن خالد بن عبد الله القسري (والي العراق السابق في العهد الأموي) وهو يماني من الكوفة، ومسلم بن قتيبة الباهلي (قيسي من البصرة)،

وغيرهم من آل شيبان وآل المهلب وأبناء يزيد بن عمر بن هبيرة والي العراق الأموي أيضاً.

وفي مجال التنظيمات الإدارية يلاحظ هاملتون جب اتجاه الأمويين منذ عهد الخليفة هشام بن عبد الملك إلى الاستفادة من النظم الإدارية الساسانية، ولذلك فليس مستغرباً أن يستفيد العباسيون من هذه التنظيمات، إلا أن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال ما أشار إليه بعض المستشرقين من أن الدولة العباسية غدت في نظمها "فارسية" على نمط الإمبراطورية الساسانية. إن الاستمرارية الأموية تبدو واضحة في الطبقة الإدارية الأموية التي استمرت تعمل في الوظائف في العصر العباسي الأول كما أشار إلى ذلك أمالكوم إيلاد، وأكد أن البيروقراطية المدنية الأموية أعطيت الفرصة للاستمرار في عملها ابتداءً من عهد الخليفة أبي جعفر المنصور، ومنهم عبد الله بن المقفع، وأبناء عبد الحميد الكاتب، مخلد بن عبد الله الحارثي، يوسف بن جيح، زيد بن أبي الورد الأشجعي، الفرج بن فضالة التنوخي. كما يلاحظ إيلاد أن البارزين من الكتّاب والوزراء في عصر العباسيين الأوائل كانوا قد خدموا في الدولة الأموية، مثل عبد الملك بن حميد، أبو أيوب المورياني، معاوية بن عبد الله بن يسار ويعقوب بن داود. أما ما يتعلق بالبرامكة فقد أكد كل من جوتين وبعده سورديل أن البرامكة لم يكونوا ممثلين "للثقافة الإيرانية" في الإدارة والبلاط العباسي، بل أن دورهم يمثل ذروة تطورها ضمن مفاهيم وأطر التراث العربي الإسلامي.

أما ما يخص نظام الوزارة فقد أثبت كلا المستشرقين جوتين وسورديل أن هذا النظام تعرض لتطورات وتغيرات لا علاقة لها بنظام الوزارة الإيرانية، ويلخص سورديل هذه الظاهرة بقوله: "إن هؤلاء الكتّاب الذين كانوا من أصول إيرانية، قد أظهروا ميلاً ورغبة في الأدبيات القادمة من إيران والهند، وكذلك الكتب الفلسفية والدينية، إلا أن ذلك كان مشاعاً في المجتمع البغدادي عامة في تلك الفترة... ثم إن البرامكة (كموالي للدولة العباسية) كيفوا أنفسهم لمفاهيم البلاط العباسي الذين عاشوا فيه، وكانوا يقدرون ويعجبون بالشعراء والكتّاب العرب، وهم كبقية الموالي تبنوا تقاليد الكرم البدوية العربية واشتهروا بها... ويبدو أنهم خدموا الخلافة بكفاءة وولاء".

هذه هي أهم صفات (كتلة الموالي) في البلاط والجيش والإدارة العباسية التي تكلمنا عنها في بحثنا (العناصر المؤيدة للعباسيين الأوائل)، وعوداً على سنة التطور التدريجي وحركة التاريخ المستمرة، فإن بروز كتلة الموالي خلال العصر العباسي وقيامها بدور أكبر مما كان عليه الوضع في العصر الأموي كانت مسألة وقت ليس إلاّ. فقد كان لابد أن يمضي بعض الوقت حتى تأخذ هذه الفئة محلها وتلعب دورها جنباً إلى جنب مع العرب والفئات الاجتماعية الأخرى، ولكن ليس على حساب العرب. إن سنة التطور التاريخي تقضي بأن يكون المجتمع في حالة تبدل وتغير مستمرين حيث أعطى العباسيون زخماً أكبر لعملية المشاركة والتمازج بين العرب والموالي والفئات الأخرى وساعد على بروز كفاءات جديدة ساهمت في تطور الدولة والمجتمع، وقد ظهرت خلال هذا العصر كتلة جديدة من الموالي تسمى (موالي الاصطناع) وهي ترتبط بالدولة أو الخليفة نفسه برباط الولاء الذي تضعه فوق كل اعتبار آخر عنصري أو إقليمي أو ديني أو غيره، وقد أوضح الجاحظ[19] طبيعة هذه الكتلة دورها في الإدارة والبلاط والجيش العباسي، وبيّن أنها تعد نفسها مستقلة عن كتلة العرب وكتلة العجم، وأنها أفضل منهم لرابطتها القوية بالخليفة، وأشار الجاحظ إلى ظهور معيار جديد في تصنيف المجتمع يرفض فكرة العنصر والإقليم والعشيرة ليحل محله الثقافة والفكر والولاء للدولة والمجتمع العباسي وقيمه ومبادئه. على أننا نؤكد مرة أخرى أن التغير يتطلب وقتاً ربما يكون طويلاً وتدريجياً ولا يفرض نفسه فجأة دون إنذار.

وقد أشار إمالكولم إيلاد إلى أن هؤلاء "الموالي" البارزين كرؤساء في الجيش أو الإدارة كانوا مرتبطين برباط الولاء مع القبائل العربية ومشبعين بالثقافة العربية، وكان الوعي بقيم المجتمع قد تأصل فيهم عميقاً، وكانوا موالين للأسرة الحاكمة العباسية العربية وللتراث العربي الذي يميز الدولة العباسية.

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن المظاهر والمواقف الاجتماعية التي كانت سائدة في زمن الأمويين تجاه الموالي عند بعض الفئات العربية قد زالت واختفت بين عشية وضحاها لأن التبدل لا يأتي فجأة، ولذلك لا تزال مصادرنا تورد روايات عن بعض العرب وازدرائهم بالموالي، ولا تزال العصبية القبلية موجودة في الشعر العربي وفي سياسة الدولة والتوازن في الصراع القيسي – اليماني، واتخاذ بعض الخلفاء مواقف في ذلك، ولا يزال شخصيات من الموالي أو من المغمورين الذين

أضحوا من كبار رجالات الدولة والمجتمع تدّعي الارتباط بنسب عربي ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الفطريف بن عطاء (أخو الخيزران زوجة الخليفة المهدي) الذي ادعى أنه يرجع إلى نسب بني الحارث بن كعب.

وفي مجال ألقاب الخليفة نلاحظ أن ما كان يعد "بدعة عباسية" في استخدام ألقاب مثل (خليفة الله) و(ظل الله) كان له جذور في الفترة الأموية، وقد استخدمه خلفاء أمويون مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان وغيره. كما يلاحظ في مجال تقرب السلطة إلى الفقهاء والعلماء ومحاولة تقنين التشريع أو توحيد القضاء من أجل تعزيز الصبغة الدينية على الحكم لم تكن بادرة عباسية بل سبق إليها الأمويون.

لقد أردنا من هذا التمهيد أن نوضح بجلاء استمرارية النظم الإسلامية وتطورها عبر العصور الإسلامية متأثرة باستمرارية حركة التاريخ وتطورها البطيء والتدريجي ولكنه تطور واثق في مسيرته، وأن هذه الحركة التاريخية وما يعقبها من تغير وتطور هي التي تؤثر على سياسات الأسر والسلالات الحاكمة وليس العكس، وتجعلها تستجيب لمتطلبات التغيير. والدولة الناجحة هي التي تلتزم بالتغيير وتفهم طبيعة التطور وتدفع به إلى الأمام، والعكس يعني الانهيار والسقوط ولعل أول مثل على ذلك في التاريخ الإسلامي هو سقوط الأمويين.

ولعلنا نختم كلامنا بالإشارة إلى أن ابن خلدون في مقدمته يميل ميلاً واضحًا إلى الأثر الواضح لحركة التاريخ في التطور وعملية التغيير، ويؤكد على إدراك "طبائع العمران والقوانين الاجتماعية التي تسير الحوادث بموجبها سيرًا منتظمًا". ويدعو المؤرخ أن يتحرى أولاً وقبل كل شيء هل الخبر ممكن وفق قوانين الكون والاجتماع، ثم بعد ذلك يبحث عن سنده ومتنه.

(19)

كتاب (التدوين التاريخي عند المسلمين) [1]

مقدمة

"إنه لم يخل زم من الأزمان فيما مضى من القرون الذاهبة إلا وفيه علماء محققون قد طالعوا كتب من تقدّمهم ودارسوا أهلها ومارسوا الموافقين لهم وعانوا المخالفين عليهم فمخضوا الحكمة وعجموا عيدانها ووقفوا على حدود العلوم فحفظوا الأمهات والأصول وعرفوا الشرائع والفروع ففرقوا ما بين الأشباه والنظائر وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ووصلوا بين المتجاور والمتوازي واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البيّن". رسائل الجاحظ 338/1

كلمة المركز

يعد التدوين التاريخي للأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والمنجزات الحضارية المختلفة التي مرّ بها المجتمع الإسلامي في العصور الماضية من ألوان التأليف عند المفكرين العرب والمسلمين.

ويشكل موضوع جهود المؤلفين العرب القدامى، ومصنفاتهم، وتحليل رواياتهم، من حيث السند والمتن، وبيان أهميتها يشكّل أهمّ القضايا التي ما تزال بحاجة إلى البحث والدراسة، لنتمكن من إضاءة كثير من جوانب حضارتنا العربية الإسلامية، وفق منهج علمي دقيق.

وتمثل هذه الدراسة المعنونة بـ "التدوين التاريخي عند المسلمين" محاولة جادة، نهض بها الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، وسعى من خلالها إلى تقديم نظرة شاملة لمسيرة حركة التدوين التاريخي عند العرب، منذ بدايتها في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

وقد بنى الباحث دراسته على ثلاثة أقسام متصلة، هي: البدايات، والنضوج، والتدهور، وقد حرص على بيان سمات كلّ مرحلة، وعلى تقديم أشهر أعلامها من المعنيين بالتدوين التاريخي، وكاشفاً عن أهمية مصنفاتهم، ودورها في حركة التدوين التاريخي.

ولا شكّ أن نشر هذه الدراسة العلمية تُمثّل إسهامًا من المركز في الكشف عن جانب مهمّ من جوانب حركة التأليف التاريخي عند العرب.

د. حسن محمد النابودة

مدير مركز زايد للتراث والتاريخ

النظرة إلى التاريخ

ما هو التاريخ؟ وهل يمكن تعريفه بصيغة واضحة محددة؟، بداية نقول لقد استأثر مفهوم التاريخ باهتمام العديد من المفكرين منذ القدم وحتى يومنا هذا، وقد ألفينا أنفسنا أمام أجوبة كثيرة اختلفت في تحديد معنى التاريخ مصطلحًا ولغة وميدانًا. ظهرت في مجموعة كبيرة من البحوث، ويكفي أن أشير إلى بعضها الذي ظهر في عصرنا الحاضر لأبين هذا الكم الوافر من المراجع التي بحثت في الموضوع؛ فقد كتب أدوارد كار كتابًا سماه "ما هو التاريخ؟" ليلفت الانتباه إلى ضرورة إيجاد الجواب المناسب من بين الأجوبة العديدة وليحاول وضع نهاية للمشادة، وكتب جوزف هورس كتابًا بعنوان "قيمة التاريخ" وهناك كتاب "فكرة التاريخ" لكلولنجوود، و"كيف نفهم التاريخ" لجوتشلك، و"فائدة التاريخ" لراوس، و"علم التاريخ" لهورنشو، و"المدخل إلى الدراسات التاريخية" تأليف لانجلوا وسينوبوس، وأخيرًا وليس آخرًا "لماذا لا نتعظ من التاريخ؟ لمؤلفه ليدل هارت.

ولم يكن المؤرخون العرب المحدثون أقل باعًا من زملائهم الأجانب في هذا الشأن فقد كتب قسطنطين زريق كتابه "نحن والتاريخ" وكتب أسد رستم كتابًا بعنوان "مصطلح التاريخ" وظهر كتاب "نشأة علم التاريخ عند العرب" لعبد العزيز الدوري، الذي شارك مع صالح أحد العلي وآخرين في إصدار كتاب آخر عن "تفسير التاريخ" وكتب زكي صالح "محاضرات في أصول التاريخ" وفاضل حسين "في مفهوم التاريخ"ونوري جعفر "التاريخ مجاله وفلسفته" وأحمد صبحي محمود في "فلسفة التاريخ".

والواقع أن التاريخ كان من أوائل العلوم التي اهتم بها العرب المسلمون في العصر الإسلامي الوسيط فرووا أخباره وتدارسوه ودققوا فيه، وقد عُني بعض الباحثين من عرب ومستشرقين بدور المؤرخين المسلمين في تطور علم التاريخ فكانت محاولة وستنفلد 1882 من أوائل المحاولات، ثم جاء كتاب بروكلمان "عن تاريخ الأدب

العربي" وتلته محاضرات ماركليوت سنة 1932م عن المؤرخين العرب ثم مقالة هاملتون جب عن التاريخ عند المسلمين إضافة إلى ما كتبه بعض المستشرقين الآخرين.

إلا أن كتاب "علم التاريخ عند المسلمين" الذي ألفه فرانز روزنثال كان من أهم الكتب التي عالجت تطور علم التاريخ ودور المؤرخين المسلمين في الكتابة التاريخية وتدوين الحوادث وحفظها، وبحث موضوع علم التاريخ عند المسلمين نخبة من المفكرين العرب أيضًا فقد كتب عبد العزيز الدوري آنف الذكر "نشأة علم التاريخ عند العرب" وألف نور الدين حاطوم وزملاؤه "المدخل إلى علم التاريخ"، وكتب سيد عبد العزيز السالم عن "التاريخ والمؤرخون العرب" وألف شاكر مصطفى عن "التاريخ العربي والمؤرخون" كما ألف حسين نصار عن "نشأة التدوين التاريخي عند العرب" إلى جانب باحثين آخرين كثيرين.

تجاه هذا الخضمّ الهائل من المؤلفات، تواجهنا جملة تعريفات حول مفهوم التاريخ والنظرة إليه، فقديمًا نظر المؤرخ اليوناني هيرودتس (عاش في القرن الخامس قبل الميلاد) إلى التاريخ ورأى أنه يشتمل على البحث والتحقيق في أحداث الماضي وتسجيلها) ولم يكتف بذلك بل رحل وشاهد بنفسه الأحداث المعاصرة له والتي كتب عنها وخاصة الصراع مع الفرس، ولكن كتابات اليونان عامة كانت أسطورية ولم يكن فيها من التاريخ إلا القليل ومن الخيال الشيء الكثير والتي حولت أسبارطه إلى معسكر تفوح منه رائحة الحرب. وكانت نظرة الرومان أكثر واقعية مما جعلهم يعنون بتفسير الوقائع وهذا بارز في كتاب "حياة العظماء" لمؤرخهم بلوتارك (ت حوالي 120م) حيث لم يكتف بسرد أحداث الماضي بل علق عليها وبذلك كان تاريخه حافزًا ومصدرًا للعظة والاعتبار، وهذا ما يسمى بالتاريخ الحافز.

فإذا ما انتقلنا بعد هذا إلى المفهوم الإسلامي للتاريخ الذي مثله مجموعة من المؤرخين، نلاحظ الجاحظ (ت255هـ/868م) وهو يحث على تدوين الأخبار بقوله: "لولا الكتابة لاختلت أخبار الماضين وانقطعت آثار الغائبين وإنما اللسان للشاهد لك والقلم للغائب عنك وللماضي قبلك...".

ثم يأتي تعريف ابن خلدون (ت808هـ/1405م) المشهور للتاريخ ذلك الموضوع الذي يحدث الإنسان عن حقيقة الإنسان حيث يقول: "التاريخ في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، وفي باطنه نظر وتحقيق

وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعدّ في علومها وخليق".

ويؤكد كل من محمد بن سليمان الكافيجي (ت879هـ/1474م) في كتابه "المختصر في علم التاريخ"، والسخاوي (ت902هـ/1496م) في كتابه "الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ) على أن التاريخ علم موضوعه الإنسان والزمان وبذلك يؤكدان على حد قول روزنثال على كونه دراسة علمية تختص بأعمال الإنسان، وأنه يخضع للعقل بمعنى أن المعلومات التي يقدمها تستند على أسس هي المصادر والوثائق.

وحينما ننتقل في هذا الاستعراض الموجز إلى قضية أخرى هي المفهوم الحديث للتأريخ ونطاقه نلاحظ الاختلاف حول النظرة إلى التاريخ ومفهومه على أشده. يقول صالح أحمد العلي: "نقصد بالتاريخ دراسة نشاط الإنسان الذي يعيش في المجتمع وتطور هذا النشاط في الماضي" ويضيف: فأساس التاريخ "الإنسان في المجتمع ولا يدخل فيه أحواله المتصلة بذاته مما لا علاقة له بالمجتمع، كما أنه لا يدخل فيه ماضي كثير من جوانب الكون كالأرض والفلك والفيزياء إلا بقدر ما له علاقة بالإنسان في المجتمع وبصرف النظر عن مستوى ذلك المجتمع من الازدهار والركود".

ولكن نظرة حسين مؤنس إلى التاريخ واسعة جدًا فلم يعد التاريخ ينحصر بالماضي بل غدا يمثل "حركة الكون وحركة الأرض وحركة الأحياء والناس على سطح الأرض وما تتبعه هذه الحركة الدائمة من تغيير دائم"، ويضيف مؤنس: "أن التاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل".

ولوجهتي النظر مؤيدون ومعارضون... فكان تعريف قسطنطين زريق يؤيد وجهة النظر الأولى فالتاريخ ما هو إلا "السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه".

بينما تبنى زكي صالح المفهوم الواسع للتاريخ فهو يشمل جميع شؤون البشر الماضية متداخلة أو منفردة، وكذلك أثر البيئة في حياة الإنسان.

وهكذا يتبين لنا أن الاتجاهات تختلف في النظرة إلى التاريخ، فالبعض يعتبره مجرد البحث عن الحقائق وتدوينها. وهناك من يرى فيه تفسير هذه الحقائق وربطها، وقد أوضح زكي صالح نفسه هذه النظرة الأخيرة بقوله: إن التاريخ يحاول الإجابة عن خمسة أسئلة هي:

من الفاعل؟ ما هو الفعل؟ أين وقع؟ متى وقع؟ ولماذا حدث بالشكل الذي حدث فيه؟ ولكن بعض المؤرخين يترددون في الإجابة على التساؤل الأخير، ويرون أنه ليس من واجبات المؤرخ أن يفسر الأحداث، فالمؤرخ الألماني رانكه (ت1886م) زعيم المدرسة العلمية في التاريخ يقول: إن المؤرخ مرآة صافية تنعكس عليها صورة الحوادث دون أن يكون له أي تأثير فيها، فالتاريخ لا يصور إلا ما حدث بالضبط ولا مبرر للمجازفة والتطرق إلى التساؤل لماذا حدث بالشكل الذي حدث فيه. إن العديد من تفاسير التاريخ مثل تفسير البطل في التاريخ والتفسير الاقتصادي والمادي للتاريخ كانت محاولات للإجابة على هذا السؤال؟ بل إن هناك من المؤرخين المحدثين من تمادى في الإجابة على سؤال آخر وهو إلى أين؟ أي محاولة التنبؤ عما يحدث في المستقبل، ومنهم المؤرخ شبنكلر والمؤرخ مومسن الذي قال: "إن التاريخ لا يكتب ولا يصنع بدون حب أو كراهية".

وهناك من المؤرخين المحدثين من يقع وسطًا بين هاتين الرؤيتين المتناقضتين في تقرير وظيفة المؤرخ ونطاق التاريخ ويُعدّ توينبي من المؤرخين الذين تبنوا موقفًا وسطيًا معتدلاً فهو وإن وضع قواعد عامة يرى أنها أثرت في مسيرة التاريخ البشري فإنه لم يقرر حتميتها في التأثير على المستقبل.

والملاحظ أن النظرة إلى التاريخ شهدت مزيدًا من التطرّف على يد المؤرخ الإيطالي المعاصر كروتشه حين قال: "إن التاريخ كله تاريخ معاصر" بمعنى أن التاريخ هو رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله، وأن عمل المؤرخ هو التقييم وليس مجرد الجرد والتدوين، فالتاريخ إذن يقرأ في مصادره ووثائقه ولكنه يفهم ويكتب بعقلية الحاضر، لأن المؤرخ ابن بيئته ونتاج عصره. وهذه النظرة إلى التاريخ تختلف عن النظرة التقليدية التي ترى دراسة الماضي سبيلاً لفهم الحاضر، فالحاضر من وجهة النظر هذه، هو امتداد للماضي، وقد تابع المؤرخ البريطاني كولينكوود خطى كروتشه فهو يعيب على من سبقه من المؤرخين تشبثهم بالوثيقة أو المخطوط بوصفها شيئًا مُقدسًا وعدم إدراكهم جملة مسائل منها: أن حقائق التاريخ لا يمكن أن تصل إلى المؤرخ بصورة بحتة مجردة لأنها لا توجد بهذه الصورة أولاً وأن المؤرخ إذا أراد أن يفهم ماضي فترة من الفترات فعليه "أن يعيش ذلك الماضي" أي أن يشعر بالشعور السائد آنذاك ويتفاعل مع الظروف التي كانت سائدة في ذلك الوقت. إن تقويم المؤرخ لحادثة ما بدون هذا الفهم سيكون ناقصًا مهما كانت قيمة

الوثائق التي بين يديه ثانيًا. فالمؤرخ إذا أراد أن يعي الماضي فلا يكون ذلك إلا من خلال الحاضر. ويضرب المؤرخ أمثلة على ذلك بقوله وهكذا كان القديس آوغسطين في كتابه (مدينة الله) يطرح رؤية من خلال منظار المسيحي المؤمن، وهذا ما فعله كيبون في كتابه "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" حين قدّم رؤية من زاوية الإنجليزي الذي عاش في القرن الثامن عشر، ونظر هيوم في كتابه "تاريخ إنكلترا" من وجهة نظر مؤرخ محافظ مستخدمًا كتابه وسيلة للدفاع عن حزب المحافظين، وهذا ما يفعله كل مؤرخ لأنه مرغم على الاختيار فالرؤية المعاصرة واللغة المعاصرة يمنعانه من أن يكون حياديًا على حد قول المؤرخ كولينكوود.

ولكن هذه النظرة إلى التاريخ لاقت انتقادًا قويًا في حينه، فقد قال أحد النقّاد الأمريكان في مراجعته لكتاب كيبون آنف الذكر "أن المؤرخين الإنجليز حتى حينما يتناولون تاريخ الرومان واليونان يهبطون به إلى مستوى الصحافة الحزبية الإنجليزية". هذا من جهة ومن جهة أخرى فصحيح أن المؤرخ يجب ألا ينظر إلى الوثيقة بوصفها شيئًا مقدّسًا ولكن صحيح أيضًا أننا ينبغي أن نهتم بالوثيقة ولا نهملها لأنها في حالات كثيرة تصبح الأساس في حكم التاريخ فقد شيعت جماهير باريس ميرابو خطيب الثورة الفرنسية إلى مقبرة العظماء ولكنها عادت ونبشت قبره بعد أن أثبتت وثائق القصر الملكي الفرنسي تآمره ضد الثورة.

وبعد هذا التعميم ننتقل إلى التخصيص فنتساءل ألم يأت الوقت لنفحص نظرتنا - نحن العرب - إلى التاريخ؟ هل تمكنا من فهم الحاضر بدراسة الماضي؟ أم أننا بحاجة - كما يقول عبد العزيز الدوري - أن ننطلق من الحاضر وهمومه ثم نتعمق في فهم جذوره؟ ويعدد الدوري نفسه بعض المعوقات التي تقف بيننا وبين فهم تاريخنا بالشكل الصحيح أو أقرب ما يكون إلى الصحيح، فيشير على نظرة المؤرخين العرب "الانتقائية" التي تختار ما تريد من فترات التاريخ وتهمل أو تتجاهل الفترات الأخرى، كما وأن هذه النظرة "عاطفية"/ رومانسية تبحث عن الصفحات اللامعة في تاريخ الأمة وتبرزها إن لم تضخمها أو تبالغ فيها، إن مثل هذه النظرة العربية إلى التاريخ قد تفضي إلى غرور أجوف وإلى خداع للذات من جانب أو قد تؤدي إلى الإحباط، واليأس من جانب آخر، ثم أي تاريخ نريد؟ هل التاريخ السياسي أم الاجتماعي أم الاقتصادي أم الفكري وهنا نكون قد جزأنا التاريخ فأضفنا معوقًا جديدًا هو "التجزيئية" إلى الانتقائية والعاطفية.

والواقع إن موضوع التاريخ بالنسبة ينفرد لنا - نحن العرب والمسلمين - بأهمية خاصة سواء كان في تقديمه على شكل دراسات منتقاة مختارة في المدارس أم في تدريسه بصورة علمية شمولية تخصصية في الجامعات. فالتاريخ لا يعرفنا بجذور ومسببات المشاكل التي تواجهنا ونحاول حلها فحسب، بل إنه عملية توجيه وتوعية متكاملة للنابتة أو للأجيال الجديدة في مجتمعنا.

فدراسة التاريخ العربي الإسلامي يفترض فيها أن نؤكد استمرار هذا التاريخ ووحدته في الزمان وترابطه، وتبحث عن عناصر الحيوية فيه عبر العصور وإبراز أصالته وتأكيد صفته الإنسانية/ العالمية التي أفادت واستفادت من شعوب أخرى خارج نطاق هذا الوطن وعبر عملية "التثاقف الحضاري".

ونحن إذا أردنا للتاريخ أن يكون أداة توجيه وتوعية فلابد من إبراز القيم والمظاهر الإيجابية، وبذلك نبرز دور الماضي في تكوين الشخصية السوية للفرد. وحين نؤكد على مواقف تاريخية معينة فردية أو جماعية فهدفنا من ذلك تكوين أنماط سلوكية إيجابية، فالمعرفة التاريخية في المدارس - على عكس الجامعات - لابد أن تكون انتقائية أي مختارة لتلائم الأهداف التي نرتضيها في إبراز القيم الرائدة والتي تعبّر عن تطلعات الأمة ورؤيتها المستقبلية. وعلى هذا الأساس يكون التأكيد على المنعطفات والرموز المهمة في تاريخ الأمة لا بدافع الإنصاف فحسب، بل من أجل الأحياء، من أجل الجيل المعاصر الذي يحتاج لأمثلة ونماذج يقتدى بها.

إن دراسة التاريخ هي من الوسائل المهمة في عملية تحليل الحاضر الذي نعيش فيه، فنحن ندرس الماضي لنضع أيدينا على الخيوط التي ينسج منها الحاضر... ثم إن الأمر لا يتوقف في دراسة التاريخ عند حد معرفة الحاضر، ولكن يتعداه إلى توضيح الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه الأمة نحو مستقبلها. فالحاضر كما هو معروف ليس ثابتًا ولكنه متطور ومتغير وهو مفترق طرق لعدد كبير من المستقبلات، ومن الضروري أن تتبين الأمة أي اتجاه تسير فيه - وهنا يلعب التاريخ دوره البارز والمهم.

إن من أهداف العملية التاريخية في مجتمعنا هو إعداد المواطن لا ليعيش في حاضر دائم بل في حاضر متطور نحو مستقبل أفضل، هذه هي الوظيفة القومية للتاريخ وهي وظيفة لا يمكن أن يؤديها غير التاريخ من العلوم الإنسانية الأخرى، فالمؤرخ أي مؤخر ينتمي إلى أمة وعليه أن يكون مخلصًا لأمته مواليًا لها مثل ولائه

للحقيقة والإنسانية. وعلى المؤرخ تقع مسؤولية تبصير مواطنيه بقضايا أمته، وأن يقف إلى جانب أمته منذرًا ومبشرًا. إن المؤرخ يستطيع أن يكون عاملاً مساعدًا في خلق الشخصية الإيجابية في المجتمع، والمقصود بالشخصية الإيجابية هي تلك التي تقوم على الولاء للوطن والإخلاص لأهداف الأمة والعزيمة التي تدفع إلى الإسهام في هذا التحقيق، إن ذلك كلّه لا يتم دون معايير، والتاريخ هو سجل الخبرات البشرية وهو مصدر تلك المعايير، وهذه إحدى فوائد التاريخ العامة فكما يقول المؤرخ راوس في كتابه (التاريخ أثره وفائدته): "إذا لم تفهم الدنيا التي تعيش فيها فما أنت إلا لعبتها ويجوز أن تكون فريستها".

ونحن إذا ما استعرضنا المؤلفات الحديثة في تاريخ العرب والإسلام نلاحظ أن أغلبها كما يقول عبد العزيز الدوري دراسات انتقائية عاطفية تجزيئية لا تهتم إلا قليلاً بالمظاهر الاجتماعية والحضارية، ولا تبرز العوامل التي تحدد الأهداف المشتركة للأمة، وتهمل الروابط والصلات وما فيها من اتجاهات مشتركة، ولا تعنى بالتطور العام للأمة، أو تنظر إلى أحداثها نظرة شمولية. ويتبنى بعضها دراسات استشراقية ينقصها الفهم الداخلي للمجتمع الإسلامي والشعور بروح التاريخ العربي الإسلامي. إن آخر ما نريده هو إخضاع تاريخنا إلى "فرضيات" ووجهات نظر بعيدة عنه ولا تنطبق عليه، بل الأجدر أن تكون تفسيراتنا منبعثة من ذاتنا محاولة تفهم تاريخنا مع عدم الانغلاق عن آراء الآخرين فينا.

لقد تبنت بعض المدارس التاريخية الأوروبية التفسير العنصري أو القومي أو المادي الدايلكيتي أو التفسير البطولي. ونظر بعضهم إلى التاريخ نظرة متشائمة فرأى أنه عديم الفائدة وأنه ليس أكثر من قصة يقرؤها كل من يرغب، بل إن بعضهم تطرف فادعى أن تعليمه مضر لأنه يزرع في الطلبة روح الغرور، ولم ير نابليون بونابرت فيه "أكثر من خرافة متفق عليها" ذلك لأن التاريخ وقف حجر عثرة في وجه طموحاته السياسية والشخصية.

ونظر آخرون إلى التاريخ نظرة متفائلة فاعتبروه "خير ضمان للخلاص والتحرر" وأنه صوت يدوي عبر الزمن ينقل قوانين الحق والباطل وبهذا يمكن أن يفيد في اتخاذ العبر فهو كنز حقيقي لخبرات الحياة يمكن الانتفاع عن طريقه من خبرات الجنس البشري بتزويد الفرد أو الجماعة بفرصة للاستفادة من عثرات أو نجاحات الآخرين. وهنا لابد أن نقرر بأننا كعرب لم نبلور بعد نظرة شمولية أو تفسير

متكامل للتاريخ، هذا مع أننا لا ننكر وجود محاولات جادة على الطريق وروادها قلائل لم ينجحوا بعد في تكوين مدرسة تاريخية واضحة المعالم.

والواقع أنّه لا يمكن بلورة نظرة إلى تاريخنا العربي الإسلامي إلا من خلال استحضار المخاطر التي تعرّض ويتعرّض لها مجتمعنا، والسبل والوسائل التي استخدمت لمجابهة هذه المخاطر. وسنقتصر في هذا المجال على نموذج واحد هو "الهوية الثقافية" العربية الإسلامية. وبدءًا لابد أن أشير إلى الخطر الذي لعبته الشعوبية في العصر الإسلامي الوسيط (العباسي بالذات) والتي مثلتها فئة من الموالي لا كلهم حيث سعت إلى هدم الكيان العربي الإسلامي من خلال ثقافته متوسلة بوسائل عديدة منها التشكيك بدور العرب التاريخي وتشويه مساهمتهم في بناء الحضارة الإنسانية. وقد أدرك الشعوبيون أهمية التاريخ لأنه الموضوع الذي يؤكد على وحدة واستمرارية وترابط الأمة عبر العصور، ولأنه البوتقة التي تحافظ على قيم المجتمع ومؤسساته وفكره، فعمدوا إلى محاولة تشويهه وكانوا كما يقول عبد العزيز الدوري "أخطر داء أفسد التاريخ الإسلامي". وكان الصراع الفكري مع الشعوبيين على حد قول هاملتون جب صراعًا لتقرير مصير ثقافة المجتمع واتجاهاته، ذلك لأن هدف الاختراق الثقافي الشعوبي كان وضع البديل الساساني الفارسي محل الأصيل العربي الإسلامي.

لقد انبرى أنصار النزعة العربية - الإسلامية يؤكدون على وحدة تاريخ الأمة الثقافي بحيث بات كل عصر متمم للآخر، وامتد جهد المفكرين ليشمل التاريخ السياسي فأثبتوا وحدة التطور التاريخي للأمة، وأبانت كتب الفتوح والأنساب دور العرب في السياسة والإدارة والحرب. وأكدت كتب التراجم دور العرب قبل الإسلام وبعده وكياناتهم الحضارية التي هي مظهر من مظاهر الأمة الواحدة ذات الخصائص المشتركة. إن فشل محاولة "الاختراق" الشعوبية يعود إلى تلك النزعة المرنة والتوفيقية التي مثلها أنصار الثقافة العربية الإسلامية متمثلة في كتابات جملة من المفكرين أمثال الجاحظ وابن قتيبة والتوحيدي والثعالبي والغزالي وغيرهم. إن هذا الموقف المنفتح الذي يدعو إلى التفاعل والتبادل والأخذ والعطاء أفقد الشعوبيين فاعليتهم. يقول المؤرخ جب عن الجاحظ وهو أحد أعمدة النزعة العربية الإسلامية: "وغمر الجاحظ بما كتبه من سعة أفق... ما كانت تصدره مدرسة الكتّاب الشعوبيين من سقط المتاع في الأدب، وكان أدبه موضع إقبال شديد من الجمهور ومن المشايعين للشعوبية أنفسهم". وهكذا فشلت النزعة الشعوبية.

وبعد ألا يصلح هذا النموذج الذي قدمناه حول منهج المفكرين المسلمين الرواد في الرد على الاختراق الشعوبي مشروعًا للنقاش يساعد على إنارة الطريق أمام المؤرخ العربي المعاصر ليبلور نظرة جديدة إلى التاريخ في مجتمعنا، نظرة تؤمن بالحوار والتثاقف الحضاري والموضوعية وتعترف بمساهمات الشعوب الأخرى في صنع الحضارة وتحارب التفرقة والتشكيك في المجتمع الواحد.

ولم تختلف الحركة الاستشراقية -والتي مثلتها فئة من المستشرقين لا كلهم- في موقفها من تاريخنا وهويتنا الثقافية عن النزعة الشعوبية آنفة الذكر، بل ربما يعدها بعض الباحثين امتدادًا لها في وسائلها وأهدافها. فقد أكدت هذه الفئة من المستشرقين أن سيادة العرب وحكمهم كان خطأً عابرًا في مجرى التاريخ الإنساني وإنهم لم يقدموا للحضارة من الإنجازات شيئًا يذكر. وأن هذه الفئة من المستشرقين هي حصيلة اتجاهات ومفاهيم سادت المجتمع الأوروبي عبر عصور خلت، وأثرت بصورة مباشرة وغير مباشرة على الفكر الأوروبي وأوقعته في أخطاء منهجية وتاريخية وكانت النتيجة ظهور فئة من المستشرقين تحمل فكرًا لا يؤمن إلا بالقهر والسيادة والاستلاب الثقافي والتمييز العرقي والهيمنة الثقافية دون الاعتراف بالتبادل الفكري والأخذ والعطاء. فقد غدا الإسلام - في نظر هذه الفئة - دين العرب الساميين الذين أجبروا الشعوب الآرية وغيرها على قبوله بالقوة وغدا الحكم العربي حكمًا تسلطيًا قهريًا تجاه البلاد المفتوحة وهكذا كانت حصيلة تاريخنا من هذه التفسيرات وغيرها "مجموعة من الأحكام المسبقة تطبق بقسرية بالغة، وقراءة تعتمد الانتخاب المقصود للنصوص أو تحميلها معاني لا تحتملها...".

ومرة أخرى ألا يصح أن تكون هذه النزعة الاستشراقية المنحازة حافزًا أمام مؤرخنا المعاصر ليبلور نظرة وموقفًا من التاريخ يرد به على هذه الفئة ردًا موضوعيًا خاليًا من التشنج والتعصب. صحيح أن العمل التاريخي الجاد في المجتمع العربي بحاجة إلى البناة (المؤلفين) والمؤرخين المفكرين، وأن ما ينشرونه من كتب هو في حد ذاته رد على هذه النزعة في الاستشراق، ولكن الصحيح أيضًا أن العملية النقدية والرد على كتب المستشرقين عملية مطلوبة في الوقت الحاضر وجديرة بالممارسة. إن الردود النقدية والمراجعات التي يكتبها المؤرخون العرب لن تكون حوارًا بيزنطيًا أو واجهة سلبية تتسم بروح الانفعال بل على العكس تعدّ جزءًا من الإنجاز البنائي للمؤرخ العربي وربما تكون حافزًا يساعد على بلورة منظور عربي للتاريخ ضمن إطار

إسلامي يقدم قناعات موضوعية تدحض التزوير، وقد ظهر بالفعل في الوقت الحاضر مؤرخون عرب بارزون كانت نتاجاتهم موضع تقدير، وهي لا تقل في حقل اختصاصها عن أفضل ما كتب في الموضوع. ويعلق أحد النقاد المتابعين على هذه الظاهرة بقوله: "إن كتابات هؤلاء المؤرخين (العرب) معترف بها عالميًا.. ولا يمكن التشكيك حتى من جانب الغربيين في أنهم مؤرخون أصلاء لا يقلون أهمية عن أفضل مؤرخي الغرب، ومع ذلك فهم قلة ويجدون صعوبة في تكوين مدرسة تاريخية".

وأخيرًا ومع بدايات التاريخ الحديث تأتي "المواجهة" بين الغرب والعرب والتي اتخذت أشكالاً عدة لعل أخطرها محاولة محو الشخصية (الهوية) العربية الإسلامية وربطها بتوجهات الثقافة الغربية. ولابد لنا أن نذكر بأن الثقافة العربية الإسلامية في علاقاتها التاريخية مع التراث الحضاري الأجنبي كانت ثقافة توفيقية مرنة تؤمن بالأخذ والعطاء وهذا ما يعبر عنه "بالاستمداد" الثقافي. إن هذا الانفتاح كان قائمًا على النظرة المتكافئة والاعتراف المتبادل ونزعة إنسانية يعبر عنها الكندي (في رسائله) بقوله: "ومن أوجب الحق ألا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزيلة فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا العظام الجدية، وينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى وأنى أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا. فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق".

وتقف الثقافة الأوروبية المعاصرة عكس هذا الموقف تمامًا فهي تتبنى موقفًا لا يؤمن بالتواصل بل التضاد والتصادم. وقد ظهرت كتب وبحوث عديدة تؤكد محاور التناقض بين الثقافتين وتخلق صورة مشوهة عن الإسلام والعرب وتظهر الإسلام بصورة الخطر الجديد على أوروبا المسيحية. إن أوروبا لا تريد أن تتنازل عن دورها باعتبارها مسؤولة عن دراسة تاريخ العرب والشرق وتكوين النظريات حولهم ثم تثقيفهم وتوجيههم الوجهة التي تريدها. إن هذا هو الغزو الثقافي أو الاختراق الثقافي بعينه والذي يهدف إلى ترويج ثقافة غربية/ عالمية من خلال علاقة غير متكافئة. وهذه الهيمنة لا تقتصر على جانب واحد بل تشمل جوانب عدة. يقول جاك بيرك المفكر الفرنسي: "إن الاستعمار فرض شكلاً معينًا من الثقافة في نفس الوقت الذي فرض فيه شكلاً معينًا من الإدارة".

لقد أبدى الجيل الجديد ردود فعل مختلفة وأحيانًا متناقضة تجاه هذا الوضع فقد ظهرت عند البعض ظاهرة ازدراء كل ما هو وطني أو قومي وهذه ظاهرة لا تقتصر على مستويات ثقافية عادية بل تظهر في أعلى المستويات الجامعية. وأدى الغزو الثقافي عند البعض الآخر إلى حالة من الاغتراب قد تدفعه إلى اللاعقلانية التي تبعده عن الواقع وتقدم له البديل الخيالي للمحافظة على تقدير الذات فينضم إلى طرق صوفية فيعتزل المجتمع، أو قد ينكفئ على نفسه ويدعو إلى محاربة كل أشكال الثقافة الأجنبية (العنف والتطرّف)، أو قد يتشبث الفرد بالتراث دون فرز لمكونات هذا التراث ومعرفة الغث من السمين والصالح من الطالح. إن كل هذه المواقف أو ردود الفعل غير صحيحة وعقيمة، فالدعوة إلى وقفة تجاه الثقافة الغربية لا تعني بأي حال من الأحوال إيقاف التفاعل الثقافي والتواصل الحضاري مع أوروبا، لأن ذلك من شأنه أن يزيد من تخلفنا إلا أن هذا الانفتاح على الحضارة الحديثة يجب أن يكون سبيلاً لإغناء الذات لا طمسها.

ومرة ثالثة وأخيرة ألا يصح أن تكون محاولات "الهيمنة الثقافية الأوربية" تحت ستار (العولمة) حافزًا لإعادة قراءة دور التاريخ والنظرة إليه في مجتمعنا العربي. فدور المؤرخ العربي لا يوصف بكونه إيجابيًا أو بالمستوى المطلوب. بل إن الاستقراء يشير إلى وجود هوة واسعة بين الواقع والطموحات. فإذا ما عدنا إلى التاريخ الإسلامي الوسيط نلاحظ أن الغزالي وابن رشد وابن حزم وابن خلدون وغيرهم كثير لم يكونوا غريبين عن مجتمعهم المعاصر لهم. وكذلك فلاسفة الثورة الفرنسية أمثال فولتير وروسو وديدرو، أو أقطاب الحركة التنويرية التي مهدت للثورة (الدعوة) العباسية التي شملت نخبة من الفقهاء والمحدثين والقدرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم. أن هؤلاء كانوا يعكسون أفكار شطر كبير من مجتمعهم. أما المفكر أو المؤرخ العربي المعاصر فهناك قطيعة وهوّة واسعة بينه وبين مجتمعه وقد جعلته الأحداث المعاصرة يفر إلى نفسه وعزلته ويهاب المواجهة والاتصال والتفاعل.

إن المطلوب بلورة نظرة إلى التاريخ "لا تتغنى بالصفحات اللامعة أو تردد الآراء الجميلة" بل تؤكد في انطلاقها من مشاكلنا المعاصرة وتدرجّها باتجاه الماضي، تؤكد على الموضوعية والشمولية وقبول الرأي الآخر. وقبل هذا وذاك نظرة تدعو إلى محبة الحقيقة ومجابهتها مهما كانت صعبة. فالذي يروّض على الجرأة في تقبّل الحقيقة لا يخشى عليه من التحوّل والالتواء أثناء الأزمات. فليكن شعارنا "الأمانة

التاريخية مهما صعبت من أجل إجلاء الحقيقة التاريخية مهما كانت مرة غير متقبّلة".

يتناول الكتاب الذي بين أيدينا التدوين والكتابة التاريخية عند المسلمين أو (تأريخ علم التاريخ عند المسلمين) خلال الفترة الإسلامية الوسيطة، حيث بدأت الكتابة التاريخية المنظمة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي ونضجت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ثم أخذت بالتراجع في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي وحتى نهاية الفترة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي.

بعد المقدمة التي نظرت إلى التاريخ من حيث طبيعته وأهميته ومنهجه، يبدأ الكتاب بمعالجة نشأة علم التاريخ وتطوره خلال القرون الإسلامية الأولى ممهدًا بنبذة عن الوعي التاريخي عند العرب قبل الإسلام، ثم يتطرق الفصل الأول إلى العناية بالتاريخ بعد الإسلام ودوافع ذلك، ويأتي الفصل الثاني ليفصل في المرحلة الأولى من مراحل الكتابة التاريخية وهي مرحلة النشأة والتكوين حيث برزت مدرسة الحجاز التي اهتمت بالمغازي والسيرة النبوية الشريفة ومدرسة العراق التي أكدت على الأخبار والأنساب، كما ظهرت في هذه المرحلة أوائل كتب الحوليات والفتوح والأنساب.

ويعالج الفصل الثالث المرحلة الثانية من مراحل الكتابة التاريخية، وهي مرحلة النضج والاكتمال حيث تطورت وتنوعت أنماط التدوين التاريخي عند المسلمين. وغدا لكل نمط خصائصه الواضحة وسماته المتمثلة بعدد من مؤرخيه البارزين. فكان هناك نمط التاريخ العام العالمي ونمط التاريخ في إطار النسب وفي إطار الفتوح ونمط التاريخ في إطار الأسر والسلالات الحاكمة والتاريخ في إطار التراجم الذي ينقسم بدوره إلى عدة أقسام، وأخيرًا وليس آخرًا نمط التاريخ المحلي الذي يهتم بالمدن والبلدان والأقاليم.

أما الفصل الرابع فيتطرق إلى المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل التدوين التاريخي عند المسلمين: وهي مرحلة التدهور والتراجع في الكتابة التاريخية. وكان لهذه المرحلة سماتها البارزة ومنها بروز ظاهرة تراكم المعرفة (الموسوعات) والتدوين التاريخي من خلال الجمع بين الأحداث والتراجم وكثرة ظهور السير الذاتية

والفردية والمذكرات الشخصية. هذا بالإضافة إلى تبلور النظرة إلى (علم التاريخ) باعتباره موضوعًا للبحث والعمل على تأريخ علم التاريخ.

أما الفصل الخامس فيعالج ظاهرة التدوين التاريخي بلغات الشعوب الإسلامية (غير العربية) مثل الفرس والترك والمريسكيين، وكذلك التدوين التاريخي عند غير المسلمين في دار الإسلام.

ويتناول الفصل السادس المعرفة التاريخية في كتب التراث العربي الإسلامي المتنوعة والتي تعد من المصادر الرافدة للتاريخ بالكثير من الأخبار والمعلومات التي تساند أو توضح الروايات التاريخية في كتب التاريخ.

وينتهي الكتاب بخاتمة توجز النتائج التي توصّل إليها الباحث في الموضوع الذي عالجه. أما ملحق الكتاب فيتضمن نماذج من مقدمات المؤرخين الأوائل لبعض المؤلفات البارزة التي كتبوها والتي توضح منهجهم في التدوين التاريخي والأسباب التي دعتهم للكتابة في هذا النمط أو ذاك دون غيره من الأنماط التاريخية.

ويضم الكتاب في آخره فهرسًا لمختارات من المصادر الأولية والمراجع الثانوية والبحوث للاستشارة أو الاستزادة في تفاصيل المعلومات التي أشير إليها.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يلهمنا الصواب إنه نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

(20)

كتاب (نقد الرواية التاريخية عند المسلمين)[1]

مقدمة

لم يكن الكسب المادي في وقت من الأوقات هدفًا مشتركًا لكل العاملين في الجامعة، فالأستاذ الجامعي المحب لعمله يجد متعة في إلقاء المحاضرة وفي تبادل الرأي مع طلبته وفيما يلحظه من تطور ونمو في تفكيره وتفكيرهم. يضاف إلى ذلك ما يجده الأستاذ الجامعي الباحث عادة من حرية في تنظيم وقته وبرمجة حياته أكثر من غيره من الموظفين العاملين. وفوق هذا فإن الأستاذ إذا كان باحثًا متمرّسًا يجد لذة كبيرة فيما يتمخض عنه البحث العلمي من أفكار ونتائج قد يكون بعضها أصيلاً. إن هذه اللذة لا يشعر بها إلا الباحث المفكّر الذي يسعد بما يتوصل إليه من "كشوف" جديدة في حقل اختصاصه. وهو بذلك يجد الحياة في عالم الفكر مثيرة متجددة بحيث لا يستطيع الانفصام عنها. وهنا يصدق عليه قول القائل: "إن العِلم لا يعطيك بعضه ما لم تعطه كلّك".

إن التدريس والبحث العلمي يشكّلان المسؤولية الرئيسية للأستاذ الجامعي، إلا أن واقع الأمر يدل على أن نسبة ليست كبيرة من الجامعيين يمكنهم التوفيق بين هاتين المسؤوليتين: البحث والتدريس، فمعظم الأساتذة مرهقين بالأعباء التدريسية والإدارية وما يلحق بها من مسؤوليات تجاه الطلبة والمجتمع الجامعي بحيث لا يجدوا الوقت الكافي أو الجهد المتبقي للقيام بالبحث العلمي. هذا بالإضافة إلى أن فئة من العاملين في الجامعة ليس لديهم الرغبة أو الدافع للبحث العلمي، وكان التحاقهم بالجامعة لا بسبب ميلهم للبحث وزيادة التعمق في مجال اختصاصهم، بل لأنهم يدركون ما لمنصب الأستاذ الجامعي من مكانة في المجتمع وبريق خلّاب بين المعارف والأصدقاء، رغم ما هو معلوم من عدم كفاية ما يعود على العاملين فيه من كسب مادي إذا قورن بالعاملين في المجالات الأخرى.

وبدءًا لابد أن نعترف بأن تحقيق التوازن بين التدريس والبحث العلمي ليس سهلاً ويحتاج إلى قدر من الإرادة والتصميم والتنظيم والمواظبة والصبر. إن البحث العلمي أقوى برهان على إنجازات الأستاذ الجامعي وليست الشهادة أو المرتبة

العلمية أو المنصب الإداري، وأكثر المسوغات قبولاً لاعتباره أستاذًا متميزًا في مجال اختصاصه الدقيق. هذا بالإضافة إلى ما للبحث العلمي من مردود على شخصية الباحث نفسه ونظرة الآخرين له ويساعد على تنشيط العقل ونموه، ويرفع الأستاذ الباحث في الجامعات المرموقة درجات في السلم الجامعي والامتيازات في المجتمعات المتحضرة التي تقدّر ذلك.

إن من أهم أهداف القيام بالأبحاث في أية جامعة وأي اختصاص هو تدريب الباحثين ليكونوا علماء المستقبل في مجال اختصاصهم. وهذا يفترض بأن خريج البكالوريوس أو الدراسات العليا في التاريخ سيكون باحثًا منتجًا إن لم يكن مبدعًا في الميدان الذي تخصص فيه، لذا فإن المتوقع من عضو هيئة التدريس المشرف على البحث أو الأطروحة أن يتيح لطلبته التدريب الكافي الذي يجعل منهم أفضل باحثين.

والمتفق عليه في بحوث التخرّج وأطروحات الدراسات العليا أن الطريقة التي يتدرّب عليها طالب البحث هي الطريقة العلمية سواء في العلوم الصرفة والتطبيقية أو في العلوم الإنسانية. وقد وصفت الطريقة العلمية من قبل Millet في كتابه (الأستاذ) بأنها: عبارة عن تعريف المشكلة وصياغة حلّها الفرضي، وجمع الأدلة والشواهد التي تدعم الحل الفرضي الذي يوضع موضع الاختبار، أو الأدلة التي تدحضه وذلك عن طريق الملاحظة والتجربة أو الوثائق والأصول.

فإذا كانت الأدلة الداحضة للفرضية أقوى من تلك التي تدعمها، فلابدّ من التفكير في فرضية أخرى تتم البرهنة على صحتها أو خطئها على أساس الأدلة المجتمعة. فإذا ثبتت صحة الفرضية عندئذ تصبح اكتشافًا علميًا له أهمية قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة في ميدان التخصص.

وقد يحلو للبعض القول بأن الباحث في العلوم التطبيقية والصرفة يجد صعوبة أكبر من الباحث في العلوم الإنسانية. ولكن الواقع يؤكد العكس فقد حققت الطريقة العلمية نتائج مهمة في حقل الفيزياء وعلوم الحياة مثلاً، ولكن الطريقة العلمية نفسها تبدو أكثر تعقيدًا حين تطبيقها على دراسة السلوك الإنساني في ميادين التاريخ والسياسة والاجتماع والاقتصاد والفلسفة. فعالم المواد غير الحية أو الحياة العضوية دون الإنسان أبسط من عالم الإنسان. وهذا يؤدي بنا إلى القول بأن

الباحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية لابدّ وأن تتوافر لديه قدرة على الحدس والتحليل فوق قدرته على مجرّد استخدام الطريقة العلمية.

إن الباحث في العلوم الإنسانية ومنها التاريخ يهتم بالقيم والمثل والمبادئ المستخلصة أكثر من اهتمامه بالحقائق. فالطريقة العلمية قد تفيد الباحث في التوصل إلى الحقائق المجرّدة، ولكنها لا تستطيع أن تسعفه في إثبات صدق هذه الحقائق والمعاني والقيم التي وراثها، إذ لابد له من استخدام طرق أخرى إلى جانب الطريقة العلمية.

ولعل من أهم خصائص البحث التاريخي اكتشاف أصول ومصادر ربما لا تزال مخطوطة وفيها مادة جديدة لم تستغل مسبقًا من قبل الباحثين. وربما كانت الأصول والمخطوطات والوثائق والمذكرات والرسائل المتبادلة والوصايا من أهم مصادر البحث الأولية، ويعود ذلك بطبيعة الحال إلى اهتمام الإنسان منذ القدم وتقديره الكبير للكلمة المكتوبة، ثم إن شدة إحساس بعض الشخصيات التي تتمتع بقدرة معينة ميزتها عن غيرها كان دافعًا لجمع مذكراتهم وأوراقهم والاحتفاظ بها. وتتسابق الجامعات المرموقة ومراكز البحوث في شراء قدر كبير من هذه الوثائق والمذكرات والمخطوطات والاحتفاظ بها في مكتباتها ضمن مجموعات الأرشيف. وهذا يرفع من منزلتها في معيار الاعتماد ضمن الجامعات المرموقة في العالم.

وفي الجامعات المرموقة في العالم تختلف النظرة إلى بحوث التخرّج والأطروحات فرسائل الدكتوراه لابدّ أن تكون أصيلة بمعنى أن فيها إضافة جديدة للمعرفة، وتختلف نسبة هذه الإضافة فبعضها يكون ضئيلاً وبعضها كبيرًا وجذريًا بحيث يغيّر المفاهيم الخاصة بموضوع البحث الذي عالجه. أما رسائل الماجستير وبحوث التخرّج من البكالوريوس فالعادة أن ينظر إليها على أنها دليلاً على قدرة الطالب على تناول مواد البحث ومناهجه وتطبيقها في دراسة موضوع علمي معيّن ومحدود، وفي تنظيم المادة وعرضها عرضًا واضحًا ولا يشترط فيها الأصالة. من هنا فليس هناك سبب وجيه لنشر بحث التخرّج في البكالوريوس أو الماجستير ما دامت في متناول اليد في مكتبة الجامعة. وربما ينشر جزء ذو مغزى من البحث أو الرسالة في مجلة الكلية Abstract وبذلك يطلّع الباحثون على الموضوع. أما رسائل الدكتوراه فلابد من نشرها بمساعدة مادية من الجامعة أحيانًا وخاصة تلك التي تتضمن إضافة أصيلة ومهمة للمعرفة، وإلا لما مُنح الطالب أصلاً درجة الدكتوراه.

لقد كان من نتائج عصر النهضة الأوروبية Renaissance في القرن الرابع عشر الميلادي وما بعده، تنقيح المادة التاريخية التي كتبت في العصور الوسطى تنقيحًا يكاد يكون تامًا من كل ما علق بها من خرافات وأساطير، وكان ديكارت (ت1650م) أول من أشار على المؤرخ أن يشك في روايات التاريخ لأنها لا تعطي تصويرًا صادقًا لأحداث الماضي، وأن التاريخ بوضعه الذي كان عليه ليس فرعًا من فروع المعرفة. ولكن ملاحظات ديكارت هذه لم تقلل من عزيمة المؤرخين المحترفين بل كانت بمثابة تحد لهم حفزهم على المضي قدمًا في سبيل ابتكار مناهج جديدة للكتابة التاريخية. وكان من نتيجة ذلك، كما يقول هاشم الملاح، في كتابه فلسفة التاريخ "نشأت مدرسة الشك التاريخي بالاستناد إلى مبادئ النقد والتحليل في التدوين. وقد نادت هذه المدرسة بأن ما كتب في المصادر لا ينبغي أن يسلّم به دون أن يخضع لعملية نقد تستند إلى منهج البحث".

ورغم التطورات المهمة في التدوين التاريخي خلال حركة الاستنارة Enlightment (القرن الثامن عشر) وما بعدها حين برزت الحركة الرومانتيكية Romanticism التي عُدّت مدخلاً إلى التاريخ العلمي الموضوعي، فإن ظهور النزعة التاريخية العلمية في أوروبا قد حدث في بدايات القرن التاسع عشر حين طغت الطريقة العلمية في البحث في العلوم الطبيعية، أما في علم التاريخ فقد ظهر الاتجاه العلمي 1824م حين نادى رانكه (ت1886م) إن هدف التاريخ هو أن يصوّر ما حدث بالضبط. ورغم معارضة الكثير من النقّاد لهذه النزعة العلمية المتشددة لما فيها من إهمال للقيم الخلقية والمثل في الكتابة التاريخية، فإن رانكه استمر في جهوده وتحريه للمعلومات حتى نجح في نشر منهجه في البحث التاريخي حيث رحّبت به الجامعات الأوروبية الجديدة التي ضمت أبناء الطبقة المتوسطة والتي بدأت تظهر إلى المسرح وتمتلك الثروة وتقود الحركة الفكرية.

وكان برادلي من مشاهير المؤرخين الإنكليز الذين عبّروا عن المنهج العلمي في البحث التاريخي في أواخر القرن التاسع عشر، فقد دافع عن التاريخ بوصفه دراسة مستقلة عن العلوم الطبيعية تحتفظ بكيانها الخاص بها والذي يعتمد العقل في منهجه العلمي مثلما تعتمده العلوم الطبيعية.

لقد دعى برادلي في كتابه الموسوم (أسس افتراضية في النقد التاريخي) 1874م إلى أن المؤرخ المفكر الناقد لم يعد من نوع الباحث الذي يقنع بالقول بأن الرواة

الثقاة قالوا بوقوع الحادثة ولذا أعتقد أنها حدثت فعلاً، وإنما عليه أن يقرر هل صدق هؤلاء أم كذبوا في رواياتهم. ونادى برادلي بالتاريخ الذي يستند على النقد. وأشار إلى أن كل أنواع التاريخ تعتمد على النقد. وعلى المؤرخ ألا ينقل ما جاء في المصادر على علاته. والنقد على رأي برادلي يجب أن يخضع لمقياس، ولن يكون هذا المقياس إلا المؤرخ نفسه، فليس في استطاعة المؤرخ أن يكون مجرّد مرآة تعكس ما جاء بالأصول ولكن لابد أن يجهد نفسه ابتغاء تفسير المصادر والتحقق من رواياتها.

لقد قيل إن التاريخ نوع من الأدب بمعنى أننا لا نستطيع أن نخضعه لمقاييس دقيقة، وهذا كلام غير دقيق، صحيح أن التاريخ ينطلق من المتغيرات ذلك لأن أعمال البشر وأفكارهم لا تخضع لقوانين محددة، ولكن للتاريخ ضوابط لابد أن يأخذ بها المؤرخ وإلا أصبحت كتابته غير موضوعية. وهذه الضوابط يطلق عليها منهج البحث التاريخي وهو الطريق الذي يسلكه الباحث للوصول إلى الحقيقة أو الهدف الذي يريد الوصول إليه والمنهج في التاريخ ينطلق من ثلاثة عناصر رئيسية:

أولها: ثقافة الباحث وفكره وتربيته حيث تعد الأساس الذي يستند عليه في فهمه للتاريخ.

ثانيها: تقييم المصادر ونقدها.

ثالثها: عرض المادة وتوثيقها.

إن وجود هذه المنهجية وما تتضمنه من ضوابط هو الذي جعل من التاريخ علمًا، أما إذا كان أسلوب كتابة المادة وعرضها أدبيًا فهذا لا يعني أن التاريخ غدا أدبًا بل يزيد من علم التاريخ لدى المعنيين والمثقفين قيمة واعتبارً، كما يقول عبد العزيز الدوري.

والواقع أن ممارسة الباحث للنقد التاريخي هي وحدها التي تعلّمه كيف يفكّر في موضوعات التاريخ. وأن التجارب التي يكوّن منها مقياسه للحقائق هي تجاربه في التفكير التاريخي وهي تجارب تنمو تبعًا لكل نمو يطرأ على معرفته التاريخية. وبمعنى آخر إن الحس التاريخي عند المؤرخ ينمو بقدر نشاط المؤرخ في البحث التاريخي، ومن واجب المؤرخ أن يتجاوز حدود الواقع إلى رؤية مستقبلية يكونها من خلال فهم ذكي موضوعي له وإلمام حقيقي بحركته. وسيظل المؤرخ يكتب بغية إدراك الأبعاد الحقيقية لظواهر التاريخ.

وقد ظهر في أوروبا القرن الثامن عشر وما بعده باحثون أوروبيون اهتموا بتراث الشـرق وتاريخـه وأدبه ومـخـتلف نشـاطاته ومظاهره الأخـرى، وهؤلاء هم (المستشرقون)، ومع اعترافنا بفضل فئة من المستشرقين الموضوعيين إلا أن فئة أخرى من المستشرقين حاولوا أن يطبقوا تفسيراتهم وقيمهم، على أحداث التاريخ العربي الإسلامي فوقعوا في الخطأ ذلك لأن التاريخ يرتبط بمثل المجتمع وقيمه وتراثه وتقاليده التي تحركه. فليس الطريقة العلمية وحدها كما أشرنا كافية في البحث التاريخي لأن دراسة السلوك الإنساني أكثر تعقيدًا من دراسة الظواهر المتعلقة بالعلوم الصرفة أو التطبيقية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فليس من السهل على المؤرخ الأوروبي (المستشرق) الذي تربى في بيئة فكرية وثقافية واجتماعية مثقلة بالتراكمات التاريخية التي تنظر إلى الشرق نظرة عداء واستهجان منكرة دوره في بناء الحضارة الإنسانية... ليس من السهل عليه أن يتجاوز تلك العقبات الفكرية والتربوية ولابدّ أن يؤثر ذلك على تفسيره للتاريخ الإسلامي، ولكل قاعدة شواذ.

وفي العصر الحديث دخلت مناهج البحث العلمي الحديث وما تتضمنه من نقد وتحليل، أقسام التاريخ في الجامعات العربية والإسلامية، ونشرت المراجع والأبحاث في أصول البحث التاريخي ومنهجه. إلا أن الجامعات ليست بمستوى واحد في تطبيق هذه القواعد العلمية الصارمة على ما ينشر في دورياتها العلمية أو ما يقدمه طلبتها من أطروحات في الدراسات العليا. ولعبت الدراسات الاستشراقية آنفة الذكر دورًا في التأثير على نتاجات الباحثين العرب والمسلمين في التاريخ، سواء كان ذلك في المنهج أو النقد أو التفسير، بل غدت العديد من الدراسات التاريخية التي يقوم بها فئة من أساتذة الجامعة في العالم العربي الإسلامي أسيرة المنهج والتفسير الاستشراقي، وعدّت دليلاً على وصاية الاستشراق على البحث التاريخي العربي الإسلامي، واستمر الوضع كذلك حتى حوالي منتصف القرن العشرين حين بدأ باحثون ينشرون بحوثًا وكتبًا نافست في مادتها وموضوعيتها ونتائجها بحوث المستشرقين بل تجاوزتها أحيانًا كما يؤكد ذلك هشام جعيط في حوار معه نشر في مجلة الوطن العربي 1984م.

إن هذا الاتجاه الجديد في الكتابة التاريخية الذي قدّم معرفة تاريخية دقيقة وموثقة يدل على جهد كبير ومنهجية رصينة، مثّله مؤرخون لا زالوا قليلين في

عددهم استندوا على نظرة شمولية في التفسير ليست تقليدية متشددة ولا عنصرية استعلائية ولا تعتمد النظرة المسبقة أو تستند على عامل واحد في التفسير. إن هذه الأبحاث والمؤلفات التاريخية ساعدت على رفع مستوى الدراسات التاريخية في الوطن العربي. ويرى أحد المستشرقين من الرعيل الجديد أن هذا التقدم العلمي يُعد من أعظم المكاسب في مجال كتابة التاريخ عند العرب في هذا القرن، وربما يّعد كذلك نجاحًا لكسر الجمود في كتابة التاريخ وفق منهج جديد لا يعترف بالتقليد الأعمى لآراء المستشرقين الأوائل ذلك لأن العلِم الصحيح يعتمد في قيامه على إعادة النظر المستمر في النتائج السابقة، راجع (w. Ende, Arabians Nation and Islamishe Grschichte, Beruit, 1977).

والمنهج في أبسط تعريف له هو الطريق الذي يسلكه الباحث في الوصول إلى الحقيقة التي يرغب التوصل إليها، وتبقى الحقيقة نسبية وليست مطلقة وكلّما أجهد الباحث نفسه في العثور على الأصول والوثائق وتحليلها كلما كان بحثه أقرب إلى الحقيقة.

يتفق منهج نقد الخبر كما اصطلح عليه القدماء من علماء المسلمين خلال القرون الهجرية الثلاث الأولى مع منهج البحث العلمي الحديث في التاريخ في كثير من قواعده. فالمنهجان يقومان على تحليل المعرفة التاريخية وتركيبها. أما العمليات التحليلية فتشمل اختيار الموضوع ثم جمع مادته (التقميش) ثم نقد مصادره والموازنة بينها. والنقد نقدان، نقد خارجي ويتعلق بالتأكد من الخبر أو الوثيقة ومصدرها ويسمى عند القدماء (نقد السند أو سلسلة الرواة). ونقد داخلي ويتعلق بنقد (المتن أو النص) ويتحرى الباحث في نقده للنص تحديد مدى الأمانة والدقة فيه وهو ما كان يسمى عند العلماء المسلمين القدامى (العدالة والضبط) وكذلك تحديد معنى النص الحرفي والشمولي.

أما العمليات التركيبية، فتتعلق بتفسير النصوص التاريخية وتنسيقها واستخلاص الحقائق التاريخية منها ثم التوليف بينها وعرضها على شكل فصول أو مباحث.

لقد كان النّقد موجودًا في العصر الإسلامي الوسيط، وقد سبق نقد السند أو ما يسمى (بالنقل) نقد المتن أو النص، إلا أن كليهما نقل الخبر ونقده، وقد اتضحت معالمها حوالي نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

ولابد من القول بأن الرواية الواحدة ليست حادثة فحسب وإنما تتداخل أمور عديدة في حبكها وتصويرها. فالرواية قد تتأثر بصورة شعورية أو لا شعورية بنزعة الراوي القبلية أو الإقليمية أو المذهبية أو بهواه أو عواطفه أو مصلحته الشخصية مما يجعل لنص - الرواية - مغزى آخر يبعده عن الحقيقة والموضوعية بل يحرّفه ويشوهه. ولابد للباحث أن يجهد نفسه وعقله في مقابلة الروايات من حيث السند والمتن للوصول إلى أقرب ما يكون إلى الحقيقة.

لقد عانى التاريخ العربي الإسلامي في القرون الأولى من كل هذه النزعات الضيّقة وربما كان أخطرها النزعة الشعوبية التي أدركت أهمية التاريخ العربي الإسلامي وفاعلية دور العرب في صنع أحداثه السياسية والحضارية فعمدت إلى تشويه وزرع الشكوك في وقائعه. ونحن كمؤرخين معاصرين لا نريد أن نبني تفاسيرنا على أسس خادعة بثتها روايات منتحلة أو كاذبة. إن نقد الرواية التاريخية ملك مشترك بين جميع المؤرخين المفكرين، وهو مشاع بين النقّاد القادرين على الابتكار، فلا ضير على الخالف أن يأخذ من ميراث السالف ويضيف إليه بحيث تكون الإضافة مبتكرة فتتحول الصورة النقدية الجديدة إلى صورة ذات إيقاع مختلف. ومن هنا يمكن القول بأن الناقد في موضوع التاريخ كان موجودًا في كل مرحلة وبدرجات متفاوتة. وفي فترة النضج في التدوين التاريخي ابتداءًا من القرن 4هـ/10م ظهر مؤرخون نقّاد ذوو منهج وقدرة على الفحص والتمييز من أجل توثيق نص الرواية التاريخية وربطها بالواقع والظروف وعصرها ومدى مطابقتها لمنطلق التاريخ وحركته ومفاهيم العصر الذي حدثت فيه الحادثة.

وبمرور الزمن ظهر مؤرخون كتبوا التاريخ ونقدوا الروايات وفاضلوا بين المؤرخين الذين عاشوا قبلهم أو عاصروهم. وفي القرن الرابع الهجري كذلك وبعده انفصل علم التاريخ عن علم الحديث، فلم يعد المؤرخون المسلمون يقتصرون على تطبيق معايير (مصطلح الحديث)، بل ظهرت معايير جديدة مضافة إلى المعايير السابقة وخفت المعايير القديمة، فالمؤرخون لم يعودوا يتمسكّون (بنص الرواية) بل يدمجون عددًا من الروايات التي تعطي المعنى نفسه، كما أهمل بعضهم إيراد (سند الرواية) أو استخدموا الإسناد الجمعي في الكلام عن حادثة معينة أو موضوع ما.

ولعلّ أول ما نلاحظه في مؤرخي العصر الإسلامي الوسيط أنهم في غالبيتهم لم يعبّروا عن موقف السلطة بمعنى أنهم لم يكونوا من مؤرخي السلطة، كما وأنهم بعد

ذلك لم يهتموا بحقل معين ويتركوا الحقول الأخرى، فهم لم يهتموا كما يشاع دائمًا بالتاريخ السياسي والعسكري للإسلام، بل إنهم أكثر من ذلك اهتموا بالحضارة العربية الإسلامية حين تكلّموا عن العلماء في كل صنف من أصناف المعرفة النقلية والعقلية ولم يتركوا فئة أو جماعة أو حرفة إلا أرخوا لأصحابها الذين برعوا فيها، وهذا واضح في كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ المحلي التي تحتوي على تاريخ عام وتراجم التي تحتوي ثروة حضارية وفكرية تفوق الأخبار السياسية والعسكرية.

ومنذ البداية عبر الإخباريون والمؤرخون الأوائل عن موقف نقدي، ويلاحظ في كتابات ابن إسحاق (السيرة) والواقدي (المغازي) وابن سعد (الطبقات) الدقة في استخدام الأسانيد التي يعود بعضها إلى شاهد العيان وبروز ملكة النقد لديهم من خلال ترجيح بعض الروايات على غيرها، رغم الملاحظات التي يمكن إيرادها على بعض رواياتهم مثل كثرة اعتماد ابن إسحاق على الشعر وعلى الإسرائيليات حيث أشار إليها ابن سلام في (طبقات الشعراء). وبمناسبة الكلام عن الشعر والشعراء فإن ما اتهم به بعض فطاحل الشعراء من سرقات سواء صح أم لم يصح يعد موقف نقدي فقد صوّب النقّاد سهامهم إلى الشاعر العبقري المتنبي ربما لمجرّد كونه متميّزًا فكتب الصاحب بن عبّاد (الكشف عن مساوئ المتنبي) وكتب ابن بسام النحوي (سرقات المتنبي) وكتب أبو العباس التهامي (رسالة في الكشف عن عيوب المتنبي)، وكتب سهل بن يموت (سرقات أبي نواس) وكتب بشر بن المعتمر (سرقات البحتري من أبي تمام) ثم كتب ابن عمار القطربلي (سرقات أبي تمام).

ونتبين الموقف النقدي لمؤرخ متقدم مثل خليفة بن خيّاط (ت240هـ) حين يركّز اهتمامه في كتابه (التاريخ) على النظم الإدارية وليس الأحداث الداخلية، وحين يذكر حادثة ما يشير إلى وجهتي النظر المحلية والرسمية حولها.

ونلاحظ موقف الجاحظ (255هـ) النقدي من خلال ملاحظاته الذكية في مجموع رسائله وكتبه وفضحه ما أشاعته مدرسة الكتّاب الشعوبيين من روايات منتحلة، وانتقد الجاحظ نفسه أخباري الفرس ورواتهم بأنهم ينتحلون الأخبار والروايات ويصنفون الكتب في تاريخ الفرس وتراثهم قبل الإسلام حتى اختلط الصحيح بالموضوع.

والتزم الطبري (ت310هـ) بالمنهج التاريخي الإسلامي في كتابه (تاريخ الرسل والملوك) فتثبت من الرواية ودقق في إسنادها وهذا راجع إلى أساسه كمحدّث

وفقيه. فهو لم يحاول نقد مضمون الرواية قدر تثبته من أسانيدها وقد اعتذر عن منهجه هذه بقوله: "فما يكن من كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه... فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا. وإنما أوتي من قبيل بعض ناقليه أدينا، وإنما أدنيا ذلك على نحو ما أودي إلينا". فبالنسبة للطبري المهم صدق النقل وأمانته أي صدق المصدر لا المضمون، على أن للطبري آليات أخرى للنقد منها ذكر أكثر من رواية عن الحادثة الواحدة، ومنها أيضًا إيراد عبارات دالة وذات مغزى في الحكم على الرواية مثل: قالوا- زعموا- حدثنا. سمعت- كما وأن عدم إشارة الطبري إلى السند في رواية ما دلالة واضحة على ضعفها. وحين لا يتكلّم الطبري عن الحنابلة ويهمل أخبارهم رغم سطوتهم في عصره يدل دون شك على موقف نقدي. أما المبرّد فيتجلى موقفه النقدي في كتابه الكامل في مثال نورده هنا، فهو حين يتكلّم عن الرسائل المتبادلة بين الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور والثائر العلوي محمد النفس الزكية لا يوردها في نصها الكامل مبررًا ذلك بأن الراوية أحد الشاتمين.

وحين يتكلّم حمزة الأصفهاني في (تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء) عن الفرس قبل الإسلام يرى بأن تاريخهم مشكوك فيه ورواياته موضوعة تكتنفها الأساطير مما جعل تواريخهم مدخولة وغير صحيحة.

ويعلّق موسى الكسروي على أحد مصادره في تاريخ ملوك الفرس فيقول إنه لم يظفر من هذا الكتاب بنسختين متفقتين. وهذا موقف نقدي يتضح فيه كثرة الوضع والانتحال.

وينتقد الأزدي إجراءات السلطة العباسية تجاه أهل الموصل 132هـ/751م انتقادًا مرًا وصلت إلى قوله "كذب والله من زعم أن هؤلاء مسلمين".

ويرى المسعودي بأن مصنفي الكتب في التاريخ "بين مجيد ومقصّر"، وهذا موقف نقدي من أسلافه ومعاصريه من المؤرخين.

ويُعد رأي ابن الأثير 620هـ من الطبري موقفًا نقديًا حين يوضح اعتماده عليه في القرون الثلاثة الأولى: "فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذ هو الكتاب المعوّل عليه عند الكافة والمرجوع إليه عند الاختلاف. وبعد أن يوضح ابن الأثير أنه اختصر روايات الطبري وجمع بين النصوص المتقاربة للحادثة

الواحدة ودمجها بأسلوبه "فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها غيرها ما ليس فيها...".

ولم يصانع ابن عبد الحكم المعتزلة رغم كونهم في السلطة، وانتقد الهمداني في (الإكليل) الروايات عن تاريخ اليمن قبل الإسلام: "فوجدت أكثر الناس تخبط، خبط عشواء في حندس ظمياء" وأذعن أبو إسحاق الصابي لعضد الدولة البويهي وألف له كتاب التاجي إلا أنه علّق على ما كتبه بقوله في عملية ممارسة نقد ذاتي: "هذه أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها"، وكذلك فعل مسكويه في تجارب الأمم حيث ذكر مساوئ البويهيين معبرًا عن موقف نقدي من إجراءاتهم.

وعبّر أبو الحسن الأشعري عن موقف نقدي تجاه الروايات التي عالجت موضوع الفرق الإسلامية: "ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ويصنفون في النحل والديانات، بين مقتصد فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، وبين معتمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه وبين تارك للتقصي في روايته من اختلاف المختلفين وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به...".

وينتقد فخر الدين الرازي 606هـ النهج الذي سار عليه كل من الشهرستاني والبغدادي في كتابيهما عن (الملل والنحل) و(الفرق بين الفرق).

ويظهر ابن حزم 456هـ في كتابه (الفصل بين الملل والنحل) مؤرخًا ناقدًا للفكر المذهبي وتاريخ الفرق حيث تبرز دقته في اختيار المعلومات وتوثيقها مما يجعل كتابه موسوعة للفكر الديني قبل الإسلام وبعده.

وفي مقدمة ابن خلدون العديد من المواقف النقدية، فهو ينتقد الحشو والمبالغة والاستطراد والنقل للرواية دون التحقق من مسايرتها للمنطلق التاريخي والعقل ودون توافقها مع مفاهيم العصر، وهو يشكك في العديد من أخبار ما قبل الإسلام، ويشكّك في بعض الملاحظات التي أوردها ابن بطوطة في رحلته. ونراه يوازن بين المؤرخين ويصف المسعودي الذي كان معجبًا بكتاباته بأنه (إمام الكتاب والمؤرخين). وخصص ابن خلدون محورًا في مقدمته عنونه الإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط.

وهاجم السيوطي علماء عصره داخل مصر وخارجها منتقدًا كتاباتهم، ولكنه بدوره تعرّض لنقد حاد من السخاوي، إلا أنّ هذا الأخير امتدح الصولي وكتابه (تاريخ الوزراء) لأنه كان شاهد عيان على عصره.

وآخذ السبكي وهو تلميذ الذهبي على هذا الأخير آنه كان يزن الناس بميزان آرائه ومعتقده. ويشكّك ياقوت الحموي في ما تحويه رحلة سلام الترجمان إلى يأجوج ومأجوج وما فيها من أساطير وخرافات، ويشكّك كذلك برحلة ابن فضلان إلى بلاد البلغار، ومن هنا آشار ياقوت بأنّ المتصفح للكتاب آبصر بمواضع الخلل من مبتدئ تآليفه.

ويظهر موقف ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) من الأخبار التي جمعها من الروايات التاريخية الموجودة في المصادر التي دونت قبله ونسقها واختصرها بكونه صاحب نظرة نقدية فاحصة وإضافات أصيلة ودقة واضحة مما جعل كتابه (الدرر الكامنة في أخبار المئة الثامنة) وملحقه عن تراجم القرن التاسع الهجري إنجازًا كبيرًا في مجاله.

والنّقد لابد أن يبدأ بالنّقد الذاتي فقد أشار المقدسي بوجود الأخطاء في كتابه حين قال: "ثم إني لا أبرّئ نفسي من الزلل ولا كتابي من الخلل ولا أسلمه من الزيادة والنقصان"، وينتقد المقدسي في الوقت نفسه كتاب (البلدان) لابن الفقيه حين يقول "كتاب البلدان يفتقر إلى خطة يسير عليها مؤلفه ويميل إلى الحشو والاستطراد". ويبدو أن المقدسي استفاد من تجارب غيره وأخطائهم في المنهج. ولذلك نراه يخضع المادة التي جمعها إلى صياغة منظمة ويقسمها إلى مقدمة وفصول وهذا يدل على أن لديه خطة ومنهج للبحث أكدها في قوله: "اعلم أنني أسستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصواب واستعنتُ بفهم أولي الألباب، ويعترف بفضل الذين سبقوه في التآليف في قوله: "فهذا ما وقع إلينا من المصنفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب، وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئًا قد سطروه إلا عند الضرورة لئلا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم..." وكان لغيره مثل اليعقوبي في (البلدان) وياقوت في (معجمه) وابن حوقل في (المسالك والممالك) مناهجهم في التأليف والنّقد أوردوها في مقدماتهم وفي تضاعيف كتبهم.

وأكد ابن خلدون على المعنى نفسه حين قال: وأنا من بعد هذا موقن بالقصور بين أهل العصور... راغب من أهل اليد البيضاء والمعرفة المتسقة القضاء في النظر بعين الانتقاد لا بعين الارتقاء.

وفي العصر الحديث برز عدد من المؤرخين المفكرين وقاموا بدورهم في عملية النّقد التاريخي ضمن المؤلفات التي قاموا بتأليفها. كما تلعب بعض المجالات العلمية دورها في عملية النّقد التاريخي، ولكن عملية النّقد التاريخي في الوطن العربي لم تصل إلى المستوى المرغوب فلا زالت الحساسية من النّقد وانعدام النّقد الذاتي سائدة بين المؤرخين.

إن من واجب المؤرخ المفكر محاولة المساهمة في بلورة "مدرسة" نقدية في التاريخ لها منهجها الواضح في المطارحات التاريخية والموازنات الفكرية. وقد بدأتُ مشواري بمساجلة ليست سهلة في إعادة تقويم وقراءة جديدة للدعوة العباسية، فكانت تلك الدراسة مفتاحًا لإعادة تقويم العديد من المظاهر التاريخية، حيث تهيأت لي فرصة للمساجلة والنّقد على صفحات مجلة آفاق عربية البغدادية وكتبت جملة من البحوث منذ أوائل السبعينات فيها الكثير من النّقد وإعادة التقييم والقراءة الجديدة لكثير من التفسيرات العربية والاستشراقية التي شاعت بين أوساط المؤرخين المحدثين.

ويبدو من تجربتي في النّقد التاريخي وما واجهته من ردود فعل متشنجة أوصلتني إلى قناعة بأن الوقت لم يحن بعد في الوسط الثقافي العربي لتقبل النّقد كظاهرة علمية هدفها دفع البحث العلمي إلى مستوى أفضل.

على أن اليوم الذي سيعطى للنّقد التاريخي مكانته في الكتابة التاريخية العربية الإسلامية سيأتي لا محالة، وحسب الباحث أن يضع لبنة في أساس هذه الظاهرة الصحية والمهمة.

يضم الكتاب في قسمه الأول قراءة في منهج البحث وتطبيقات في النّقد التاريخي، وقد اخترنا ستة نماذج عالجنا الروايات التي تدور حولها من حيث النّص والسند ونقدنا الروايات الضعيفة وأثبتنا الروايات الموثوقة وصولاً إلى أقرب ما يكون إلى الحقيقة التي تبقى نسبية.

أما القسم الثاني من الكتاب فقد ضمّ ثمانية مباحث تناولت أنماط التدوين التاريخي العربي الإسلامي منذ بداياته حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر

الميلادي، أما المباحث الباقية فكانت رؤى نقدية لعل أهمها البحث حول المدرسة التاريخية العربية الحديثة وأبرز روادها عبد العزيز الدوري وصالح أحمد العلي وجواد علي.

وختامًا نقول كما قال ابن سيدة في (المخصص) إن التوفيق للصواب في كل أمر من بارئنا جلّ وعز، إليه أرغب فيه وبه تعالى أستعين لا غنى لأحدٍ عنه في مُيسر الأمور ولا معسّرها، كما أبرأ إليه من الحول والقوة إلا به، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم كثيرًا.

مضيفًا إليه قول الشاعر:

إلى هاهنا أنهي حديثي وأنتهي   وما شئت في حقي من الخير فاصنع

فإنّك أهل الجود والبر والتقى   ووضع الأيادي البِيض في كل موضع

المؤلف

الهوامش:

(1) منشورات جامعة آل البيت، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2001م.

(2) منشورات دار الشؤون الثقافية، ط1، بغداد، 1986م.

(3) الطبعة الأولى، 1998م، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية.

(4) طبعة جديدة، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 1999م.

(5) الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 1999م.

(6) الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2005م.

(7) نسخة منقحة ومزيدة عن كتاب النظم الإسلامية، دبي، 1983م، (لم ينشر بعد).

(8) منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2004م.

(9) منشورات مركز زايد للتراث والتاريخ، ط1، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2007م.

(21)

كتاب (تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية)[1]

التمهيد

نحن اليوم أحوج ما نكون إلى فهم كامل وعميق وموثق لوجهتنا وكياننا ومكانتنا عبر التاريخ وإمكانياتنا. وفي نظري أن ذلك لا يكون إلاّ بدراسة تاريخنا. وقد استرعى انتباهي أن تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى لم يحظ باهتمام مؤرخينا ومفكرينا المحدثين رغم أهمية وخطورة الدور الذي لعبته منطقة الخليج في تلك الحقبة التاريخية.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أُلقي الضوء على بعض الجوانب من تاريخ الأقاليم العربية للخليج في تلك الفترة الإسلامية وهي العراق والبحرين وعمان والأحواز. وتعقبت تاريخ كل إقليم من الأقاليم عبر العصور الإسلامية المتتابعة. وقد عنيت بالجانب السياسي بوجه خاص.

ولا يستطيع الباحث في تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الاستغناء عن موارد التاريخ الإسلامي ومصادره التي كتبها رواد المؤرخين المسلمين رغم قلة المعلومات وندرتها فيما يخص الأحداث السياسية المهمة في هذه الأقاليم -عدا العراق- في العصرين الأموي والعباسي. ولابدَّ للباحث من الرجوع إلى كتب ومصادر التاريخ المحلي -إن وجدت- عن أقاليم الخليج العربي. ولابد أن أذكر المصادر التاريخية المحلية عن عمان وخاصة عن تطور الحركة الأباضية فيها. ولكن معظمها لا يزال مخطوطاً.

لقد أشرنا إلى قلّة الدراسات الحديثة في تاريخ الخليج عمومًا، على أن هناك عددًا من الدراسات التي تناولت فترة تاريخية قصيرة أو حركة من الحركات السياسية في هذا الإقليم أو ذاك من أقاليم الخليج ذكرتها في قائمة المراجع. على أنني أود أن أذكر هنا عددًا من الأطروحات التي صدرت عن جامعة بغداد وأخص منها بالذكر الأطروحة الموسومة "الدعوة الإباضية في المشرق العربي" التي كتبها مؤلفها السيد مهدي هاشم تحت إشرافي ونال بها الماجستير بتقدير جيد جدًا. وقد

اعتمدتُ عليها نصًا فيما يتعلق بنشأة الحركة الإباضية وتطورها في عُمان. وحسبي أنني قمتُ بواجبي تجاه تاريخ هذه المنطقة وأملي أن تكون هذه الدراسة حافزًا لمؤرخينا لدراسة تاريخ الخليج العربي كلاً حسب اختصاصه.

والله الموفق والمعين ،،،

المحتويات

- حركة الزنج... القرامطة والإسماعيلية... حركة عمران بن شاهين.
- الحالة السياسية في الأحواز.
- البحرين والحركة القرمطية.
- عُمان والأباضية.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

(22)

كتاب (الإمامة الإباضية في عُمان)[2]

المقدمة

يُعدّ هذا الكتاب دراسة تاريخية لأحوال عُمان في ظل الإمامة الإباضية منذ تأسيس الإمامة سنة 132هـ/سنة749م مرورًا بصراعها مع الخلافة العباسية ومجابهة القوى المحلية من قرمطية وبويهية وسلجوقية وانتهاءًا بضعف الإمامة وتدهورها في حوالي منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي مما أفسح المجال لبروز قوة جديدة على الساحة العُمانية هي قوة القبائل النبهانية.

يُعد الإباضية أنفسهم الممثلين الحقيقيين للأمة الإسلامية فهم "أهل العدل" ومنهاجهم "منهاج أهل العدل" وأئمتهم "أئمة العدل" خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في تطبيق مبادئ الإسلام.

وفي رأي الإباضية فإن الأمة تختار الإمام اختيارًا حرًا ليس لاعتبارات الأصل أو الجنس أو القبيلة وزن فيه. كما وأن الأمة نفسها تحتفظ بحق عزل الإمام إذا أخل بشروط العقد بينه وبين "جماعة المسلمين" أي مجتمع الإباضية. والإمامة -عند الإباضية- فريضة من الفرائض أوجبها الله تعالى وأنها تثبت بعقد أو بغير عقد إذا وقع التراضي به من الخاصة من أهل العِلم والحل والعقد.

لقد بدأت الدعوة الإباضية في البصرة وانتشرت في عُمان وشمالي أفريقيا على أساس مذهب معارض للخلافة الأموية ثم العباسية. وحاولت الدعوة الإباضية أن تقيم كيانًا بديلاً للخلافة العباسية ببغداد ضمن إطار الإسلام وقيم العروبة ليس للتشدد فيه مجال. ورغم بروز تيار متشدد ضمن الدعوة الإباضية -كما في الحركات الأخرى- فإن غالبية علماء الإباضية وحملة العِلم فيها أظهروا مرونة واعتدالاً ونظرة توفيقية تنسجم مع البيئة السياسية والاجتماعية التي انتشر المذهب فيها. فلم يكفّروا غيرهم من المسلمين ورأوا أن مناكحتهم جائزة وشهادتهم مقبولة وموارثتهم حلال. ولم يجيزوا "الاستعراض" وقتل المخالفين لأن كفرهم كفر نعمة وليس كفر ملة. وعدوًا دار مخالفيهم من أهل الإسلام دار توحيد لا دار كفر. كما وأن "التقية" عند الإباضية جائزة. وهنا يكمن سر نجاح الإباضية واستمرارها في أكثر من إقليم من الأقاليم الإسلامية.

ويطيب لي في ختام هذه المقدمة أن أعبر عن مشاعر الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت الذي شجعني على تقديم هذه الدراسة وتعهدها بالمتابعة. وللأستاذ محمد عدنان البخيت الفضل في إدخال هذا التوجه في دراسة الفرق والمذاهب الإسلامية من خلال التأكيد على إبراز الجوامع المشتركة بينها واحترام الفروق بين بعضها البعض. ونحن كباحثين نقدّر له هذه الريادة في مجال البحث العلمي في جامعة آل البيت. كما أتقدّم بالشكر لجميع العاملين في جلس البحث العلمي لما قدّموه من مساعدة لإنجاز هذه الدراسة ونشرها. والله من وراء القصد ونسأله العون فهو نِعم المولى ونِعم النصير.

المؤلف

المفرق 1997م

المحتويات

(23)

كتاب (دراسات في تاريخ عُمان)[3]

تـقـديـم

من المتعارف عليه أن تراث عُمان تراث ثر وعريق، وتحفل عُمان بالعديد من المصادر والدلائل عن هذا التراث. كما وأن تبني عُمان لمذهب الإباضية أعطى قوة دفع جديدة للنشاط الفكري عمومًا وذلك من أجل التعريف بالمذهب فقهًا وتاريخًا وتفسيرًا وأسلوب حياة. ومن هنا جاء تأسيس وحدة الدراسات العمانية بجامعة آل البيت والتي بدأت عملها 1419هـ/1998م تلبية لهذه المتطلبات ومن أجل خدمة التراث العُماني وإبرازه في كافة صوره وأنشطته ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

لقد تمتعت عُمان عبر تاريخها بأهمية واضحة لأسباب عديدة منها موقعها الجغرافي المتميز، وخصوبة أرضها، ووفرة مياهها. وقد أثرت هذه العوامل الجغرافية في ازدهار اقتصادها بحيث غدت مركزًا نشطًا للتجارة، وقوة جذب القبائل من شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام وبعده للاستقرار والعمل فيها.

وكان من الطبيعي أن تزدهر الحياة الفكرية والعلمية في عُمان في القرون الإسلامية الأولى، ذلك لأن النشاط الفكري ما هو إلا انعكاس طبيعي لازدهار المجتمع وحيويته، خاصة وأن تاريخ عُمان الفكري والسياسي مرتبط -كما أشرنا إلى ذلك- بدعوة نشطة هي الدعوة الإباضية، حيث نجحت في تأسيس كيان سياسي لها ثم تابعت انتشارها في أقاليم أخرى. ومن هنا فقد كانت عُمان من أنشط أقاليم الخليج العربي في التدوين والتأليف حيث تشير الفهارس إلى وجود أعداد كبيرة من المؤلفات في العلوم الدينية والإنسانية المختلفة. ورغم تعرّض هذه المؤلفات للتلف أو الدمار أو الفقدان لأسباب عديدة، فقد بقي منها في الوقت الحاضر الشيء الكثير. ولابد أن نشير بأن الاعتناء بهذه المؤلفات وتحقيقها تحقيقًا علميًا هو دون شك واحد من أبرز مهمات وحدة الدراسات العُمانية بجامعة آل البيت.

لقد احتوت مباحث هذا الكتاب على محورين رئيسيين: يتعلق الأول منهما بمصادر التاريخ العُماني التي كتبها مؤرخون عُمانيون، وتضم مؤلفات في التاريخ والأنساب والسِيَر والتراجم. أما المحور الثاني فيعالج مظاهر متنوعة من نشاطات

أهل عُمان داخل عُمان وخارجها. ولعل أهم ما تظهره هذه المباحث نشاط أهل عُمان في مجال التدوين التاريخي وما يرتبط به، وفي مجال الفكر السياسي ودورهم في نشر الإسلام والعربية في أجزاء المشرق الإسلامي وشرقي إفريقيا خارج حدود عُمان، وأهميتهم في إقامة وتطوير مراكز حضارية داخل عُمان وخارجها.

لقد جاءت هذه الدراسة عن عُمان تاريخًا ومصادر دراسة اعتمد فيها المؤلف على مصادر مهمة متبعًا منهجًا تاريخيًا ورؤية شمولية. ولعله من حسن الصدف أن تكون هذه الدراسة باكورة المنشورات التي تصدرها (وحدة الدراسات العُمانية) والأمل أن تكون حافزًا لدراسة مظاهر ومجالات أخرى ذات علاقة بالمجتمع العُماني.

من هنا جاءت رغبة جامعة آل البيت في جمع هذه الدراسات للزميل أ.د. فاروق عمر فوزي ونشرها لتعميم الفائدة منها نظرًا لما تتمتع به من عمق وشفافية ودقة علمية.

ويسرني بهذا الخصوص التعبير عن شكري وتقدير للزميل أ.د. فاروق عمر فوزي على هذه الدراسات والمعالجات الرصينة ونتطلع إلى المزيد من الدراسات الجادة عن سلطنة عُمان الشقيقة، تاريخًا وحاضرًا ومستقبلاً.

والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق ،،،

المفرق في 16 ذو الحجة 1420هـ //22 آذار 2000م

رئيس الجامعة

أ.د. محمد عدنان البخيت

تقديم

يسرنا أن نقدّم للقرّاء الكرام هذه المجموعة من الدراسات المتميزة المتخصصة في تاريخ عُمان ومؤرخيها، خلال العصور الإسلامية المختلفة، والتي أنجزها الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي، أستاذ التاريخ الإسلامي، في جامعة آل البيت، عبر جانب من مسيرته العلمية الثرة، وهي نخبة، من حصيلة نتاجه الغزير، المنشور في أمهات المجلات العربية والأجنبية المرموقة، خلال الأعوام 1975م-1999م.

والأستاذ الدكتور فوزي، غني عن التعريف فهو علم شامخ في موضوع تخصصه ومعروف بموضوعيته ودقته، وقدير في منهجه وأسلوب عرضه ورائد في اختيار موضوعات وجريء في مناقشاته واستنتاجاته، ولا أريد أن أسترسل في بيان فيض خصاله، لأن القارئ المهتم سوف يكتشف هذه الصفات وغيرها من خلال تمتعه بقراءة دراسات هذا الكتاب، التي استعان المؤلف لإنجازها بالعديد من المخطوطات الفريدة فضلاً عن خيرة المصادر الأصيلة والمراجع الحديثة.

فالكتاب على هذا النحو يُعد إضافة هامة وجادة للدراسات التاريخية عامة والدراسات العُمانية خاصة، كما أنه باكورة إصدارات، وحدة الدراسات العُمانية في جامعة آل البيت، تلك الوحدة التي تبنى تأسيسها وما يزال يعمل جاهدًا من أجل إنجاح مهمتها ويرعى بفائق عنايته إصداراتها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت.

آمل أن يستمتع ويستفيد من هذا الكتاب المهم المؤرخون والمثقفون على حد سواء.

والله من وراء القصد ،،،

د. حسين القهواتي

وحدة الدراسات العُمانية

المحتويات

مقدمة

يُعدّ هذا الكتاب الأول في سلسلة منشورات وحدة الدراسات العُمانية التي تأسست في أواخر سنة 1998م في جامعة آل البيت بدعم سخي من سلطنة عُمان وبجهد مخلص من رئاسة الجامعة.

ولابد لي أن أشيد هنا بالاهتمام والمتابعة التي أبداها الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت أثناء تأسيس الوحدة حتى برزت إلى حيّز الوجود كمركز للبحوث والدراسات في شتى مظاهر الحياة الفكرية والتراثية في المجتمع العُماني الناهض، وكملتقى لكل الفعاليات المهتمة بعُمان شعبًا وحضارة، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً.

عُمان جزء من منطقة الخليج العربي تتمتع بموقع جغرافي فريد، تحتل الإقليم الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية الذي يتمتع بحصانة متميزة بسبب الحواجز الطبيعية المحيطة به حيث يحيطها من الشمال والشرق والجنوب الخليج العربي وخليج عُمان والبحر العربي. أما من الغرب فتحدها الرمال التي تعتبر امتدادات لصحراء الربع الخالي. ومعنى ذلك فإن عُمان محصورة بين بحرين البحر المائي والبحر الرملي. أما طبيعة الأرض فهي متنوعة تختلف من مكان إلى آخر، فهناك السهول الخصبة على الساحل ثم الجبال الشاهقة الوعرة في الداخل ثم الصحراء القاحلة.

لقد أثّرت هذه الطبيعة الجغرافية على أهل عُمان فأخذوا على البحر وعرفوا بكونهم ملّاحين مهرة ولكن لم يشغلهم البحر عن ارتباطهم ببلاد العرب. فرغم أن عُمان مقطوعة بالصحراء غربًا فقد جذبت أعدادًا كبيرة من أبناء القبائل العربية وخاصة اليمانية إليها، بسبب خصوبة سهولها التي تشجع الاستيطان والزراعة وأهمية موقعها الذي يساعد على النشاط التجاري. وساهم العُمانيون في التجارة البحرية بين منطقة الخليج وبين جنوبي شرقي آسيا والصين وشرقي أفريقيا منذ بدايات القرن الثامن الميلادي/ الثالث الهجري، وشهدت صحار ميناء عمان الرئيسي أوج ازدهاره الاقتصادي في القرنين الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين. إن أهمية الخليج عامة وعُمان خاصة زادت بعد أن انتقل العباسيون إلى العراق. ولم يكن هذا الانتقال اعتباطيًا فقد كانت كل البوادر تشير إلى انتقال الأهمية التجارية من البحر الأبيض المتوسط إلى الخليج العربي والطرق

البرية والبحرية المتفرعة منه. كما وأن هذا العصر شهد ازدهارًا زراعيًا في بلاد العراق والأقاليم الشرقية. إن هذه الظاهرة بالذات دفعت الخلافة العباسية المركزية إلى الاهتمام بالخليج لتأمين تدفق التجارة وازدهارها وضمان سيطرة الدولة ونفوذها على السواحل المحيطة بالطريق التجاري وخاصة عُمان التي تتحكم بمنافذ الخليج العربي من الناحية الاستراتيجية.

إن موقع عُمان الجغرافي وازدهارها التجاري وخصوبة سهولها وعذوبة مياهها ووجود الجبال الشاهقة فيها التي تمكن أهلها من الانسحاب من الساحل والاعتصام بها في حالة هجوم أجنبي غازي، كل ذلك أكسب عُمان أهمية خاصة فكانت هدفًا لهجرات قبلية ونشاطات سياسية قبيل الإسلام وبعده، ثم أصبحت بؤرة لحركة دينية/ سياسية استطاعت أن تشكل كيانًا سياسيًا فيها هي الحركة الأباضية التي نازعت السلطة العباسية في السيطرة على هذا الإقليم. ثم أصبحت عُمان مركزًا مهمًا للتجارة البحرية العالمية فازدهرت اقتصاديًا وحضاريًا في العصور الإسلامية الوسطى، وأخيرًا كانت عُمان من أوائل النقاط التي شهدت محاولات التغلغل الأوروبي الأجنبي في منطقة الخليج مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي حين وصلت أول حملة برتغالية إلى مياه الخليج.

ورغم هذه الأهمية التي تمتعت بها عُمان خلال العصور الإسلامية الوسطى وبدايات العصور الحديثة فإن تاريخها ظل طي النسيان، ولم تجر حتى وقت قريب محاولة جدّية لاستقصاء مصادر التاريخ العُماني وبالتالي كتابة تاريخها كتابة علمية موضوعية. ويؤكد بروكلمان ندرة المصادر عن تاريخ عُمان ويشير إلى أنه لم يعثر على مصادر مهمة حتى بداية القرن الحادي عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ولا يوجد بين المخطوطات التي ذكرها إلاّ خمس مخطوطات تهتم بالتاريخ. وتشير دراسة حديثة عن عُمان بأن عُمان "لم يظهر فيها مؤرخون بارزون ولم يبق لنا من تاريخ عُمان مما كتبه العُمانيون إلا كتابان كشف الغمة وتحفة الأعيان" ويعزو المؤلف ذلك إلى "أن عُمان إقليم بعيد معزول نسبيًا عن المراكز الفكرية في العالم الإسلامي". وفي رأينا فإن هذا التخريج وتبريره لا أساس له من الصحة فقد ظهر في عُمان العديد من المؤرخين، كما وأن عُمان كانت متصلة بالبصرة في العراق وهي من أهم المراكز الفكرية في تلك الفترة. وقد أضافت البحوث الجديدة عن تاريخ عُمان والدعوة الإباضية فيها خاصة معلومات جديدة وكشفت عن مخطوطات لم تكن معروفة من قبل في تاريخ عُمان.

ويشير ابن النديم في فهرسته إلى العديد من الكتب التي ألفت عن الخوارج، وتاريخ عُمان الإسلامي الوسيط مرتبط بالدعوة الأباضية، فقد ألف عنهم كل من المدائني وأبي عبيدة معمر بن المثنى وغيرهم، ولكن ابن النديم يعترف بأن كتب الخوارج مستورة في عصره ولا سبيل إلى معرفتها!!. واهتمت بعض الكتب التاريخية بتاريخ الإباضية في عُمان فقد اهتم الأزدي وخليفة بن خياط وابن الأثير والبلاذري في أنسابه بأخبار الخوارج عامة أكثر مما اهتم الطبري واليعقوبي بهم. ولا يتكلّم مؤرخو التاريخ الحولي العام للإسلام عن عُمان إلا حينما تحدث ثورة عارمة تهز الخلافة وهنا أيضًا لا يتعدى هذا الكلام إلا أسطرًا أو فقرات.

وقد فسّر بعض الباحثين قلة معلوماتنا عن عُمان والحركة الأباضية فيها في كتب التاريخ العام إلى كون عُمان وأهلها على مذهب معارض للسلطة. وقد يكون هذا أحد الأسباب ولكنّه ليس السبب الرئيسي ذلك لأن كتبنا تحفل بأخبار كثيرة عن حركات أخرى معارضة للخلافة، ولعلّ السبب في ذلك يعود إلى أن الدعوة الأباضية في عُمان كانت حركة سرية بدأت بتنظيم سري في البصرة. وأن طبيعة العمل السري وما يرتبط به من صعوبة الوصول إلى المعلومات كانت سببًا في ندرة الأخبار عن عُمان. وإلى هذا يشير ابن النديم حين يقول أن كتب "الخوارج مستورة ولا سبيل إلى معرفتها. وحتى بعد قيام الإمامة الإباضية في عُمان فقد بقيت هذه الإمامة في حرب مع العباسيين ولذلك فإن المعلومات عنها لم تكن متداولة ومنتشرة بل مقصورة على عدد ضيّق من رجالاتهم وحملة العِلم بينهم.

وتعرّض تراث الأباضية عامة وتراث عُمان خاصة إلى التلف والدمار بسبب العداوة التي تعرّضت لها من قبل الخلافة العباسية أو الفرق الأخرى. وفي رواية أن المكتبة المعصومة بتاهرت التي أحرقها أبو عبد الله الشيعي كانت تزخر بمئات الكتب وعشرات المدونات والمصنفات.. كما أتى أبو عبد الله الشيعي على تراث الصفرية في سجلماسة سنة 297هـ/909م.

ومن خلال قراءتنا للمصادر المتواجدة لدينا عن عُمان نطالع العديد من أسماء المؤلفين وأسماء المصادر المفقودة أو غير المكتشفة بعد. وتشير رواية تاريخية إلى أن مكتبة كبيرة في عُمان كانت تضم 9.370 (تسعة آلاف وثلاثمائة وسبعون كتابًا) مصدرًا أحرقت أثناء الحرب الأهلية في بداية القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي. وللبرادي (من علماء القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي)

رسالة بعنوان "رسالة في تقييد كتب أصحابنا" وهي عبارة عن قائمة بأسماء الكتب التي ألفها علماء الأباضية في المشرق والمغرب. ويبدو أن البرادي كتب هذه القائمة المهمة ردًا على سؤال ورده من أحد زملائه من العلماء طالبًا إليه تسمية الأباضية وسيرهم، وهي تقع في ثلاث ورقات وتحتوي على أسماء كتب وسير أغلبها في العقيدة والفقه. وينهي البرادي قائمته برواية عن أبي العباس أحمد بن بكر أنه قال كان لدى الشيخ سعيد من كتب المذهب نحوًا من ثلاثة وثلاثين ألف جزء فتخير أكثرها فائدة وقرأه!! وإليك قائمة بالكتب التي أوردها البرادي في قائمته عن كتب علماء الأباضية المشارقة.

- صفة إحداث عثمان بن عفان- لمؤلف مجهول.
- أخبار صفين وأخبار أهل النهر- لمؤلف مجهول.
- كتاب عبد الله بن أباض كتب به إلى عبد الملك بن مروان.
- كتاب سالم بن الحطيئة الهلالي في العقائد والنقض والاحتجاج.
- كتاب شبيب بن عطية.
- كتاب الفرائض لابن عبد الجبار.
- مسند الربيع بن حبيب.
- الحجة على الخلق في معرفة الحق لضمام رواية أبي صفرة عبد الملك بن صفرة كتاب أبي سفيان ويشتمل على الأخبار والفقه والكلام والعقايد.
- مدونة أبي غانم تشتمل على عدة كتب.
- كتاب محمد بن محبوب سبعون جزءًا.
- جامع أبي جعفر.
- مختصر الشيخ أبي الحسن وهو (سبوغ النعم).
- جامع الشيخ أبو الحسن.
- مدح العِلم وأهله لأبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة.
- كتاب التقييد لأبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة.
- سير الشيخ أبي محمد الحسين بن علي بن محمد البساوي (البسيوي).

- كتاب التخصيص لأبي بكر الأزكوي.
- كتاب الذكاير والحجج وهو المعروف بالحضرمي.
- كتاب الضياء... وهو من أثر تصنيف أهل الدعوة.
- كتاب النور "مختصر عن كتاب الضياء ولله در صاحبه ما أرشق إشارته في تسميته بالنور عن الضياء، وكيف استخرج هذه العبارة من قوله تعالى (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورًا)... ولعمري أن كل واحد منهما لمطابق مسماه لمعناه".
- كتاب تفسير الخمسماية آية في الحلال والحرام لأبي المؤثر الصلت بن خميس.
- كتاب الحل والإصابة لمحمد بن وصاف.
- سيرة الإمام عبد الله بن يحيى وخطب المختار بن عوف- لمؤلف مجهول.
- كتاب أشعار الإمام عبد الله بن يحيى.
- كشف الغمة في اختلاف الأمة.
- المقطعات لأبي سعيد العُماني.

ويذكر السالمي في كتابه (اللمعة المرضية) أسماء كتب ورسائل لعلماء الإباضية الأوائل ورغم كونها مرتبكة فهي ذات أهمية واضحة لأنها توضح لنا ما ألفه الإباضية الأوائل في مجالات مختلفة وهي تعزز القوائم الأخرى الموجودة في (قاموس الشريعة) للسعدي وفي (الصحيفة القحطانية) لابن رزيق و(كشف الغمة) للأزكوي.

إن هذه القوائم تؤكد بأن عُمان لم تفتقر إلى المصادر عن عقيدتها وتاريخها، ولكن أين هذه المصادر؟ يبدو أنها قد تفرّقت وتبعثرت في عُمان وخارجها بسبب الحروب وبسبب الغزو الأجنبي الذي سيطر على أجزاء منها. وقد كشفت لنا الأبحاث العلمية الحديثة في تاريخ عُمان أن المخطوطات العُمانية مبعثرة في مكتبات متفرقة بعضها في الوطن العربي في نجد ومصر وسوريا والعراق و المغرب وبعضها في مكتبات أوروبا، وكلّما أجهد الباحث نفسه كلّما عثر على مصادر جديدة ومادة أكثر غنىً ووفرة في تاريخ عُمان.

وبمناسبة الكلام عن المصادر فلابد من الإشارة بأن هدف مؤرخي الإباضية في عُمان كان على الدوام تسجيل وقائع وأحداث مجتمع الإباضية في عُمان أو على حد قولهم "المسلمين" فهو التاريخ الوحيد الجدير بالحفظ في نظر هؤلاء المؤرخين. أما ما عدا ذلك فهو غير مهم وليس هناك مبرر لتسجيله. ولهذا فالأخبار قليلة عن مناطق عُمان الأخرى التي لم تخضع لسيطرة الإمامة الإباضية، والأخبار أقل فيما يخص نشاطات عُمان البحرية والتجارية عبر البحار وكذلك عن العالم الإسلامي خارج عُمان باستثناء الأقاليم التي انتشرت فيها الإباضية مثل شمالي أفريقيا وشرقها.

وينطبق المبدأ نفسه على التاريخ العام خارج عُمان فهو تاريخ "الجبابرة" الأمويين والعباسيين ولا جدوى من ذكره. ولا يشير مؤرخو عُمان إليه إلا باقتضاب شديد وحين يتعلق الأمر بتاريخ عُمان نفسها.

لقد أثارت الأزمة الحادة التي مرّت بها الإمامة الإباضية في عُمان في نهاية القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي حين عزل الإمام الصلت بن مالك الخروصي، مناقشات عنيفة حول مشروعية العزل أو عدم مشروعيته، وأعقب ذلك انقسامات سياسية وفكرية تبلورت في ثلاثة تكتلات أو مدارس فكرية سياسية هي:

(1) مدرسة الرستاق التي أيدت الإمام الصلت وهاجمت بعنف الثوار الذين أسقطوه عن الإمامة وتبنت آراء "متشددة" حول طبيعة الإمامة الإباضية.

(2) مدرسة نزوى التي كانت محايدة بين مؤيدي الصلت بن مالك ومعارضيه وتبنت آراء معتدلة وحاولت التوفيق بين الأطراف المتنازعة الأباضية.

(3) وجهة النظر التي عبّرت عن موقف الثوار ضد الإمام الصلت بزعامة موسى بن موسى.

ومن البديهي أنه لا يمكن التعرّف على تاريخ عُمان خلال هذه الفترة إلا بمعرفة ما كتبه العلماء الذين عبّروا عن وجهات النظر المختلفة، وليس من السهل الوصول إلى كتب "سير" هؤلاء العلماء فهي مبعثرة في أماكن مختلفة وغير منشورة ولكن المصادر المتأخرة في تاريخ عُمان أمثال المعولي وابن رزيق والأزكوي والسالمي حوت روايات كثيرة مقتبسة من كتب الأوائل ورسائلهم وسيرهم. ومن المؤسف أن هؤلاء المؤرخين المتأخرين لا يشيرون إلا لمامًا إلى مصادرهم فهم، على عكس الطبري أو

البلاذري مثلاً، يسردون أحداث التاريخ دون سند إلا حين يتعرّضون إلى حادثة مهمة أو مشادة اختلفت فيها الآراء في التاريخ العُماني. ولا تساعدنا قوائم العلماء، التي أشرنا إليها سابقًا، كثيرًا في التعرّف على هؤلاء العلماء ومدى الثقة في المعلومات التاريخية التي يقدمونها.

لقد كتب العديد من العلماء المعاصرين للأزمة رسائل أو "سير" يظهرون فيها وجهة نظرهم في عزل الإمام الصلت. فكان أبو المؤثر الصلت بن خميس من أبرز المؤيدين للصلت وإمامته، حيث كان قد شارك في انتخابه للإمامة وكتب العديد من الرسائل والكتب حول الموضوع. ومن المؤيدين لإمامة الصلت بن مالك، أبي الحواري، محمد بن الحواري وأبي قحطان خالد بن قحطان فقد كتب كل منهما "سيرة" في تأييده لإمامة الصلت بن مالك وحرّض في قصائده قبائل حمير على الثورة ضد المغتصبين للإمامة.

أمام أبرز من يمثل التكتل المعارض لإمامة الصلت بن مالك والمؤيد للثوار بزعامة موسى بن موسى، فهو أبو جابر محمد بن جعفر الذي كتب في الفقه الإباضي كتابًا باسم (الجامع) ولعله يعتبر المرجع الوحيد للكتلة المعارضة خاصة وأنه ينقل بعض روايات عن الفضل بن الحواري وهو من علماء عُمان السابقين المؤيدين لموسى بن موسى. والمعروف أن هذه الكتلة ضعفت تدريجيًا حتى انتهت.

أما مدرسة نزوى المحايدة والتوفيقية فقد بدأت آراؤها بالظهور في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في كتابات آل الرحيل وأشهرهم بشير بن محمد بن محبوب بن الرحيل وفي "سيرة" محمد بن روح بن عربي، ومعظم مؤلفات هؤلاء فُقدت وبعضها ناقص ولكن نسبة لا بأس بها من المادة الموجودة فيها انتقلت إلى مصادر متأخرة تشير إلى سندها حينًا ولا تشير إليه في غالب الأحيان.

في بداية الأمر ومع استفحال المشادة حول الإمام الصلت كان التشدد أكثر نفوذًا وسطوة من الاعتدال، ولذلك كان لكتلة الرستاق الأثر الأكبر على غيرها من الكتل الأخرى. وقد تبلورت آراء الرستاق في الجيل التالي حين ظهر أبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة. وقد اشتهر ابن بركة بكتابه في الفقه الموسوم (بالجامع)، على أن شرحه لكتاب الجامع لابن جعفر يعكس في طيّاته الكثير من الآراء من الناحية السياسية. ويوافق أبو الحسن البيساني (البسيوي) ابن بركة في آرائه السياسية

والعقائدية المتشددة وكتب عدة "سير" تعكس آراءه في عزل الصلت بن مالك سنأتي عليها حين نناقش السير العُمانية.

ويجدر بنا القول بأن العوتبي صاحب (أنساب العرب) ظهر في نهايات هذه الفترة (أي من بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي أو قبل ذلك بقليل). وكتابه في التاريخ ضمن إطار النسب وسنناقش هذا الكتاب ضمن كتب النسب العُمانية.

ومع أن الإمامة الإباضية عادت فظهرت في عُمان في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. فإن الدولة الجديدة لم تستطع تحقيق الوحدة والقوة والازدهار الاقتصادي. فالوحدة كانت مهلهلة والازدهار كان ظاهريًا أكثر من كونه واقعيًا خاصة بعد أن انتقلت التجارة من صحار إلى قلهات. واستفحلت القبلية لدرجة أن السلطة كانت محتكرة من قبل اليحمد مما أدى إلى نزاع بين العلماء والجناح القبلي لكتلة الرستاق، وتبرأ علماء الجوف من الإمام راشد بن علي الحميري وانتخبوا لهم إمامًا جديدًا، ولكن اليحمد هاجمت الجوف سنة 579هـ/1183م وقتلوا الإمام الذي انتخبه العلماء هناك وبذلك سقطت الإمامة الإباضية مرة أخرى. ومع نهاية القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي واجهت قبائل اليحمد "وملوكها" قوة قبلية جديدة هي القبائل النبهانية التي فرضت سيطرتها على عُمان.

لم تبق مدرسة الرستاق على تطرفها السياسي والعقائدي، بل كان لابد لها أن تعدّل من موقفها الذي بدا أكثر مرونة واعتدالاً وتوفيقًا. وقد حدث ذلك في أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي وما بعده حين ظهر محمد بن إبراهيم الكندي ومحمد بن موسى الكندي وأبو بكر أحمد بن عبد الله الكندي. ويعتبر هذا الأخير من أبرز العلماء من الناحية السياسية ذلك أن كتابه الموسوم (المصنّف) يعكس آراءًا سياسية مهمة عن تلك الفترة المضطربة. كما ألّف كتابًا آخر باسم (الاهتداء) يوضح فيه الخلاف بين مدرسة الرستاق ومدرسة نزوى. ويدافع أبو بكر الكندي في كتاب ثالث له باسم (سيرة البررة) عن وجهة نظر مدرسة الرستاق التي ينتمي إليها.

إن آراء مدرسة الرستاق التي مالت تدريجيًا نحو الاعتدال تتمثل كذلك في كتابات أحمد بن سليمان بن عبد الله بن النظّار. ويشير السالمي إلى بعض كتبه مثل

(سلك الحجان في سيرة أهل عُمان) و(قرى البصر في جمع مختلف من الأثر). ولكن هذه الكتب قد فقدت عند هجوم القبائل النبهانية على سمائل في منتصف ذلك القرن، وربما أحرقت في النار التي شبّت أثناء الهجوم.

أما وجهة نظر مدرسة نزوة المعتدلة فيمثلها في هذه الفترة أبو سعيد الكدمي، وتعد كتبه مصادرنا الوحيدة عن تلك الفترة وما قبلها بقليل. ولابد أن نشير بآن آراءه المعتدلة ساعدت على تكوين ذلك المناخ السياسي المعتدل والمتسم بالتوفيق والمرونة حول الإمامة الإباضية وبذلك طويت إلى الأبد تلك المشادة الفكرية حول مسألة عزل الإمام الصلت بن مالك. إن وجهة النظر المعتدلة هذه والتي دعى لها أبو سعيد الكدمي وأمثاله هي التي ساعدت على إعادة ظهور الإمامة الإباضية بعُمان مرة أخرى في القرن الثامن عشر الميلادي واستمرارها إلى ما بعد منتصف القرن العشرين الميلادي.

ومن المؤسف أن كتابات هؤلاء العلماء تفتقر إلى المادة التاريخية فهي في غالبها ليست تاريخ بل تعالج مسائل في العقائد والفقه وآراء سياسية أحيانًا وتركز على طبيعة الإمام وعلاقته بالأمة، وهي كما ذكرنا سابقًا تعكس وجهات النظر المتضاربة حول الموضوع ابتداء من عزل الإمام الصلت. فمثلما كان مقتل عثمان بن عفان بداية المشادة التي أدت إلى انشقاق الأمة في العصر الراشدي، فإن عزل الصلت بن مالك أدى إلى انشقاق الشيعة الإباضية إلى كتل مختلفة تمثل وجهات نظر متعارضة حول طبيعة الإمامة. وقد استمر علماء الإباضية يكتبون حول تلك المسألة ويطورون آراءهم بين التشدد والاعتدال قرونًا عديدة دون أن يسموا إلا قليلاً حقائق وأحداث تاريخية عن عُمان. بل إن الدكتور ولكنسون يلاحظ بأن كتب التراجم عن سير هؤلاء العلماء ربما تزودنا بمعلومات تاريخية أكثر من مؤلفاتهم!!

وحين يأتي المؤرخ إلى تاريخ عُمان خلال الفترة النبهانية بين القرن السابع الهجري والتاسع الهجري/ الثالث عشر الميلادي والقرن الخامس عشر الميلادي لا يجد أي مصدر تاريخي معروف. وليس ذلك بغريب فهؤلاء النبهانية ليسوا أباضية وإذا كانوا إباضية كما يقول البعض فهم لم يطبّقوا تعاليمها. وملوكهم من "الجبابرة" لا يشير إليهم مؤخو عُمان الإباضية من القرون التالية. ويرى الدكتور ولكنسون أنه لابد أن يكون قد ظهر بين النبهانية أنفسهم من أرّخ لهم وتجد صدى ذلك في بعض روايات السالمي عن تلك الفترة.

ولقد جرت محاولة فاشلة في القضاء على سلطة النبهانية وإعادة الإمامة الإباضية في القرن الخامس عشر الميلادي/ التاسع الهجري وكانت نتيجتها أن عزز ملوك النبهانية نفوذهم وذلك بالتحالف مع الحساوية من خارج عُمان. إن ذلك التحالف مع كتلة غير عُمانية أدى إلى رد فعل إقليمي داخل عُمان حيث اجتمعت قبائل عُمان بزعامة ناصر بن مرشد اليعربي لطرد الدخلاء والقضاء على النبهانية المتحالفين معهم.

على أن المهم من ناحية التدوين التاريخي هو بداية ظهور ظاهرة جديدة في تسجيل التاريخ العُماني منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري ألا وهي ظهور مصادر جديدة تكتب تاريخ عُمان بصورة حولية دون أن تركز على مسألة الإمام الصلت أو طبيعة الإمامة. فظهر مؤرخون كتبوا عن "اليقظة" الجديدة للإمامة الأباضية مثل ابن قيصر الذي كتب عن الإمام ناصر بن مرشد ثم أعقبه مؤرخون آخرون كتبوا في التاريخ الحولي المحلي وفي النسب والتراجم المحلية.

إن الاعتناء بهذه المصادر وجمعها وتحقيقها تحقيقًا يعتمد أصول التحقيق العلمي والنقدي سيبرز، دون شك، أهمية عُمان في العصر الإسلامي الوسيط سياسيًا وحضاريًا على حد سواء.

يضم هذا الكتاب ثمانية مباحث: يعالج المبحث الأول مصادر التاريخ العُمانية من سير وأنساب وتاريخ حولي محلي وتراجم وغيرها كتبها مؤرخون عُمانيون وفي عُمان نفسها، وقد اقتصرت هذه المصادر على ما وجدناه في مكتبات المملكة المتحدة غالبًا وما وصلت إليه أيدينا من مصورات ومخطوطات في مكتبات أخرى. ومن نافلة القول بأن هناك العديد من المصادر العُمانية في حقول أخرى مثل العقيدة والفقه والأدب والفرق والتفسير، بل أن هناك مصادر تاريخية عُمانية أخرى في عُمان وبلدان أخرى لم نستطع الوصول إليها. من هنا كان هذا المبحث جزء من مجهود كبير يستدعي تكاتف السواعد والعقول والاختصاصات في سبيل إحياء التراث العُماني في المجالات كافة. وقد سبق أن نشر جزء من هذا المبحث في الكتاب الذي أصدرته جامعة الرياض عن المؤتمر الدولي لتاريخ شبه الجزيرة العربية، في الرياض سنة 1975م، كما نشرت مجلة المورد العراقية جزءًا آخر منه، ثم جمعت محاور البحث كافة بعد أن أُضيفت لها أجزاء أخرى كانت نتاج سنة تفرّغ علمي قضيتها في المملكة المتحدة 77-1978م، في كراس نشره اتحاد المؤرخين العرب في بغداد سنة 1979م.

أما المبحث الثاني فيتطرّق إلى دور أهل عُمان في نشر الإسلام والعربية وخاصة في سواحل الخليج الشرقية وبلاد فارس عامة. وكان هذا البحث قد أُرسل مشاركة مني في ندوة عُمان سنة 1990م وقد حالت الظروف حينذاك دون مشاركتي في تلك الندوة.

ويناقش المبحث الثالث (نظرية الإمامة لدى الإباضية في عُمان) معتمدًا على مصادر أباضية عُمانية ومغربية أصيلة. وكان قد نُشر لأول مرة ضمن كتابي الموسوم "التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين"، بيروت، 1980م.

أما المبحث الرابع (الفكر السياسي للخوارج بين النظرية والتطبيق) فينظر إلى الحركة الخارجية نظرة شمولية ويختار بعض مظاهرها مناقشًا الفرضية القائلة بأن الأفكار السياسية في مرحلة التنظير والدعوة اختلفت عن مرحلة التطبيق والدولة مؤكدًا ذلك بأمثلة تاريخية - لحركات خارجية عديدة. وقد نُشر هذا المبحث في مجلة الندوة، مركز الدراسات الدولية، عمّان، 1999م.

يحاول المبحث الخامس أن يعالج موضوع تدهور ثم سقوط الإمامة الإباضية الثانية بعُمان سنة 280هـ/893م وهي فترة تعد من أزهى العهود سياسيًا وحضاريًا، ولكن النعرة القبلية وترجيح المصالح الشخصية وقلة اهتمام الجيل الجديد بالمذهب، كل هذه العوامل كانت من أسباب سقوط الإمامة الثانية. وكان هذا المبحث قد نُشر في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، 1975م.

أما المبحث السادس فيبحث في انتشار العرب وخاصة أهل عُمان في أقاليم الخليج الشرقية وخاصة إقليم فارس والأحواز وكرمان ومكران، ويثبت بالروايات التاريخية الموثوقة أن نشاطات العُمانيين وحركتهم وهجراتهم السلمية والحربية جعلت من الخليج بحيرة عربية. وقد نشر هذا البحث في مجلة المنارة، جامعة آل البيت، المفرق، 1999م.

وتطرّق المبحث السابع إلى أسلمة الخليج في فترة صدر الإسلام (باللغة الإنكليزية) وقد نشرت بمناسبة بلوغ المستشرق برنارد لويس السبعين من العمر، في الكتاب التذكاري الموسوم:

The World of Islam, Princeton University, U.S.A. 1989

أما المبحث الثامن والأخير الذي يُعالج المراكز "الحضرية" في الخليج في صدر الإسلام (باللغة الإنكليزية) فقد شارك في ندوة معهد دراسات الخليج العربي جامعة إكستر بإنكلترا ثم نشر في مجلة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط الموسومة:

British Society for M.E.S. Bulletin, vol. 14,No.2, 1988: Taylor and Francis Ltd., II New Fetter Lane, London EC 4P 4EE, England.

وقد أعدتُ نشر هذه البحوث بعد تنقيحها وبعد الحصول على موافقة الناشرين الأوائل، حيث حصلت على موافقة مؤسسة تيلر وفرنسيس للنشر بتاريخ 14 حزيران 2000م، وموافقة عمادة كلية الآداب والعلوم بجامعة بغداد رقم م/ع/4 في 2000/5/20م، وموافقة اتحاد المؤرخين العرب في بغداد رقم ت/359 بتاريخ 2000/5/29م، وموافقة رئيس تحرير مجلة الندوة رقم 2027/18/14 بتاريخ 2000/4/26م، وموافقة رئيس تحرير مجلة المنارة بتاريخ 2000/5/17م.

انتهز هذه الفرصة لأعبر ثانية عن الشكر إلى الأستاذ الدكتور محمد عدنان البخيت رئيس جامعة آل البيت على حرصه لدفع مسيرة وحدة الدراسات العُمانية بوتائر متواصلة. مبديًا استعداد الجامعة من خلال الوحدة العُمانية لدعم كل جهد علمي متميز يقوم به الباحثون المختصون في أي مجال من مجالات الحياة العُمانية. والشكر موصول للدكتور حسين القهواتي لاهتمامه ورعايته للكتاب والمؤلف. كما أشكر كل من السيدين عبد الرحمن الحيحي وخالد الخالدي لجهدهما في إخراج الكتاب وإعداده للنشر، والسيد جهاد المصري لمساعدته في إعداد الكشاف.

آمل أن تكون هذه الدراسة حافزًا لإعداد دراسات أخرى، والله من وراء القصد وهو نعم النصير.

المؤلف

مقدمة كتاب (الموجز في تاريخ عُمان السياسي) (4)

على سبيل التعريف

تعود اهتماماتي بتاريخ عُمان إلى أواخر الستينات وأوائل السبعينات من القرن الماضي حين كنت طالبًا في جامعة لندن أدرس للحصول على الدكتوراه في التاريخ الإسلامي. وقد جلب انتباهي وأنا أطالع المصادر الإسلامية لأجمع المادة التاريخية عن موضوع أطروحتي (الدعوة العباسية)، أن هناك دعوة أخرى ملازمة لها ومتزامنة معها وهي (الدعوة الإباضية) حيث تشترك الدعوتان في السرية والتنظيم الدقيق والمعارضة وفي الوقت (أواخر العصر الأموي) وفي الساحة (ساحة العراق) حيث كان الداعية العباسي أبو سلمة الخلال يعمل بنشاط من الكوفة وكان الداعية الإباضية الإمام جابر بن زيد الأزدي يعمل بنشاط كذلك من البصرة من أجل تحقيق أهداف مرسومة متباينة.

ولكن الفارق بين الدعوتين العباسية والإباضية هو في الأخبار والروايات التاريخية المتوفرة عن الدعوتين: ففي الوقت الذي تكثر الروايات عن أحداث الدعوة العباسية، فإن العكس هو واقع الحال بالنسبة للدعوة الإباضية. إن مثل هذه المفارقة لابد أن تدفع الباحث إلى التساؤل، وقد ازداد تساؤلي بعد أن فرغت من أطروحتي عن الدعوة العباسية وعدتُ إلى موطني العراق، حيث بدأت أجمع الأخبار المتناثرة عن الدعوة الإباضية في مصادر التاريخ الإسلامي العامة علها تساعدني على تكوين صورة و اضحة أو شبه واضحة عنها وقد نشرت في حينها مقالاً ببليوغرافيًا في مجلة المورد البغدادية عن (ببلوغرافيا في تاريخ عُمان) 1974م، على أمل أن أجد استجابة من القرّاء المتخصصين في الموضوع، اتبعتها بمقالة عن (ملامح من تاريخ الإباضية كما تكشفها مخطوطة الأزكوي) في مجلة المؤرخ العربي، بغداد 1975م.

لقد كان من أوائل الخطوات التي أقدمت عليها بعد أن قضيت عدة سنوات في قسم التاريخ بكلية الآداب/ جامعة بغداد وعهد إليّ بالإشراف على رسائل الماجستير، أن اخترت أحد طلابي النابهين والجادّين مهدي طالب هاشم لعمل أطروحة عن الموضوع الذي شغلني منذ كنت طالبًا للدكتوراه فكان الاتفاق معه على أن يكون البحث بعنوان (الحركة الإباضية في المشرق العربي). وكان اختياري

للطالب مهدي موفقًا فما أن أُقر البحث بصورة رسمية حتى دأب على جمع مادته من المصادر إلا أنه جابه، كما جابهت سابقًا، معوقًا مهمًا وهو ندرة الأخبار عن الدعوة الإباضية في مصادرنا المعروفة. ولكن مهدي لم يتوانى ولم يغير موضوعه بل طلب الموافقة على سفره في رحلة لطلب العلِم خارج العراق دامت أكثر من ستة أشهر زار خلالها: مكتبات المخطوطات في مصر وسوريا وجربه (بتونس) ثم الدمام بالمملكة العربية السعودية. عاد بعدها محملاً بكنز من المعلومات والأخبار القيّمة والمفيدة استقاها من ينابيعها الأصلية من المصادر الإباضية المتنوعة من سِيَر وتاريخ وتراجم وفقه وعقيدة.

وحين بدأ مهدي ينسقها ويحللها ويقارن بينها كانت الصورة عن الدعوة الإباضية تتجلى فصلاً بعد فصل. فكانت أطروحته بعد أن تمت مناقشتها بكلية الآداب، جامعة بغداد في 1977م أول أطروحة أكاديمية علمية تناقش في جامعة عربية على حد علمي. وكانت بالنسبة لي وأنا أقرأ فصولها الواحد بعد الآخر عملاً علميًا موضوعيًا لطالب يحب العلِم والحقيقة التاريخية رحمه الله رحمةً واسعة.

لم أكتفِ بما قام به مهدي طالب هاشم وما جلبه من معلومات تاريخية مستقاة من مخطوطات إباضية، بل انتهزت أول فرصة أتمكن فيها من التمتع بتفرغ علمي لمدة سنة ويممت شطر بريطانيا وكان عنوان بحثي (مصادر التاريخ المحلي العُمانية). وقد اطلعت خلال فترة التفرّغ العلمي على مخطوطات مهمة في التاريخ المحلي لعُمان ومخطوطات في السِيَر والنسب الفقه والعقيدة والتراجم نشرتها بعد ترتيبها وتحليلها والتعليق عليها في كتاب بعنوان (مقدمة في دراسة مصادر التاريخ المحلى لعُمان/ التاريخ العربي) ظهرت طبعته الأولى 1979م، على نفقة اتحاد المؤرخين العرب في بغداد، تلتها طبعات أخرى.

ومنذ ذلك الحين غدا تاريخ عُمان في القرون الإسلامية الأولى ضمن اهتماماتي البحثية كتخصص دقيق مثله مثل تاريخ العصر العباسي، وبرز ذلك بشكل كتب وأبحاث عديدة، وكنت ولا زلت أقترح موضوعات في تاريخ عُمان على طلبة الدراسات العُليا الذين أُشرف على رسائلهم في الجامعات التي عملتُ فيها مثل جامعة آل البيت في المملكة الأردنية الهاشمية (1994-2004م) التي كان لي شرف المشاركة في تأسيس ورئاسة قسم التاريخ فيها، ومن ثم المشاركة في تأسيس (وحدة الدراسات العُمانية) في الجامعة نفسها وكنت أول مدير لها.

ومنذ أن التحقتُ بجامعة السلطان قابوس 2004م، كان من أهم واجباتي التدريس والإشراف على طلبة الدراسات العليا، وكان تاريخ عُمان من ضمن الدراسات التي تم توجيه الطلبة إليها من أجل عمل أطروحات تسبر أحداث التاريخ العُماني ومظاهره عبر العصور بعمق وموضوعية وتستند على مصادر ووثائق وسجلات عُمانية وغير عُمانية من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

يتناول هذا الكتاب تاريخ عُمان خلال الفترة الإسلامية الوسيطة منذ ظهور الدعوة فالإمامة الإباضية في 132هـ/749م حتى نهاية فترة بني نبهان الأولى 906هـ/1500م حيث يُعدّ هذا المنعطف نهاية للعصر الإسلامي الوسيط وبداية للتاريخ الحديث.

يُعد الإباضية أنفسهم الممثلين الحقيقيين للأمة الإسلامية ومنهاجهم "منهاج أهل العدل". وترى الإباضية أن الأمة تختار الإمام اختيارًا حرًا ليس لاعتبارات الأصل أو القبيلة وزن فيه، ويحق للأمة عزل الإمام إذا أخلّ بشروط العقد. والإمامة -عند الإباضية- فريضة وأنها تثبت إذا وقع التراضي به من الخاصة من (أهل الحل والعقد) من أهل العِلم والفقهاء.

لقد حاول الإباضية إقامة كيانات مستقلة عن الخلافة العباسية في أقاليم عديدة أبرزها عُمان واليمن وشمالي وشرقي أفريقيا. ورغم ظهور تيار "متشدد" ضمن الدعوة الإباضية -كما هي في كل الحركات والفرق الأخرى- فإن أغلب فقهاء الإباضية "وحملة العِلم" أجمعوا على الموقف المتّسم بالمرونة والاعتدال والنظرة التوفيقية التي تأخذ بنظر الاعتبار البيئة والظروف السياسية والاجتماعية التي انتشر فيها المذهب. وقد عرف عنهم أنهم لم يكفّروا غيرهم من المسلمين ورأوا أن مناكحتهم جائزة وشهادتهم مقبولة وموارثتهم حلال ولم يجيزوا "الاستعراض" وقتل المخالفين لهم في المذهب لأن كفرهم كفر نعمة وليس كفر ملّة، وعدوا دار مخالفيهم من أهل الإسلام "دار توحيد" لا دار كفر. كما وأجاز فقهاء الإباضية "التقية". وفي مجموعة هذه المبادئ يمكن سر نجاح الإباضية وازدهارها واستمرارها وتأسيسها كيانات سياسية في أكثر من إقليم من الأقاليم الإسلامية.

وفي الختام لابد من الإشارة بأن الهدف من هذا البحث هو إبراز تاريخ عُمان السياسي في القرون الإسلامية الأولى وتعاملها مع القوى السياسية المحيطة بها من خلال التعامل معها على الساحة.

ومن الله التوفيق ،،،

المؤلف

كتاب (تاريخ عمان ودراسات في الحضارة الإسلامية) [5]

التمهيد

قبل الدخول في موضوع الحضارة الإسلامية من حيث تطورها وخصائصها، لابد من الإشارة باختصار إلى عدد من المصطلحات والمفاهيم ذات العلاقة بالحضارة والتي قد تساعدنا إلى فهم أفضل للموضوع الذي نحن بصدد معالجته في الباب الثاني من هذا الكتاب.

ولعل أول هذه المصطلحات هو "الحضارة" وعلاقتها بالمدنية والثقافة. والواقع فإن المهتمين بأصول الحضارات اختلفوا في توضيح مفهوم هذه المصطلحات. ويرتبط معنى الحضارة في اللغة العربية بسكنى المدن والقرى والاستقرار بها (الحضر)، بينما تعني البداوة حياة التنقل في البادية. إن اقتران الحضارة بسكنى القرى والمدن، لأن ظهورها وازدهارها ارتبط باستقرار الإنسان على الأرض بعد ممارسته للزراعة. وتدل الحضارة على نوع من الحياة يتمثل بالاستقرار والإقامة الدائمة. وليس ضروريًا أن يكون هذا الاستقرار في المدينة. فالواقع التاريخي يدل على أن الاستقرار بدأ في القرى الصغيرة ثم اتسعت القرى وتطورت فأصبحت مدنًا. ولذلك فإن الحضارة بمعنى الاستقرار والإقامة الدائمة تشمل القرى والمدن على حد سواء.

وإذا كانت الحضارة بمعناها الواسع تتضمن كل ما يتعلق بحياة الحضر، الذين يستقرون في الحاضرة (أي في القرية أو المدينة) من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية وفكرية وصناعية وفنية إضافة إلى العادات والتقاليد والقيم، فمعنى ذلك أن الحضارة لا تتعلق بمجتمع محدد من المجتمعات البشرية، بل لكل مجتمع حضارة ولكن الحضارات تختلف في مستواها فهناك حضارات بدائية وحضارات راقية.

ولكنَّ المفكرين اختلفوا حول مفهوم "الحضارة" فمنهم من يقصر الحضارة على الجانب الفكري والقيم المعنوية، بينما يرى آخرون أن الحضارة هي مجموع المنجزات التي حققها أبناء المجتمع عبر التاريخ من أجل تطوير مستوى معيشتهم نحو

الأفضل، سواءً كانت تلك المنجزات مادية أم معنوية، ونقصد بالمنجزات المادية الآلات والأدوات والمباني والمصانع والجسور والوسائل المادية المتنوعة، أما المنجزات غير المادية فهي مختلف العلوم والمعارف ومجموعة القيم والمثل والنظم والفنون والآداب.

وظهر مصطلح "المدنيّة" كمصطلح مرادف لمصطلح الحضارة عند بعض العلماء، بينما فرّق بعضهم بين المصطلحين، ورأوا أن المدنيّة تقتصر على الجانب المادي، على عكس الحضارة التي جعلوها مقتصرة على الجانب الفكري، كما وأن بعضهم جعل المدنيّة مرحلة أكثر تطورًا من الحضارة. والواقع أن كلمة "المدنيّة" مشتقة من المدينة التي تشتمل على مجموعة كبيرة من البيوت التي يزيد عددها على بيوت القرية. فالمتمدن هو الشخص الذي يسكن المدينة ويتخلق بأخلاق أهلها. والإنسان مدني بالطبع أي أنه يميل إلى العيش والتعامل مع أبناء جنسه من البشر، ولا يكون ذلك إلا في المدينة حيث كثرة السكان واختلاف ميولهم وطبائعهم وحرفهم وطرق معيشتهم. وفي المدن كذلك تظهر جليًا مظاهر التقدم المادي في أساليب الحياة واستخدام المنجزات المادية. ومن هنا جاء استخدام مصطلح مدينة للدلالة على هذا الجانب المادي.

وفي الغرب شاع مصطلح المدنيّة Civilization وأصبحت معبرة عن مستوى راقي من الحضارة، ووصفت المجتمعات المتسمة بالتطور والرقي بأنها مجتمعات متمدنة. ولعلنا هنا نستذكر العالم والمؤرخ العربي المسلم ابن خلدون الذي قال في مقدمته "ولهذا نجد التمدن غاية البدوي يجري إليها"، كما لاحظ ابن خلدون أنه قد نشأ عن الاجتماع الإنساني نوعان من العمران هما: العمران البدوي والعمران الحضري. وأرجع ظهور هذين النوعين من العمران إلى اختلاف طريقة عيش الناس في كل منهما "إعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما باختلاف نحلتهم من المعاش".

وهنا يعترضنا مصطلح آخر لابد من معالجته وهو مصطلح "الثقافة" الذي له أكثر من تعريف متداول بين العلماء المختصين خاصة في علم الاجتماع وعلم الانثروبولوجيا (علم تطور الإنسان). فالثقافة في اللغة العربية تعني الفطنة والمهارة، وهي مشتقة من الفعل ثَقَفَ فيقال ثقف الصبي أي تهذّب وتعلّم، ويقال كذلك إنسان مثقف بمعنى أنه حاز على مستوى راق من المعرفة المتنوعة. وقد استخدم المصطلح بداية للدلالة على "المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي يتحلى بها فرد من الأفراد أو مجتمع من المجتمعات. ولكن مدلول الثقافة بدأ يتغير حتى اتسع معناها

وأخذت تتناول نظام الحياة الذي يعيش بموجبه شعب من الشعوب، كما تتناول أساليب تفكير ذلك الشعب وعاداته وتقاليده وقواعد سلوكه وعقائده ومؤسساته. وبمعنى آخر "مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات".

إن هذا التطور في مفهوم مصطلح الثقافة جعلها تقترب في معناها من "الحضارة" Culture. وبهذا لم تعد الثقافة صفة مقصورة على المجتمعات المتطورة، بل امتدت لتشمل المجتمعات الإنسانية كافة سواء أكانت تلك التي تعيش في طور البداوة لم طور الحضارة، لأن "الثقافة" حسب المفهوم الجديد هي "طريقة في الحياة"، كما لم تعد الثقافة مقصورة على المعارف العقلية والذوقية بل كل الأعمال التي يمارسها الإنسان في طلب العيش من تجارة وزراعة وصناعة، ومرة أخرى نلاحظ بأن مصطلح الثقافة بمفهومها الشمولي الجديد يلتقي مع مفهوم المؤرخ ابن خلدون لمصطلح "العمران". فالعمران عنده بدوي وحضري وذلك لأن لكل من البدو والحضر طريقتهم الخاصة في الحياة والتعامل.

ومنذ عصر ابن خلدون وحتى عصرنا الحاضر لا تزال التعريفات تترى حول مفهوم الثقافة وحدودها وأهميتها، وليس هنا موضع سردها ونقدها، ولكنا سنقتصر على التعريف الذي اتفقت عليه منظمة اليونسكو UNESCO والذي يقول: "الثقافة بمعناها الواسع يمكن أن ينظر إليها على أنها جميع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعًا معينًا أو فئة اجتماعية معينة، وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة، كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات".

وقد أخذ العديد من العلماء العرب والمسلمين، بطريقة أو بأخرى، بمفهوم هذا التعريف، كما أخذت به المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم حيث أكدت أن الثقافة تنتظم جماع السمات المميزة للأمة من مادية وروحية وفكرية وفنية ووجدانية. فهي والحالة هذه تشمل مجموعة المعارف والقيم والالتزامات الأخلاقية وطرائق التفكير وسبل السلوك والتعبير وطرز الحياة.

ولعلنا نختم كلامنا عن الثقافة وشموليتها بالقول بأن المجتمع الإسلامي في العصر العباسي وما بعده شهد نموذجًا لإعداد مثقفين للعمل في مؤسسات الدولة،

فقد ألّف عدد من المفكرين كتبًا باسم (أدب الكاتب) غرضها الأساسي إعداد الكتّاب (موظفي الدولة في الدواوين) لاستلام وظائفهم وذلك من خلال إعطائهم جرعة شاملة "لثقافة عصرهم" حيث يلمّوا من كل علم بطرف وبذلك يكونوا قادرين على أداء واجباتهم الرسمية. ومن هنا غدا "المثقف" هو الذي يعرّف نتفًا من علوم كثيرة. ولعل من أشهر المؤلفات في هذا الصدد كتاب ابن قتيبة الدينوري الموسوم (أدب الكاتب) وكتاب القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشا).

أما الحلقة التالية من المصطلحات ذات العلاقة فتتناول: التراث والأصالة والمعاصرة:

"فالتراث" هو كل ما وصل إلينا من الماضي من إنتاج فكري أو مادي أو فني أو تقني، ويشترط فيه أن يكون من نتاج البشر حيث تركه السلف (الأجيال السابقة) إلى الخلف (الأجيال الحاضرة). ويشمل التراث بصفة عامة وتراث الحضارة الإسلامية بصفة خاصة منجزات مادية وغير مادية. فالمنجزات المادية تتضمن الوسائل والأدوات التي ابتدعها الإنسان واستخدمها لتحقيق غايات معينة، فكل أدوات الصناعة والزراعة والتجارة ووسائلها وكل أدوات الحرب والفنون المعمارية من حصون وقصور وقلاع وجسور وطرق ومستشفيات منجزات مادية. أما المنجزات غير المادية فتشمل العلوم والآداب والنظم المتنوعة والنظم الاقتصادية والاجتماعية والقضائية والسياسية والتربوية وغيرها، وكذلك تشمل المنجزات غير المادية مجموعة من القيم الأخلاقية والجمالية والفكرية والاجتماعية.

ويبدو مما أشرنا إليه في تراث الحضارة الإسلامية أن ما يتصل بالوحي (القرآن الكريم والحديث القدسي الشريف) لا يدخل ضمن إطار التراث، والسبب كما أشرنا في تعريف التراث أنه إنجاز بشري، أما الإسلام فهو دين إلهي. ومن هنا فنحن نتحدث وننتقد التراث في سلبياته وإيجابياته، ونتكلم عن منجزات التراث في فترات الإبداع والازدهار وفي فترات الركود والتدهور.

والتراث مهم في تثبيت الهوية وتنمية الذات، ومن هنا كانت شخصية الأمة ترتبط بتراثها، والتراث بعد ذلك عنصر توحيد ثقافي ونفسي وأدبي ومصدر وحدة في الاتجاه في المجتمع. إلا أننا لابد أن ندرك بأن النظرة إلى التراث يجب ألا تكون عاطفية وتضفي عليه هالة مقدسة، ذلك لأن فيه جوانب كانت مناسبة للعصور الماضية، ولكنها ليست مناسبة لعصرنا الذي نعيش فيه. وبمعنى آخر فإن التراث

فيه ما انتهى مجاله وفيه ما هو نافع ومجدي ومعبِّر عن عبقرية الأمة. وتجاه هذه الحالة لابد أن نفرق بين العناية بالتراث وبين إحياء التراث. فالعناية بالتراث تعني إظهاره وصيانته مثل الآثار والمخلفات المادية والفكرية. وبهذا نقدم التراث لمن يرغب التعرّف عليه. أما إحياء التراث فنعني به تقييمه ونقده وتمييز العناصر الحية التي يمكن أن يكون لها دور في حياتنا الحاضرة وإدخالها في ثقافتنا المعاصرة. ونخلص من ذلك بالقول إننا لا نريد أن نحكِّم التراث فينا، بل نخضع التراث للتقييم ونستفيد بالنافع منه في حياتنا الحاضرة.

وهنا يبرز التساؤل هل يعد تراث الحضارة الإسلامية الذي تكلمنا عنه تراثًا أصيلاً؟ وللإجابة على السؤال لابد أن نعرّف اصطلاح "الأصالة". والواقع أن الباحثين اختلفوا في تعريف الأصالة حسب المنطلقات الفكرية والاجتماعية التي ينتمون إليها. ومهما يكن من أمر فيمكننا تعريف "الأصالة" بمعناها الاصطلاحي بأنها ذلك الإنتاج المبتكر الذي يضيف معلومات جديدة وموثوقة إلى معلوماتنا أو يبتدع فكرة مبتكرة في عملية بناء المجتمع وتطور نظمه المختلفة. ولعل أهم شرط في هذا النتاج المبتكر هو أن يذلل عقبات رئيسية في طريق تطور الحضارة البشرية.

وليس من الضروري أن تكون حضارة ما أصيلة في مجموع مظاهرها أو نظمها، بل قد تختص الأصالة في بعض المظاهر دون غيرها. فالإضافات المبدعة قد تكون في بعض الحقول الفكرية دون غيرها، أو في بعض النظم دون بعضها الآخر. ومع ذلك فإن هذه الحضارة تعد حضارة أصيلة وليست مجرّد ناقلة أو متكّلة أو متقوقعة، وذلك لأنها أضافت إضافات جديدة في حقول معينة ساعدت على تقدّم الإنسانية.

إن الأصالة بهذا المعنى تصبح مجموعة من القيم والمعايير والمثل والمظاهر والمعارف التي يحال إليها من أجل معرفة هوية حضارة ما من الحضارات أو إدراك شخصيتها المتميزة عن غيرها، ومن خلال هذه المرتكزات أو المقومات البارزة يمكن التفريق بينها وبين حضارات أخرى. ثم إن قضية الأصالة لابد وأن نستند على التاريخ، ذلك لأن الحضارة مرتبطة بتجارب تاريخية موغلة في وجدان الأمة، بمعنى أنها حصيلة تجارب المجتمع في الماضي وصولاً إلى الحاضر وما أجزه من أعمال وأضافه من خبرات في شتى المجالات.

لقد اختلط مفهوم "الأصالة" في الحضارة بمفاهيم أخرى مثل التفاعل والاقتباس والتقليد والتجديد (المعاصرة) أو التحديث والعولمة. ولابد لنا أن نقرر بدءًا أن ليس هناك حضارة جاءت من العدم فـ "لا يستطيع أن يخرج شيئًا من لا شيء..."، وأن التراث الحضاري هو ملك الإنسانية جمعاء حيث ساهمت مجتمعات كثيرة في الماضي مساهمات بارزة ومتميزة في تطوير المعارف والنظم وابتكار أساليب جديدة أرفدت المعرفة بخبرات نقلت المجتمع البشري من طور إلى طور. ولهذا "لا يمكن الجزم أن حضارة ما مبدعة لم تتأثر بما سبقها من حضارات"، فلكل أمة دورها في تفسير ومعرفة ما قام به من سبقها ثم إضافة ما تستطيع إضافته إلى المعرفة البشرية، فالحضارة لا تتكامل إلا بمعرفة اللاحق للسابق والاعتراف بفضله وقدره. وبجملة واحدة فإن تكوين الحضارات يفرض اعتماد كل منها على الأخرى بصورة من الصور، فما الحضارات إلا أدوارًا ومراحل في حركة واحدة في حركة تطور المجتمع الإنساني. فالأصالة في حضارة ما ليس في كونها أنتجت تراثًا من العدم. بل في مقدار تفاعلها وأخذها وعطائها مع الحضارات الأخرى بحيث نتج عن ذلك كله "إضافات جديدة مبتكرة" إلى المعرفة البشرية في مجال أو أكثر من المجالات.

والقضية التي تهتم بها العديد من المجتمعات الإنسانية هي كيف يمكن التوفيق بين الأصالة والمعاصرة. وبمعنى آخر كيف يمكن الحفاظ على المثل والقيم والتقاليد والمؤسسات التي ابتكرتها حضارة ما من الحضارات وضمان استمرارية النافع منها وتحصينه من سلبيات التحديث السريع المفضي إلى التغريب والاستلاب. فالخطر هو أن تستمر عملية التحديث والمعاصرة إلى ما لا نهاية، وغالبًا ما تتحول إلى "تغريب" بسبب الاقتباس السهل عن الآخرين، دون النظر إلى ملائمة الأفكار والنظم المقتبسة مع طبيعة المجتمع ومقوماته. وبكلمة واحدة الاقتباس وحده لا يجدي، ولابدّ من تأصيل القضية من خلال تطوير المفاهيم والمثل استنادًا على روح العصر وجعلها نهجًا في الحياة العامة لا مجرّد أشكال مقتبسة، وهنا تتضح جدوى الاستجابة للمعاصرة، وفي هذا المجال تأتي التجربة اليابانية نموذجًا نافعًا، فاليابانيون مثلاً عرفوا كيف يحافظون على تقاليدهم الموروثة وقيمهم، وتمسكت العائلة اليابانية بكثير من تقاليدها في تربية الأطفال وطريقة الزواج... وبقيت وسائل الإعلام اليابانية حصنًا منيعًا للتقاليد اليابانية الموروثة فدعت باستمرار إلى الحفاظ على نظام القيم الياباني الذي يشكّل الركيزة الأساسية لضمان استمرارية النهضة

وتحصينها من سلبيات التحديث والمعاصرة السريعة والتي تؤدي إلى التغريب والاستلاب وفقدان الهوية.

أما الحلقة الأخيرة من المصطلحات فتتعلق: بالقومية والأمة والإنسانية. "فالقومية" في أبسط تعريفاتها نزعة تصدر من شعور الإنسان بكونه فرد في جماعة كبيرة يشاركها في اللغة والتقاليد والماضي والحاضر والآمال والآلام، ويجد أن مصلحته من مصلحتها وسلامته من سلامتها، ويأمل أن يراها ترتقي إلى مراتب التقدّم. وقد تبلورت هذه النزعة في أوروبا بشكل منظم بفعل التجارب التي مرّت بها، فانتشرت الروح القومية في القرن التاسع عشر الميلادي هناك، ثم تسرّبت إلى باقي الأقطار حتى وصلت إلى الشرق. وكان للشعور القومي مزايا إيجابية إذ ثبت روح الإخلاص للوطن وضرورة الاهتمام بتاريخ الأمة وتراثها وأن تربى الأجيال الصاعدة على الاحترام والتفهم لهذا التاريخ. ولكن القومية كان لها سلبياتها أيضًا، ذلك أن الأساس في النزعة القومية أن تكون في طبيعتها واتجاهاتها إنسانية فالذي يحب أمته ويعمل لرقيها وازدهارها، لابد له أن يتحلى بالروح نفسها تجاه الأمم الأخرى. وبمعنى آخر فالقومية الصحيحة لابد أن تكون إنسانية في نفس الوقت، وبعكسه فستتحول إلى نزعة عنصرية عدائية كما حدث في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية حيث انتهى المطاف بالعالم إلى حرب عالمية سببت الدمار والهلاك للبشرية. ثم إن الإقبال على الماضي القومي يكاد يكون أحيانًا إقبالاً يبلغ حد الانغماس والخضوع الكلي له، بحيث ينصرف الفكر والإحساس إلى ما في هذا الماضي من أمجاد وبطولات. وهذه النظرة تضخم الماضي ولكنها بنفس الوقت تهمل الكثير من الروابط التي تشد هذا الشعب بالشعوب الأخرى وتهمل وحدة التاريخ البشري المتشابكة.

أما مصطلح "الأمة" فهو بالمفهوم الغربي يعني دولة، أما بالمفهوم الاصطلاحي العربي فقد تكونت الأمة العربية في التاريخ على أساس اللغة والثقافة، صحيح أن الإسلام جاء بفكرة الأمة، وكانت العقيدة الإسلامية رابطتها، ولكن ذلك لا يتنافى ووجود روابط أخرى مثل رابطة اللغة والثقافة وقيام أمة على أساس لغوي/ ثقافي، خاصة وأن الإسلام اقترن في أوجه بالعروبة حتى كان الناس من غير العرب يرون في دخول الإسلام انتماء إلى العربية/ العروبية. فقد قال أحدهم للخليفة المنصور العباسي حين سأله عن هويته: "إن كانت العربية لسانًا فقد نطقنا بها وإن كانت دينًا

فقد دخلنا فيه". وفي العصر العباسي وخاصة مع بدء القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي فصاعدًا ترسخت فكرة الأمة العربية على أساس اللغة/ الثقافة، وأصبح المعيار الذي تقاس به عروبة الشخص هو معيار اللغة والفكر والولاء للمثل والقيم العربية- الإسلامية. وهكذا استقر في وعي الناس ارتباط العروبة بالإسلام أو الإسلام بالعروبة في مشارق دار الإسلام ومغاربه ليظهر جليًا في أوقات الأزمات والشدائد.

إن مسألة العلاقة بين العروبة والإسلام ضمن إطار الحضارة شكلّت مشادّة بين الباحثين، فمنهم من اقتصر على تسميتها بالحضارة العربية ومنهم من سماها الحضارة الإسلامية ومنهم من جمع بين الصفتين المتلازمتين وأطلق عليها الحضارة العربية- الإسلامية. ونحن لا نريد أن ندخل في التفاصيل، ولكننا نقول إن الإسلام بدأ بين العرب وفي موطنهم، فهم كما قال الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "مادة الإسلام". وأن الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) عربي وأن كتاب الله تعالى القرآن نزل باللغة العربية، وكان العرب هم الذين حملوا رسالته إلى الأصقاع بداية حتى دخلت فيه شعوب أخرى فيما بعد. وأكثر من هذا فإن بروز فكرة العربية/ العروبة لغة ورابطة جاء بتأثير الإسلام ابتداءًا بالقرآن والحديث النبوي. وبالعربية وضعت أسس الثقافة العربية الإسلامية وتطورت في فترة التكوين. وبهذه الطريقة التحم واندمج الداخلون الجدد في الإسلام بحملة الرسالة من العرب. وصار المؤمنون الجدد "عربًا"، لا باعتبار العنصر وإنما لأن "العروبة" أضحت فكرًا ودينًا وخلقًا، فهي والحالة هذه، طريقة في التفكير وهوية ثقافية لها سماتها ودين لأن العربية وسيلة فهم الإسلام والتفقه في أحكامه، وخلقًا له إطاره القيمي ومثله. ومن هنا جاء الربط بين فهم الإسلام وبين معرفة اللغة العربية باعتبارها شرطًا لازمًا لذلك. "فالشريعة عربية وإذا كانت عربية، فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم العربية حق الفهم، لأنهما سيّان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز". ويؤكد ابن خلدون المعنى ذاته حين يقول: "علم اللسان العربي أركانه أربعة وهي: اللغة والنحو والبيان والأدب، ومعرفتها ضرورية على أهل الشريعة"، وجاءت مقولة محمد رشيد رضا "لا يمكن تصور حضارة إسلامية من غير اللغة العربية".

ولكن في المقابل... فإن ازدهار العربية وانتشارها إلى أقاليم عديدة جديدة جاء بتأثير الإسلام، فلولا الإسلام ما كان للعرب هذا الدور البارز الذي يذكره التاريخ

في الفترة الإسلامية الوسيطة. ولا شك أن العقيدة الإسلامية هي التي أمدتهم بتلك الفاعلية الكبيرة لتبليغ الإسلام ونشره ثم لبناء حضارة تقوم أساسًا على العقيدة التي أمدتها بمقوماتها الروحية والخلقية والفكرية. ولعلنا ندرك هذا التكامل بين العروبة والإسلام في حركة الحضارة في نتاج العديد من العلماء غير المسلمين من نصارى وصابئة ويهود ومجوس نبغوا في المجتمع العربي الإسلامي وحققوا إنجازات كبيرة في ميدان العلوم والمعرفة بسبب مرونة العرب وحبهم للاندماج والاختلاط، وبسبب تسامح الإسلام وسعة أفقه الذي وفر لهم الأمن والاستقرار والكرامة وحرية العمل المبدع. إن هذه البيئة في (دار الإسلام) هي التي جعلت ما أنتجه العلماء على اختلاف جنسياتهم يصل إلى أوروبا ويعرف هناك من خلال اللغة العربية التي ظلت طوال قرون عديدة لغة العِلم والثقافة الوحيدة في العالم العربي- الإسلامي. ومن هنا فقد أطلق الغربيون على هذه العلوم التي نقلوها إلى أوروبا مصطلح (العلوم العربية) بغض النظر عن هوية العالم الذي ألّف في تلك العلوم. مما يدل بوضوح على مدى التلاحم بين العروبة والإسلام وأنهما صنوان متلازمان ووجهان لعملة واحدة في تلك الفترة التاريخية.

حوار الحضارات:

من المتعارف عليه أن الإنسان هو مصدر الثراء وهو العامل الأساسي في بناء الحضارة، وقد أشرنا سابقًا أن هذا الإنسان مدني بطبعه واجتماعي بفطرته ولا يمكنه العيش بمعزل عن الآخرين. لذا صار لزامًا عليه أن يتواصل مع الآخرين إذا أراد أن يعيش ويتقدم في المجال الحضاري.

إلا أن الجماعات البشرية التي تكونت في العالم لم تكن على نمط واحد، بل أصبح لكل منها جملة من القيم والتقاليد والمعتقدات والوسائل، ومعنى ذلك أن لكل جماعة خصوصيتها التي تختلف بها عن الآخر. إلا أن هذا الاختلاف في العصور الماضية كان يقضي في بعض الحضارات إلى التفاعل فالتكامل والانسجام، مثلما حدث في الحضارة العربية الإسلامية في أوجه ازدهارها ابتداءً من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. ولكن الأمر اختلف في العصر الحديث حيث باتت بعض الحضارات ترغب في فرض ثقافتها على الحضارات والأمم الأخرى، مما مهد السبيل لما يسمى (صراع الحضارات). وقد رفعت الأمم القوية شعارات عديدة

لتبرير هذا الصراع الذي نتج عنه حروب، واضطرابات، وإن كان الهدف الحقيقي والخفي هو صراع مع الآخر الذي يخالفه في القيم الحضارية وفي مظاهر الثقافة. فكانت النتيجة تفوق قيم الصراع على قيم الحوار والمصالحة والامتزاج من خلال المعايشة والمصلحة المشتركة.

ولعلنا تجاه هذين الموقفين: الحوار أم الصراع، نشير إلى نموذجين اثنين: أولهما الحضارة العربية- الإسلامية في عصورها المزدهرة بين القرنين الثالث والثامن الهجريين/ التاسع والخامس عشر الميلاديين كنموذج لموقف الحوار والتعايش، وثانيهما الحضارة الغربية في العصر الحديث كنموذج لموقف الصراع والتصادم وفرض قيم وثقافات على الشعوب الأخرى التي تتمسك بهويتها وخصوصيتها.

وقبل أن نتكلّم عن الموقف التوفيقي والمنفتح للحضارة الإسلامية لابد لنا أن نذكر باختصار الأسس التي ارتكزت عليها هذه الحضارة وهي إجمالاً:

أولاً: المبادئ الإنسانية التي جاء بها القرآن الكريم وكذلك السنّة النبوية الشريفة وحثهما على اقتباس المعرفة والعِلم من أي مصدر جاءت.

ثانيًا: العناصر الثقافية المستمدة من تراث العرب قبل الإسلام، وذلك بتبني مالا يتعارض مع تعاليم الإسلام. أو بإحداث تغييرات في عناصر أخرى بما يتوافق مع العقيدة الإسلامية عبر عمليات تنقيح وتهذيب.

ثالثًا: عناصر من الثقافات الأجنبية التي وجدها العرب والمسلمون في الأقاليم الجديدة التي دخلت ضمن الدولة الإسلامية أو تلك التي أصبح لها علاقات دبلوماسية (سلمية) أم حربية. حيث شجّعت الدولة الإسلامية عمليات الأخذ والعطاء من خلال عمليات الترجمة من اليونانية والسريانية والفارسية والهندية (السنسكريتية) وغيرها إلى العربية.

إن التلاحم بين هذه الأسس الثلاثة جعلت الحضارة الإسلامية في عصر ازدهارها تتميز بظهور جماعة مثقفة (نخبة) تتصف بقدرتها على الانفتاح على التراث الأجنبي والتبادل الفكري مع الآخر، مما شجّع لدرجة كبيرة على التسامح والأخذ والعطاء والاعتراف المتبادل بثقافة الشعوب. يقول الكندي وهو يعبّر بوضوح عن هذه النزعة الإنسانية في حضارتنا الإسلامية: "ومن أوجب الحق إلا نذم من كان أحد أسباب منافعنا الصغار الهزيلة، فكيف بالذين هم أكبر أسباب منافعنا

العظام الحقيقية الجديّة، وينبغي ألا نستحي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا، والأمم المباينة لنا، فإنه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق".

ويؤكد النظرة نفسها ابن رشد حين يقول: "ثم ننظر في الذي قالوه (أي القدماء من غير المسلمين) وأثبتوه. فما كان موافقًا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه. وما كان منها غير موافق للحق نبهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم".

ويقول عرفان عبد الحميد إن هذا الاعتراف والإشادة بإنجازات المتقدمين من الحضارات الأخرى السابقة للإسلام أو المعاصرة له مردّه أمرين: أولهما إدراك العلماء في المجتمع الإسلامي وحدة الحقيقة لأن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه. وثانيهما لأن الحقيقة لا يصلها فرد بعينه، فالحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطاؤه في كل وجوهه بل أصاب منه كل إنسان جهة.

إن هذه القدرة على الأخذ والعطاء والتمثيل وإعادة البناء، وذلك بالانتفاع من الحضارات والثقافات الأجنبية، حوّل عناصر الثقافة الأجنبية إلى عناصر ثقافية عربية في لغتها إسلامية في محتواها. وقد أكّد هذه الخصوصية المتميزة للحضارة الإسلامية أكثر من باحث ومستشرق في أوروبا فقد قال جولدزيهر على سبيل المثال لا الحصر: "إن الإسلام قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص الآراء وتمثلها، كما أكد قدرته على صهر تلك العناصر الأجنبية كلها في بوتقة واحة فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حُلّلت تحليلاً دقيقًا...".

إن هذه المزايا مكنت المسلمين لا على حفظ التراث القديم (علوم الأوائل) وترجمته وتنميته فحسب بل على ابتكار وإضافة أفكار ومعارف جديدة ومن هنا اعتبرت الحضارة الإسلامية "حضارة أصيلة".

ولابد أن نذكر بأن هذه الحضارة الإسلامية المعتدلة التوفيقية وما تحلّت به من مثل أخلاقية تجاه الآخر، لم تكن مرتبطة بنفوذ قوي وسيادة مركزية لدولة الخلافة ولا حتى مرتبطة بالوحدة السياسية لتلك الدولة، بل كانت الدولة الإسلامية في ذروة الازدهار الحضاري دولة ليست قوية عسكريًا ولا موحدة سياسيًا وهي فترة القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين فيما بعد.

أما النموذج الثاني وهو نموذج الصراع فيتجلى في خطاب التعالي الذي يمارسه الغرب، وما ينشأ عنه من ردود فعل لدى الطرف الآخر. إن كثيرًا من تجليات الصراع القائم بين الغرب والشرق ناجم عن المقدمات التي تبناها الغرب عبر بعض مفكريه وفلاسفته، إذ نلحظ أنهم رأوا أن الحضارة الغربية هي نهاية التاريخ وهي قمة ما وصلت إليه الإنسانية من رقي وتفوّق. وهذا ما نلمسه في أفكار فوكاياما وتخريجات هتكتون وما نتج عن ذلك من محاولات الغرب عبر وسائل متنوعة فرض الثقافة الغربية على الشعوب الأخرى التي تتمسك بهويتها وخصوصيتها. إذا لابقاء -على زعم المفكرين الغربيين- للثقافات المحلية والوطنية بل النهوض والمستقبل لثقافة "عالمية" هي في حقيقتها ثقافة "غربية" أطلق عليها اسم (العولمة) التي بإمكانها التغلغل إلى الثقافة والسياسة والفنون والاقتصاد والإعلام وغيرها من مجالات النشاط الإنساني.

وبقدر علاقتها بالثقافة العربية - الإسلامية، فقد خضعت الساحة العربية والإسلامية في مطلع العصر الحديث لتأثيرات الفكر الغربي التي نفذت إلى المنطقة لا في صورة حوار ثقافي قائم على التفاهم والاعتراف المتبادل لخصائص الطرف الآخر، وإنما في صيغة استلاب ثقافي أريد به ربط المنطقة فكرًا وتوجهًا بثقافة الغرب باعتباره الأفضل والأنسب والأنفع. ويلعب الغرب القوي عسكريًا والمتنفذ سياسيًا والمتقدم تقنيًا، دورًا في عملية ربط الشعوب عامة والشعوب العربية والإسلامية خاصة فكرًا وتوجهًا بالثقافة الغربية.

وعلى عكس المفكرين المسلمين آنفي الذكر والذين اعترفوا بالأخذ من الحضارات السابقة (علوم الأوائل) وخاصة في حقول العلوم العقلية (من طب وهندسة وفلسفة وعلوم الطبيعة وغيرها)، نادى مفكرو الغرب بنظرية الصراع أو الصدام الحضاري. فقد أشار فرنسيس فوكوياما في كتابه (نهاية التاريخ) أن النموذج الليبرالي السياسي والاقتصادي هو النموذج الأفضل والأكثر رواجًا في العالم، وعدَّ الديمقراطية الغربية نقطة القمة للبشرية والصورة النهائية للنظام العالمي وبالتالي فهي تمثل "نهاية التاريخ". لقد ساد الاعتقاد بأن النموذج الغربي سيعم العالم بعد تفكك الاتحاد السوفياتي وانهيار نظامه الأيديولوجي، وصار العالم أحادي القطب (القطب الغربي) الذي شعر أن بمقدوره أن يفرض ثقافته على بقية أرجاء العالم. ثم جاءت مقالة صموئيل هاتنكتون الموسومة "صدام الحضارات"،

الذي أشار أن الصراع في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي لن يكون أيديولوجيًا أو اقتصاديًا ثقافيًا. وإن هذا الصراع بين الحضارات سوف يشكّل آخر طور من أطوار الصراع في العالم الحديث. ويشير هاتنكتون آن ادعاءات الغرب بالعالمية يضعه بشكل متزايد في صراع مع الحضارات الأخرى وأخطرها الإسلام.

والواقع أن جعبة هاتنكتون ليس فيها غير معطيات الصراع والصدام، وهو فيما ذهب إليه ينطلق من أوضاع سياسية راهنة متأزمة أوجدها الغرب قبل غيره، ثم يستنبط منها اجتهادات وتخريجات غير صحيحة، فهو في مقالته لم يشر إلا إلى حالات الصراع بين الغرب المسيحي والشرق الإسلامي متناسيًا حلقات الحوار والتفاعل الحضاري التي قامت بينهما في حالات السلم والحرب، حيث اتصفت تلك الصلات بالأخذ والعطاء والتأثر والتأثير المتبادل بين الحضارتين في العصور السالفة.

إن الأفكار التي بثها فوكوياما وهاتنكتون وغيرهما والتي تدعو إلى عدم التعاطي مع الحضارات الأخرى على قاعدة التكافؤ والشراكة الإنسانية، بل على التعالي والتسلط هي المسؤولة عن انتشار ما يسمى بثقافة "العولمة" بمعناها السلبي في الزمن الحاضر الذي نعيش فيه.

وليس من السهل إعطاء تعريف جامع للعولمة لأن كل عالم أو مفكر متخصص في حقل من الحقول يدلي بدلوه وينظر إليها من زاوية تخصصه، فهي بالنسبة لرجال الثقافة والاجتماع تعني صهر المثل والقيم الثقافية والاجتماعية في بوتقة واحدة وتصفيتها بحيث لا يبرز منها إلاّ قيم ومعايير الدولة المتنفذة. والشيء نفسه ينطبق على حقول السياسة والاقتصاد وغيرها. ولعل العولمة بهذا المعنى هي غلبة ثقافة أو حضارة معينة بكل قيمها ومعاييرها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية على الحضارات الأخرى، وبهذا تنتفي الخصوصية والتعددية التي اتسمت بها شعوب العالم المختلفة لحساب نظام مهيمن واحد. وللعولمة آثارها السلبية والإيجابية فهي متعددة التأثير متشعبة الاتجاهات، فهناك عولمة سياسية وعولمة اقتصادية وعولمة اجتماعية وعولمة ثقافية يصل تأثيرها على فئات المجتمع المختلفة وعلى الأسرة والمرأة والفرد في المجتمع.

ونحن في العالم العربي والإسلامي أمام مفترق طرق، لأن الأمر لا يتعلق بخيار التجاوب مع العولمة أو عدم الاستجابة لها ورفضها كليًا، بل علينا أن نقدّم خيارًا آخر يرتكز على الحوار والتواصل المتكافئ من أجل بث ثقافة مرتكزها حق الإنسان في العيش الكريم متمتعًا بحقوقه وكرامته التي نصّت عليها كل الشرائع السماوية والأرضية بدلاً من التسلّط والاتهام غير المبرر والفرض بالقوة أو بالحرب أو التهديد بها، تلك الوسائل التي استنزفت الطاقات ومنعت سبل التلاقي بين الشعوب وأفرزت ردود فعل عنيفة، ولنا في الموقف الذي سلكته حضارتنا العربية الإسلامية في القرون الإسلامية الأولى في الأخذ والعطاء واحترام ثقافة الآخر، خير سند وقاعدة للاستمداد والانطلاق. وإذا أردنا لموقفنا الإنساني القديم الجديد هذا أن يحترم من قبل الآخر بحيث يعيره أذنًا صاغية لابدّ أن نكون في الوقت نفسه قادرين وأقوياء في مجالات الحياة المتنوعة.

والدعوة التي نطلقها نحن العرب والمسلمون إلى شعوب العالم المختلفة وخاصة الغربية أن ننظر إلى الصفحات المشرفة في التاريخ الحضاري والذي ساهم في بنائه العرب والمسلمون مع الشعوب الأخرى عبر التاريخ خلفية إيجابية في بناء الحضارة الإنسانية الحالية والمستقبلية، ولا نتطلع إلى الوراء إلى جزئيات سلبية سياسية أم حربية أم غيرها. إننا لا نريد من التاريخ شدًا إلى الوراء وإعاقة الحركة والتفاهم، بل نريده عاملاً للانطلاق لمستقبل أفضل من الحاضر.

مقدمة في نظريات التطور الحضاري العام

إن موضوع التطور الحضاري للمجتمعات البشرية موضوع حيوي، ولذلك ينتظر أن تختلف آراء المفكرين والمؤرخين وتتعدد مواقفهم حوله، فمنهم من أعطى العوامل الجغرافية المكان الرئيسي في هذا التطور لأثرها على الإنسان والمكان. وقد كتب في ذلك فلاسفة اليونان كما كُتب فيه المؤرخون والجغرافيون المسلمون وأكدوا بصفة خاصة على ما للموقع الجغرافي والمناخ من أثر فعّال في حياة البشر وبالتالي تطوّر حضارته.

إلاّ أن التفسير الجغرافي لم يبق التفسير الوحيد، فقد ظهر العديد من المفكرين ممن نادوا بهذا الرأي أو ذاك أو دعوا إلى حفظ التوازن بين العوامل المختلفة التي تؤثر في نشوء وتطور حضارة ما، فهناك العوامل الاقتصادية والعوامل القومية وأثر

عظماء الرجال في تاريخ وحضارة المجتمعات. بل ظهر من يعتد بالعوامل النفسية والنزعات العاطفية وما تحركه من قوى كامنة في الإنسان وبالتالي أثرها في حياة المجتمعات.

وليس يهمنا هنا التفصيل في تفاسير تطور الحضارة، وإنما سنقتصر على نموذجين اثنين لمؤرخين قدما تفسيرين متميزين للتطور الحضاري عند الأمم، أحدهما لمؤرخ وموسوعي بارز من رموز الحضارة الإسلامية في القرون الأولى وهو ابن خلدون (ت808هـ/1406م) والثاني لمؤرخ حديث من رموز الحضارة الأوروبية الغربية وهو أرنولد توينبي (ت1975م).

أما ابن خلدون فقد عاش عصر الركود الحضاري والانقسام السياسي وفقدان الأمن والاستقرار في المغرب العربي. وقد أثر هذا الواقع أثرًا واضحًا على تفكيره في نشوء الحضارة وتطورها، الذي أودعه "مقدمة" كتابه في التاريخ والحضارة وسماه "العِبر" وليس هناك أفضل من التاريخ معينًا على فهم الحاضر ورؤية المستقبل. وقد أكّد فهمي جدعان أهمية ما جاء به ابن خلدون حول أطوار الحضارة الإنسانية، وأوضح كذلك العلاقة بين نظرية ابن خلدون وبين الأخطار الذي تعرّض لها العالم العربي الإسلامي آنذاك. واطلع على التاريخ السياسي والاجتماعي لدول الإسلام في المشرق والمغرب متابعًا فيها مراحل البداية والصعود ثم الهبوط. ولقد أذهله حقًا "ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف المائة الثامنة من الهجرة" حيث وقع الشرق الإسلامي فريسة لغزوتين الأولى مغولية من الشرق والثانية أوروبية (صليبية) من الغرب.

وقد أطلق ابن خلدون على نظريته في التطور الحضاري اسم "العمران البشري" وعرفه بأنه: "خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال..." ذلك أن "أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال... سنّة الله التي خلت في عباده".

والعمران عند ابن خلدون هو "التساكن والتنازل في مصر (مدينة) أو حلّة (منطقة) للإنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم (البشر) من التعاون على المعاش". ويرى ابن خلدون أن الاجتماع البشري ضروري وطبيعي، ذلك لأن

"الإنسان مدني بالطبع"، وعند ابن خلدون أن الحضارة لها في الغالب أجيال ثلاثة لا مزيد عليها، كل جيل منها لا يعدو في عمره متوسط عمر الإنسان)الذي هو حوالي أربعين سنة).

الجيل الأول: لم يزل أهله على خلق البداوة وخشونتها من شظف العيش والشجاعة والاشتراك في المجد ولا تزال سورة العصبية محفوظة فيهم.

الجيل الثاني: تحول حالهم من البداوة إلى الحضارة ومن الشظف إلى الترف، ومن الاشتراك بالمجد إلا الانفراد الواحد به وكسل الباقي عن السعي، ومن عز الاستطالة إلى ذل الاستعانة والخضوع.

الجيل الثالث: ينسى الناس عهد البداوة والخشونة، ويفقدون حلاوة العز والقوة، ويبلغ منهم الترف غايته فيصيرون عيالاً على الدولة. فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته فيحتاج صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة، حتى يتأذن الله بانقراضهم فتذهب الدولة بما حملت.

إن هذه الأطوار هي أمور طبيعية عند ابن خلدون تحدث للحضارة بطبعها، فنحن بإزاء حتمية صارمة لا سبيل إلى الإفلات منها. وإن أشار بعض الباحثين إلى أن نظرية التطور الخلدونية قد تصدق على بعض الدول التي عرفها أو درسها ابن خلدون ولكنها لا تصدق غيرها. ثم إن ابن خلدون قرن الحضارة بالترف الذي ينقلب إلى فساد وتدهور وسقوط بسبب سواء استخدام أدوات الحضارة. ولكن الحضارة ليست كلها ترف واستهلاك وفساد بل هي علم ومعرفة وتجربة وخبرة، وهذه تزيد قدرات الإنسان وتفجر في كيانه ينابيع جديدة من القوة تؤدي إلى التقدّم والتطور.

أما أرنولد توينبي المؤرخ والفيلسوف الإنجليزي فقد عرض نظريته إلى التطور الحضاري ضمن كتابه الموسوم (دراسة في التاريخ) المكوّن من اثني عشر جزءًا. وبدءًا يرى توينبي أن وحدة الدراسة يجب أن تكون "الحضارة". فالدولة لا تصلح أساسًا للدراسة، كما لا يصلح العرق البشري بأجمعه وحدة للدراسة، لأن ذلك قد يؤدي إلى ضياع الملامح الحضارية للمجتمعات المتنوعة، وسيطغى عليها المجتمع المتغلب. ثم أن توينبي يرفض نظرية "وحدة الحضارة الإنسانية" ويرى أنها من نتاج الفكر الغربي الذي ينكر على ا لمجتمعات الأخرى قدرتها على العطاء الحضاري، ولا يعترف إلاّ بالحضارة الغربية كمصدر للإشعاع الحضاري.

من خلال دراسته توصل توينبي أن هناك واحدًا وعشرين مجتمعًا نجح في تكوين حضارة. وأن الحضارة العربية الإسلامية هي إحدى هذه الحضارات التي يمكن دراسة نشأتها وتطورها وانحلالها وما رافق ذلك من مظاهر.

وفي خضم مناقشته للكيفية التي تسنى لهذه المجتمعات أن تكوّن حضارات "أصيلة" سائرة في طريق التطور والنماء، يرفض توينبي النظرية العنصرية التي ترجع القدرة على الإبداع والعطاء الحضاري إلى عرق بشري معين، كما يرفض التفسير الجغرافي للتطور الحضاري الذي يرجع سر تفوق المجتمع إلى البيئة الجغرافية وحدها. وإنما يقر بتفاعل عدد من العوامل مجتمعة.

لقد جاء توينبي بنظرية سماها "نظرية التحدي والاستجابة لنشوء الحضارات" حاول فيها أن يفسّر مسألة نشوء الحضارات ونموها وتدهورها وسقوطها. فأوضح أن استجابة أفراد المجتمع "المبدعين" للتحديات التي فرضتها البيئة على أبناء المجتمعات الأصلية، قد أدت إلى ولادة الحضارات. وقد بين أن من الشروط الواجب توفرها في التحدي كي يولّد استجابة ناجحة هو أن لا يكون ذلك التحدي مفرطًا في صعوبته بحيث يولّد القنوط ولا بالغًا في سهولته بحيث يولد الاستهانة، وإنما يكون التحدي متوسطًا بحيث يولّد أقصى استجابة ممكنة. ولكي تستمر حضارة من الحضارات في الارتقاء والتقدّم لابدّ أن يستمر أفرادها المبدعون في تقديم استجابات ناجحة للتحديات التي تواجههم. أي لابد أن تكون هذه العملية متواصلة.

كما أشار توينبي أن الحضارة الأم حينما تدخل مرحلة التحلل تقوم فئة مبدعة من أفراد المجتمع بالانشقاق عن الفئة المتسلّطة على المجتمع حتى تتمكن من إزاحتها وقيادة المجتمع وفق أسس حضارية جديدة. وبذلك تظهر حضارة جديدة هي بمثابة الابن للحضارة السابقة. فالحضارة الأوروبية الغربية هي ابنة أو وريثة الحضارة الهلينية (اليونانية- الرومانية)، والحضارة العربية الإسلامية هي ابنة أو وريثة حضارة الشرق الأدنى القديمة.

أما انهيار الحضارات فيرجعها توينبي إلى ظواهر ثلاث: قصور الطاقة الإبداعية في الأقلية التي تقود المجتمع، وثانيها عزوف الأغلبية عن محاكاة الأقلية بعد قصور طاقتها الإبداعية، وثالثها فقدان الوحدة الاجتماعية في المجتمع بسبب ظهور الانشقاق.

ولا يتردد توينبي في نهاية المطاف من تقرير أن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة في العالم التي لا زالت في مرحلة الارتقاء والازدهار. لذا فإن "توسع المجتمع الغربي وإشعاع الثقافة الغربية قد وضع جميع الحضارات الأخرى في إطار عالمي يصطبغ بالصبغة الغربية". وحين تنبأ توينبي باحتمال أو بإمكانية نجاح الحضارة الغربية في توحيد أبناء الحضارات المختلفة على نسق متجانس، فإنه والحالة هذه كان يبشر بظاهرة العولمة التي نعيشها في مجتمعاتنا المعاصرة. على أننا لابد أن نستدرك ونقول بأن توينبي لا يؤمن بحتمية تسلّط الحضارة الغربية كما فعل فوكوياما وهاتنكتون، بل ترك الباب مفتوحًا أمام احتمالات وبدائل عديدة منها: فشل الحضارة الغربية في محاولتها توحيد العالم في إطار المثل والقيم الغربية، ومنها انتفاض حضارة أخرى غير غربية على التسلّط الغربي، ومنها كذلك ظهور حضارة توفيقية جامعة تكون علامة على بزوغ حضارة عالمية جديدة.

كتاب الخلافة الأموية(6)

المقدمة

التاريخ الأموي تاريخ يشد الباحث بأحداثه ونظمه. يستلذ القارئ أثناء قراءته وتتبع وقائعه، وينغمر فيه الكاتب بحيث لا يمكنه أن ينفك منه أو ينقطع عنه حتى يتمه قراءة أو بحثًا. وفي أغلب الظن أن السبب في ذلك يعود إلى أنه تاريخ يكشف النفسية العربية على سجيتها ويميط اللثام عن الأشخاص الذين ظهروا عن المسرح السياسي وغير السياسي بعفوية تتسق مع طبيعة النفس البشرية في تفاعلها مع الأحداث ورد فعلها الطبيعي تجاهها دون ضوابط واعتبارات من "قدسية" وطقوس وطلاسم وخطب ووصايا وشعارات بلاغية، ومبررات مبهمة "وتوظيف" للدين وغير الدين نجدها في تواريخ أخرى لدول أو أسر حاكمة جاءت بعد الأمويين.

إنّ التاريخ الأموي تاريخ بشر يعتقدون أنّهم بشر ويتصرّفون كبشر، وهو فضلاً عن ذلك تاريخ يجسّم الصراع بين القديم (عصر قبيل الإسلام) والجديد (العصر الإسلامي)، بشفافية بالغة نجدها واضحة في روايات الأخباريين التي جمعها المؤرخون الأوائل. ومن هنا نلاحظ غزارة المادة التاريخية نسبيًا حوله، حيث خصص البلاذري ثلث كتابه (الأنساب) عن الأمويين ناهيك عن ما كتبه الطبري وابن عساكر وابن كثير وغيرهم من مؤرخي كتب الحوليات والتراجم. كما نلاحظ كذلك كثرة المؤلفات التي يكتبها المؤرخون في العصر الحديث عن هذا التاريخ. ومن هنا كان اختلاف وجهات النظر والتفسيرات حوله حيث ازدحمت الآراء وتضاربت التخريجات حول الفترة الأموية.

تتضمن المقدمة أمرين: أولهما التعريف بالمصادر والمراجع الرئيسية ذات العلاقة بالتاريخ الأموي، وثانيهما ما تناولته فصول الكتاب من موضوعات، وصولاً إلى الإشكالية التي دفعت بالباحث إلى معالجة موضوع البحث. أما الأمر الأول فيمكن تقسيمه إلى أقسام ثلاثة هي على التوالي: المؤرخون الرواد وصورة العصر الأموي، المستشرقون وتاريخ الفترة الأموية، وأخيرًا المؤرخون العرب والمسلمون المحدثون والتاريخ الأموي.

فلقد قام مؤرخونا الرواد بدور متميز في جمع الروايات التاريخية وتصنيفها تبعًا لرواتها، على أنهم - إلا في النادر - لم يعطوا وجهة نظرهم فيما أوردوه في روايات تاريخية. وهذا لا يعني بطبيعة الحال أنّهم لم يفضلوا رواية على أخرى من حيث سندها ومتنها، بل كان لهم طرقهم الخاصة في نقد الرواية التاريخية لابد للباحث في التاريخ الإسلامي أن يتعرّف عليها لكي يفرز الغث من السمين.

ويحتل المؤرخان البلاذري (ت279هـ/892م) والطبري (ت310هـ/923م) المكان البارز ضمن المصادر التاريخية التي تناولت الفترة الأموية. أما الأول فقد بيّن أهمية الدور الذي لعبه الأشراف والشخصيات البارزة العربية في مجرى التاريخ، وكان في هذا ردًا غير مباشر على الشعوبية في عصره الذي عاش فيه، وذلك في كتابه (أنساب الأشراف) الذي ضم اثني عشر مجلدًا عشرة منها في قريش ثلثها عن شخصيات بني أمية. كما يذكر معلومات مالية واجتماعية عن الفترة نفسها. أما مصادر البلاذري فمتنوعة حيث أخذ بعضها من رواة ذوي ميول أموية وبعضها من رواة ذوي ميول أخرى، ولذلك لم تؤثر صلته القريبة بالإدارة العباسية في تدوين كتابه. ومن رواته البارزين المدائني والهيثم بن عدي الذي كان هو الآخر تربطه علاقات جيدة بالبلاط العباسي في عهد المنصور وابنه المهدي وحفيده الرشيد، وكذلك اعتمد روايات أبي مخنف لوط بن يحيى الأزدي في بعض الحركات التي قامت في هذه الفترة، وعن الأوضاع السياسية عامة.

أما كتاب البلاذي الآخر فهو كتاب (فتوح البلدان) الذي شرح الفتوحات الإسلامية حسب مساراتها، وتأتي أهميته من إيراده معلومات مهمة عن الإدارة المالية في الفترة الأموية.

ويُعد الطبري شيخ المؤرخين، وروايات لا غنى عنها بالنسبة للعصر الأموي، فهو يتناول الخلفاء الواحد تلو الآخر حسب عهودهم، وكان دقيقًا في جمع مادته حريصًا في أسانيده، وهذه الدقة والحرص متأتيان من أساسه كمحدّث وفقيه إضافة إلى كونه مؤرخًا. وقد دوّن بالتفصيل الأحداث السياسية والعسكرية خاصة مستندًا على عدد من الرواة والأخباريين منهم: أبي مخنف وأبي معشر السندي مولى بني هاشم ومحمد بن عمر الواقدي مع تضعيفه له في العديد من الروايات، والمدائني وعوانه بن الحكم وابن سيرين وغيرهم. وله طريقته في نقد الروايات يتميز بها.

أما خليفة بن خيّاط العصفري (ت240هـ/854م) فهو ذو نزعة أموية (أو عثمانية) معتدلة لأنها لم تظهر في كتابيه التاريخ والطبقات. ويتميز ابن خياط بمعلومات جيدة عن الإدارة والنظم والدواوين وقوائمه الواضحة عن الولاة والقضاة والشهداء وغيرهم، ويلاحظ عن تاريخ الفترة الأموية أنها مستقاة من رواة وأخباريين ذوي نزعة أموية، واهتم بروايات عوانه بن الحكم والوليد بن هشام القحذمي وعبد الله بن المغيرة وعالج العديد من الأحداث السياسية ولكنه اختصر كثيرًا.

وتناول اليعقوبي أحمد بن يعقوب بن واضح (ت282هـ/895م) الفترة الأموية بوضوح واختصار، ولم تؤثر نزعته الشيعية المعتدلة على ما أورده من أخبار، ذلك أن أسرته كانت مرتبطة كذلك بالإدارة العباسية. وقد اختار اليعقوبي روايات تتهم الأمويين ببعض الإجراءات المشكوك فيها، والتي اختلفت حولها الآراء مثل رواية دس السم لأبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأمثالها من الروايات. كما يقدّم معلومات عن الجهاد ضد الروم.

أما كتاب (الفتوح) لابن أعثم الكوفي (ت314هـ/926م) والذي كانت ميوله للعلويين بارزة أكثر من غيره من المؤرخين، فيعد من المصادر الشيعية المبكرة التي تفصّل في أحداث الشيعة في الفترة الأموية. وهو يذكر رواته ومنهم: الزهري وأبي مخنف والواقدي والمدائني وابن الكلبي وغيرهم، ويلاحظ سرده التفصيلي للثورات الشيعية فيما أورده مثلاً عن حركة المختار بن أبي عبيدة الثقفي وتعاطفه معها، وذكره العديد من الخطب الحماسية وقصائد الشعر والرسائل. إلا أنه ذكر معلومات تاريخية أخرى ربما لا نجدها في مصادر أخرى حول قتيبة بن مسلم الباهلي ومقتله، وثورة يزيد بن المهلب الأزدي، وحصار القسطنطينية ونشاطات مسلمة بن عبد الملك في معارك الجهاد ضد الروم. وفي كل ذلك فإن أسلوبه الوصفي يضفي على كتابه طابعًا قصصيًا كما لا يخلو من عدم الدقة في ضبط التواريخ ونسبة الأحداث إلى أصحابها.

ويظهر المسعودي (ت345هـ/956م) في كتابيه مروج الذهب والتنبيه والإشراف ميولاً علوية بين حين وآخر، وله تفاسير لأحداث الدعوة العباسية تميل إلى وجهة النظر العلوية. كما يذكر معلومات لا نجدها في كتب التاريخ والفرق عن حركة المختار الثقافي أو عن الحركة الزيدية، وليس معنى ذلك أنه لا يذكر روايات تمثل

وجهة النظر الأخرى أيضًا. رغم أن معلوماته عن الفرق مختصرة، إلا أنه يظهر ميله للاعتدال وكرهه للتطرف والتشدد. كما يعرض معلومات اجتماعية مهمة حول التكوينات الاجتماعية بعد الفتوحات الإسلامية.

أما قيمة كتاب (الأخبار الطوال) لأبي حنيفة الدينوري (282هـ/895م) فتأتي من ذكره روايات قليلة لا يشاركه فيها أحد وهي جديرة بالدراسة، خاصة ما يتعلق بالدعوة العباسية التي بدأت كدعوة سرية في العهد الأموي ربما في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أو بعده بقليل ثم تعاظمت في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك وتفجرت زمن الخليفة مروان بن محمد سنة 128هـ/74م. والدينوري ويتبعه حمزة الأصفهاني (ت360هـ/970م) في كتابه "تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء" يذكران روايات تميل إلى المبالغة في دور أبي مسلم الخراساني والفرس (الموالي) في الدعوة العباسية، وتتجلى في هذه الروايات صبغة أسطورية تنبؤية ملحمية واضحة، ولعلنا نلحظ المبالغة نفسها في أحداث الحركات العلوية بالعراق في الفترة الأموية، حين يضع ثقلاً على دور الموالي فيها. وفي الدينوري معلومات جيدة قليلة عن النظام الإداري الأموي، ولكنه لا يذكر مصادره ولا يذكر رواته.

ولا يفوتنا أن نذكر كتاب (أخبار العباس وولده) أو أخبار الدولة العباسية للمؤلف المجهول (عاش في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) فهو من الكتب التي ساهمت إلى حد كبير في إلقاء الضوء على الدعوة العباسية من داخل تنظيمها السري في الفترة الأموية، ومن هنا فالمؤلف يعتمد الروايات الشفوية، وقد تفرّد بمعلومات مهمة أشار إليها بوضوح وشفافية، وقد ذكر روايات عن شهود عيان ومعاصرين للأحداث، وكشف عن دور العرب في إحداث الدعوة، الذي يعد دورًا حاسمًا في تقرير مصيرها، كما يكشف المنافسات بين التكتلات والقوى السياسية داخل الدعوة خاصة بين أبي مسلم الخراساني وأبي سلمة الخلال. وفيما عدا رواياته الشفوية اعتمد المؤرخ المجهول على روايات أخرى مستقاة من هشام بن الكلبي والبلاذري وعمر بن شبه وأبي مخنف والمصعب الزبيري وغيرهم.

وهناك مؤلف مجهول آخر ألّف كتابًا تاريخيًا سماه (العيون والحدائق في أخبار الحقائق). ولعل ما يهمنا منه إظهار أن الأزمة التي كانت تعاني منها الدولة الأموية كانت أزمة داخلية بدأت بالخليفة الوليد الثاني بن يزيد الثاني سنة 125هـ/743م وكانت حوادثها في معقل الأمويين بلاد الشام قبل أن تكون في خراسان مركز

الدعوة العباسية. وتأتي أهميته كذلك في إيراده روايات ينفرد بها عن الطبري وتساعدنا على المقارنة والتحميص.

ورغم ما يتصف به أبو زكريا الأزدي (ت334هـ/925م) من ميول أزدية وموصلية وعلوية معتدلة، إلا أن كتابه (تاريخ الموصل) يحتوي معلومات قيّمة في أكثر من مجال، وخاصة ما يتعلق بالدعوة العباسية التي بدأت في الفترة الأموية حيث يظهر بوضوح دور القبائل العربية الخراسانية في تبني القضية العباسية، ويتابع الأزدي تأكيد دعم دور العرب في الإدارة والسياسة والجيش خلال العصر العباسي الأول، وبذلك يساعد الباحث على توضيح مدى الافتراء الذي أشاعه بعض المؤرخين المحدثين في أن العصر العباسي الأول عصر النفوذ الفارسي ليس إلاّ.

ولعلنا نشير من بين المصادر الأدبية إلى كتاب (الكامل في اللغة والأدب) لمحمد بن يزيد المبرد (ت285هـ/898م)، الذي يذكر معلومات تاريخية كثيرة عن الفترة الأموية، ولكنها مغمورة بين القصائد الشعرية والخطب السياسية. ومن هنا فإن معلوماته لابد أن تقارن وتوثق مع مصادر أخرى رغم أن بعض مصادره مبكرة. واللافت للنظر في كتابه تأكيده على الموالي الفرس. وإعطاءهم ثقلاً أكثر مما يسحقونه في بعض الأحداث والحركات في الفترة الأموية موضوع البحث، والذي ينقص الكامل هو الإسناد وسلسلة الرواة وكذلك التتابع الزمني للأحداث.

وتحتوي كتب التاريخ المحلية (المدن والأقاليم) على معلومات عن الفتح العربي الإسلامي للأقاليم في الفترة الأموية، كما تشير إلى إنجازات الإداريين والقادة العرب في تلك الأقاليم، وكذلك إلى استقرار العرب في تلك الأقاليم وتأسيسهم مدنًا جديدة. ولكن مصادر التاريخ المحلي قليلة وتختلف من إقليم لآخر، فليست كل الأقاليم كتبت تواريخها فلم يبق من التواريخ المحلية لبلاد فارس مثلاً إلا كتبًا قليلة بعضها ناقص مثل بعض تاريخ قم وهي الترجمة الفارسية للأبواب الخمسة الأولى من الكتاب الذي يتكون من عشرين بابًا، وكتاب تاريخ أصفهان (أصبهان) وكتاب تاريخ جرجان وبعض كتاب تاريخ نيسابور وكتاب تاريخ بخارى وكتاب تاريخ سمرقند. وبالإضافة إلى ما أشرنا إليه فإن هذه الكتب تفصل أكثر من كتب التاريخ الحولي العام في مظاهر اجتماعية مثل هجرة القبائل العربية إلى هذه الأقاليم وإنجازاتها المعمارية والإدارية، كما وأن الباحث يجد معلومات عن أسر وعوائل عربية استقرت هناك لقرون عديدة بعد الفتح الإسلامي. وعلى سبيل المثال فإن السهمي في تاريخ

جرجان يزودنا بمعلومات عن عائلة المهلب بن أبي صفرة منذ الفترة الأموية وبعدها بعدة قرون، مشيرًا إلى رجالاتهم ونسائهم المتميزين، ويزودنا ابن الأثير في (أُسد الغابة) وابن عبد البر في (الاستيعاب) بمعلومات غير موجودة في مصادر النسب أو التراجم عن أسرة مازن بن غضوبة مشيرة إلى أولاده وأحفاده في بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام وأذر بيجان.

أما الأديب أبو الفرج علي بن الحسين القرشي الأصفهاني (ت356هـ/966م) وهو أموي النسب شيعي الولاء عاش في زمن البويهيين. ويُعد كتابه (الأغاني) موسوعة تاريخية فيها الغث والسمين عن الفترة الأموية، ورواياته تشمل مظاهر سياسية وما كان يحدث في البلاط الأموي ومظاهر اجتماعية واقتصادية متنوعة عن العراق وبلاد الشام وكذلك الحجاز، إلا أن ميوله لابد أن تؤخذ بنظر الاعتبار في دراسة رواياته ومقارنتها بالمصادر الأخرى. ولابن الفرج الأصفهاني كتاب مهم آخر هو (مقاتل الطالبين) يتتبع العديد من الرجالات العلويين الذين قُتلوا في الفترة الأموية.

أما كتب التراجم فمنها متقدمة ومنها متأخرة، ويُعد ابن سعد البصري مولى بني هاشم (ت230هـ/845م) من المتقدمين الأوائل في كتابه (الطبقات الكبير)، أما مصادره المباشرة فالواقدي حيث كان ابن سعد مقرّبًا إليه وملازمًا له ولذلك سمي (كاتب الواقدي)، ثم هشام بن الكلبي. ومعلومات ابن سعد دقيقة وموثقة من مصادرها ومنظمة في مادتها ويستخدم الشعر للاستشهاد عن الأحداث التاريخية، رغم أن أخباره عن الحركات السياسية والشخصيات السياسية الدنيوية مختصرة مقارنة بالشخصيات التي عرفت بتدينها وتقواها.

أما كتاب (تاريخ مدينة دمشق الكبير) لعلي بن الحسين ابن عساكر الدمشقي (ت571هـ/1175م) فهو من كتب التراجم المتأخرة نسبيًا، وقد سار فيه المؤلف على نمط كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادي وقد ذكر خطط دمشق وتراجم المتميزين من أبنائها أو من زارها أو اجتازها على حروف الهجاء. أما مصادره فهي إما مباشرة مسموعة أو من المصادر التي سبقته، أو من المراسلات التي راسل فيها بعض الشيوخ والعارفين بسير الرجال وتراجمهم. و الكتاب غني فيما يتعلّق بتاريخ الفترة الأموية ولكن الكتاب الذي يتألف من سبعين جزءًا لا يزال معظمه مخطوطًا. وقد قام محب الدين عمر غرافة العمروي بدراسة وتحقيق عدد من أجزائه هي ج2،

ج8، ج19، في 1995م، وحقّق ج33، و37 في 1996م وحقق ج49، ج5، في 1997م، وجزء 61 سنة 1998م، كما هذّبه عبد القادر بدران في سبعة أجزاء ونشره في بيروت سنة 1987م.

وقد كتب سليمان الصرايرة رسالة دكتوراه عن (صورة معاوية في تاريخ ابن عساكر) وأجهد نفسه في محاولة فرز الروايات الحقيقية عن الموضوعة. إلا أن رضوان السيد في بحثه الذي ألقاه في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ص106، ذكر قولاً عن هشام بن عمار (ت245هـ) يقول فيه نظرت في أحاديث معاوية عنكم فوجدت أكثرها مصنوعًا، ومن قرأ ترجمة معاوية في تاريخ دمشق الكبير أو الآثار الواردة لنصرة معاوية أو إدانته في أنساب البلاذري أو تاريخ الطبري أو الفتن لابن حماد أو سير أعلام النبلاء للذهبي، أو الفوائد لمجموعة في الأحاديث الموضوعة للشوكاني، تحقق له صدق قول هشام بن عمار، حتى أن ابن كثير في البداية والنهاية يعجب من كثرة الأحاديث الموضوعة في ترجمة معاوية عند أبي عساكر.

على أن جمال الدين بن منظور (ت711هـ/1311م) صاحب لسان العرب، اختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، وقد حقّق ونشر من هذا المختصر إحدى عشر جزءًا هي على التوالي: ج6 سنة 1984م، وج10 سنة 1986م، وج13 سنة 1990م، وج20، وج21، وج22، وج24، وج25، وج26، وج27، وج28 في دمشق. والواقع فقد أصبح بالإمكان معرفة بعض موارده ودراسة شخصيات تاريخية عالجها ابن عساكر. ولعل أشهر موارده الوليد بن مسلم القرشي الدمشقي وأبي حسن عبد الأعلى الغساني الدمشقي، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي الدمشقي وغيرهم كثير.

ومما له صلة بالتراجم كتب الرجال وهي كثيرة فمن أقدمها عن الشيعة الإمامية: رجال أبي جعفر أحمد بن محمد البرقي (ت272هـ أو بعد ذلك بقليل)، ثم رجال النجاشي (ت405هـ/1014م) ورجال الكشي (عاش في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، وفي هذه الكتب معلومات عن رجالات الشيعة ومؤلفاتهم ونشاطاتهم، وكذلك معلومات عن فرق الشيعة المتعددة. و قد اعتمد الطوسي (458هـ/1060م) في رجاله على كتاب الكشي آنف الذكر وهذبه وترجم للعديد من الرجالات ذوي الميول الشيعية التي عاشت في الفترة الأموية موضوع البحث، ويمكننا عمومًا تصنيف كتب الشيعة إلى ثلاث مجموعات: مصادر الحديث الشيعية، ومصادر الرجال الشيعية، ومصادر الفرق الشيعية.

ويأتي في مقدمة المجموعة الأولى (كتب الحديث) محمد بن يعقوب الكليني (ت328هـ/939م) وكتابه الموسوم (الكافي) وفيه حوالي 16190 حديثًا. ثم ابن بابويه القمي ولقبه (الصدوق) ت381هـ/991م، وله كتاب (من لا يحضره الفقيه) وفيه حوالي خمسة آلاف حديث، ويليه محمد بن الحسن الطوسي (ت460هـ/1097م) ولقبه (شيخ الطائفة) ومن كتبه تهذيب الأحكام وفيه 13590 حديثًا، وقد برع في المذهبين الشيعي والسني.

أما المجموعة الثانية (كتب الرجال) فيأتي في مقدمتها كما ذكرنا (معرفة أخبار الرجال) لمحمد بن عمر الكشي، وفائدته كبيرة لمعرفة الشخصيات القريبة من الأئمة العلويين وآرائهم. ويذكر روايات لم تشر إليها كتب الشيعة الأخرى، بل أن قسمًا من كبار الشيعة يحذّرون أتباعهم من قبول روايات الكشي باعتبارها - حسب زعمهم - تشوّه صورة بعض الرجالات المقربين للأئمة العلويين. إلا أنها في الواقع تعطينا روايات أخرى تعبّر عن وجهات نظر شيعية أخرى، وهي بالنسبة للباحث الموضوعي تكمّل الصورة عند مقارنتها بالروايات السابقة في كتب الرجال الأخرى. وقد أشرنا سابقًا إلى كتب الرجال الشيعية الأخرى، ولابد من القول أن كتب الرجال السنيّة مثل حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني وتاريخ الأولياء لفريد الدين العطّار لا تتعارض في أغلب رواياتها أو وجهات نظرها عن الأئمة العلويين مع كتب الرجال الشيعية، بل ربما تأثّرت بها في بعض الموضوعات.

وأخيرًا تأتي المجموعة الثالثة وهي (كتب الفرق الشيعية) وعلى رأسها كتاب (فرق الشيعة) للنوبختي (ت300هـ/912م) والمقالات والفرق لسعد القمي (ت301هـ/913م). وكتب الفرق آنفة الذكر ذات نزعة إمامية. أما كتب الفرق الإسماعيلية فمنها كتاب الزينة للرازي (ت329هـ/940م)، وكتاب (دعائم الإسلام) لابن حيون المغربي (ت364هـ/974م). وكتب الإسماعيلية تتوقف عند الإمام جعفر الصادق، ولا تعترف بالأئمة الاثني عشر من بعده، بل تدين بالولاء لإسماعيل بن جعفر الصادق وأبنائه.

وبمناسبة الكلام عن كتب الفرق نشير إلى أنّ أهل السنّة ألّفوا كذلك كتبًا عديدة في الفرق الإسلامية لعل من أوائلها: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري (ت324هـ/936م)، والفَرْق بين الفِرَق لعبد القادر البغدادي (ت429هـ/ م)، والفصل في الملل والنحل لابن حزم الظاهري (ت459هـ/1062م) وغيرهم. ولا ننكر

أن في هذه المصادر معلومات تاريخية خاصة عن تاريخ الفرق الدينية - السياسية وحركات المعارضة التي رفعت شعارات دينية أو تبرقعت ببرقع ديني. وبعد فشل قسم منها في تحقيق أهدافها السياسية باتت كما يقول النوبختي "تنتظر الموتى للعودة إلى الحياة الدنيا. وقد انتقد كتّاب الفرق أنفسهم بعضهم البعض في المنهج والمادة التي تتضمنها مصادرهم، فقد وصم الشهرستاني (ت548هـ/1153م) في كتابه الملل والنحل هذه الكتب بارتباك منهجها وغموض مادتها فقال: "اعلم أنّ لأصحاب المقالات طرقًا في تحديد الفِرَق الإسلامية لأعلى قانون مستند إلى أصل ونص. ولا قاعدة مخبرة عن الوجود، فما وجدت مصنفين منهم متفقين على منهاج واحد في تحديد الفرق".

ويؤكد الأشعري منهج كتّاب الفرق في انتقاد بعضهم البعض الآخر حين يقول: "... رأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات ويصنفون في النحل والديانات بين مقتصد فيما يحكيه وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه. وبين متعمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه، وبين تارك للتقصي في روايته من اختلاف المختلفين، وبين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظن أن الحجة تلزمهم به. وليس هذا سبيل الربّانيين ولا سبيل الفطناء المميزين".

وحين يعرض فخر الدين الرازي (606هـ/1209م) نقده لكتب الفرق التي سبقته يقول في كتابه الموسوم (اعتقادات فرق المسلمين والمشركين): "كتاب الملل والنحل للشهرستاني كتاب حكى فيه مذاهب أهل العِلم بزعمه، إلا أنه غير معتمد عليه لأنّه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمى الفَرْق بين الفِرَق من تأليف أبي منصور البغدادي (ت429هـ/1037م) وهذا الأستاذ شديد التعصّب على المخالفين فلا يكاد ينقل مذهبهم على الوجه".

وقد عرضنا في كتابنا الموسوم (التدوين التاريخي عند المسلمين) بعض سلبيات كتب الفرق الإسلامية، وأشرنا إلى ضرورة الاحتراز من مادتها التاريخية وآرائها. وأشرنا كذلك إلى تأخر زمن تأليفها، وإهمالها للزمن بمعنى أنها تنسب عقائد الفرق ومبادئها وكأنها بدأت مع زمن نشوء الفرقة، بينما تبلور المبادئ والمواقف يُعد تطورًا لاحقًا في هذه الفِرَق. وهي غالبًا ما تهمل ذكر مصادرها ومواردها، وهي بعد ذلك كتب منحازة وليست في غالبيتها حيادية.

ولا شك فإن المصادر الجغرافية مفيدة في دراسة تاريخ الفترة الأموية والتاريخ الإسلامي بوجه عام، وهي عديدة تذكر أولها كتاب البلدان لليعقوبي (ت284هـ/897م) وكتاب ابن الفقيه الهمداني (ت289هـ/902م) البلدان، وابن خرداذبه (ت300هـ/912م) المسالك والممالك، وهي ليست نافعة في دراسة الأمصار الإسلامية والمدن الأخرى في الفترة الأموية فحسب، بل تتكلّم عن سكان هذه المدن وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية والطرق التي تربط الدولة الإسلامية آنذاك.

وأخيرًا وليس آخرًا فلابد أن نختم دراستنا عن مصادر الفترة الأموية بالكلام عن حوليّة ثيوفانس الراهب البيزنطي (ت203هـ/818م)، وقد ترجمت إلى الإنكليزية ونشرت في جامعة بنسلفانيا سنة 1982م، ورغم أن هذه الحولية تتكلّم عن أوضاع الإمبراطورية البيزنطية (الروم)، إلاّ أنها تعرّضت كذلك إلى الدولة الأموية وخاصة عن بلاد الشام كونها دولة جوار للروم البيزنطيين. ومع أن الراهب ثيوفانس صبغ كتابه بصبغة دينية مسيحية وعزا العديد من الأحداث إلى إرادة الرب والأم الطاهرة، فإن معلوماته التاريخية تتصف بالدقة، حيث كان يذكر الأحداث باليوم والشهر والسنة، ولعل هذا الضبط يعود إلى اعتماده على سجلات ووثائق حكومية بيزنطية. أما أهم الأحداث التي تعرّض إليها ثيوفانس فيما يتعلّق بالفترة الأموية فهي الحروب الإسلامية- البيزنطية وخاصة البحرية منها، مؤكدًا بطبيعة الحال على وجهة النظر البيزنطية في هذا الصراع. فقد أشار إلى حصار القسطنطينية من قبل الجيش الأموي وتعرّض للإمدادات العسكرية الإسلامية والبيزنطية، وذكر كذلك المفاوضات بين الفريقين وخاصة مفاوضات القائد العربي الأمير الأموي مسلمة بن عبد الملك والإمبراطور ليو في عمورية.

أما المؤرخون المتأخرون من أمثال ابن الأثير (ت630هـ/1225م) في كتابه الكامل في التاريخ، وابن خلدون (808هـ/1405م) في كتابه العِبَر والبلعمي (ت363هـ/972م) في ترجمته الفارسية المختصرة لتاريخ الطبري، فهم يعتمدون بصورة عامة على من سبقهم من المؤرخين الرواد، إلاّ أننا لابد أن نستدرك ونقول بأن الباحث يعثر على روايات جديدة وفريدة وتفاصيل جيدة غير موجودة في كتب الأوائل، والفائدة موصولة من مصادر التاريخ المحلية فهي تفصل أكثر بكثير من مصادر التاريخ العام فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في أقاليمها. ولابد أن نذكر هنا مصادر التاريخ المحلي العمانية مثل السير العمانية وأنساب العرب للعوتبي

وكشف الغمة للأزكوي، والصحيفة القحطانية لابن رزيق، وتحفة الأعيان للسالمي، وغيرهم.

المستشرقون وتاريخ الفترة الأموية:

لابد لنا نشير بأن تقدّم الدراسات الاستشراقية الحديثة على دراسات المؤرخين العرب والمسلمين المحدثين يعود إلى أن دراسات المستشرقين المنهجية المنظمة سبقت دراساتنا المنهجية الحديثة. وأن قسمًا من باحثينا ومؤرخينا الأوائل تأثروا بهذه الدراسات وترجموها وساروا على طريقتها في المنهج والتحليل والتفسير.

لقد عالج المستشرقون تاريخ الإسلام عامة وضمنه تاريخ الأمويين في عدد من مؤلفاتهم التي بدأت منذ حوالي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولعل من روادهم المستشرق الألماني Weil في كتابه (تاريخ الخلافة) بخمسة أجزاء سنة 1846هـ-1862م، ثم Muller في كتابه الموسوم (الإسلام في المشرق)، بجزأين 1885هـ- 1887م، ثم توالت مؤلفات بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية)، وسيولر وبرناردلويس وهاملتون جب وغيرهم من الإنكليز والهولنديين والفرنسيين والطليان. وظهرت موسوعات تاريخية مثل (دائرة المعارف الإسلامية) النشرة القديمة والنشرة الجديدة المعدّلة والمنقحة، وتاريخ كمبردج عن العصور الوسطى وتاريخ كمبردج عن الإسلام وتاريخ كمبردج عن إيران، وكلها ذات صلة بالتاريخ الأموي من قريب أو بعيد.

أما الكتب والبحوث التي تختص بالفترة الأموية تحديدًا، فلعل أشهرها ذيوعًا في أوساط المختصين إلى فترة قريبة كتاب ولهاوزن الموسوم (الدولة العربية وسقوطها) 1902م والذي ترجم إلى الإنكليزية وإلى العربية مرتين، وقبله كتاب فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات) سنة 1890م، ثم دراسة المؤرخ الفرنسي ذائع الصيت هنري لامنس عن العصر الأموي 1930م ومقالاته العديدة عن الأمويين ومنها عن معاوية بن أبي سفيان، يزيد الأول. ثم المستشرق الإيطالي جبريللي الذي كتب مقالة عن الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك سنة 1935م، أتبعه بكتاب عن تاريخ العرب ضمّنه بطبيعة الحال تاريخ الأمويين، ثم مقالة المستشرق القدير هاملتون جب عن عمر بن عبد العزيز سنة 1955م، وأطروحة دانيال دينت عن مروان بن محمد وغيرها من البحوث التي سردت في فهرس المراجع في هذا الكتاب.

ولعل ظاهرة نشوء الفِرَق الإسلامية ومذاهبها منذ فترة مبكرة لفتت أنظار المستشرقين ودفعتهم للتحري عنها لمعرفة أسباب الفِرقة والانشقاق في الأمة الإسلامية، أو ربما كان الدافع حب الاستطلاع، ونحن هنا نتكلّم عن العلماء من المستشرقين وليس أولئك الذين لهم دوافع تبشيرية أو سياسية (فرّق تسد) بدعم ومساندة من حكومات أوربية غربية. وبقدر علاقة الأمر بموضوعنا عن الفترة الأموية فلعل كتاب ولهاوزن عن (أحزاب المعارضة: الشيعة و الخوارج) سنة 1901م وقبله مقالة فان فلوتن عن الشيعة سنة 1894م يعدّان من أوائل المؤلفات المنهجية، ثم تتابعت البحوث عن الفرق الإسلامية.

ترجم سيلي كتاب البغدادي الموسوم (الفَرْق بين الفِرَق) سنة 1920م.

وكتب جولدتسيهر (دراسات إسلامية) 1889م، وتبعه بكتاب (محاضرات في الإسلام) حيث تطرّق من جملة ما تطرّق إليه مسألة مركز "الموالي" في الدولة والمجتمع. وكذلك مسألة الشعوبية.

ونشر لامنس دراساته عن الفِرق الإسلامية سنة 1914م.

وكتب نولدكه عن الشيعة سنة 1923م.

وكتب دونالدسون كتابه الموسوم (دين الشيعة) سنة 1933م.

وكتب نالينو الإيطالي دراساته القيّمة عن القدرية والمعتزلة سنة 1933م.

وخلال عقد الخمسينات والستينات والسبعينات ظهرت كتابات علمية قيّمة قام بها مونتكمري وات عن الشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرها في سلسلة تاريخية متتابعة. وكذلك هاملتون جب آنف الذكر في مجموعة بحوثه الأصيلة، وبعضها عن الأمويين، نشرها في كتابه (دراسات في حضارة الإسلام)، ففي مقالته عن (تطور الحكومة في صدر الإسلام وعهد الأمويين) يرى أن المفارقة التي وقعت في الفترة الأموية هي عدم قيام نظام إداري داخلي للدولة يوازي ويجاري حركة التوسع (الفتوحات) السريعة من حيث الكفاءة والقوة.. لأن ذلك كان لابد أن يأخذ وقتًا، وهذا ما أثّر على مسيرة الدولة وما جابهته من صعوبات ونظرة المجتمع عامة إليها. إنّ هذه الظاهرة أساء فهمها الباحثون المحدثون، إما ذهابًا مع الهوى وإما افتقارًا إلى المعرفة التاريخية أو نقصًا في الإحساس بالنظرة التاريخية وحركة التاريخ، وهي فكرة جديرة بالبحث والمناقشة.

محصلة الأمر أن الكتابات الاستشراقية في تاريخ العصر الأموي هي: إما دراسات جاءت ضمن التاريخ الإسلامي عمومًا، أو دراسات مكرّسة عن العصر الأموي أو بحوث طويلة لعهد من العهود أو دراسات أخرى لظواهر حضارية أو فكرية وقعت في العصر الأموي.

إن الظاهرة التي نواجهها ونحن نستعرض آراء المستشرقين أو فئة منهم على الأقل هو الخلط في تفسير الأحداث التاريخية وتسخيرها لنظريات ومفاهيم العصر الحاضر، أو لآراء مسبقة أحادية التفسير، ولعلّ أول ما يطالعنا رأي المستشرق الفرنسي كازانوفا حين يقول: "كانت نفسية الأمويين عمومًا نفسية مجبولة على الطمع ومحاولة الإثراء إلى حد الجشع وحب الفتح من أجل النهب والحرص على التوسع للتمتع بالملذات الدنيوية"!!

ولنترك المستشرق الهولندي سنوك هرغرونيه يرد على هذا الحكم العام في مناسبة أخرى حين كان يتكلّم عن تاريخ الإسلام حيث قال: "إن الكتب الحديثة التي صدرت عن تاريخ السيرة النبوية وصدر الإسلام، تدل على أن البحوث التاريخية مقضي عليها بالموت إذا سخّرت لأية نظرية أو رأي مسبق".

والمشكلة التي وقع فيها فئة المستشرقين هي - كما أوضحناها في كتابينا طبيعة الدعوة العباسية والاستشراق والتاريخ الإسلامي- عدم إدراكها للتطورات الجديدة، سياسية واجتماعية واقتصادية، التي حدثت خلال هذا العصر، وعدم فهمها لبعض النصوص العربية فهمًا صحيحًا يعتمد على تطور المصطلح التاريخي الذي يتطور هو الآخر ويغيّر معناه ومفهومه بين فترة وأخرى ضيّقًا واتساعًا، يقول غوستاف لوبون مؤلف كتاب (حضارة العرب) في هذا الشأن: "ما أكثر الألفاظ التي تغيّر معناها تغيّرًا عظيمًا بين جيل وجيل. ونحن لا نفهمها كما كانت في الماضي إلا بعد جهد ودراسة طويلة..."، وهذا ما ينظر فيه علم فقه اللغة.

وغالبًا ما وقع بعض المستشرقين الذين عالجوا تاريخ الأمويين في الخطأ بسبب التعميم فهم يعممون ظاهرة أو سياسة خليفة أو والٍ على كل العصر الأموي، من هنا جاء تعميم ولهاوزن في حكمه حين زعم أن الأمويين -كلهم- لا يصلحون لقيادة الأمة المحمدية مفسرًا قوله: "وكانت موضوعات الشكوى هي أنّ العمال يسيئون استعمال سلطتهم ويظلمون الناس، وأن أموال الدولة تجري في جيوب أفراد قلائل يستأثرون بها، على حين أن معظم جيوب غيرهم تبقى خالية، وأن الزنا والعهر والشراب والميسر أصبحت لذات السادة لا يعاقبون عليها لأن الحدود معطّلة".

هذا التعميم الذي شمل عهود كل الخلفاء جائر، لأن النصوص تثبت بأن الحدود لم تعطّل في يوم من الأيام، وأن الحدود متى عطّلت هاج الناس وماجوا وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء قادة جماهير الناس، وهذا الوليد الثاني بن يزيد حينما كثرت "الشائعات" حوله من قبل خصومه من بني أمية والطامعين في خلافته من أنه كان فاسقًا - صحّت التهمة أم لم تصح - خرج بعض بنو أمية والناس عليه وقتلوه. مع إدراكنا لأثر التكتلات والقوى السياسية المتصارعة وبالتالي للبعد السياسي في اغتياله.

وكيف يشمل هذا التعميم عبد الملك بن مروان الذي قال عنه نافع مولى عبد الله بن عمر: "لقد رأيتُ المدينة وما فيها شاب أشذ تشميزًا ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان" وفي رواية للأعمش أن فقهاء المدينة أربعة: أحدهم عبد الملك بن مروان قبل أن يدخل الإمارة.

وهناك فئة من المستشرقين تلهث وراء المتشابه من الروايات التاريخية ابتغاء الفتنة والشقاق وابتغاء تأويل إحداث التاريخ الإسلامي وفق ما يروق لها ويخدم أهدافها... وحين لا ينطلي تشويههم للسيرة النبوية على أحد لتواتر أخبارها واتفاق العديد من الروايات حولها، فإنّ العهد الأموي ليس كذلك. فقد أعانتهم الكثير من روايات الشعوبية والمعارضة الدينية والسياسية ينتقون منها ما يشاءون. خاصة إذا تذكّرنا أن التاريخ الأموي كُتب زمن العباسيين حيث غيّر بعض الرواة - بسبب ميولهم - الحقائق أو بدّلوها وصوّروها أو طمسوها وأضافوا افتراءات جديدة على سير الشخصيات وإنجازاتهم.

وإذا أخذنا كتاب المستشرق الألماني ولهاوزن (ت1918م) الموسوم (الدولة العربية وسقوطها) ثم كتابه الثاني (الخوارج والشيعة) نلاحظ أنه أشهر من تعمّق بالتاريخ الأموي من مخضرمي القرنين 19م و20م. ونقل إلينا المستشرق بيكر مقارنة طريفة بين ولهاوزن ولامنس فيما يتعلق بدراساتهم في تاريخ بني أمية، ولاحظ بيكر: "أن لامنس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه ولهاوزن. فكتابات الأول مجرّد نصوص مجموعة ومرتبة لا روح فيها، أما كتاب ولهاوزن فهو بناء ضخم. ولامنس يلّون شخصياته التي يتكلّم عنها جزءًا جزءًا ولكنه يقع على اللون غير الصحيح، أما ولهاوزن فهو ينحت شخصياته من الحجر الأصيل".

وعمومًا فإن تفسيرات فئة المستشرقين لأحداث ومواقف من التاريخ الأموي تثير ملاحظات وتساؤلات معيّنة لدى الباحث المختص، وكذلك لدى القارئ المولع بالتاريخ الإسلامي، لأنها بلا شك غير مألوفة في الكتابات العربية عن الموضوع نفسه، خاصة وأنّ بعضها محاط بمبالغات في التفسير حمّلت النص التاريخي للرواية أكثر بكثير مما يحتمله.

إن ما كتبه المستشرقون عن التاريخ الأموي كثير وأن مبالغاتهم أو تحريفات فئة منهم أكثر، على أننا سنقتصر على بعض المحاور الرئيسية ونعتبرها نماذج توضح منهجهم وتفسيراتهم فيما ذهبوا إليهم، وهذه المحاور هي:

- التأكيد على عامل واحد في التفسير.
- النزعة العرقية (العنصرية) للخلافة الأموية ومجاراتها للعرب دون غيرهم.
- شيوع "العصبية" القبلية وما نتج عنها من فتن وحروب أهلية، ومنها الدعوة العباسية التي بدأت في العصر الأموي ونجحت في القضاء على الدولة الأموية.
- الفتوحات والنزعة المادية لدى المقاتلة.
- شخصيات منحرفة.
- نشوء الفِرَق الإسلامية.
- "مشكلة" الموالي في المجتمع.

وبقدر تعلّق الأمر بالمحور الأول نلاحظ تأكيد ولهاوزن على العامل السياسي حيث كان يؤمن بأنّ للتاريخ السياسي قوة ديناميكية ذاتية تكفي لتفسير التطور، ولكن التأكيد على عامل واحد، وكذلك على العامل السياسي فقط لم يعد من المسلّمات التي يتفق عليها المؤرخون مع ولهاوزن. أما الأب اليسوعي لامنس فقد كان العامل الديني الطائفي المحرّك الفعلي لدراساته مع تأكيده على الدافع الاقتصادي أيضًا، وهكذا بدأ المستشرقون وكأنهم يختارون اللون الذي ينسجم مع مزاجهم وثقافتهم وبيئتهم ليصبغوا به دراستهم عن الأمويين!!

وتأثر بعض المستشرقين بالنزعة العرقية التي شاعت في أوروبا بتأثير كوبينو وغيره، وكذلك بما شهدوه في تاريخهم الأوروبي من صراع دموي بين القوميات، ففسروا التاريخ الإسلامي من خلال تجربتهم الذاتية، فذهب بعضهم إلى القول بأن

الدولة الأموية دولة عربية لا يعنيها إلا أمر العرب في المجتمع الإسلامي، أما غير العرب فهم "مواطنون من الدرجة الثانية" لا يشفع لهم حتى الإسلام!!

يقول ولهاوزن "ودخل الأعاجم الإسلام... وحققوا الحرية لأشخاصهم لكنهم لم يصلوا درجة التمتع بالحقوق المدنية كالمواطنين ولا بالحقوق العسكرية ومزاياها المادية.. ولم يكن الإسلام كافيًا في ضمان المساواة لهم، ذلك لأن الدولة الثيوقراطية الإسلامية كانت في واقع الأمر دولة عربية خالصة، دولة العرب التي جعلتهم فوق الأمم المغلوبة".

ويؤكد ولهاوزن رأيه في مكان آخر فيقول: "وكأن بنو أمية في الواقع يمثّلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام".

وحين يتكلّم بروكلمان عن الموالي في العراق يزعم أن العرب ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية حتى بعد اعتناقهم الإسلام"!!

والقول هنا ذو شقين: الأول عروبية الدولة باعتمادها على العرب، والثاني سياستها العنصرية، أما اعتماد دولة الإسلام منذ نشأتها على العرب فأمر طبيعي لا غبار عليه لأنها نشأت بينهم وكانوا "مادة الإسلام" وعليهم اعتمد في الانتشار. ولابدّ أن تمر فترة من الزمن قبل أن يندمج القادمون الجدد من غير العرب في المجتمع الجديد، وحينذاك يشاركون العرب، فليس في الأمر تحاملاً أو عنصرية ولكن عصر الأمويين كان لا يزال عصر العرب أكثر من كونه عصر غيرهم بسبب سنّة الزمن وحركة التاريخ والتطور التاريخي للأمة وكيانها السياسي.

ورغم أن الأمويين لم يتحاملوا على الموالي بمعنى أنه لم تكن هناك "سياسة رسمية" تناهض غير العرب بل على العكس كما سنلاحظ ذلك حين نتكلّم عن مشكلة الموالي... نقول رغم ذلك فإنّ في يد الأمويين أكثر من تبرير لو اعتمدوا كليًا على العرب. فالقوة العسكرية الضاربة لا زالت في المقاتلة العرب، ثم ظهرت فئات من الأعاجم أظهروا الإسلام وأبطنوا دياناتهم السابقة، ولابد من الحذر منهم.

فإذا كانت فئات من الموالي تناهض الدولة الإسلامية وتقوم مع كل فتنة تبغي تمزيق الدولة وتفريق شمل الأمة، فهل نتوقع من الدولة إلاّ أن تقابل السلاح بالسلاح، والتاريخ سجّل بأن الموالي الذين لم يشاركوا في الفتنة كانت لهم من الحقوق مثل ما كان للعرب وامتزجوا بالعرب امتزاجًا لا تفريق فيه، قال عبد الملك

بن مروان للزهري وهو يحدّثه: "من أين قدمت يا زهري؟ قلت من مكة. قال: فمن يسود أهلها؟ قلت عطاء بن رباح، قال: فمن العرب أم الموالي؟ قال قلت: من الموالي قال وبم سادهم؟ قلت بالديانة والرواية، قال: إن أهل الديانة والرواية ينبغي أن يسودوا، قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قال قلت طاووس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال قلت من الموالي، قال: وبم سادهم؟ قلت بما سادهم به عطاء، قال: إنه لينبغي..." فالموالي العلماء والأكفاء لا يغمط حقهم في المجتمع وإن كانت رغبة الخليفة عبد الملك الخفيّه ربما مع العرب الذين عليهم أن يتميزوا أيضًا.

وفي المحور الثالث تصوّر فئة من المستشرقين العصر الأموي تصويرًا دمويًا وتصبغه بصبغة الحرب القبلية الأهلية المستمرة بين عرب وعرب، متناسية أو مهملة إنجازات الأمويين الإدارية والسياسية والحضارية، فعنوان عدة فصول في كتاب ولهاوزن يبدأ بالحرب الأهلية الأولى والثانية والثالثة، ولا يكتفي ولهاوزن بالحروب الأهلية بل يفصّل في الصراع القبلي في بلاد الشام نفسها بين القيسية والكلبية فيقول: "على أن العواصف في العراق لم تسكن بانتهاء الحرب التي استمرت سنين طوال مع ابن الزبير.. بل ملئت هذه العواصف كلها عهد عبد الملك تقريبًا. وفي الشمال)بلاد الشام(استمر صخب العداء بين قيس وكلب...".

ويستمر ولهاوزن في صفحات عديدة يذكر فيها قيس وكلب أكثر من مائة مرة، وهكذا نلاحظ أن ولهاوزن يصف الدولة الأموية بأنها عنصرية ثم يصف المسرح السياسي وقد اكتظّ بالنزاع بين القبائل المتنافسة، لا يكتفي بذلك بل يفسّر بعض الحركات بأنها إقليمية فحركة عبد الرحمن بن الأشعث صراع إقليمي بين كل العراق وبلاد الشام... وهو بهذا يقفز من العنصرية العربية إلى القبلية إلى الإقليمية!! كل ذلك في دولة واحدة.

وأكّد بليابييف في كتابه (العرب والإسلام والخلافة العربية) على الصراع القبلي في عهد بني أمية، وإن هذا الصراع يعود في أصوله إلى اختلاف في التفكير السياسي بين القيسية المتمسكين بالتقاليد البدوية والمؤيدين لنزعة التوسع والفتح، والقبائل اليمانية المتحضرة والتي مالت إلى إيقاف الفتح ودعت إلى الاندماج مع سكان البلاد المفتوحة والاستقرار وبناء مجتمع مدني. ولا تختلف باتريشياكرون عن بعض المستشرقين في تأكيدها على العصبية القبلية في العصر الأموي مؤكدة أن لا اختلاف في ذلك بين القيسية واليمانية، فزعماء كلا المجموعتين كانت تتجاذبهم

المصالح الشخصية والحصول على السلطة والمال، وقد أوضحت وجهة نظرها في بحث لها بعنوان (هل كانت قيس واليمن في الفترة الأموية أحزابًا سياسية؟).

أما ما يخص المد الإسلامي الجديد المتمثل بالفتوحات الإسلامية في العصر الأموي فإنّ فئة كبيرة من المستشرقين لم يتعاملوا مع الفتوحات على أساس الجهاد لنشر العقيدة.. وهذا ما نلاحظه منذ البداية مع جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) داخل الحجاز وفي جزيرة العرب فقد صوّروا تشريع الجهاد بالشكل التالي: "ولم يجرؤ)أي الرسول (صلى الله عليه وسلم)(على إعلان شرعية الحرب ضد المشركين وتوزيع الغنائم حتى في الشهر الحرام إلاّ في آيات متأخرة حيث أثارت الغنائم الكثيرة مطامعه إثارة كافية"!!

فهذه الفئة التي تنظر إلى جهاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الحجاز بهذا المنظار، ماذا يتوقع منها أن تنظر إلى معارك الفتوحات خارج الجزيرة أو على أطرافها، يقول فان فلوتن: "وطالما كان الدافع على ذلك)الفتوحات(هو شره الولاة والقادة أكثر من الرغبة في نشر الدين".

ويقول بروكلمان: "أصبح الهدف من الجهاد جلب المال والغنيمة لا نشر العقيدة والإيمان". والملاحظ أكثر من هذا أن أسلوب هذه الفئة من المستشرقين وتفاسيرها لأحداث الفتوحات تتسم بالعداء تجاه سياسة الدولة العربية الإسلامية. فبروكلمان يصف حملات معاوية بن أبي سفيان على القسطنطينية بالبربرية قائلاً: "والواقع أن جيوش معاوية بلغت القسطنطينية مرتين ولكن الإمبراطورية البيزنطية استطاعت بفضل تفوقها الحضاري أن ترد تلك الهجمات البربرية".

ولا يعزو المستشرقون انتصار العرب المسلمين إلى أي عامل إيجابي مثل الشجاعة، الصبر، المهارة في القتال وقوة المعنويات بسبب عقيدة الجهاد والإيمان، بل نجدهم يعزونها عمومًا إلى الفرقة والخذلان لدى الطرف الآخر. يقول سيديو "لم يكن العرب ماهرين في الحصار فكان لابد من خسارتهم تجاه الروم والفرس لو لم تنهك الروم والفرس الحروب المتصلة بينهم".

ويعلّل بروكلمان انتصار القائد العربي قتيبة بن مسلم الباهلي في معارك سمرقند وبخارى بنشوب نزاعات بين أمراء الأسرة الحاكمة عرف قتيبة كيف يستغلها، وكذا بالنسبة للأندلس فإن نجاح طارق بن زياد يعود من وجهة نظر بروكلمان إلى عامل واحد وهو "الاضطرابات الداخلية في المملكة القوطية".

وإذا ما انتقلنا إلى محور آخر نلاحظ تركيز فئة من المستشرقين على "تشويه شخصيات التاريخ الأموي" دون تمييز وبأسلوب تعميمي صارخ، كما أشرنا إلى ذلك في ملاحظة المستشرق كازانوفا آنفة الذكر أو تعليق ولهاوزن الذي زعم فيه أنهم - جميعًا - لا يصلحون لحكم الدولة الإسلامية، مع أنه يناقض نفسه ويظهر مزايا العديد منهم في صفحات أخرى من كتابه.

لقد اتهم ولهاوزن معاوية بن أبي سفيان في دينه قائلاً: "أن معاوية لم يكن في قلبه تعلّق عميق بالإسلام" واتهم بروكلمان هشام بن عبد الملك بالبخل وسوء الإدارة وهي الصفة الغالبة التي امتاز بها هذا الخليفة الإداري الحازم، قال بروكلمان: "وأكبر مثالب هشام بن عبد الملك بخله فقد كان ينظر إلى الدولة نظرته إلى إقليم يحب أن يستغل فكان يحمل ولاته على الإمعان في ابتزاز الأموال من الرعية ليس هذا فقط بل زاد في الخراج".

أما عمر بن عبد العزيز فقد أنكروا عليه أحسن صفاته التي ميّزته وهي العدالة. يقول ولهاوزن "إن عمر لم يعد سمرقند إلى أهلها مع أنه اعترف أن العرب استولوا عليها خلافًا لما يأمر به الدين" ويؤيد ذلك قبله فان فلوتن مدّعيًا أن المسلمين استخدموا وسائل خبيثة للسيطرة على المدينة والاحتفاظ بها. بينما تشهد وقائع التاريخ أن حكم عمر بن عبد العزيز كان بانسحاب الجيش الإسلامي من المدينة ولكن أهل المدينة بعد أن اعتادوا على الحكم الإسلامي وما حققه لهم خلال تلك المدة الطويلة طلبوا البقاء ضمن دار الإسلام اختيارًا منهم.

أما اتهام معاوية بدينه فتجريح من ولهاوزن خاصة وأنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) اتخذه كاتبًا للوحي وهذه صفة لا ينالها إلا موثوق بدينه أمين عليه. ويرى العقّاد أن معاوية بعد إسلامه لم تثبت عليه كلمة ولا فعلة تنقض تصديقه بدينه... ولا نتصور أن رجلاً له باطن وظاهر في أمر العقيدة ينشأ في بيته مؤمنان تقيّان كخالد ومعاوية الثاني حفيديه فإن إخفاء البواطن عشرات السنين حيث يعيش المرء على رسله أمر يفوق طاقة الإنسان".

ولسنا هنا في صدد تسجيل سيرة الأمويين فكتب التاريخ تحفل بذلك ولكننا ضد التعميم والتجريح الذي لازم هذه الفئة من المستشرقين وإذا كان لابد مما ليس منه بد فإننا نحيل إلى ابن تيمية الذي قال عن الأمويين: "إنّ بني أمية كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستعملهم في حياته واستعملهم بعده من لا يتهم بقرابة

فيهم: أبو بكر وعمر، ولا تعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله أكثر من بني عبد شمس، لأنهم كانوا كثيرين وكان فيهم شرف وسؤدد..." .

وقال ابن العربي: "وعجبًا لاستكبار الناس ولاية بني أمية وأول من عقد لهم الولاية رسول الله، فإنه ولى يوم الفتح عتبة بن أسيد بن أبي العاص بن أمية مكة حرم الله وخير بلاده وهو فتّي السن، واستكتب معاوية بن أبي سفيان أمينًا على وحيه... ثم ما زالوا بعد ذلك ينتقلون في سبيل المجد ويترقون في درج العز..." .

أما من الباحثين المحدثين فنحيل إلى ما كتبه الأستاذ محمد كرد علي عن مميزات بني أمية وفي ذلك ما يكفي للرد على آراء بعض المستشرقين ومن تبعهم من الباحثين العرب والمسلمين.

وركز بعض المستشرقين على ظاهرة "نشوء الفِرَق الإسلامية" تركيزًا واضحًا، وقد لاحظنا أن البعض منهم خصص كتبًا عن الموضوع، وكتب البعض الآخر دراسات مطولة في ذلك.

على أن أكثر ما توسع فيه المستشرقون من الفِرَق الإسلامية هي: فرق الشيعة والخوارج والمعتزلة وذهبوا في أصول نشوءها وتطورها وتعاليمها مذاهب شتى حيث اختلفوا فيما بينهم وردّوا على بعضهم البعض الآخر.

فبالنسبة للشيعة على سبيل المثال لا الحصر تباين المستشرقون في تفسيرهم لأصل حركة التشييع: فمنهم من قال بأنها ذات أصول عربية صرفه نشأت وتطورت في البيئة الإسلامية، خاصة وأنّ رجالها الأوائل من عرب اليمن حيث كان فكرة "الوراثة" سائدة في سلالات ملوكهم القدماء قبل الإسلام، كما وأنّ حكامهم كانوا يتمتعون بصفات روحية، وقد نادى بهذا الرأي المستشرق مونتكمري وات، وكان جولدزيهر (ت1921م) قد نادى قبل وات برأي مشابه مفاده: "إن الحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحتة ولم تمتد إلى العناصر الإسلامية غير السامية إلا من خلال حركة المختار الثقفي"، ثم يضيف: "أن أول الواضعين لجزء من مبادئ "التجسيد" و"الحلول" قوم لا شك أنهم من الجنس العربي الصميم... فالشيع كالإسلام عربي في نشأته وفي أصوله التي نبتت منها"، ولعل منشأ هذه الفرضية أصلاً من ولهاوزن (توفي 1918م) الذي قال في (أحزاب المعارضة): "أما أن تكون آراء الشيعة ملائمة للإيرانيين فأمر غير مشكوك فيه، أما كون هذه الآراء قد انبعثت من الإيرانيين فالروايات التاريخية تقول عكس ذلك إذ تقول بأن التشيع

الواضح الصريح كان قائمًا أولاً في الدوائر العربية ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالي".

إلا أن دوزي نادى بالأصل الفارسي لفرقة الشيعة. وكان كل من مولر وفون كريمر وجويدي ودارستتر على الرأي والتفسير نفسهما. يقول دوزي: "كانت الشيعة في حقيقتها فرقة فارسية وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين العرب المحبّين للحرية، والفرس المعتادين على الخضوع كالعبيد".

ويؤكد مولر ودامستتر أن مبدأ "الوراثة" في الحكم جاء إلى الفرس بتأثير الآراء الهندية الآرية التي تقول بالعائلة "الإلهية" المختارة، وقد نقل الفرس هذه الآراء إلى الإسلام بعد أن دخلوا فيه.

وقد أرجع عدد من المستشرقين بعض آراء الشيعة إلى أصول يهودية أو مسيحية- يهودية مشتركة ومن هؤلاء فريد لندر وجولدتسيمر وولهاوزن. وردّ كل من دوزي ومولر ودارمستتر أفكار "الغلو" إلى أصول فارسية آرية قديمة. واختلف كل من إيفانوف وبرنارد لويس حول أصول الإسماعيلية وتعاليمها. وعالج كل من ترتون وودي غويه وغليوم وستيرن علاقة القرامطة بالإسماعيلية وكتب ديسان عن النصيرية (العلويين)، وشتروتمان عن الباطنية وفروعها.

كذلك اختلف المستشرقون في أصل فرقة الخوارج ومنشئهم: فكولدزيهر اعتبر حرب صفين وما وقع فيها من تحكيم هي بداية هذه الفرقة التي كانت ترى "أن الفصل في موضوع خلافة النبي لا يصح أن يوكل إلى البشر، بل ينبغي الاحتكام فيه إلى الحرب والكفاح وسفك الدماء". ويكمل بروكلمان هذه الفرضية نفسها حين يقرر بأن حركة الخوارج مثلت النزعة الفردية القبلية التي تمردت على المركزية في الحكم، ويدلل على ذلك بأنّ بداياتها ضمت فئات من قبائل بدوية عرفت بنزعتها التقليدية المجبولة على التمرّد وإثارة الفتن مثل تميم. وسار على الخط نفسه المستشرق برونوف الذي رأى بأن نسبة كبيرة من الخوارج هم من البدو. أما مولر فيرى أن العامل الأساسي في ظهور الخوارج هو (العصبية القبلية) المتأصلة في جذور المجتمع العربي. فقد كان من أتباع الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عناصر من ربيعة ومضر وكذلك بعض اليمانية، وكانت المنافسة بينها السبب الأعمق فيما حصل في صفين. أما المستشرق وات فيرى في حركة الخوارج نزعة التذمر التي ظهرت بين الأتقياء (القرّاء) نتيجة المتغيرات الجديدة في المجتمع بعد

الفتوحات وما صاحبها من القلق وعدم الاستقرار، وقد تصوّرت هذه الفئة إمكانية بناء "مجتمع مثالي" تسوده العدالة والمساواة، حتى أن فكرتهم في الحِكَم المبنية على الانتخاب اصطدمت بعقبات عديدة، ولذلك فإن فلوتن يطلق عليهم لقب "الجمهوريين"، بينما يؤكد ولهاوزن أن نظرتهم في الخلافة ليست لها أهداف عملية يمكن تحقيقها، بالإضافة إلى كونها منافية للمدنية، ومن هنا جاء رأي الإمام علي (رضي الله عنه) فيهم من أنهم لا يريدون الإقرار بأية إمارة.

أما "مشكلة الموالي" التي خلقت منها فئة من المستشرقين "معضلة" ورددها بغض مؤرخينا، وفحواها أن الدولة الأموية تبنت سياسة "الاضطهاد" الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ضد الموالي (المسلمين من غير العرب) وأن المجتمع نظر إليهم نظرة احتقار، فسنناقشها في (الفصل الثالث) من هذا الكتاب.

ولعل موقف المستشرقين الموضوعيين من تاريخ الأمويين يتجلى في وجهة نظر هاملتون جب حين يقول "لقد أُلفت التواريخ (الإسلامية) بعد (العصر الأموي) بأكثر من قرن في العراق، واعتمد في الأكثر على الأخبار العراقية، وإذا استثنينا أعمال الخلفاء الرسمية وجدتها لا تمدنا إطلاقًا بأية أخبار عن بلاد الشام في العهد الأموي، لذلك فإن تاريخ القرن الذي شهد دولة تمتد من أواسط آسيا حتى الأندلس (أسبانيا) لا يعرف منه شيء سوى "نتف وشذرات يمكن جمعها من الحفريات ومواد مبعثرة تستمد من مصادر أخرى".

المؤرخون العرب والمسلمون المحدثون والتاريخ الأموي:

إن دور المؤرخ الحديث سواء كان عربيًا أم مسلمًا أم مستشرقًا هو البحث والاستقصاء بعيدًا عن النزعات والتأثيرات، والتمييز بين الروايات التاريخية الموثوقة والضعيفة وفق أسلوب يقرره منهج البحث العلمي الحديث في التاريخ.

إن المؤرخين الأوائل حاولوا في مصادرهم القديمة جمع وتنسيق الروايات، وتركوا للباحثين تحليل هذه الروايات وتفسيرها، وقد قدم لنا المؤرخون المحدثون الحوادث وتفسيرها. وبقدر تعلّق الأمر بموقف المؤرخين المحدثين العرب والمسلمين عن الفترة الأموية، فقد كانت الصور التي قدموها لنا متباينة ومتنوعة، كما تنوعت كذلك تفاسيرهم حول أحداث الفترة الأموية فيما ألفوه من كتب بعضها غطى العصر

الأموي بكامله، بينما غطى البعض الآخر عهد خليفة من الخلفاء الأمويين، أو بحوث عالجت ظاهرة أو حدث محدد في العصر الأموي.

وليس بالإمكان في واقع الحال، التعرّض في هذه المقدمة لكل ما أُلف من كتب وما نشر من بحوث عن الفترة الأموية من قبل المؤرخين العرب والمسلمين المحدثين، إلا أننا سنعطي نماذج من ذلك.

في حقل الكتب ... عرض صالح أحمد العلي في محاضراته غير المنشورة (محاضرات في تاريخ الدولة الأموية) والتي ألقاها على طلبه قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة بغداد في الثمانينات من القرن العشرين، عرض للتطورات السياسية والملامح الاقتصادية للفترة موضوع البحث، ولكن باختصار لا يخلو من التحليل والتفسير، أما كتابه الموسوم (امتداد العرب في صدر الإسلام)، والذي طبعه المجتمع العلمي العراقي في بغداد 1981م فيتكلّم عن طبيعة الفتوحات الإسلامية منذ بداياتها، شاملاً بطبيعة الحال الفترة الأموية، مؤكدًا على استقرار القبائل العربية في الأقاليم المفتوحة وخططهم وأحوالهم الاجتماعية. ويعدّ كتاب عبد العزيز الدوري (مقدمة في تاريخ صدر الإسلام) من أحسن المؤلفات في الموضوع، فقد ألقى الدوري نظرة شمولية عامة عن الفترة مؤكدًا على التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة، وموقف الدولة منها. ورغم صغر حجم الكتاب ففائدته كبيرة. وقام لبيد إبراهيم أحمد وزملاؤه بتأليف كتاب منهجي جامعي (الدولة العربية الإسلامية في العصر الأموي) ونشر في بغداد 1992م شمل الأحوال السياسية ونظم الحكم ومؤسسات الدولة، واستند المؤلفون على جملة المصادر والمراجع الحديثة فكان نتاجًا جادًا تميّز بالوضوح في سرد المعلومات.

ويأتي عبد المنعم ماجد (التاريخ السياسي للدولة العربية- عصر الخلفاء الأمويين) في مقدمة الكتب الموضوعية العامة عن الفترة الأموية، وقد تميّز بشموليته واستشارته لعدد كبير من المصادر والمراجع الحديثة والأجنبية، ودقته في التوثيق مع تحليلات ذكية. وتتصف دراستي الزميلين محمد ضيف الله البطاينة ومحمد عبد القادر خريسات بالصفات الموضوعية نفسها، وكان درويش المقدادي في كتابه (تاريخ الأمة العربية) من الرواد الذين ألفوا عن هذه الفترة حيث نشر كتابه في بغداد سنة 1934م، ويلتقي معه في التفسير ومحاولة توضيح الرؤيا عن الأمويين عمر فروخ (تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية) 1970م ونبيه عاقل

(خلافة بني أمية) سنة 1972م، حيث كان هذا العصر موضع لظلم من الذين كتبوا عنه، ولابد كما يقول نبيه عاقل من رفع هذا الظلم. وتضرب على الوتر الحساس نفسه نجدة خماش في كتابها (خلافة بني أمية في الميزان) الذي صدر في دمشق سنة 2001م، وترى أن دور الأمويين كان هامًا فيما أنتجوه من نظم ومؤسسات، وأن المؤرخين الأوائل والمحدثين أغمطوا حقهم لأنهم ركزوا على الصراع السياسي بين السلطة والمعارضة مما أفرز صورة مشوهة وناقصة، وتركوا الإنجازات في المؤسسات.

وقد تناول طلبة الدراسات العليا مظاهر متنوعة من العصر الأموي، ودرس بعضهم حركات دينية سياسية أو عهد من العهود، ونشير على سبيل المثال لا الحصر أطروحة عبد الواحد ذنون طه عن العراق في عهد الحجاج بن يوسف الثقفي، ودراسة هند أبو الشعر عن حركة المختار بن عبيد الثقفي، ودراسة نبيلة عبد المنعم عن نشأة الشيعة الإمامية، وعبد الأمير دكسن عن عهد عبد الملك بن مروان، ودراسة لطيفة البكاي عن حركة الخوارج منذ نشأتها حتى نهاية الفترة الأموية، كما درس على عبابنة على خلافة سليمان بن عبد الملك، وصبحي العزام خلافة مروان بن الحكم، وأمجد ممدوح الفاعوري دور الجماعات غير العربية في الإدارة والجيش في العصر الأموي، وقد فنّد هذا الأخير المزاعم التي تتهم الأمويين بعزلهم للموالي وحرمانهم من الوظائف العامة في الدولة، كما كتبت صباح فجر عن (دور بني هاشم في العهد الأموي) حاولت فيها الإجابة على جملة أسئلة ضمن إشكالية العلاقة الهاشمية- الأموية، تلك العلاقة التي اتسمت بالدقة والحساسية، حيث حاول كل منهما أن يحافظ في أغلب الأحيان - على علاقات متزنة ضمن ظروف صعبة وحرجة، وأخيرًا لا آخرًا كتب فضيل بن حمد عن (بنو أمية ودورهم في الحياة العامة).

إن ما أشرنا إليه هو قليل من كثير من المؤلفات التي كتبت عن الأمويين إذا لا يتسع المجال لتقصي ما كتب عن الأمويين والحُكم على التفاسير التي وردت فيها، أما البحوث التاريخية العلمية فهي كذلك كثيرة ومتنوعة، لعلنا نشير إلى عدد منها. ولعل من أقدم من نشر بحثًا عن الأمويين هو محمد كرد علي وعنوانه (مميزات بني أمية) سنة 1939م، ونشر صالح أحمد العلي بحثًا عن توسع الدولة والفتوح عالج فيه الفترة الأموية سنة 1996م. كما نشر محمد ضيف الله البطاينة عن العصبية

القبلية والأحداث التاريخية في عصر بني أمية انتقد فيها القائلين بسيادة العصبية القبلية في الفترة الأموية في مجالات الدولة المختلفة، ولم يعيروا أهمية إلى قاعدة الكفاية والولاء والصلاح ورعاية الناس وهو اتجاه تسنده العديد من النصوص التاريخية، وللباحث نفسه مقالاً آخر بعنوان (وصول بني أمية إلى منصب الخلافة)، وكتب كل من فاروق عمر فوزي وعبد الواحد ذنون طه وحسن عبد الله النابودة وأحمد السري ومحمد ضيف الله البطاينة، ومحمد خريسات وصالح درادكة وفالح حسين ونجدت خماش وخالد صالح العسلي وعماد الدين خليل بحوثًا عن ثورات سياسية ومظاهر حضارية، وقعت في الفترة موضوع البحث. وهي جديرة بالإطلاع لفائدتها وقد أشرنا إليها في فهرست البحوث باللغة العربية.

لعل أهم المظاهر التي ركّز عليها المؤرخون والباحثون المحدثون فيما يتعلّق بالفترة الأموية ثلاثة مظاهر رئيسية هي على التوالي: (1) سياسة "العصبية القبلية" التي انتهجها الخلفاء والولاة الأمويون في التفريق بين اليمانية والربعية والقيسية(2)، ثم سياسة التمييز الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المزعوم التي اتبعها الخلفاء والولاة أنفسهم تجاه الموالي (المسلمون من غير العرب) الذين بدأت أعدادهم بالتزايد شيئًا فشيئًا في الأمصار والمدن الإسلامية، وما تبع ذلك من حركات سماها البعض "ثورات الموالي" ضد السلطة الأموية والتي توّجت أخيرًا بالدعوة العباسية التي انفجرت بشكل ثورة عارمة أنهت الدولة الأموية. (3) وتعد الدعوة العباسية المظهر الأخير الذي ركّز عليه الباحثون المحدثون وكانت لهم تفاسير وتخريجات مختلفة حولها وهي الظاهرة الثالثة.

أما الظاهرة الأولى: "سياسة العصبية القبلية" فهناك اتفاق بين غالبية المؤرخين المحدثين على وجودها، ولكنهم يختلفون في حدّتها ونفوذها. وبالتالي أثرها على سياسة الدولة. فقد أشار عبد العزيز الدوري إلى أنها مظهرًا مستمرًا للطبيعة البدوية عند القبائل العربية فهي أقرب إلى الرضوح لزعمائها من السلطة، مما جعل السلطة تتعامل مع الواقع وتنظر إلى العرب على أساس مجموعات يمانية وقيسية وربعية، ورأى نبيه عاقل وإبراهيم بيضون أن النزاع القبلي الذي أساسه ومحركه المصالح والوصول إلى السلطة امتزج بسياسة الدولة العليا وخاصة في تأييد الدولة الأموية في تمسكّها بالخلافة، إلى جانب أمور أخرى تتعلق بالموقف من الفتوحات والاستقرار والامتزاج مع سكان البلاد المفتوحة. بينما اعتبر آخرون أن العصبية القبلية امتدت من السياسة لتشمل إلى الحياة الاجتماعية والفكرية. على

أن محمد عبد الحي شعبان ومحمد البطاينة تنحيا جانبًا عن هذه التفاسير، ورأوا فيها مبالغة مجحفة في حق الأمويين وولاتهم وانتقاصًا من مكانتهم كرجال دولة مهتمين بمصالح رعيتهم ومحافظين على دولتهم، وأن سياساتهم لم تكن تستند على قرارات آنية ونزوات شخصية، بل على خطط مدروسة وخطوات منطقية تجاه مشاكل واجهها المجتمع تتعلّق كما ذكرنا بالموقف من حركات المعارضة العديدة، والموقف من إنشاء مؤسسات إدارية جديدة، والموقف من سياسة الفتوح واستمرارها وما يتبعه من رغبة نسبة ملحوظة من القبائل في الاستقرار والعمل في "مجتمع مدني" في التجارة والزراعة والحرف والعِلم، وكذلك الاندماج والتمازج مع سكان البلاد المفتوحة.

أما الظاهرة الثانية: "سياسة التمييز والتفرقة تجاه الموالي" والتي ابتكرتها فئة من المستشرقين وأخذها عنهم فئة من المؤرخين العرب والمسلمين حتى شاعت وكأنها حقيقة واقعة في كتاباتنا التاريخية عن الدولة الأموية. وقد أشرنا سابقًا إلى آراء المستشرقين عن هذه الظاهرة، واستنادهم إلى حالات فردية استثنائية لا يمكن أن نستنبط منها رأي يدين سياسة الدولة أو موقف المجتمع بأسره، ولم يأخذوا في تحليلهم للأحداث تطور المجتمع وحركة التاريخ، حيث أن تأثير الموالي لا يمكن أن يظهر على الساحة ويفرض نفسه فجأة بل ينمو مع نمو الدولة ومؤسساتها وتطور المجتمع الجديد ومقوماته بصورة تدريجية. ونسى هؤلاء المؤرخون أن العرب المسلمين هم الذين بادروا ولدوافع شتى في عملية دمج الموالي في التركيب الاجتماعي والإداري والعسكري.

ولعلنا نلاحظ أن المشادة التي وقعت بين المؤرخين والباحثين العرب والمسلمين في القرن العشرين فيما يتعلّق بتاريخ الأمويين وسياساتهم كانت مثيرة. وربما ظهر التباين في المواقف في أوضح صورته 1905م أثر تبادل الرسائل بين جرجي زيدان صاحب كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" ورفيق العظيم مؤلف كتاب "أشهر مشاهير الإسلام في الحرب والسياسة" والتي ظهرت على صفحات مجلة الهلال بالقاهرة؛ حيث انتقد العظم الطريقة التي عالج بها زيدان الدولة الأموية وخاصة ما يتعلق بتفضيلهم العرب وإساءتهم للموالي. ثم رد هذا الأخير على الانتقاد.

ويبدو أن مفكري النهضة العربية في أوائل القرن العشرين وهم يتوجسون خطر "سياسة التتريك" قد لاحظوا أن التعريض بالحكم الأموي "العربي" وإظهاره بمظهر

سيء في تلك الظروف الحساسة خطر على الأمة العربية. ومن هنا يمكن تفسير مشاركة محمد رشيد رضا في الحملة على كتاب جرجي زيدان ونشره كتابًا شارك فيه باحثون عرب ومسلمون منهم العالم الهندي المسلم الشيخ شبلي النعماني. وقد استمر الاهتمام بتاريخ الأمويين والدفاع عن إنجازاتهم والتي طمست عمدًا من قبل العباسيين كما يرى بعض الباحثين، فقد أصدر أنيس زكريا النصولي اللبناني ومن خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت كتابًا عن الدولة الأموية نشر 1927م في بغداد، فأثار ضجة ثقافية تطورت إلى أزمة سياسية شارك فيها الأستاذ ساطع الحصري الذي كان في بغداد آنذاك والمؤرخ العراقي عبد الرزاق الحسني حيث يشيران إلى هذه الحادثة في كتبهما.

واستمرت الدعوة بين بعض الباحثين والمفكرين العرب إلى إعادة النظر في التاريخ الأموي وإنصافه. ويبدو ذلك جليًا من كتابات محب الدين الخطيب في مجلتي الفتح والزهراء القاهريتين، ومحاضرات ومقالات محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، وكذلك في كتابه الموسوم "خطط الشام". وقد ردّ على هذه الدعوة عدد من العلماء أمثال السيد محسن الأمين العاملي وعبد الحسين شرف الدين ومحمد علي الحوماني. ولابد لنا أن نشير هنا إلى تأثير بعض المستشرقين أمثال البلجيكي لامنس Lammens الذي كان متعصبًا للأمويين على بعض المؤرخين العرب حيث لاقت كتاباته قبولاً لديهم. بينما لاقت كتابات مستشرقين آخرين أمثال ولهاوزن وبروكلمان تعصبوا ضد الأمويين وبالغوا في تصوير التمايز الاجتماعي والاقتصادي تجاه الموالي قبولاً حسنًا لدى مؤرخين عرب آخرين. ولعلّ مما عرضناه عن صورة العصر الأموي في الكتابات التاريخية الحديثة العربية والاستشراقية أن كليهما يتقاسمان المسؤولية في إرباك صورة ذلك العصر. ولا زالت قضية إعادة النظر والتقييم للعصر الأموي قائمة حتى يومنا هذا فالمؤرخ المعاصر صلاح الدين المنجد يبدو في مقدمة كتابه (معجم بني أمية) متحفظًا على النتائج التي توصّل إليها البحث الحديث عن الأمويين الذين، كما يقول، لم يدرسوا دراسة عميقة شاملة فيها إنصاف وتجرّد.

أما الظاهرة الثالثة: وهي ظاهرة "الحركات والثورات المناهضة للدولة الأموية" وعلى رأسها الدعوة العباسية، فقد نالت نسبة ملحوظة من العناية. ولعلنا نشير وبقدر تعلق الأمر بالدعوة، بأن دراسات المستشرقين أيضًا - باعتبارها رائدة - كان

لها أثرها في مؤرخينا العرب والمسلمين. فقد استقى العديد منهم من تخريجات المستشرقين أمثال المستشرق Brockleman, Muller, Weil ولهاوزن وغيرهم كثير. ولعل من أوائل من كتب من العرب في الدعوة العباسية ضمن كتابه في تاريخ الإسلام العام والحضارة الإسلامية، جرجي زيدان سنة 1918م ومحمد الخضري سنة 1921م وفيليب حتي وحسن إبراهيم. وقد تباينت منهجيتهم وتفسيراتهم، فمنهم من عدّ الثورة تغيير أسري ليس إلا من الأسرة الأموية الحاكمة إلى الأسرة العباسية، ومنهم من تابع المستشرقين بالقول بأن "ثورات الموالي" (الفرس) تكللت بالنجاح في الثورة العباسية، فهي إذن - حسب رأيهم - ثورة قامت على أكتاف الموالي الفرس في خراسان خاصة.

إلا أن كتبًا وأبحاثًا جديدة بدأت بالظهور حول الدعوة العباسية. فقد كتب عبد العزيز الدوري جملة كتب وبحوث تطرّقت إلى الموضوع. وكان علي الدوري أن يواجه تفاسير المستشرقين العنصرية للدعوة العباسية وخاصة فان فلوتن وولهاوزن والتي أكدت بأن هذه الدعوة قامت على أكتاف الموالي الفرس المظلومين ضد الأسياد العرب المتسلطين. وكان رد الدوري خطوة في الاتجاه الصحيح. ثم أن الآراء العنصرية باتت قديمة في أوروبا نفسها، وظهر من المستشرقين أمثال دنيت وجب ولويس، ومن المؤرخين العرب أمثال صالح العلي ومحمد عبد الحي شعبان وفاروق عمر فوزي من أعاد النظر في الدعوة العباسية. وقد أسهب شعبان وفاروق عمر فوزي في أطروحتين للدكتوراه من جامعة هارفرد ولندن على التوالي في سرد تفاصيل الدعوة ومراحلها وموقف الدولة الأموية منها، وأوضحا دور العرب المهم والفعّال "كقوة ضاربة" في الدعوة العباسية، وهو أمر لا يعني عدم كسب الدعوة لفئات من الموالي، ذلك لأن أي تداخل لا عروبي ضمن أتباع الدعوة لا يؤثر على عروبة الدعوة ولا ينفي هذه الخاصية البارزة فيها بقدر ما يعزز صفتها الثورية ويؤيد التطابق بين العروبة والإسلام في برنامجها السياسي وبالتالي سيرها في الاتجاه الصحيح الذي أراده لها زعماؤها ونقباؤها.

كما ظهرت كتب وبحوث جديدة تعيد تقييم "فرضية" التميز بين العرب والموالي وأهل الذمة. فقد كتب فاروق عمر فوزي عن مشكلة الموالي في المجتمع الإسلامي، وكتب فالح حسين عن مشاركة العناصر غير العربية في الجيش والإدارة الأموية، إلا

أن أحدث المؤلفات في هذا المجال أطروحة الدكتوراه بالجامعة الأردنية التي كتبها أمجد ممدوح الفاعوري والموسومة (دور الجماعات غير العربية في الإدارة والجيش في العصر الأموي) سنة 2004م، وقد خصّص الباحث ثلاثة فصول من أطروحته لتفنيد الفرضية القديمة - الجديدة وهي التمييز الذي مارسته الدولة والمجتمع الإسلامي ضد الموالي وأهل الذمّة وأثبت بالأدلة التاريخية المشاركة الفعّالة لهذه الفئات في الإدارة والجيش والحياة العامة في الفترة الأموية.

(27)

(7)THE `ABBASID CALIPHATE

132/750-170/786

by Farouk Omar Fawzi

B. A. (Honours), University of Baghdad

Ph. D. (S. O. A. S), University of London

The Abbasid Caliphate 132 - 170 A. H. (8)

Preface

The present work is an edition of my thesis for the degree of Doctor of Philosophy, submitted to the University of London in June 1967. Thanks to the financial help of Baghdad University and the encouragement of professors B. Lewis the present Head of the Department of History of the School of Oriental and African Studies (London University), A. al-Duri Head of the University of Baghdad, and S. al-Ali Dean of the Institute of Higher Islamic studies (Baghdad), the work is now being presented to scholars and students of Islamic history.

Finally In offering this work to the public, it is necessary to say that the author aims at presenting for the first time a critical history of a period hitherto known only in general outline, and hopes that it will fill a gap in our knowledge on 'Abbasid politics and will be beneficial to all concerned.

The chapters of the book remain the same except for the Appendixes and the Index.

CONTENTS

Acknowledgements

In the first place, I should like to express my gratitude to my supervisor, professor Bernard Lewis, to whom I am greatly indebted for the inspired guidance, help and encouragement he provided in all the years of my research

I am also grateful to professor S. al-'Ali for making the manuscript of Akhbar 'l-Abbas available to me; to professor. F. al-Nabrawi, for permitting me to utilize her copies of the manuscripts

of Bayasi and Khazaraji; to professor sharoon for making part of the manuscript of Ansab al-Ashraf available to me; to professor. S. Zakkar, for lending me his manuscript of Khalifa b. Khayyat's Tarikh.

Thanks are also due to the Ahmed III Library, Istanbul, the Bibliotheque Nationale, Paris, the Bodleian Library, Oxford, the Chester Beatty Library, Dublin, Harvard University Microfilm, I. N. C. Michigan, U. S. A., for putting at my disposal photographs of various manuscripts and theses.

I should also like to thank Dr. Anna I. Falk for her translations of German, French, and Italian works, the staffs of the Libraries of S. O. A. S., the British Museum, the Senate House, the India Office, the Institute of Historical Research, and the Andersen Room (Cambridge University Library) for their ready help and unfailing patience.

I thank deeply my parents, for their support and encouragement.

Finally in offering this work to the public, it is necessary to say that the author aims at presenting for the first time a critical history of hitherto known only in general outline, and hopes that it will fill a gap in our knowledge on 'Abbasid politics. He also presents a new theory on the nature of 'Abbasid revolution.

(28)

Studies in the History of Sects[9]

In the name of God, the Merciful, the Compassionate

The history of sects in Islamic society is one of the most lively and controversial topics that preoccupied early and modern historians over the past decades.

When the old School of Orientalists first tackled the issue of Islamic sects, more than one century ago, they tried to bring home to us the idea that these sects express "national and regional sentiments" against the Arab rule.

Since then, this notion has prevailed in most historical writings.

However, newly discovered sources, particularly heresiograpical and historical ones, have corrected those erroneously held viewpoints on the subject, and provided scholars with a true, authentic, and accurate image of Islamic sects. In that, these sources have furnished scholars with updated information pertaining to the development of sects, their doctrines, divisions and sub-divisions. Some have also concentrated on the enumeration of heresies. Subsequently, the prejudiced and one-sided approach has been abandoned and discarded by a great number of researchers who were more of the idea that each single sect represents a complex phenomenon on its own. For them, each phenomenon was further enriched by religious, social, economic, political and even psychological factors, and considerations to the extent that no single explanation can suffice to clarify the nature and doctrines of these sects in Medieval Muslim societies.

It is against this historical back ground that modern scholarship in relation to Islamic sects can be judged. The present work entitled: The History of

Sects in Medieval Islam, edited by Dr. Farouk Omar

Fawzi, constitutes an important contribution in this regard. As a matter of fact, the editor was highly successful in selecting representative monographs written by renowned scholars. Besides, each monograph was accurately and succinctly translated and explicitly presented.

Moscati, in his studies, argues that the sect of Abu Muslimiyya and other sub-division sects of the early Abbasid period were formed by the masses who were themselves influenced by the Messianic ideas of the Abbasid da'wa. However, as the hopes they have cherished in this sect failed to come true on the advent of the Abbasid regime, they had no alternative but to turn to other sects which promised more satisfaction.

Vajda's study of Zandaqa has enriched our knowledge on the subject in the early centuries of Islam. For him, the term zandaqa signified mere adherence to Manicheanism "heresy;" a concept which managed to survive until Abbasid time, and to form the nucleus of a two-folded struggle between Islamic sects and Manicheanism. On the one hand, this struggle was more of an official administrative measure represented in the establishment of an inquisition bureau. On the other hand, this struggle had its roots and traces in polemic literature which, in turn, had its influence on Islamic theology to some extent.

As for Sadighi's study on the Religio-Political Sects in Iran in the second and third centuries A.H./eighth and ninth centuries A.D., it is a real pioneering work and can truly be considered the best comprehensive authority in the field.

Contrary to preceding interpretations, Sadighi placed emphasis on the religio-social nature of the Iranian movements. Some credit, however, is due to his feeling of loyalty towards Iranians; the thing which had its impact on his judgment.

Houstma's study on Hashawiyya is a unique study, indeed, as it represents the first attempt ever to investigate the meaning, origin, and development of this sect according to the sources available to him at the time.

On the occasion, I would like to convey my thanks and appreciation to

Dr. Fawzi for producing such a worthwhile publication. I trust that this work would serve as an important reference to faculty, students and reseghrchers for many years to come.

Mohammad Adnan Al-Bakhit

President

aL al-Bayt University

march, 2001

Prelude

Muslim scholars in the early centuries of Islam were deeply involved in studying sects and sectarianism, and produced a number of works dealing with the subject.

In modern age scholars both Muslims and Orientalists have been paying greater attention to researches in the subject of sects in Islam.

While I was working for the degree of Ph.D. at the University of London, (S.O.A.S.), I was interested, and deeply concerned with sects in medieval Islamic societies, I collected a number of important articles in European Languages other than English, written by competent Orientalists renowned for their deep vision and objective approach, and had them translated into English under my direct supervision.

The articles in their English form had been kept unpublished up till now. However, I was able during the last few years to find the time in order to prepare them for publication. Thanks to Prof. Muhammad Adnan Al-Bakhit, the president of Al-al-Bayt University, some of these articles will now see the light of the day in a book form, with the hope that they will be beneficial to all concerned, especially research students of Islamic History who are not acquainted with other European Languages.

Besides, the articles represent a remarkable piece of excellent research which teaches students specialized in Islamic history how to deal with traditions, how to compare and analyze them and how to

reach conclusions on the subject concerned. This, however, does not mean that I agree with the interpretations reached by the scholars concerned.

As for this work, it is divided into six chapters; in the first one Moscati deals with sect of (Abu Muslimiyya), its founder Abu Muslim al-Khurasania and his political career. He ends his paper with the murder of Abu Muslim and its consequences.

Chapter two discusses the beginning of Zandaqa (heresy) in Islamic Society, and its development during the early Abbasid period. Vajda believes that Zindiqs were Manicheans, who tried, in different ways, to spread their belief, which formed a danger to Islam at that time. He also enlarges on the measures taken by Abbasid authorities to meet them.

Chapter three deals with the religio-Political movements in Iran during the 2nd and 3rd centuries of Islam written by Sadighi. Sadighi's work is still the most well known, and well-documented book in this field.

The author has made a major contribution to our understanding of the religio-political movements in Iran during the 2nd and early 3rd centuries of Hijra / 8th and 9th centuries A.D.

Since the old school of Orientalists first wrote about these movements almost a century ago, and introduced the notion that they were "national" risings against the Arab rule, this interpretation has prevailed and has rarely been reconsidered, although the term "national" is clearly amissnomer and outdated misconception, it was regurgitated by modern schools. Perhaps the temptation of the romantic idea of "national" revolt against the "foreign conquerors" is too much to resist.

Although Sadighi has put some stress on the religio-social nature, of these movements, his interpretation was no exception. In our point of view each one of these risings was a complex in itself, to which religious, social, psychological, political and economic factors had contributed, it is more likely to say that those masses had been strongly influenced by the "Messianic" and other ideas spread by the Abbasid propaganda, but having failed to find the fulfillments of their hopes in the advent of the new Abbasid regime turned to other Menianic movements which promised more satisfaction.

In trying to refuse the "racial" interpretation of these risings, we do not wish to draw too sharp contrast between ethnic, social and even religious conflicts. On the contrary the events of our own time surely demonstrates that the ethnic and economic factors are very easily associated. There are no clear lines of divisions in history, if a historian finds them it is probably because he has put them there himself.

In our opinion no single explanation can suffice to clarify the complex phenomenon of these risings in the complex society of medieval Iran.

In chapter four, Houtsma studies the Hashawiyya as a term and its development as a sect.

In Chapter five Moscati deals with the Caliphate of al-Mahdi the third Abbasid Caliph. He divides his article into two parts; the first part discusses, among other things, internal risings by Iranian and Kharijite Sects. While the second explains the changes occurred in Society due partly to the influence of Zandaqa Sect.

Finally in chapter six the same scholar gives a comprehensive reappraisal of the caliphate of al-Hadi the Fourth Abbasid Caliph, without forgetting the risings of Sects such as the Shi'a during his reign, and also his attitude towards the Zindiqs. It was mainly for this reason that chapters five and six were included in this book.

I am indeed grateful to Prof. Muhammad Adnan al-Bakhit, President of the University of Al-al-Bayt for accepting this work for publication on behalf of the University, and for his encouragement and support to all historical projects I have undertaken during the last few years.

I will be failing in my duty, if I do not express my sincere gratitude to those bilinguists, especially Dr. Ann Falk, whose skill in English and mastery in other European languages, combined with my specialized knowledge in Islamic History, made it easier to have a difficult task accomplished. I hold, however, myself responsible for the defects which may be found in this work.

I take the opportunity to thank Mrs. Mona Batineh for typing the manuscript and Mr. Khalid al-Khalidi for preparing the index, and the page layout.

Last but not least, I would like to thank all the publishers who granted me a permission in order to publish a translated and modified version of the articles concerned, namely: Dr. Ada Baccari of the Accademia Nazionale dei Lincei, Rome, Italy, in his letter of the 29 maggio, 2000, Concerning Moscatis "Studi Su Abu Muslim". Dr. Paolo Bardi of the Baddi Editore, Rome, for his letter of the 22 maggio, 2000, concerning Vajda's "Les Zindiqs", Dr. G. Grunkorn of the Walter De Grunyter GMBH and Co. KG., Berlin for his letter of the 17 May, 2000, concerning Houtsma's "Die Hashwiyya".

Thanks are also due to Mr. R. O'Toole, S. J. the publisher of Orientalia, Biblical institute press, Rome Italy; in his letter of the 25th Jan, 2001, concerning Moscati's articles on the reign as al-Mahdi; and Mr. Kaj Ohrnbergth publisher of Studia Orientalia of the Finnish Oriental Society, Helsinki, Finland, in his letter of the 24th Jan, 2001, concerning Moscati's article on the reign of al-Hadi. As for Sadighi's work which was first published in 1938, I have tried, even through Direction editoriale of Paris, to find an address related to the publisher or the author but all attempts failed.

Farouk Omar Fawzi

Contents

(29)

Aspects from 'Abbasid History

Introduction[10]

Early Muslim historians were concerned with 'Abbasid history, and devoted large proportion of their works to deal with it. The same attention to the period was paid by modern scholarship which covered various aspects of it, and constantly presenting new knowledge and new points of view to the fore.

Early 'Abbasid history was a period of transition and revolution, a period of multiple loyalties, which must not only be unravalled, but also convincingly presented. It was also due to the advanced civilization and flourishing economy, the "golden age" in the history of Islam.

The era of the early 'Abbasid Caliphs witnessed significant achievements in the fields of buildings, urban development and civilian institutions. The commercial activities which reached as far as China in the east and Europe in the west, made the fame of some of 'Abbasid Caliphs known to the whole world of the time. This process continued on a larger scale during the "Renaissance" period in the Fourth Century A. H. / Tenth Century A. D.

While I was reading for a Ph. D degree in the University of London-England, my special topic of research was related to 'Abbasid history. I collected a number of important articles dealing with the 'Abbasid period in European languages other than English written by renowned Orientalists famous for their objective approach and based upon the most reliable research, and had them translated into English under my supervision.

The articles in their English form had been kept unpublished up till now. However, I was able during the last few years to find the time in order to prepare them for publication. Some of these articles will now see the light of the day in a book form, with the hope that they will be beneficial to all concerned, especially research students of Islamic history who are not acquainted with other European languages.

As for this work, it is the second of its kind which I have edited. The first one was "Studies in the History of Sects in Medieval Islam". The present book entitled "Aspects from 'Abbasid History", organized into two parts, the first one contains notable articles written by renowned Orientalists, and consists of six chapters.

In chapter one Claude Cahen starts with an introduction on the history of Al-al-Bayt and their connections with the religio-political movements during the 1st and 2nd centuries. A. H. He then deals with the core of his subject "The 'Abbasid Revolution", and refutes all classical interpretations emphasizing on its Islamic character. He remarks:

"Absolutely nothing permits to believe that the rising was not prepared in the name of Islam".

In chapter two Dominique Sourdel discusses the significance of the foundation of Baghdad by the 'Abbasids, as a new capital for a new era. She traces its development during the reign of its founder the Caliph al-Mansur, and his successors from an administrative and military camp to a flourishing center of highly economic, social and cultural activities.

Chapter three written by Sourdel also deals with the 'Abbasid Vizierate during the reigns of al-Saffah and al-Mansur. This is only a part of her work on

"Levizirat 'Abbasid" Damas, 1959-1960, where she examined extensively and objectively the meaning, the origins and the development of the vizierate until the beginning of the fourth century A. H. Tenth Century A.D. Her work stands as the most authentic on the subject concerned. In the chapter translated in this work, Sourdel deals with many problems facing the researcher on the history of the Islamic Vizierate. Some of the questions, she tackles, i.e. when the Vizierate can be qualified as an "Institution"? was it as an office, a direct borrowing from the Sassanids, or an original Islamic institution? Thus one finds oneself in the presence of a more complex case. Many other questions which Sourdel puts before investigating the last problem of

institutional order that is of the Islamic character of the 'Abbasid vizierate.

In chapter four Moscati studies the history and development of the early shi'a. Despite the glorious picture of the "golden age", this period was, infact, a long sequence of relative political disturbances flaring up in the eastern part as well as the western part of the empire. The pro-Alids Party (i.e. the shi'a) was the main opposition movement in the period concerned. Moscati, as usual, deals with this controversial issue with thorough investigation, and careful analysis. The shi'a could have become a dangerous menace to the 'Abbasid regime had their leaders adopted more positive approach and concurred in one common cause or leadership. Politically, the 'Alids did not score any important record. The Husaynids branch represented by Ja'far-Sadiq gained, however, increased importance, and more following due to the moderate persuasion of al-Sadiq which compensated for its political inactivity by speculative activity.

Traini in chapter five deals with the same controversial issue namely the shi'a. He examined the relations between the 'Abbasid caliph al-Mansur and the 'Alid rebel Mohammad al-Nafs al-Zakiyya, emphasizing on the claims put forward by both parties to the caliphate.

As for chapter six Henri Lammens throws light on al-Sofyani i.e. "The Saviour" of the people of Syria (i.e. Bilad al-Sham) from the 'Abbasid yoke. Al-Sofyani became a symbol of many pro-Umayyad opposition movements which took place during the early 'Abbasid period. It seems that the Syrians who had failed to respond to the appeals of their last caliph Marwan II were soon to realize that with the passing of the Umayyads, they had lost their privileged position. Though indignant they resigned themselves to their fate a while, but soon rising broke out in many places in Syria and Jazira adopting the symbol of al-Sofyani and led by figures from the Sofyani branch of the Umayyads.

The second part of the book contains four articles written by the editor and previously published in various periodicals or books.

In chapter seven the author presents a new interpretation of the "'Abbasid Revolution". He claims that the revolution, far from being inspired by racial sentiments, was essentially a revolt of the Arabs of Khurasan and Iraq helped by the Mawali. The organizers of the revolution realize that Arabs (Warriors and settlers alike) were the Levers of power and the only striking force in Khurasan and to win them meant to win the power of government. Contrary to the prevailed point of view, this new interpretation has shown the decisive and vital role played by the Arabs in the revolution as well as in its aftermath in the early 'Abbasid period.

Chapter eight, nine and ten deal with aspects concerning the same era. They touch controversial issue in the period, which responded to different economic, social and intellectual demands of society; Islamic cities were alive with variety of human activities: commerce, crafts, agriculture and intellectual endeavors. These chapters try to prove that Arab-Islamic civilization was indeed an urban one, and the state provided ample security and stability which were vital factors for the development of an urban, luxurious and settled mode of life.

The articles written by the orientalists represent a remarkable piece of excellent research which teaches students of Islamic history to deal with historical narratives, how to compare and analyse them and how to reach conclusion on the subject concerned. This, however does not mean that I agree with all the interpretations reached by the scholars concerned. Now the dream has come true, I should like to express my deep appreciation to Al al-Bayt University for affording me the opportunity to concentrate upon this project.

I will be failing in my duty, if I do not express my gratitude to Dr. Ann Falk whose skill in English and mastery in other European Languages, combined with my knowledge in 'Abbasid history, made it easier to have a difficult task accomplished. I hold, however, myself responsible for the defects, which may be fond in this book.

I take the opportunity to thank Mr. Khalid al-Khalidi for preparing the index, and also Mrs. Poonam Lalwani for typing the Manuscript.

Last but not least, I would like to thank all publishers and editors who granted me permission in order to publish a translated and abbreviated or modified version of the articles concerned, namely: Brill, Academic Publisher, Leiden, The Netherland, in the letter of the 8 Feb., 2001, concerning Sourdel's "Baghdad, Capital du nouvel empire abbaside: published in Baghdad, volume special, Leiden, 1962. Prof. Giovanni Verardi editor of the Annali dell 'Istituto Orientale in his letter of the 26 April, 2001 concerning Trainis "La corrispondenza tra al-Mansur e Muhammad an Nafs az-Zakiyya". Dr. Paolo Bardi editor of Rivista degli Studi Orientali in letter of the 18 June, 2001 concerning Moscatis' article entitled "Per Una Storia dela Antica Si'a" Published in 1955. Mr. Oliver Matteoni General Secretary of the Revue Historique of Paris in his letter of 7th of July, 2001 concerning Cahen's article entitled "Points du vue sur La Revolution Abbaside" published in 1962.

I should also thank Prof. Muhammad Adnan al-Bakhit the editor of volume four of the History of Humanity, UNESCO, Paris, 2000 and Dr, Nizar al-Hadithi the editor of the J. of Iraqi Historical Society, Baghdad, 1975, and the publisher of the book entitled (Urbanism in Islam), ICUI, Session 12, Tokyo University, Japan, 1989 for letting me republish my articles in a book form.

As for other articles I tried more than once to reach the publishers or the editors but I received no answer. I therefore, consider their unwilling to reply as an approval of my project.

"Thank You God, for life itself, without which the Universe would have no meaning".

Farouk Omar Fawzi

Preface

Orientalism and Islamic History

(the early period)

History is one of the aspects upon which antagonistic movements to the Arab nation concentrate, because it occupies a special place in

shaping the Arab-Islamic personality. It also includes various elements of Unity and Variety, which maintains, and assures the continuity of the nation throughout the ages.

Aspects of Arab Islamic history were subdued, in the past and present, to different interpretations, some of which distorted its picture. These misleading and forefeiting interpretations started from within the Muslim society caused by different cultural, social or religio-political trends opposing to Arab-Islamic principles, such as the "Shu'ubiyya" movement.

In modern times, new researchers with new interpretations of Islamic history appeared - all of them claim objectivity, and certify that their school of thought is the correct one. "Orientalism" was part of this old-new trend. But Orientalists did not adopt one pattern of research, or reach one interpretation in understanding the history of Islam. Orientalism include a group of religious preachers who adopted the teaching of the Christian church in interpreting Islam. Others attempted to interpret it on the basis of racial theories, and still others insisted on the socio-economic factors. Meanwhile other Orientalists attempted to implement the teaching of the Marxist school, so their concern was to show that the "class struggle" in that period was the only basis for their interpretation. However, other objective Orientalists took into consideration all the interwoven affective factors in forming the historical phenomenon. It must be said, however, that many Orientalists did change or amend their views as time passed on due to consulting new original sources and reading other's researches.

It seems that the problem is not in "Orientalism" alone, but it is also in "Westernization". Orientalists have more than one reason to justify their stand from the history of Islam, but "Westernizers" whether Arabs or Muslims, who imitated some Orientalists in their views, followed their tracks, and insisted on them even after the Orientalists themselves had abandoned them, are still producing a great heap of studies repeating the same out of date and old fashioned Orientalists interpretations, thus the problem remains from the inside of the Muslim world as it is from the out side.

Since Taha Hussain "published his early works, especially, al Fitna al-Kubra in which he concentrated on the economic factor as a driving force in Islamic history, some critics considered it as a shy beginning of looking into Islam from a materialistic point of view. Then Bandali Jouzy and Abdal Rahman al Sharqawi gave weight to socio-economic factors in their books: Min Tarikhi al-Harakat al-Fikriyya fi al-Islam and Muhammad rasul al-Huriyya successively. Ahmad Abbas Salih was more outspoken in the series of his essays entitled: al-Sira bayn al-Yamin wa al-Yasar fi al-Islam in disclosing his materialistic interpretation of Islamic history. While Ali 'Abd-al-Raziq was influenced by the current conflict in Europe between religion and state, and accordingly wrote his book entitled "al-Islam wa Nizam al-Hukum". Hussain al-Aziz, on the other hand, adopted outwardly the Marxist interpretation in dealing with the history of Islam, twisting historical events in order to fit with his analysis. Muhammad Amara on the contrary, represented in several of his books the moderate Islamic trend. Nevertheless he was also criticized for reflecting the socio-economic factor in his studies on Islam. One of those scholars who attempted to write objectively on Islamic history is Muhammad Abid al-Jabiri. In the series of his book entitled: Naqd al-Aql al-Arabi he was criticized for absenting the economic aspect, though in his bookal-Aql al siyasi al-Arabi, he started a new methodology insisting on the economic interpretation of the history of early Islam, we notice that al-Jabiri like other distinguished scholars was influenced by western Orientalists, and employed some of their interpretations and terminology in his writings.

These are but a few of the composed works written by Arabs and Muslims who adopted different Orientalists approaches. Some of them, however, after a while had changed or amended their views. The obvious example is Taha Hussain who shows in his books entitled: Ala Hamish al-Sira and Mir'at al-Islam deep experience, and extensive reading which altered his previous ideas expressed in his book fi al-Shi'r al-Jahili. Justifying the delay in publishing his book' entitled: "Abkriyyat Muhammad", Abbas al-Aqqad says in the introduction.

"If I had written it that early time, I would have rewritten it again now, and I would have been in need of the thirty years to add their experience, reading, psychological training and thinking to the period of that early age."...

Al-Imad al-Isfahani (d. 597 A.H./1200 A.D), before al-Aqqad, touched the same issue and uttered nearly the same comment, he said:

"I saw that no one writes a book to day, then he would say tomorrow if he had changed this sentence it would have been better, and if he had enlarged on this subject it would have been appreciated. This is one of the greatest sign of the shortage which dominates the human nature".

The controversy which took place among Arab scholars during the 20th century concerning Umayyad's policy in general and towards the Mawali (Non Arab Muslims) in particular, stirred up contradictory points of view. The main question was and still is, did Umayyad policy towards the Mawali play a major role in their down fall? The difference of opinion was shown up in its most apparent way in 1905 when Jurji Zaydan and Rafiq al-Adma exchanged letters on the issue on the pages of al-Hilal magazine in Cairo. Al-Adma criticized the method by which Zaydan discussed the Umayyad caliphate, then the latter answered back. As a matter of fact, thinkers and literary men of the "Arab Renaissance" period at the beginning of the 20th century fearing the consequences of the Turkish oppressive policy, seemed sensitive on issues such as criticizing the Umayyad "Arab" policy, and considered it at the time as dangerous towards the Arab nation. Thus the campaign against Jurji Zaydan took a strong tone, to the extent that Rashid Rida published a book in which a number of Arab and Muslim scholars and thinkers participated, where all of them glorified the Umayyad caliphate, and its achievements. The process of defending the Umayyad history, which was decidedly deformed by the 'Abbasids, continued. In 1927 in Baghdad Anis Zakariyya al-Nusuli (a Lebanese) stirred a cultural controversy by publishing a book on the Umayyads. This controversy was turned into a political crisis in which both the Arab thinkers Sati' Al-Husari and the Iraqi historian Abd al-Razzaq

al-Hassani participated)14 (In Cairo Muhib al-Din al-Khatib wrote pro-Umayyad essays in al-Fath and al-Zahra. In Damascus Muhammad Kurd Ali did the same writing pro Umayyad essays in the bulletin of Arab Scientific Academy. A number of scholars such as Muhsin al-Amin and Abd al-Hussain Sharaf al-Din answered back, writing anti Umayyad articles We have to mention here that several Orientalists of the time, such as lammens who was fanatically pro-Umayyads and Welhausen who exceeded the limits in describing the Umayyad's discriminatory policy towards the Mawali, considering it as the main cause for their downfall, have their direct or indirect influence on Arab and Muslim scholars.

In our display of modern historical writings on the Umayyad period, we may notice that both Arabs and Orientatists partly responsible for mis-shaping and distorting the image of the era. The issue of evaluating the Ummayyad period is still going on up till now. As remarked in the introduction of his book entitled "Mu'jam Bani Umayya", Salah al-Din al-Munajid seems to be cautioned at the results deduced by the research on the Umayyads who, as he says, had not been studied thoroughly, objectively and fairly.

It should be noted, however, that Orientalists themselves do not agree upon one view or interpretation of a historical phenomena, but their views and analysis differ, and some time contradict each other. When Hamilton Gibb talks about the writings of early Christian missionaries on Islam, he sharply criticizes it saying:

"In the last years, a positive attempt took place among them to endeavor faithfully to penetrate into the depth of Islamic thinking instead of clear superficiality which dominated their previous studies...".

A number of Orientalists such as Montigamry Watt agree with view. In the same way a number of Orientalists criticized each other. Thomas Arnold criticized his colleague Richard Simon because he exaggerated in stressing the positive character in the history of Islamic creed. M. Watt is said to have gone far beyond the limits in up-raising the career

of the prophet Muhammad. These Orientalists and many others, because of their, somehow; Positive" outlook in general fell, so to speak, between the hammer and the anvil!! The hammer of their European colleagues who differ with them in the outlook, and the anvil of "traditional" Arab-Muslim scholars who found many faults or; as they claimed, unaccepted interpretations which acquires answering.

Orientalists differ in their interpretations and analysis about plenty of issues concerning the history of Islam. Such big difference was, for example, about the Origins of Ismailism and geneology of Isma'ili Imams. Another example was the controversy on the Abbasid revolution. The traditional interpretation claimed that it was carried out by Persians, while the new one indicated that the Arabs of Khurasan were the mainstone behind the revolution. The majority of Arab Islamic historians were influenced by the "traditional" Orientalist views in this respect, and this hypothesis remained dominating European as well as Arab historical writings for a long period. However, the merit in forming new hypothesis about the 'Abbasid revolution is due to research prepared mainly by a number of Arab scholars in the second half of the twentieth century. An Orientalist from the "new generation" says:

"Farouk Omar's opinion, as disclosed in his books and essays, is that we do not have to concentrate on a certain aspect of the 'Abbasid revolution leaving aside other aspects such as social, economic, religious, tribal, regional, and even psychological and personal aspects....".

The same Orientalist goes on to say that, Omar succeeded in his attempt of implementing that historical method in his studies, and what ever was the result, Farouk Omar's and some of his collogues researches on the 'Abbasids in the last decades did help to up-raise the level of scientific and objective discussion on the subject substantially. I think that this scientific progress is one of the greatest gains in the field of writing history to the Arabs in this century, and may be considered a success in the continuous struggle against dogmatic trends in writing history. It is also considered a success in relating the

blind imitation of former Orientalists, and out-dated Arab school of history. True research in history depends upon continuous effort to evaluate and rejuvenate different traditions in the hope to amend previous results, and reach new interpretations.

In conclusion, it can be deduced that Orientalism was not a unified phenomenon in its nature and aims, and Orientalists differed in their methods and results. If some Arab-Muslim scholars rejected Orientalism as a whole, considering its results biased and misleading. Then the responsibility of correcting the image of Islamic history will undoubtedly lay upon Arab-Muslim historians. In the Arab world there are a number of historians with great capacity and organized mind; their publications matches and sometimes exceed Orientalist's works in the subject. These scholars, in fact, put an end to Orientalist's confiscation of knowledge on the history of Islam, or else their claim of guardianship or patronage upon it. These Arab scholars are recognized as prominent historians by European organizations, and are invited to participate in congresses and write in Encyclopedias. Western critics can not bid doubt that these Arab scholars are genuine ones, and in their quality not less than the best western historians. Among these distinguished Arab scholars, we can mention Abd al-Aziz al-Duri, Salih Ahmed al-Ali, Muhammad 'Abid al-Jabiri and Hisham Ju'ait. The latter's writings on Islamic history whether in Arabic or French, are characterized with deep knowledge, objectivity and sobriety of historical methodology. He tackled the subject of Orientalism in a number of his books and essays, and described traditional Orientalism as a set of ideas and conclusions, which passed from one generation to another as consequetive traditions, related through the decades. This state he goes on, led to perpetuated Ordinances about Islam as a religion, history and civilization. When Hisham Ju'ait comes to Orientalists of the "new generation", he chooses Patrcia Crone as a representative of the Anglo-Saxon Orientalist school. He criticizes her writings bitterly, especially her sceptic look on sources and texts, and consequently her random analysis that do not depend upon historical texts which exposed her to sharp criticism by the representatives of traditional and Veteran

Orientalism such as Sarjeant and Watt. They deduced that Crone and her type of researchers are not prepared and equipped to study Islamic history, and their research is poor, unsatisfactory and characterized with absolute lacking of historical background.

I find myself however, at the end of the essay agreeing with the concept that:

Orientalism with all its different ways and aspects, was not for the sake of pure scientific and objective end. We are also mistaken if we accept this result as a general conclusion, because it includes all those famous Orientalists who preferred seclusion in order to produce or edit works of high quality .Thus Orientalism with all its different trends must not be studied as general aggressive phenomenon .It should be studied on individual basis....

In other words Oreintalism is not an enemy of Islam and of Arabs, but there is a group of Orientalists who intended to misrepresent the history of Islamic peoples motivated by hidden or disclosed intensives.

Farouk Omar Fawzi

Contents

Introduction

الهوامش:

(1) دار القلم، دبي، الإمارات العربية المتحدة، 1983م.

(2) منشورات جامعة آل البيت، المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية، 1997.

(3) منشورات جامعة آل البيت، ط1، المفرق، المملكة الأردنية الهاشمية، 2000م.

(4) الطبعة الأولى، عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2008م.

(5) منشورات جامعة السلطان قابوس، تحرير ومشاركة فاروق عمر فوزي، ط1، مسقط، 2008م.

(6) عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية، 2009م.

(7) hp. D. Thesis, University of London, Ist publication. Baghdad. IRAQ. 1967.

(8) مقدمة أطروحة الدكتوراه الموسومة (الخلافة العباسية) 132هـ-170هـ، بغداد، 1969م، (أجيزت الأطروحة من جامعة لندن، 1967م).

(9) Studies on the History of sects in Medieval Islam, prepared and edit. By Farouk Omar Fawzi, Amman, 2001 pub. By at-Bayt University

(10) Prepared and edited by F. Omar Fawzi, "Amman, Jordan, 2003.

الملاحق

اعفاء طلاب

بناء على حيازة الطلاب التالية اسماؤهم في اعدادية الموصل على معدل اكثر من ٨٥ فقد تقرر اعفاؤهم من الامتحان النهائي فنكبر فيهم هذا الذكاء:

فاروق عمر حسين فوزي الرابع الادبي (آ)

احمد ذنون حسين واحمد ثامر النعيمي وانديا داود بطرس وجبر محمود صالح وسورين ارداش وطارق عبد القادر وعصام الحاج يحي وليفون كريكور وموفق صديق التك ونوح متي الشاي وهلال ايوب عبد النور من الرابع العلمي (آ)

خورشيد الحاج رشيد الرابع العلمي (ب)

جريدة المثال الموصلية، عدد 92، مايس 1954م

المملكة العراقية

وزارة المعارف

رقم التسلسل ٤٢٩٤

التاريخ / /١٩٥٥



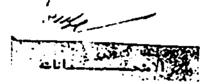


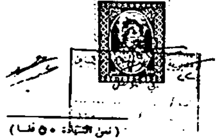
شهادة الدراسة الاعدادية

ان فاروق عمر حسين فوزي الطالب في اعدادية الموصل قد نجح في الامتحان العام للدراسة الاعدادية في الفرع الادبي لسنة ١٩٥٤ - ١٩٥٥ اذ احرز خمسمائة وثماني وثلاثين درجة (٥٣٨) من مجموع سبعمائة درجة (٧٠٠) وعد اهلاً للتمتع بالحقوق التي تخولها هذه الشهادة .

نصادق على ذلك

وزير المعارف





(ثمن الشهادة ٥٠ فلساً)



جامعة بغداد

بناءً على ما عرضه مجلس كلية التربية وقرار مجلس جامعة بغداد منح

فاروق عمر حسين فوزي

إجازة الدراسة العالية (بكالوريوس) في الآداب بدرجة الشرف

بتاريخ ١١ محرم ١٣٧٩هـ - ١٧ تموز ١٩٥٩م وبهذا أصبح له حق التمتع بكل ما تخوله إياه هذه الإجازة من

حقوق وامتيازات

رئيس جامعة بغداد

عميد كلية التربية

جوائز عمادة كلية التربية

قررت عمادة كلية التربية توزيع جوائز على الاول والثاني من كل فرع من فروع الكلية فيرجى من الطلبة المذكورة اسماءوهم في أدناه مراجعة العمادة لتسلم جوائزهم.

حميد مخلف الهيتي الاول في قسم اللغة العربية

مفيدة نوري الخيري الثانية في قسم اللغة العربية

فاروق عمر حسين فوزي الاول في قسم التاريخ

كمال مظهر احمد الثاني في قسم التاريخ

مكي محمد عزيز الاول في قسم الجغرافيه

فائزة رشيد عبدالله الثانية في قسم الجغرافية

شاكر عبدالرسول النجفي الاول في قسم اللغات

اليس زكي حسن الثاني في قسم اللغات

خالد جمال الدين نوري الاول في قسم علم الحياة

حسين عباس علي الثاني في قسم علوم الحياة

سهام عفيف قندلا الاول في قسم الفيزياء

رشيد محسن المشهداني الثاني في قسم الفيزياء

علي فليح عجام الاول في قسم الكيمياء

باهرة نور الدين الثانية في قسم الكيمياء

صبري رديف العاني الاول في قسم الرياضيات

هاشم احمد الطيار الثاني في قسم الرياضيات

ج ز ١٩٥٩/18

جريدة الجمهورية العراقية، بغداد، العراق، حزيران، 1959م

الجمهورية العراقية

وزارة المعارف
مديرية معارف لواء ديالى
ذاتية الثانوي

مكتـــــوم

العدد/م ش/ ٦٦٤
التاريخ ٧/ ٥/ ١٩٦١

السيد فاروق عمر حسين فوزي ـ مدرس متوسطة الزعيم

الموضوع/ توصيات مفتش

ادناه التوصيات الواردة عنك بالتقرير المرقم ٣٩ والمؤرخ في ٦/ ٤/ ١٩٦١ المقدم من قبل المفتش الاختصاصي السيد هاشم الآلوسي للعمل بموجبها .

اكرم توفيـــق
و . مدير معارف لواء ديالى

نسخة الى / ـ

مديرية التعليم العامة ـ ثانوي
مفتشية المعارف العامـــة
مديرية الامور الذاتية ـ السجل الشخصي
المفتش الاختصاصي السيد هاشم الآلوسي
ذاتية الثانـوي
ادارة المدرسة

التوصيـــــات

نسجل تقديرنا له لعنايته الفائقة بتحضير دروسه و قدرته على ايصال المعلومات الى طلابه .

17

ك / ٣

٤٤٢

SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES
UNIVERSITY OF LONDON W.C.1

SOASUL, PHONE, LONDON LANGHAM 9021

ENGLISH COACHING FOR OVERSEAS STUDENTS

I The following students have passed the English Test and are excused further tuition:

M. Abolghassemi
Miss A. Basu
J.C. Ghosh Roy
L. Muhammadu Bashir
✓F. Omar
M.B. el Rabie
B. Sarkaraty
A. Tafazzoli
I. Yamada
S.M. Zaki

II The following student is excused further examination on condition that he continues coaching in English during the remainder of the Session:

R.B. Sraman

III The following students are required to attend English coaching and to sit for the examination to be held for new students at the end of the summer vacation. In the event of their failing this examination, their registration at the School will not be renewed.

R.J. Ahmad
A.K. Badaly
M.A.R. el Baz
M.M. Daneshi
M.M.G. Deeb
H.S. Farhoud
A.H. Habiba
R. Haghdan
T.N.A. Hameed
N. Hillawe
A. Imam
M.H. Kakar
Maung Myint Swe
O.A.A. Omar
B.M. Ramli
M.S.M. al Shaafy
Miss M.C. Zee
E.A. Hamid

....

Students in Group III should resume attendance at English coaching from Tuesday, 12th June, at the times arranged by Miss Daunt and Mrs. Jackson. No further notice will be sent, but it is stressed that students should attend regularly.

KATHLEEN WOODING
Registrar.

12.6.62

Addressed to all students who took the English Test on May 16th.

Copy for information to Heads of Departments
Heads of Sections
Miss Daunt
Mrs. Jackson
Mr. Sharp
Mr. McAleavy

٤٤٣

SENATE HOUSE W.C.1

TELEPHONE: MUSEUM 8000  TELEGRAMS: UNIVERSITY, LONDON

JB/AK
SOAS

13 July 1963

Dear Sir,

With reference to your recent candidature at the qualifying examination prescribed in your case I have to inform you that you were successful.

Yours faithfully,

J. Vanek

Principal Clerk
Academic Department.

Mr. Farouk Omar,
181 Sutherland Avenue,
W.9.

A.318
MJ.10
13.7.

٤٤٤

UNIVERSITY OF LONDON

SENATE HOUSE W.C.1

TELEPHONE: MUSEUM 8000



TELEGRAMS: UNIVERSITY, LONDON

19 June 1967

Dear Sir,

I have the honour to inform you that the Vice-Chancellor, acting on behalf of the Senate, has conferred upon you the Degree of Doctor of Philosophy as an Internal Student:

Faculty: Arts

Field of Study: History

Date of Award: 14 June 1967

I am also to inform you that the examiners have reported that your thesis is suitable for publication. as submitted.

Yours faithfully

Academic Registrar

Farouk Omar, Esq.,Ph.D.,
181 Sutherland Avenue,
Maida Vale,
London,
W.9.

٤٤٥

ALLIANCE FRANÇAISE
Association reconnue d'utilité publique
Siège Social : **101, boulevard Raspail - PARIS (VI^e)**
Chèques postaux : Paris-238-31 Téléph. : BAB. 25-28
Adresse Télégr. : Allfran-Paris

PARIS, le 31 Août 1964

ÉCOLE PRATIQUE DE LANGUE FRANÇAISE

CERTIFICAT D'INSCRIPTION

Je, soussigné, Directeur de l'École Pratique de Langue Française, certifie que Monsieur OMAR Farouk de nationalité irakienne

*a été immatriculé à l'***École Pratique de Langue Française** *du* 1er Juillet 1964 au 31 Août 1964.-

et qu' il *y a suivi, pendant la durée de son immatriculation, les cours de la Section* au IIème degré.

Le Directeur de l'École Pratique de Langue Française,
P.O. E. CAMUT



N. B. — Les cours ont lieu tous les jours (sauf le Samedi et le Dimanche). Ils sont de deux heures et supposent un travail d'une durée équivalente à la maison.

H. 568

SCHOOL OF ORIENTAL AND AFRICAN STUDIES

UNIVERSITY OF LONDON, W.C.1

[illegible]
[illegible]

Telephone: [illegible]
Telegrams: [illegible], London

[illegible]th June, 1967.

Dear Sir,

I am happy to report that Mr. Farouk Omar has presented his thesis, which has been accepted by the examiners. This is still unofficial, but the official result will no doubt be announced very shortly. I may add that it was a really excellent thesis. Mr. Farouk Omar has throughout his course been a most satisfactory student. He is both gifted and hard-working and his thesis, based on a really exhaustive study of a very wide range of sources, is a considerable achievement.

Yours faithfully,

[illegible signature]

The Educational Attaché,
Embassy of the Republic of Iraq,
22, Queen's Gate,
London S.W.7.

بسم الله الرحمن الرحيم
الجمهورية العراقية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
رئاسة جامعة بغداد
امانة مجلس الجامعة

العدد / م ش / ٥٤٤٨
التاريخ / ٩ / ١ / ١٩٧٩

((امر جامعي))

م / ترقية علمية

استنادا الى قرار مجلس الجامعة المتخذ بجلسته التاسعة المنعقدة في ٢٨ / ١ / ١٩٧٩
تقرر ترقية الدكتور فاروق عمر فوزي الاستاذ المساعد في كلية الاداب الى مرتبة الاستاذية اعتبارا من تاريخه
واعلاه .

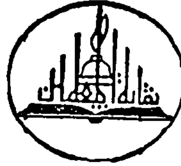
الدكتور سلطان عبد القادر الشاوي
رئيس جامعة بغداد

نسخة منه الى /ـ
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي / الدائرة الادارية
السادة مساعدي رئيس الجامعة
عمادة كلية الاداب
الدائرة المالية
الدائرة الادارية / قسم الافراد / قسم الترفيعات
دائرة التخطيط / قسم تجميع وتنسيق الخطة / قسم القوى العاملة والتطوير الاداري
امانة مجلس الجامعة
قسم الترقيات العلمية / ٣
ملفة الكتب الصادرة
الدكتور فاروق عمر فوزي / متمنين لكم دوام التوفيق والتقدم ...

مع امر التهاني بالترقية العلمية
ودوام الموفقية في اعمالكم
مديرة الشاكري
سكرتيرة قسم الترقيات العلمية
١ / ٢٠

رابحة / ٢٨

٥٤٤٨

Iraqi Teachers' Union Headquarters : BAGHDAD, AL-MANSOUR Cable Address : (MUALLEMEEN) Exch (4 Lines) 36157 36158 36159 36150	بسم الله الرحمن الرحيم 	**نقابة المعلمين** المركز العام ـ بغداد ـ المنصور العنوان البرقي : (معلمين) بدالة ذات ٤ خطوط . ٣٦١٥٧ ٣٦١٥٨ ٣٦١٥٩ ٣٦١٥٠

No. ______   العدد ٢٤٦٠

Date / /197   التاريخ ١٧/٤/١٩٧٩م

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

الموضوع ـ تأييد

ـ نشهد بأن الدكتور فاروق عمر فوزي من الاساتذة المتميزين في ميدان اختصاصه وانه من الخمسة الاوائل في مجال التاريخ الاسلامي بالجامعة ، للتفضل بالعلم مع التقدير .

الدكتور عيسى سلمان
نقيب المعلمين

الدبيسي و الحسان

23

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية العراقية
وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة



النصر لنا

القسم : مكتب رئيس مجلس الادارة
العدد / ٦٠٠٤٧
التاريخ/ ١/ ٩/ ١٩٨٩
١/ صفر/ ١٤١٠هـ

الى / الدكتور فاروق عمر فوزي المحترم

تحية طيبة ...

يسر هذه الدار ان تدعوكم لجمع دراساتكم في كتاب يصدر عنها ، وانه ليشرف هذه الدار ان تكون من كتابها المبرزين .

شاكرين لكم تعاونكم ... مع التقدير ...

محسن جاسم الموسوي
رئيس مجلس الادارة

نسخة منه الى /
النشر
العلاقات الثقافية



١

تقديم (*)

قبل أكثر من عشرين عاماً كان لقاءً علمياً وموضوعياً في كلية الآداب، التقيت الدكتور فاروق عمر فوزي وكانت أحاديثنا تنصب في قناة واحدة وتتوزع مساربها لتصل إلى كل جزء من أجزاء التاريخ وتمتد المناقشة لتقف عند كل قضية جادة أو مسألة حاسمة كنا نجد فيها موقفاً يستحق التأمل وإشارة تشد التساؤل.. وتكررت اللقاءات بعد أن شاركنا عدد آخر من أساتذة التاريخ والآداب والآثار والأقسام الأخرى التي بدأت تتلمس مواقع تلك الخطوات وهي تتحرك بهدوء وتتابع بدقة وتقرأ بمعان وتتأمل بإحساس أصيل.. وكان النقاش يأخذ هذه الجوانب لأنه يجد فيها البداية.. بداية قراءة الأدب لما فاته من شوائب وما اعتراه من غبن وأخرجه عن إطاره الذي ظلت أصوله راسخة في أعماق الفكر العربي.. وبداية لقراءة التاريخ الذي شوهت صوره وأدخلت على أحداثه من الوقائع ما زورت حقيقته وأفسدت أخباره وأضاعت رونقه.. وبداية لقراءة الآثار ومظاهر الحضارة والاستماع إلى الرأي الحسن وكل القضايا التي جسدتها حضارة الأمة واستوعبتها أفكار المبدعين وعرضتها جهود المؤمنين بتراثها الخالد.. وإذا كانت لبداية الموحدة التي أنتجت تلك الأفكار قد حددت معالم الطريق الأجد فإن الدكتور فاروق قد تحمل أعباء تلك المهمة وشق طريقه من أجل إعادة القراءة فتأمل وربط الموضوعات بتدقيق ودراسة الأخبار بتوثيق.. فكانت دراساته في كل باب تجسيداً لما كشف عنه حتى أصبحت مدرسة للتاريخ في العراق متجددة والتحسس بما يمكن أن يقال عنه كل فصل من فصوله مناسباً لما يستحقه هذا التاريخ بعد أن أوشكت معالمه الممتدة أن تضيع في خضم الدس وتغور في أعماق التشويه وتطوى حقائقه لتصبح مطواعة لما أرادته كل فئة حتى يتناسب ودورها المرسوم وتوجهها

الأمر موصول...

(*) مقدمة كتاب (... في التصور التاريخي المعاصرة) [redacted] كتبها أ.د. ... عميد كلية الآداب جامعة بغداد.

ماذا أنتج العباسي عرفنا السادات وأصحاب الدعوة يستمرون الى قبائل عربية وظل هو الفكر والسياسة تنطلق من أصولها التي رسختها الثورة العباسية بما حملها راسخة في كل مسألة، ثابتة عند كل مناقشة، لم تترك لدخيل ان يتجاوز حدودها ولا لمضلل أن يعبر جسورها أو يدعي نسبتها منذ أن المنصور والرشيد والمهدي والأمين والمعتصم وكل الخلفاء الذين طرزوا أسفار التاريخ بأمجادهم وقطعوا جذور الفتن من أصولها وجندوا أصابع الدس من شأنها.. حتى إذا أوشكت عقابيل الداء أن تزرع رأسها إنشاءها المقاومة العربية توقفت لها بالمرصاد لتسدد خطاها وتسقط دعواها وتفند حججها وتقطع دابر سعاتها ولا تفتك في كل زاوية من زوايا الظلام لأنها تؤمن بوسائلها وتدافع عن قيمها وتخلص لأرضها التي أقامت عليها حضارتها. وعلى الرغم من أساليب الدس التي احتمت بها واغطية الادعاء التي رفعتها بوهرجة للفلسفات التي ركبتها الا انها ما فتئت تكشف من نفسها من خلال سلوكها الشائن وباطنيتها الحربية وغلوها المتمكن وحقدها الدفين الذي تفضح علاماته حين تجد هذه الدعوات فرصتها وتتمكن من الوصول الى بعض المواقع المؤثرة وقد شهد العصر العباسي ضروباً من المقاومة لهذه الحركات واشكالاً من ملاحقتها هذه الدعوات تمثلت بالعلم والثقافة والمحاربة والسلاح لترد هاتيك على أعقابها خاسئة.

إن اضطلاع الدكتور فاروق بمهمة الكتابة عن الرفض العربي في العصر العباسي تأتي في سياق المنهج التاريخي الذي اختطه الدكتور فاروق نفسه وهو يعيد الى التاريخ صفحته المشرقة والى الأمة دورها الناهض والى الحضارة نضاعتها الحقة.. ويؤكد الدكتور فاروق في هذه الريادة خطه التاريخي الذي ظل ملازماً له معتمداً التحليل العلمي والتفسير الموضوعي لكل مرحلة من مراحله وملتزماً منهجه الواضح في إعادة كتابة التاريخ بما يكفل لكل حدث سلامة أخباره

وصورة مشرقة، ايماناً بالدور الريادي للامة واكراماً للمؤرخين الذين
حفظوا هذه الصورة وهيأوا لها مستلزمات توثيقها وجعلها ناطقة
بما أرادوه لها واعتزازاً بالمهمة السامية التي تسقط الأهواء وتترك
للنفوس الخيرة تقديرها.

والله أسأل أن يوفق المؤمنين بهذه الامة ليأخذوا طريقهم
ويكتبوا سفر الحضارة بما تمليه عليهم وقائع التاريخ لتظل جهود العلماء
احساساً فكرياً وتعيش في وجدان الابناء صوراً مشرقة يتلمسون
فيها خطى الطريق ويستذكرون بتواضع العطاء ويقرأون في أخبارها معالم المروءة.

الدكتور نوري حمودي القيسي*
عميد كلية الآداب / جامعة بغداد

١٤ صفر ١٤١٠
١٤ ايلول ١٩٨٩



This

Certificate of Merit

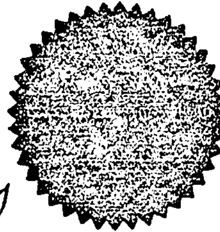
proclaimed throughout the World
is awarded to

Prof. Dr. Farouk Omar

for DISTINGUISHED SERVICE
TO THE COMMUNITY

and is the subject of notice in volume XIV
Dictionary of International Biography

Cambridge, England



Authorized Officer

Authorized Officer

April 1977





Royal Asiatic Society

56 QUEEN ANNE STREET, W1M 9LA

LONDON 15th January 1978

I have the pleasure to inform you that, at a Meeting of this Society, held 12th January 1978 you were elected a Fellow of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland.

I have the honour to be,

Your obedient Servant,

D. Howard

Secretary.

Dr. Farouk Omar





بسم الله الرحمن الرحيم

اتحاد المؤرخين العرب

الأمانة العامة

بناءً على قرار الجمعية العامة لاتحاد المؤرخين العرب

يُمنح الدكتور فاروق عمر فوزي المولود في الموصل سنة ١٩٣٨

وسام المؤرخ العربي

تقديراً لإسهاماته المتميزة في خدمة التاريخ العربي

مع جميع الامتيازات التي يخوله إياها هذا الوسام

كُتب ببغداد في يوم الثلاثاء الثامن من شهر ذي القعدة سنة ١٤٠٦ للهجرة

الموافق لـ الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٩٨٦ للميلاد

الأستاذ الدكتور مصطفى عبد القادر النجار

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب

International Who's who of Intellectuals
Cambridge, England, 1978

OMAR, FAROUK: An Iraqi university professor, ambassador and historian. Born on 6th June, 1938, in Mosul, Iraq.

He obtained a (B.A. honours) in history, University of Baghdad in 1959; and Ph.D. (Islamic history), S.O.A.S., University of London, 1967.

Married to Layla Naja, a lecturer on English literature at the University of Baghdad, with one daughter (Hala).

Between 1967 - 1974 he was an assistant professor in the department of history, College of Arts, Baghdad.

In 1974 he was the director of the social and literary department at the Ministry of Higher Education and Scientific Research.

In 1975 he was appointed ambassador at the Iraqi Ministry of Foreign Affairs.

Currently he is professor of 'Abbāsid history and Islamic civilization at the College of Arts, Baghdad.

In 1977 - 1978 he was research associate at the University of Lancaster and lectured on Arab history and Arabic language at the Institute of Arabic and Islamic Studies, Lonsdale College, University of Lancaster.

He is a fellow of the Royal Asiatic Society of the U.K., and of the Middle East Studies Association of North America.

Dr. Omar is a member of London Convocation; Union of Arab Historians; Iraqi Historical Society; Union of Iraqi Authors and Writers.

His publications include: The 'Abbāsid Caliphate 750-786 A.D., 1969; Studies in the history of the early 'Abbāsids, 1976; Hārūn al-Rashīd in the Encyclopeadia of Islam; The Barmacides in the Encyclopeadia Britanica; The nature of the 'Abbāsid Da'wa, Beirut, 1970. Dr. Omar received the Bronze Medal in the International Book Exhibition, Leipzig, 1971, for his book "The nature of the 'Abbāsid Revolution", Beirut, 1970.

Address: Department of History, College of Arts, University of Baghdad, Baghdad, IRAQ.

Dictionary of International Biography

A BIOGRAPHICAL RECORD OF CONTEMPORARY ACHIEVEMENT

Ref: DIB/rgw/Bl/Jan

Prof. Dr. Farouk Omar,
Dept of History,
College of Arts,
University of Baghdad,
Baghdad,
Iraq.

Below is the typescript of your entry as it will appear in the above work. Please read it carefully and return it to the Editorial Director within ten days of receipt whether or not there are any corrections.

Do not re-write or alter apart from factual corrections.

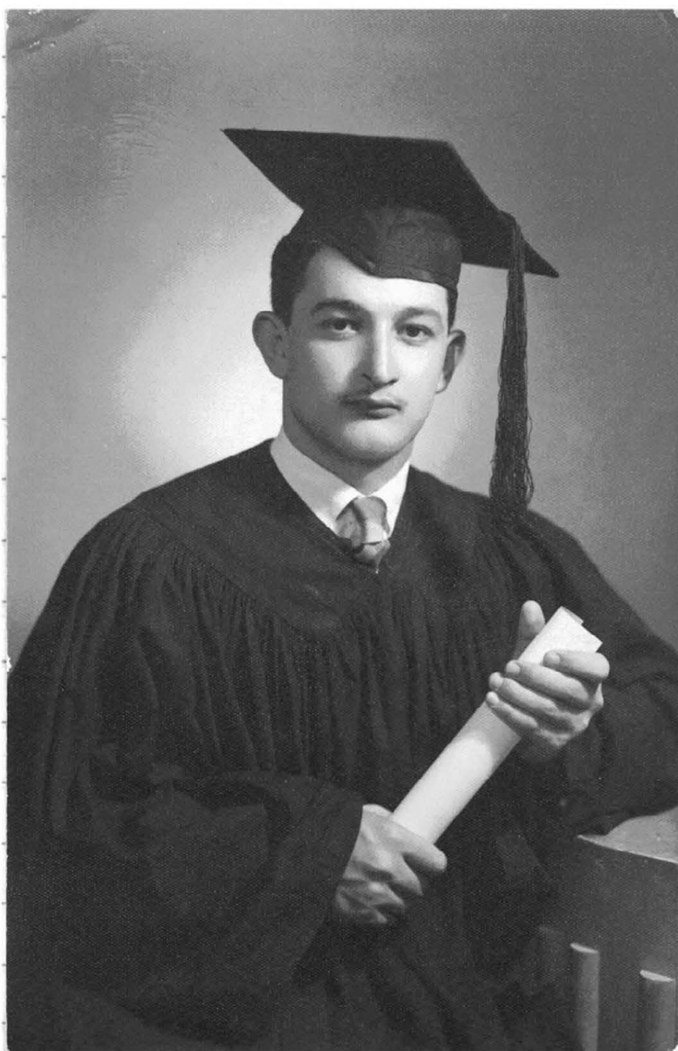
If this form is not returned within ten days your entry will be published exactly as below. The form should be airmailed to:

The Editorial Director, Dictionary of International Biography, International Biographical Centre, Cambridge CB2 3QP, England.

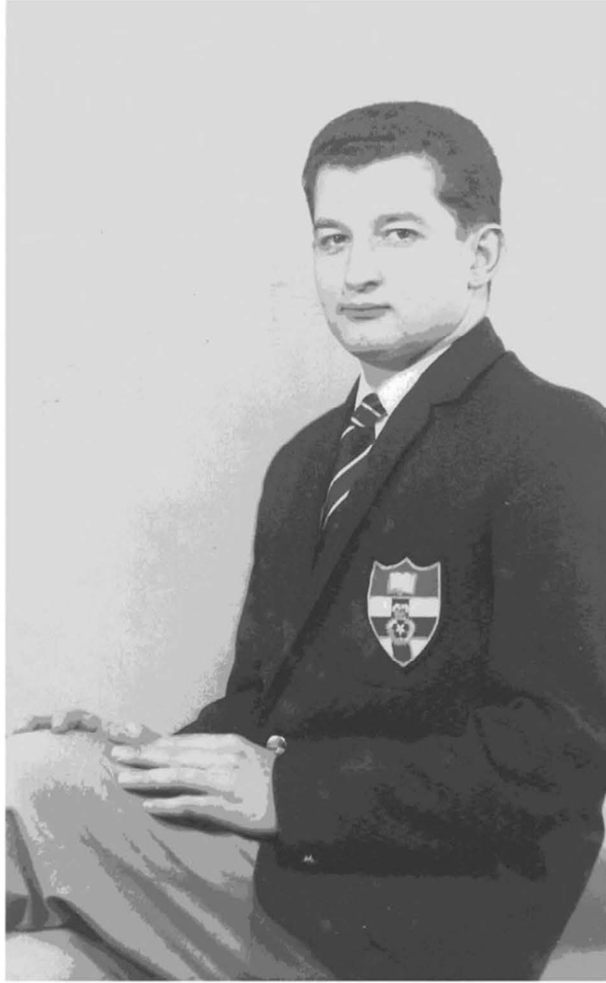
OMAR, Farouk, b. 6 June 1938. University Professor. Educ: BA (Hist. Baghdad Univ.; PhD (Islamic Hist.), Univ. of London. Appts. incl: Dir., Soc. & Literary Dept., Min. of Higher Educ. & Sci. Rsch.; Ambassador, Iraqi Min. of For. Affairs; currently Prof. of 'Abbasid Hist. & Islamic Civilization, Coll. of Arts, Baghdad Univ. Mbrships. incl: Univ. of London Convocation; Union of Arab Histns.; Iraqi Histl. Soc.; Union of Iraqi Authors & Writers. Publs. incl: The 'Abbasid Caliphate 750-786 AD, 1969; The Nature of the 'Abbasid Da'wa, 1970. Recip: Bronze Medal, Int. Book Exhib., Leipzig, 1971. Address: Dept. of Hist., Coll. of Arts, Univ. of Baghdad, Iraq.



عمر حسين فوزي



حصل على بكالوريوس تاريخ بدرجة الشرف من جامعة بغداد
سنة 1959م



حصل على الدكتوراه في التاريخ الاسلامي من جامعة لندن
سنة 1967م



الدكتور فاروق عمر يحاضر في كلية الآداب سنة 1968م



رئيساً لقسم التاريخ بكلية الآداب، سنة 1976م



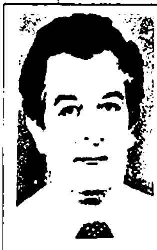
في غرفة مكتبته الخاصة في البيت حيث المكان المفضل لعمله.

Farouk Omar [1]

~~HISTORIAN~~ Scholar Profile

Professor Farouk Omar (Fārūq 'Umar Fawzi) was born June 6, 1938, in Mosul, Iraq, and attended primary and secondary school there. Following his basic education, he attended the University of Baghdad, where he took his B.A. degree with honors in History in 1959. He received a scholarship from the government of Iraq to study at the School of Oriental and African Studies, University of London, where he took his Ph.D in Islamic History in 1967; his dissertation, entitled "The 'Abbāsid Caliphate, 132-170 A.H.," was prepared under the supervision of Professor Bernard Lewis of SOAS, with whom he worked closely during his studies in London.

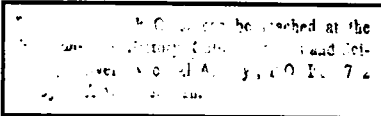
Upon completion of his studies and a brief stint as lecturer at the University of Baghdad, Professor Omar served as lecturer at the University of Riyadh, Saudi Arabia from 1968 until 1970. He returned to Baghdad as Assistant Professor of History from 1970-1973. He then became Director of the Department of Social and Literary Studies for the Iraqi Ministry of Higher Education and Scientific Research for several years. In 1977 he returned to academic life; during 1977-78 he was research associate and visiting lecturer in Arab history at the University of Lancaster, England. When he returned to University of Baghdad in 1978, he was appointed chairman of the History Department there (1978-80), and in 1979 was promoted to full professor of Islamic history. From 1980-83, he was professor of Islamic history at the College of Arts, University of the United Arab Emirates; from 1983-93, he was again professor of Islamic history in Baghdad, serving a second term as chairman of that department in 1985-86. In 1993-94, Prof. Farouk Omar was professor of Islamic history the College of Arts, Musurata, Libya, and in 1994 he assumed his present post, as professor and chairman of the department of Islamic history, College of Arts and Sciences, University of Āl al-Bayt, in Mafraq, Jordan.



Professor Omar has been a lifelong student of Abbasid history, and has attained worldwide recognition for his many fine publications in all aspects of this field, in both Arabic and English. His London dissertation was published as *The 'Abbāsid Caliphate* (Baghdad, 1969). In Arabic, he has produced over a dozen monographs. These include *Ṭabī'at al-da'wa al-'abbāsiya* [*The nature of the 'Abbāsid propaganda*] (1970); *Al-'Abbāsiyūn al-awwalūn* [*The first 'Abbāsids*] (3 vols., 1970-1993); *Al-Khilāfa al-'abbāsiya fi 'aṣr al-fawḍā al-'askariya, 247-334 H / 861-946 M* [*The 'Abbāsid caliphate during the period of military anarchy, 247-334 A.H. / 861-946 A.D.*] (1974; 2nd printing, 1977); *Muqaddima fi dirāsat maṣādir al-ta'rīkh al-'Umānī* [*Introduction to the study of the sources for Omani history*] (1979); *Ta'rīkh al-khalij al-'arabi fi l-'uṣūr al-wusṭā al-islāmiya, 1-906 H / 622-1500 M* [*History of the Arab Gulf in the Islamic Middle Ages, 1-906 A.H. / 622-1500 C.E.*] (1985); *Al-Judhūr al-ta'rīkhiya li-l-wizāra al-'abbāsiya: dirāsa taḥliliya naqdiya li-qirā'at Sūrdil...* [*The Historical roots of the Abbasid wazirate: a critical analysis of Sourdel's interpretation...*] (1986); *Al-Fikr al-'arabi fi mujābahat al-shu'ūbiya--'aṣr al-khilāfa al-'arabiya al-islāmiya* [*Arab thought in confrontation with Shu'ūbism: era of the Arab-Islamic caliphate*], (1988); *Ta'rīkh al-'irāq fi 'uṣūr al-khilāfa al-'arabiya al-islamiya, 1-656 H / 622-1258 M* [*History of Iraq during the Arab-Islamic caliphate, 1-656 A.H. / 622-1258 C.E.*] (1988); and his important reflection on *Al-Ta'rīkh al-islāmi wa fikr al-qarn al-'ishrin* [*Islamic history and twentieth-century thought*] (1980).

In addition to his many monographs, Professor Omar has published over three dozen articles in Arabic and English, including the article "Hārūn al-Rashīd" and several other entries in the *Encyclopaedia of Islam* and in the *Encyclopaedia Britannica*. The titles of a selection of these provides some idea of the range of Professor Omar's interests. They include "Siyāsat al-ma'mūn tujāh al-'alawiyīn" ["The policy of the caliph al-Ma'mūn toward the 'Alids"], *Majallat Kulliyat al-Ādāb / Bulletin of the College of Arts*, University of Baghdad 16 (1973), 275-98 [hereinafter *MKA*]; "The Composition of Abbasid Support," *MKA* 11 (1968), 158-82; "Min alqāb al-khulafā' al-'abbāsiyin: 'khalifat allāh' wa 'ẓill allāh' " [Titles of the 'Abbāsid caliphs: 'God's caliph' and 'God's shadow' "], *Majallat al-Jāmi'a al-Mustanṣiriya* 2 (1971), 323-39; "The nature of the Iranian revolts in the early Abbasid period," MKA (1974); "The guilds [*aṣnāf*] during the Abbasid period," *Proceedings of the International Conference on Urbanism in Islam (ICUIT), October 22-28, 1989* (Tokyo, 1989); "Naẓra jadida ilā 'alāqat al-Turk bi-l-khilāfa al-'abbāsiya," ["A new view on the relations between the Turks and the Abbasid caliphate"], *Al-Maktaba* 65 (1968); "al-Alwān wa dalālatuhā al-siyāsiya fi l-'aṣr al-'abbāsi," ["Colors and their Meaning during the Abbasid period"], *MKA 14* (1971), 827-46; "Al-Jāḥiẓ mu'arrikhan," ["Al-Jāḥiẓ as historian"], MKA 29 (1981), 409-32; "Asbāb inḥiyār wa suqūṭ al-imāma al-Ibāḍiya fi 'Umān fi 280 H," ["The Causes of the Decline and Fall of the Ibāḍiya Imāmate in 'Umān in 280 A.H."], *MKA* (1977).

Professor Omar has also translated into Arabic a number of important studies in English and French, including the first chapters of Daniel C. Dennett's Harvard dissertation, *Marwān b. Muḥammad* (1983), the first chapters of Dominique Sourdel's *Le Vizirate Abbaside* (1986), V. V. Barthold's *Palestine in the Middle Ages* (1975), and Emile A. Nakhleh's *Arab-American Relations in the Persian Gulf* (1977).



(1) Middle East Medievalist, Dct. 1995, USA

Date: Mon, 23 Mar 2009 13:36:27 +0000
Subject: Princess Nesrenah
From: sf6@soas.ac.uk
To: layla471@hotmail.com

Dearest ALL
I have the honour and the utmost pleasue to report to you our visit to the princess on Saturday 20th March 09.
The trip to Manchester was fine and we arrived on time. Noor the proud father,was,very kindly, waiting for us at the station.
Few mintues later we arrived home and were introduced to " Her Grace" by her beautiful and proud mother.
We greeted her"gracefully" of curse, and in as much as we were happy and pleased to be " in her presence" she too was generous and gracious enough to let us feel so at ease with her and so welcomed to her royal world....... but as it is the way with royalty, her grace did not forget the usual royal procedure. *In the first ten mintues her beautiful and intelligent* eyes examined our faces thoroughlly and few minitues later she gave us a cute royal smile; a sign to grant us permission to be her fortunate guests.
Later on she sat in her royal seat using a language only known to royalties..... at the same time trying to attract our attention and we were so obliging to do so lest we lose such precious opportuity and such unforgetable pleasant time with her graceful company.
Later on HG(Her Grace) retired to have her lunch and to enjoy a short nap.When she was awake she was active and chatable,smiling between now and then until we asked her permission to leave.
We are so grateful to both Nada&Noor to give us the opportunity to meet their beautiful and lovely daughter. As a mother, Nada looks so wonderful. She seems to be on top of her new reponsibility
and enjoying it. The role suits her well....... I have nothing but admiration for both Nada & Noor for being proud,reponsible and happy parents.........may God be with them in every step of their life and help them to bring her up successfully........ they were so kind and generous to us, we had such enjoable time together.
Love
Sajida (grand Aunt)

تقرير عن أول لقاء بين د. ساجدة فوزي (أخت د. فاروق) ونسرينه أول حفيدة له

١٧ رمضان ١٤٢٢هـ

في محاضرته بجامع السلطان سعيد بن تيمور

د. فاروق عمر: أربعة محاور هامة جعلت العمانيين يساهمون في نشر الاسلام والثقافة العربية

الانتشار الخارجي والدعوة الاباضية والاتصالات التجارية والتمسك بالاعتدال

كتب - حمد بن ناصر الريامي

القى الدكتور فاروق عمر فوزي استاذ التاريخ بجامعة آل البيت بالمملكة الاردنية الهاشمية مساء امس بجامع السلطان سعيد بن تيمور بالخوير محاضرة خاصة عن دور اهل عمان في نشر الاسلام وذلك من ضمن سلسلة الندوات والمحاضرات التي تنظمها وزارة الاوقاف والشؤون الدينية خلال شهر رمضان المبارك بحضور عدد من المواطنين والمقيمين المهتمين بهذا الجانب.

وفي بداية المحاضرة اوضح الدكتور فاروق ان اهل عمان لعبوا دورا بارزا في تاريخ المنطقة العربية الاسلامية والاقاليم المجاورة لها خلال القرون الاسلامية الاولى اشارت اليه العديد من المصادر التاريخية وكانت الدراسات التي ظهرت عن تاريخ عمان ومنطقة الخليج عالجت الفترة الحديثة والمعاصرة الا ان دراسات مهمة وجادة منذ فترة السبعينات اخذت بالظهور عن الفترة الاسلامية الاولى بعضها بقلم باحثين عرب والبعض الاخر قام به باحثون اجانب لذلك قلصت الفجوة التي كنا نعاني منها بين الاحداث والوقائع بما اضافته من معلومات جديدة موثقة بأضواء كاشفة كالجهل بتاريخ المنطقة او استمرار غموض ثقتها التاريخية.

واكد الدكتور ان محاضرته سوف تتركز في ابراز دور اهل عمان في نشر الاسلام والثقافة العربية وما هو موجود من اشارات تاريخية تؤكد دورهم المؤثر في صنع الاحداث وفي تكوين السمة الدينية والشخصية داخل عمان وفي الاقاليم المجاورة التي انتشروا فيها خارج عمان. ولعل اول ما يثير الانتباه في هذا الشأن ان اهل عمان عارضوا بصفة عامة الافكار الدينية السياسية المتطرفة ويبدو ذلك واضحا في وقت مبكر في موقفهم المعارض لاراء القرامطة الذين حاولوا السيطرة على عمان منذ اواخر القرن الثالث الهجري - الثامن الميلادي والسنوات التي تلتها.. ان هذا الميل الى الاعتدال في عمان يعود الى عوامل عديدة وهو موقعهم الجغرافي ومركزهم التجاري والملاحي المرموق مما اكسبهم خبرة كبيرة وافق واسع ومرن في التعامل واتخاذ الموقف المتوازن.. كما ان الانتعاش الاقتصادي في عمان كمثلها تمثل البصرة في العراق كان هو عامل اخر في الاعتدال والمرونة لان اهل عمان يحبذون الاستقرار وانتشار الامن والطمأنينة ويتجنبون كل ما من شأنه ان يثير القلاقل السياسية او عدم الاستقرار لان ذلك يؤثر على تجارتهم البحرية ويذهب بانتعاشهم الاقتصادي. وهذا يفسر لنا من ناحية اخرى انتشار الدعوة الاباضية في عمان فهي مذهب اسلامي معتدل يلائم طبائع اهل عمان وميولهم وتطلعاتهم وهو ما ساهم ايضا في زيادة الاستقرار والامان في هذا البلد. واشار الدكتور فوزي الى انه ما يتبين لنا بان معظم الخلفيات الحضارية والثقافية في الخليج واقليم عمان ان نسبة كبيرة من المصادر التاريخية في الاسلام سواء كان ذلك في الفقه والعقيدة والتاريخ في منطقة الخليج العربي وبالعصور الاسلامية الاولى مكتوبة في عمان او من قبل مؤلفين من اهل عمان. واضاف ايضا ان الدور الذي لعبه العمانيون في نشر الاسلام والثقافة العربية بالمنطقة العربية لا يمكن ان نحصره في محور واحد بل يتعدى ذلك الى محاور عديدة واهمها هو دور اهل عمان في نشر الاسلام من خلال انتشارهم او امتدادهم خارج عمان سواء كان ذلك عن طريق الهجرات السلمية او مشاركتهم الفعالة في عمليات الفتح الاسلامي بالاضافة الى دور اهل عمان في نشر الاسلام من خلال الدعوة الاباضية ومشاركتهم في فعالياتها في المشرق او المغرب والتأليف في الفقه والعلوم الدينية الاخرى على المذهب الاباضي. وثالثا نشر الاسلام عن طريق اتصالاتهم التجارية النشطة ورحلاتهم البحرية المتشعبة في اقاليم جنوب شرق اسيا وبلاد فارس وشرق افريقيا ووسطها وشمالها. والرابع هو تمسكهم بالاعتدال والمرونة التي يقرها الاسلام الصحيح ومناهضتهم للحركات المتطرفة التي ابتعدت عن الاسلام او انحرفت به. واكد ان كل محور من هذه المحاور الاربعة يصلح ان يكون بحثا بحد ذاته على انني في هذه المحاضرة سوف احاول ان القي نظرة مركزة على المحورين الاوليين ولابد ان اشير بدءا الى ان الاسلام انتشر في عمان سلميا وان اهل عمان وعلى رأسهم جيفر وعبد ابني الجلندي ملكي عمان قبلوا الدين الجديد عن يقين وقناعة لا عن خوف او ضعف خاصة وانهم كانوا في منعة وقوة وان بلادهم بعيدة عن الحجاز ويبدو ان الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هو بادر بالكتابة الى ملكي عمان يدعوهما بدعوة الاسلام ومع ذلك يحاول بعض المستشرقين ان يصوروا العكس فيرى «نيور» ان عمرو بن العاص ذهب مع جيش الى عمان وفتحها ويرى «كاتياني» المستشرق الايطالي ان ضعف ملكي عمان تجاه القوة القبلية المناهضة لهما دفعتهما الى المبادرة وطلب المعونة من الدولة الاسلامية الفتية في المدينة المنورة ومن ثم اعتناق الاسلام.

ولا نجد في مصادرنا التاريخية العامة او المحلية ما يؤيد ذلك ولكننا يمكن ان نشير الى سبب مهم الى جانب قناعة اهل عمان بالدين الجديد هو ان الاسلام سوف يهيأ فرصة لعمان كما هي الحالة في العراق والبحرين وذلك للتخلص نهائيا من البقية الباقية من النفوذ الساساني وتحرير سواحل عمان من سيطرتهم وامتلاك الموانئ والسهول التي كان احسنها بيد المرازبة الفرس وكذلك الاستفادة من موارد التجارة البحرية بدل العمل كملاحين في السفن الساسانية. واكد الدكتور فاروق عمر ان العمانيين بعد دخولهم الاسلام بدأوا يزحفون بكل قوة الى شرق وغرب المنطقة ويساهمون مساهمة فعالة في نشر الدعوة الاسلامية والثقافة العربية لذلك اوصلوها الى العديد من دول المنطقة وضربوا أروع الامثلة في المشاركة بالفتوحات الاسلامية والوقوف صفا واحدا مع الجيش الاسلامي الذي قاتل وقاوم أهل الشرك.

الدكتور /فاروق يلقي محاضرته ٢ كانون الاول ٢٠٠١م

تصوير: عبدالله الشحي

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة العلمية للدكتور فاروق عمر فوزي

C.V

- ولد في مدينة الموصل بالعراق في 6 حزيران 1938م.
- حصل على شهادة البكالوريوس (شرف) تاريخ من قسم التاريخ كلية التربية بجامعة بغداد 1959.
- حصل على شهادة الدكتوراه بالتاريخ الإسلامي من مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن في موضوع (الخلافة العباسية 132هـ-170هـ) في 1967م.
- عُين مدرسًا بكلية الآداب - قسم التاريخ - جامعة بغداد سنة 1967م.
- نال مرتبة الأستاذية في التاريخ الإسلامي سنة 1979م (جامعة بغداد).
- تدرّج في عدة مناصب إدارية وعلمية إضافة إلى التدريس بالجامعة:
  - مدير الدراسات الاجتماعية والأدبية بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي 1974-1975م، بغداد.
  - سفيرًا في ديوان وزارة الخارجية العراقية، بغداد، 1975م.
  - رئيسًا لقسم التاريخ بكلية الآداب 1978 - 1980م، جامعة بغداد.
  - محاضرًا في التاريخ الإسلامي بجامعة لانكاستر بإنكلترا 1977 - 1978م.
  - رئيسًا لقسم التاريخ بكلية الآداب للمرة الثانية 1985م - 1986م (جامعة بغداد)، (جامعة آل البيت) 1994 - 1998، وجامعة السلطان قابوس 2007 .
  - مشرفًا عامًا لدار الحكمة للتأليف والترجمة والنشر، جامعة بغداد، 1986 - 1987م. مديراً لمركز البحوث الإنسانية، جامعة السلطان قابوس، *2009* - لحد الآن.
  - حاضر في جامعات عربية وأجنبية: جامعة الرياض، جامعة الإمارات العربية المتحدة، جامعة التحدي، جامعة آل البيت، جامعة السلطان قابوس، جامعة لانكاستر (إنكلترا).
- شارك في وضع مناهج كتب التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية في الجامعات والمدارس الثانوية والإعدادية في العراق، كما شارك في تأليف كتب منهجية مقررة لبعض المواد التاريخية بالجامعات التي درّس فيها.

- حاضر بالدراسات العليا في التاريخ الإسلامي بالجامعات على طلبة الماجستير والدكتوراه.
- أشرف على مجموعة من الأطروحات الماجستير والدكتوراه بقسم التاريخ جامعة بغداد. واسط في العصر العباسي 1980م (دكتوراه). الخدمات العامة في بغداد 400-656هـ (دكتوراه) 1981م: الجهاد في الدولة العربية الإسلامية 1988 (دكتوراه). الحركة الأباضية في المشرق العربي (ماجستير) 1977م. بنو المغربي ودورهم السياسي والإداري في القرنين 4 و5 الهجريين (ماجستير) 1976م، الحركة الخرمية (دكتوراه) 1991م. النظر في المظالم (ماجستير 1985م)، أبو العباس السفاح (ماجستير) 1989م وغيرها كثير. راجع ندى نعمان السعدي، فهرس الأطاريح الجامعية لكلية الآداب، جامعة بغداد من 1970 إلى 1985م، الـ ج2 وج3، 1988، ببغداد العراق).
- شارك في العديد من المؤتمرات التاريخية منها:
  - المؤتمر الدولي للتاريخ، بغداد، 1973م، الجمعية التاريخية العراقية، العراق.
  - ندوة التراث العلمي العربي، حلب، 1974م، جامعة حلب، سوريا.
  - المؤتمر الدولي حول الصهيونية، بغداد، 1974م، مركز الدراسات الفلسطينية، العراق.
  - مؤتمر العالم الإسلامي، لندن، 1975م، إنكلترا.
  - المؤتمر الدولي حول إفرام وحنين العبادي، مجمع اللغة السريانية، بغداد، 1975م، العراق.
  - مؤتمر مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، 1976م، جامعة الرياض.
  - ندوة إعادة كتابة التاريخ، بغداد، وزارة الثقافة، 1980م، العراق، وكذلك 1987م.
  - ندوة الفكر القومي والتراث، بغداد، 1985م، المجمع العلمي العراقي ومركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
  - ندوة الأمن القومي العربي، بغداد، 1985م، وزارة الثقافة.
  - المؤتمر الدولي لمركز دراسات الخليج العربي، جامعة إكستر 1985م، إنكلترا.
  - المؤتمر الدولي لمركز دراسات الخليج العربي، جامعة إكستر، 1985م، إنكلترا.
  - مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، إكستر، 1987م، إنكلترا.
  - مؤتمر الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، ليدز، 1988م، إنكلترا.
  - الندوة الدولية عن الشعوبية، بغداد، 1988م، العراق.

- المؤتمر الدولي عن النظم الإسلامية، أبو ظبي، 1985م، مكتب التربية لدول الخليج العربية.
- ندوة كتابة تاريخ الأمة العربية، بغداد، 1987م، العراق.
- المؤتمر الدولي حول (المدينية في الإسلام)، طوكيو، اليابان، 1989م.
- ندوة التراث العماني، مسقط، 1990م (أرسل البحث)، وزارة الثقافة والتراث.
- ندوة دور الجامعة في المجتمع، اتحاد الجامعات العربية، عمّان، الأردن، 1993م، (أرسل البحث).
- ندوة كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة عن دور العرب في الخليج، العين، 1987م (أرسل البحث).
- ندوة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، حول التوثيق العسكري في التراث، سنة 1988م.
- ملتقيات وحدة الدراسات العُمانية، المفرق، الأردن، بحوث في تاريخ عُمان، 2001- 2002- 2004- 2007- 2008م.
- الندوة الرمضانية، مسقط، سلطنة عُمان، 2001/2002م.
- مؤتمر الإمارات عبر العصور، مركز زايد، العين، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2004م.

آثار الدكتور فاروق عمر فوزي المنشورة

أولاً: في الموسوعات والكتب المرجعية:

1 - Harun al -Rashid, Encyclopedia of Islam, 2nd ed. 1967.

2 - Ibn al -Nattah, Encyclopedia of Islam, 2nd ed. 1967.

3 - Ibrahim al -Imam, Encyclopedia of Islam 2nd ed. 1967.

4 - The Barmacides, Encyclopedia Britannica, 2nd ed., 1974.

5- مقالات عن تاريخ فلسطين في "الموسوعة الفلسطينية"، دمشق، 1985م منها:

- العرب قبل الإسلام في فلسطين - العصر الأموي في فلسطين- ثورة أهل فلسطين والأردن 126هـ- المهدي وفلسطين- المأمون وفلسطين - تتش بن ألب أرسلان في فلسطين - أتسز الخوارزمي وفلسطين - أرتق بك وفلسطين- الملك غازي وفلسطين.

6- تطور الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي (الفترة الأولى 132هـ-218هـ). بحث ضمن الكتاب المرجعي الموسوم (تاريخ الأمة العربية) تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، تونس، وبحوث أخرى.

7- الجزيرة العربية والمشرق الإسلامي من بداية العباسيين حتى نهاية السلاجقة، الفصل 19، الكتاب المرجعي "التاريخ الثقافي والعلمي للبشرية"، اليونسكو، باريس، 1999م، بالإنكليزية.

8- الدعوة العباسية، "موسوعة الحضارة الإسلامية"، مؤسسة آل البيت، الأردن، ومداخل أخرى.

9- إبراهيم الإمام، "موسوعة الحضارة الإسلامية"، مؤسسة آل البيت، الأردن، وكذلك مدخل آل البيت.

10- بحوث ضمن كتاب "حضارة العراق، وزارة الثقافة والإعلام بالعراق، بغداد، 1986م، الوزارة - واردات الدولة الإسلامية ونفقاتها.

11- بحوث ضمن الكتاب الموسوعي: "العراق في موكب الحضارة"، الأصالة والتأثير، وزارة الثقافة بالعراق، 1988م، جـ1 في معنى الأصالة، دور العراق في نشر الإسلام والثقافة العربية في بلاد فارس (ج2).

12- بحوث ضمن الكتاب الموسوعي: "العراق في مواجهة التحديات"، وزارة الثقافة بالعراق، 1988م، ج2، تحدّي وحدة الدولة الإسلامية وسلطة الخلافة (المبحث الثاني) - الشعوبية والزندقة والحركات الهدّامة.

13- (أبو ظبي من صدر الإسلام حتى مجيء البرتغاليين، ضمن الكتاب المرجعي، "تاريخ أبو ظبي"، أبو ظبي، 2010م.

14- بحوث ضمن الكتاب الموسوعي: "الجيش والسلاح في العراق"، وزارة الثقافة، العراق، 1987م، عناصر الجيش في العصر العباسي- الأولوية ورايات الجيش الإسلامي في صدر الإسلام- الاستخبارات العسكرية في الجيش الإسلامي- التعبئة في الجيش الإسلامي العربي وغيرها.

15- الموصل في العصر العباسي الأول، "موسوعة الموصل الحضارية"، جامعة الموصل، 1990م.

16- علم التاريخ عند العمانيين، الموسوعة العمانية، مسقط، عمان، 2009م، ومداخل أخرى.

ثانيًا الكتب:

1 – The Abbasid Caliphate 132 –170 A.H., Baghdad, 1969.

2 – Abbasiyat, studies in the early Abbasid History, Baghdad, 1976.

3- طبيعة الدعوة العباسية ببيروت، 1970م - طبعة ثانية، بغداد، 1987م- طبعة ثالثة، بغداد، 1989م، طبعات أخرى في الأردن، عمّان.

4- العباسيون الأوائل، ج1، بيروت، 1970م، طبعة ثانية، بغداد، 1975م، طبعة ثالثة، عمّان، الأردن.

5- العباسيون الأوائل، ج2، دمشق، 1973م.

6- العباسيون الأوائل، ج3، عمّان، 1983م.

7- الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية، بغداد، 1974م، طبعة ثانية بيروت، 1979م.

8- بحوث في التاريخ العباسي بدار القلم، النهضة بيروت، بغداد، 1977م.

9- الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة 334هـ-565هـ، الشارقة، 1983م.

10- الخلافة العباسية 132هـ- 170هـ، دار القلم، بيروت، 1983م.

11- الخلافة العباسية 132-447هـ، دار الحكمة، بغداد، 1985.

12- التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين (مجموعة بحوث تاريخية)، بيروت، 1980م، مطبعة ثانية، بغداد، 1985، عدة طبعات غير شرعية كذلك.

13- مصادر التاريخ المحلي لإقليم عمان (الخليج العربي) بغداد، إتحاد المؤرخين العرب، 1979م.

14- الخليج العربي في العصور الإسلامية، بيروت، 1983م، طبعة ثانية، بغداد، بدار واسط، 1985م.

15- تاريخ فلسطين السياسي في العصور الإسلامية، أبو ظبي، 1983م، طبعة ثانية، عمّان، الأردن.

16- النظم الإسلامية، العين، 1983م.

17- الحركة الشعوبية في القرون الإسلامية الأولى، بغداد، 1987م، طبعة ثانية، بغداد، 1988م، طبعة ثالثة، بغداد، 1989م.

18- تاريخ العراق في عصور الخلافة العربية الإسلامية، بغداد، 1988م.

19 - Historical Texts, Baghdad, 1993.

20- مصادر التاريخ المحلي لإقليم عمان (الخليج العربي)، طبعة ثانية مركز زايد، دولة الإمارات العربية المتحدة، 2005م.

21- الاستشراق والتاريخ الإسلامي، عمّان، 1998م.

22- الحركات الدينية - السياسية في الإسلام، عمّان، 1999م.

23- يهود الأقطار العربية، تحرير فاروق عمر فوزي، منشورات مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1977م.

24- بحوث مهداة إلى الأستاذ الدكتور سيد مقبول أحمد، تحرير فاروق عمر فوزي، جامعة آل البيت، 1999م.

25- التدوين التاريخي عند المسلمين، مركز زايد، العين، 2004م.

26- نقد الرواية التاريخية عند المسلمين، مركز زايد، العين، 2007م.

27- الجيش في العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، عمّان، الأردن، 2005م.

28- دراسات في التاريخ الإسلامي، عمّان، الأردن، 2006م.

29- قراءات ومراجعات في التاريخ الإسلامي، عمّان، الأردن، 2008م.

30 - Aspects from Abbasid History, Prepared and edit by F. Omar Fawzi, Amman, Jordon, 2003.

31 - Studies in the History of sects in Medieval Islam, Prepared and edit by F. Omar Fawzi, 2001.

32- دور التاريخ في التوعية القومية، منشورات دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1988م.

ثالثاً: كتب مترجمة:

1- العلاقة العربية - الأمريكية في الخليج، تأليف أميل نخلة، البصرة، مركز دراسات الخليج العربي، 1977م، (نسخ محدودة).

2- مروان بن محمد الأموي، تأليف دينت (ترجمة بعض الفصول فقط)، بغداد، 1985م.

3- الوزارة العباسية، تأليف سورديل، (ترجمة بعض الفصول فقط)، بغداد، 1986م.

4- الحركات الدينية في إيران في القرنين الثاني والثالث الهجريين، تأليف صديقي، ترجمة بعض فصوله ونشرها في مجلة الزهراء، جامعة آل البيت، 1999م.

رابعاً: كتب منهجية أكاديمية ومدرسية:

1- التاريخ العربي الإسلامي للدراسة المتوسطة، وزارة التربية، بغداد، 1975م (بالاشتراك).

2- النظم الإسلامية، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، دار الحكمة، 1987م (بالاشتراك).

3- تاريخ فلسطين في العصور الإسلامية الأولى، وزارة التعليم العالي، بدار الحكمة، بغداد، 1987م (بالاشتراك).

4- عصر النبوة والخلافة الراشدة، وزارة التعليم العالي، بغداد، 1986م (بالاشتراك).

5- الحضارة الإسلامية للدراسة الثانوية، وزارة التربية، بغداد، 1990 (بالاشتراك).

6- تاريخ بلاد فارس في العصور الإسلامية الأولى، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد، 1989م (بالاشتراك).

7- المدخل إلى التاريخ الإسلامي، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، 2001م.

8- المدخل إلى تاريخ آل البيت، جامعة آل البيت، المفرق، الأردن، 1999م.

9- تاريخ عمان ودراسات في الحضارة الإسلامية، جامعة السلطان قابوس، مسقط، سلطنة عُمان، 2007م، طبعة ثانية، 2009م.

10 – Historical Texts, Baghdad, 1993.

خامساً: بحوث باللغة الإنكليزية:

1 – Politics and the Problem of succession in the early Abbasid Period,, B.C. of Arts, Univ, of Baghdad, 1968.

2 –The Com Position of the early Abbasid support, B.C. of Arts, Univ, of Baghdad, 1968.

3 – Some Religious Aspects of the Policy of the early Abbasids, J.of the Iraqi historical society, 1975, Baghdad.

4 – Anew assessment of the reign of Harun al – Rashid, UNESSO, 1971.

5 – Some Aspects of the relations between the Abbasids and the Hasanids, Arabica, Paris, 1976.

6 – The nature, of the Iranian revolts in the early Abbasid period, B.C. of Arts, Univ. of Baghdad, 1974.

7 – The guilds (ise . Asnaf) in the Islamic town during the early Abbasid period, in the C. on Urbanism in Islam, Tokyo Univ., 1989.

8 – Sonpadh.. I.C., Hyderabad, Vol. Liii, 1979.

9 –Some aspects of the rligious policy of the Caliphate of al–Mahdi, Summer, IRAQ, Baghdad, 1974.

10 – The Islamiation of the Gulf, in the World of Islam, Princeton, U.SA., 1989.

11 – Urban centres in the Gulf dunging the early Islamic palsied, B. of the S.M.E.S., England, Exeter, 1987.

12 – The Reign of the Abbasid Caliph al -Hadi.. a re – appraisal at– the B.C.A., U. of Baghdad, 1977.

13 – Some distinguished Settlers of Baghdad in the early Abbasid Period, B. of Bayh al – Nahrayn, Mosul, 1984.

14 – Some Remarks on the treatment of Dhimmis by the early Abbasids, J. of the syriac Academy, Baghdad, 1975.

سادساً: بحوث باللغة العربية:

1- الجذور التاريخية لإدعاء العباسيين بالخلافة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، بغداد، 1967- 1968م.

2- وزراء عباسيون: يعقوب بن داود وزير المهدي، مجلة كلية الآداب، بغداد، 1968م.

3- موقف المعتزلة من العباسيين الأوائل، مجلة الأقلام، بغداد، 1968م.

4- خصائص حكم المنصور كما تعكسه وصيّته السياسية للمهدي، مجلة الرسالة الإسلامية، بغداد، العدد 6-7.

5- نظرة جديدة إلى علاقة الترك بالخلافة العباسية، مجلة المكتبة، 1968م، بغداد.

6- الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية، مجلة العرب، الرياض، 1969م.

7- نظرة في سياسة الخليفة المتوكل العباسي، مجلة الجمعية التاريخية العراقية، 1979م.

8- من ألقاب الخلفاء العباسيين: خليفة الله - ظل الله - مجلة الجامعة المستنصرية، 1972م.

9- ألقاب الخلفاء العباسيين: خليفة الله- ظل الله، مجلة الجامعة المستنصرية، 1972م.

10- ألقاب الخلفاء العباسيين الأوائل ودلالاتها الدينية السياسية، مجلة كلية الآداب، 1970م.

11- حركة المقنع الخراساني، مجلة الجمعية التاريخية العراقية، العدد الأول، 1970م، العراق.

12- سياسة المأمون تجاه العلويين، القسم الأول، مجلة الجامعة المستنصرية، 1973م، القسم الثاني، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، 1973م.

13- عبد الله بن المقفّع في تخليط المؤرخين بمجلة المورد، بغداد، 1974م.

14- الرسائل المتبادلة بين الرشيد وحمزة بن عبدالله الخارجي، مجلة الجمعية التاريخية العراقية، 1974م.

15- وزراء عباسيون: الفضل بن الربيع، مجلة كلية الآداب، 1976م.

16- زندقة بشار بن برد، مجلة المورد، 1976م.

17- البابكية وفكر القرن العشرين، مجلة آفاق عربية، 1976م، بغداد.

18- الجاحظ مؤرخًا، مجلة آفاق عربية، بغداد، 1982م.

19- نصر بن شبث العقيلي، مجلة العرب، الرياض، 1971م.

20- موقف الموصل من الخلافة العباسية 132هـ-200هـ، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، 1975م.

21- الخرمية، مجلة آفاق عربية، 1977م.

22- ببليوغرافيا في تاريخ عمان، مجلة المورد، 1975م.

23- ملامح من تاريخ الإباضية كما تكشفها مخطوطة كشف الغمة للأزكوي، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، 1975م.

24- مصادر التاريخ المحلي لإقليم عمان، المؤتمر الدولي حول مصادر شبه الجزيرة العربية، الرياض، 1977م.

25- لمحات تاريخية عن أحوال اليهود في العصر العباسي، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، بغداد، 1973م.

26- فلسطين والعلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي، مركز الدراسات الفلسطينية، مقدمة لكتاب تاريخ فلسطين في العصور الوسطى لبارتولف، منشورات المركز، 1973، بغداد.

27- حركة المختار الثقفي، مجلة الرسالة الإسلامية، 1972م - 1974م.
28- الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، مجلة آفاق عربية، 1988م.
29- بشار بن برد وعصره، مجلة المورد، بغداد، 1986م.
30- نشأة الجيش النظامي في الإسلام، ندوة النظم الإسلامية، أبو ظبي، مكتب التربية لدول الخليج العربي، 1984م.
31- أصالة الحضارة العربية الإسلامية ضمن ندوة "التحديات الثقافية" وتحت إشراف مكتب التربية لدول الخليج العربية، عمان، 1986م، أُرسل البحث للندوة.
32- ببليوغرافيا عن تاريخ العراق في العصر البويهي، مجلة بين النهرين، الموصل، 1971م.
33- المدرسة التاريخية العراقية المعاصرة عن العصر العباسي، مجلة دراسات للأجيال، بغداد، 1988م.
34- صلاح الدين الأيوبي والحشيشية، مجلة المورد، 1987م، بغداد.
35- نظام المعاون، مجلة الجمعية العراقية للتاريخ والآثار، 1987م.
36- دور الموالي ومركزهم في المجتمع الإسلامي، مجلة آفاق عربية، 1989م.
37- انتشار العرب في الأقاليم الشرقية للخليج، ندوة كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية المتحدة، 1987م، أُرسل البحث للندوة.
38- التوثيق العسكري في تراث الأمة، ندوة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، بغداد، 1988م.
39- دور العمانيين في نشر الإسلام خلال القرون الإسلامية الأولى، ندوة عمان، مسقط، 1990م، أُرسل البحث للندوة.
40- الدس الشعوبي في التاريخ العباسي، ندوة هيئة كتابة التاريخ بالعراق، بغداد، 1986م.
41- دور المؤرخ في المجتمع العربي، ندوة اتحاد الجامعات العربية، عمّان، الأردن، 1993م، (أُرسل البحث للندوة).
42- المشرق الإسلامي من القرن الثاني وحتى القرن الخامس الهجري، بحث ضمن كتاب "التاريخ العلمي والثقافي للبشرية"، (اليونسكو)، باريس.

43- تاريخ فلسطين في العصر الإسلامي، (الفصل الثاني) في كتاب المدخل إلى القضية الفلسطينية، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمّان، الأردن، 1988م.

44- القدس في العصر الإسلامي، ضمن كتاب "القدس حاضرًا ومستقبلاً"، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمّان، الأردن، 1998م.

45- عبد العزيز الدوري وتفسير التاريخ الإسلامي، ندوة شومان، عمّان، الأردن، 1999م.

46- صالح العلي مؤرخًا مفكرًا، ندوة جامعة آل البيت، عمّان، الأردن، 2001م.

47- دور جواد علي الريادي في كتابة تاريخ العرب قبل الإسلام، ندوة مركز زايد، الإمارات العربية المتحدة، لم تعقد (أرسل البحث).

سابعًا: تعليقات نقدية: Book Reviews and Critical notes:

1- تاريخ خليفة بن خيّاط، مجلة المكتبة، 1962م-1968م، بغداد.

2- تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي، مجلة المكتبة، 1964م - 1968م، بغداد.

3- كتاب التاريخ المنسوب لديونيس التلمحري، مجلة بين النهرين، الموصل، 1976م.

4- كتاب الزندقة والشعوبية لسميرة الليثي، مجلة العرب، الرياض، 12، 1970م.

5- كتاب آل المهلب بن أبي صفرة لنافع العبود، مجلة آفاق عربية، بغداد، 1978م.

6- كتاب البابكية لحسين قاسم العزيز، مجلة آفاق عربية، بغداد، 1976م.

7- الزنج لعبد الجبار ناجي، مجلة آفاق عربية، بغداد، 1976م.

8- بريطانيا والعراق، 1914م، للدكتور زكي صالح، جريدة الصحافة، العدد 20، 1971م، بغداد.

9- العلاقات الحضارية والسياسية بين العرب واليهود للخربوطلي، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1972م، بغداد.

10- الرايخ الثالث والعالم العربي، لوكاز هيرزوير، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1972م، بغداد.

11- إسرائيل والعالم العربي، كوهن، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1973م، بغداد.

12- فلسطين في ضوء الحق والعدل، هنركتن، مجلة جيل ورسالة، 1974م، بغداد.

13- نقد وتعقيب على بحث الفكر القومي وإحياء التراث العربي، ندوة تطور الفكر القومي العربي، بغداد، 1985م، المجمع العلمي العراقي، واتحاد للمؤرخين العرب.

18- الشهيد في التاريخ العربي الإسلامي، جريدة الثورة، كانون الأول، 1985م.

19- جيشنا والأسماء التاريخية، (بمناسبة تأسيس الجيش العراقي)، جريدة الثورة، 9/1/1986م، بغداد.

20- المولد النبوي الشريف.. الانطلاقة للأمة والانتصار للمبادئ، جريدة الثورة، 25/11/1985م.

21- (بيت الحكمة) في التاريخ الحضاري العربي الإسلامي، جريدة الثورة، حزيران، 1986م.

22- نحن بحاجة إلى نظرة جديدة في دراسة تاريخ العراق الحديث، جريدة الصحافة، 1971م، بغداد.

23- ليحذر العرب خطة المراحل جزر الخليج من الاستعمار إلى الاحتلال، جريدة الصحافة، 1971م، بغداد.

24- حقوق الإنسان بين النظرية والتطبيق، جريدة الجمهورية، 1972م، بغداد.

25- إعادة كتابة التاريخ مسألة حتمية، مجلة ألف باء، تموز، 1988م، بغداد.

26- د. فاروق منتقداً كتّاب التاريخ، مجلة التضامن، عدد 168، 1986م، بغداد.

27- المستشرقون أساءوا فهم تاريخ العرب، مجلة الحوادث، بيروت، عدد 1657، 1988م.

28- مكتبتي ....، جريدة الثورة، في 1988/10/1م، بغداد.

29- المؤرخ، فاروق عمر فوزي... حوار (ذاكرة جيل)، جريدة القادسية، بغداد، في 1987/8/16م.

30- التراث العربي وإعادة إحيائه، ندوة مجلة آفاق عربية في 1985/1/29م، بغداد.

31- أهمية التاريخ وأثره في شحذ الوعي القومي، ندوة تلفزيونية، 1985م، بغداد.

32- النظر في المظالم في بغداد، جريدة الثورة، سلسلة بغداد، 19/2/1987م.

33- صمود بغداد في التاريخ، جريدة الثورة 1987/4/23م.

34- دار الحكمة تنهض مجددًا، مجلة ألف باء، عدد 971، في 6 آيار، 1987م.

35- دار الحكمة... صرخ ثقافي يبعث من جديد، جريدة الثورة 1986/10/18م.

36- الأسرى ومعاملتهم في التاريخ، ندوة تلفزيونية، 1989م، بغداد.

37- من أنا ؟؟، جريدة الثورة في 1988/3/15م، بغداد.

ثانيًا: مقالات أخرى:

1- عبد الجبار الأزدي، صاحب شرطة المنصور، مجلة الشرطة، 1968م، بغداد.

2- نصوص تاريخية ساعد اكتشافها على إعادة تقويم الثورة العباسية، مجلة كلية الآداب بالرياض، 1969م.

3- تقويم جديد للثورة العباسية، مجلة جمعية التاريخ والآثار بالرياض، 1969م.

4- نظرة جديدة إلى علاقة الترك بالخلافة العباسية، مجلة المكتبة، 65، 1968م.

5- الجيش العباسي، مجلة الشرطة، عدد 13، 1969م.

6- منعطفات مهمة في التاريخ العباسي، الرسالة الإسلامية، عدد 39، 40، 1971م.

7- من مظاهر النظام القضائي في العصر العباسي، مجلة الشرطة، عدد 17-18، 1970م.

8- ملامح من تاريخ العراق في العصر العباسي الأول، مجلة بين النهرين، 1974م.

9- حنين بن إسحاق العبادي والسلطة العباسية، مجلة المؤتمر الدولي، لمهرجان أفرام، حنين، بغداد، 1974م.

10- كتاب التاريخ المنسوب لديونيسيوس التلمحري، مجلة بين النهرين، 1976م.

11- حركة الزنج، آفاق عربية، 1976م.

12- التكتلات السياسية الموالية للعباسيين، مجلة كلية الآداب، 1968م، (بالإنكليزية).

13- بعض مظاهر العلاقات بين العباسيين والعلويين من آل الحسين، مجلة أرابكا، باريس (بالإنكليزية).

14- تقويم جديد لعهد هارون الرشيد، مؤتمر اليونسكو الدولي، 1971م (بالإنكليزية).

15- ثائر من أجل العرب: نصر بن شيث العقيلي، مجلة العرب 7، 1980م، الرياض.

16- من تاريخ المدن العربية... موقف الموصل من الخلافة العباسية، 132هـ-200هـ، مجلة آداب الرافدين، 1975م، الموصل.

17- آراء خاطئة في تفسير التاريخ العربي، جريدة الثورة، 1977م.

18- الأسس التاريخية والتعبوية لانتصار صلاح الدين في حركة حطين، 1187م، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، المعهد الأول، 1971م، بغداد.

19- آراء ابن خلدون في اليهود، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1973م، بغداد.

20- لمحات تاريخية عن أحوال اليهود في العصر العباسي، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1973م، بغداد.

21- فلسطين والعلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي (مقدمة كتاب تاريخ فلسطين في العصور الوسطى لبارتولد، ترجمة عزيز حداد، إشراف وتقديم المؤلف، من منشورات مركز الدراسات الفلسطينية، 1973م.

22- تويلبي وفلسطين، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1976م، كان قد قدّم إلى مهرجان العالم الإسلامي بلندن، 1975م.

23- لمحات من تاريخ فلسطين في العهد العثماني، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية، 1975م.

24- "الموسوعة الفلسطينية"، منظمة التحرير الفلسطينية، دمشق، 1985م.

- مقالات في تاريخ فلسطين القديم: العرب قبل الإسلام في فلسطين- الغساسنة ثمود- كلب- الشجاعة- عاملة- لخم- جذام- تنوخ- بنوجرم- مدلحج- عذرة- سليم- الشامة- كانة- قيس- كندة- طي- جبلة بن الأيهم- أبو كوب بن جبله- امرؤ القيس- جشم العربي- الحارث بن جبله- يوحنا بن رومة- قيدار- مقنا- القيديون وغيرها.

- مقالات في تاريخ فلسطين الإسلامي: العصر الأموي في فلسطين- ثورة أهل فلسطين والأردن سنة 126هـ- صالح بن طي والي فلسطين العباسي- مذبحة نهر أبي فطرس- المهدي وفلسطين- المأمون وفلسطين- جعفر بن يحيى الدرمكي- تش بن البارسلان- دقاق بن تتش- أتمز ابن أوق الخوارزمي - أرتق بك وفلسطين- وغيرها.

- مقالات في تاريخ فلسطين الحديث: نابليون بونابرت وفلسطين- جوزف تشمبرلين وفلسطين- جورج بيكو- الملك غازي بن فيصل وفلسطين - رشيد عالي الكيلاني وفلسطين.

25- سقوط الأمويين بين التفسير التقليدي والتحليل الحديث، مجلة الرسالة الإسلامية، 1972م، بغداد.

26- ثلاث معارك حاسمة في تاريخ الخليج العربي، آفاق عربية، 1983م.

27- عمران بن شاهين السلمي، آفاق عربية، 1984م.

28- الدعوة الجديدة، في بلاد فارس وبلاد الشام خلال العصر العباسي، آفاق عربية، 1985م.

29- الاستشراق وتاريخ العصر العباسي، مجلة آفاق عربية (عدد الاستشراق).

30- الشعوبية وتشويه التاريخ العربي، مجلة الرسالة الإسلامية، 1985م.

31- الأمن في الدولة العربية الإسلامية، آفاق عربية، 1985م.

32- الشعوبية في الأندلس، الرسالة الإسلامية، 1985م.

33- نشأة الجيش النظامي في الإسلام، ندوة النظم الإسلامية، مكتب التربية لدول الخليج العربي، أبو ظبي، 1984م.

34- من الدعوات الهدامة في تاريخ الإسلام، الرسالة الإسلامية، 1985م.

35- بعض المتميزين من سكان بغداد الأوائل (بالإنكليزية)، مجلة بين النهرين، 1984م.

36- ببليوغرافيا عن تاريخ العراق في العصر البويهي، مجلة بين النهرين، 1970م.

37- الخوارزميون: محاولتان فاشلتان لاحتلال بغداد، مجلة بين النهرين، 1970م.

38- بواكير الوعي القومي في الخليج العربي، مجلة آفاق عربية، 1980م.

39- المدرسة التاريخية العراقية المعاصرة، مجلة دراسات الأجيال، 1988م.

41- المراكز الحضرية في الخليج العربي في صدر الإسلام (بالإنكليزية)، ندوة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط، 1987م.

42- هارون الرشيد والعصر الذهبي (بالإنكليزية)، ندوة اتحاد المؤرخين العرب، 1989م.

43- أثر الحركات السياسية الدينية الإسلامية، على الأصناف في المدينة، ندوة جامعة طوكيو، 1989م، اليابان.

44- صلاح الدين الأيوبي والحشيشية، مجلة المورد، 1987م.

45- نظام المعاون، مجلة الجمعية العراقية للتاريخ والآثار، 1987م.

46- أخت الرجال.. صور من بطولات المرأة، مجلة المرأة العربية، 1986م.

47- دور الفقهاء في المجتمع الإسلامي، مجلة الرسالة الإسلامية، 1989م.

48- دور الموالي ومركزهم في المجتمع الإسلامي، مجلة آفاق عربية (عدد الاستشراق)، 1989م.

49- صور من صمود العراقيين، مجلة الرسالة الإسلامية، 1988م.

50- انتشار العرب في الأقاليم الشرقية للخليج العربي، ندوة كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية، 1987م، العين.

51- التوثيق العسكري في تراث الأمة العربية، ندوة الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، 1988م.

52- بين الشعوبية والاستشراق، ندوة كلية الآداب في قاعة الأدريسي، 1987م، بغداد.
53- هكذا يدافع أهل بغداد عن مدينتهم، مجلة دراسات للأجيال، 1986م.

بعض الأطروحات التي أشرف أو شارك في الإشراف عليها الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي

- النظر في المظالم في الخلافة الإسلامية حتى نهاية القرن الثالث الهجري (ماجستير)، عطا سلمان، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1985م.
- الحركة الإباضية في المشرق العربي (نشأتها وتطورها) (ماجستير)، مهدي طالب هاشم، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1977م.
- بنو المغربي ودورهم السياسي والإداري خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، محمد عبدالكريم إبراهيم، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1977م.
- الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح، 132- 136هـ، نعمت محمد علي جواد، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م.
- الخدمات العامة في بغداد، 400 - 656هـ، عبد الحسين الرحيم، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1981م، (رسالة دكتوراه).
- السياسة الداخلية في عهد الخليفة العباسي المأمون، 198- 218هـ، نعيم ونيان الغراوي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1993م.
- الموفق طلحة سيرته ودوره في السياسة العباسية، قاسم حسن السامرائي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1987م.
- موقف الخلافة العباسية من النفوذ الفارسي في العصر العباسي، عاصم إسماعيل كنعان، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1989م.
- واسط في العصر العباسي- دراسة في تنظيماتها الإدارية والاجتماعية والفكرية، عبد القادر المعاضيدي، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1980م (رسالة دكتوراه). (1)
- الإمام جابر بن زيد الأزدي الأباضي، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 1997م.
- العلاقة بين فقهاء العراق والسلطة العباسية حتى 198هـ، للطالب سعد خلف الحنيطي، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 1998م.
- الحياة الثقافية في مدينة الري في العصر السلجوقي، للطالب سيد رضا مرتضاي، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 1999م.

- الجهاد في الدولة العربية الإسلامية، للطالب عطا سلمان، قسم التاريخ، جامعة بغداد، (دكتوراه)، 1988م.
- الحركة الخرميّة، قسم التاريخ، جامعة بغداد، (دكتوراه)، 1991م.
- الصراع السياسي والفكري في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، 232-247هـ، للطالب موسى مصطفى المثاني، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 2000م.
- الزندقة في المشرق الإسلامي نشؤوها وتطورها حتى مطلع القرن الرابع الهجري، للطالب زهير محمد الحراحشة، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 2000م.
- آل الجراح ودورهم في سياسة الدولة العباسية 247-328هـ، للطالب عماد عبد الكريم خلوف، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 2000م.
- بنو هاشم ودورهم في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العهد الأموي، للطالبة صباح عيسى مطلق، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، 2000م.
- الأحاديث الواردة في الملحمة الكبرى - تخريج ودراسة، للطالب وائل إبراهيم العمود (مشرف مشارك)، قسم الفقه، جامعة آل البيت، 1999م.
- الأحاديث الواردة في فضائل قريش، للطالب محمد حسني القواقنة (مشرف مشارك)، قسم الفقه، جامعة آل البيت، 1999م.
- الحنفاء - دراسة عقائدية، للطالب ناصر حمد سيف الأشخري (مشرف مشارك)، قسم العقيدة، جامعة آل البيت، 1998م.
- الأحاديث الواردة في الخوارج- دراسة وتخريج، للطالب ناصر بن سليمان (مشرف مشارك)، قسم الفقه، جامعة آل البيت، 1998م.
- رواية الحديث عند الإباضية، للطالب صالح بن أحمد البوسعيدي (مشرف مشارك)، قسم الفقه، جامعة آل البيت، 1998م.

بعض الأطروحات التي شارك د. فاروق عمر فوزي في مناقشتها:

- الموارد والنفقات المالية في خلافة الفرع السفياني 41هـ/64هـ، للطالبة سهاد أحمد ياسين، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1998م.
- خلافة مروان بن الحكم 64-65هـ، للطالب صبحي محمود العزام، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1996م.
- الملابس عند العرب في شمالي ووسط الجزيرة العربية، للطالب محمود أحمد عدوي، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1998م.
- الأحاديث الواردة في فضائل آل البيت، دراسة وتخرج، للطالب خالد بني محمد طقاطقة، قسم الدراسات الفقهية، جامعة آل البيت، 1997م.
- الحياة الاجتماعية في بغداد 575-656هـ، للطالب محمد عبد الله القدحات، قسم التاريخ، جامعة مؤتة، 1996م.
- مرويات الصحابي حذيفة بن اليمان (ت36هـ656م) في الفتن وأشراط الساعة، للطالب نايل عطا الله الدعسان، قسم الحديث النبوي وعلومه، جامعة آل البيت، 1997م.
- الفلاحة في الفكر العربي الإسلامي في المشرق العربي حتى القرن العاشر الهجري، للطالب زيد صالح أبو الحاج، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1998م (رسالة دكتوراه).
- خلافة سليمان بن عبد الملك 96-99هـ، للطالب علي إبراهيم عبابنة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك، 1996م.
- الضرائب في المغرب الإسلامي في العصر الأموي (رسالة دكتوراه)، للطالبة نهى محمد حسين مكاحلة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1999م.
- البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسي، دراسة تاريخية، للطالب رياض حمودة حاج ياسين، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1998م.
- معاوية بن أبي سفيان في تاريخ ابن عساكر، (رسالة دكتوراه)، للطالب سليمان الصرايرة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1998م.
- عمر بن شبه ودوره في الكتابة التاريخية، للطالب يوسف سليمان الطراونة، قسم التاريخ، جامعة مؤتة، 1995م.

- الحياة الاقتصادية في الحجاز خلال فترة الرسالة، للطالب أحمد عز الدين الخطيب التميمي، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية، 1997م.
- سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام النقيب، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1998م.
- الصلات بين العلويين والعباسيين في عهدي الهادي والمأمون العباسي، مزاحمة عبد الواحد الحمامي، قسم التاريخ، كلية الآداب، بغداد، 1974م.
- ولاية العهد في العصر العباسي الأول 132-247هـ، عربية قاسم الداود، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1993م.
- الجزيرة الفراتية والموصل، دراسة في التاريخ السياسي 127-218هـ، محمد جاسم المشهداني، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1975م.
- الحركة الفكرية العربية في بخارى في القرنين 3-4هـ، طارق فتحي سلطان، قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1985م.

مراجع عن سيرة فاروق عمر فوزي:

- كوركيس عواد، معجم المؤلفين والكتّاب العراقيين، بغداد، العراق.
- مجلة التضامن 168 تموز، 1986م، بيروت، لبنان.
- مجلة الحوادث 1657 آب، 1988م، بيروت، لبنان.
- مجلة ألف باء 1034 تموز، 1988م، بغداد، العراق.
- مجلة المؤرخ العربي 32، 1987م، بغداد، العراق (اتحاد المؤرخين العرب).
- جريدة الثورة، 15/3/1988م من أنا؟، بغداد، العراق.

جريدة الثورة 1985/3/25م، بغداد، العراق.

- جريدة الثورة 1988/3/15م، بغداد، العراق.
- جريدة القادسية 1987/8/16م، بغداد، العراق (ذاكرة جيل).
- جريدة العراق، 23/3/1986م، بغداد، العراق.

-The International who's who of Intellectuals, International Biographical cent. , Cambridge, England, August, 1978.

-Diction aryl of International Biography, xiv, 1977.

-Who's who, 1978. 35, Bedford Row, London, W.C.I.

-International Book of Honor, A.B.I., American Biographical Institute, Inc.

-Who's who in the Arab world, 1986, 1987, R.R. Bowker, Borough Green, Seven Oaks, Kent, TNIS, 8 ph, England.

-First Presential edition of Biography of the year, 1986, Historical Presentation of America, 512, Bur oak circle, Raleigh, North Carolina 27622, U.S.A.

-Middle East Medieval ist, (Scholar Profile), oct, 1995, U.S.A.